

د. جمال حمدان

استراتيجية الاستعمار والتحرير

دار الشروق

استراتيجية الاستثمار والتحرير

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

بيروت : ص ٨٠٦٤ - مؤلف : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - يريخا، قاسم شروق - تليكن، SHOROK 20175 LE
المتاهة، ١٦١ شائع جواد حسني - مؤلف : ٧٧٤٨١٤ - يريخا، شروق - تليكن، SHROK UN 93091

الفهرس

الصفحة

٧ مقدمة
الباب الأول - من العصور القديمة إلى الحديثة	
١٣ الفصل الأول - في العصور القديمة ..
٢٤ الفصل الثاني - العصور الوسطى .
٤٩ الفصل الثالث - عصر الكشوف الجغرافية ..
٦٤ الفصل الرابع - الاستعمار البحري ...
٨٤ الفصل الخامس - القوى البرية والاستعمار ...
الباب الثاني - قرن الاستعمار	
١٠٣ الفصل السادس - الانقلاب الصناعي والاستعمار.
١٢١ الفصل السابع - نماذج من الاستعمار الممدارى
١٤٢ الفصل الثامن - صراع القوى في العصر الصناعي ..
١٦٧ الفصل التاسع - امتداد صراع القوى ..
١٩٢ الفصل العاشر - النظرية العامة في الاستراتيجية العالمية ...
الباب الثالث - عالمنا المعاصر	
٢١٨ الفصل الحادى عشر- ثورة التحرير .
٢٥٢ الفصل الثانى عشر- الانقلاب النووى...
٢٩٨ الفصل الثالث عشر- من الحرب الباردة إلى الوفاق.
٣٣٢ الفصل الرابع عشر- استراتيجية عدم الانحياز ...
٣٧٤ الفصل الخامس عشر- ما بعد الوفاق وعدم الانحياز

مقدمة

الصراع الذى يعيشه عالم اليوم ، هذا الذى يتمزق بين كتل العقائديات المتناقضة ، وقوى التحرير الفوارة ، ورواجع الماضى المتربصة ، ما نمطه الإقليمى - إن كان ثمة نمط - وما أصوله التاريخية ؟ وهذه التطورات العميقة التى يشهدها توزيع القوى والأوزان السياسية بين الدول والكتل والقارات ، وهذه الانقلابات الكاملة فى الاستراتيجية الكوكبية فى ظل العصر النووى ، هل هى تحولات أو تحويرات للماضى بدرجة ما ، أم هى طفرات بكر تماما فى تاريخ البشرية ؟ إلى أين يتجه نمط توزيع القوى السياسية والاستراتيجية فى مستقبل سيخلو من الإمبراطورية واحتكار القوة والعلم وقد تنتشر فيه الأسلحة النووية انتشار الحضارة والتكنولوجيا الحديثة ذاتها ؟ وما احتمالات المستقبل بالنسبة لسياسة وليدة كعدم الانحياز ، ولقوة جديدة كالعالم الثالث ؟

قد لا يكون من الصعب أن نرى نمط القوة العالمية المعاصر يتنضد - قاعديا - فى هيكل ثلاثى يبدأ من كتلة قديمة غربية رأسمالية استعمارية ، يمر بكتلة أحدث شرقية اشتراكية تقدمية ، حتى ينتهى بقوة - وليس بكتلة - أشد حداثة وأميل إلى الاشتراكية بقدر أو بآخر ، ولكنها تمتاز أساسا بأنها متخلفة اقتصاديا ، حديثة الاستقلال والتحرر سياسيا . ولكن ألم تكن الصورة تقتصر ، حتى الحرب العالمية الثانية فقط ، على قطبي القوتين الأوليين وحدهما ؟ بل أليست قوة المعسكر الشرق ذاتها ، بالقياس إلى القوة الغربية المخضمة ، طارئا حديثا نسبيا لا يتعدى الحرب العالمية الأولى بصرامة ؟

النمط إذن حديث ، أو هكذا يبدو على السطح ، وهو على كل حال متطور سريع التغير . ولكن - تحت الجلد - هل هو منفصل حقا عما سبقه من تاريخ ؟ إن الذى يستقرئ مراحل التاريخ السياسى والاستراتيجى المتعاقبة يحبه - وهو جدير أيضا بأن يروعه - دائما أو غالبا نمط ثلاثى متواتر لصراع القوى قد يختلف عن النمط المعاصر فى التفاصيل والظلال

والأبعاد : ولكن لعله لا يختلف عنه كثيرا في أساسياته وجوهره . وإذا كان لنا أن نستبق نتائج مثل هذه الدراسة ، فحسبنا أن نشر هنا إلى نظرية مفكر جغرافي كبير مثل ماكيندر ، فقد اختزل تاريخ الصراع الاستراتيجي في العالم في أنه في جوهره صراع بين قوة البروقوة البحريرك بينهما قوة بينية برمائية في المتزلة بين المتزلتين - ثلاثية استراتيجية أخرى تستبق ثلاثية اليوم وإن لم تكررهما تماما بالطبع !

ومثل هذا عن الاستعمار يقال . فالاستعمار - هذا الذي يبدو بعامة حديث العهد ويرتبط لأمر ما في الكتابات الدارجة بالقرن التاسع عشر بوجه خاص - هو الآخر ظاهرة قديمة لها أصول تاريخية بعيدة بدرجة أو بأخرى . فالاستعمار الحديث الذي يحتضر اليوم إنما استوى على سوقه في القرن التاسع عشر فقط ، أما جذوره فتضرب في أعماق عصر الكشف الجغرافية منذ القرن السادس عشر وما بعده ، بل لعلك واجد بذوره الأولى قبل ذلك جميعا . وأنت لن تستطيع أن تفهم نمو الاستعمار العالمي ولا تطور صراع القوى الدولية إذا قصرت بؤرتك على المنظور المعاصر . أكثر مما يمكنك أن ترى ناطحة سحب إذا نظرت إليها من سطحها .

والذي نود أن نؤكد بهذا هو أهمية البعد التاريخي مدخلا إلى أية دراسة علمية جادة وعميقة لواقعنا السياسي والاستراتيجي المعاصر . وبغير هذا تبدو الحقائق مقتلعة ، والتعميمات - ربما - مبتسرة مفتعلة ، وتخرج الصورة كلها ولها مسطح ولكن ليس لها عمق . ولهذا فنحن بحاجة حقيقية وملحة إلى دراسة كاملة متكاملة ، أصولية منظمة ، لتاريخ الاستعمار في العالم من ناحية ، ولتاريخ الصراع الاستراتيجي من ناحية أخرى . وبغير هذا فلن نخرج بقوانين علمية أو أشباه قوانين ، ولن نختزل التاريخ في معادلات إقليمية موجزة مركزة ذات مغزى مثلما هي خفيفة الحمل في الذهن .

والحقيقة أن التاريخ هو معمل الجغرافي كما قيل ، وهو كذلك مخزن الاستراتيجي الذي لا ينضب ، وكل منهما يستمد منه خامته ويجرى عليها تجاربه . وبالنسبة للجغرافي بالذات ، فإن التاريخ إذا كرر نفسه - وهو قد يفعل - فهذا التكرار هو الجغرافيا : أعنى أن الجغرافيا بهذا هي الجذر الجبري للتاريخ ، وعملية استقطاب له وتركيز . أكثر من هذا ، ليس التاريخ كما عبر البعض إلا جغرافية متحركة ، بينما أن الجغرافيا تاريخ توقف ، وهما معا أشبه شئ بقرص الطيف : إذا سكن على عجلته تعددت ألوانه ، فإن هو دار وتحرك استحال لونا جديدا واحدا .

وعلى هذا الأساس يقوم البحث الحالى . فهو دراسة فى الجغرافيا السياسية بجانبها التاريخى والمعاصر ، تحاول أن تتبع مورفولوجية التاريخ داخل إطار أو أطر واضحة التحديد من مورفولوجية الجغرافيا ، وتسعى إلى أن تصب حركة التاريخ وتقلتها فى خطوط اقليمية غير باهتة أو متميعة على الأقل . وعلى ذلك فالدراسة تتبع أولا حركات بناء الإمبراطوريات والتوسع الاستعمارى عبر العصور ، عصرا بعد عصر ، مجللين دوافعها ومحركاتها ، أنماطها الجغرافية وصراعات القوى فيها أو من حولها . نقاط قوتها أو ضعفها الاستراتيجى ، كما نحاول أن نستشف ونستنتج منها دروسها الجيوستراتيجية الأكثر خلودا وبقاء .

كل أولئك دون أن نفرض على الحقيقة التاريخية الموضوعية الغفل ذاتها « نظرية عاملة » بعينها أو قانونا مبتسرا أو شبه قانون . إلى أن نصل إلى الفترة المعاصرة ، فبعدها يكون قد تجمعت لدينا من ناحية كل روافد التاريخ وتياراته ، وتراكمت دروسه ، وتواتر تكراره ، بحيث يتجسد منطقه تلقائيا ويمكننا أن نضع أيدينا على نبضه . ومن ناحية أخرى نكون فى حل علميا من أن نحاول إخضاع هذا الركam الضخم من الحقيقة التاريخية لنظرية أو أخرى تستقطبها أو تختزلها لتكون تلخيصا أو تقينا للتاريخ أولا ومفتاحا للتنبؤ بالمستقبل ثانيا .

وفى هذه الدراسة ينبغى لنا أن ننبه إلى تداخل بعدين أو عنصرين ، لا انفصام لهما فى الواقع ، وهما الاستعمار كحركة توسع وتسلط ، وصراع القوى الاستراتيجية كعملية بقاء أو تضخم . وليس كل صراع بين القوى هو من أجل الاستعمار ، ولكن كل استعمار هو صراع من أجل القوة . بيد أنه يبقى فى النهاية أن كلا منها يؤثر فى الآخر ويتأثر به ، إن لم يكونا فى الحقيقة جانبيين لنفس الشيء .

ولقد يمكن أن نكتفى فى تتبع أصول الاستعمار الحديث بالبداية بعصر الكشف الجغرافية ، ولكن لكى نفهم استراتيجية القوى العالمية لابد أن نؤغل إلى أبعد أعماق التاريخ ، لأنه بالدور التاريخى الكامل وحده تبرز الشخصية الاستراتيجية الكامنة لأى اقليم . وهكذا تعود الدراسة الأصولية التاريخية الكاملة فتؤكد أهميتها وضرورتها ، وصولا إلى كليات ودخائل الموقف السياسى المعاصر . وإنها لرحلة طويلة شاقة بالتأكيد ، ولكنها شيقة طموح بنفس الدرجة ، وأكثر منها واعدة ومجزية إلى أقصى حد .

البَابُ الْأَوَّلُ

من العصور القديمة إلى العصور الحديثة

الفصل الأول

فى العصور القديمة

قد نعد الاستعمار قديما قدم الإنسان . فمن الممكن أن ننظر إلى التاريخ القديم على أنه فصول متلاحقة أو متداخلة من الهجرات والغزوات . ولكن مثل هذه كانت أقرب إلى التحركات غير الهادفة ، بل البدائية أو « الغريزية » ، منها إلى الحركات المقتنة المخططة الواعية^(١) . فقد كانت البشرية لا تزال فى حالة هلامية رجراجة ، أو هى كانت غلافا زئبقيا بعيدا عن الاستقرار والتوطن والارتباط الوثيق المحدد بأرض محددة . ونحن أقرب الى الصواب إذا اعتبرناها أدخل فى عداد ما يسميه والتر باجهوت بفترة تكوين الأجناس race-making period منها فى فترة تكوين الأمم nation-making ، ومن ثم أقرب إلى الأنثروبولوجيا منها إلى السياسة .

ومع تطور المجتمع والحضارة وزيادة الارتباط الإيكولوجى عضويا ومجتمعيا بين الجماعات والأقاليم ، ومع اطراد نمو الدولة كشكل سياسى ، تأخذ الحركات البشرية بالتدرج اتجاهها أوضح نحو الاستعمار ، الاستعمار بمعنى سيطرة منظمة لجماعة على جماعة أخرى . ويمكننا عبر تلسكوب التاريخ أن نرى العالم القديم فى فجره المكتوب يتألف من سلاسل مرصعة كالموزايكو من الصراعات المحلية الصغيرة أو الضيقة فى مداها وحدودها الجغرافية ، وأغلبها أو أخطرها لا يخرج عن معادلة بعينها محددة هى « الصراع بين الرعاة والزراع » .

من معادلات الصراع

وعادة ما تتشكل هذه المعادلة بشكل بيئتها الجغرافية فتأخذ لونا محليا خاصا . فهو إما الصراع بين « الرمل والطين » ، وإما بين « الاستبس والغابة » ، أو بين « الجبل

G.H.T. Kimble, World's open spaces, Lond., 1947, p. 9-10.

(١)

والسهل » . وقد تتداخل هذه الصراعات كلها أو بعضها في حالات أو تتعاقب في حالات أخرى . وكلها في النهاية صراع بين قوى بر وبر ، بين فلاحين ورعاة - بمعنى آخر صراع أشباه أكثر منه صراع أضداد .

فأما معادلة الرمل والطين فهي تلخص عند برستد تاريخ الشرق القديم ، حيث نجد هجرات الرعاة وغزواتهم - ابتداء من الآراميين إلى الكنعانيين والفلسطينيين والعبرانيين والفينيقيين .. الخ - تتواتر خارجة من قلب الجزيرة العربية خاصة إلى كل المناطق الزراعية المجاورة في الهلال الخصيب ووادي النيل ، ومثلها إلى حد كبير هجمات المور من الصحراء الكبرى الغربية على إقليم المغرب .

أما معادلة الصراع بين السهل والجبل فهي بحكم طبيعتها محمية أساسا ، ولذا تنتشر في تضاعيف العالم القديم كدوامات موضعية . وهي تختلف عن أنماط الصراع الأخرى في أنها رأسية لا أفقية ، كما أنها أكثرها قارية بطبيعتها . فنرى رعاة الجبال المحاربين يهبطون على السهول وينقضون عليها من حالق كالهيار الجليدي غزاة أو مخربين : من جبال أرمينيا وكردستان إلى سهول الرافدين التي هبط عليها من قبل الكاسيون Kassites في الشمال والهيلاميون في الجنوب ، ومن بعد الأشوريون الذين سيطروا عليها جميعا . كذلك من مرتفعات الأناضول توالى هجوم ونزول الميتاني والميديين والحيثيين على الهلال الخصيب شرقا وغربا^(١) . وفي أوروبا من قلاع البلقان إلى أحواضها ، ومن كتلة الألب إلى سهول البو ولومبارديا .

أما الصراع بين الاستبس والغابة ، فلعله أبعد أنماط الصراع القديم مدى وتراميا ، ولو أنه لم يكن استعمارا بقدر ما كان تخريبا ، ولم ينشئ دولا أو إمبراطوريات مثلما حطم دولا وإمبراطوريات . فنجد فجر التاريخ والاستبس الأسوي العظيم يمثل ضد إعصار بشري بلفظ بالموجات البشرية المتتابعة لتظهر كالطفح على طول القوس الهائل من الأراضي الزراعية الغنية التي تحف به شرقا وجنوبا وغربا .

وتحت تأثير طرد البيئة الرعوية الفقيرة وما قد يعتريها من نوبات من الجفاف ، مع إغراء المناطق الغنية الرخية ، كانت جحافل الرعاة تخرج كالطوفان لتنتشر كالمروحة . ومع الانتخاب الطبيعي القاسي الذي تفرضه البيئة وقسوة النمط البشري الناتج ، وبفضل حركة

James Fairgrieve, Geography & world power, Lond., 1941, p. 38 et seq.

(١)

الخليل الكاسحة ، كانت هذه الموجات تزحف آلاف الأميال لتهوى عاتية كالمطرقة على مناطق الاستقرار المحيطة .

ورغم قلة عدد سكان الاستبس كثيرا بالنسبة لسكان النطاقات الزراعية ، فقد كان لرعاة الاستبس دائما التفوق العددي في النقطة المحددة التي يختارونها لضرباتهم تلك . فإذا أضفنا إلى هذا مرونة حركة الخيالة ، سواء بالحصان أو بالعربة وهي اختراع استبسي أصلا ، والتي تتمثل في « الكروالفر » كتكتيك استبسي أصيل به يحدد وحده مكان وزمان المعركة ، أدركنا ميزة الاستبس على المزرع استراتيجيا^(١) . ومن هذا جميعا نفهم كيف أمكن « لتراب الرعاة » المخلخل هذا - كما يسميه برون^(٢) - أن يسيطر ويتغلب على « الارسابات البشرية » الكثيفة المستقرة في تضاعيف الغابة أو أودية الأنهار .

ولكن نقطة ضعف الاستبس الأصلية والتي تصم دوره التاريخي بالعقم والسلبية في النهاية هي أنه - بحكم حركته وسيولته تلك بالذات - عجز عن أن يقيم إمبراطوريات دائمة أو أن يستقر في دول ثابتة راسخة . فقد كانت موجاته تأتي كالزوبعة ، وكالدوامة تختفي . فإما أن تعود وترتد بعد السلب والنهب ، وإما أن تتلاشى وتذوى في دويلات حاجزة على حدود المزرع ولحسابه - بوليس إمبراطوري أو حرس حدود بمعنى آخر . ولهذا فإن مكان الاستبس في الاستعمار أقرب شيء إلى الاستعمار السلبي ، ودوره التاريخي أشبه بالنيازك والشهب بين النجوم : ضعيف وبريق رهيب سناه ، لا يلبث أن يستهلك نفسه ويحترق بنفسه .

موجات الاستبس

فإذا ما تتبعنا موجات الاستبس في التاريخ القديم^(٣) وجدناها تتجه إلى الصين أكثر منها إلى الهند ، أولا لأن على باب الصين تقع منشوريا وهي محيط استبسي ومحطة احتشاد وانطلاق للاستبسين ، وثانيا لأن الصين لا تملك حائط الهملايا ، ذلك « السور الطبيعي العظيم » الذي حمى الهند بقدر الامكان من ضغوط الاستبس . أما الصين بأنهارها وسهولها فكانت مفتوحة لهذا التيفون - (والكلمة مأخوذة عن الطوفان العربية)^(٤) -

(١) Owen Lattimore, Inner Asian frontiers, in New compass of the world, N.Y., 1949, p. 269.

(٢) Jean Brunhes, La Géographie humaine, Paris, 1925, t.II, p. 802.

(٣) Edmond Demolins, Comment la route crée le type social, Paris, t.I.

(٤) Thomas Quayle, "Geography & language", Geog. teacher, 1917-8, p. 81.

البشرى ، فكان عليها أن تبني سورها الصناعى العظيم فى وجههم - دون جدوى .
ويسجل التاريخ موجتين هامتين فى تلك الفترة ، غزوة كبرى فى القرن الثالث ق . م كان
من جرائها مباشرة بناء ذلك السور ، ثم موجة أخرى فى القرن الثانى الميلادى .

غربا

أما غربا ، فقد اتخذ الاستبس طريقين ووجهتين ، أولا طريق الاستبس المرتفع على
طول هضاب ومرتفعات وسط وجنوب غرب آسيا ابتداء من منغوليا حتى إيران . والوجهة
هى الشرق الأوسط الخصيب . فهؤلاء هم الذين أسقطوا آشور ، ومنهم جاء الهكسوس
إلى مصر . ولعل موجة الهكسوس هى الموجة الوحيدة فى التاريخ القديم التى استطاعت أن
تضرب من قلب الاستبس بعيدا إلى حد الوصول إلى مصر . ولكن الهكسوس لم يخضعوا
مصر جميعا بل شالها فقط ، ولم يلبثوا فيه طويلا عند ذلك .

أما الطريق الثانية فهى الاستبس المنخفض على طول السهول العظمى فى قلب آسيا
وشرق أوروبا ابتداء من طوران حتى البحر . وكان هذا فى الحقيقة أخطر طريق طرقه
الاستبسيون وارتبطوا به وارتبط بهم . ولهم معه ميكانيكية خاصة فريدة فى بابها وخطيرة فى
نتائجها . فكمر سهلى قارى متصل Durchgangsland تتجاوب أجزاؤه كما لوبقانون الأوانى
المستطرفة ، كانت كل حركة تبدأ من القلب - قلب الاستبس فى آسيا - تدفع بالجماعات
الرعية الواقعة غربها ، فتدفع هذه بما بعدها غربا ، وهكذا حتى تدفع الأخيرة الزراع فى
شرق أوروبا ووسطها (١) .

وبهذا التأثير والدفع غير المباشر لعب الاستبس الأسوى دورا خطيرا فى تشكيل تاريخ
وتكوين أوروبا ، حتى أصبح تاريخها منذ ذلك الحين لا يفهم إلا كجزء فى الحقيقة من
تاريخ أوراسيا ككل (٢) . ولما كان الجيران المباشرين للإمبراطورية الرومانية هم برابرة
التيوتون والجرمان الذين جمعوا بين الرعى والزراعة ، فكثيرا ما كانت حركات البرابرة
الآسيويين تنتهى بتحريك البرابرة الأوربيين ليعبروا على الإمبراطورية .

فى أوائل العصر المسيحى ، وخاصة فى القرنين الثالث والرابع ، اشتدت غارات
القبائل الجرمانية من الألمانى Allemanni والقوط والوندال والفرانك « الفرنجة » ، على

(١) جمال حمدان ، أنماط من الليثات ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٧٩ .

(٢) Halford J. Mackinder, The geog. pivot of history. Lond., 1951, p. 31.

الأرجح نتيجة لضغط برابرة آسيا عليهم من الخلف^(١) . وأدى تغلغل هذه الغزوات في جسم الإمبراطورية إلى تكوين إمارات داخلها حتى انتهت بانهيار الإمبراطورية . وفي القرن الخامس وصل الأسويون بأنفسهم إلى حدود الإمبراطورية في شكل الألان Alans والهون تحت قيادة أتिला الهون المشهور .

وقد كانت موجة الهون من أعنى ما تعرضت له روما وأكثرها تخريرا وتدميرا . وقد اتخذوا من استبس البحر - حوض ألفولد Alföld الكبير أو البوشتا Puszt - نقطة ارتكاز للهجوم على الإمبراطورية التي كانت بالنسبة للبوشتا في موقع كموقع الصين بالنسبة لاستبس منشوريا . فاندفع أتिला من البوشتا غربا حتى فرنسا ، لكنه صد أخيرا عند شالون . وقد يكون في هذه الهزيمة مغزى هام ، لأن معناها أن رعاة الاستبس لم يفشلوا إلا حين خرجوا عن نطاق بيئتهم الطبيعية^(٢) .

ومع ذلك فقد كان أثر الهون في تشكيل أوروبا بعيد المدى . فربما كنتيجة لضغوطهم قفز الأنجلز والسكسون من غرب القارة إلى الجزر البريطانية ليؤسسوا إنجلترا ، بمثل ما هرب سكان أكويليا وبادوا في إيطاليا بعد تخریبها المباشر إلى الجزر الساحلية المواجهة ليؤسسوا البندقية . وعدا هذا ، ففكر د فعل للخطر الهوني تحالف الفرانك والقوط والرومان لأول مرة في شالون ونما بينهم وعى قومي جنيني ، وبهذا كان الهون في الحقيقة يصنعون فرنسا الجديدة بوحدتها وقوميتها^(٣) .

على أن الهون ككل سرعان ما تفتتوا بعد وفاة أتिला نفسه وتجاربوا وارتدوا شرقا إلى مصدرهم الأصلي ، ولو أن قلة منهم استقرت نسبيا في الزراعة وحاولت الإمبراطورية تثبيتهم بكل الوسائل كمنعهم من العودة أو إغرائهم بإمارات وولايات حدية خاضعة لها . على أن خطر الهون لم يرتفع إلا ليتلوه خطر الأفار Avars في القرن السادس ، وكان لا يقل عن سابقه في التخريب والتدمير . وقد اتخذوا من سهل البحر الاستبسي مركزا لحكمهم عدة قرون . وكنتيجة مباشرة لضغط الأفار ، طردت قبائل اللونجوبارد Longobards المتبربرة وقذف بهم من تخوم الإمبراطورية حتى استقرت في سهل لمبارديا - ومن هنا

Fairgrieve, p. 106-8.

(١)

Demolins, loc. cit.

(٢)

Mackinder, op. cit., p. 31, 35.

(٣)

الاسم . وبالمثل يعود إنشاء شارلمان لمملكة النمسا إلى خطر الأفار ، فقد أسسها لتكون دولة حاجزية وكموقع أمامي للدفاع عن الإمبراطورية^(١) .

أخيرا ، وفي مؤخرة الأفار ، أتى البولجار (البلغار) Bolgar من منطقة الفولجا - لاحظ وحدة اشتقاق الاسمين^(٢) - ليدوبوا في النهاية في وسط السكان الأصليين من السلاف في المنطقة التي تستمد اليوم اسمها منهم (بلغاريا) . وكانت هذه آخر ما أرسل الاستبس في صراعه مع الغابة قبل أن تبدأ العصور الوسطى .

بين البر والبحر

تلك قصة الصراعات التاريخية المختلفة في العالم القديم بين قوى بر وبر . ولكن على الماء ينبغي أن نصيف صيغة أخرى أصيلة هي « الصراع بين البر والبحر » ، بين الفلاحين والملاحين . وبينما تشتمل الصراعات السابقة من أجل « الموضع » أساسا أي من أجل الثروة المحلية الزراعية الغنية ، فإن صراع البر والبحريذ كيه الفوز بالموضع والموقع معا . فكثيرة هي جدا حركات الاستثمار القديم التي قامت بها جماعات بحرية من سكان الجزر والسواحل قاصدة جزرا وسواحل أخرى أو مناطق برية داخلية تماما .

ولقد كان البحر المتوسط هو المسرح الرئيسى لمثل هذه النشاطات التعميرية أو الاستعمارية . فكمشتل مبكر ممتاز للبيئات البحرية والفنون الملاحية : نجد موجات الاستثمار البحري تقطع البحر في كل اتجاه : من فينيقيا إلى قرطاجنه : من أثينا إلى أسيا الصغرى وإيطاليا ، ومن قرطاجنه إلى أيبيريا .. الخ . ومما ساعد لا شك على دفع هذه الحركات عوامل الطرد الطبيعية ، فثمة حلقة جبلية تطوق البحر في معظمه ولا تترك إلا عقدا متقطعا ودقيقا من السهول الساحلية لا تكفي سكانها ، فتلفظهم إلى البحر .

وسنرى بسهولة أن كل هذه الاستثمارات كانت تتم في وسط بيئي وجغرافي واحد هو حوض البحر المتوسط ببيئته الطبيعية المعروفة ، فلم تكن لذلك تستدعى تغييرا كبيرا في نمط الحياة أو تثير مشكلة التأقلم في وجه المستعمر النازح^(٣) . كما سنرى أن المحيط الجغرافي الذي تمور داخله هذه الحركات هو - كبحر داخلى mare internum - مجال محدود إقليميا

Ibid.

W. Gordon East, An historical geog. of europe, Lond., 1950, p. 217.

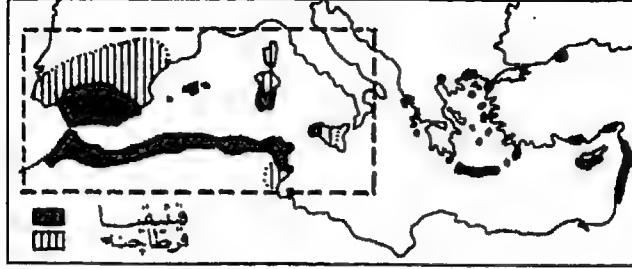
Kimble, p. 17.

(١)

(٢)

(٣)

ولا يزيد في أبعاده كثيرا عن أبعاد الصراعات البرية المحضة السابقة إن لم يقل . ولكن الحقيقة أن كل هذه الحركات هي أقرب في جوهرها إلى أن تكون صراعا بين قوى بحر وبحر أكثر منها إلى الصراع بين قوى البحر والبر بمعنى الكلمة . وحين نصل إلى هذا اللون الكامل من الصراع تأخذ الصورة أبعادا جغرافية جديدة تماما .



شكل (١) فجر الاستعمار البحري فينيقيا وقرطاجنة

وقد تطلعت قوة البحر أول ما تطلعت إلى التوسع الإقليمي في الأراضي المقابلة أو المجاورة أو المحيطة على اليابس . وبدأ بهذا خلق الإمبراطوريات البحرية المترامية الشهيرة في التاريخ thalassocracies والتي ستكون بمثابة نمط أولى بدائي prototype للإمبراطوريات الاستعمارية الأوربية في عصرنا الحديث .

أثينا وروما

فكانت اليونان أول مثل من هذا النوع حين توسعت عن دائرة العالم الإيجي لتشمل غرب آسيا الصغرى وأجزاء من إيطاليا Magna Graecia وأيبيريا وشمال أفريقيا وليبيا ومصر والشام والعراق . ورغم أن الاستعمار الاغريقي كان ساحليا في جوهره ، وحتى على السواحل كان يتألف غالبا من « جزر » تعميرية متقطعة - « كالمثل والضفادع حول بركة » كما عبر أفلاطون^(١) - فإنه بدأ ما أصبح يعرف فيما بعد بنظرية « وحدة البحر المتوسط » حيث جمع بين سواحله جميعا في ظل نظام سياسي إمبراطوري واحد^(٢) .

وبعد اليونان نجحت روما في خلق إمبراطورية ارتكزت على البحر ولكنها لم تلبث أن تغلغت في البر حتى أصبحت « الطرق الرومانية » أخطر أثرا في هيكل شبكة الإمبراطورية

Gordon East, p. 3.

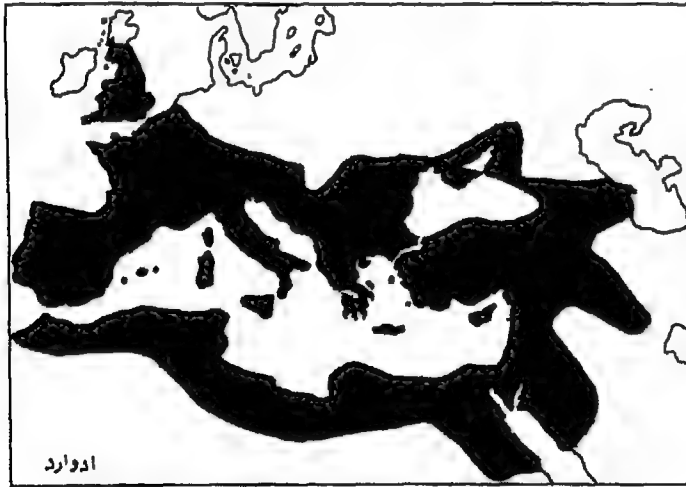
(١)

G.F. Hourani, Arab seafaring in the Indian ocean, Princeton, 1951, p. 170.

(٢)

من الخطوط البحرية ، والفيالق المشهورة legions أبعد مدى من الزوارق الرومانية المعروفة galleons . وقد ابتلعت روما الإمبراطورية الاغريقية كاملة في الشرق الأوسط والأدنى القديم . وتمددت بعدها لتشمل كل أوروبا جنوب الدانوب وغرب الراين ، بالإضافة إلى أنها قفزت المانش لتضم إنجلترا السهلية . وفي هذا المجال المترامي فرضت روما « السلام الروماني Pax Romana » بقوتها عدة قرون (١) .

وواضح أن هذه الأبعاد الإمبراطورية طفرة جديدة في سجل الاستعمار العسكري لم يسبق لها مثيل في التاريخ ، وصلت « بوحدة البحر المتوسط » إلى منتهاها وجعلت من ذلك البحر بحيرة رومانية - « بحرنا Mare Nostrum » كما كانوا يفاخرون - وبحرا مغلقا mare clausum أشبه بنواة للإمبراطورية ، هذا بينما ترامت حدودها إلى تخومها الشهيرة limes التي تتراوح بين النهر في وسط أوروبا ، والناية في غربها ، والجبل في إنجلترا ، والصحراء في إفريقيا - والتي تقف سدا حاميا ضد القبائل المتبربرة . ويلخص توينبي الإمبراطورية الرومانية في أنها المثال النموذجي لما يسميه - في حدود العالم المسيحي - « بالدولة العالمية universal state » (٢) .



شكل (٢) الامبراطورية الرومانية

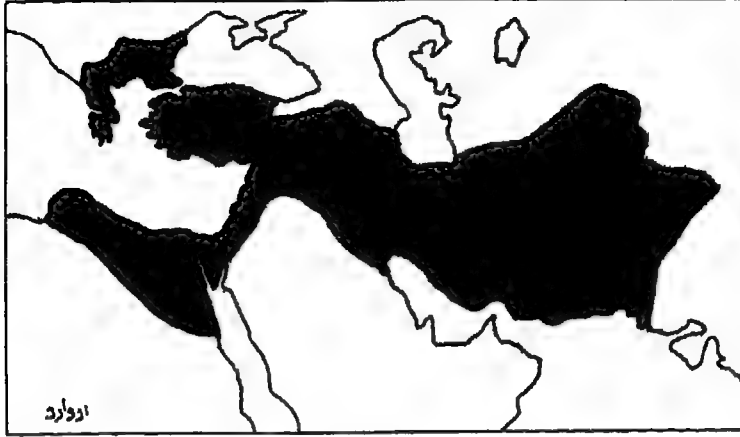
East, p. 3-4; Fairgrieve, p. 90-92.

(١)

C.B. Fawcett, Geography & empire, in: Geog. in the 20th century, Lond., 1951, p. 419.

(٢)

ويأخذ الصراع بين البر والبحر بعد ذلك أبعاداً أكبر ويتمدد إلى آفاق إقليمية مترامية حقاً حين يصل التوسع الإقليمي على اليابس بالقوى البحرية إلى الاحتكاك والتصادم بقوى برية ضخمة متعمقة القاعدة . فهنا تبدأ تلك المبارزة الاستراتيجية وذلك الصراع التاريخي المرير المطوط الذي سيصبح فيما بعد النغمة الرئيسية السائدة في صراع القوى الحديثة .



شكل (٣) امبراطورية الإسكندر

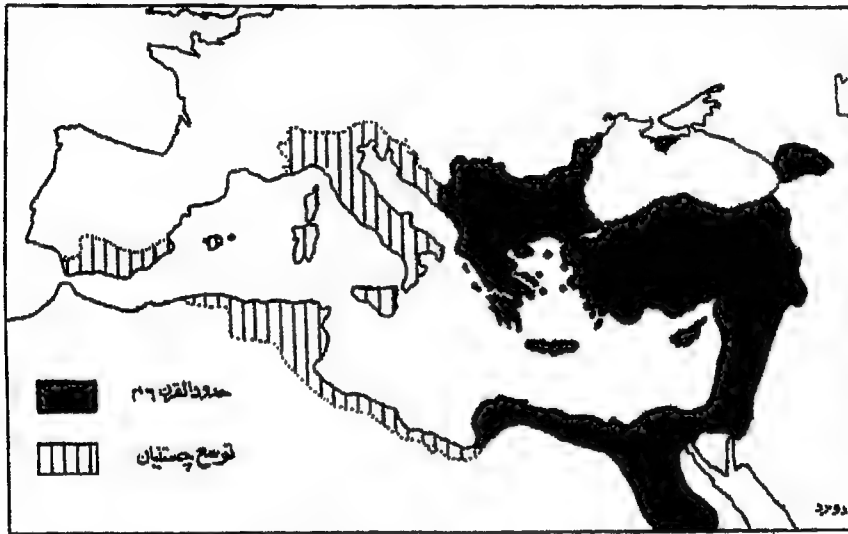
اليونان والفرس

وتبدأ هذه القصة بأثينا وپارس ، فقد كانت هاتان في العصور الكلاسيكية هما كل القوى الكبرى في المعمور القديم ، وظل الصراع بينهما سجالاتاً في حروب طرواده قرناً طويلة . وكما وصلت جيوش كزر كسيس Xerxes براحتي ثرموبيل الشهيرة بعد لفة كاسحة عبر النهرين وآسيا الصغرى ومقدونيا إلى أن هزمت بجراً في معركة سلاميس الحاسمة ، كانت اكتساحة الاسكندر الخاطفة التي سجلت قتها في معركة أربلا (أربيل) والتي وصلت إلى الهند شرقاً ، أول إمبراطورية من هذا المقياس شبه القاري في التاريخ . وإذا كان النصر من نصيب قوة البحر ، ففي كلتا الحالتين استولى كل من الطرفين على المنطقة البينية في الشرق الأوسط بالضرورة (١) .

W. B. Fisher, The Middle East, Lond., 1950, p. 127-133.

(١)

ثم تتكرر نفس المعادلة في الصراع بين روما وريثة أثينا والبارثيين ورثة فارس - وكلمة فارس تحريف لكلمة بارثيا (ومعنى كلمتي روما وفارس وحده يعكس مدى قوتها : Hroma = الجبارة ، Persae = المخربين) . وفي هذا الصراع تحاول كل من قوة البر والبحر الاستيلاء على المنطقة البينية في الشرق الأوسط ، إلا أنه نظرا لبعدها مراكزها المتطوح يقع شرقه لبارثيا (العراق) وغربه لروما (الشام ومصر) ، بينما ظلت صحراء العرب بينهما منطقة حاجزية . ومرة ثالثة حين انكشفت قوة البحر من الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) وورثت الدولة الساسانية قوة البر البارثية ، تحققت نفس المعادلة في أطرافها الأساسية وبنفس النتائج بالنسبة للمنطقة البينية (١) .



شكل (٤) الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) .

والنتيجة الهامة التي يمكن أن نخرج بها من هذه الصورة المتواترة في الصراع بين قوى البر والبحر هي أنها ، وقد تضخمت وتطاولت أذرعتها إلى أبعاد شبه قارية ، قد أصبحت حساسة بالنسبة للمواقع البينية التي تفصل بينها وواعية باستراتيجية الموقع . فقد شعرت قوى

(١) جبال حمدان ، دراسات في العالم العربي ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٤ .

البر الداخلية ، بحكم أنها شبه حبيسة في قاريتها ، بأنها مغلولة اليد في صراعها مع قوى البحر التي تمتاز بمرونة الحركة وسهولة الانطلاق على الماء ، ولابد لها في مواجهتها من السيطرة على المناطق الفاصلة التي تتأخمها من ناحية وتطل على البحر من الناحية الأخرى . وبالمثل وجدت القوى البحرية نفسها محتاجة إلى اجتياح هذه المناطق لتطويق القوى البرية والوصول إليها .

وبهذا وذلك أصبحت هذه المناطق البينية ، الأمفية بطبيعتها ، منطقة صراع وأرض معركة بين الطرفين القطبيين . أصبحت محصورة بين شقي الرحي تتنازعها هذه مرة وتلك أخرى ، واتضحت حساسية موقعها الاستراتيجي في هذا الإطار . ولا تمثل هذه الخاصية كما تمثل في منطقة الشرق الأوسط بحكم وقوعها بين فارس ووسط آسيا في جانب وروما في جانب آخر . وقد يبدو في هذا المنطق - مؤقتا - أن المنطقة بحكم الطبيعة وبأمر الجغرافيا ضحية موقعها الجغرافي الأوسط ، ولا أمل لها في السيادة ولا مفر لها من التبعية لقوى البر أو البحر . ولكن هل هكذا درس التاريخ اللاحق ؟

الفصل الثاني

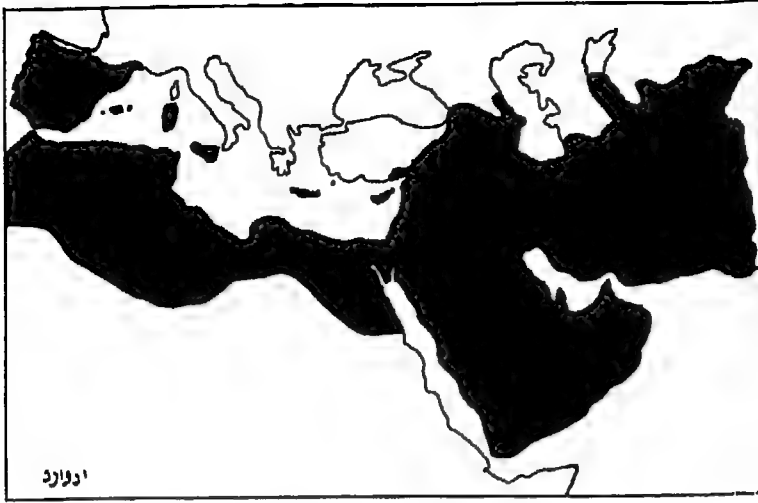
العصور الوسطى الدولة الإسلامية العربية

ونحن نتقدم خطوة أخرى نحو فهم استراتيجية الصراع التاريخي حين ننتقل إلى العصور الوسطى التي تفتتحها الموجة العربية الكاسحة بانقلاب جذري في تلك الاستراتيجية . فقد خرج عرب الاسلام من قلب الجزيرة ليينوا دولة لم تسبقها من قبل دولة في الامتداد والرقعة ولم تلحقها من بعد إلا إمبراطوريات العصر الحديث وحدها . بل هي في نظر ماكيندر الإمبراطورية العالمية world empire الأولى في التاريخ « تقلد الاسكندر وتستبق نابليون »^(١) .

أبعاد الإمبراطورية

فمن أطراف الصين الى أبواب فرنسا . ضمت دولة العرب والإسلام شمال الهند ووسط آسيا وكل هضبة إيران - سجستان وخراسان وفارس - إلى جانب العالم العربي بتحديدته الحديث ، مضافا إلى ذلك جميعا شبه الجزيرة الأيبيرية إلا قليلا أو المغرب الأوربي أو المغرب الثاني كما كان يسمى . بل لقد طغت هذه الموجة المدية على شطر كبير من شرق هضبة الأناضول - أرض الروم - حيث كانت التخوم الشهيرة (الثغور والعواصم) بين الخلافة وبيزنطة ، وكادت تنتزع القسطنطينية لولا أنها ارتدت في ٧١٨ ، كما أرسلت في الغرب السنة متقدمة إلى فرنسا وسويسرا ولو أنها ارتدت في النهاية في معركة تور ٧٣٢ . وفيما بين الهامشين انقلب ميزان القوى في البحر المتوسط رأسا على عقب ، فبعد أن كان الساحل الجنوبي الأفريقي - الأسيوى يخضع كلية للساحل الشمالي ، أصبحت السيطرة للساحل الجنوبي على نقط كثيرة من الساحل الشمالي ، كما في جنوب إيطاليا وبروفانس ،

(١) H.J. Mackinder, Democratic ideals & reality. Pelican books. 1944, p. 74; Geog. pivot, p. 39.



شكل (٥) الدولة العربية الإسلامية : قوة برمائية أخضعت قوى البر والبحر

وآلت كل جزر البحر ابتداء من « قبرس وإقريطش » حتى صقلية بل « الصقليتين » والبلبار إلى النفوذ العربي^(١) ، وهكذا لم تتحطم نظرية وحدة البحر المتوسط بمفهومها اللاتيني الاستعماري فحسب ، بل تحول البحر جميعا إلى بحيرة عربية شبه خالصة . ولو أن العرب سموه بحر العرب بدلا من بحر الروم لما تعسفوا الحقيقة التاريخية أو الجغرافية في شيء .

أما في الجنوب فقد انطلقت الموجة العربية لتتحلق حول المحيط الهندي بسواحله الأفريقية والهندية ، ساحل الزنج وساحل الملبار . ثم توغلت حتى الملايو وجزر الهند الشرقية حيث تغلغل النفوذ العربي الحضاري في الدرجة الأولى والسياسي في المحل الثاني . وبهذا تحول المحيط الهندي - هذا « النصف محيط » الذي يأخذ إلى حد كبير شكل جمل ذي سنامين قد برك مادا رقبتة ورأسه إلى بحار الهند الشرقية^(٢) - تحول إلى بحيرة عربية لا يشارك فيها مشارك .

والمحصلة النهائية لهذا إمبراطورية تترامى على القارات القديمة الثلاث وتطل أو تشرف على المحيطات الثلاثة الأطلسي والهندي والهادي أو على الأقل تتماس معها . وهي في نفس الوقت تتركز على محور قاطع يمتد من ملقا الملايو Malacca في الشرق إلى ملقا الأندلس

East, p. 186-9.

(١)

G.T. Renner, Global geog.

(٢)

Malaga (مالمقه) في الغرب - وكلا الاسمين عربي يستمد أصله بالفعل من أنه « ملقي » ... أو هو كان يمتد من جبل طارق الأطلسي إلى جبل طارق الهادي (سنغافوره) . كذلك كانت الإمبراطورية تتركز على قاطع آخر يبدأ - كما كان يقول مؤرخو الإسلام - من فرغانه وينتهي بغانه . هذا بالعرض ؛ أما طوليا فيصل هذا المجال في أقصاه من بحر الخزر (قزوين) إلى مدغشقر (واسمها تحريف بالصدفة لمقديشو)^(١) . وفي تضاعيف هذه الرقعة تستقر « بحيرتان » عربيتان هما المتوسط والهندي ؛ كما تتوسطها « أرض البحار الخمسة » : قزوين - الأسود - « الفارسي » - الأحمر - المتوسط . فلو قلنا إن هذا المحيط يحدد الجزء الأكبر من المعمور (الإكيومين) العالمي الذي يهم حينئذ لما تعدينا الحقيقة .

إمبراطورية تحريرية

ويجادل كثير من الكتاب الغربيين - في لجاج مفهوم - بأن هذه الدولة كانت « إمبراطورية استعمارية » ؛ لم تخرج عن أن تكون غزوا وإخضاعا وتبعية أجنبية^(٢) . والحقيقة أن الدولة العربية كانت « إمبراطورية تحريرية » بكل معنى الكلمة كما قد نقول ، فهي التي حررت كل هذه المناطق من ربة الاستعمار الروماني أو الفارسي المتداعي واضطهاده الوثني وابتزازه للمادى . وبعدها لم تعرف الدولة الجديدة عنصرية أو حاجزا لونييا بل كانت وحدة مفتوحة من الاختلاط والتزاوج الحر ، وما عرفت قط شعوبية أو حاجزا حضاريا حيث كانت وسطا حضاريا متجانسا مشاعا للجميع . لا ولم تخلق نواة متروبولية سائدة تتميز على سائر المقاطعات والأقاليم في شيء .

بل إن نواة جغرافية ما لم تحتكر السلطة السياسية قط . على العكس كانت السلطة « دولة بين الجميع » بلا استثناء إن صح التعبير . فقد هاجر مركز الحكم السياسي بانتظام ، فلم يلبث بعد قليل أن ترك « النواة النووية » في جزيرة العرب التي أصبحت في النهاية وهي جزيرة الإسلام بقدر ما أصبحت دار الإسلام دار العرب الكبرى Greater Arabia . فانتقل ذلك المركز إلى الشام الأموية ثم غادرها بدورها إلى العراق العباسي حتى تركه في وقت ما إلى مصر الفاطمية . وكان المغرب مركزا آخر للقوة ، ومثله كانت الأندلس .

Statesman's year book, 1961.

(١)

Nevill Barbour, A Survey of North West Africa (The Maghrib), Lond., 1959, P. 16.

(٢)

واضح إذن أن أخوة الدين كان يقابلها أخوة الأقاليم ، وسواسية الناس كانت تترجم سياسيا إلى سواسية الولايات والمقاطعات . والحقيقة أن الدولة العربية الإسلامية كانت شركة مساهمة بين كل أعضائها وأطرافها ، ولعلنا لا ندفع بالتشبيه إلى أبعد من حدوده السليمة إذا قلنا إنها كانت أول « كومونولث » في التاريخ بالمعنى الحديث ، مع هذا الفارق الهام جدا وهى أنها لم تمر بالمرحلة الاستعمارية المشينة التى مر بها كومونولث اليوم . والحقيقية - أخيرا - أن دولة العرب الإسلامية هى فصل - أول فصل - فى جغرافية التحرير ، وأبعد شئ عن جغرافية الاستعمار ، وعلى هذا الأساس ننظر إليها ونعالجها .

قواعد الإمبراطورية

كيف أمكن أن تقوم هذه الدولة « الماموث » التى - بالمقياس الجغرافى والاحصائى وحده - تسبق زمانها وعصرها بقرون ؟ أكانت حقا فلتة شيطانية أو نموا طفيليا كما يصور بعض أعدائها ؟ كيف اثبتت من « قلب ميت » فى صحراء الجزيرة ، وكيف جمعت بين أقاليم البر وأقاليم البحر ؟ لا شك أن مما يدعو إلى الحيرة والتساؤل حقا أن تستطيع قوى الصحراء الطاردة - قاعدة أرضية شبه خاوية وموارد طبيعية شحيحة وإنتاج اقتصادى متواضع وكثافة سكانية هزيلة شفافه - أن تقهر وتخضع قوى البر والبحر التقليدية العتيدة فارس شرقا وروما غربا ، وفى مدى زمنى يحسب بالسنين أكثر مما يحسب بالعقود . معادلة صعبة !

إن علينا ابتداء أن نسلم - موضوعيا - بأن هناك حوافز وقوى « ميتافيزيقية » ، لا تستمد من الواقع المادى بل تتخطاه ، تكمن خلف هذه الدينامية المتفجرة والحياة الدافقة . ولا شك أن جذوة الحماس الدينى المتقدمة هى التى ألهمت خيال « المؤمنين » ، حتى تحولت بهم إلى شعلة ملتهبة وتحولوا هم بها إلى مشعل مضىء . ولكن علينا بعد هذا أن نبحث عن أسباب صلبة مادية .

الحلقة السعيدة

ولعل « الحلقة السعيدة » التى تحف بقلب الجزيرة الميت هى البداية السعيدة . فحول مهد العرب دائرة متصلة أو شبه ذلك من الأراضي الزراعية الخصبة الغنية تجعلها « كخرقة بالية حواشيها من الذهب » : الهلال الخصيب فى الشمال بقطاعيه العراق والشام ، وهلال خصيب آخر أقل غنى نوعا فى الجنوب يجمع الحسا وعمان وحضرموت واليمن والحجاز ، ثم

يغلق الدائرة وادى النيل في مصر^(١) . فما أن يضع القلب الميت يده على هذه الحلقة المحدقة إلا وقد ضمن لنفسه قاعدة أرضية عريضة واحتياطيا عمرانيا مكثفا يكفل له كل عناصر القوة . فكان انتزاع الشام أولا من الرومان ثم العراق من الفرس ثم مصر الرومانية كفيلا بأن يمنح العرب عناصر القوة لمزيد من المواجهة مع تلك الإمبراطوريات .

وهنا يأتي دور الموقع . فلا شك أن موقع الجزيرة العربية المتوسط بين قارات اليابس وكتل المعمور وقوى البر والبحر كان منطلقا استراتيجيا خطيرا ، جعل من السهل على العرب أن تمد ذراعيها بسهولة يمينا ويسارا إلى أبعد مدى . والحقيقة التي ينبغي أن نعيها بعمق وإدراك في هذا الصدد أن كتلة الجزيرة العربية بموقعها وطبيعتها الجغرافية ليست قوة برفقظ كما يظن البعض في غير دقة ، ولا هي قوة بحر مطلقة بالتأكيد ، وإنما هي تجمع بين قوة البر والبحر ، قوة أمفيبية تضع قدما في الماء وقدماء على اليابس ، بمثل ما تقع بين قوى البحر في جنوب أوروبا غربا وقوى البر وسط آسيا شرقا .

حقا ، لا شك أن الدولة العربية بدأت قوة بر ، وتوسعت برها ، وتمثل في جوهرها كتلة أرضية متصلة لا يقطعها ماء إلا في جبل طارق ، بينما تأخرت سيطرتها على جزر البحر المتوسط نسبيا^(٢) . ولكن العرب لم يلبثوا بحكم موقعهم وتحدياته أن نزلوا إلى البحر المتوسط ولم يعودوا فيه «كدود على عود» ، بل رادوه حتى تسيده ، وكان ذلك بفضل وجود قطاعات بحرية ملائمة في الدولة تتمم القطاعات البرية المناسبة للتوسع البري .

فبفضل قطاعاتها البرية العريضة المتناظرة في مصر والعراق ، استطاعت أن تنطلق برا وتنشر جناحها الأرضي . فكانت أرض الرافدين الفسيحة الخصبة هي «رأس الحرية» في توسع العالم العربي في آسيا بحكم موقعها المتقدم شرقا . ولعل هذا الدور هو الذي يفسر استقطاب السلطة والحكم مبكرا وطويلا في بغداد العباسية ويفسر معها حضارة دار السلام الرائعة القيمة .

وبالمثل كانت مصر هي «رأس الجسر» في التوسع الأفريقي غربا وجنوبا . ولعل ارتباط الدولة العربية الإسلامية في البداية بتجارة الصين والموسميات أكثر منها بالعالم الأوربي البيزنطي - أي غلبة التوجيه الآسيوي على الأوربي - أن يفسر أسبقية دور العراق في المحيط

(١) جمال حمدان ، دراسات في العالم العربي ، ص ١٤ .

East, p. 189.

(٢)

العربي على مصر ، بينما قد يفسر انتقال المركز والقطب إلى مصر في مرحلة تالية ما أصاب الجناح الشرقي من الدولة العربية من طرقات المغول والتتار ، وبروز العالم الأوربي بالتدريج في ميدان الانتاج والحضارة ، أي غلبة التوجيه الأوربي على الآسيوي .

أما القطاعات البحرية الحاسمة في الكتلة العربية ، والتي تتناظر هي أيضا في الشام والجنوب العربي ، فقد قدمت الترسانات الملاحية اللازمة للخروج إلى البحر . فالشام - مهد الفينيقيين ومدرسة البحرية التاريخية - كان خشبة القفز التي انقض منها العرب على فلول البحرية الرومانية والبيزنطية وعلى جزر البحر المتوسط إلى أن ناجزوا ساحله الشمالى . ودور الشام الأموى كقوة بحر أشهر من أن نشير إليه ، وتلخصه معركة واحدة : ذات الصواري ، فهى سلاميس الإسلام أو أكتيوم العرب كما قد نقول .

وفى الطرف المقابل كان الجنوب العربي في مجموعه هو دائما « بلاد العرب البحرية » ، يرعى البحر مثلما يرعى الجبل ، ويستعمر البحر كما يعمر الصحراء ، ويرمز له ببلاغة السندباد البحرى كمسرح ودراما . ومنذ البداية والعانيون والحضارة هم « اغريق المحيط الهندى وبنادقته » . وإذا كان دور التوسع العربي هنا حضاريا وتجاريا أساسا ولم يأخذ الصبغة العسكرية الحربية التي أخذها في البحر المتوسط ، فما ذاك إلا لأن هذا الجانب خلا من الإمبراطوريات الاستعمارية القائمة والمركزة في الشمال . ومع ذلك فقد عرف بعض مناجزات هامة مع أساطيل الفرس والرومان .

وكما أعطت البحرية العربية المتوسطية قاموسها الملاحى كاملا أو شبه كامل للغات الأوربية ، كانت البحرية العربية في الهند هى وحدها التى تملك أسرارها ومفاتيحه الملاحية ، فلكنيا وهواثيا ، نجومه وموسميته ، وهى التى أعطتها فيما بعد للقوى البحرية الأوربية (أحمد بن ماجد) .

والخلاصة أن القوة العربية الصاعدة مع الإسلام وإن بدأت قوة صحراء ورعاة تملك حركة mobility الخيالة والأباله ، فإنها سرعان ما تحولت إلى قوة بر وبحر تجمع بين موارد الفلاحين ومرونة الملاحين - باختصار قوة برمائية تتوسط قلب العالم القديم وسرته . لقد خرجت عن وصاية الصحراء لتضع قوى العالم الكبرى البرية والبحرية تحت وصايتها^(١) .

والمغزى الاستراتيجى لهذه الطفرة مفعم بالدلالات والظلال . فهى تناقض مباشرة دلالة الفترات السابقة حين كانت منطقة الشرق الأوسط والأدنى قوة مغلوبة على أمرها بين قوى البر والبحر ، تتبع إحداهما أو كليهما ، بغير ما كيان ذاتى صلب . فهذه التجربة التاريخية الفذة أثبتت أن المنطقة ليست منطقة ضعف كامن بالطبع ولا بالضرورة ، وأنها قادرة على أن تحقق سيادتها بل وأكثر منها أن تخضع القوى الضخمة الواقعة على ضلوعها . هذه التجربة تأتى إذن كمصحح ومكمل لمغزى الكيان الاستراتيجى الكامن للمنطقة فى العصور السابقة - واللاحقة كما سنرى .

عوامل الانحدار

والسؤال الآن : لماذا انهارت هذه الدولة العظمى بعد أن ظلت قائمة فى صورة أو أخرى بضعة قرون ؟ هناك مجموعتان من العوامل ، داخلية وخارجية . فداخليا ، لا جدال فى أن ضخامة الدولة وفرط تراميها فى حد ذاته عامل ضعف وتفكك فى النهاية . فمن الصعب جدا أن تملك بهذا الحجم الجسم العملاق فى قبضتك طويلا دون أن ينشط وتتناقض منه أجزاء وأعضاء وبخاصة أطراف متطوذة . لا سيما أن جزءا كبيرا جدا من الرقعة كان صحارى وأشباه صحارى واستبس أو أشباه الاستبس : شبه فراغ يعوق الحركة والاتصال ويضعف الارتباط ، فى وقت لم تعد فيه وسيلة الترابط حركة الخيل والإبل التى إن اتسع نفسها فى الحرب والغزو الخاطف فهو ينقطع ويتخلخل فى علاقات السلم المنتظمة الرتيبة المتكررة .

والملاحظ بعد هذا أن الدولة العربية كانت تنجح إلى الافراط فى الاستطالة من الشرق إلى الغرب وإلى التفريط نسبيا فى العمق من الشمال إلى الجنوب مما عرضها - من الناحية الميكانيكية البحتة على الأقل - إلى التقصف والتمزق^(١) . أضف إلى هذا تنافر التركيب الجنسى فى الدولة وتعدد الأقليات والعناصر فى نسيجها السياسى . فرغم أن الدولة كانت وحيدة اللغة عمليا ، فإنها لم تكن بالتصنيف الجيوبوليتيكي الحديث « دولة كثيفة intensive » بل كانت تتراوح بين « الدولة الواسعة والمختلطة extensive, mixed » ، كما كانت جغرافيا دولة عديدة النوايا polynuclear^(٢) .

East, p. 187; Fairgrieve, p. 123.

(١)

Yves M. Goblet, Political geog. & the world map, Long., 1955, p. 185 ff.

(٢)

من هنا تعرضت الدولة لسلسلة متصلة من الحركات الانفصالية والتفكك : فتعددت الخلافات واستقلت الولايات وانكشف نفوذ الدولة المركزية . وقد أتى على الدولة العربية حين من الدهر تقاسمتها ثلاث أو أربع خلافتات : العباسية في العراق ، والفاطمية في مصر ، والأندلس في إسبانيا .. الخ ، وكل منها - سلاح - يتخذ لنفسه كنواة منطقة زراعية غنية لتكون قاعدة أرضية كافية ، بينما كانت الفراغات الصحراوية هي التحوم الفاصلة بينها .

وفوق هذا وذاك جميعا ، هناك نقطة ضعف أصيلة في كيان الدولة . فبحكم بيئتها الصحراوية وشبه الصحراوية ، كان عدد السكان فيها ، على الإطلاق وبالنسبة إلى مساحتها ، محدودا في النهاية . وبضغط ماكيندر على ضعف القوة البشرية man-power وقوة الرجال كعامل جوهري في تفتت وانهيار الدولة العربية في آخر الأمر^(١) . بل منذ البداية الباكورة اضطرت الدولة الناشئة إلى أن تترك مهدها في صحراء الجزيرة وأن تبني لنفسها قاعدة إيكومينية حقيقية في الهلال الخصيب - أساسا لهذا العامل الحاسم ، ضعف القوة البشرية وعدم كفايتها لأعباء الدولة الجديدة .

أما العوامل الخارجية التي عملت على تعرية الدولة وتحللها فتعود بنا مرة أخرى إلى موقعها الاستراتيجي البيني بين قوى البر والبحر . فبعد قليل من قيامها واستقرارها بدأت القوى الغربية في جنوب وغرب أوروبا تتجمع ضدها لتتآكل منها ، وفي نفس الوقت تواترت هجمات القوى البرية من وسط آسيا لتتقوض عليها . ولكن هذه وتلك فصل طويل كامل في ذاته يحسن أن يعالج على حدة . وإنما نعينا هنا أن نضع خطا تحت هذه الاستراتيجية العريضة - استراتيجية الكاشة أو الرحي - كعامل خطير في تضعضع ثم سقوط الدولة الإسلامية الكبرى .

الاستعمار الصليبي

استعمار مقنع بلا قناع

قد تكون الصليبيات بدرجة أو بأخرى اسما على غير مسمى ، لأنها وإن كان الدين شعارها الملحن ، فإن من المسلم به اليوم غربا وشرقا أن محرقاتها ودوافعها الخبيثة كانت

أساسا علمانية : مادية : اقتصادية . فقد كانت الدولة العربية الإسلامية في الشرق الأوسط والأدنى بحكم موقعها البؤرى تسيطر سيطرة شبه احتكارية على مجمع أعصاب التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وكانت هذه تصب فيها دخلا ضخما يمثل حصيلة استثمارات الموقع الجغرافى ويمنح السراقته ، Saracens كما كان الغرب يسمى عرب المشرق (ولعلها تحريف للشرقيين أو السوريين) ، يمنحهم قوة مادية وحضارية وحرية لا تقدر .



شكل (٦) الصليبيات في الشام : أقصى التوسع

فبدأت مدن أوروبا التجارية النامية تتطلع إلى هذا الفيض الدافق في غبطة أو حسد ، تريد إما أن تشارك فيه وإما أن تنقض عليه . وضاعف من هذه الغيرة الملتبهة الفارق الحضارى والاجتماعى والمعيشى الشاسع بين الشرق العربى والغرب المسيحى . فبينما كان الأول فى أوج عصره الذهبى ، كان الثانى فى حضيض عصوره المظلمة ، وبينما كان الأول يتمتع باقتصاد زراعى مستقر ، كان الثانى يعانى من اقتصاد زراعى متخلف يكبله رق الاقطاع الفاحش .

ولا أدل على أن الحروب الصليبية كانت حروبا اقتصادية من أنها بدأت وهى تتغذى بمساعدة كبار تجار وأوليغاركية البندقية وجنوا وبيزا وانتهت أقرب شىء إلى حرب القراصنة التى تستهدف النهب والسلب وحدهما . أما دعوى الدفاع عن المسيحيين فى الأراضى

المقدسة وحماية الحجاج من اضطهاد السلجوقية الحاكمة حينذاك فهو بإجماع الآراء حجة ملفقة ومنطق تبرير لا أكثر^(١) .

ولهذا فالصليبيات ، في رأى السواد الأعظم من المؤرخين ، كانت حربا استعمارية : استعمارا سياسيا واقتصاديا لا شبهة فيه إلا شبهة قناع الدين ، بل يعدها بعض كتاب الغرب أول حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الأوربي في العصور الوسطى . ولعلها في الحقيقة حلقة الوصل ومرحلة الانتقال بين الاستعمار الجزئى القديم الذى باشرته أثينا وروما وبين الاستعمار الحديث الذى ستخرج إليه أوروبا بأسرها في المستقبل . وهى في الحالين ليست - استراتيجيا - إلا مظهرا من مظاهر الصراع بين القوى البحرية الغربية وبين المناطق البينية في العالم القديم ، وعلى هذا الأساس ننظر إليها .

وليس معنى هذا بطبيعة الحال أن أوروبا الغربية تحولت في تلك الفترة إلى وحدة متماسكة تخلو من المتناقضات الداخلية ، فقد ظلت الصراعات المحلية وصراع الأشباه جنبا إلى جنب مع صراع الأضداد . فكانت الممالك والإمارات والقبائل مستمرة في حروبها وغاراتها ، وعلى طول السواحل الغربية وحتى الجنوبية زحف خطر قراصنة البحر من الفيكينج الذين نزلوا من بحار سكندينايا ليغيروا من البحر على كل النطاق الساحلى ، إلا أن تأثيرهم كان محدودا بالمياه الملحة وقليل ما بمصببات الأنهار ونهاياتها^(٢) .

ولعل أبرز ما يميز الصليبيات عن موجات الاستعمار البحرى السابقة أنها لم تقتصر على قوة أو دولة واحدة بل خرجت من أغلب دول غرب أوروبا وجنوبها ووسطها . ولذا نجد أنها تأخذ طريقين أساسيين : الطريق البرية عبر قلب أوروبا فالبلقان فالأناضول البيزنطية ، وطريق البحر المتوسط . وإذا كان هدفها الدينى هو الأراضي المقدسة ، فإن الهدف الاستراتيجى اتسع ليشمل إلى جانب الشام كله العراق والحجاز ومصر ، أى النصف الشمالى من دائرة المشرق العربى .

الموجات الصليبية

وتكاد الحملات الصليبية في الشام تغطى قرنين بالضبط . الثانى عشر والثالث عشر . ويتعرف المؤرخون خلالها على ثمانى موجات رئيسية - آخرون يقولون تسعا - ولكن الحقيقة

Fisher, Middle East, p. 136; Mackinder, Pivot, p. 38.

(١)

Pivot, p. 36.

(٢)

أن هذه هي قم الموجات . أما التيار نفسه فظل متصلا كالسيال الكهربائي . ومن ثم فهي شكلا وموضوعا إلى صورة أرجال الجراد المنتشر أقرب منها إلى صورة أسراب الطيور المهاجرة إن صح التشبيه . كذلك لم تكن تلك الغزوات من صنع جيوش نظامية بل انتظمت كثيرا من ميليشيا البروليتارية والعبودية الاقطاعية . وهذا يعطى الصليبيات مسحة بربرية تذكر بدرجة ما بغارات المتبريرين في أوروبا على الإمبراطورية نفسها^(١) .

صليبيات المشرق

ولقد بدأت الصليبيات برا عن طريق بوابة قيليقيا البيزنطية وبحرا عن طريق قبرص ، مما يوضح خطورة الأناضول كمدخل برى إلى الشام وخطورة قبرص كمفتاح بحرى وخشبة للقفز على اللقائن ومصر . والواقع أن كلا منها كان أول ما احتله الصليبيون وآخر ما غادروه . ثم استطاعت الصليبيات أن تحتل - في أقصى توسعها - النطاق الساحلى من الشام حتى قم السلسلة الجبلية الغربية دون أن تتعداها غالبا ، ورسمت زاوية قائمة بتوغلها إلى أعلى الفرات في الرها . وأقامت في هذا النطاق سلسلة مفككة من الإمارات وممالك المدن الاقطاعية على غرار تنظيمها السياسى الاقطاعى في أوروبا . وقد كان ترتيب التوسع وإقامة هذه الممالك ، سواء زمنيا أو مكانيا ، هو من الشمال إلى الجنوب : أنطاكية فطرابلس ثم عكا . وهذه الثلاثية نفسها كانت أعظم معاقلهم بالمنطقة بالفعل .

أما لماذا نجحت الحملة الصليبية على هذا النحو ، فذلك لسبب أساسى هو عدم وحدة الشام العربى تقليديا وتمزقه إلى كوكبة متنافسة من دول المدن والولايات « والأتابكيات » الضئيلة الحجم والوزن غالبا . ومع ذلك فإن توحيد الشام العربى بعد ذلك ومساندة ظهوره إلى الشرق لم تكف لرد العدوان ، وكان تحرير الأراضى المقدسة رهنا باتحاد قوة مصر البشرية مع قوة الشام . والغريب في هذا التحرير أنه ، رغم المصدر الجنوبى ، بدأ من الشمال إلى الجنوب وليس العكس ، أى على نفس ترتيب التوسع الصليبي نفسه أصلا ، إذ تم تحرير أنطاكية أولا ثم طرابلس ثم أخيرا عكا . وعلى أية حال ، فحين تحقق هذا التحرير ، كانت حطين صلاح الدين في النصف الثانى من القرن الثانى عشر هي « أرماجدون » الصليبيات وبداية نهايتها . وفي النصف الثانى من القرن الثالث عشر كانت هذه النهاية .

ولكن ما بين بداية النهاية ونهايتها تحولت الصليبيات إلى مصر حيث قد أدركت بالتجربة المريرة أنها قطب المنطقة بشريا واستراتيجيا ، أو كما وصفتها هي حرفيا « رأس الأفعى ومستودع الامدادات » . وإلى مصر من ثم اتجهت ، وعن طريق قبرص أيضا مثلما كانت الحال مع الشام . ففي النصف الأول من القرن الثالث عشر نالت مصر موجتان أبيتا بالضربة القاضية في برارى وسهول الدلتا بعد أن أغرقتا في بيئتها الاسفنجية المشبعة . فعاد صراع التصفية إلى الشام ثانية حيث دفنت الصليبيات في البحر نهائيا .

صليبيات المغرب

إلا أن ذبول الصراع ظل في البحر المتوسط بعد ذلك طويلا وهي تتراجع بالتدريج غربا . فقد لجأت القوى الصليبية ، بعد أن تكسرت سيوفها على قلعة اللقانت ، إلى لون من « الحصار القارى » للعالم العربى لخلق تجارته مع أوروبا ، وإلى « مبارزة بحرية » عبر « كباره المتحركة » - جزره ومضايقه - تمثلت في سلسلة من غارات القرصنة على سواحل أفريقيا العربية وفي حملتين من الغزو على تونس في النصف الأخير من كل من القرنين الثالث عشر والرابع عشر . على أن ذلك فشل جميعا . وهنا سنلاحظ أن الصليبيات تحركت في خط سيرها التاريخى حركة محددة مع عقارب الساعة ، فقد بدأت من الشام ثم انتقلت إلى مصر فتونس .

على أن مصير الصراع اختلف تماما في إسبانيا . فإذا اعتبرنا - مع جمهرة المؤرخين - أن الاسترداد Reconquista هو آخر فصل في الصليبيات ، فإن القرون الثلاثة الثالث والرابع والخامس عشر ترسم في هيكلها وبانتظام خريطة تقدم للمسيحية وتقهر للعرب نحو الجنوب حتى كان الخروج النهائى في ١٤٩٢ . ويمكن أن نلخص محاور هذه الخريطة ونرمز إلى مراحلها بخطوط « الثغور » العسكرية الثلاثة المتعاقبة التى عرفها وحددها العرب : الثغر الأدنى ، الثغر الأوسط ، الثغر الأقصى . وقد كانت قلاع الشمال الجبلية هي معقل المقاومة ونواة الزحف ، كما كان اطراد اتحاد الإمارات المسيحية مع اطراد انقسام الإمارات العربية هي ضوابط الصراع المصبى . ومع طرد المورييسكيين - بضعة ملايين - إلى المغرب العربى ، انتهى المغرب الأوروبى ، وأصبحت الأندلس « فردوس العرب المفقود » .

التصفية

ولقد كانت الصليبيات درسا حضاريا قبل كل شيء لأوروبا . فقد كانت احتكاكا حضاريا بين الشرق المتقدم والغرب المتخلف . وستنعطف أوروبا على نفسها بعدها قليلا أو

كثيراً ، وستترك البحر المتوسط في حالة رهو وترقب إلا من مناوشات القراصنة ، خاصة في حوضه الغربى ، وذلك لتعكف على تنمية وتطوير ما تعلمته من الشرق العربى حتى تخرج به في النهاية أقوى من هذا الشرق وتقلب موازين الصراع من جديد كما سنرى . كذلك فقد كانت الصليبيات أول ما وحد أوروبا ومنحها شعوراً بالقومية حتى ليعدها البعض بداية التاريخ الحديث ^(١) .

أما من ناحية العرب ، فلاشك أن درس الصليبيات هو درس استراتيجى أساسا . فهي تؤكد لنا مرة أخرى خطورة موقعها البيئى الذى يجعلها مطمع أنظار الهامشين ، وتعلمنا أن قوته رهن بوحده في وجه هذا التحدى الموقعى ، وأن بها - وربما بها وحدها - يمكن أن تأمل في أن تتصدى للقوى الغربية البحرية مجتمعة وتصددها في النهاية .

الاستبس الأسيوى

التتار ، المغول ، الأتراك

لم تتوقف غارات الاستبس خلال العصور الوسطى بل ربما زادت عنفاً وتخريباً ، ولو أنها تختلف في تواترها من جانب إلى آخر . فلعلنا لا نخطئ كثيراً إذا عممنا فقلنا إن مركز ثقل الموجات الاستبسية انتقل إلى حد ما من الطريق الشمالى السهل إلى الطريق الجنوبى الهضبي ، أو من أوروبا إلى الشرق الأوسط ^(٢) .

ففي الشرق تعرضت الصين لغزوات عديدة ما بين القرنين التاسع والثالث عشر . إلا أن موجة جنكيز خان ثم كوبلاى خان في القرن الثالث عشر كانت أضخم حدث في تلك المرحلة . فهي التى أعطت الرعاة حكم الصين عدة قرون ، إلى أن كانت آخر موجة في القرن السابع عشر على يد مغول المانشو - أبناء استبس منشوريا - فأعطت الصين أسرتها الحاكمة حتى الحرب العالمية الأولى في القرن العشرين .

أما الهند فقد نالت في القرن الحادى عشر موجة التتار الغزنويين التى أخضعت شهاها . فلما كان القرن الرابع عشر أخضعتها جميعاً موجة تيمور لك التى طغت على رقعة كبيرة من آسيا وحكمتها . وفي القرن السادس عشر استطاع أحد خلفاء تيمور لك وهو محمد أكبر

Mackinder, Pivot, p. 38.

(١)

(٢) في هذه الموجات راجع ديمولان ، سبق ذكره .

Akbar أن يؤسس بالهند إمبراطورية المغول الأكبر التي استمرت حتى الاحتلال البريطاني في منتصف القرن الثامن عشر.

وإذا التفتنا غربا ، فعلى الطريق السهل الشمالى يظل الاستبس كما كان مصدرا مزمنًا للغارات والغزوات ، إلا أنها فيما يبدو أقل عددا منها في العصور الكلاسيكية . ولعل هذا يرجع إلى أن جزءا كبيرا من وسط أوروبا كان قد بدأ برابرته ورعاته تستقر وتجمد ، وإن ظل شرق القارة متميعا في تركيبة ومسرحا لقلقلات وتحركات الرعاة . ففي القرن التاسع وصل الجحيار إلى البحر - التي أعطوها اسمهم - نتيجة لضغط الباتريناك Patzinaks بمنطقة الفولجا ، والذين تحركوا بدورهم نتيجة لضغط الخزر إلى الشرق بمنطقة بحر قزوين (بحر الخزر عند العرب المعاصرين) .

المغول والغرب

حتى إذا كان القرن الثالث عشر نجد جنكيز خان - هو الذى بدأ بالصين - يترك أبواب شرق أوروبا ووسطها ! والواقع أن طوفان جنكيز خان - القائد الكبير وسيد القبيل الذهبى Golden Horde - عملية تفوق فتوح الاسكندر الأكبر وتتفوق على نابليون فى المدى الجغرافى وإن اختلف المجال . فقد اكتسح نفسه الطويل محيط أوراسيا - أكثر من ٣٠٠٠ ميل - ابتداء من الصين حتى وسط أوروبا ، موحدا بذلك كل السهل الاستبسى الأوراسى العظيم تحت قيادة رجل واحد ، ولعل هذه كانت أكبر إمبراطورية شهدتها كل التاريخ قديمه والحديث من حيث المساحة والامتداد^(١) . وفيما عدا الأتراك ، كانت هذه الموجة آخر موجة استبسية عظمى تصل إلى أوروبا الوسيطة .

وبسبب تلك الموجات سنجد أن هناك فارقا سياسيا بدأ ينمو بين شرق وغرب أوروبا . فإذا كانت غرب أوروبا قد قفزت إلى مبدأ القومية مبكرا بفضل خطر الاستبس ، فإن القوام السياسى فى شرق أوروبا ظل متميعا أبعد ما يكون عن التبلور حتى وقت متأخر جدا ، وما زال بعيدا عن النضج السياسى حتى الآن ، وكل ذلك نتيجة للخلط الجنسى والاجتماعى والتخلف الحضارى الذى صحب الاستبس .

أما إذا انتقلنا إلى الطريق الجنوبى ، فكان أحفل فى هذه الفترة بطرقات المغول والتتار

John Moge, The study of geog, H.U.L., 1950, p. 134.

(١)

والأترك . والحقيقة أن تاريخ الدولة العربية الإسلامية في الشرق الأوسط والأدنى لا يمكن أن يفصل عن تاريخ هذه الموجات التي أصبحت بعدا أوليا وأساسيا من أبعاده . بل الواقع أننا ينبغي أن ننظر إلى هذه العناصر باعتبارها برابرة الدولة الإسلامية بمثل ما كان التيوتون والجرمان والوندال .. الخ برابرة الإمبراطورية الرومانية .

فكما كانت هذه تقتطع من جسم الإمبراطورية دولاتها ، فكذلك فعل أولئك بالدولة الإسلامية . وكما كانت الأولى تتصارع فيما بينها ويزيغ بعضها البعض إلى جانب صراعها العام مع الإمبراطورية ، فكذلك نجد برابرة الدولة الإسلامية العربية تتصارع فيما بينها صراع الأشباه ويرث بعضها البعض وذلك في إطار صراعها العام صراع الأضداد مع الخلافة . وكما كانت روما تحاول تحييد برابرتها بتشييتهم في ممالك حدية وتحويلهم إلى المسيحية ، فكذلك كانت الخلافة تفعل مع برابرة المغول والتتار والأترك حيث تكاثرت على تخومها دولهم الحدية وحيث كثيرا ما كسبتهم في صفها بإدخالهم في الإسلام ، ولو أن هذا لم يمنع أن تكون نهاية الدولة على أيديهم ، تماما كما حدث في الإمبراطورية الرومانية . بل أبعد من هذا ، كما أن البرابرة الأوربيين أعادوا الإمبراطورية الرومانية المقدسة كاستمرار بشكل ما للإمبراطورية التي حطموها ، فكذلك ستتقل الخلافة الإسلامية إلى أيدي من حطموها وسيحتفظون بها في صورة ما عدة قرون .

الشرق الإسلامى والعربى

أول ماوصل المنطقة من برابرة العالم الإسلامى الموجة الغزنوية في القرن الحادى عشر ، وانتزعت فارس وماجاورها . وفي منتصف القرن نفسه أيضا بدأت قوة الأترك السلاجقة الوافدة من وسط آسيا تتسلل وتظهر في الدولة العباسية المفككة حتى استطاعوا أن يقطعوا منها أجزاء كثيرة في غرب آسيا . فأقاموا قاعدتهم في كرمان وهمدان ثم في آسيا الصغرى ، ثم قلبوا الحكم العربى في بغداد ودمشق واكتسحوا أغلب منطقة البحار الخمسة حتى امتد سلطانهم إلى الشام والأراضى المقدسة ، حيث كان اضطهادهم المزعوم للحجاج المسيحيين حجة من حجج الصليبية . ولكن قوة السلاجقة لم تلبث أن تضععت تحت طرقات المغول في القرن الثالث عشر على يد جنكيزخان .

فقد جاء جنكيز خان في ثلاثينات القرن ليكسر شوكة السلاجقة ، وقدر لإيران ومدنها أن تتلقى أكبر جرعة من التخريب والتدمير الرهيب . وبعد عقود ثلاثة عاد المغول - الوثنيون - تحت زعامة هولاكو حيث وصلوا إلى العراق ، فكانت فاجعة بغداد التاريخية

١٢٥٨ ونهاية الخلافة العباسية^(١) . وبعدها تقدم المغول إلى الشام مستهدفين مصر في النهاية في وقت كانت الصليبيات قد عبرت خط الزوال ودخلت مرحلة الشفق ولكنها لاتزال تستوعب قوة مصر والشام المشتركة .

وهنا نصل إلى حالة فريدة في تاريخ الشرق العربي وهي أن تواجه المنطقة قوى البر والبحر في آن واحد - أى أن تواجه استراتيجية الكماشة . وبالفعل نجد أن الغرب الصليبي يحاول أن يحصر الشرق العربي بين شقي الرحي ، فحاول أن يتحالف مع المغول ليضع الإسلام العربي الأمفيبي بين حلف المسيحية الأوربية البحرية والوثنية المغولية البرية ، أو أن يحصر السراسنة بين قراصنة البحر وقراصنة السهوب بلغة كارل هاوسهوفر^(٢) أو بين ذئاب البحر وذئاب البر بلغة ماكيندر^(٣) !

ولعل وضعا في تاريخ المنطقة العربية لا يمثل خطورة موقعها الاستراتيجي البيني كما تمثله هذه التجربة ، التي بدورها لا يمثل إمكانات المنطقة وقوتها الكامنة كما تمثلها هي . فرغم أن مصر والشام حاولت سياسة التحييد إزاء هؤلاء مرة وهؤلاء مرة أخرى حتى لا تحارب في جبهتين في وقت واحد ، فقد أثبتت المنطقة قدرتها على مواجهة الخطرين معا وفي آن واحد . فبينما ظل الصراع الصليبي مستمرا ، تقدمت مصر المملوكية بقيادة قطز لتعطى المغول أول وآخر انكسار لهم في عين جالوت التاريخية (١٢٦٠) .

ولكن المطرفة المغولية عادت ثانية بعد قرن مع تيمورلنك - الذي اتخذ عاصمته في سمرقند^(٤) - ليكتسح فارس والعراق ثم شمال سوريا حتى دمشق ، ولكنه عجز دون جنوبها أمام المقاومة المصرية . وهنا نرى كيف أن أغلب غارات الاستبس تصل دائما إلى العراق الذي يكاد يتأخم قلب الاستبس ، وقد تصل أحيانا إلى الشام ، ولكنها لا تصل إطلاقا أو بالكاد إلى مصر - ربما بحكم المسافة المتزايدة ، فإن مصر بعكس العراق أبعد المشرق العربي عن الاستبس الأسوي ، ولكن أيضا كرد فعل لقوة المقاومة .

وهنا يتضح لنا دور العراق الجديد في هذه المرحلة ، فقد تحول من « رأس حربة » للعالم العربي إلى « درع » له وقاعدة أمامية ، ولذا تلقى أغلب الضربات التي جاءت من

W. B. Fisher. p. 89.

(١)

(٢) فايفيلد ويبرسي ، الجيوبوليتيكا ، مترجم ، القاهرة ، ص ٥٤ .

On the scope & methods of geography, Lond., 1951. p. 28.

(٣)

W. Fitzgerald. The new Europe, Lond., 1946, p. 171.

(٤)

الشرق حتى تحطم للأسف ، ولكنه في هذا قد افتدى العالم العربى كله فكان هذا فضله الكبير جغرافيا وتاريخيا .

ولقد انجبه تيمورلنك بعد ذلك إلى الأناضول حيث كانت قوة الأتراك العثمانيين ، التى بدأت كتابع فى خدمة السلجوقية ضد المغول ، قد أخذت تظهر وتنمو حتى انتزعت لنفسها من الخلافة دولة صغيرة فى شمال غرب الأناضول ، ولم يختتم القرن الرابع عشر حتى كانوا قد سيطروا على كل الأناضول بالإضافة إلى رقعة كبيرة فى البلقان .

وقد اصطدم تيمورلنك بالعثمانيين متصرا فى معركة أنقرة ١٤٠٢ ، ومع ذلك فقد أوقف هذا اللقاء المد المغولى إلى الأبد ، ولكنه لم يوقف التوسع العثمانى الذى قدر له أن يرث الدولة العربية الإسلامية وأن يضيف إليها إمبراطورية أوربية برمتها . وكانت العثمانية بذلك آخر ما أرسل الاستبس من غزوات وأول ما نجح منها سياسيا فى تحقيق دولة دائمة مستقرة .

المغوليات والصليبيات

ولكن قبل أن نتساءل كيف ولماذا هذا النجاح ، دعنا نقف وقفة مقارنة وتقييم لكل من الخطر التتارى المغولى والخطر الصليبي . فابتداء إذا قلنا الصليبيات والمغوليات فقد قلنا جغرافيا زحف أوروبا وآسيا ، وحضاريا خروج الزراعة المستقرين والرعاة الرحل ، واستراتيجيا قوى البحر والبر مباشرة ، وإيديولوجيا الاستعمار الدينى والوثنى على الترتيب . وإذا كان طوفان المغوليات المدمر يمثل حل الرعاة التقليدى لمشكلة ضغط السكان ، فكذلك كان الخروج الصليبي على الأرجح هو الحل الأوربي لمشكلة الانفجار السكاني بها فى ظل الاقطاع والدين . وكما كان الأول مدفوعا على الأرجح بموجات الجفاف المناخى فى قلب آسيا الميت ، كان الثانى مدفوعا بالجفاف الحضارى الذى أصاب النظام الاقطاعى . وكشف عقمه حين بدأ خطر جرثومة البورجوازية البازغة فى المدن الجديدة يهدده بعد نحو ألف سنة من الاستقرار الزراعى الجامد^(١) .

كذلك فإن كلا المذتين لم يخرج فى موجة واحدة بل فى عدة أو عديد من الموجات الكاسحة المتلاحقة ، لا تنكسر إحداها إلا لتعلوها غيرها ، كما خرجا على حد سواء بجيوش

(١) لويس عوض ، الملحة الأخيرة ، الأهرام ، ١٩٧٧/١٢/٣٠ ، ص ١٥ .

Philip Hitti, The Arabs, Lond., 1948.

كثيفة جدا بمقياس العصر وفي أعداد لايسعها حصر . المؤرخون الغربيون أنفسهم شبهوا الموجات الصليبية « بغزارة رمال البحر ونجوم السماء » . بينما نعتوا جحافل المغول والتتار بأنهم كأرجال الجراد المنتشر والهيات الجليدية المنقضة . وبعض الحملات الصليبية تجاوزت المليون محارب . ولم تقل عادة عن نصف المليون . ذلك عدا شرنقة أكثف وأضخم من المتطوعة والأتباع^(١) . وبالمثل لم تكن جيوش الفرسان المغول والتتار لتقل عن مئات الآلاف .

أخيرا . و انتهاء . فلعلنا لانبعد عن الحقيقة كثيرا إذا قلنا إن الخطر التتري المغولي كان صراعا بدائيا أو بدويا نوعا . أى صراعا فطريا بيولوجيا تقريبا . أما الصليبي فكان أكثر تطورا وتحضرا . إذ كان إيديولوجيا دينيا . الخطر التتري المغولي كان « استخرابا » . حيث كان الصليبي استعمارا . استعمارا كاملا بمعنى الكلمة . واستعمارا استيطانيا بالتحديد عند ذلك . ذلك أن الغزو المغولي التتري كان غزوا ذكريا أساسا من الجيوش والشبان . أما الصليبي فكان مجتمعا منقولا مزروعا بالكامل من الذكور والإناث والكبار والصغار . في كلمة واحدة . كان الأول غزوا والثاني هجرة .

من هنا أيضا كان الأول أشد خطرا وهولا وتخريبا . أقرب إلى الحرب الخاطفة . قصير الأمد على الجملة فلم يطل عن قرن واحد على الأكثر . وإذا هزم في النهاية - كما حدث بالفعل - انفض نهائيا . أما الخطر الصليبي فكان أشمل وأوسع جغرافيا . وأطول تاريخيا حيث تكرر مرارا على مدى بضعة قرون . وإذا هزم عاد وعاود الكرة من جديد إلى أن يستنفد آخر قواه وأغراضه .

الأتراك

نحو الغرب

إذا عدنا الآن نستأنف زحف العثمانية الناجح . فسنجد أنه في الربع الأول من القرن الثالث عشر قد تجرّمت قوة الأتراك العثمانيين^(٢) في شمال غرب الأناضول . فاتجه توسعهم غربا - وليس شرقا كما قد نتصور - وذلك في البلقان ودون أن يستولوا في البداية على

(١) وحيدة ، ص ٧٦ .

W. B. Fisher, p. 138-142.

(٢)

القسطنطينية . ولم يتتصف القرن حتى كانوا يملكون على وجه التقريب ما يسمى الآن « تركيا في أوروبا » . وكانت القوة الكبرى التي تقف في وجههم هي دولة الصرب ، ولكنهم تغلبوا عليها واجتاحوا بلغاريا ثم الصرب ، مستفيدين في ذلك من فتحة الماريتزا - الفاردار الحاسمة ، وواصلين بذلك إلى الدانوب ، والقرن الرابع عشر لما يلفظ أنفاسه بعد تماما . وبذلك صاروا سادة البلقان بلا منازع .

ولكن هذا الخطر حرك الصليبية في أوروبا مرة ثانية ، فخرجت حملة صليبية من كل أجزاء غرب القارة ووسطها ، تراجعت أمامها العسكرية العثمانية على الدانوب قليلا أول الأمر ، حتى سحقتها في النهاية ما بين أول القرن الخامس عشر ومتصفه . وإذ تم هذا الاقرار pacification ، كان دور القسطنطينية - التي أصبحت من قبل إسفينا ضيلا محاصرا في وسط الكتلة العثمانية الضخمة - كان دورها قد أزف ، فسقطت سقطتها التاريخية الشهيرة في ١٤٥٣ ، وبهذا ختم على مصير الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) إلى الأبد بعد أن ظلت تحتضر قرونا .

وفي نهاية هذا القرن الخامس عشر كانت حدود الإمبراطورية العثمانية في أوروبا قد وصلت من كرواتيا إلى الدون الأسفل . وفي خلال القرن السادس عشر سقطت المجر وظلت تحت العثمانية حتى نهاية القرن التالي ، وأصبحت النمسا بذلك مهددة ، ونحولت في الحقيقة إلى دولة نخوم - كما أراد لها شارلمان حين أنشأها لأول مرة في وجه الآفار منذ أكثر من ألف سنة - دولة حدية تفصل بين تركيا وأوروبا . وفي هذا المعنى قال مترنيخ قوله المشهورة : « عند فينا ، آسيا تبدأ : Am der Landstrasse beginnt Asia » . وفي هذا الصدد أيضا لم يكن غريبا أن وقر في ذهن أوروبا أن الترك لا يغلبون ، تماما مثلما وقر في ذهن آسيا من قبل عن التتار والمغول .

ثم الآن بضع حقائق هامة تبرز من استعراض هذا الزحف . فأولا يمتاز التوسع العثماني بظاهرة القفز الضفدعية leap-frogging ، بمعنى أنه لم يكن متصلا بدأ من نقطة ثم استمر في اتجاه وخط متتابع بصرامة ، بل هو قد يترك منطقة في طريقه ويتخطاها إلى ما بعدها ثم يعود إلى تلك الأولى . فمثلا قفز إلى البلقان ولم يكن قد سيطر على الأناضول جميعا ، بل لقد ظلت بها أجزاء وقطاعات لم يسيطر عليها إلا بعد أن كان قد وصل إلى الدانوب ! كذلك ظل يقيم في البلقان بل يملكه قرنا كاملا وبعض قرن قبل أن يستولى على القسطنطينية !



شكل (٧) الامبراطورية العثمانية

ثانيا ، سلاحظ أن العثمانية توسعت في أوروبا قبل أن تتوسع في آسيا وإفريقيا ، وأسقطت الدولة البيزنطية قبل أن تسقط الدولة العربية الإسلامية . وقد أعطاهما هذا قاعدة أرضية ضخمة لقوة سياسية ومادية وعسكرية كبرى قبل أن تبدأ الاتجاه جنوبا نحو الشرق الأوسط العربي . وهذا يفسر ، من جانب ، السرعة والبراعة التي كسحت بهما العالم العربي . فهي لم تكن حينئذ مجرد قوة رعاة وفرسان بدائية ولكن قوة دولة وحضارة بدرجة أو بأخرى .

ثالثا ، سنرى أن هذه أول موجة استبسية تأتي من الطريق الجنوبي الهضبي وتصل إلى أوروبا . فبينما ولجت الموجات الاستبسية السابقة قلب أوروبا مرارا وتكرارا عن طريق السهل الشمالي ، لم يستطع أحد قبل الأتراك أن يطرق أبواب أوروبا عن الطريق الجنوبي . ولعل هذا كان من حسن حظ الأتراك ، فقد أدخلهم إلى أوروبا من أضعف - وإن لم يكن من أوسع - أبوابها حيث كانت البلقان أشدها تأخرا وأضعفها ناصرا وأقربها إلى حضارة الرعي والترحل حينذاك .

نحو الشرق

بعد البلقان ، انجهدت العثمانية إلى الشرق العربي وذلك ابتداء من العقد الثاني من القرن السادس عشر ، أي بعد نحو ثلاثة قرون من ظهورهم كقوة لأول مرة في الأناضول . وقد اتجه الزحف إلى مصر رأسا عن طريق سوريا التي كانت تابعة لمصر المملوكية . وهذا الاتجاه

المحدد يؤكد ماسبق أن أوضاعته الصليبيات من أن مصر هي مفتاح المنطقة العربية ، لاسيما أن كل نقل الدولة العربية الإسلامية كان قد انتقل كاملا ونهايا إلى مصر بعد تدمير العراق على يد المغول .

ومن الناحية الأخرى فقد سارعت مصر لملاقاة الزحف العثماني على ضلوع الأناضول نفسها ، كأنما كانوا يدركون منذ ذلك الوقت المبكر أن خط الدفاع الأول عن مصر لا يقل عمقا عن تخوم الشام . ولكن تمزقت المقاومة المصرية في مرج دابق حلب ، وتقهقرت إلى خط دفاعها الثاني في قلب مصر بعد سقوط الشام . إلا أنها مرة ثانية وأخيرة انهارت في ريدانية القاهرة ، وسقطت مصر في ١٥١٧ . وكانت تلك أول مرة منذ الهكسوس والفرس تقع فيها مصر لقوة استبسية .

وفي ذلك الوقت كانت الضغوط المسيحية من حربية وبحرية وقرصنة على المغرب قد اشتدت ووصلت إلى النقطة الحرجة التي استدعت الاستغاثة بقوى الإسلام أنى وجدت . ولما كانت تركيا هي كبرها الآن ، فقد تدخلت بحريا (عروج بربروس وأخوه خير الدين) لحماية المغرب الأوسط ، ولم تلبث أن احتلته في ١٥٢٩ ، ثم أردفته بتونس في ١٥٣٤ ، إلى أن توسعت مؤخرًا في طرابلس في ١٥٦٥ .

وعند هذه النقطة يبدو غريبا بعض الشيء أن تنجح تركيا الآن حيث فشلت مصر ، أو على أية حال لم تغامر ، للأسف من قبل . فصر المملوكية ، بعد انتصاراتها الحاسمة الداوية على كل من التتار والصليبيين ، لم تستطع أو تشأ أن تساعد المغرب العربي ضد الصليبيات الغربية رغم استنجد تونس والجزائر بها مرارا وبالحاح . أما الذي نجح في هذا الانقاذ فكان الأتراك العثمانيون من الأناضول فيما بعد . وبهذا كان الصراع ضد الصليبية في البحر المتوسط وخاصة حوضه الغربي دور تركيا أكثر منه دور مصر ، الذي يظل بذلك محليا نسبيا للأسف . ورغم أن كلا من مصر وتركيا قوة أممية أساسا أي برمائية ، فلعل هذا يرجع إلى أن البعد البحري في الأخيرة أكبر منه في الأولى نوعا .

ومهما يكن ، فإذا ما عدنا إلى مسيرة الأتراك في الشرق ، فقد تأخر التوسع العثماني في العراق وذلك في وجه المقاومة الفارسية ، ولكنه سقط في النهاية في ١٥٥٢ . ولم تستطع تركيا أن تتوغل بعده شرقا لأن قوة فارس استطاعت أن تصمد لها ، بل وستصبح ندا عنيدا لها في المستقبل طويلا . وظلت هناك منطقة متنازع عليها بينهما يتجادبانها دون أن يتمكن

أحدهما من انتزاعها نهائيا ، فبقيت بعد ذلك حتى النهاية منطقة تخوم قلقة . تلك هي الرقعة الجبلية التي تشمل أرمينيا الشرقية والقوقاز وزاجروس ^(١) .

استراتيجية الإمبراطورية العثمانية

ومرة أخرى تبرز من هذا العرض عدة ملامح واضحة . فأولا ، تتكرر ظاهرة القفز الضفدعي التي سبقت في البلقان . فبينما استولت تركيا على الشام ومصر ، ظل العراق فترة غير خاضع لها . كذلك سبق الاستيلاء على الجزائر الاستيلاء على تونس ، وهذا سبق الاستيلاء على طرابلس . بل يمكن أن نعتبر زحف العثمانية في المغرب بمثابة تيار عكسي راجع ، وأن هناك أكثر من نواة منفصلة متباعدة بدأ منها الزحف في العالم العربي . ولهذا فإن الفكرة الوهلية التي قد تتصور زحفا قوسيا متصلا من الأناضول حتى الجزائر لا مكان لها من الحقيقة .

ثانيا ، سقط أغلب العالم العربي وورثت تركيا معظم الدولة الإسلامية العربية في نحو نصف قرن تقريبا من القرن السادس عشر . وقد تأخر الاستيلاء على أجزاء في الجزيرة العربية وكذلك السودان إلى مراحل تالية بعيدة . ولكن هناك جزأين لم يخضعا مطلقا للأتراك لتطرفهما ، وهما المغرب الأقصى (مراكش) والجنوب العربي حتى عمان .

ثالثا ، وقع العالم العربي في يد الأتراك بسرعة وسهولة نسبية لأسباب عدة . أولها ما استمدوه من قوة مادية وسياسية بعد أن ملكوا البلقان وموارده نحو قرنين . سبب ثان الضعف والتفكك والعجز الشديد الذي وصلت إليه الدول العربية في تلك الفترة ، وهي التي - منذ قرنين فقط - صدت المد الصليبي والموجة المغولية معا . ولم يتكتل من العرب في وجه الأتراك إلا مصر وسوريا .

رابعا ، لامفر من أن نلاحظ التناقض الكامن - وإن يكن مألوفا - في تفوق قوة رعاة بلا حضارة عميقة مهما كان على منطقة حضارية زراعية راقية ذات أصول عريقة . وإذا كان الاستعمار هو في التحليل الأخير سيطرة حضارة راقية على حضارة متخلفة ، فإن الاستعمار التركي للعالم العربي يبدو في هذا المعنى استعمارا عكسيا أو مقلوبا كما قد نقول ، ولهذا سيأتي عبقا في نتائجه وإنجازاته . وفي هذا الصدد يشبه البعض الإمبراطورية الإسلامية

العربية بالإمبراطورية الاغريقية ، والإمبراطورية العثمانية بالرومانية : تلك خلقت تراثا وحضارة ، وهذه قامت على القوة العسكرية المحض .

خامسا ، جاء الأتراك في مسوح الدين الإسلامى وتحت قناعه ، وكان هذا في عصر الدين لا القومية ، وفي وهج ذكريات الصليبيات ، مما سهل عليهم الفتح بلا ريب . بل لقد رأينا أن الجزائر هي التي استنجدت بالأتراك واستدعتهم لحمايتها . ولكن هذا لا يبنى الحقيقة المقررة من أن الوجود التركى هنا يعد نوعا خاصا - ومحيرا ربما - من الاستعمار هو « الاستعمار الدينى » ، ولولا القناع الدينى لعد مماثلا للغزو المغولى الوثنى الذى سبقه ولوجه على هذا الأساس بكل تأكيد (١) .

وكل مظاهر الاستعمار الاستغلالي الابتزازى لاتنقص العثمانية : فقد كانت تركيا هي « المتروبول » وبقية الإيالات والولايات مستعمرات تابعة تعتصر كل مواردها وخيراتها بلا مواربة لتحشد حشدا في المتروبول . بل لقد قيل إن الأتراك طبقوا في حكمهم السياسى طريقتهم الاستبسية في معاملة الحيوان ، فهم ما انتقلوا من رعى قطعان الحيوان إلا إلى رعى قطعان الانسان : كما يفصل الراعى بين أنواع القطعان ، فصل الأتراك بين الأمم والأجناس المختلفة عملا بمبدأ فرق تسد (نظام الملة) ، وكما يسوس الراعى قطيعه بالكلاب ، كانت الانكشارية كلاب صيد الدولة العثمانية ، وكما يجلب الراعى ماشيته كانت الإمبراطورية بقره كبرى عند الأتراك للحلب فقط (٢) .

سادسا ، وأخيرا ، ينبغى أن نسجل بعناية أن الدولة العربية إنما انتهت على يد الغزو التركى وليس على يد الغزو الصليبي ، أى على يد قوة البر وليس على يد قوة البحر . وإذا كانت المنطقة قد نجحت في صد القوتين معا من قبل ، فإن سقوطها في النهاية على يد قوة البر أكبر دليل على أن هذه القوة لا يستهان بها ولها مقومات يجب أن يحسب لها حساب . وإذا كان هذا تحصيل حاصل بالنسبة لتلك الفترة ، فهو أكثر منه نذير وإنذار واضح للمستقبل بوجه خاص كما سنرى بعد حين .

تلك إذن قصة الموجة التركية وقيام الإمبراطورية العثمانية بمحاربتها الأوربي والعربى . فإذا نحن حاولنا أن ننظر إليها ككل ، فسنجد عدة حقائق بالغة الأهمية . فلعلها ، أولا ،

(١) جال حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربى ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٣ وما بعدها .

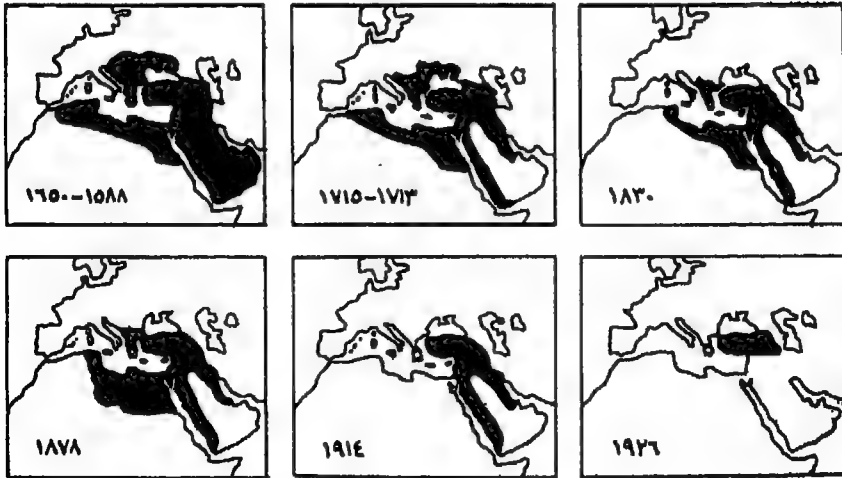
Fisher, p. 139-141.

(٢)

غطت مساحة أكبر مما عرفت أى إمبراطورية سابقة عليها باستثناء إمبراطورية جنكيزخان القصيرة العمر . فقد امتدت في أقصاها من مشارف سهوب روسيا والدانوب إلى سفانا السودان والنيل ، ومن القوقاز حتى أطلس . وفي تضاعيف ذلك سيطرت على البحر المتوسط وساحله ، هذا بالإضافة إلى البحر الأحمر وبحر العرب ، وبالتالي أصبحت سيدة البرزخ (السويس) والمضيق (البسفور) . وبصورة عامة ، تغطي الإمبراطورية رقعة واحدة متصلة لا انقطاع فيها سوى المضيق .

ثانيا ، الإمبراطورية العثمانية هي أول موجة خرجت من الاستبس ونجحت في إقامة دولة مستقرة طويلة الأمد . فقد تحولت من رعاة رحل إلى حضارة استقرار وتوطن وقطعت كل جذورها بالاستبس ، واتخذت لها وطنا وقاعدة أرضية ثابتة ولو بالتبني (الأناضول) ... وهي كذلك أول موجة خرجت من الاستبس ونجحت في إقامة دولة تجمع بين أجزاء من أوروبا وآسيا وأفريقيا معا . وقد سبقها من الاستبسيين من أنشأ دولا في أوروبا أو في آسيا وحدها ، ولكن لم تمتد قط في الاثنين معا .

وفضلا عن هذا فقد كانت أول اندفاع من الاستبس تنساح في أفريقيا وتبتلع نطاقا كاملا منها . والواقع أن جزءا من السبب في نجاح الأتراك في الوصول غربا إلى آفاق أبعد جدا مما عرفت موجات الاستبس السابقة سواء في أوروبا أو في آسيا وأفريقيا هو أنها لم تبدأ تاريخها الفعال من قلب الاستبس مباشرة كقاعدة ، وإنما بدأت من مركز متطرف نحو



شكل (٨) مراحل انكماش الاستعمار العثماني

الغرب كثيرا ، أى من قاعدة متقدمة هى الأناضول مما أطل ومد نفسها فى ذلك الاتجاه بسهولة نسبيا .

ثالثا ، وأخيرا ، بدأ الأتراك قوة بر مطلقة ن القرن ت القاعدة الأرضية البرية والجهة الساحلية البحرية . أى أصبحت قوة بر مائية فى المنطقة البينية النموذجية بين معقل القوى البرية شرقا والبحرية غربا ، سواء ذلك فى البلقان وشرق أوروبا أو فى المشرق العربى . وهذه حقيقة بالغة الخطورة والمغزى ، لا لأن الأتراك فقط أول من فعلها من بين الاستبسيين ، وإنما أيضا لأنها ستفسر أساسا مصير الإمبراطورية واستراتيجيتها السياسية وأنواع الضغوط والصراعات التى ستعرض لها . وهذا ماينقلنا فى نفس الوقت إلى تطور الاستعمار خارج هذه المنطقة ، وإلى مرحلة جديدة من تاريخ الاستراتيجية العالمية .

الفصل الثالث

عصر الكشف الجغرافية

يمكن أن نقسم تاريخ الاستعمار في العصور الحديثة إلى موجتين أساسيتين ، أولاهما تغطي القرنين السادس عشر والسابع عشر ، واتجهت أساسا وإن لم يكن كلية إلى العروض المعتدلة والبلاد الجديدة ، ولهذا اتسمت بالاستعمار السكنى الاستيطاني إلى حد بعيد ، أما الثانية فتحتل القرن التاسع عشر وتنصرف في جوهرها إلى العروض المدارية والبلاد القديمة ، ومن ثم سادها طابع الاستعمار الاستغلالي^(١) . والمرحلة كلها ترتبط بعدة تطورات طفرية في الفنون والحضارة البشرية كانت شرطا لازما لتحقيقها . تلك هي الثورات الكبرى الثلاث : الانقلاب التجارى والانقلاب الميكانيكى ، والانقلاب الصناعى . وكل منها يرتبط وثيقا بالآخر ارتباطا بالسبب بالنتيجة ، ولهذا تتداعى منطقيا وتاريخيا .

فالانقلاب الأول - التجارى - لا انفصال له عن الكشف الجغرافية كسبب ولا عن الموجة الأولى للاستعمار في القرنين السادس عشر والسابع عشر كنتيجة . هذا بينما يرتبط الانقلاب الأخير - الصناعى - مباشرة وحما ، بل دراميا ، بالموجة الثانية للاستعمار في القرن التاسع عشر . أما الانقلاب الميكانيكى فانتقالى تمخض عن الانقلاب الأول ومهد للأخير . وسنبدا هنا بالمرحلة الأولى مرحلة الكشف الجغرافية واستعمار المعتدلات الجديدة .

الكشف الجغرافية والاستعمار

مع الكشف الجغرافية نتعامل مع جذور ، أو على الأقل بذور ، الاستعمار المعاصر مباشرة . فقد ولد الاستعمار الحديث في حجر الكشف الجغرافية ولانقول في رحمها . ففى

R.J. Harrison Church, Modern colonisation, Lond., 1951, p. 18-22. 106.

(١)

تلك الفترة خرجت أوروبا تضرب في المجهول ، فعادت تحمل إلى العالم عالما جديدا بل عوالم جديدة . ومن الصعب علينا في القرن العشرين أن نقدر حقا مدى ضخامة ووقع الهزة التي أحدثها هذا الكشف في وقت كانت رقعة المعمور المعروف محدودة ثابتة لانكاد تتغير ، ثم فجأة وفي عالم متمدن بأقصى سرعة تضاعف العالم عدة مرات . وربما لا يعدل تلك الظفرة في عالم الإنسان شيء من قبل إلا كشف الزراعة ، ولامن بعد إلا غزو الفضاء .

بل وكما نشهد اليوم انقلابا في الاستراتيجية العالمية مع عصر الفضاء ، قلبت الكشوف الجغرافية استراتيجية العالم القديم من صميمها . فأولا ، مع اتساع أبعاد العالم اتسعت أبعاد الصراع بين القوى وخرج الاستعمار لأول مرة عن دائرة التقليدية المغلقة حول حوض البحر المتوسط وتقومه وانتقل من عروضه المألوفة إلى عروض مختلفة كل الاختلاف تحمل معها بيئات مغايرة جدا . ومن الناحية العملية قفز الاستعمار من عالم متناه إلى عالم لا متناه ، وبعد أن كان محليا أو إقليميا أساسا أصبح عالميا كوكبيا تماما .

ثانيا ، بعد أن كانت السياسة والاستراتيجية تتحرك في عالم مسطح أفقي أو « إقليدي » بكل معنى الكلمة ، أصبحت تتفاعل في وسط « ريماني » Riemannian لا إقليدي ، وسط كروى مجسم . ولم يعد للمكان يمين وشمال فحسب ، بل وخلف وقدام أيضا . ولاشك أن أعظم حقيقة تمخضت عنها الكشوف هي وحدة المحيط . فقبلها كان العالم المعروف يتألف من يابس واحد ومحيطين اثنين ، أما بعدها فقد أصبح العالم يتألف من محيط واحد ويابس متعدد^(١) . ولم يكن بد من أن يربح هذا كل قيم المواقع الجغرافية الاستاتيكية الموروثة حتى النخاع ، وأن يهز العلائق المكانية التقليدية والنسب الجيوماتيكية geomatic بين القارات والأقاليم والدول ، فما كان منها بالأمس بؤريا مركزيا قد صار اليوم هامشيا متطرفا - والعكس .

ثالثا ، كان أخطر مظاهر هذا الانقلاب الجيوماتيكي بروز أهمية المحيط إلى الصدارة . فقد خرج العالم القديم إلى المحيط واتسع نفس الحركة البشرية بعد أن كانت محدودة بالمرحلة البحرية thalassic . فضاعت أهمية البحار الداخلية المغلقة وبرزت أهمية البحار المحيطية epi-continental . فإذا بالبحر المتوسط والبلطيق ، ولكن الأول خاصة ، يفقد كل منها أهميته التاريخية ، ليصبح الأول زقاقا مغلقا والثاني بركة صيد آسنة herring pond ،

بينما يتحول المحيط الأطلسي إلى « البحر المتوسط » الجديد . ومع هذا الانقلاب انقلب التوجيه الجغرافي للقارات والأقاليم ، فقلبت القارات بطنا لظهر تطلعا إلى المحيط ، وانحدرت قيمة دول وموانئ البحر المتوسط لتنتقل الزعامة إلى دول وموانئ غرب أوروبا^(١) .

رابعا ، ومن الناحية السياسية ، أصبح الوقوع على البحار - البحر المحيط - ميزة كبرى تتمتع بها الدول الساحلية وتجنّى حصاها الثرى الفياض ، فبدأ عصر الإمبراطوريات البحرية العظمى ، بينما أخذت الدول الداخلية القارية تتجاذب إلى مغناطيسية البحر كما لو بقدرية ميكانيكية قاهرة . وبمعنى آخر اشتد مغزى الصراع بين قوى البر والبحر كما وكيفا ، أبعادا وأعماقا . ولهذا فن الآن فصاعدا وإلى أبعد حد ، سترى معادلة الصراع بين البر والبحر كل معادلات الصراع الأخرى كالاستبس والغابة ، والسهل والجبل ، والرمل والطين ، التي كانت تشاركها تفسير التاريخ البشرى ، لتصبح هى وحدها قطب الرعى فى الاستراتيجية العالمية . بل سنجد الصراع بين الاستبس والغابة بالذات يتحول نهائيا ليأخذ شكل الصراع بين البر والبحر .

دور أوروبا الغربية

ذلك جميعا هو مغزى الكشوف الجغرافية ، ولكن السؤال المنطقى قبل أن نتتبع خطى الكشوف هو : لماذا خرجت أوروبا - وأوروبا الغربية - بالذات فى ذلك التاريخ بعينه ؟ لقد تحرك قطب الحضارة البشرية ومركز الثقل فى القوة السياسية العالمية حركة تاريخية محددة ، وثيدة ولكنها أكيدة ، عبر العصور القديمة والوسطى ، حتى انضمت بجلاء على أبواب عصر الكشوف إلى أن تبلورت تماما مع الانقلاب الصناعى . فالحضارة نشأت فى دائرة الشرق الأوسط القديم ، مصر والعراق وفينيقيا ، ثم انتقلت إلى كريت فالليونان فروما ، وعشية الكشوف جاء دور غرب أوروبا ، جنوبه أولا ثم شماله .

هناك إذن سهم حركى واضح يبدأ من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ، ومن عروض دون مدارية إلى عروض معتدلة باردة . هذا ما يعرف فى مجموعه بنظرية هجرة الحضارة نحو الشمال ، بعيدا عن خط الاستواء ، وتجاه القطب^(٢) . والمسلم به علميا

Derwent Whittlesey, Earth & state, Wash., 1944, p. 56-59.

(١)

E. Huntington, Civilisation & climate, 1924, p. 396-7; Mainsprings of civilisation, N.Y., 1945.

(٢)

وتاريخيا أن هذه الحركة ارتبطت تماما بالاحتكاك والاقتباس الحضارى ، بمعنى أن كل مركز لاحق استمد حضارته أصلا من مركز سابق ثم نماها إلى مستويات أعلى ربما . والكشوف الجغرافية فى الحقيقة لاتخرج كثيرا عن هذه القاعدة .

غير أن كثيرا من الكتاب الغربيين يحلو لهم أن يردوها إلى حيوية وتطلع غير عادى فى شعوب غرب أوروبا ، وإلى حب استطلاع ومغامرة وتفوق طبيعى فى الجنس . هم بمعنى آخر يثيرون تفسيراً عنصرياً . إلا أن الحقيقة أن أوروبا الغربية خرجت إلى الكشوف بسبب عدة ضوابط وضوابط أهمها ماجاء من الخارج وأقلها ماصدر عن الداخل . وتحليل هذه العوامل لن نعدم أن نرى أثر مراكز الحضارة والقوة الأسبق من عرب واستبس وغيره ، ويمكن أن نحدد تلك العوامل فى ثلاثة : حضارى ، سياسى ، وجغرافى .

العوامل الحضارية والسياسية

فحضاريا لا جدال فى أن الكشوف نتيجة من نتائج النهضة الأوربية . وهذه بدورها وبالقطع نتيجة من نتائج الاحتكاك الحضارى بالعرب . فن مركز الحضارة العالمية فى العصر الوسيط - العالم العربى - تسربت عناصر الحضارة المادية وغير المادية إلى أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط مع التجارة والانتقالات ، ولكن بصورة درامية حاسمة فى الحروب الصليبية التى أيقظت أوروبا من سباتها وتخلفها . ويكفى كمجرد مثال أن إسبانيا ما عرفت البارود والأسلحة النارية التى سببى بها إمبراطوريتها إلا نقلا عن العرب أثناء صراعها معهم . وقد انعطفت أوروبا بعد ذلك على ذلك الدرس الحضارى وتمثلته ثم طورته ماشاء لها التطوير . وبفضل ذلك التراث - وبما فيه من فنون البحر بالذات - استطاعت أن تخرج إلى المحيط .

أما سياسيا فقد كانت أوروبا الوسيطة تعيش فى عالم اقطاعى ممزق ، عالم الفرسان والأقنان ، والأمراء وعبيد الأرض . وبذلك كانت تتألف سياسيا من موزايكو لانهية له من الوحدات المحلية والإقليمية الضيقة . سواء من دوقيات وبارونيات الاقطاع أو دول المدن ونقابات الأوليجاركية guilds ، الكل قد مزقته الحروب والصراعات الصغيرة . ولم يكن من الممكن لمثلها أن تخرج إلى استعمار الكشوف بهذا الهيكل السياسى البدائى القزمى . بل هى لم تخرج إلا بعد أن بدأت فيها جرائيم القومية الأولى والشعور والوعى بالذات الوطنية وانجهت نحو لم جزئياتها السياسية فى وحدات وطنية أكبر فى طريقها إلى الدولة الوطنية الحديثة nation state .

الضغوط الخارجية

وهنا نقرر مباشرة أن الذى دفعها إلى هذه الطريق إنما هى ضغوط القوى الخارجية المعادية . فكما يعترف ماكيندر ، إن الذى خلق الشعور القومى مبكرا فى أوربا هى الضغوط الثلاثة التى أحدثت بها من جهاتها الثلاث : خطر الفيكينج من الشمال ، والاستبس من الشرق ، والسرائسة (العرب) من الجنوب . وقد رأينا من قبل يعترف بأن الأسويين فى موقعة شالون كانوا يصنعون فرنسا الحديثة دون وعى . كما رأينا أن الصليبيات كانت أول حركة وحدت أوربا وهى وإن تكن إطارا دينيا فإنها تدريجا نمت إلى منتهائها الطبيعى وهو الإطار القومى . ويكفى أن الوحدة السياسية ثم الكشوف الجغرافية بدأت مباشرة فى إسبانيا والبرتغال بعد طرد المور والعرب وكرد فعل للصراع معهم . إن القومية المبكرة والوحدة الوطنية الباكرة التى عرفتها أوربا : ومكنت لها من الخروج إلى الكشوف والاستعمار ، هى فى التحليل الأخير هدية غير مقصودة من العرب والشرق .

أكثر من هذا ، إن الضغوط الشرقية والأسبوية هى - جزئيا على الأقل - التى قذفت بأوربا الغربية إلى ماعبر المحيط ! لقد سبق أن رأينا أن غزوات الاستبس وموجاته هى التى دفعت القبائل المتبربرة غربا حتى قفزت من القارة إلى جزيرة بريطانيا هنا وإلى جزيرة البندقية هناك . وبالمثل ، ولكن فى إطار مختلف ، قد يمكن أن نقول إن مما دفع بأوربا الغربية لتقفز قفزة أوسع عبر المحيط إلى العالم الجديد ضغط العالم العثماني من الشرق حين أغلق طرق التجارة البرية مع الشرق الأقصى حتى اضطرت أوربا قسرا إلى البحث عن الطريق الدائرى البديل . وفى الماعة موحية وثاقبة ، يؤكد فيرجريف هذا الرأى حيث يقول : « ... ليس من المستكثر أن نقول إن القبائل الغازية (الأسبوية) ، بتوسيعها لأفق النظرة ، كان لها تأثير واضح جدا فى إحداث سلسلة الظروف التى أدت إلى كشوف كولمبس ومن تلاه » ^(١) .

العوامل الجغرافية

يبقى أخيرا من العوامل التى أهلت أوربا الغربية للكشوف ، العامل الجغرافى موضعاً وموقعا . فمن الواضح أن البيئة الطبيعية هنا بيئة بحرية مثالية . القارة كلها ليست إلا « شبه

A.E. Moodie, Geog. behind politics, Lond., 1947, p. 86.

جزيرة من أشباه الجزر»^(١) ، سواحل مترامية متعرجة « مسننة » بالخلجان والفيوردات والرياس ، وحماية بالجزر والأرخبيلات ، خلفها أنهار وأحواض أنهار غنية ، تدعمها غابات أخشاب جيدة وآجام القنب والكتان ، وثلاثها خامة بناء السفن ، هذا إن لم تقع وراء تلك السواحل أو الأنهار تربات جرداء وأقاليم برمتها « متجلدة glaciated » تطرد السكان طردا إلى البحر ، والبحر بدورة غني بثروته السمكية الكثيفة .

وإذن فكل عوامل الجذب في البحر مكفولة ، وعلى اليابس إما عوامل طرد وإما قواعد أرضية متواتية لغزو البحر . كذلك لن ننسى أن هذه البيئة البحرية الفريدة كانت من عوامل سرعة تبلور القومية في غرب أوروبا . فبفضل تداخل المحيط في اليابس وتقطيعه له بالبحار الداخلية والخلجان الكبيرة ، انقسم اليابس إلى وحدات جغرافية طبيعية معقولة الأحجام ، متميزة الحدود ، واضحة الشخصيات ، مما سهل تبلورها القومي ونشأة الدولة الوطنية الحديثة في كل منها .

ثم هناك أخيرا الموقع المواجه للعالم الجديد المجهول . ولعل مما ينبغي أن نلاحظه هنا أن ما خرج إلى الكشف والاستعمار البحري بعد ذلك من أوروبا إنما هو غربها الساحلى البحرى فقط ، ابتداء من النرويج والدنمرك حتى إسبانيا والبرتغال ، بينما أن الدول الأبعد عن نفوذ وعالم المحيط كالسويد وألمانيا ثم شرقها لم تدخل في مرحلة ما حلبة الاستعمار البحرى ، ولا يستثنى منها إلا بعض مقاطعاتها الساحلية كبراندنبيرج في ألمانيا ، وعلى مقياس متواضع عند ذلك .

الاستعمار البرتغالى

نحو الشرق

بدأت الكشف في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر من البرتغال وبها . وكان هذا أمرا طبيعيا إلى حد بعيد ، وامتدادا للحروب الصليبية إلى حد ما . فبعد - بل حتى قبل - طرد المور من أيبيريا ، استأنف البرتغال والإسبان صراعهم الصليبي بمده ونقله إلى المغرب العربي نفسه . فنذ غارات القرصنة الإسبانية على المغرب وقبل الاسترداد النهائي انتزع الإسبان سبتة ومليلة على الساحل المقابل^(٢) ، بينما بعده بقليل بدأ البرتغال في

Whittlesey, p. 87.

(١)

Nevill Barbour, loc. cit.

(٢)

إقامة مستعمرة على الساحل الأفريقي للمغرب هي « الغرب عبر البحر » ، مقابلة لمقاطعتهم هم المعروفة الغرب Algarve ^(١) . وهكذا كانت البرتغال بموقعها من أفريقيا وفي أفريقيا في موضع يسمح لها بالمخاطرة جنوبا في « بحر الظلمات » .

ثم كانت هناك الرغبة العارمة في انتزاع تجارة الشرق المينة من العرب والوصول إلى جزر التوابل بالدوران حول اليابس الأفريقي أى بطريق بحرى بديل . وثمة فوق هذا الرغبة الصليبية الكامنة في الانتقام من الإسلام بتطويقه والالتفاف حوله ، وهى الرغبة التى أعطت الاستعمار البرتغالى من بدايته نزعة كثرية ومسحة صليبية لاشك فيها . فالاستعمار البرتغالى - والإسباني من بعده - خرج أولا « كاستعمار كاثوليكي » وظل كذلك طويلا فيما بعد . يؤكد هذا أن البابوية باركت أكثر من مرة امتلاك الإسبان والبرتغال لكل ما قد يكتشفونه « خارج العالم المسيحى » ، كما أنها هى التى قسمت العالم بعد قليل مابين القوتين الجديدتين .

هكذا فى مدى عقد واحد من الاسترداد (١٤٩٧ - ١٤٩٩) كان البرتغال قد داروا حول الكيب (دياز) ووصلوا إلى الهند (داجاما) . وهم إذا كانوا قد أفادوا من التجاريات الشمالية الشرقية فى بداية الرحلة ، فقد أفادوا فى نهايتها من الموسميات الجنوبية الغربية التى أعطاها العرب (أحمد بن ماجد) سرها - ليكونوا لهم عدوا وحزنا ... فقد كانت النتيجة المباشرة لهذا الكشف عملية « أسر » كامل للعرب : فالطريق البحرى الجديد كان « أسرا نقليا » للطريق البرى التقليدى بحيث « سرقوا » الموقع الجغرافى البورى للعرب ، ومعه سرقوا تجارة الشرق ، ومع هذا وذلك سرقوا قوتهم السياسية بالكامل .

وبنبغى أن نضغط جيدا على حقيقة هامة وهى أن توسع البرتغال إنما قام على حساب العرب أساسا سواء تجاريا أو استراتيجيا ، وهم فى الواقع الذين ورثوا دورها السلمى وبدأوا انهيارها العسكرى . وإذا كانت المدن الإيطالية قد شاركت العرب فى هذا المصير ، فهذا باعتبارها المكمّل الأوربى الثانوى فقط فى سلسلة تجارة الشرق القديمة . ففى خلال العقد الأول من عودة داجاما من الهند كانت سفن العرب من الاسكندرية وبيروت تدخل البندقية فارغة لأول مرة . لقد غاض الدم وجف من الشريان والوريد معا ، فتوقف قلب الاقتصاد العربى الإسلامى .

وفي خلال العقد نفسه كان غزو البرتغال لجزر الهند (الشرقية) قد اكتمل ، وهزم العرب في بحر العرب وفي ملقا ، واستقرت قوة البرتغال على كل سواحل الهند والمحيط الهندي ^(١) . فبدأوا بمطاردة دول المدن العربية على طول ساحل شرق أفريقيا ، وفي العقد الأول من القرن السادس عشر استولوا على جزر البحرين وأقاموا فيها الحصون والمواقع factories ، وظلوا بها نحو قرن كامل حتى تمكن العرب من طردهم . وفي العقد الثاني من نفس القرن هاجموا عدن مرتين ولكن بدون جدوى ، وكذلك فعلوا بمسقط حيث نجحوا في البقاء نحو نصف قرن ^(٢) .

صراع الأضداد

وفي هذا الصراع العربي - البرتغالي في الهند تحالف البرتغال مع الحبشة المسيحية التي قدمت لهم مساعدات كثيرة ضد مصر خاصة . وكان التعاون بينهما قد بدأ في الواقع قبل الكشف بقرن كامل إبان الصليبيات ، وكان بينهما مشروع خيالي لتحويل مجرى النيل الأزرق في الحبشة إلى البحر الأحمر لتجف مصر وتنقرض جوعا ! .. وقد حاول ألبوكيرك بعد الكشف تنفيذ هذا الحلم « الفاوستي » المريد ، ولكن الجغرافيا سخرت منه وبددته تبديدا . وعموما فقد كانت استراتيجية البرتغال أن تكتسح العرب من الباب الخلفي بعد إذ عجزت من الباب الأمامي ، وحاولت أن تطوقهم بكماشة فكأها في المغرب وبحر العرب . ولقد كان هذا جميعا إيذانا بنهاية الدولة العربية ، فبدأت الانحدار الرهيب الذي سيجعلها بعد قليل فريسة سهلة للعثمانية . وهذه بدورها ستأق لتختق - بسياستها الجمركية الابتزازية الغبية - البقية الباقية من تجارة المرور وتضاعف من الانهيار الخفيف . وقد حاول الأتراك فيما بعد ملاقاتة البرتغال في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر ، ولكنهم هزموا في النهاية في موقعة ديو البحرية .

على أن الإمبراطورية البرتغالية في الشرق لم تزدد في الحقيقة على نقاط ومواقع عسكرية منتشرة على السواحل ، ولم تمتد أبدا على مساحات واسعة من اليابس ، وكانت في نمطها أقرب ما تكون إلى نوع الاستعمار الاغريقي مع هذا الفارق أنه لم يعرف استعمار السكنى والتوطن . فن ناحية ظلت أفريقيا بالنسبة للبرتغال مجرد عقبة لا عتبة إلى الهند ، وكل

Fairgrieve, p. 140.

(١)

Royal institute of international affairs. The Middle East, Lond., 1958, p. 103, 132, 143.

(٢)

قيمتها لها أنها موطن قدم ونقط مراحل على الطريق ، ولهذا لم يزد استثمارها فيها عن نقط وأشرطة ساحلية ومواقع حربية أهمها في ساحل غرب أفريقيا (ساحل الذهب) وشرق أفريقيا . وفي المراحل التالية أصبحت المواقع البرتغالية على ساحل غرب أفريقيا محطات لحشد وتصدير الرقيق . وفي الهند لم يتعد البرتغال نقطة قاليقوت على جنوب الساحل الغربي في البداية ، ولا رقعة جوا على شماله في النهاية ، ولعل مما ساعد على حصرهم على الشقة الساحلية حائط جبال الغات المنيع ^(١) .

ومن ناحية أخرى لم يكن لدى البرتغال ، بعددهم المحدود ، القوة البشرية الكافية للاستعمار السكنى الاستيطاني حتى لو أرادت . بل إن أمر هذه القوة البشرية ليثير الدهشة حقا ، ففي عصرها البطولي هذا لم تكن البرتغال تزيد على المليون نسمة سكانا ! ^(٢) فالغربة إذن ليست في سقوط الاستعمار البرتغالي في النهاية ، وإنما هي في الدرجة الأولى في قيامه أصلا . ولهذا وبالأحرى كان الاستعمار السكنى الاستيطاني سؤالا غير وارد على الإطلاق ، وظل الاستعمار البرتغالي في جزر الهند الشرقية « استعمار البهار » أساسا وبامتياز . ومن ثم يمكن أن نلخص محاور الاستعمار البرتغالي في ثلاثية : الكتلركة : التجارة : الغزو .

تحلل الإمبراطورية

وسيلاحظ أن البرتغال - التي هي أول بناء الإمبراطوريات - قد حققت استثمارها في عقود قليلة بسرعة غير عادية ، وملكّت مناطق أضعاف مضاعفات مساحتها هي وتتراعى في إطار جغرافى لا يقل عن نصف محيط الأرض ! .. ومع ذلك ، ورغم أن القرن السادس عشر كان بلا نزاع قرن سيطرة وتسيّد البرتغال وإسبانيا ، فإن الإمبراطورية البرتغالية لم تعمّر في الواقع أكثر من جيل بالكاد . ولم تلبث بعد ذلك أن أخذت في التقلص والانكماش . فما أن ظهرت قوى بحرية جديدة حتى انهارت البرتغال بلا مقاومة تقريبا ^(٣) . ففي الوطن ضمت إسبانيا إليها البرتغال بمستعمراتها في نهاية القرن السادس عشر . ورغم أن البرتغال استعادت كيائها بعد ذلك ، فقد كانت تلك هي الضربة القاضية . وإذا كان لها مغزى فهو أن موقع البرتغال الممتاز وتجارها القائدة لم تجد شيئا أمام ضخامة إسبانيا : لقد كان لابد للموضع الضخم أن يتغلب على الموقع مهما كان ممتازا .

Mackinder, scope & methods etc., p. 28.

(١)

Whittlesey, p. 403.

(٢)

Fawcett, p. 422.

(٣)

ومن ناحية أخرى اهتبلت هولندا كقوة بحرية صاعدة فرصة تحطيم البرتغال على يد إسبانيا لترث دورها وتجارتها بل ومستعمراتها ، وكانت تلك بداية دخولها دائرة الإمبراطورية . فلم تزل « تختطف » من البرتغال مواقعها ومستعمراتها في الهند والهند الشرقية واحدا بعد الآخر ، حتى تقلصت الأخيرة إلى جيوب قزمية متخلفة - دامان وجوا في الهند وتيمور في الهند الشرقية - وحتى يمكن القول إنها فقدت إمبراطوريتها في العالم القديم . وهنا لم يتبق لها إلا مستعمرتها القارية الضخمة البرازيل في العالم الجديد .

وإذا كان الغزو البرتغالي في العالم الجديد قد جاء سريعا ، فقد جاء الاستقرار بطيئا . فقد ظلت البرازيل في البدء مجرد نقطة تموين في الطريق إلى الهند لا أكثر ، وكان أغلب المهاجرين الأوائل إليها من المجرمين والمطرودين . لكن ضياع الإمبراطورية في الشرق نقل اهتمام البرتغال إلى البرازيل في أواخر القرن السادس عشر بعد ذلك الإهمال الطويل . فبدأ الاستثمار الزراعي المدارى بالأبعاديات والعمل الوطنى والسخرة . غير أنه لما لم يصلح الهنود لذلك ، بدأ جلب الرقيق الأفريقى بأعداد ضخمة منذ ذلك الوقت حتى تضاعف بجانبهم عدد البرتغاليين كثيرا ، وكان البرتغال بذلك مؤسسى مدرسة الرق في العصر الحديث . وفي وقت ما من القرن السابع عشر كانت نسبة الزنوج إلى البيض في باهيا - على سبيل المثال - نحو ٢٠ - ١ | ١^(١) ورغم أن القرن الثامن عشر شهد بعض موجات للذهب والماس في البرازيل ، فقد ظلت الزراعة المدارية هى أساس الاستعمار البرتغالى هناك .

الاستعمار الإسباني^(٢)

كان لنجاح البرتغال في الوصول إلى الهند شرقا نتيجتان مباشرتان ، أولا : أنه ما دامت كروية الأرض حقيقة فمن الممكن الوصول إلى الهند غربا ، وثانيا : أن عدوى الكشف انتقلت بالمنافسة إلى الجارة المباشرة إسبانيا . ولكن إسبانيا وإن تكن بسواحلها وموقعها دولة بحرية ، فهى لم تكن أمة بحرية بقدر ما كانت أمة رعاة وفرسان الزيتا . ولعل مما له مغزاه أن كشف إسبانيا قام بها اثنان من غير الإسبان ، كولمبس الجنوى ، وماجلان البرتغالى . والحقيقة أن وضع إسبانيا سواء في الوطن أو في الاستعمار عبر البحار يشبه بالنسبة

Kimble, p. 21-22.

(١)

(٢) في هذا الموضوع راجع :

Whittlesey, p. 403-470; Fairgrieve, p. 128-145; East, p. 350; 354; Fawcett, p. 422-5.

للبرتغال وضع الرومان بالنسبة لليونان : حجما وقوة ، توجيها بحريا ، ترتيبا زمنيا ، نوع استعمار ، ثم علاقة مصير .

نحو الغرب

وقد خرجت إسبانيا إلى الكشف بعد التوحيد مباشرة مغربة في الأطلسي . ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا عكس اتجاه البرتغال في الكشف ، وكلا عكس مواقعها النسبية في الوطن . وليس من المؤكد أن إسبانيا أول من غامر في الأطلسي ، فهناك أدلة على محاولات أسبق . فالنورس Norse وصلوا من سكندنافيا إلى جرينلند وأقصى أصقاع أمريكا الشمالية في العصور المظلمة ، كما أن هناك رواية « الفتية المغربين » من عرب الأندلس الذين يقال إنهم خرجوا من البرتغال إلى شمال أمريكا الجنوبية . هذا عدا النظرية الصينية الحديثة التي تجادل بأن الصينيين سبقوا كولبس إلى العالم الجديد عن طريق الهادى .



شكل (٩) الاستعمار في العالم الجديد ١٧٦٣

إلا أن كشف النورس جاء موءودا من البداية لأنه انتهى إلى نهاية اللامعمور ، أما الفتية فلم يعودوا ، والكشف الصينى إن صح لا أثر تاريخى له . وهكذا قدر لإسبانيا أن تكشف أمريكا ، وقدر للأطلسى أن يخترق لا من حيث يضيق إلى أدناه فى الشمال ولكن من حيث يتسع إلى أقصاه فى الوسط . وقد لعبت الرياح دورا هاما فى توجيه وتوقيع الكشوف الإسبانية والاستعمار الإيبانى بعدها . فقد اتخذت رحلة الذهاب مسارا متعمقا نحو الجنوب حتى تحملها الرياح التجارية الشمالية الشرقية الدائمة ، مما انتهى بكولبس إلى جزر الهند « الغربية » وأمريكا الوسطى . هذا بينما كانت رحلة العودة تأخذ مسارا أكثر شمالية بكثير لتفيد من الرياح العكسية الغربية .

ورغم أن كولبس لم يعرف قط أن هناك « أمريكا شمالية » ، فالهم أن جزر الهند الغربية كانت أول ما وطئ الإسبان ، فكانت لصغرها وتفتتها فريسة سهلة لهم ومن ثم ، شأن كل الجزر الساحلية المائلة ، خشبة قفز مثالية على القارة - وستكون بالمثل آخر ما يغادرون من العالم الجديد . ومن أمريكا الوسطى توسع الإسبان بعد ذلك شمالا عبر هضبة المكسيك ، وفيما بعد وصلوا إلى فلوريدا وكاليفورنيا . ومن أمريكا الوسطى أيضا عبروا برزخ بنا إلى الهادى وتمددوا على طول ساحل أمريكا الجنوبية الغربى ومنه دلفوا إلى نطاق مرتفعاتها الغربية ، إلا أنهم أهملوا شرق أمريكا الجنوبية المنخفض كما لم يهتموا إلا متأخرا بالأرجنتين . وبهذا يرسم تقدمهم فى أمريكا الجنوبية قوسا هلاليا عكس عقارب الساعة ، يبدأ من جزر الهند ثم يتبع المرتفعات الغربية إلى أن ينتهى فى سهول الأرجنتين .

وقد تم ذلك جميعا أو تقريبا قبل أن ينتصف القرن السادس عشر ، بل الواقع أن الهيكل الأساسى لكل الإمبراطورية الإسبانية فى أمريكا اللاتينية تم وضعه فى ربع قرن فقط . وهو معدل مذهل ، لا سبإ إذا عرفنا أن إسبانيا حينئذ لم تكن تتعدى ٦ ملايين نسمة ، مقابل ١٢ مليوناً من الهنود الحمر . وفى أوج الاستعمار الإيبانى لم تقل المساحى دى خضعت له صف العالم الجديد مرهلم تزحف نحو الثلاثين ، وذلك يعادل مساحة الوطن عشرات المرات !

كيف نفسر هذا ؟ - بالفارق الحضارى والحربى بين الغزاة والوطنيين أولا ، أى بين البارود والمدفعية والفروسية وبين أسلحة المشاة البدائية . ولكن هناك أيضا العامل الجغرافى ، فإن هناك تشابها طبيعيا ومناخيا كبيرا بين هضاب أمريكا وهضبة الزيتا فى الوطن ، وكان هذا مما سهل عملية الانتشار وسرعة التمدد . ونفس هذا العامل الطبيعى

هو الذى يفسر لماذا لم يتوغل الإسبان كثيرا فى أمريكا الشمالية ، فهناك يبدأ وسط بيئى ومناخى مختلف كثيرا عما ألف الغزاة المتوسطيون ، وهناك بالتالى وضعت الطبيعة الحد السياسى للاستعمار الإيبانى . وإذا كان هذا قد وصل إلى أعماق مذكورة فى أمريكا الشمالية ، فقد جاء ذلك متأخرا وانحسر مبكرا .

ومع كشف العالم الجديد كان لابد من تنسيق السيادة بين إسبانيا والبرتغال . فنالت إسبانيا - فى تحكيم البابوية فى معاهدة تورديسيلاس - كل ما يكشف فى نصف الكرة الغربى ، والبرتغال كل ما يكشف فى نصفها الشرقى ! .. وقد جعل خط هذه المعاهدة شرق أمريكا الجنوبية (البرازيل) من نصيب البرتغال ، بينما أصبح بقية جسم أمريكا الجنوبية والوسطى إمبراطورية قارية إسبانية ضخمة ، ولو أن البرتغال تخطت الخط كثيرا نحو الغرب بعد ذلك .

وفى نفس الوقت كان ماجلان يتجه إلى مضيق ماجلان ليعبر الهادى ويكشف الفلبين (التى أعطيت اسم الملك الإيبانى) ويصل إلى جزر الهند الشرقية . وبهذا دار حول الكرة دورة كاملة ، وكانت رحلته تعادل رحلتى دياز وكولبس معا ، وعلى نطاق أضخم بكثير أيضا . ومع ذلك فسيأتى هذا الطريق فاشلا تجاريا لأنه أطول جدا من طريق البرتغال ، على أنه منذ ذلك الحين دخلت الفلبين فلك الإمبراطورية الإسبانية .

وهكذا خرجت إسبانيا والبرتغال من الوطن وقد أعطى كل منهما ظهره للآخر ليحدا نفسيهما فى النهاية يلتقيان وجها لوجه فى الشرق الأقصى : إسبانيا فى الفلبين شرقا وإزاء البرتغال فى جزر الهند الشرقية غربا : أى على غرار مواقعها فى أيريا وعلى عكس ترتيب المواجهة بينهما فى أمريكا الجنوبية . وبهذا أغلقت الدائرة الاستعمارية حول محيط الكرة الأرضية ، وأصبحت إمبراطورية البرتغال تمتد من الأنديز فى الغرب إلى جزر الهند الشرقية فى الشرق ، وإمبراطورية إسبانيا تمتد من الأنديز وجزر الهند الغربية فى الشرق إلى الفلبين فى الغرب !

الاستعمار الأيبيرى : مقارنة

ولئن كان الاستعمار الإيبانى يشترك مع البرتغالى فى المثل التبشيرية ، فإنه يختلف عنه فى أنه لم يستهدف التجارة أصلا ، وعلى كل حال فإن المناطق التى دخلها لم يكن بها بهار أو تجارة لتستغل . أما « بهار » الإسبان فكان المعادن النفيسة ، الذهب والفضة . ولهذا اندفعوا فى أمريكا الجنوبية مباشرة إلى المرتفعات الغربية الغنية جيولوجيا بهذه الثروات فى

المكسيك وبيرو ، في حين أن جزر الهند الغربية وشرق القارة لم تكن بها ثروة إلا الزراعة المدارية التي تحتاج إلى أيد عاملة كثيرة وأبعاديات واسعة ولهذا تأخر استثمارها فترة ما . وفي المرتفعات وجد الإسبان مجالا لهدف أساسي من أهدافهم وهو الغزو ، فحطموا ممالك الأزتلك والإنكا وغيرها من الدول الهندية ، وفي هذا برز دور الغزاة الفاتحين conquistadores كورتيز وبيزارو .

وأخيرا فإن الاستعمار الإسباني يختلف عن البرتغالي في أن الأخير دخل مناطق مأهولة بالسكان كثيفة ومدارية ، فلم يكن ثمة مجال لاستعمار سكني ، ولم يكن للبرتغال على أية حال القوة البشرية لمثله . أما الاستعمار الإسباني فقد حدث في مناطق مخلخلة قليلة السكان يصلح كثير منها بحكم ارتفاعه لتوطن البيض . ولهذا ، ولوفرة القوة البشرية في إسبانيا نسيا ، اتخذ نمطا سكنيا استيطانيا سيشتد فيما بعد ويتحول إلى خلط جنسي لا مثيل له في أى قارة أخرى . والحقيقة أن الهجرة الإسبانية ظلت ذكرية أساسا لفترة طويلة - دليل آخر على طابعها العسكرى - مما فتح الباب أمام التزاوج من الوطنيين ، ثم فيما بعد مع الزنوج المحليين .

ويمكننا أن نلخص الموقف كله في أنه إذا كانت أركان الاستعمار البرتغالي هي التبشير والتجارة والاستعمار الاستراتيجى الساحلى ، فإن أركان الاستعمار الإسباني هي التبشير والمعادن النفيسة والغزو والاستعمار الاستيطاني أو السكنى . وبهذا يبدو الاستعمار البرتغالي ، كما ألمحنا عابرين من قبل ، أقرب في طبيعته ومجاله إلى الاستعمار الإغريقى القديم بمركبه التجارى - البحرى - النقطة ، بينما يقترب الإسباني كثيرا من الاستعمار الرومانى القديم العسكرى - الأرضى - القارى .

وإذا كانت إسبانيا والبرتغال قد تقاسمتا السيادة والقوة العالمية في القرن السادس عشر ، فقد كانت اليد العليا لإسبانيا بكل تأكيد بحكم جرمها وضخامتها ، بل لقد رأينا كيف ضمت البرتغال في نهاية القرن وحطمت قوتها . وقد احتكرت إسبانيا التجارة طويلا وحرمت القوى الأخرى من التجارة في إمبراطوريتها Spanish Main كذلك . إلا أن إسبانيا لم تكن تملك شيئا في العالم القديم سوى الفلبين .

ولكن إذا لم يكن لإسبانيا إمبراطورية في الشرق أو العالم القديم كالبرتغال ، فقد عوضت عنها بإمبراطورية كبرى في أوروبا نفسها : فكان لها أملاك واسعة في إيطاليا ، وآلت إليها الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا) بالوراثه ، وحاولت أن تعيد

الإمبراطورية الرومانية « المقدسة » ، وتطلعت إلى السيطرة على أوروبا جميعا . ولذلك دخلت حروبا طويلة في غرب القارة ووسطها ، هذا عدا الحرب مع الأتراك ، مما امتص طاقتها في النهاية وأنهكها .

مرحلة السقوط

ولقد كان المنافس والعدو الأكبر لإسبانيا على القارة هو فرنسا . وحاولت الأولى - وهي التي كانت تطوق أملاكها فرنسا من الجنوب ومن الشمال في الأراضي المنخفضة ومن الشرق في إيطاليا والراين - حاولت غزوها ولكنها فشلت . كذلك ستنتج هولندا في انتزاع استقلالها من إسبانيا وشيكا . ثم حاولت إسبانيا غزو إنجلترا في نهاية القرن بالأرمادا « التي لا تقهر the invincible Armada » (Armada armata arms) ، فكانت الهزيمة الشهيرة في سنة ١٥٨٨ التي وضعت حدا لإسبانيا كقوة بحر . وإذا كان هذا قد ترك بريطانيا آمنة في جزيرتها ، فقد ثبت أيضا استقلال هولندا ، وأكد وقفة فرنسا في وجه إسبانيا ، وأنهى أطماع السيادة الإسبانية .

هكذا ضاعت إمبراطوريتها الأوروبية مثلما ضاعت إمبراطورية البرتغال في الشرق ، ولم يتبق لها - مثلها - إلا إمبراطوريتها في العالم الجديد . وحتى هذه لم تلبث القوى الجديدة فرنسا وهولندا وبريطانيا أن بدأت تتخاطفها بالقوة في جزر الهند الغربية خاصة . فانتزعت بريطانيا جميعا وبعض جزر الأنтил الصغرى في القرنين السابع والثامن عشر ، وابتلعت فرنسا جواديلوب والمارتنيك ، كما اقتسمت الاثنان هايتي ، بينما خرجت كل من هولندا والدمرك ببعض الجزر الصغرى ، إلى أن تظهر الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر لتم تصفية التركة . وبذلك بدأ دور إسبانيا العسكري يؤول إلى فرنسا ، مثلما آل دور البرتغال التجاري إلى هولندا ، وهاتان هما القوتان اللتان سينتقل إليهما الصراع على السيادة العالمية في القرن التالي .

الفصل الرابع

الاستعمار البحري الثلاثة الكبار

الاستعمار الهولندي^(١)

القرن السابع عشر هو بلا ريب قرن هولندا^(٢). فقد طفرت فيه إلى المقدمة كقوة بحرية تجارية استعمارية ، ودخلت الاستعمار من أوسع أبوابه . وقد كانت الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا) خاضعة لإسبانيا ، وشاركت بهذه الصفة في التجارة البحرية الجديدة بدرجة ما في وجه الاحتكار التجاري البرتغالي . ولكن الحقيقة أن موقع البرتغال - أيبيريا عامة - وإن أعطاهما الأسبقية إلى الشرق ، لم يكن الأمثل بالنسبة لتجارة الشرق مع أوروبا ، لأن أيبيريا تنعزل عن القارة ومواصلاتها البرية بالحائط الجبلي والبعد الجغرافي . ومنذ أن انتهى دور المدن الإيطالية ، أصبح المدخل الطبيعي لتجارة أوروبا مع الشرق هو الأراضي المنخفضة باعتبارها نهاية الشارع الرئيسي للحركة في قلب القارة ، ونعني به الراين الذي - وحده من بين أنهار غرب القارة - يتوغل حتى قلبها .

ولم تتوان هولندا عن توظيف هذا الموقع المدخلي الجديد . فنجحت أولا في انتزاع استقلالها من إسبانيا في حروب الإصلاح الديني في العقد التاسع من القرن السادس عشر ، وذلك بفضل تحصنها في دلتاها الاسفنجية وإغراقها لأراضيها الواطئة في وجه العدو ، بالإضافة إلى مزاياها كأمة ملاحية في بيئة بحرية مثالية . هذا بينما ظلت بلجيكا إسبانية ولم تستطع أن تخرج إلى البحر والاستعمار فيما بعد ، إلا في موجة القرن التاسع عشر . ومنذ ذلك الحين ، بدأت تجارة البهار والشرق تنصب انصبابا في هولندا ، التي ورثت دور البرتغال بمثل ما ورثت أنتورب دور لشبونة ، فصارت أكبر مركز تجاري في أوروبا . أو

Fairgrieve, p. 146-160, East, p. 354-8, Fawcett. p. 425.

(١)

Harrison Church, p. 21.

(٢)

قد نقول بطريق غير مباشر : ورثت هولندا دور إيطاليا ، بل دور العرب . وسنحت الفرصة الكبرى لهولندا للتأكيد مكانتها حين حطمت إسبانيا قوة البرتغال . ثم حين تخطت قوة الأرمادا .

قرن هولندا

فبدأت هولندا تنقض على المستعمرات البرتغالية (الإسبانية في وقت ما) . وقبل أن يمضي نصف قرن على الاستقلال كانت هولندا في كل بحار العالم ، وبعدها بقليل وصلت إلى أوج قوتها وانتزعت السيادة من البرتغال في جزر الهند الشرقية التي ظلت - باستثناء تيمور - هولندية بعد ذلك باستمرار . وهى بذلك قد ورثت إمبراطورية البرتغال كما ورثت موقعها الجغرافى ودورها التجارى . وفى الطريق إلى الهند أقاموا مستعمرات ساحلية في ساحل غانه ، وكانوا أول من نزل في الكاب بموقعه الحيوى بعد إذ أخطأها البرتغاليون بصورة محيرة وغير مفهومة .

ثم بعدها امتلكوا جزيرة موريشس (التى أعطوها اسم أميرهم موريس) ، وأخيرا احتلوا جزيرة سيلون حيث سيكون لهم دور طويل فيها . أكثر من هذا غامر الهولنديون من جزر الهند الشرقية جنوبا حتى كشفوا ساحل شمال أستراليا لأول مرة في بداية القرن السابع عشر وحتى سميت لحين ما بهولندا الجديدة . كذلك كشف تازمان تازمانيا ونيوزيلند (نسبة إلى زيلند بهولندا) في النصف الأول من نفس القرن . إلا أن هذه الكشوف لم تؤد إلى دور استعمارى ما .

لا . ولم تقتصر الإمبراطورية الهولندية على العالم القديم . بل أسسوا مستعمرات في البرازيل وجيانا . وكانوا هم الذين اكتشفوا لأول مرة رأس هورن الذى يحمل اسم إحدى قراهم . فضلا عن ذلك امتلكوا مفتاح مدخل أمريكا الشمالية في نيو أمستردام (نيويورك فيما بعد) . وعدا هذا فقد تسيّدوا تجارة البحار والمحيطات بالنقل البحرى لكل أوروبا ، حتى سمو أنفسهم « نقلة البحر Wagoners of the sea rouliers des mers » . كما سماهم غيرهم « بقالة أوروبا » .

وسلاحظ عند هذا الحد أن الإمبراطورية الهولندية صورة محرفة للإمبراطورية البرتغالية : ففي أوروبا نفسها لم يكن ثمة مجال لتوسع أى منها ابتداء . أما عبر البحار فكل منها إمبراطورية بحرية ساحلية تتألف من رقع متناثرة . كذلك فقد بدأت تجارة لا توطنا ، وذلك بحكم كثافة السكان في مستعمرات العالم القديم . ومع ذلك فقد تحولت هناك

بالتدريج من الاستعمار الاستغلالي إلى درجة ما من الاستعمار السكنى ومن التجارة إلى الأبعاديات ، بينا في العالم الجديد ساد هذا الطابع الأخير مبكرا .

وكالبرتغال ، لم يكن لتوهج هولندا ولعانها كقوة بحرية أن يبقى طويلا . فهي مثلها تعاني أساسا من قاعدة أرضية محدودة الرقعة ، فقيرة في تربتها وإنتاجها الزراعى ، لا تعرف الكفاية الذاتية حتى في الغذاء ، فاقدة حتى للموارد الغاية والمعدنية اللازمة لبناء السفن . والواقع أنه كان على هولندا أن تستورد كل مقومات حياتها اليومية والغذائية والبحرية شأنها في ذلك شأن بريطانيا فيما بعد ، حتى لقد قيل إن كل رأسمالها لم يكن سوى موقعها الجغرافى وكل خامها لم يكن إلا النقل . ومن ثم كان مقتلها يكمن - كالبرتغال - في حرمانها من تجارتها ...

ثم هى كانت كالبرتغال أيضا تعاني من قوة بشرية محدودة الحجم ، ولها مثلها حدود برية مشتركة مع قوة ضخمة - فرنسا - على يديها سيكون تحطيم قوتها كما خبرت البرتغال على يد إسبانيا . وتما كما اغتنمت هولندا الفرصة لثرت البرتغال ، فستغتنم قوة بحرية أخرى - بريطانيا - الفرصة لثرت هولندا ! بل كانت هولندا في وضع أسوأ من البرتغال ، لأنها وقعت بين شقى رحى فرنسا على القارة وبريطانيا في البحر .

دور الانحدار

فى القرن السابع عشر بدأت كل من فرنسا وإنجلترا تتطلع وتفرج إلى البحر وتنافس هولندا على التجارة العالمية والقوة البحرية . ولكن خطر فرنسا كان الأسبق ، ظهر فى القرن السابع عشر ، غير أن هولندا استطاعت أن تحتفظ بقوتها إزاءها طوال هذا القرن ، فى حين كان موقف إنجلترا أقرب إلى السلام الاسمى ، ولم يتخذ شكلا حربيا إلا فى القرن الثامن عشر . وعموما فلم يكن عداء بريطانيا لهولندا أو خطرهما عليها يصل إلى عداء فرنسا وخطرها . ويتراوح تاريخ الصراع إما بين حروب منفصلة بين هولندا وفرنسا أو بين هولندا وإنجلترا ، وإما بين حروب أحلاف بين هولندا وفرنسا ضد إنجلترا أو بين هولندا وإنجلترا ضد فرنسا .

وفى كل هذه الحالات وأيا كانت النتائج المباشرة للحروب ، كان هذا عبثا خطيرا على موارد هولندا المحدودة وامتصاصا لطاقتها . وقد كان دور فرنسا فى تحطيم قوة هولندا أكبر من دور بريطانيا ، لأن هولندا كانت أضعف على البر منها على البحر كثيرا ، فكان يمكن أن

تواجه بريطانيا بدرجة أو بأخرى ، أما مع فرنسا فلم يكن ظل لندية ما . ومع ذلك فقد كان صراع هولندا مع الإنجليز في البحر مريرا بل وحشيا ، واستماتوا في وجههم لأنهم هم مباشرة الطامعون في تجارة المحيط ، حياة هولندا أو موتها .

ولا يبدأ القرن الثامن عشر إلا وكانت هولندا قد فقدت معظم تجارتها وخسرت كل قوتها البحرية ، وخرجت تماما من دائرة صراع القوة ، وأصبحت بمثابة برتغال الشمال . حتى مستعمراتها أخذت تنقلص فيما بعد ، كما في أعقاب الحروب النابليونية حين انتزعت بريطانيا منها مستعمرة الكاب ، هذا عدا أنها هي نفسها سقطت لفرنسا نابليون . وكما انقضت هولندا من قبل على المستعمرات البرتغالية في الشرق الأقصى ، انقضت إنجلترا على مستعمرات هولندا هناك . ومن الغريب أن هولندا بعد ذلك مالت - تماما كالبرتغال - إلى أن تصبح حليفا تقليديا بل وعالة على الحماية البريطانية سواء في القارة أو في البحر أو في المستعمرات . وباختصار فقد ورثت بريطانيا بالذات دور هولندا مثلما ورثت فرنسا دور إسبانيا .

الاستعمار الفرنسي

مع نهاية القرن الخامس عشر كانت فرنسا قد استكملت وحدتها القومية حول باريس . غير أنها في وصولها وتدعيمها لحدودها الشرقية البرية غير الواضحة دخلت في صراع برى مع القوى المجاورة استغرقها مدى النصف الأول من القرن السادس عشر ، كما أنفقت نصفه الآخر في حروب الإصلاح الديني . كذلك كان عليها أن تقاوم أطماع إسبانيا في السيطرة عليها طوال ذلك القرن . فلم تكن لذلك كله مستعدة للخروج إلى العالم الخارجى سواء في القارة أو عبر البحار إلا مع مطلع القرن السابع عشر .

ولكن إذا كانت قوة إسبانيا قد تدهورت حينذاك ، فقد كانت هولندا في طريقها إلى السيطرة البحرية . ولهذا أصبحت السياسة الفرنسية منذ ذلك الوقت موزعة بين هدفين محوريين : التوسع القارى شرقا وصولا إلى « الحدود الطبيعية les limites naturelles » ، عقدة فرنسا منذ البداية وإلى اليوم ، وبناء قوة بحرية عظمى للتوسع عبر البحار . وقد قام على تلك السياسة كل من ريشيليو وكولبير في القرن السابع عشر . وسيصبح هذان الهدفان والمزق العضوى بينهما ملمحا أساسيا مزمنًا في كل كيان فرنسا المقبل ^(١) .

ولا شك أن فرنسا خلال العصور الحديثة وحتى الانقلاب الصناعي كانت أوسع وأرسخ وأقوى قاعدة أرضية في غرب أوروبا : فهي تكاد تمثل أقصى رقعة للدولة الوطنية الموحدة قبل عصر السكك الحديدية ^(١) . وهي ضعف بريطانيا مساحة ، وكانت إلى ما قبل الانقلاب ضعفها سكانا . ثم هي أغنى القوى بالموارد الطبيعية وأقربها إلى التوازن الحرفي والاكتفاء الذاتي . وقد كان من الممكن لها أن تبنى أعظم قوة بحرية في ذلك الوقت ، بل بنتها بالفعل في بعض مراحل القرنين السابع والثامن عشر ، وكان من الممكن لها أن تكون إمبراطورية استعمارية كبرى ، ونجحت في ذلك فعلا .

إلا أن توزيع اهتمامها بين البحر والقارة ، وحروبها المتصلة في القارة ، كان يمتص مواردها وطاقاتها بإزمان ، ويسلب أكثر مشاريعها البحرية كثيرا من إمكانياتها . وفضلا عن هذا فإن فرنسا ، بغناها الزراعي الداخلي واقتربها التقليدي من الكفاية الذاتية ، لم تكن تشعر بقوة طرد طبيعي على اليابس أو قوة جذب على البحر . كذلك فإنها - كإسبانيا - دولة بحرين مما يعوق وحدة أسطولها البحري ^(٢) . وفي هذا كله تكرر فرنسا دور إسبانيا وتوسعاتها إلى حد بعيد وإن يكن على نطاق أكبر . والحقيقة أنها ورثت إسبانيا استراتيجية مثلما ورثت هولندا البرتغال ، وكما كان على إسبانيا أن تواجه البرتغال كان على فرنسا أن تتصدى لقوة هولندا الطافرة .

في أوروبا

وقد بدأت فرنسا بانتزاع الأراضي المنخفضة (بلجيكا) من إسبانيا المتداعية في منتصف القرن السابع عشر . وبدأت حروبها ضد هولندا مستفيدة من تحالف إنجلترا معها ضدها في بعض الحالات حتى تداعت قوة هولندا على يدها في نهاية القرن . ولكن فرنسا رغم ما تراكم لديها من قوة بحرية ضخمة لم تكن تسيطر على التجارة المربحة إلا إلى حد ضئيل ، وظلت - بحريا - قوة عسكرية أكثر منها تجارية . ولذلك فقد كانت إنجلترا هي التي ورثت دور هولندا التجاري رغم أن فرنسا هي التي حطمت قوتها عسكريا - تماما كما كانت إسبانيا هي التي حطمت البرتغال ولكن التي ورثتها هي هولندا !

Mogey. p. 125.

Ibid. p. 124.

(١)

(٢)

ولذلك أيضا كانت هذه القوة البحرية كاستهلاك لا يقابله إنتاج عبثا على مواردها . وقد كان أمام فرنسا إمكانية بناء إمبراطورية تجارية في البحر المتوسط والشرق العربي تزرى بهولندا وتعجز إنجلترا ، إلا أن ترددها بين الاهتمامات القارية البرية والتوسع البحري بدد مشاريع كولبير وضع نصيحة الفيلسوف لبيترز المعروفة في هذا الصدد .

ورغم أن قوة بريطانيا البحرية حريا وتجاريا كانت تطفر في القرن الثامن عشر باستفحال ، ورغم أنه كان على فرنسا أن تتصدى لها بحيث تحول هذا القرن إلى صراع ثنائي خطير بينهما ، فإن من الممكن أن نعد القرن الثامن عشر قرن فرنسا كأكبر قوة في أوروبا ، فقد كانت تفوق بريطانيا على القارة برا ، ولا تقل عنها بحرا . وقد جمعت فرنسا قواها مع إسبانيا خلال القرن عدة مرات في حروب مطولة ضد بريطانيا بسبب توسع تجارة هذه توسعا خطيرا . ولكن ظلت صراعات فرنسا القارية خاصة مع النمسا تستنزف طاقتها .

وفي أواخر القرن كان الفارق في القوة بين فرنسا وإنجلترا يزداد ضيقا ، إلى أن كانت انتفاضة فرنسا نابليون بعد الثورة وفيها وصلت السيادة الفرنسية في أوروبا إلى قمتها - ولكن أيضا إلى نهايتها . فقد انتهى لمعان القوة الفرنسية وبريقها الشديد كالشهب إلى احتراق أخير ، لتعطي فرنسا مكان الصدارة لبريطانيا .

تفصيل ذلك أن نابليون حاول أولا أن يؤسس إمبراطورية في المشرق في مصر والشام تكون مواقع الخطى إلى الهند كي يضرب بريطانيا فيها ، أو لتكون مصر لؤلؤة الإمبراطورية الفرنسية في مقابل الهند لؤلؤة الإمبراطورية البريطانية كما قيل . وفي مرحلة تالية حاول أن يغزو بريطانيا في جزيرتها ، لكن قصور فرنسا البحرية التقليدي وصل إلى قمته في هذه المحاولة التي انتهت بالطرف الأغر . وكانت المرحلة الأخيرة هي « الحصار القاري » لبريطانيا لحرمانها من كل تجارة أوروبا . وفي هذا السبيل أخضع أوروبا جميعها عدا السويد والنطاق العثماني ، كما انتهى به إلى حملة روسيا القاتلة . ولعل هذه كانت أعظم إمبراطورية أوربية شهدت العصور الحديثة إن لم يكن التاريخ جميعا . لكن تلك كانت نقطة الضعف النهائية : فقد اتسعت الجبهة إلى مدى غير عملي ، فجاءت النهاية نتيجة للاستنزاف المطلق لقوة وموارد فرنسا (١) .

عبر البحار

تلك التوجهات وهذه الصراعات تنعكس بوضوح على الاستعمار الفرنسي عبر البحار .
ففي النصف الأول من القرن السادس عشر وصلت فرنسا في العالم الجديد إلى الست لورنس (جاك كارتيه) ، وأسست في النصف الأول من القرن التالى مستعمرتها الكبرى في كيبيك (كويك) كنواة لكندا الفرنسية أو « فرنسا الجديدة » (شامبلين) . وقد بدأت هذه حقول صيد للفراء ثم حقول توطن وزراعة ، ولكنها ارتبطت بصرامة بالنهر حيث كانت الكتلة اللورنسية الغابية الجرداء إلى الشمال تضع حدا للتوسع ^(١) . وحتى على النهر ، ارتبط التوسع بآخر حد للملاحة المحيطية الممكنة حينذاك ^(٢) .

ومن البحيرات اقتيدت فرنسا تلقائيا إلى قلب القارة ، فهبطت في النصف الثانى من القرن السابع عشر مع المسيحي حتى وصلت إلى الخليج (لاسال) . وعلى محور نهري - مرة أخرى - أسست مستعمرة لويزيانا المترامية التي تشمل القطاع الأكبر من سهول وسط القارة ^(٣) . والحقيقة أن فرنسا كانت خير من أفاد من الأنهار في التوسع السياسى واتخذت منها هيكلًا لإمبراطوريتها في العالم الجديد ^(٤) . وفي الحالين سيرى الطابع القارى أو البرى واضحا في الارتباط بنهر ، بل في الارتباط بقلب القارة .

على أن ضخامة المستعمرات الفرنسية في أمريكا الشمالية جاءت في النهاية نقطة ضعف لا قوة . فبعكس بريطانيا في الولايات الثلاث عشرة التي تحصرها الأبلاش واللبجنى ، كان من سوء حظ فرنسا بعد توغلها في الست لورنس أنها لم تجد عقبة طبيعية كبرى توقف توسعها حتى توطد أقدامها وتعمق وجودها فيها ملكته . ولهذا أدى تقدمها الكاسح السريع إلى لويزيانا إلى أن أصبح وجودها كله مساحة لا كثافة ، قوة بشرية ضئيلة في رقعة قارية هائلة ، ولهذا لم تستطع أن تحتفظ بها طويلا ^(٥) .

وفيما عدا هذا اتجهت فرنسا في العالم الجديد إلى جزر الهند الغربية ، حيث نجحت في أن تنتزع عددا من جزرها الصغرى من إسبانيا أهمها جواديلوب والمارتنيك . كما قفزت منها

Th. Pickles, North America, 1954, p. 2.

(١)

Church, p. 21.

(٢)

E.C. Semple, Influences of geog. environment, 1911.

(٣)

Mogey, p. 128.

(٤)

L. Rodwell Jones, W.P. Bryan, North America; Fairgrieve, p. 309.

(٥)

إلى الساحل المقابل في أمريكا الجنوبية لتتخذ لها موطئ قدم في جيانا الفرنسية . وحتى ذلك الوقت كانت التجارة أسهل وأربح من التعمير ، ولذلك كانت جزر الهند الغربية تدر على فرنسا عائدا أكبر من لويزيانا وكندا . والحقيقة أن هذا يرجع أيضا إلى قيمة المحاصيل المدارية والحاجة إليها في أوروبا بالنسبة إلى محاصيل أمريكا الشمالية التي كانت على أحسن تقدير تكرر إنتاج أوروبا .

أما في العالم القديم فقد اتجهت فرنسا إلى الهند الشرقية ولكن الهند خاصة . فأنشأت مجموعة من القواعد التجارية على سواحل الهند شرقا وغربا وتوغلت منها إلى الداخل قليلا أو كثيرا (ديبليه Duplex وشركة الهند الشرقية الفرنسية) . وقد نشطت تجارة فرنسا مع هذه المستعمرات نشاطا كبيرا في القرن السابع عشر . ولكن المنافسة والصراع مع بريطانيا سلب فرنسا كثيرا من تلك التجارة أولا ، ثم كثيرا من تلك المستعمرات نفسها ثانيا . فبعد أن أسرت المنافسة البريطانية كثيرا من تجارة فرنسا في الهند ، بدأ الغزو والفتح ، وخسرت فرنسا الحرب بسبب قصورها البحري ، فضاعت منها الهند بعد حرب السنوات السبع التي انتهت في ١٧٦٣ ، ولم يبق لها إلا بعض جيوب ساحلية رمزية بحتة تتوزع في شاندرانا جور ويانون وبونديشيري وكريكال وماهي !

وفي نفس الوقت ، تكرر نفس المصير في العالم الجديد . فقد انتقل صراع فرنسا - بريطانيا إلى كندا ، ونجحت الأخيرة بفضل قوتها البحرية وقصور فرنسا البحرية في انتزاعها بعد حرب السنوات السبع وتحويلها إلى دومينيون بريطاني . ومرة أخرى لم يبق لفرنسا إلا بقايا تذكارية شكلية في جزيرتي سان بيير وميكلون تجاه ساحل نيوفاوندلند ! وإذا كانت فرنسا قد عادت بعد قليل في حرب الاستقلال الأمريكية لمساعدة أمريكا وحاربت مع إسبانيا ضد بريطانيا إلى أن طردت هذه في النهاية ، إلا أن فرنسا بدورها سرعان ما فقدت لويزيانا في صفقة البيع السياسية التي قام بها نابليون . والحقيقة أنها لم يكن من الممكن الاحتفاظ بها بعد أن اضطرت قوة بحرية أكبر إلى الخروج من القارة^(١) .

وهكذا يمكن أن نخلص إلى أن أغلب مساحة الإمبراطورية الفرنسية التي تكونت في الموجة الأولى للاستعمار في القرنين السادس والسابع عشر ، سواء في العالم الجديد أو القديم ، سواء في العروض المعتدلة أو المدارية ، قد ضاعت قبل أن تبدأ الموجة الثانية في

(١) فايفيلد ويرسي ، ج ٢ ، ص ٧ ص ١٧١ - ١٧٢

القرن التاسع عشر. وهى قد ضاعت أساسا على يد بريطانيا. بل أكثر من هذا يمكن أن نقرر أن فرنسا خرجت من تلك الموجة الأولى بإمبراطورية متواضعة - بقايا إمبراطورية - أقل اتساعا وغنى مما خرجت به أى من البرتغال أو إسبانيا أو هولندا - عدا بريطانيا بالطبع. ولعل فرنسا وحدها هى التى تنفرد بهذه الحقيقة الغريبة فى تاريخ الاستعمار. ومعنى هذا أيضا أن إمبراطورية فرنسا، كما كانت فى عصر ما قبل التحرير المعاصر، ترجع أصولها فى معظمها إلى موجة الاستعمار الثانية فى القرن التاسع عشر.

الاستعمار البريطانى^(١)

الحقيقة الكبرى والضابط الحاسم فى تاريخ بريطانيا السياسى والاستعمارى هى أنها بصدفة جيولوجية جزيرة قارية: من القارة وليست فيها. فرة قد تفرض عليها جزيرتها التخلف، فإذا بها مرة أخرى ترعى نموها، ومرة ثالثة تضمن تقدمها. تفسير ذلك أن بريطانيا مرت بثلاث مراحل واضحة فى تطورها: المرحلة الاستعمارية، فالقارية، فالجزرية. الاستعمارية حين خضعت لغزوات وموجات القارة أيام الأنجلز والسكسون، والقارية حين حكمت أجزاء من فرنسا فى العصور الوسطى، والجزرية حين انعزلت عن القارة قبيل عصر الكشف^(٢).

المرحلة الجزرية

ولكن جزيرة بريطانيا ليست وحدها كل شيء، إذ لا يقل عن ذلك أهمية أنها جزيرة كبيرة فسيحة، يعنى أنها تقدم قاعدة أرضية عريضة متعددة الموارد يمكن أن تقيم دولة كبيرة. ولولا هذا لما زادت عن مجرد تابع أو ذيل لقوة مقابلة على القارة، أشبه شيء بصقلية مثلا ولكن دون تاريخها المفعم. ولئن كانت بريطانيا لا تزيد مساحة عن نصف فرنسا، فإن السهل الإنجليزى - نواتها النووية سياسيا واقتصاديا - لا يقل كثيرا عن مساحة السهل الفرنسى. ومع هذا فإن قوة الطرد على اليابس والجذب إلى البحر أقوى بلا شك منها فى حالة فرنسا. ولهذا فبريطانيا هى البيئة البحرية الكاملة التى حملت قوة بشرية كبيرة أولا، وخلقت أمة ملاحية من الدرجة الأولى بعد ذلك، ومنحتها فى نفس الوقت عنصر

Fairgrieve, p. 161-196; Fawcett, p. 421-428; Whittlesey, p. 96-128;

(١)

فايفيلد ويرسي، ج ٢، ص ١٠٨ - ١٦٠

Democratic Ideals, p. 56.

(٢)

الحماية وحفظتها من اضطرابات وقلقلات القارة .

ومنذ الكشف تطور موقع بريطانيا تطورا جذريا . فقبلها كانت على نهاية العالم ، ولا تؤدي إلى شيء . كانت بالضبط « أستراليا العصور الوسطى » كما قيل - بل وفي أكثر من معنى ذلك : فلقد كانت كل ثروتها الصوف الذى تصدره إلى القارة ، خاصة إلى هولندا وإيطاليا . ولكن الكشف الجغرافية حولت هذا القطب السالب المعزول المتطوح إلى قطب موجب في قلب المعمور المتمدن ما بين العالم القديم والجديد . وفي هذا المعنى يمكن أن نقول إن إسبانيا والبرتغال بكشوفهما هما - بلا قصد - اللتان أعطتا بريطانيا حياة جديدة ومكانة جديدة في العالم .

ولقد أنفقت بريطانيا العصور الوسطى في الحروب الاقطاعية ثم الإقليمية لتنسج وحدتها السياسية دون ما خطر من الحروب الخارجية التي يمكن أن تؤثر تلك الوحدة . وبفضل هذه « العزلة الرائعة splendid isolation » كانت أولى دول أوروبا إلى تحقيق الوحدة القومية في العصور الحديثة . وقد حررها هذا التنزل إلى البحر الذى جعلته العروض الشمالية العاصفة والبيئة المديّة المتلاطمة مدرسة بحرية قاسية ولكنها ممتازة ، تتطلب المرونة قبل الضخامة والمناورة قبل الحجم :

ومع ذلك فلم تكن بريطانيا مهيأة لتخرج إلى البحار حين الكشف أو بعدها ، حيث كانت السيادة للبرتغال وإسبانيا ثم هولندا وفرنسا ، وظلت هي في منطقة الظل أو شبه الظل . ولكنها في حدود هذا الظل كانت تحاول - خلال القرن السادس عشر - أن تلتقط أى مكسب أو فتات من التجارة المحيطية إما بعيدا عن النفوذ الإسباني أو مغافلة له . بعيدا عنه - بالاتجاه إلى العالم الجديد من طريق شمالي متطوح ، فكان أول خروج لها نحو الشمال الغربى حيث اكتشفت في آخر القرن الخامس عشر نيو فون ديلند ولبرادور (جون كابوت) ، وهى دائرة محدودة القيمة التجارية .

أما مغافلة له - فبالتمسك إلى المستعمرات الإسبانية الاحتكارية S. main للتجارة معها سرا . فبدأت بين الجانبين « حروب عصابات بحرية » بكل معنى الكلمة ، فكان هذا عصر القرصان المشهور بكل مغامراته وإثاراته وملاحمه التى دارت على البحار العليا والبحار الدافئة وتمركزت خاصة في الكاريبي ، والتي تؤلف « ساجا » بحرية أسطورية تكاد تكون « ألف ليلة » الغرب أو العصور الحديثة إلا أنها دموية عدوانية . وفي هذه القرصنة الدامية ستكون نواة البحرية والاستعمار البريطانيين .

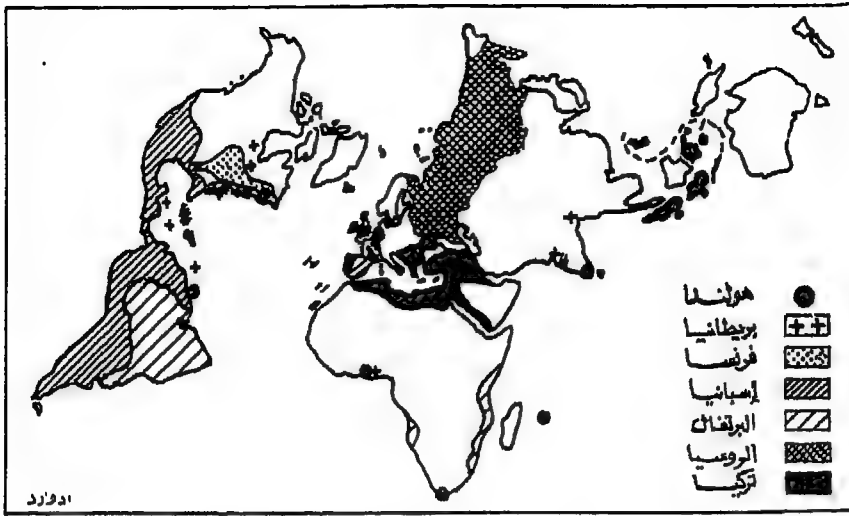
الإمبراطورية البحرية

وفي هذه الفترة كان كل ما تطمح إليه بريطانيا في وجه أطماع القوى السائدة هو أن تحافظ بحذر على استقلالها ، وذلك بمضاربتها بعضها ببعض - إسبانيا بفرنسا خاصة . إلى أن حاولت إسبانيا غزوها بالأرمادا في ١٥٨٨ : فكانت المعركة بين الضخامة والمرونة ، وانتصرت المرونة لأن سفن الأرمادا كقلاع عائمة حقيقية كانت ثقيلة بطيئة ، بينما سفن القرصنة البريطانية (دريك) خفيفة سريعة . لقد تغلبت بحرية العروش العكسية الشمالية العاصفة القاسية على بحرية العروش التجارية المعتدلة الهادئة ... نتيجة منطقية !

مع أن هزيمة الأرمادا لم تضع مباشرة حدا لقوة وإمبراطورية إسبانيا ، فإنها فتحت الباب على مصراعية أمام بريطانيا لتدخل الميدان البحري والتجاري الجديد مع افتتاح القرن السابع عشر . ففي غضون عقدين كانت قد أسست بنجاح أول مستعمرة في جيمزتون « والدومنيون القديم » في فرجينيا في ١٦٠٧ على يد رالي . وقبلها بقليل أنشأت شركة الهند الشرقية ووصلت سفنها إلى الهند وشاركت في تجارتها . وفي نفس الجيل استقر « الآباء المهاجرون Pilgrim fathers » في نيوإنجلند .

ولكن في هذا القرن - السابع عشر - كان على بريطانيا أن تواجه قوة هولندا التجارية وقوة فرنسا الحرية . ورغم أن قوة فرنسا كانت الأكبر والأخطر ، فقد كان الذي يعنى بريطانيا مباشرة هو هولندا لأنها هي المحتكر الحقيقي للتجارة المحيطية التي تتطلع إليها . ولذلك ورغم أن بريطانيا وقفت في عدة حروب مع هولندا ضد فرنسا حتى لا تتعظم قوة الأخيرة إلى درجة تهدد الجميع : فالأغلب أن بريطانيا كانت إما تترك هولندا تواجه فرنسا وحدها وإما تنضم إلى فرنسا في صراعها لتحطيم هولندا .

وفي خلال هذا جميعا كانت كل خسائر هولندا وفرنسا تتحول إلى حساب بريطانيا مكاسب وأرباحا . فكانت التجارة عبر البحار تنتقل إليها بالتدريج ، حتى إذا ما حطمت فرنسا قوة هولندا نهائيا في أواخر القرن كانت بريطانيا قد ورثت بالفعل معظم دورها التجاري . وورثت لندن وپرستول أنتورب وأمستردام ، باختصار ورثت بريطانيا موقع ودور هولندا . وإذا قلنا إن بريطانيا ورثت موقع ودور هولندا ، فقد قلنا في الحقيقة وإن يكن بطريق غير مباشر إنها ورثت موقع ودور البرتغال ، وبطريق غير مباشر أكثر موقع ودور العرب القديم : وبالتحديد مصر .



شكل (١٠) الاستعمار العالمي في سنة ١٧٠٠

نعم مصر ! فلقد أصبحت بريطانيا في عصرها التجارى الجديد في العالم بنصفه في موقع ووظيفة أشبه ما يكون بموقع مصر ووظيفتها في العالم القديم أثناء العصور الوسطى : هى همزة الوصل بين العالم القديم والجديد بمثل ما كانت مصر همزة الوصل بين آسيا وأوروبا ، وهى تقع في ركن المحيط الأطلسى أو البحر المتوسط الجديد بمثل ما تقع مصر على أرض الزاوية من البحر المتوسط القديم .

ولم يكن غريبا بعد ذلك كله أن تصبح التجارة بعدا أساسيا في حياة بريطانيا بعد أن كانت دولة زراعة ورعى وصيد ، وأن تصبح بحق « أمة من أصحاب الحوانيت a nation of shopkeepers » على حد تعبير نابليون فيما بعد ، وأن يصبح « بنك إنجلترا » رمزا عتيذا للمركائليه العارمة . فضلا عن احتكار التجارة ، فقد نجحت بريطانيا في صلح أوترخت في أن تنتزع جبل طارق وبورت ماهون في البحر المتوسط ، وتأكد امتلاكها لنيفوندلند ونوفاسكوشيا .

وهنا لابد أن نلاحظ كيف يكرر الموقف المواقف الصراعية السابقة : فرنسا الضخمة الأكثر قارية تحطم هولندا الأصغر حجما الأكثر بحرية ، فترثها دولة بحرية أكبر إلى الشمال هى بريطانيا ، مثلما حطمت إسبانيا الكبيرة شبه القارية من قبل البرتغال الصغيرة البحرية فورثتها هولندا البحرية الشمالية .

وهنا أيضا لابد أن نلاحظ سياسة بريطانيا الجزرية : فقد كان محورها دائما أن تترك القوى الأخرى على القارة تتصارع ، وأن تغذى هذا الصراع حتى تضعف جميعا . فتتقدم هي لترتها وهي بمنأى في جزيرتها عن خطر الصراع نفسه . وفي نفس الوقت كان توازن القوى على القارة هدفها الآخر . فكانت تعمل على ألا تسود قوة واحدة كبرى في القارة . ولهذا كانت الحليف التقليدى للقوى الصغيرة التى سبق أن عادت بها وساهمت في انحدارها . وذلك ضد القوى الكبرى الجديدة . هكذا وقفت مع البرتغال ضد إسبانيا ، ثم مع هولندا ضد فرنسا ، ثم كما سنرى فيما بعد مع فرنسا ضد ألمانيا . فهى عدوة القوى الذى قد يهددها ، وحليفة الضعيف الذى لا يهددها . ولعل هذا هو ما أكسبها التسمية غير الأثيرة « perfidious Albion الغادر » .

الصراع البريطانى - الفرنسى

هكذا إذن لم يبق إلا فرنسا والقرن الثامن عشر . ورغم سيطرة فرنسا الواضحة في القارة فإنها لم تستطع أن تمنع بريطانيا من الانطلاق نحو السيادة على البحار واحتكار التجارة المحيطية والتوسع الاستعماري . وقد بدأت بريطانيا بتحالفها مع عدوها السابق المهزوم هولندا ضد القوة السائدة الجديدة فرنسا . ثم أصبح القرن قرن الصراع بين بريطانيا وفرنسا . وكان الفارق الرئيسى أن فرنسا مرتبطة في صراعاتها بالقارة ولها جبهتان برية وبحرية ، بينما لبريطانيا جبهة واحدة بحرية .

من هنا كانت الأولى مضطرة إلى الاحتفاظ بجيش برى ضخم ، وتهمل الأسطول عمدا وبالضرورة ، بينما كان جيش بريطانيا البرى دائما رمزيا ولم تحاول قط أن تنافس فرنسا على البر ، والقوة كلها للأسطول . ولذا فما دامت بريطانيا قادرة على منع غزوها بحرا ، فلا قيمة لضخامة جيوش فرنسا ضدها . بينما على العكس : ما دامت فرنسا أضعف في البحر فأمام بريطانيا الفرصة لضربها في مستعمراتها عبر البحار وانتزاعها منها . أى أن وجود حدود برية لفرنسا كان جديرا في النهاية بأن يكلفها ضياع إمبراطوريتها الاستعمارية ، بينما كان تحرر بريطانيا من الحدود البرية كفيلا بأن يمنحها إمبراطورية استعمارية كاملة . وهكذا بالفعل كان .

فمن ناحية لم تستطع فرنسا أن تضرب بريطانيا في جزيرتها . والواقع أن أحدا لم يستطع أن يغزوها منذ الفتح النورماندى حتى يومنا هذا . فقد كان الأسطول كفيلا بقطع الطريق على أية محاولة كهذه . ولقد تحدت فرنسا - ومعها إسبانيا - قوة بريطانيا البحرية مرات

عديدة في القرن الثامن عشر في حروب ممطوطة مطولة . ولكن هذه كانت تخرج في كل مرة أقوى ، بينما غالبا ما كانت فرنسا تخسر شيئا من مستعمراتها . فقدت أولا كندا حين عزلتها بريطانيا بحرا في كويك وعجزت البحرية الفرنسية عن معاوتها وبذلك سقطت كدومينيون لبريطانيا في ١٧٦٣ ، كما ارتفع الضغط الفرنسي بذلك عن ضلوع بريطانيا في نيوإنجلند .

ثم فقدت فرنسا بعد ذلك الهند التي غزتها بريطانيا بقليل من قواتها ولكن بكثير من القوات الهندية (١) وضممتها في ١٧٦٣ « كالاإمبراطورية الثانية » بعد ضياع الولايات المتحدة ، وخرجت فرنسا إلا من جيوب وأسافين لا وزن لها . ومما يلاحظ أن بريطانيا اقتربت أولا كالبرتغال من الهند من الغرب ، من بومباي بالذات ، ولكنها مثلها لم تستطع أن تمرق إلى الداخل من تلك الجهة الجبلية المغلقة ، فعادت ودارت حول شبه الجزيرة لتقتحمها من بوابتها البحرية الوحيدة والصحيحة وهي بوابة الكنج (الهوجل سید) . وما أن وضعت قدمها على المدخل الطبيعي وانفتح الطريق أمامها إلى قلب شبه القارة حتى أخضعتها جميعا وحطمت إمبراطورية « المغول الأكبر » ليبدأ « الراج Raj » البريطاني في الهند (١) . هذا ، وإذا كانت بريطانيا قد وضعت قدمها في « حذاء » الهند بدل فرنسا في منتصف القرن الثامن عشر ، فقد استغرقت قرنا كاملا أي حتى منتصف القرن التاسع عشر لتبسط نفوذها على جميع أجزائها .

على أن بريطانيا خسرت في تلك الفترة « إمبراطوريتها الأولى » في الولايات الثلاث عشرة في أمريكا . فقد ثارت الولايات في حرب الاستقلال في مرحلة ضعف لقوة بريطانيا البحرية ، وانتصرت لبعد المسافة وضعف الارتباط ، ولكن أيضا لمساعدة فرنسا وإسبانيا للانفصال (١٧٨٣) . على أن ضياع الولايات الثلاث عشرة أدى إلى خروج كثير من المعمرين (الموالين لبريطانيا loyalists) وهجرتهم إلى كندا من ناحية وإلى أستراليا من ناحية أخرى ، أي إلى تحويل تيار الهجرة والتعمير إلى مناطق الدومينيون التي كانت مهمة والمساعدة في تدعيم الإمبراطورية الثانية . وهذا يذكرنا بما حدث من تحويل اهتمام البرتغال إلى البرازيل المهمة حين ضاعت إمبراطوريتها في الشرق والعالم القديم .

وقد عاد الصراع بين بريطانيا وفرنسا على أعنى مستوى مع نابليون الذي كان أعظم تحد واختبار لقوة البحر . وقد فشلت كل مشاريعه البحرية ضد بريطانيا سواء في مصر أو في غزو

Mackinder, Scope & methods, Raj etc., p. 28.

(١)

بريطانيا . فقد خسر أسطوله في أبو قير في الأولى وفي الطرف الآخر في الثانية . وبهذا عجز عن الوصول إلى بريطانيا أو مستعمراتها بسبب تفوق قوة البحر البريطانية أساسا . ومنذ البداية أدرك نابليون أن العقبة الوحيدة في طريقه إلى السيادة العالمية هي قوة البحر البريطانية . وحين سيطر على أوروبا جميعا كانت هذه وحدها هي العقبة التي تحطم عليها في النهاية . ولهذا تعد الطرف الآخر بداية السيطرة العالمية المطلقة لقوة البحر البريطانية التي ستظل أكثر من قرن دون تحد ، بل سيصبح القرن التاسع عشر بلا منافسة قرن السيطرة البريطانية العالمية .. .

ولا شك أنه لما يدعو إلى التساؤل كيف استطاعت بريطانيا أن تقف بمفردها إزاء نابليون ومعه أو تحت سيطرته كل أوروبا . ولكن الحقيقة أن بريطانيا كانت تقف ووراءها كل موارد الإمبراطورية والاستعمار عبر البحار ، وأهم من ذلك أنها كانت تقف وأمامها ذلك « الشريط الذهبي golden streak » الحامى العتيد كما يسمى الإنجليز قنال المانش . والواقع أنه - في ضوء هذا العرض الاستراتيجي التاريخي - قد لا يوجد في العالم عشرون ميلا ونيف من الماء لعبت دورا في التاريخ كما لعب المانش .

هذا وقد خرجت بريطانيا من الملحمة النابليونية بمزيد من المستعمرات . فقد انتزعت الكاب من هولندا ، وحصلت على سنغافورة بالشراء البخس في ١٨١٩ ، كما كانت قد ضمت مالطة أثناء الصراع . وسيلاحظ في هذه جميعا صفة المواقع البحرية الاستراتيجية التي تعد مفاتيح حيوية في إمبراطورية بحرية مترامية ، وهي الصفة التي ستتلور بصورة حاسمة فيما بعد في تركيب هذه الإمبراطورية .

الاستعمار البحري :

خطوط عامة

تلك إذن قصة الاستعمار وصراع القوى الاستعمارية الجديدة في الموجة الأولى للإمبريالية في العصور الحديثة . بماذا يمكن أن نخرج منها ؟ - بعدة حقائق عامة بعيدة المغزى .

الخروج البحري

فأولا ، بعد أن كانت أوروبا حبيسة في شبه جزيرتها في موقف دفاعي ، محاصرة بين قوى مختلفة من كل الجهات في العصور الوسطى ، انقلب الوضع وأخذت جانب الهجوم

على عوالم جديدة برمتها ، وفرضت حصارها على القوى القديمة من خلف أو من قدام . وكان هذا بداية سيادة أوربا على العالم . على أن الخروج الاستعماري قد ارتبط بدول غرب أوربا البحرية الساحلية وحدها ، بينما كانت بقيتها الداخلية بعيدة عنه . كذلك لم تشارك الدول البحرية الساحلية الضئيلة أو الصغرى . فرغم بعض محاولات ثانوية للغاية لأمثال الدنمرك والنرويج وبراندنبرج ، فإنها تخلفت عن السباق تماما . وباختصار فقد ارتبط الاستعمار الحديث أشد الارتباط بالحيط ونداء البحر والموقع الساحلي .

ويلاحظ في هذا الخروج البحري أن اتجاه كل من البرتغال وإسبانيا إلى أمريكا الجنوبية ، وكل من فرنسا وبريطانيا إلى أمريكا الشمالية ، إنما هو توجيه طبيعي يتسق إلى حد كبير مع المنطق الجغرافي وخطوط العرض وإمحاءات الموقع ، وكذلك مع تشابه البيئة الطبيعية بين الموطن والمهجر . ومن هنا انتهى العالم الجديد إلى عالمين : لاتيني في الجنوب وأنجلو-سكسوني في الشمال ، يتناظران بصورة عامة مع ترتيب الأوطان الأم . وكما تحتل إسبانيا الرقعة الكبرى من أمريكا اللاتينية وتكمل البرتغال بدور ثانوي بالاضافة إلى شطايا هولندية وفرنسية وبريطانية ، تحتل بريطانيا مركز الصدارة في أمريكا السكسونية وتأتي فرنسا في مرتبة ثانوية مع تذييل إسباني . ولما كان خروج أيريا البحري قد سبق خروج شمال غرب أوربا بنحو قرن ، فإن تاريخ أمريكا الجنوبية يسبق هو الآخر تاريخ أمريكا الشمالية بنحو هذا المدى^(١) .

القومية والاستعمار

ثانيا ، كانت الوحدة القومية شرطا أساسيا سابقا مسبقا للخروج الاستعماري ، إذ لم يكن من الممكن القفز إلى العالم الخارجي قبل ترتيب البيت داخليا . فكان الخروج نتيجة للوحدة وعلامة عليها ، وترتيب توقيته يعكس الترتيب الزمني لتحقيق تلك الوحدة . ومع الوحدة القومية أتى استعمار الكشوف ، ومع الاثنين أتى الانقلاب التجاري ، ومع الجميع أتت - أخيرا - البورجوازية الليبرالية . فقد انصبت مكاسب المراكنتليه والتجارة الاستعمارية في العواصم والمدن الكبرى والموانئ لتخلق تركيبا اجتماعيا جديدا أزاح فلول الاقطاع نهائيا وأحل محله مجتمع التجار والمهنيين ، مما « برجز » مجتمع المدن وغلب الفكر الليبرالي والأوليغاركي على الحكم المطلق .

ومعنى هذا أن استعمار الكشوف خلق طبقة جديدة قوية تنافس الطبقة القديمة التقليدية التي كانت تحتكر السلطة والحكم في المجتمع . فالصراع الجديد هو في الحقيقة صراع بين أصحاب الموارد المحلية في الوطن ، وأصحاب الموارد المتدفقة من عبر البحار . ولقد كانت الثورة الفرنسية هي نقطة الانكسار العنيفة في هذا التطور حيث التحمت البورجوازية المتعاضمة - على فيض مكاسب مستعمرات ما وراء البحار - التحاما نهائيا مع بقايا الاقطاع الزراعى المتحفرة وختمت على مصيرها ووضعت بذلك جرثومة أو خميرة الرأسمالية الناشئة . وبمعنى آخر ، فإن الكشوف قد ثورت الكيان السياسى والاقتصادى والاجتماعى لدول أوروبا البحرية تثيرا ، وكانت بذلك الأساس لهيكل النظام الجديد .

ومن المحتمل أنه لو لم تحدث الكشوف الجغرافية لتأخر الانتقال من الحقب الاقطاعى إلى الحقب البورجوازى كثيرا أو قليلا . ولعلنا كذلك لا نسرف في التصور إذا قلنا إن هذا التطور من الاقطاع نحو البورجوازية كان يمكن أن يكون أصلا وأساسا من نصيب الشرق العربى عامة ومصر والشام خاصة لو لم يكن قد حدث هذا الأسر التجارى الكامل . ولعل هذا أيضا أن يفسر لماذا تجمد المجتمع العربى الوسيط على النمط الاقطاعى حتى خضرم فيه إلى صميم القرن التاسع عشر بل والعشرين حين قفز مرة واحدة من الاقطاع إلى الرأسمالية دون أن يمر بمرحلة البورجوازية بمعناها الكامل . لقد ورث غرب أوروبا الجديد دور الشرق العربى القديم ليس موقعا ووظيفة فحسب ، ولكن ورث قدره السياسى والاجتماعى كذلك .

ميكانيزم الصراع

ثالثا ، يرتبط صراع القوى السياسية ارتباطا وثيقا جدا بالصراع الاستعمارى . فمن أجل الصراعات الداخلية بين القوى الأوربية في القارة خرجت للحصول على المستعمرات لتعود أقوى وأقدر على تلك الصراعات ، ومن أجل الحصول على المستعمرات كانت القوى الأوربية تتصارع فيما بينها على القارة ^(١) . من ثم كان النشاط الاستعمارى ظاهرة « معدية » . وقد تحرك مركز الثقل في النشاط الاستعمارى وفي صراع القوة حركة قاطعة من الجنوب إلى الشمال بصرامة ما بين البرتغال جنوبا حتى بريطانيا شمالا . ولعل هذا جزء واضح العالم من نظرية هجرة الحضارة والقوة نحو العروض الشمالية . وإذا فهم البعض

(١) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

هذا على أنه يعنى انتقال التفوق إلى البلاد الشمالية ، فلا ينبغي أن ينسوا أنه يعنى كذلك تخلفها في البداية .

والهم أنه في هذه الحركة تأخذ ميكانيكية الصراع بين القوى البحرية - الذى هو صراع أشباه أساسا من أجل التصفية النهائية للقوة العالمية - تأخذ نمطا محددا ومتواترا بصورة مثيرة . فهي تبدأ بدولة رائدة صغيرة بحرية جدا بحكم الموقع والطبيعة ، تلحقها دولة متاخمة أكبر حجما وأقل بحرية ، لا تلبث بحكم جرمها أن تحطم قوتها ، ولكنها تعجز عن أن تراث دورها ، وإنما تلتقطه ببراعة دولة أخرى صغيرة بحرية جدا إلى الشمال . هكذا ظهرت البرتغال أولا وتلتها إسبانيا لتحطمها بعد قليل ، فترثها هولندا ، ثم تلى هولندا على المسرح فرنسا لتحطم هولندا و شيكا ، فترثها بريطانيا . وسرى فيما بعد إلى أى حد ستستمر أو تنتهى هذه الميكانيكية الفذة في بقية مراحل الاستعمار الحديث .

الموقع والموضع

رابعا ، في هذا الصراع لم يكن البقاء لمن يملك القوة البحرية وحدها ، بل والقوة البرية إلى جانبها . فقد كانت القاعدة الأرضية القومية العريضة هي الضمان الأخير لبقاء تلك القوة البحرية . فإذا كانت الدول المحرومة من القوة البحرية لم تخرج إطلاقا إلى الاستعمار مهما ملكت من قوة برية ، فإن الدول التى تملك القوة البحرية دون قاعدة برية متكافئة تسندها وتدعمها ، قد تخرج إلى عالم الاستعمار قليلا أو كثيرا ولكنها لا تلبث أن تنقرض في النهاية . أما النجاح الأكبر فللدول البحرية القوية ذات القاعدة البرية الضخمة^(١) . وبمعنى آخر ، فإن « الموقع » البحرى الأمثل وحده لا يكفي وإن أعطى أحيانا ميزة السبق ، وفي المدى الطويل يلعب « الموضع » دورا تحديديا أخطر وأكثر بقاء . كما كان السمك الكبير - يعنى - يأكل السمك الصغير في المستعمرات ، كان السمك الأكبر بين القوى الاستعمارية البحرية يأكل السمك الأصغر !

استعمار ساحلى

خامسا ، إذا كان الاستعمار قد قرع أبواب أغلب القارات في تلك المرحلة ، فقد ظل في جوهره ساحليا أو شبه ساحلى بدرجة أو بأخرى ، ولو أنه كان أعمق توغلا في قارات

Church, p. 22.

(١)

العالم الجديد منه في قارات العالم القديم . وفي أفريقيا بالذات كان الاستعمار ساحليا بحتا وبصرامة . وسواء على الساحل أو في الداخل : فقد كانت تلك المرحلة مرحلة الاستعمار « الواسع » لا « الكثيف » . وبوجه عام انعكست هذه الطبيعة الساحلية على نظرة الاستعمار إلى القارات الجديدة ، فقد كانت نظرة ملاح أساسا : أعنى أنه لم يكن يتعرف على كتل قارية بقدر ما كان يعرف أشرطة ساحلية . ومن تراث هذه الفترة وتلك النظرة الأسماء العديدة التي مازلنا نطلقها : ساحل غانه ، ساحل الذهب ، ساحل العبيد . ساحل العاج ، ساحل الغلال ، ساحل الزنج ، ساحل البنات أو القرصان ، ساحل ملبار . ساحل كرومندل ، ساحل كارنتيك Carnatic ، ساحل مورمان Murman ، ساحل جوليكوندا ... إلخ ^(١) .

الاستعمار الديموغرافي

سادسا . تعويضا لعجزه عن التوغل الداخلي وعن « الاستعمار الجغرافي » ، أخذ الاستعمار في أفريقيا بالذات نمطا خاصا جدا في هذه المرحلة هو « الاستعمار الديموغرافي » - أعنى تجارة الرقيق . وذلك إذن كان عصر النخاسة الذي لم يعرف العالم له مثيلا من قبل ولا من بعد . وتلك كانت بالتالي أسود نقطة وأبشع وصمة في تاريخ الاستعمار العالمى . فقد كان الرقيق أغلى سلعة في التجارة الاستعمارية ، وبخار آلة المراكنتليه إن لم يكن وقودها الأسود . وعليه بنت القوى البحرية اقتصادية ورخاءها . وكان للبرتغال أولا ثم الإنجليز بعدهم الدور الأكبر في هذه التجارة الآثمة . ولو أن الهولنديين والفرنسيين شاركوا بقدر . ولهذا فإذا كان الهولنديون يقولون إن أمستردام قد بنيت على « عظام الرنجة » ^(٢) ، فن الصحيح كل الصحة أن نقول إن لشبونه وليفربول قد بنيتا على عظام الرقيق الأسود ودماه . وقد شهد المحيط الأطلسي مثلثا دمويا يدور مع عقارب الساعة - التجارة المثلثة كما تسمى - تبدأ فيه السفن بنقل بضائع ومصنوعات بريطانيا إلى غرب أفريقيا حيث تستبدل بها شحنات آدمية . ثم تنطلق عبر المحيط لتفرغها في أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية ، ومنها تعود محملة بمحاصيل المداريات من سكر وروم وقطن وتبغ .. إلخ ^(٣) .

Democratic ideals, p. 60.

(١)

(٢) سيمبل ، ص ٣٥٦ .

L. Dudley Stamp. Africa, N.Y. 1953; W. Fitzgerald, Africa, Lond. 1950.

(٣)

وتختلف تقديرات تجارة الرقيق من أفريقيا ، ولكن البعض يضعها حوالى المائة مليون على أساس أن من مات أثناء « الصيد » والرحلة ثلاثة أو أربعة أمثال ما وصل بالفعل إلى العالم الجديد ^(١) . وكان هذا الاستعمار أو بالأحرى الاستخرا ب الديموغرافى نزيفا بشريا رهيبا أصاب القارة بفقر الدم والضمور . ولئن صح هذا الرقم - الذى لا يمكن الحكم له أو عليه هنا - فلا شك أن هذه أعظم موجة فى حركات السكان *Völkerwanderung* فى التاريخ البشرى جميعا . وإذا كانت أوربا تتهم العرب اليوم - تهويلا وتضليلا - بدور « الجلاب » ، فالذى لا جدال فيه ولا لجاج أنها هى قد لعبت دور « الجلاب والجلاد » معا .

Jacqueline Beaujeu — Garnier, *Géog. de la population*, Paris, 1958, t. II, p. 39.

(١)

الفصل الخامس

القوى البرية والاستعمار

الروسيا^(١)

هناك تشابه مثير يدعو إلى كثير من التأمل بين ظهور وتوسع الروسيا الحديثة في الشرق . وبين توسع دول أوربا البحرية في الغرب . سواء في ذلك الأصول السياسية أو الضغوط الخارجية أو توقيت التوسع . ففي العصور الوسطى خضعت الروسيا لضغوط مزدوجة من الشمال والشمال الغربي ومن الجنوب والجنوب الشرقي . فمن الشمال الغربي أتى من سكنديناافيا وعبر البلطيق الغزاة النورس . الذين يعرفون أيضا باسم الفارانجيين Varangians أو الروس Rus (= رجال الزوارق) . وإذا كانت غاراتهم تخريبية مدمرة في البداية ، فقد تحولوا بعد حين إلى التجارة واستقروا في مدن السلاف وحكموها سياسيا . أما الجنوب الاستبسى فقد كان ممرا أساسيا لرعاة الاستبس ومنه أتت غاراتهم بلا انقطاع على وسط الروسيا .

وبين أخطار هذه الكاشة . رجال الزوارق ورجال الخيل . تبدأ الروسيا سياسيا في القرن التاسع في إطار نطاق الغابات بعدد من الإمارات الصغيرة المستقلة محمية في تضاعيف الغابة ومسطحات المستنقعات . إما على تخومها مع الاستبس وإما على جبهة الالتحام بين النفضيات والصنوبريات . وكانت كل مدينة من هذه المدن النهرية أساسا نواة لتوسع سياسي بعيد المدى في الغابة سواء نحو الشمال الجليدي أو الجنوب السهوي ، حتى

(١) المصادر الأساسية هي :

فايفيلد وبيرسي . ج ٢ ص ٨١ - ١٠٨ .

East, p. 212-225; Fairgrieve, p. 193-199; Fawcett, p. 429-430; G.B. Cressey, Asia's lands and peoples. Mc Graw Hill, 1951, p. 243-248;

Mackinder, Pivot: Democratic ideals, p. 59-88; Cole, p. 227-30.

إذا تلاقى جميعا وسيطرت إحداها في النهاية كانت تلك بداية التوحيد السياسى للروسيا الحديثة . وبهذا أيضا أصبح خط الغابة - الاستبس خطا سياسيا بالغ الأهمية .

ولقد كانت كييف - « أم المدن جميعا » - هي أولى تلك الإمارات . حيث ظهرت في القرن التاسع . وبعدها ظهرت كوكبة من مدن الغابة التجارية أهمها : نوفجورود . ولكن طرق رعاة الاستبس لم تنقطع ، وكثيرا ما دفعت تلك المدن الجزية لهم وخضعت لسيطرتهم . حتى سقطت كييف في القرن الثالث عشر للمغول (جنكيزخان) . الذين اتخذوا عاصمتهم على الفولجا الأدنى . وقد ساعد على سقوط كييف وقوعها على تخوم الاستبس ، هذا بينما نجت نوفجورود لتوغلها في الغابة . ولذا انتقلت إليها الأهمية . إلى أن بدأت إمارة موسكو (مسكفا) تظهر في موقع أكثر مناعة وتوسطا بين الفولجا ورافده الأوكا أو ما يسمى أحيانا « ما بين النهرين الروسية Mesopotamia Russian » ، فأخذت تسيطر منذ أواخر القرن الثالث عشر .

وقد استمر حكم المغول والتتار لجزء كبير من روسيا نحو ٢٥٠ سنة . حين استطاع إيفان الأكبر من قاعدة دوقية موسكو أن يضع نهاية له في أواخر القرن ١٥ (١٤٨٠) . ولكن حتى بعد هذا فإن روسيا لم تنج من موجات التتار المتكررة وغاراتها المخرية التي كانت تستهدف السلب والنهب والأسر واختطاف العبيد . ولمقاومة هذا الخطر الداهم الدائم دخلت روسيا لفترة طويلة في حرب شاملة شبه مستمرة طوال العصور الحديثة تقريبا ، وهكذا كان الخطر المغولى التترى - خطر الاستبس - هو أول وأطول خطر خارجى شكل تاريخ وتكوين روسيا الحديثة .

على الجانب الآخر ، ما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت موسكو خلال قرنين من التوسع المستمر قد أخضعت جميع الإمارات الأخرى بعد أن ربطت بينها الأخطار الخارجية . وقد استطاع إيفان الأكبر وحده أن يوسع رقعة السيطرة المسكوفية إلى ثلاثة أمثالها حتى امتدت من البلطيق إلى الأورال . وبهذه الوحدة ، وبفضل فرسان القوزاق ، خرجت الدولة من قوقعة الغابة لتزحف جنوبا حتى تخضع استبس جنوب روسيا - استبس الكيبشاك Kipshak - في مدى ٥٠ عاما ، كما دخلت في صراعات متصلة مع بولندا حول أوكرانيا . وقد كان بطرس الأكبر - أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر - هو الموحد الحقيقى للروسيا . وبما لاشك فيه أن دور الاستبس قد أفرز الوحدة القومية في روسيا عنها في أوروبا لفترة ما . ولكن بعد إخضاعه وضمه بدأ زحف سكانى روسى ضخم نحو الجنوب وصل إلى أقصاه في القرن التاسع عشر حين أصبح حركة عارمة تاريخية حقا .

وعند هذا الحد سنلاحظ أنه إذا كانت فجوات الغابة هي القوقعة التي تبرعت فيها إمارات روسيا : فإن الأنهار كانت الشرايين التي ربطت بينها أولا ثم توسعت على طولها ثانيا . والواقع أن نمط الأنهار في روسيا الأوروبية ، الذي يتشعب من الوسط من نقطة مركزية في جميع الاتجاهات - يجعل التوسع سهلا تلقائيا^(١) حتى ليعتبر إيسن أن تاريخ روسيا السياسي تاريخ نهري أساسا . ولاننسى كذلك طبيعة الاقليم كسهل متجانس مترام - يدعو بطبيعته إلى الوحدة السياسية وضخامة الدولة . ومن مجموع هذا وذاك نخرج بدولة من حجم وصفات قارية لاشك فيها .

كذلك لا بد أن يستوقفنا في ظهور روسيا إخضاع الغابة للاستبس . فلقد طالما أخضع الإستبس الغابة أو على الأقل حصرها حبيسة في قوقعتها . ولكن منذ اختراع البارود انقلب الميزان الاستراتيجي من أساسه رأسا على عقب انقلابا تاريخيا بالغ الخطورة والدلالة . فقد ضاعت معه ميزة حركة الفرسان وسرعة انقضاضهم ، وضاع إلى الأبد تفوق الرعاة الغزاة على الزراع المستقرين . وأخذت الصورة تنعكس ، فإذا بجيوش الزراع ومدفعيتهم هي التي تغزو الآن فرسان الاستبس وتخضعهم لأول مرة^(٢) . بل لقد اتخذت الغابة من فرسان الاستبس القوزاق « بوليسا » يحرس الاستبس من الجماعات الرعوية الأخرى . أو كما عبر البعض . لقد تغلب « الدب » على « الحصان » بعد أن ظل هذا يحاصره طويلا ويغلقه في قلب الغابة .

ولهذا فقد كان ظهور روسيا الحديثة إيذانا بإغلاق ممر الاستبس الأوراسي وانتهاء طوفاناتهم إلى الأبد . وبعد أن كانت الخريطة السياسية للروسيا ما بين القرن العاشر والخامس عشر تتألف من مجموعتين أساسيتين من الإمارات والدويلات : كوكبة روسية سلافية شمال الخط ، خط الغابة - الاستبس ، وكوكبة سريعة التغير من الولايات الرعوية الاستبسية جنوبه . ابتداء من الخزر إلى البلغار حتى المغول والتتار ، نقول بعد هذا اندمجت روسيا جميعا في دولة مركزية واحدة موحدة .

غير أن دور الاستبس أو الحكم المغولي التتري لم ينته إلا بعد أن ترك بصمته بعمق ليس فقط على تاريخ وتطور روسيا الحديثة ولكن أيضا على كيانها وشخصيتها المعاصرة ربما .

Sample, op. cit.

(١)

Owen Lattimore, Inner Asian Frontiers, op. cit., p. 186-8.

(٢)

فكثيرا ما كان الحكم المغولى والتترى مرادفا للنهب والتخريب وحرق المدن الكبرى ومضاربها ببعضها البعض ، مما ردّ حضارة المدن الروسية المتطورة إلى دور البربرية والهمج أحيانا . ولكنه أساسا فرض عليها العبودية والرق والذل باستمرار . وإلى هذا النظام ، بل وإلى ضرورات مراحل الكفاح والحرب ضده فيما بعد ، يرجع الكثيرون أصول الاستبداد الروسى القيصرى الحديث ، بل ويتبع استمراره فى النظام الشمولى الشيوعى المعاصر ، على أساس أن « الرفاق الجدد هم القياصرة الجدد » وبمعنى أن « الدولة البوليسية السوفيتية إنما يرجع أثرها وأصلها إلى حكم التار » ، وبمقولة أن الحكم فى روسيا لم يكن يوما طوال تاريخها إلا حكما استبداديا ديكتاتوريا ، وبالتالي بدعوى أن الاستبداد والطغيان تقليد طبيعى فى تاريخ روسيا وأنه لا تقاليد للحرية بها داخلها^(١) .

ومهما يكن رأى ، فيكفي أن يلخص لنا كارل ماركس نفسه القصة بأسلوبه وبألفاظه . فكما يقول ، إن « المستنقع الدموى للاستعباد المغولى هو مهد روسيا القديمة . وليست روسيا الحديثة إلا شكلا جديدا للروسيا القديمة [...] لقد نشأت روسيا ونمت فى مدرسة الرق المغولى الرهيبة ، ثم ازدادت قوة بأن أصبحت أمهر من عرف صناعة الاستعباد والرق . وحتى بعد أن تحررت فإنها واصلت أداء دورها التقليدى للعبد الذى أصبح سيذا »^(٢) .

التوسع القيصرى

هذه وحدة روسيا القومية تتم إذن فى توقيت لا يختلف كثيرا ، وإن تخلف قليلا ، عما حدث فى الدولة الوطنية الحديثة فى غرب أوروبا . وكما خرجت هذه إلى التوسع والاستعمار عبر البحار غربا وجنوبا ، سنجد روسيا تخرج بدورها وفى توقيت معاصر تقريبا للتوسع والاستعمار ، ولكن برا ، شرقا وجنوبا . هنا نداء البحر وهنا نداء السهول ، وكل يغرى بالتوسع ويدعو إلى بناء الإمبراطورية .

وكما فى غرب أوروبا ، يمكن أن نميز بين موجتين رئيسيتين من التوسع الروسى : الأولى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر واتجهت كمشيلتها فى غرب أوروبا إلى عروض شمالية باردة ومناطق شبة خالية من السكان ، وكانت أقرب إلى التعمير البشرى منها إلى الاستعمار

Richard Nixon, The real war. N.Y., 1981.

(١)

Id.

(٢)

السياسي . أما الموجة الثانية فاتجهت - أيضا كمشيلتها في غرب أوروبا - إلى عروض جنوبية أودفاً ومناطق مأهولة بدرجة أو بأخرى . فكانت من ثم إلى الاستعمار السياسي أقرب .

وقبل أن نعرض بالتحليل هذا التوسع القيصري ينبغي أن نذكر أنه - في نظر أغلب الكتاب لاسيما منهم الغربيون - يعد « استعماراً إمبريالياً » كاملاً بكل معنى الكلمة . وبنفس المعنى الذي يقصد به الاستعمار الغربي عبر البحار^(١) - الإمبريالية الروسية كما يسمونها . ولعلمهم يقصدون بذلك أن هذه المناطق التي ضمتها روسيا إليها واعتبرتها بعد ذلك جزءاً لا يتجزأ من الوطن الأب ليست إلا مستعمرات أجنبية عنها وإن لم يفصلها عن روسيا الأوربية فاصل بحري أو برى . ومنطقهم في هذا أن سكان هذه المناطق التي ضمت يختلفون تماماً عن سكان روسيا الأوربية . فهم سواء في سبيلها أو التركستان من العناصر المغولية والتركية والتتية والطورانية . بينما الروس من السلاف أساساً وإن اختلطوا بنسب ثانوية من العناصر الفنية في الشمال المتجمد والتتية في الجنوب الاستبسي . وقد كانت القيصرية تنظر إليهم على أنهم أجناب منحطون . وظفتهم أن يقدموا العمل الرخيص للمتروبول الصناعية المتقدمة . وأقاليمهم ليست إلا موارد خامات لها . بينما كانت هي تعتمد في إخضاعهم على مضاربة شعوبهم المختلفة بعضها ببعض وبأعنف وسائل الكبت والقهر^(٢) .

والنقاد أصحاب هذا الرأي يعترفون بأن مسافة الخلف الجنسية والإثنولوجية بين تلك الشعوب الآسيوية وبين الروس السلاف أقل بدرجة أو بأخرى منها بين الدول الأوربية الاستعمارية وبين أبناء المستعمرات عبر البحار الذين لا يربطهم بهم بالقطع أدنى رابطة جنسية أو تاريخية . ولكنهم في نفس الوقت يحتجون بأن هذا لا ينفى صفة الاستعمار عن توسع روسيا القيصرية في آسيا . ومن تساهل منهم عد هذه « الإمبريالية الروسية » أشبه شيء « باستعمار » الأنجلوسكسون لأمريكا الهنود الحمر . وعلى أية حال فإن الثورة الشيوعية تشارك في هذه النظرة . فقد أعلن لينين نفسه أن الإمبراطورية القيصرية لم تكن إلا « سجن أمم » من مقياس رهيب^(٣) .

Gohlet p. 200.

(١)

James Gregory, Land of the Soviets, Pelican, 1946, p. 47-8.

(٢)

نحو الشرق

ومهما يكن من أمر . فإذا ما نحن عدنا إلى موجات التوسع الروسى فسنجد أن الموجة الأولى قد اتجهت شرقا إلى سيبيريا . وبدأت أقرب في الواقع إلى نوع روسى من « الكشوف الجغرافية » القارية . وانتهت في النهاية كزحف قيصرى نحو الشرق Drang nach Osten . ولم يبدأ التيار إلا في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، حين عبر المغامر القوزاقى يرمك Yermek جبال الأورال في سنة ١٥٨٠ واستولى على مدينة سيبير على الإرتش . ولم يكن هذا جزءا من خطة غزو منظم موضوعة . لا ولا يدل على أطماع استعمارية قيصرية ما . وإنما كان الدافع والمهدف - كما حدث في كندا - هو التجارة أساسا . والفراء بوجه خاص : ومن تنظيم وعمل كبار التجار في الأورال . أما الجانب العسكرى فيها فلم يزد على نشاط فرسان القوزاق الذين صاحبوا القوافل التجارية : أصلا كحرس وأحيانا كعصابات نهب^(١) .

ولقد كانت سيبيريا هى جبهة الريادة للروسيا مثلما كان العالم الجديد بالنسبة للإنجليز سكسون - بل كانت بجدارة « العالم الجديد » بالنسبة للسلاف . بل إن تواريخ الزحف والتقدم تكاد تتعاصر وتتناظر في أكثر من حالة حتى يمكن مقارنتها ومقابلتها بدقة مثيرة . وكما في العالم الجديد . جاء الزحف كاسحا سريعا كالسهم المرسل . لأنه تم في مناطق مخدلة السكان جدا إن لم تكن من الناحية العملية فراغا بشريا تقريبا . كما كان المستوى الحضارى الذى ينحصر ما بين الرعى والصيد بدائيا أو شبه بدائى على الأحسن . فلم تكن ثمة مقاومة فعليا .

وإذا كانت روسيا قد توسعت في حدودها الأوربية على طول الأنهار بالذات . فقد استمر توسعهم خارجها في سيبيريا على أساس الأنهار كذلك . وكان كل نهر يؤدى بالرواد إلى النهر الذى يليه . وهذا يسلمهم إلى مابعد . وهكذا . وتم هذا في نطاق دهليزى ضيق من الأعشاب الجيدة يقع مباشرة إلى الجنوب من « التاييجا » محصورا بينها وبين مرتفعات وسط آسيا في الجنوب : وهو نفس ذلك الدهليز الذى تتبعته فيما بعد سكة حديد سيبيريا . ولذلك فإذا كانت الأنهار هى حملة الاستعمار هنا . فقد جاءت بعدها السكك

Fitzgerald, New Europe, p. 163-8.

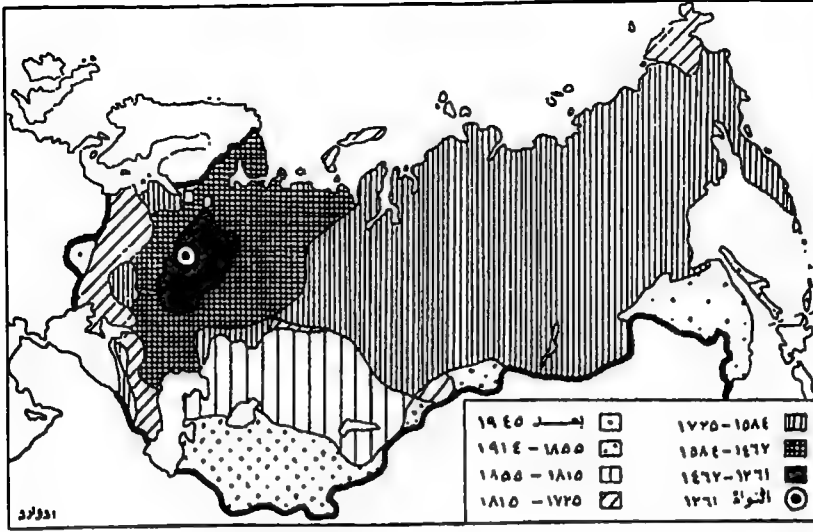
الحديدية لتصبح شريان الحركة فيها ، وذلك دون أن تمر المنطقة مطلقا بمرحلة الطرق البرية .

وعلى طول الرحلة بذر الرواد بذور المدن المحصنة Ostrogs على ملاقى الأنهار : تومسك على الإرتش فى ١٦٠٤ (وتقابل جيمز تاون فى أمريكا ١٦٠٧) . ياكوتسك على نهر لينا ١٦٣٢ (وتقابل هارتفورد فى ١٦٣٨) . وبهذا نكون قد قطعنا أكثر من ٢٥٠٠ ميل فى أقل من نصف قرن !

وحين وصل الزحف إلى بيكال انشعب إلى شعبتين : الأولى إلى الشرق توا نحو الهادى إلى أوكسك . وهى التى ستؤدى بالروسيا بعد حين إلى مواجهة أمريكا الشمالية من بابها الخلفى لتنتهى « بيهرنج » إلى اكتشاف ألاسكا فى ١٧٤١ وإلى استعمار روسيا لها . حيث ظلت تعرف « بأمريكا الروسية » ، ثم إلى الزحف جنوبا على طول الساحل الأمريكى حتى أصبحت روسيا على بعد ٤٠ ميلا فقط شمال سان فرنسكو فى ١٨١٢ . لتجد نفسها وجها لوجه مع إسبانيا ، بعد أن بدأ كل منهما من أقصى طرفى أوروبا وأعطى ظهره للآخر فى رحلة عكسية حول العالم !

وهنا نجد روسيا لأول مرة تترك اليابس لتعبر المحيط - طفرة غريبة فى تاريخها وتكوينها القارى البحث . وفضلا عن هذا فقد وصل بها هذا الاندفاع الصاروخى إلى نقطة تبعد عن العاصمة الوطنية بمسافة قد لا تقل عن ثلث محيط الكرة الأرضية ! ولهذا لم يكن غريبا أن تنسحب روسيا إلى أوراسيتها حين قررت - بحكمة - بيع ألاسكا للولايات المتحدة فى ١٨٦٧ . ولعل هذا يذكرنا ببيع فرنسا للويزيانا وانسحابها إلى أوربيتها . أو كأنما قد أصبح قانونا من قوانين السياسة الروسية ألا تملك أراضى عبر البحار . بمثل ما أصبح من قوانين السياسة البريطانية أن تملك أراضى عبر البحار .

ذلك عن الشعبة الأولى بعد بيكال . أما الشعبة الثانية من توسع روسيا شرقا فقد انخرقت مع التضاريس نحو الجنوب الشرقى إلى هضبة فيتيم ، التى هى خط تقسيم المياه بين الأمور ولينا ، لتنتهى إلى فلاديفوستك ١٨٦٠ . وهذه الشعبة أتت بالروسيا إلى أبواب الصين ومنشوريا حيث بدأت صداقة تقليدية ستطور فى المستقبل لتصبح ذات مغزى سياسى كبير . ومع تقدم العمل فى خط حديد سيبيريا إلى فلاديفوستك وبورت آرثر ازداد التعمير الروسى فى شمال منشوريا . ولكن دون أن يعوق تيار الفلاحين الصينيين العرم إلى هذا الاقليم أو يصطدم به .



شكل (١١) توسع روسيا : الإمبراطورية القارية الكاملة

غير أن هذا الخط . من الناحية الأخرى . كان يحمل روسيا إلى أبواب اليابان التي كانت قد تطورت كثيرا وقطعت شوطا بعيدا في التحضر والقوة وبدأت تتطلع إلى التوسع والنفوذ . من هنا جاء الصدام الذي تمثل في الحرب الروسية - اليابانية عام ١٩٠٥ والذي كشف ضعف روسيا أو على الأقل سوء موقعها الاستراتيجي في هذه التخوم المتطرفة بسبب بعدها السحيق عن قلب الدولة غرب الأورال .

تلك في مجموعها هي الموجة التوسعية الأولى للروسيا الحديثة . وفيها سلاحظ أن التعمير الروسي في سيبيريا طوال تلك المرحلة لم يكن جديا حقا . ولا كان الاستعمار القيصري مهتما بأملاكه الحديثة في الشرق حيث كان منصرفا إلى المجال الأوربي . بل لقد ظلت سيبيريا لفترة طويلة مجرد منفي للمجرمين والمبغدين . شأنها في ذلك شأن البرازيل بالنسبة للبرتغال وأستراليا بالنسبة لبريطانيا . إلا أن الموقف تغير منذ منتصف القرن التاسع عشر ، حين انعطفت القيصريّة على سيبيريا بشدة ونظرت بطموح إلى الهادي بحثا عن مخارج لها بعد أن فشلت في الوصول إلى مخارج لها في المياه الأوربية . والواقع أن التعمير الروسي لسيبيريا يقتصر تقليديا على سهم أو إسفين يبدو كرشاش متطاير خفيف مرسل من كتلة سلاف روسيا الأوربية على فرشة مخلخلة للغاية من السكان المغوليين الأصليين .

نحو الجنوب

هذه النكسة التي قابلت روسيا في سياستها الأوربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر دفعت بها أيضا إلى مجال أسيوى جديد غير سيبيريا هو القوقاز والتركستان^(١). فكانت الموجة الاستعارية الثانية . أو الاتجاه نحو الجنوب Drang nach Süden التي تناظر وتعاصر الموجة الثانية المدارية للاستعمار الأوربي . وبحكم الموقع الجغرافي كان طبيعيا أن يأتي دور القوقاز أولا في النصف الأول من القرن ، ثم التركستان بعد ذلك في نصفه الثاني . ولهذا تأخذ الموجة شكل كباشة فكهاها غرب بحر قزوين أو منطقة Trans-Caucasia وشرق البحر أو Trans-Caspia . وفي كلا الحالين كان لابد أن تصطدم روسيا في نهاية توسعها بالنفوذ الفارسي الذي كان سائدا في تلك المنطقة . وفي وقت كانت فارس فيه قوة ضخمة قادرة على أن تناطح تركيا .

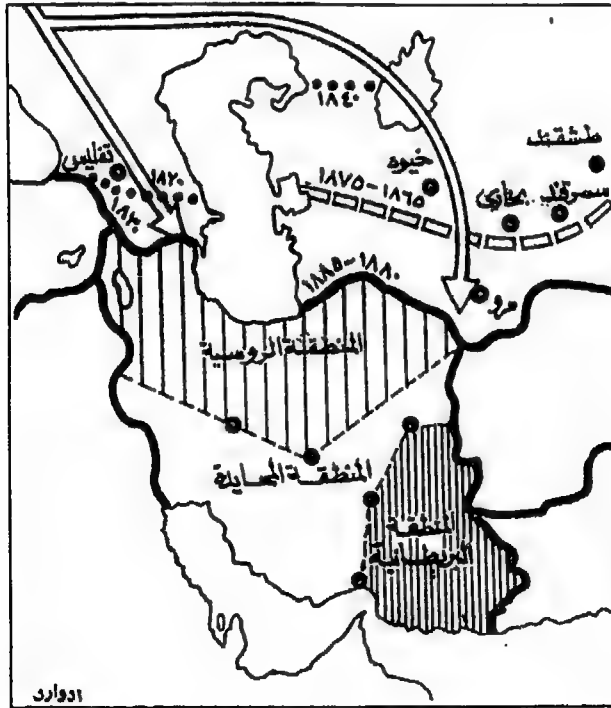
في غرب البحر - إذا بدأنا من البداية - بدأ الزحف مع بداية القرن وانتهى في ثلاثة عقود بعد حربين مع فارس . وقد سارعت قوى أوربا البحرية فرنسا ثم بريطانيا إلى مساعدة فارس والوقوف إلى جانبها منعا للتوسع الروسي . ولكن بلا جدوى : فقد فتدت فارس جورجيا وأرمينيا (أربكان ولنكوران) . وبهذا انتهى الصراع إلى الحدود التي ستظل حتى يومنا هذا . ومن حينها تداعت فارس واتضعت بصورة كاسفة وانتهت كقوى كبرى في المنطقة ولم يعد لها بعدها قبل بأن تواجه روسيا على الإطلاق .

وبعد عقد واحد من اكتساح القوقاز - كانت روسيا قد استدارت في ١٨٤٠ حول بحر قزوين متجهة إلى سهل طوران لتخضع قبائل التركمان والأوزبك والقرغيز وغيرها من العناصر الطورانية أو المغولية . وفي ١٨٤٦ كانت طشقند قد سقطت . وفي ١٨٦٨ تلتها سمرقند . ثم جاء دور خيوه في ١٨٧٣ . ولحقها خوقند في ١٨٧٦ . أي أن أهم المراكز التاريخية سقطت جميعا في عقد واحد .

هناك لم يبق إلا النطاق الجنوبي الأقصى من الحوض . حيث ضم نهائيا في العقدين الأخيرين من القرن بعد اصطدام آخر مع فارس التي انتزعت روسيا منها مرو . واصله بذلك إلى الفاصل الجبلي النهائي . وبه تحددت الحدود السياسية القائمة حتى الآن . كذلك

فقد أوصلها هذا إلى تخوم الهند البريطانية حيث بدأ التوتر يزداد بين القوتين النقيضتين ،
قوة البر وقوة البحر .

في هذا التوسع الجنوبي بشقيه سيلاحظ أنه - ابتداء - قد تأخر طويلا عن التوسع
الشرقي في سيبيريا . فكانت روسيا قد شارفت الهادى حين كانت بالكاد قد بدأت التوسع
الجنوبى ، وذلك رغم القرب الجغرافى النسبى . كذلك فقد أنفقت روسيا فيه وقتا طويلا
نسبيا . والسبب في هذا وذلك هو أن التوسع شرقا في سيبيريا كان يتم كما رأينا في شبه فراغ
عمرانى وحضارى ، أما التوسع الجنوبي فجاء في وسط غير منفذ بسهولة للاستعمار : كثافة
سكان أعلى . وتجمعات آهلة مستقرة . وشعوب ذات تاريخ حضارى طويل . وتكوين
سياسى راق ، وتركيب دينى توحيدى (الإسلام شرق قزوين ، والمسيحية غربه) . لهذا
كان لابد من القضاء على « الخانات » الإسلامية وقمع الحضارة المحلية والشعور القومى
بالإرهاب . وتاريخ قياصرة آل رومانوف في هذا دموى ومعروف بما فيه الكفاية .



شكل (١٢) توسع قياصرة رومانوف في وسط آسيا

كذلك . وبعكس سيبيريا . لم يكن هناك مجال للاستعمار الاستيطاني السكاني أو لانتقال معمرين من الروس السلاف للاستقرار في المنطقة وهي الآهلة العامرة بأصحابها من قبل . ولذا تخم أن يقتصر التوسع على الاستعمار الاستغلالي . ومما يلفت النظر أن الفارق في هذا بين التوسع شرقا والتوسع جنوبا يكرر في الوقت نفسه الفارق بين الموجة الأولى من الاستعمار الأوربي عبر البحار في العروض المعتدلة وبين موجته الثانية في العروض المدارية .

ما هو . أخيرا . وعلى أية حال : المغزى الاستراتيجي لهذا التوسع الخطير ؟ انقلاب ثوري في تاريخ العالم القديم لا يمكن - مهما حاولنا - أن نبالغ في تقديره ! فلأول مرة تظهر قوة توحد كل قلب أوراسيا في تنظيم سياسي واحد : ولأول مرة لا يكون الاستبس الأوراسي قوة رحل رعوية بل قوة زراعية مستقرة دائمة . إن الانقلاب الذي بدأت بذوره مع اختراع البارود قد استكمل الآن كل مغزاه الاستراتيجي . وخضع الاستبس الأوراسي جميعا لسيطرة حكومة مركزية قوية في قاعدة أرضية غنية متحضرة . لتصبح روسيا أول وأضخم قوة بر في التاريخ لا تعتمد على حركة الخيل وكوكبات الفرسان وإنما على حركة القطار والمدفعية المدرعة .

ثم لا ننسى بعد هذا أو قبله حقيقة التوسع نفسه كصفة أساسية أصيلة في كيان روسيا الجيوبوليتيكي وتاريخها السياسي . فالروسيا القيصريّة نتاج سبعة قرون من التوسع المستمر الذي بدأ من نواة واحدة هي موسكو حتى وصل إلى قمته في القرن التاسع عشر أو العشرين . وعلى سبيل المثال : فكما كتب ماركس نفسه سنة ١٨٥٣ كمراسل لصحيفة أمريكية « لقد تقدمت الحدود الروسية خلال الستين سنة الماضية ٧٠٠ ميل نحو برلين ودرسدن وفيينا ٥٠٠ ميل نحو القسطنطينية . ٦٣٣ ميلا نحو ستوكهولم . ١٠٠٠ ميل نحو طهران » . بل إن البعض يتبع هذا التوسع المزمّن إلى العصر الشيوعي : فلا يرى في الاتحاد السوفيتي إلا « وحدة سياسية تتكون من ١٥ جمهورية - ١٤ منها تم غزوها بواسطة واحدة فقط هي روسيا » .

وأيا ما كان . فإن البعض يرى أن روسيا لم تكن في يوم ما طوال تاريخها إلا دولة توسعية في الخارج . مثلاً لم تكن إلا دولة استبدادية في الداخل . وكما أنه لا تقاليد للحرية داخليا فلا تقاليد لعدم الاعتداء خارجيا : فضلا عن أن الظاهرتين مترابطتان كسبب ونتيجة حيث كان الخضوع للاستبداد في الداخل هو اللعن الحتمي الذي دفعه الشعب للدولة مقابل الغزو والتوسع في الخارج أو مقاومة الخطر الخارجي . وعلى أية حال ودون أن

نذهب بالضرورة إلى حد القول بأن « التوسع في الأرض أمر طبيعي بالنسبة للروسيا مثل صيد الفريسة بالنسبة للأسد أو أكل السمك بالنسبة للدب »^(١) . فلقد كان صاحب مقولة « من كف عن التوسع أصابه العفن » هو بعض ساسة القيصرية . كذلك يستطرد البعض فيرى أن الاتحاد السوفيتي مازال يعمل على أساس مبدأ « أوسع وأوسع وإلا انكمش » ، وأنه وإن بدأ قوة دفاعية أساسا فإن الدفاع عادة يتحول إلى الحرب والحرب إلى عدوان^(٢) .

استراتيجية البر والبرد

من هذا التوسع المديد تخرج روسيا أيضا بصفة أساسية هي بلاشك « القارية » ، القارية المطلقة . فهي أولا رقعة واحدة متصلة سحيقة الأبعاد من اليابس . كبقعة زيت تمددت . بل لعل العالم لم يعرف في تاريخه دولة أو إمبراطورية برية متصلة contiguous في مثل هذا الحجم ، إلا أن تكون إمبراطورية جنكيز خان . ثم إنها تخرج وهي دولة أوراسية ذات بعدين . تضع قدما في أوربا وقدما في آسيا ، وتبدو كما لاحظ دوستيفسكي أسبوبة للأوروبيين وأوربية للأسويين^(٣) ، وحين تلقى إغراضا أو انتكاسا هنا تتجه هناك . والعكس . على أنه لما كان مركز ثقل المعمور والنواة النووية هي روسيا الأوربية ، رغم أن المساحة الكبرى في آسيا ، فيمكن أن نقول إن الرأس أوربي والجسم أسوي .

والمهم أنها الآن الدولة القارية الكاملة وقوة البر الكلاسيكية : والنقيض المباشر لبريطانيا في القرن التاسع عشر ، النموذج التام للإمبراطورية البحرية المتناثرة في أركان الدنيا ولقوة البحر الكلاسيكية . وإذا كانت الإمبراطورية البريطانية - كما قيل - من صنع السفينة البخارية ، فإن روسيا القيصرية كالولايات المتحدة هي من صنع القطار .

وهي بعد تخرج من ذلك التوسع وهي أطول الدول حدودا ، سواء برية أو بحرية : نحو ٣٨ ألف ميل^(٤) . أي مثل محيط الكرة الأرضية مرة ونصف مرة ! ومع ذلك فلم يكن هناك دولة معزولة بالطبيعة وحبيسة عن عالم المعمور كالروسيا . فهي وإن بدت ساحلية

Richard Nixon, loc. cit.

(١)

"East-West Struggle", Economist, p. 41.

(٢)

Dostoyevsky, Diary of a Writer.

(٣)

Gregory, p. 10.

(٤)

شكلا ، تعد قارية موضوعا . قشالا ثمة المحيط المتجمد ، وجنوبا نطاق عميق من الصحارى والمرتفعات الصارمة ، وشرقا فراغ المحيط الهادى الهائل وأضخم صحراء على ظهر الأرض كما يعبر هويتلزي . إنها - نكاد نقول - رهينة المحبيين ، صحراء الجليد وصحراء الرمل .

لهذا جميعا كانت تطلعاتها وسياستها الخارجية انعكاسا مباشرا وتلقائيا لتركيبها الداخلى : هنا القارية الحبيسة ، وهناك الخروج إلى البحر والبحر الدافئ بالذات . هنا الحدود الشاسعة ، وهناك الرغبة فى خلق نطاق حولها من الدول الصغرى المحيطة أو الخاضعة لنفوذها لتكون حاجزا بينها وبين القوى الساحلية البحرية . وهذان بالفعل هما المؤثران اللذان يكونان معا بوصلة السياسة الروسية أو حجر المغنطيس فى استراتيجيتها . وقد بدأ التوجيه إلى البحار الدافئة منذ بطرس الأكبر بالتحديد أو بالتفصيل ، وبعده يمكن تفسير كل السياسة الخارجية « برغبة الدب الروسى فى المياه الدافئة » أو بتعبير آخر « بجيوبوليتيكا درجة الحرارة » . وعلى الجملة يلخص البعض « وجهة نظر الدب » فى التوسع الأرضى والامتداد الهائل كرد وحيد على عقدة الحصار والتطويق الطبيعى والسياسى .

ولقد كان معنى هذا مباشرة أن تصطدم بالقوى البحرية فى أكثر من جبهة ، ومن ثم يأخذ الصراع السياسى شكل صراع سافرو بلا موارد بين قوة البروقوه البحر . ومن الغريب أن السياسة المعلنة للقوى البحرية الغربية فى القرن التاسع عشر كان يعبر عنها بالاحتواء containment والتطويق encirclement - وهى نفس الألفاظ التى تستعملها اليوم ! - حتى تظل روسيا محصورة فى قاريتها^(١) . وباختصار فلقد اتخذت القوى البحرية إزاء روسيا : سياسة الصد checkmate ، وكان ذلك كله صراع « الفيل » (قوة البر) و « الحوت » (قوة البحر) كما وصف فى حينه .

التوسع غربا

هذا وقد كانت المنافذ البحرية الممكنة أو المتاحة للروسيا هى أساسا البلطيق فى الشمال والبحر الأسود فى الجنوب ، ولو أنها بحار داخلية تتحكم دول فى مخارجها كما تتحكم أخرى فى سواحلها . وفيما بعد أضيف الخليج الفارسى (العربى) كمغنطيس ثالث . أما

John S. Badeau, "Middle East: Conflict in Priorities", Foreign Affairs., Jan, 1958, p. 233-7. (١)

المهادى فنصف متجمد فضلا عن أنه متطوح مقطوع ويمثل طريقا غير اقتصادية . ولهذا فقد تركّز ضغط السياسة القيصرية في الغرب على ضلوعه الأوربية . ففي البلطيق بدأ بطرس الأكبر « بنافذة روسيا على أوروبا » حين خلق سان بطرسبرج (لنتجراد) من لاشيء . ثم كانت أوكرانيا أرض صراع مزمن بين روسيا وبولندا في البداية ، فلما تغلبت روسيا أصبحت بولندا نفسها هي الهدف .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت روسيا شريكا في تقسيمات بولندا الثلاث الشهيرة وغالبا ماخرجت منها بنصيب الأسد . أما دويلات البلطيق فقد تمت السيطرة عليها في نفس الفترة ، بينما ضمت فنلندا في أيام الحروب النابليونية بعد انتزاعها من السويد . وبذلك أصبح للروسيا جهة بحرية حقيقية فسيحة على البلطيق إلى جانب نطاق أمان ضد وسط أوروبا . ويلاحظ أن روسيا كانت بهذا أوسع رقعة وأبعد حدودا ناحية الغرب من الاتحاد السوفيتي اليوم .

البحر الأسود والمضائق

غير أن البحر الأسود كان الهدف الأكبر بالطبع نظرا لموقعه ودفعته ، ولأن الجزء الأكبر من حوضه روسي مباشرة أو على الأقل سلافي بوجه عام . إلا أن مفاتيحه ليست في يدها وإنما في يد تركيا . ولهذا كان الصراع بينهما هو قدرهما المشترك ، لاسيما أن تركيا كانت القوة التي تقهر أكبر عدد من السلاف في البلقان وشرق أوروبا ، بينما أن روسيا هي بطل السلافية الحامى . أقطاب جغرافية متنافرة وأقدار تاريخية متصادمة ! هذه قوة بر ، وهذه قوة بر مائية بينية .

وقد شهد القرن الثامن عشر عدة اندفاعات روسية عاصفة على عهد كاترين الثانية لتقتحم المضائق ، وذلك بعد أن كانت روسيا قد انتزعت السواحل الشمالية للبحر الأسود وشبه جزيرة القرم من الأتراك . وقد بدا أحيانا أن هدف روسيا هو ضم المضائق ضما سياسيا كاملا ، وفي أحيان أخرى كان ضمان حقوق وامتيازات المرور الخاصة هو الهدف الوحيد . وبعمامة فلقد حدثت سبع حروب على الأقل بين روسيا وتركيا للسيطرة على المضائق^(١) . وفي كل هذه الحروب بلا استثناء ولا اختلاف كانت تتقدم دولة بحرية غربية - فرنسا أو إنجلترا - لتساند تركيا ضد روسيا .

Mogey. p. 132.

(١)

أحيانا كانت إنجلترا تصادق روسيا وتقف موقف برود إزاء تركيا عنادا في فرنسا التي تساعد تركيا . وأحيانا تساعد بريطانيا تركيا معارضة لفرنسا حين تتقارب هذه مع روسيا . أى أن الصراع الداخلى بين الأشباه البحرية كان ينعكس على مواقفها من صراع تركيا مع روسيا ، ولكن في كل الحالات لم تكن تركيا تعدم قوة ما منها في جانبها . ولعل حرب القرم في سنة ١٨٥٣ هى أبرز وأخطر مجابهة من بريطانيا للروسيا في تهديدها لتركيا . وقد انتهى الصراع بفشل روسيا في السيطرة على المضائق . وإذا كان قد قيل إن هذا كان أول التحام مباشر ومواجهة بين الفيل (روسيا البرية) والحيوت (بريطانيا البحرية) ، فهل نضيف من جانبنا أنه كان يدور حول التمساح (تركيا الأمفية) ؟

أيا ما كان ، فلقد أدركت كل من فرنسا وبريطانيا بالتدريج بعد ذلك خطأ مواقفها التكتيكية المتعارضة السابقة إزاء كل من روسيا وتركيا والتي حكمتها مناورات العداء بينها في الوطن ، وسرعان ما أيقنتا وحدة مصالحهما الاستراتيجية العميقة ضد روسيا وبالتالي مع تركيا . ومن حينها أصبحت سياستهما المشتركة المتصلة هى تدعيم تركيا وحققها بكل المساعدات الحربية والسياسية لتكون درعا ضد توسع روسيا ونطاقا صحيا حولها^(١) . والمغزى الاستراتيجى واضح كل الوضوح : في صراع القوى البحرية (فرنسا وبريطانيا) ضد توسع قوة البر (روسيا) ، كانت قوة بينية (تركيا) هى أرض المعركة الطبيعية ، ولما كانت هذه مهددة بالسقوط أمام قوة البر فقد اجتمعت قوى البحر لتسندها وتدعمها . حتى حين هدد قطاع من المنطقة البينية - مصر محمد على - كيان تركيا وأنذر بأن يرث السيطرة على تلك المنطقة ، انضحت نفس الاستراتيجية ، فقد تكلفت قوتا البحر فرنسا وبريطانيا بكبت الحركة بالقوة في سوريا . وهذه الاستراتيجية وحدها هى التى أطالت عمر رجل أوروبا المريض أكثر مما كان يمكن له ، ومنحته « سلفة » جديدة من الحياة بكل الوسائل الاصطناعية .

ومع ذلك فلم يجد هذا كثيرا . فقد اجتمعت طرقات روسيا البرية مع طرقات إمبراطورية النمسا - المجر البينية ضد تركيا البينية طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في البلقان . فالنمسا - التى استطاعت بعد حصار الأتراك لفينا في القرن السابع عشر ، وبفضل موقعها الجغرافى ، أن تطردهم خطوة خطوة من المجر خلال القرن الثامن عشر وأن

تؤسس بذلك الإمبراطورية الثنائية النمسا - المجر - هذه النمسا عادت في القرن التاسع عشر إلى انتزاع البوسنة والهرسك من تركيا في حرب ١٨٧٨ . وبعد ذلك أخذت تركيا تتقلص في البلقان بالتدريج حتى كانت النهاية الكاملة في الحرب الكبرى الأولى حين أصبحت قوى البحر الغربية - حاميتها القديمة - عدوة لتركيا البينية .

نحو الخليج

لا يبقى لنا الآن من مخارج روسيا إلا الخليج الفارسي ، الذي قال فيه بطرس الأكبر مقولته التنبؤية الشهيرة « من يسيطر على الخليج ، يسيطر على العالم » . وهذا بدأت روسيا تتطلع إليه بعد توسعها الجنوبي في القوقاز ووسط آسيا منذ منتصف القرن التاسع عشر . وقد ازداد نفوذ روسيا في فارس ، بعد انتصاراتها عليها وبعد أن أصبحت تطوقها من ثلاث جهات ، ازديادا خطيرا حتى انتزعت كثيرا من الامتيازات الاقتصادية الهامة فيها . وفي وقت ما اعتبرت السياسة الروسية أن المنطقة الواقعة جنوب القوقاز وفي اتجاه الخليج الفارسي هي الأطماع الشرعية لها ، وأن إيران هي « قناه السويس الروسية » وأن لا بد لها من « ممر » إلى الخليج الفارسي^(١) .

وفي أوائل القرن العشرين وصل تغلغل روسيا في إيران إلى حد أن بدا أن هذه قد تسقط كاملة لسيطرتها . ولكن - كما حدث مع تركيا - وقفت فرنسا أولا فترة مع إيران ، ثم جاءت بريطانيا معتمدة على قوتها البحرية في الهندى لتتذرب بأن أى محاولة روسية لبسط نفوذها في الخليج ستقاوم بالقوة . على أن هزيمة روسيا في حرب اليابان كشفت عجزا غير منتظر ، فاضطرت إلى مساومة تسوية مع بريطانيا بمقتضاها قسمت إيران إلى مناطق نفوذ ثلاث ، الشمالية للروسيا ، والجنوبية لبريطانيا ، والوسطى محايدة . وهذه التسوية تلخص في نفس الوقت كل استراتيجية إيران من أجل البقاء والمحافظة على كيائها منذ ظهرت قوة روسيا على ضلوعها ، وهي استراتيجية مضاربة كل من القوى البرية والبحرية حتى تعيش هي على التناقض بينهما ، باختصار سياسة المضاربة Stalemate^(٢) .

وبالمثل اصطدمت روسيا مع بريطانيا على تخوم الهند الشمالية الغربية حيث كانت

(١) المرجع السابق . ص ١٧٠ .

W. B. Fisher, p. 163-4.

(٢)

الأولى بتوسّعها فى وسط آسيا قد بدأت تفرع باب الهند . من هنا كانت حروب الأفغان فى القرن التاسع عشر التى انتهت « بتحييد » أفغانستان - التى شبهها أحد حكامها فى موقعها الاستراتيجى المسحوق بين قوة البر والبحر « بشاة » بين الدب الروسى والأسد البريطانى ! ^(١) - لتصبح دولة حاجزية بين النفوذين البرى والبحرى . ومثل هذا اتفق عليه أيضا بالنسبة للتبت . وبهذا وذاك تحققت استراتيجية روسيا على حدودها البرية من خلق نطاق من الدويلات الحاجزة بينها وبين القوى البحرية . وإن كانت قد فشلت فى تحقيق استراتيجية الوصول إلى المياه الدافئة .

Cressey, p. 409.

(١)

البَابُ الثَّانِي

قَرْنُ الاسْتِعْمَارِ

الفصل السادس

الانقلاب الصناعي والاستعمار

عالم جديد

إن يكن الانقلاب التجارى قد كشف عالما جديدا ، فقد خلق الانقلاب الصناعى عالما جديدا - وفرق بين الكشف والخلق كبير . ومهما حاولنا فلا يمكننا المبالغة فى خطورة ونتائج الانقلاب الصناعى ، ويكفى أن تاريخ البشرية كله قبل الصناعة وحدة واحدة ، وبعده وحدة أخرى بذاتها ^(١) . فالانقلاب إذن أخطر نقطة انقطاع فى تاريخ الإنسانية ، ولعله كذلك فى تاريخ الاستعمار وسياسة القوة .

وإذا كان الانقلاب الميكانيكى فى القرن الثامن عشر هو الذى يمهّد مباشرة للانقلاب الصناعى ، فإن له أيضا جرائم فى الانقلاب التجارى الذى سبق الاثنين فى القرن الخامس عشر . فإن مكاسب المستعمرات واقتصاديات المراكنتليه الجديدة خلقت بالتدريج فى أوروبا البيئة والظروف التى ساعدت على تفريخ الانقلاب الصناعى . وهكذا يبدأ الانقلاب فى بريطانيا حوالى ١٨٢٠ ليتنقل إلى فرنسا فى العقد التالى ١٨٣٠ ، ثم ليتشرب بعد ذلك شرقا عبر القارة خلال القرن .

والانقلاب مركب حضارى كامل برمته ، لم يخلق علما وفنا وتكنولوجيا جديدة فحسب ، ولا اقتصادا جديدا وكفى ، بل ومجتمعا جديدا وجيوبوليتيك جديدا تماما . وإذا كان هيكل الانقلاب يتلخص فى أنه عصر الفحم والحديد ، والبخار والقطار ، فهو بنفس القوة والأهمية عصر السفينة البخارية والمواصلات السلكية واللاسلكية ، أى المواصلات المكانية واللامكانية ، كما انتهى إلى أن يكون عصر الطائرة فى الجو والغواصة فى الأعماق . وقد ترتب على هذا كله ثورة جذرية فى النقل والمواصلات ، فتقلص العالم

V. Gordon Childe, *Man Makes Himself*. N.Y., 1951, p. 17-19.

واختزلت المسافة . وأصبحنا نعيش في « عالم صغير » منكش باطراد جغرافيا - كما هو جيولوجيا - حتى وإن تمدد ظاهريا ببعض كشوف من المجاهيل !

ولما كان القطار قد حقق وحدة اليابس . فإنه لم تعد هناك قارات متعددة بل « قارة عالمية World Island » كما سمي ماكيندر العالم القديم^(١) . وقارة صغرى هي العالم الجديد . ولأن السفينة البخارية قد حققت وحدة المحيط . فإنه لم يعد هناك عمليا محيطات متعددة . وإنما محيط واحد يغلف عالما واحدا متاسكا مترابطا كما لم يكن قبل في التاريخ . وأنت المواصلات اللامكانية والجوية لتؤكد هذه الوحدة كل التأكيد .

وفي الجانب السياسي . كانت النتيجة المباشرة لهذه الانقلابات هي سهولة ضبط وربط الدولة من الداخل عمقا واتساعا . فبعد أن كان من المتعذر على الدول أن تتعدى حجبا أو مساحة معينة في العادة . أمكن للدول الكبيرة الحجم أن تظهر . وبعد أن كانت الدولة الكبيرة الرقعة نوعا تتعرض . على بعد مئات قليلة من الأميال من العاصمة ، لحركات الانفصال والهرد . أصبحت الوحدة القومية مضمونة حتى أبعد الحدود وهوامش الأطراف من الدولة^(٢) . ولهذا فإن العصر هو عصر استكمال ما لم يكن قد تم من وحدات في القارة أو خارجها ، وتوسيع وتوطيد ما كان منها قد بدأ .

من ثم فإن الوحدات التي ولدت في عصر الانقلاب الصناعي تميل إلى أن تكون من الدول الضخمة المساحة والحجم . كألمانيا وكندا والولايات المتحدة وأستراليا ، وبالتالي سيكون لها مكان خاص في ميزان القوة السياسية^(٣) . ولولا أن أتى الانقلاب الصناعي بكل أدواته ووسائله - لاسيما منها وسائل النقل - في الوقت المناسب ، أو لو تأخر عقودا ، لما استطاعت بعض هذه الوحدات الضخمة - ربما - أن تظهر ، ولظهر بدلا من كل منها عدد أكبر من وحدات أصغر . فلولا القطار وخط سكة حديد الباسفيك لما دخلت كولومبيا البريطانية - وربما مقاطعات الوسط أيضا - اتحاد كندا . ومثل هذا وأكثر منه يقال عن الولايات المتحدة . بل لو أن الانقلاب الصناعي تقدم قليلا في مجيئه فلربما لم تستقل ، أو لم تستطع أن تنفصل - الولايات المتحدة عن بريطانيا . ولولا سكة حديد الجنوب لكانت

Democratic Ideals, p. 52.

(١)

Fawcett, op. cit., p. 428.

(٢)

Mogey, p. 125.

(٣)

أستراليا الغربية ، وهى التى لاتزال تعاني من اتجاهات انفصالية ، دولة منفصلة عن الاتحاد الأسترالى ^(١) .

هذا داخل الدولة الواحدة ، أما خارج الدولة الوطنية فإن انقلاب المواصلات والصناعة سيمكن للإمبراطوريات الماموثة والجبارة من الظهور معها تباعدت أطرافها فى أركان المعمورة . لاسيما أن الانقلاب الصناعى نفسه خلق مستويات جديدة تماما من القوة المادية والعسكرية لانقارن البتة بكل ماسبقها . ويكفى على ذلك دليلا أن أول حرب حديثة فى العصر الصناعى ، وهى الحرب الأهلية الأمريكية ، تفوق فى حجمها وجيوشها وأهوالها آخر وأضخم حرب فى عصر ما قبل الصناعة والتى تحتل مكانة خاصة فى كل التاريخ وهى الحروب النابليونية - حقيقة مذهلة ! ^(٢)

ولهذا فإذا كان الاستعمار فى العصور القديمة والوسطى هو صراع بين الزراع والرعاة ، فإنه الآن سيكون صراعا بين صناع ورعاة ، بين الحضارة الميكانيكية والحضارة البدائية ، بل بين العصر الصناعى والعصر الحجري أحيانا ، وبين المدفعية المدرعة والقوس والسهم بالتالى . ومن ثم فقد كان الفارق رهيبا والنتيجة محتومة . وبهذا وذاك جميعا تستمر الحركة التاريخية الصاعدة المنظمة من اتجاه الإمبراطوريات وصراع القوى إلى أن يأخذ أبعاد وآفاقا أكبر باطراد .

الصناعة : الرأسمالية . والاستعمار

ولم يكن مفركذلك ولذلك من أن يصبح العصر الصناعى مرادفا للعصر الاستعمارى ، وأن يكون الاستعمار « وباء » القرن التاسع عشر . فإذا كان الانقلاب التجارى هو الجد الأعلى للاستعمار الحديث ، فإن الانقلاب الصناعى هو أبوه المباشر . تفسير ذلك أن الانقلاب الصناعى خلق اقتصادا مفتوح الشهية . بل حاد الشهوة ، ينتج بالجملة ليستهلك بشرائه ، وهو فى النهاية أبعد ما يكون عن الكفاية الذاتية ، ولا يمكن لأى دولة أو مجتمع أن يحدد عناصر وأركان صناعته داخل حدوده ، بل حتى داخل اقليمه الجغرافى الطبيعى الرئيسى . وإنما هى تعتمد أساسا على عملية « استقطاب » تركيزية عنيفة لكل موارد وخامات وقوى الأقاليم المتباينة والعروض المتفاوتة والبيئات المتنافرة . إنها ببساطة

Harrison Church, Modern Colonisation, p. 86.

(١)

Oswald Spengler. Decline of the West, trans., N.Y., 1946, vol. 2, p. 421.

(٢)

محاولة لاختزال الكرة الأرضية - اقتصاديا - في نقطة . وكما يتفق ، فإن أخطر طرفين في هذه العملية هما العروض المعتدلة والمدارية .

والصناعة بعد هذا لا تخرج من حمى البحث عن الخامات وموارد الخامات ، إلا لتدخل في حمى البحث عن الأسواق لتصريف ما قد أنتجت . ولذا فالصناعة محمولة أبدا بتركيبها الذاتي ، وترباقها كما تصورت وكما لازالت تتصور هو الاستعمار ، والاستعمار المدارى بالذات . من هنا انطلقت القوى الاستعمارية الصناعية إلى استعمار المداريات الجديدة . أو تعميق استعمارها للمداريات القديمة . فإذا كان استعمار الكشوف والعصر التجارى كما رأينا « اندفاعا نحو الشرق Drang nach Osten » (وإن كان بعض هذا « الشرق » غربا في الحقيقة) ، فإن استعمار الانقلاب الصناعى هو أساسا « اندفاع نحو الجنوب Drang nach Süden » . الأول استعمار خطوط الطول ، والثانى استعمار خطوط عرض كما قد نقول .

ليس هذا فحسب ، وإنما خلقت الصناعة أيضا المجتمع الذى يحض على : ويؤدى إلى ، الاستعمار كواقع وكمثال . فلقد ولد الانقلاب الصناعى في إرهاصات تغيير اجتماعى من الاقطاع إلى البورجوازية ترمز له الثورة الفرنسية ، وجاء هو بعدها بعقدين ليقفز بهذا التغيير إلى ثورة اجتماعية سياسية كاملة وجذرية . فالانقلاب الصناعى تمخض عن الرأسمالية وخلق المجتمع البورجوازى الرأسمالى الذى هو في صميمه مجتمع تنافسى تملكى وتوسعى .

ولهذا فلم يكن منتهاه وقصاره خلق طبقات اجتماعية متعارضة متصارعة داخل الدولة ممن يملكون ومن لا يملكون Haves & Have nots . من البورجوازية والبرولتارية ، وإنما خلق معها طبقات سياسية متنافرة بين الدول المختلفة ممن يملكون ومن يملكون Haves & Hads . أى من المستعمرين والمستعمرين . فالاستعمار فعلا أعلى مراحل الرأسمالية ، وهو امتداد خارج الحدود للطبقية داخل الحدود . والمستعمرات ليست إلا « برولتارية السياسة الدولية » . لذلك جميعا فقد كان الانقلاب الصناعى إشارة البدء بسباق محموم معربد نحو الاستعمار . وعاملا حاسما في الصراع الدولى . وكان القرن التاسع عشر هو بالضرورة والامتياز قرن الاستعمار .

كذلك لعب الانقلاب الصناعى دورا خطيرا ومباشرا في التمكين للاستعمار والتعمير ، فقد قدم معا وفي وقت واحد « جسم » التعمير وضواغط التهجير وأداة الحركة وظروف

التوطن . فن ناحية حرك الانقلاب « ثورة ديموغرافية » عارمة لم تعرف البشرية لها مثيلا من قبل . ففي القرن التاسع عشر ارتفع سكان أوروبا من ١٨٧ مليوناً في ١٨٠٠ إلى ٤٠١ مليون في ١٩٠٠^(١) ، وأصبحت أوروبا متخمة بفائض سكاني تحول بالهجرة إلى طفق بشرى خرج من القارة كالطوفان ليتوطن نهائيا في المستعمرات والأقطار الجديدة .

ومن ناحية أخرى كانت النظم الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التي خلقها الانقلاب الصناعي من أهم الضواغط التي دفعت إلى الهجرة من أوروبا . فالصراعات الطبقيّة والاضطرابات السياسية والثورات العديدة والضغط المادية والانسانية على البرولتارية الكثيفة المسحوقة كانت عوامل طرد مباشرة ومحققة . وليس من الصدفة أن موجات الهجرة من أوروبا تتعاصر زمنا مع تواريخ الثورات الكبرى التي تنقط مجرى القرن الصناعي ابتداء من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٨ إلى ١٨٧٠^(٢) .

الصناعة والقوة

ومع ذلك فلولا ما أحدث الانقلاب الصناعي من ثورة في وسائل النقل البرى والبحرى بالجملة ومن تسهيلات الحركة التي لم تعرف قط من قبل ، لما استطاع هذا التيار الكاسح أن يتحقق . وبعد هذا فإنه الانقلاب الصناعي وحده ، بما أنتج من علوم وفنون وطب ووسائل صحية ومخترعات تدفئة صناعية وتكييف .. الخ ؛ هو الذى خلق الظروف البيئية المعقولة والملائمة للسكنى والتوطن في « جبهات الريادة » القارية تلك . باختصار إذن ، لقد جعل الانقلاب الصناعي من الاستعمار حاجة وإمكانية في نفس الوقت .

يبقى أخيرا أن الانقلاب نفسه كان عاملا حاسما في تحديد مصاير الصراع الاستعماري وصدّامات القوى . فقد كان نمط القوة السياسية وتوزيع مواطنها الطبيعية *natural seats of power* يتحدد في العصر التجارى ببعدين أساسيين ، هما موارد الزراعة المحلية وموارد الموقع التجارى . ولكن جاءت الصناعة لتضيف بعدا ثالثا وفيصلا ، أعاد تقييم الأوزان الجغرافية للأقاليم والدول المختلفة . وأحدث انتخبا جغرافيا جديدا للقوى السياسية ، فاستبعد البعض من الصدارة ودفع البعض إلى المقدمة وخلق البعض جديدا أو من جديد .

J.M. Houston, A Social Geog. of Europe, Lond., 1953, p. 152; A. Landry, Traité de (١) Démographie, Paris, 1949, p. 66.

E. E. Bergel, Urban Sociology, Mc Graw-Hill, 1955, p. 251-5. (٢)

وتفسير ذلك أن مركب الفحم والحديد - وهو « صدفه جيولوجية » إما لك وإما عليك - قد أصبح أساس القوة الجديدة . ولهذا جاء الانقلاب الصناعى لينهى إلى الأبد الصراع على السيادة العالمية بين فرنسا وبريطانيا . ذلك الذى كان أبرز طابع فى القرن الثامن عشر . وليضع بريطانيا فى الصدارة المطلقة طوال القرن التاسع عشر . لكنه خلق لها - بالمقابل - منافسها المقبل - ألمانيا - ليصبح النصف الأول من القرن العشرين هو عصر الصراع العالمى بين بريطانيا وألمانيا . ثم ليختزله بسرعة ليضعنا مع بداية النصف الثانى من القرن فى مواجهة صراع جديد من قدر أضخم وأعظم هو هذا الذى نعيشه بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى .

تلك إذن هى الخطوط العريضة فى الانقلاب الصناعى كمحرك وضابط للاستعمار والصراع الدولى . وعلينا الآن أن نتقدم أولاً إلى دراسة الاستعمار فى هذا القرن المفعم خارج القارة فنبداً بالتعمير ثم نردفه بالاستعمار . ثم نعود ثانياً إلى القارة لنحلل محاور صراع القوى داخلها ثم خارجها ، فتتبع حركة انتقال مركز القوة العالمية ونتابع ظهور القوى الجديدة واحدة بعد الأخرى - بريطانيا ثم الولايات المتحدة ثم اليابان فألمانيا - حتى نصل إلى قمة الصراع فى العصر الصناعى وهى الحروب العالمية فى القرن العشرين .

تعمير المعتدلات : الاستعمار الاستيطانى

ينبغى لنا أن نميز بين ظاهرتين بارزتين فى القرن التاسع عشر : الأولى هى التعمير ، أى خروج أوربا إلى القارات والأقطار الجديدة بقصد السكنى والاقامة الدائمة فيها واستبدالها لوطن بوطن آخر . أى بقصد الاستعمار الاستيطانى أو السكنى . والثانية هى الاستعمار بمعنى الغزو والتملك السياسى بقصد استغلالها لا التوطن الدائم فيها ، أى بقصد الاستعمار الاستغلالى أو الاستراتيجى .

ولعلنا نذكر أن أغلب القارات الجديدة قد استعمر بالغزو فى ظل الانقلاب التجارى ، ولكن تيار الهجرة طوال قرون أربعة لم يزد عن بضعة ملايين معدودة . مثلاً لم يكن عدد المعمرين البريطانيين فى أمريكا الشمالية حتى سنة ١٧٠٠ ليزيد عن ٣٠٠ ألف ، ولم يكن عدد البيض فى مستعمرات إسبانيا فى أمريكا حتى سنة ١٨٢٠ ليزيد عن ٣,٢٥ مليون أغلبهم نتيجة للتزايد الطبيعى ^(١) . أما التعمير الحقيقى فلم يحدث إلا فى ظل الانقلاب

الصناعى فى القرن التاسع عشر. أى أن التعمير السكانى قد تخلف طويلا عن الاستعمار السياسى . وعلى العكس من هذا نجد أن ما تم من استعمار سياسى فى ظل الانقلاب الصناعى لم يصحبه أو يتبعه تعمير سكانى حقيقى يذكر . وتفسير هذا بطبيعة الحال أنه ارتبط بالمداريات الكثيفة السكان أو المأهولة التى لا تشجع طبيعيا على الاستعمار الاستيطانى أو لا تسمح به بشريا .

الأوربة

وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان الوجود الأوروبى فى القارات الجديدة سواء تعميرا أو استعمارا هو وجود ساحلى بحت لا يزيد فى أعماق جبهاته عن شقة ساحلية مضغوطة ، بعدها لا يزيد عن وجود رمزى . أما فى القرن التاسع عشر وبفضل ثورة المواصلات الجديدة فقد غزا هذا الوجود داخل القارات استعمارا وتعميرا ، ولا ينتهى القرن حتى يكون كل شبر منها قد احتل . فالاستعمار العالمى من الوجهة الفعالة هو ابن الانقلاب الصناعى وأخو القرن التاسع عشر .

وقد لفظ القرن التاسع عشر وحده من أوربا نحواً من ٦٠ مليون نسمة - ولو أن نسبة كبيرة عادت إلى أوربا بعد ذلك^(١) - توزعت على القارات الملائمة مناخيا للسكنى الأوربية ، ابتداء من أمريكا الشمالية إلى أمريكا الجنوبية ومن أستراليا إلى نيوزيلند . تلك إذن أضخم وأطول رحلة فى التاريخ عبر القارات والمحيط ، تتضاءل بجانبها كل حركات رعاة الاستبس الرجراج فى العصور الوسطى ، ولا يفوقها إلا تيار تهجير الرقيق . هذا إذن ، وليست فترة هجرات الشعوب فى التاريخ القديم ، هو « عصر الهجرة Völkerwanderung » الحقيقى فى تاريخ البشرية .

وهو خروج أبيض أولاً وقبل كل شىء . فقد صدرت أوربا وحدها هذا السيل لتحقيق عالمية الجنس الأبيض Universalisation ، أو أوربة العالم Europeanisation ، ولتزرع خلايا بشرية انشطارية تخلق منها أوربات صغرى Little Europes تدين لأوربا الأم ، أوربا الكبرى ، بالولاء والتبعية بدرجة أو بأخرى . ومن الملاحظ أن هذه الشطايه التى انفصلت عن النواة تتحلل حولها من غرب وجنوب وشرق ، تحف بها كأقمار تابعة تدور فى فلك

شمس كبرى . وتحقق في نفس الوقت بالأجناس البشرية الأخرى غير البيضاء وتطوقها كحلقة خارجية متصلة بدرجة أو بأخرى . أما عالمية الجنس الأبيض المترتبة فتنعكس في أنه أصبح وحده يملك ٤ قارات : بينما يملك كل من الجنسين الآخرين قارة واحدة .

وإذن فلقد جعل الاستعمار أوروبا قلب العالم ورأسه جغرافيا وسياسيا : وجعل العالم يتمركز حول قبة أوروبا Euro-centric ، وفي نفس الوقت جعل الرجل الأبيض يحاصر الأجناس من خلف ومن قدام ومن خلاف . بل قد يمكننا أن نتحدث عن « أوروبراطية » حقيقية - حكم أوروبا Eurocracy - بمعنى الكلمة ، وعن عصر الأوروبراطية العالمية ، عصر لعبت فيه هذه القارة دور أرستقراطية العالم ، وتصرفت فيه كما لو كان الجنس الأبيض وحده دون الجنس البشرى كله خليفة الله في الأرض ، واتخذت فيه في مجال السياسة والحضارة عقلية وفلسفة أشبه ما تكون بعقلية العصور الوسطى في الفلك والكوزمولوجيا حين كانت تحسب الأرض مركز الكون ومحور المجموعة الشمسية ! .. وإذا كان لهذا التشبيه مغزى ، فهو أن أوروبا كانت تحتقر الجغرافيا وتحتكر التاريخ ، أى كانت ضد الطبيعة ، ومن هنا ستكون سقطتها وانهارها فيما بعد .

وأنت تطالع اقسّمظهر لأوروبا العالم في أسماء البلاد الجديدة : فكثير منها أو أغلبها على مختلف المستويات : من الأقطار إلى المدن ، ليس إلا سميا homonym لأماكن وبقاع من القارة « الأم » . ابتداء من نيوانجلند ونوفاسكوشيا (اسكتلندا الجديدة) ومن قبلها فرنسا الجديدة وإسبانيا الجديدة ، إلى نيوزيلند ونيوسوث ويلز ونيوبريتن ونيوآورليانز ومن فتزويلا إلى هسبنولا .. الخ .. هذا بينما تحمل إفريقيا - أو كانت - أسماء أجنبية أوروبية صرفة في كل جنباتها كأنما هي بصمات أصابع اللص يتركها على جسم جريمته .

صراع الأجناس

وقبل أن نخلل تيار الخروج الأبيض العرم هذا إلى روافده وفروعه ، ينبغي ألا نغفل عن حقيقة هامة وخطيرة تعد - ربما أكثر من تجارة الرقيق - نقطة سوداء فاجرة في صفحة الاستعمار الأوربي استيطاني وغير استيطاني . فهذا التعمير ، هذا الاستعمار الاستيطاني السكنى ، ما قام إلا على أشلاء وأنقاض السكان الأصليين في قارات المهجر ، فقد سحب الهجرة الأوربية وتبعها عملية إبادة رهيبة ، عامدة أو عفوية ، للأهالي الوطنيين ، وصلت بهم في بعض الحالات إلى حد الانقراض . فقد كان على الاستعمار الاستيطاني السكنى لينجح أن ينتزع الأرض الجديدة والجيدة ، ومن ثم أن يطرد منها

أصحابها إلى الأطراف غير الصالحة للسكنى أو للزراعة ، وذلك إما بالحرب والافناء وإما بالمطاردة حتى الانزواء .

يضاف إلى هذا أن دخول الرجل الأبيض إلى وسط بيولوجى مختلف وبمركب باثوجينى مختلف ، حمل معه فى حد ذاته عديدا من الأمراض التى لم تكن معروفة فى المهجر ولم يكن لأهلها ضدها مناعة ، ولذلك أحدثت الأمراض الوافدة أوبئة رهيبة أفنت مئات الآلاف من الوطنيين . ولا ننسى كذلك دخول الأسلحة النارية والكحوليات والسخرة الأوربية . وكلها من عوامل الموت للوطنيين . وبهذا تكون الهجرة الأوربية قد أتت للوطنيين بعوامل الموت المباشرة وغير المباشرة . من هنا نجد التعدادات تسجل زيادة مطردة فى عدد المهاجرين وتناقصا خطيرا فى عدد الأهالى ، خطوة بخطوة . وبمعنى آخر فقد أتى التعمير الأوروبى عملية دموية إبادة ، وانتهت من احتلال سياسى إلى إحلال جنسى^(١) .

فى أستراليا وصلت عملية إبادة الجنس إلى حد « صيد رؤوس head-hunting » على منظم - أحيانا كنوع من الرياضة ! .. بينما فى تزامبيا انقرض الجنس التزمانى تماما من عالم الوجود . وفى أمريكا الشمالية - تذكر الشعار الأمريكى الخالد « الهندى الطيب هو وحده الهندى الميت » !^(٢) - تحول الهندى الأحمر إلى شبح وأسطورة أو على الأكثر إلى عينات متحفية لأجناس بائدة لا يابى لها أو يحتفل بها إلا الأنثروبولوجيون وهواة الحفريات البشرية وصناعة الأفلام ! .. وقد كان مصير هذه الأجناس مقدورا منذ البداية ، لأن أعدادها الأصلية كانت ضعيفة جدا بالنسبة لتيار المهاجرين ، كما كان مستوهم الحضارى بدائيا إلى حد لا قبل له بمواجهتهم^(٣) .

والحالات الوحيدة التى نجت من هذا المصير الأسود على يد الجنس الأبيض هم ماورى نيوزيلند (٩٠ ألفا) الذين بدأوا أخيرا يتزايدون بعد تناقص ، والأستراليون الذين تقلصوا كثيرا (١٥٠ ألفا) . ثم هناك ممن أفلتوا من الاحتراق بنار الاحتكاك الحضارى وارتطام الأجناس هنود أمريكا الجنوبية والوسطى - اللاتينية بعامة . فنظرا لضخامة عددهم نسبيا (١٢ مليونا) ، مع صلاحية القارة فى معظمها للسكنى البيضاء إما بسبب خطوط العرض أو خطوط الكنتور ، فقد حل هنا محل الاحتلال الجنسى الخلط الجنسى

Carr-Saunders, World Population, op. cit.

(١)

Whittlesey, Earth & State, p. 508.

(٢)

G. H. Pitt-Rivers, Clash of Cultures & Contact of Races, Long., 1927.

(٣)

الذى لا مثيل له في العالم كله . فهنا يزيد عدد العناصر الخالسية على العناصر النقية من أى جنس . ولا يمثل البيض الخالص إلا نحو الثلث (١) .

ولهذا السبب فإن أمريكا الجنوبية بوتقة أجناس melting-pot بدرجة أكبر في مداها وعناصرها الجنسية من أمريكا الشمالية . فهي تجمع بين ثلاثة أجناس هي : البيض ، والهنود . والزنج . بينما أن أمريكا الشمالية بوتقة انصهار للجنس الأبيض وحده أساسا . ومع ذلك فإن العالم الجديد ككل يختلف - كنتيجة لسيادة الاستعمار السكنى الاستيطاني - عن القديم في أنه بوتقة جنسية إلى أبعد مدى .

والخلاصة العامة هي أن استعمار المعتدلات السكنى الاستيطاني في القرن التاسع عشر أخذ صورة صراع أجناس أساسا ، أى كان حركة عنصرية ضخمة . انتهت بإبادة أجناس برمتها وابتزاز قارات بأسرها . وهو بهذا يعود بالبشرية إلى أحط مراحل البربرية والهمجية الأولى حين كان صراع الجماعات ينتهى بإبادة المغلوب . ولن يجدى في هذا تعلل الاستعمار أو اعتذاره بأنه لم يكن من المعقول أن تترك تلك القارات البكر بإمكاناتها الهائلة لحضارات قليلة من البدائيين الذين عجزوا عن استعمارها ، فليس هذا إلا منطق القوة الغاشمة .

ولكم يبدو غريبا شاذا بعد هذا منطق الاستعمار : بدأ إبادة الهنود الحمر في العالم الجديد . فلما افتقد اليد العاملة نقل إليه زنج إفريقيا بالجملة . وحين دخل أفريقيا بدأ يهجر إليها الهنود والآسيويين لملأ الفجوة الناجمة - حركة تفريغ ونقل من الشرق إلى الغرب باطراد تشمل وتغطي الكرة الجنوبي من أقصاه الى أقصاه .

وهذه الحركة القسرية أو التحريك القهري يكاد بذلك يناظر - بالمناسبة - حركة الجماعات والسكان والأجناس المستمرة عبر التاريخ في نصف الكرة الشمالى في الاتجاه نفسه من قلب آسيا إلى غربها ومن غربها إلى شرق أوروبا ومنها إلى غربها ثم أخيرا من أوربا كلها إلى أمريكا والعالم الجديد . والحركتان معا - سيلاحظ - تجمعان معا كل ديناميات السكان أو الجنس البشرى تقريبا طوال التاريخ في تيار محوري هائل يدور حول الأرض بأسرها وبمنصفها من الشرق إلى الغرب باطراد واستمرار ، قل مع حركة الشمس الظاهرية أو عكس حركة الأرض نفسها حول نفسها .

We Europeans, loc. cit.

على أنه إذا كان لهذا كله من مغزى . فهو الاستعمار السكنى الاستيطاني قد أعاد توزيع البشرية ديموغرافيا وأنتروبولوجيا على ظهر الأرض . وغير الأوزان والألوان التقليدية للقارات . ولم يكد جنس يفلت من هذه العملية . ولكنها في جميع الحالات كانت بفعل الاستعمار الأبيض ولحساب الجنس الأبيض .

أما إذا انتقلنا إلى جزئيات الهجرة البيضاء وروافد تيارها . فقد وصلت الهجرة من أوروبا في بعض السنوات إلى نحو مليون نسمة ، وكان السبق الزمني لبريطانيا حتى منتصف القرن . وبعدها وحتى أواخره أصبح السبق لشمال غرب أوروبا عامة . ثم تحولت بؤرة التصدير إلى جنوب أوروبا وشرقها . وقد صدرت بريطانيا خلال القرن نحو ٢٠ مليون نسمة . وإيطاليا نحو ١٠ ملايين . وتأتى بعدهما ألمانيا^(١) .

أما عن الاستيراد . فقد كانت الولايات المتحدة هي أعظم مستقبل (٣٦ مليونا أو ٦٠٪) . كما كان العالم الجديد كله هو المصب الأكبر للتيار (٩٠٪) . وتلى الولايات المتحدة كندا (٧ ملايين) ثم الأرجنتين (٦ ملايين) ثم البرازيل (٤,٥ مليون) ثم أستراليا (٣ ملايين) فنيزويلا (١,٥ مليون) . وأخيرا جنوب إفريقيا (١,٥ مليون)^(٢) .

ومن المهم أن ندرك المغزى السياسى لهذه الهجرة . لقد أضافت إلى هيئة أوروبا السياسية وقوتها الاستراتيجية والاقتصادية الشيء الكثير ما فى ذلك شك . وبفضلها أصبحت أوروبا سيدة القارات ومحور ارتكاز العالم . ولكن هذه البلاد الأبناء daughter countries لن تلبث أن تستقل إما تماما وإما كدومنيون فى حالة بريطانيا . ولذا فهى فى النهاية محصومة من حساب أوروبا وعامل ضعف لها هى ذاتها . ولقد كانت أكثر الدول الخاسرة هى بريطانيا بعكس ألمانيا مثلا . وكان لهذا بالفعل انعكاسه المباشر على القوة البشرية لكل منها وصراع القوة داخل القارة وخارجها^(٣) .

الاستعمار المدارى

المجال الجديد للاستعمار فى القرن التاسع عشر . والذى يرمز « لأصالة » الانقلاب الصناعى بالذات . هو الاستعمار المدارى . فهنا يضرب الاستعمار أرضا جديدة وقف

Maurice Davie. World Immigration; We Europeans, p. 201.

(١)

Kimble. World's Open Spaces. p. 25-6.

(٢)

Fitzgerald. The New Europe. p. 222-3.

(٣)

عاجزا عن ولوجها ثلاثة قرون من قبل . وينقسم هذا المجال إلى دوائر ثلاث واضحة هي :
أفريقيا المدارية . والعالم العربى دون المدارى ، والشرق الأقصى الموسمى . ففى هذا القرن
انطلقت أوربا فى موجة مدية عاتية لتبتلع هذه المناطق . وتم لها ذلك فى وقت قصير
نسبيا . وأكثر من هذا فى مراحل متعاصرة إلى حد بعيد .

القطاعات الاقليمية

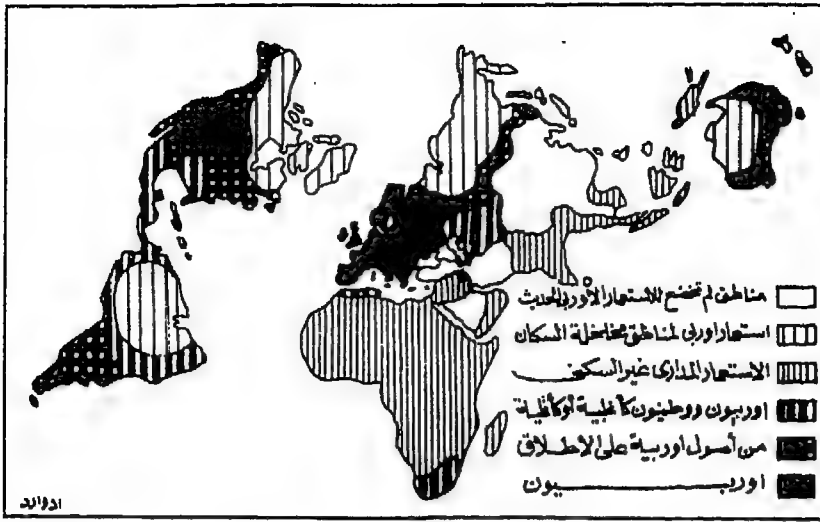
والسؤال المدخلى الذى يفرض نفسه منطقيا هو : لماذا تأخر استثمار المداريات إلى هذا
المدى . ولماذا حدث - حين حدث - بتلك السرعة المثيرة . وأخيرا لماذا تعاصرت قطاعاته
فى سقوطها له ؟ الذى لاشك فيه أن الاستثمار قد طرق سواحل أو بعض سواحل هذه
المناطق من قبل . ولكنه ظل يتأرجح معلقا أمامها طويلا مكثفيا « بالاستثمار الديموغرافى »
فى أفريقيا : أو القرصنة شبه الصليبية على العالم العربى ، أو بالتجارة الابتزازية مع الشرق
الأقصى . ذلك لأن حضارة الانقلاب التجارى - وسائل نقله خاصة - لم تكن لتستطيع
أن تمرق به إلى داخل القارات .

فى أفريقيا المدارية كانت الطبيعة تغلف القارة السوداء بساحل خطى صقيل غير
مضيف تقل فيه المرافئ الجيدة وتتكاثر عليه الأمواج الضاربة Surf ، بينما فى أعماق القارة
بأبعادها السحيقة والساحقة معا تسود إما صحراوات قاحلة موحشة وإما غطاءات نباتية
تتكاثف كالأسلاك الشائكة . وحتى أنهار القارة العظيمة هى الأخرى طرق مسدودة أو
شرايين مقطوعة ، وذلك بحكم تركيب القارة ككتلة هضبية ، فقرب مصابها تهوى من
حالت فى شلالاندفع « تشل » الملاحة والحركة دخولا أو خروجا^(١) .

أفريقيا المدارية إذن كانت للاستثمار صندوقا مغلقا رهيبا . يدور حوله جيئة وذهابا
ولكنه لا يملك مفاتيحه ولا يملك أن ينفذ إليه . ولهذا ظلت تستمد كل أهميتها طوال العصر
التجارى من أنها عتبة لا عتبة إلى الهند . وبعض هذا ، مضافا إليه البعد الجغرافى
الشديد . يقال عن الشرق الأقصى الموسمى . ولكن الانقلاب الصناعى قلب هذا
الوضع . فقد مد أوربا بالفتاح الحضارى اللازم لقهر هذه البيئات الطبيعية الصعبة . أى
أن الاستثمار عجز عن دخول المداريات بحضارة الانقلاب التجارى ولكنه نجح بحضارة
الانقلاب الصناعى . .

Dudley L. Stamp. Africa. N.Y., 1953; W. Fitzgerald. Africa. Lond., 1950.

(١)



شكل (١٣) العالم اليوم كما شكله الاستعمار ووحده «الأوروبية». لاحظ عالمية الجنس الأبيض أو أوروبية العالم

أما العالم العربي فله في هذا التحليل وضع خاص . فهو لم يكن يبعد عن موطن الاستعمار الأوربي ، بل هو الجار المواجه مباشرة . ولا هو كذلك بالبيئة الطبيعية المغلقة أو الطاردة . ولكن الذي أعجز الاستعمار دونه إنما هو العامل الحضاري . فرغم كل شيء ، كان للشرق العربي حضارة قديمة عريقة وقوة أكبر من هينة . ومن هنا ظل صامدا للضغوط الأوربية المتزايدة التي تهاوت أمامها - مثلا - حضارة آسيا الموسمية في الهند وجزر الهند . إلى أن كانت طفرة الغرب الحضارية الحاسمة في الانقلاب الصناعي ، فكان هذا إيذانا بعدم جدوى المقاومة . فمرة أخرى ، وكما في أفريقيا وإن يكن لأسباب حضارية لا طبيعية ، عجزت أوروبا عن التغلب على العالم العربي بحضارة الانقلاب التجاري ولكنها نجحت بحضارة الانقلاب الصناعي^(١) .

ولعل هذا الذي قلناه أن يكون ردا ضمينا على سؤالنا عن سبب تعاصر توقيت الاستعمار المداري في قطاعاته الثلاثة : فهو قد تأخر في العالم العربي رغم الموقع القريب والبيئة المفتوحة ، أساسا بسبب تماسك وصمود المستوى الحضاري ، أي أساسا بسبب الجغرافيا الحضارية . وهو قد تأخر بنفس الدرجة في أفريقيا المدارية رغم المستوى الحضاري البدائي

(١) جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربي ، ص ٢٢ - ٢٣ .

والعجز المادى المحقق . أساسا بسبب البعد الجغرافى والبيئة المغلقة المصمتة ، أى أساسا بسبب الجغرافيا الطبيعية . وفى المتزلة بين المتزلتين يأتى الشرق الأقصى .

أغراض الاستعمار

السؤال الآن : فما أغراض الاستعمار المدارى وأهدافه ؟ وهذه حسمتها الطبيعة مرة واحدة وإلى الأبد . فلم يكن فى هذه العروض المدارية بمناخها المضاد للرجل الأبيض (anticlines) مجال للاستعمار الاستيطانى السكنى أو التوطن . ولهذا كانت الصبغة السائدة بالضرورة هى الاستعمار الاستغلالى أو الاستراتيجى . وثمة عامل يعمل فى نفس الاتجاه ويجب كل فرصة للاستيطان وللإستعمار السكنى . ونعنى به العامل السكانى .

فهذه كلها مناطق قديمة العمران . كثيفة السكان ، وبعضها عريق الحضارة ، فليس فيها طاقة أو كوة لدخيل يستوطن . وحتى فى أديانها حضارة لم يكن هناك أى احتمال لإبادة الجنس والاحلال الجنسى كما عرفت المعتدلات الجديدة أو مداريات العالم الجديد . فى أفريقيا كانت حيوية الجنس الزنجى ، وهى التى هزمت تجارة الرقيق والاستعمار الديموغرافى من قبل ، كقيلة بأن تهزم أى مشروع للإستعمار السكنى الاستيطانى .

ومع ذلك فثمة جيوب من أفريقيا المدارية وخارج المدارية معا لم تنج من الاستعمار السكنى الاستيطانى : فى أفريقيا المدارية جزر الكنتور المرتفع التى تصحح المناخ للأبيض (alticlines) ، وأفريقيا خارج المدارية فى قطاعات المناخ دون المدارى أو المناخ المشابه لجنوب أوروبا (homoclines) . فالأولى تتحدد فى نطاق المرتفعات الهضبية الممتدة بتقطع من كتلة الحبشة حتى (ما كان وديستين ، حيث حوله الإستعمار إلى « المرتفعات البيضاء » وحاول أن يتوطن فيها ببضع مئات من الآلاف موزعة هنا وهناك لا سيما فى كينيا وروديسيا الجنوبية . أما الثانية فتتحدد فى الشمال بشبه جزيرة المغرب الكبير ابتداء من ليبيا حتى المغرب ولكن الجزائر بالذات . وهنا وصل الإستعمار الاستيطانى السكنى فى مجموعه إلى المليونين تقريبا . ثم هناك جنوب أفريقيا فى طرف القارة حيث زرع الإستعمار ثلاثة أو أربعة ملايين من المستوطنين .

وفما عدا هذا الشذوذ الذى يؤكد القاعدة ، فقد كانت حوافز الإستعمار المدارى أساسا هى الاستغلال أو الاستراتيجية أو كليهما معا . وبصورة عامة يمكن أن نغلب الإستعمار الاستراتيجى على الاستغلال فى العالم العربى ، وإن لم يلغ مطلقا . والعكس

صحيح في أفريقيا المدارية والشرق الأقصى ، فهناك يأتي الاستغلال في الدرجة الأولى وتراجع الاستراتيجية إلى الصف الثاني .

وتغليب الأهداف الاستراتيجية في العالم العربي ، لا سيما منه الشرق ، إنما يرجع بطبيعة الحال إلى موقعه الجغرافي البؤري الحاسم الذي أصبح مركز ثقل العالم القديم بلا منازع بعد شق قناة السويس في أواسط القرن . فقد أصبح العالم العربي هو عتق الزجاجة في طريق الاستعمار إلى الشرق الأقصى جميعا وبوابة الإمبراطورية - أي إمبراطورية - و « خط الحياة » للإمبريالية .

الاستعمار الاستغلال

في ضوء هذا التحديد والتوجيه ، أصبح حجر المغناطيس في الاستعمار المداري في العصر الصناعي هو موارده الخام الثمينة الرخيصة معا ، زراعية ومعندية ، غابية أو سكانية . وبعدها تأتي السوق المحتكرة المضمونة لتصرف منتجاتها وخاصة سلعة الرخيصة الرديئة . وسوق المستعمرات وإن كانت فقيرة في قدرتها الشرائية فهي تعوض بضخامة حجمها .

وتجربة الاستثمار الاستعماري لم تخرج يوما ، وباعتراف كتابه ، عن اقتصاد هدمي ابتزازي سافر Raubwirtschaft ، لم يكتف بأن يسرق السكان بل والطبيعة أيضا . فقانونه هو امتصاص زبد الاقليم skim the cream حتى يتركه زبدا وغشاء أحوى . حتى الزراعة الاستعمارية ، الأبعاديات التي هي مشروع صناعي بقدر ما هي عملية زراعية ، وصفت بأنها زراعة تعدينية . mining agric. أي تخريبية هدمية ببساطة^(١) . ميكانيكية الاستعمار باختصار أنه مضخة ماصة في المستعمرات ، كابسة في المتروبول ، ورياضياته عملية طرح هنا وجمع هناك .

الاستغلال إذن هو بوصلة الاستعمار المداري وقبلته . وإذا كان هذا الاستعمار قد وجد محركه في الانقلاب الصناعي ، فإنه سرعان ما أصبح وقوده وبخار آله الضخمة . فن المحقق أنه لولا موارد المستعمرات ومكاسيها الفلكية التي ذهبت لتنصب في تراكم رأس المال الأوربي ، لما وصل التطور الصناعي - بكل ما يعنيه من تطور حضاري ومعيشي ونمو

Karl J. Pelzer, Geog. & the Tropics, in : Geog. in 20th Century, Lond., 1951, p. 321.

(١)

فى القوة .. الخ - إلى ما وصل إليه . فبقدر ما كان الاستعمار نزيها اقتصاديا رهيبا أصاب المداريات بالشلل الزاحف . كان يضح فى الاقتصاد الأوروبى ما لا يمكن حصره بل تخيله من آلاف المليارات من الجنيهات .

وقد كان طبيعيا لذلك أن ينتهى الاستعمار إلى تقسيم عمل يحتكر فيه الحرف الثانية (الصناعة) والثالثة (التجارة) وهى التى تدر أعلى الدخل ، ويفرض على المستعمرات الحرف الأولية (الزراعة والتعدين) التى لا تكاد ترد من الدخل إلا الفتات . وبهذه القسمة غير السلمانية الضيزى احتكرت أوروبا لنفسها دور مصنع العالم وأبقت على المستعمرات كمزرعة له ، وبه أيضا أصبحت هى مدينة العالم والمستعمرات ريفه . وهذا هو التكامل الاقتصادى الذى زعمه الاستعمار . والحقيقة أن الاستعمار كان ينظر إلى المداريات على أنها « أقاليم تكميلية *Ergaenzungsraeume* » كما سماها الجغرافيون الألمان ^(١) ، تكمل عروضه المعتدلة ، ومن ثم مجال حيوى لأوروبا *Lebensraum* . وفى أفريقيا مثلا كان الاستعمار يتشدد بأنه شركة تعاونية بين « العقل الأبيض والعنصر الأسود *White brain & black brawn* » ^(٢) . وعلى هذه الدعاوى رتب أنه « زواج سياسى » بين المتروبول ، أى الدولة الأم ، وبين المستعمرة التابعة !

ولكن الحقيقة الموضوعية المحايدة هى أن المداريات لم تكن أكثر من سندردلا أوروبا ، وأن الاستعمار لم يكن إلا شركة ابتزازية غير مقدسة ، أما العلاقة السياسية المفروضة فليست إلا اغتصابا سياسيا داعرا . وإذا صح أن المداريات كانت المجال الحيوى لأوروبا ، فإنها فى معنى حقيقى جدا مجال الموت *Todesraum* لأبنائها هى ^(٣) . ولئن صح كذلك أن الاستعمار خلق كأمر واقع « أورافريقيا » وغير أورافريقيا ، فإنها لم تكن فى الحقيقة إلا نوعا من « أوروبا العظمى » ، لم تكن فيه أفريقيا وغيرها إلا ظلا أسود للقارة البيضاء . أو ضاحية ضخمة للمتروبول وشرنقة استعمارية منتفخة حول نواته الكثيفة .

العنصرية

وهنا نجد أن الاستعمار قد « ارتقى » فى هذه المرحلة عما كان عليه فى مرحلة الموجة الأولى ، فاستبدل بالإبادة الاسترقاق ، ثم استبدل بهذا الاستعمار السياسى ، ثم سنجده

Ibid.. p. 314.

(١)

D. Westermann. The African Today & Tomorrow. Lond., 1939. p. 3.

(٢)

(٣) فايفيلد ويرسى ، الجيوبوليتيكا ، ج ١ ص ١٥٧ .



شكل (١٤) الاستعمار العالمي في ذروته ١٩١٤ . مناطق ثلاث فقط نجت من الاستعمار : اليابان ، الصين ،
وجزء من الشرق الأوسط

مع الاستعمار الجديد يستبدل بالاستعمار السياسي الاستعمار الاقتصادي . ولكن يظل الجميع على خط النسب المباشر الذي ينحدر من صراع الإبادة ، ويظل الاستعمار في صميمه صراع أجناس Rassenkampf وحركة عنصرية من الباب والظفر برهانها الوحيد .

ومن الحقائق الجديرة بالتأمل والتي تؤكد هذا الذي نقول عن عنصرية الاستعمار وصراع الأجناس ، أن الاستعمار كله ما تم إلا على يد أوروبا وما تم إلا خارجها . فلم يحدث في التاريخ الحديث أن استعمر جزء من أوروبا باستثناء نقط من الاستعمار الاستراتيجي في جبل طارق ومالطة وقبرص . وفيما عدا هذا ، فقد تشتعل الحروب الدامية داخل أوروبا ، ولكنه احتلال عسكري مؤقت أو تسوية حدود داخل إطار القوميات ، ذلك الذي يحدث . أما أن تستعمر دولة أو شعوب دولة أو شعبا أوروبا فهذا قط لم يحدث . لقد كان الاستعمار - بوضوح - صناعة أوروبية مسجلة ولكنها للتصدير إلى خارج أوروبا فقط وغير قابلة للاستهلاك المحلي بحال .

ولقد كان الاستعمار في أوج بطشه يبرر نفسه - متبجحا - بنظريات القهر والتفوق العنصري ، حتى إذا استشعر نهايته وطاردته عقدة الذنب بحث - منافقا - عن التبرير في نظريات الإنسانية والأخوة ! وبين النقيضين خرج من النظريات ما يندى له اليوم جبين العلم والحقيقة خجلا . فن نظريات القهر والتفوق بدأ بتقسيم حضاري للأجناس أو تقسيم

جنسى للحضارات . فزعم مرة أن « الرجل الأصفر يعيش فى الماضى ، والأسود فى الحاضر ، أما الأبيض فيعيش فى المستقبل »^(١) . ومرة أخرى وضع نظرية « الأجناس الأطفال » . وأخيرا انتهى الاستعمار مع العنصرية النازية إلى تصنيف بيولوجى للأجناس يميز بين الأجناس السادة Herrenvolk وهم البيض ، والأجناس الفعلة Hilfenolk وهم « الملونون » ، وكلا جعل مراتب ودرجات !^(٢) .

وإذا كانت عنصرية الاستعمار فى عنفوانه سافرة بلا حياء ولا خجل ، فهى لم تفعل فى شيخوختها إلا أن تقنعت بنقاب الرياء والزيف دون أن تغير جلدها ، فكانت النظريات « الإنسانية والأبوية Paternalism » فى الاستعمار (كذا !) مثل « عبء الرجل الأبيض Whiteman's burden » ورسالة الحضارة « والأب الأبيض White Father » أو « الأخ الأكبر Elder Brother » ... الخ^(٣) . ولكن هذا جميعا منطق تبرير فج لا يبرر أكثر مما يبرئ ، ويظل الاستعمار وصمة فى جبين المستعمر أكثر منه فى جبين المستعمرات وعار أوربا أكثر منه عار المداريات ، ويظل فى النهاية ظاهرة عنصرية جنسية بحتة . ويكفى أن يتحدث بعض الكتاب الأوربيين أنفسهم عن « السجل المأساوى القذر لعملية الأوربة » وعن « قصة الأوربة التعسة »^(٤) .

G. Montandon, Traité d'Ethnologie, Paris.

(١)

(٢) فايغيلد ويرسى . ج ١ ، ص ١٧٨ .

N. Sithole, African Nationalism, Cape Town 1959, p. 122.

(٣)

Cole. p. 47, 49.

(٤)

الفصل السابع

نماذج من الاستعمار المدارى

أفريقيا

التكالب

لننتقل الآن بشيء من تفصيل إلى تحليل حركة الاستعمار فى كل قطاع من المداريات على حدة . ولنبدأ بأفريقيا المدارية . كان مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ ، الذى أجمعت فيه القوى الأوروبية على أن الادعاءات الاستعمارية فى أفريقيا لا تكون إلا بالاحتلال الفعلى الواقع ، إشارة البدء بسباق جنونى مسعور على القارة . هذا هو « التكالب » المشهور Scamble for Africa . وجاء الزحف كاسحا بصورة لم تعرف بالقطع فى التاريخ ، حتى فى العالم الجديد . ففى مدى عقد واحد كان قد تحدد كل شيء .

فى سنة ١٨٩٣ ، أى بعد عقد واحد من مؤتمر برلين ، كانت كل القارة قد اقتسمت بين القوى الأوروبية وانخفضت نسبة المساحة المستقلة فيها من ٩٥ ٪ فى سنة ١٨٨٥ إلى ٨ ٪ فى سنة ١٩١٠ (١) . هذا بينا فى آسيا لم يصل الاستعمار إلى منتهى رفعته إلا على مدى فترة طويلة ، كما أنه لم يتعد فيها فى حده الأقصى إلا قطاعا معينا من القارة . أما أفريقيا فإنها تنفرد بين القارات الجنوبية بأنها الوحيدة التى خضع أغلبها ، وفى وقت ما لم يكن دولة مستقلة — ولكن شكليا — لإليبيريا . وبهذا كانت أفريقيا هى القارة المستعمرة أو المستعمرة القارة بالضرورة ، كانت أكبر مستعمرة منفردة فى العالم وأضخم معمل للتجارب الاستعمارية فى التاريخ .

والذى شارك فى هذا التكالب هو دول أوروبا البحرية بالذات ، لكن مع تخلف واستبعاد بعض القوى القديمة كهولندا والدنمرك ودخول بعض القوى الجديدة كألمانيا

وإيطاليا وبلجيكا . وقد كان الصراع في أفريقيا انعكاسا للصراع في أوروبا ، وتحدثت نتائجه بأقدار وأوزان تلك القوى في قارتها ، كما أن هذه النتائج بدورها أكدت تلك الأقدار والأوزان والهبة فيما ضاعفتها وإما أضعفتها . ففازت القوى الكبرى بنصيب الأسد ، وخرجت القوى الصغرى بفتات المائدة .

ولقد كان الحد الأقصى من التوسع هو الهدف المباشر للجميع ، يضاف إليه الوصول بقدر الامكان إلى الأنهار الرئيسية ، وإن أمكن كذلك تحقيق الاتصال الأرضي بين مستعمرات كل قوة . وفي هذا التوجيه ، بدأ الهجوم على القارة من جميع الجهات تقريبا . وعدا القوة المباشرة ، كان للمقايضات الإقليمية والمساومات ، والمبادلات والتفاهات ، دورها مثلما كان للعداوات والتحديات ، والمخالفات والمصادمات .

وبوجه عام كانت الصدامات الأكثر خطرا هي تلك التي دارت بين القوى الكبرى كبريطانيا وفرنسا وألمانيا ، بينما كانت القوى الصغرى تعتمد إما على نوع من الرعاية أو حتى الحماية الصامتة من بعض القوى الكبرى (مثل البرتغال بالنسبة إلى بريطانيا) ، وإما على « تحييد » القوى الكبرى لبعضها البعض (مثل بلجيكا بين بريطانيا وألمانيا) . وبصفة عامة يمكن أن نقول إن كل الصراع الاستعماري في أفريقيا لم يصل أبدا إلى حد الحرب وإن أشرف أحيانا على المباشرة^(١) . والمغزى هام وخطير : فللاستعمار حتى يعيش « وحدته » ، وعلى التناقضات أن تتراجع في النهاية أمام وحدة المتآمرين !

صراع القوى

ولقد بدأ التوغل ببريطانيا ، وبدأت بريطانيا التوغل من قواعد الساحلية في غرب أفريقيا حيث حققت توسعا « بحريا » يتمثل في عدة مستعمرات متوسطة الأحجام ولا تتعمق كثيرا في الداخل فضلا عن أنها منفصلة عن بعضها البعض^(٢) . كذلك دخلت ألمانيا بإسفينين منفصلين في توجو والكامرون . أما فرنسا فقد دخلت من الكوة أو البوابة الحقيقية لغرب أفريقيا وهي ذلك الشريط السفاني المحصور بين الصحراء شمالا والغابة جنوبا . وقد قادها هذا إلى الشارع الرئيسي للحركة في غرب أفريقيا وهو نطاق

Whittlesey, p. 331-341.

(١)

R.W. Steel, Some Problems of Population in British West Africa, in Geog. Essays on British Tropical Lands, Lond., 1956, p. 27 et seq.

(٢)

السودان^(١) . فاندفعت فيه شرقا واندفعت منه جنوبا لتدخل إقليم غانته من الباب الخلفى ولتملأ الفجوات الأرضية الواسعة بين الأسافين البريطانية والألمانية .

وبهذا أصبح النمط السياسى متداخلا على التوالى : مستعمرة فرنسية فبريطانية .
فرنسية فألمانية . فرنسية فبريطانية . وهكذا . وهنا أيضا نرى « قارية » التوسع الفرنسى واضحة كل الوضوح . لا سيما أن خلف ذلك جميعا كانت تترامى لفرنسا إمبراطورية عسكرية قارية صحراوية بدأتها من الجزائر من قبل . وكما دخلت فرنسا من شمال غرب أفريقيا ، دخلتها بريطانيا من شمالها الشرقى فى مصر حيث اتخذتها قاعدة للتوسع فى السودان النبل .

وفى شرق أفريقيا بدأت بريطانيا بمستعمرة فى كينيا وأوغندا ، لم تلبث أن اتصلت بمستعمراتها النيلية فى الشمال . ولم تلبث أن ناظرتها ألمانيا بمستعمرة واسعة فى تنجانيقا ، بينما أغلقت بلجيكا جذع القارة من الغرب بمستعمرتها الضخمة فى الكونجو . وإلى الجنوب من هذا كانت البرتغال تتوسع من شريطها الساحلين القديمين لتكون موزمبيق وأنجولا . وفى نفس الوقت كانت بريطانيا ، بعد أن انتزعت الكاب من هولندا فى الحروب النابليونية ، قد اتخذت منها رأس حربة للاندفاع إلى قلب القارة شمالا على طول العمود الفقرى للمرتفعات والهضاب السافانية . بينما ملأت ألمانيا الفراغ على الساحل الغربى بين الكاب وأنجولا بجنوب غرب أفريقيا .

وهنا حاولت كل من ألمانيا والبرتغال أن تصل ما بين أراضيها شرقا وغربا لتغلق الطريق على التوسع البريطانى : ألمانيا ما بين تنجانيقا وجنوب غرب أفريقيا ، والبرتغال ما بين موزمبيق وأنجولا . ولكن كانت اليد العليا لبريطانيا ، فنجحت فى أن تتمدد شمالا عبر الروديسيتين . إلا أن هذا كان معناه - فى الحقيقة وللغربة - « إمبراطورية داخلية » لبريطانيا القوة البحرية أساسا وبالضرورة ، وصاحبة الاستعمار الساحلى بامتياز !^(٢) على أنها لم تر بأسا أن تعتمد على المستعمرات البرتغالية كمخرج ، وذلك لصداقتها التقليدية بل حمايتها الحقيقية للبرتغال . وبعد هذا بدأت بريطانيا تتطلع إلى حلم ضخم هو طريق الكاب - القاهرة فى محاولة عظمى لربط مستعمراتها فى أقصى شمال وجنوب القارة على محور طولى هضبي فى الجنوب نيلى فى الشمال .

Fairgrieve, op. cit., p. 278-9.

(١)

G. Hamdan, "Political Map of the New Africa", Geog. Review, Oct. 1963, p. 425-6.

(٢)

وقد اصطدم هذا المشروع مع مشروع مماثل - ولكنه عرضي - لفرنسا للتوسع على طول محور السافانا عبر السودان الأوسط حتى يصل عبر السودان النيل إلى جيبها الصغير في الصومال الفرنسي على البحر الأحمر . وكان اللقاء بين الأسد والتمر في سفانا فاشودة ، فكانت « الحادثة » المشهورة التي حسمها في الحقيقة توازن الأساطيل الحربية في الأطلسي أكثر منه توازن الكتائب المتوغلة في أفريقيا^(١) . فتراجعت فرنسا وتحطم المحور العرضي الفرنسي ، ليسود المحور الطولي البريطاني ، إلا من حلقة في شرق أفريقيا لم تلبث أن استكملت في الحرب الكبرى الأولى حين آلت تنجانيقا إلى بريطانيا التي تقاسمت مع فرنسا مستعمرات ألمانيا المهزومة .

التكالب الثاني

لم يبق بعد ذلك إلا القرن الإفريقي الذي تتوسطه وتسوده الحبشة التي استطاعت بنوع من المضاربة Stalemate أن تحتفظ باستقلالها الحرج نتيجة للصراع المثلث بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا هناك . وقد حدث هنا في الواقع تكالب صغير يعرف محليا « بالتكالب الثاني Second Scramble »^(٢) تقاسمت فيه القوى الثلاث الصومالات الثلاثة وإريتريا . وحاولت إيطاليا غزو الحبشة ولكنها هزمت في معركة عدوه ، حتى عادت في ثلاثينات القرن العشرين ، فسقط آخر معقل مستقل في أفريقيا . إلا أن هزيمة إيطاليا الأولى لم تنس قط وكانت صفة لادعاءاتها الإمبراطورية وهيبتها في ميدان القوة ، إذ أنها كانت أول قوة أوربية تهزم في العصر الحديث على يد غير أوربية وتسبق في هذا هزيمة روسيا على يد اليابان .

طبقات الاستعمار

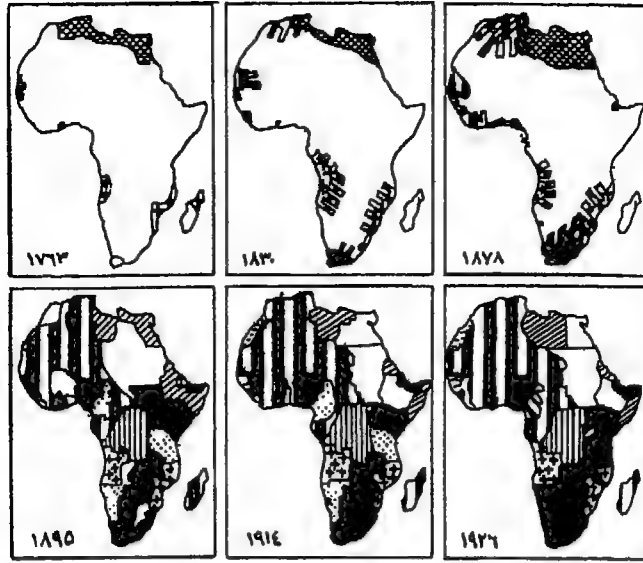
وإذا نحن الآن حللنا المحصلة النهائية للصراع كما أخذت شكلها النهائي بعد الحرب الكبرى الأولى ، فسنجد أن بريطانيا هي التي خرجت بنصيب الأسد مسيطرة على نحو ٤٥٪ من سكان القارة وموزعة في وحدات كلها من أغنى مناطق أفريقيا طبيعيا واقتصاديا . إنها « الإمبراطورية الثالثة » لبريطانيا بعد أمريكا سابقا والهند لاحقا . ثم تلي

Fairgrieve, p. 279.

J. Drysdale. The Somali Dispute, Lond., 1964, p. 25.

(١)

(٢)



شكل (١٥) زحف الاستعمار على أفريقيا : مرحلة طويلة من الاستعمار الساحلي والديموغرافي يصمها « الرق » ، ثم مرحلة خاطفة من الاستعمار الداخلي والجغرافي يلخصها « التكالب »

فرنسا بنحو ٢١٪ من السكان^(١) في مساحة مترامية ، لكن رقعة ضخمة جدا منها صحارى وأشباه صحارى . هذان إذن هما : « الاستعمار الكبير » ، يتشرف في كل أركان القارة وفي أغلب أقاليمها الطبيعية ، في النصف الشمالى والجنوبى ، شرقا وغربا على السواء .

أما « الاستعمار الصغير » - وهو على التوزيع كقاعدة - فتمثله إيطاليا التى خرجت « بصندوق من الرمال » فى الأعم الأغلب ، داخل بقدر ما هو ساحلى ، ويطل على البحرين المتوسط والأحمر ، ويتألف من أربع وحدات تلتئم فى كتلتين منفصلتين . وتأتى البرتغال بوحدتين كبيرتين وإسفينين قزميين . ولكن إذا كان الاستعمار الإيطالى هو أحدث استعمار فى القارة ، فالبرتغال أقدمه إطلاقا (خمسة قرون) . وإذا كانت مستعمرات إيطاليا لفقرها أعجز من أن تتلقى الاستعمار ، فإن البرتغال على العكس قوة أعجز من أن

United Nations, Review of Econ. Conditions in Africa. 1951.

(١)

انظر أيضا : جال حمدان ، أفريقيا الجديدة ، دراسة فى الجغرافيا السياسية ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

تتحمل أو تستثمر مستعمراتها . ومن الناحية الأخرى فإن إمبراطورية إسبانيا في أفريقيا لا تخرج عن إمبراطورية جيوب وأسافين هزيلة فقيرة مشتتة ما بين المغرب وخليج يافرا . هي إمبراطورية رمزية بجثة ، وميكروسكوبية عند ذلك .

لا يبقى إلا دول المستعمرة الواحدة . ثمة منها بلجيكا التي لا تملك في العالم إلا الكونجو . لكن الكونجو قد يكون أغنى مستعمرة في أفريقيا اقتصاديا^(١) ، كما يبلغ ٥٠ مرة مساحة بلجيكا ١ على أن هنا حالة أخرى لقوة صغرى تستعمر ولكنها وحدها أعجز عن أن تستثمر . ثم هناك الولايات المتحدة في ليبيريا ، وكالأمالوف مع الولايات ، ليس هذا استعمارا رسميا بل علاقة مثل عليا وفروسية سياسية ، ترجع إلى محاولة توطين الرقيق الأمريكي المحرر العائد ، وترجم في الواقع إلى استعمار غير رسمي كما يعترف الكتاب الأمريكيون أنفسهم^(٢) ١

الشرق الأقصى

شهد القرن التاسع عشر مسرحا جديدا للصراع الاستعماري في الشرق الأقصى في ثلاث دوائر : الهند الصينية بما فيها الملايو ، والصين لا سيما سواحلها ، وجزر الأوقيانوسية المتناثرة . فأما الهند الصينية فهي - ابتداء - لم تخضع لأي قوة خارجية من جهة القارة طوال التاريخ فيما عدا بعض فترات من السيطرة الصينية . والفضل في ذلك يرجع إلى طبيعتها الجبلية الغابية المنعزلة . إلى أن جاء الاستعمار البحري : فأخذ يحوم حول المنطقة منذ القرن السابع عشر حين بدأ يعمل في شبه القارة الهندية ، إلا أنه لم يتدعم إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر . وكانت القوى الاستعمارية هنا هي بريطانيا وفرنسا ، وقد بدأ ضراعها المتبادل في الهند حتى إذا انتهى فيها انتقل إلى الهند الصينية ليصبح هو النغمة السائدة في كيانها السياسي .

الهند الصينية

فقد انجهدت فرنسا إلى الهند الصينية نتيجة لطردها من الهند وتعويضاً عنه ، واستطاعت منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى أواخره أن تكون لنفسها مستعمرة الهند الصينية

Church, Modern Colonisation, p. 4.

(١)

G.T. Renner, Africa: A Study in Colonialism, in: World Political Geog., ed, Percy & Filfield.

(٢)

N.Y. 1951, p. 411.

الفرنسية بأقسامها المختلفة . أما بريطانيا فقد تبعتها امتدادا لوجودها في الهند ، فمن هناك انساحت تلقائيا إلى بورما حيث كانت مستعمرة ضمتها إلى الهند حتى فصلتها في أخريات أيامها بها . كذلك توسعت بريطانيا من الجنوب من سنغافورة التي اشترتها في ١٨١٩ بأجنس ثمن والتي أصبحت قاعدة ونواة لإخضاع الملايو حتى أصبحت مستعمرة بريطانية خلال القرن ، لكن دون أن تتصل أرضيا ببورما^(١) .

وهكذا بقي بين شقي الرحى نواة شبه جزيرة الهند الصينية - سيام . فأصبحت هدفا لضغوط توسعية عنيفة من الشرق والغرب ، حتى اتفقت القوتان المتنافستان على « تحييدها » في آخر القرن التاسع عشر (١٨٩٦) لتكون دولة حاجزة تحفظ التوازن بينها وتمنع الاصطدام . وبهذا أصبحت سيام - التي لم تستعمر قط من قبل في التاريخ - الوحدة الوحيدة في جنوب شرق آسيا التي نجت من الاستعمار الأوربي الحديث . ومن هنا غيرت اسمها إلى تايلاند أي أرض الأحرار . ولكن دور الدولة الحاجزة هو تقليديا دور المضاربة stalemate بين القطبين المتاحمين وذلك حتى تحفظ استقلالها^(٢) . وهكذا كان . فقد ظلت تايلاند مسرحا للمؤامرات الاستعمارية والدسائس المزمعة ، فكانت بمثابة « أفغان موسمية » .

الصين

ولا بد أن نشير هنا إلى الصين في مجال النشاط الاستعماري الأوربي في الشرق الأقصى ، فاستعمار هذا العملاق - ناعما أو غير ناعم - لم يكن قط مجال تفكير الاستعمار الأوربي ، وهو في الواقع أحد منطقتين اثنتين في العالم كله (ثانيتهما هي شرق الشرق الأوسط) أفلتتا من الاستعمار بشكله المطلق^(٣) . غير أن توغل النفوذ الأجنبي كان ممكنا على السواحل . وبالفعل أرغمت القوى الأوربية الصين على فتح أبوابها وموانئها للنفوذ والامتيازات الأجنبية ، وذلك بعد حرب الأفيون في أربعينات القرن التاسع عشر . وكنتيجة لهذا انتزعت بريطانيا هونج كونج ، وظهرت مناطق الامتيازات المعروفة Extra-territorialities . ومنذ ذلك الحين كانت سياسة القوى الأوربية هي الابقاء على الصين كمجال مفتوح لنفوذها جميعا ، وهي ما تعرف « بسياسة الباب المفتوح open-door policy »^(٤) .

Cressey, Asia's Lands & Peoples, p. 494 ff.

(١)

Ibid.. p. 509.

(٢)

Cole, p.

(٣)

Dorothy Woodman, A.B.C. of the Pacific, Penguin Books, 1943, p. 34-5.

(٤)

الأوقيانوسية

أما في الأوقيانوسية - هذا الأرخيل السديمي المترامي كنهر مجرة في غرب الهادى - فقد كان مجالا سهلا للسيطرة البحرية الأوربية في القرن التاسع عشر . فحوالى منتصف القرن كانت فرنسا قد استولت على مجموعة من الجزر أهمها نيوكاليدونيا ، بينما تأخرت نيوهمبريز إلى العقد الأول من القرن الحالى حين اقتسمتها فرنسا مع بريطانيا . وإلى الشمال كانت إسبانيا قد وضعت يدها على جزر كارولين وماريانا في العقد السابع من القرن ، بينما استولت ألمانيا على جزر مارشال في العقد التالى . ولكن بعد الحرب الإسبانية - الأمريكية في نهاية القرن باغت إسبانيا جزرها لألمانيا فيما عدا جوام التى آلت إلى الولايات المتحدة . ثم فقدت ألمانيا بدورها تلك الجزر لليابان بعد هزيمتها في الحرب الأولى ، إلى أن فقدتها اليابان بدورها للولايات المتحدة بعد هزيمتها في الحرب الأخيرة^(١) .

العالم العربى^(٢)

وضع خاص

عود على بدء

للاستعمار الحديث في العالم العربى ، كما للعالم العربى بدوره في الاستعمار الحديث ، وضع خاص شبه متفرد . فهو ، أولا ، عودة أكثر مما هو بدء ، عود على بدء يعنى . ذلك أن للاستعمار الأوربى مع العالم العربى جولة وربما جولات دامية ودرامية سابقة ولقاءات عاصفة هوجاء ومريرة ليس فقط في العصور الوسطى والحروب الصليبية ولكن أيضا قبلها في العصور القديمة ذاتها أيام الكلاسيكية والاستعمار اليونانى والرومانى . وبالتالي فإن الاستعمار الأوربى الحديث هنا في القرن ١٩ إنما يلتقط طرف الخيط الذى ألقى به لآخر مرة مع نهاية وانحسار الصليبيات .

وهذا الوضع كله يختلف بالطبع جذريا عن سائر مناطق المداريات أو أكثرها حيث كان الاستعمار الأوربى طارئا وافدا لأول مرة في القرن ١٩ أو على الأكثر في العصور

(١) الجيوبوتيك ، ج ٢ ، ص ٢٠ ، ١٧٦ .

(٢) جاز حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربى ، ص ٢٦ - ٣١ .

الحديثة . فالاستعمار الأوربي في العالم العربي « وباء راجع » ، فيما هو في المداريات « وباء واعد » كما يمكن أن نشبه أو نستعير . أما لماذا - فلا لشيء بالطبع سوى أن هذه المناطق الأخيرة كانت من الجاهل ولم تعرف إلا بعد الكشف الجغرافية .

الند الوحيد

ثانيا ، العالم العربي ، ربما بمعناه الموسع الذي يضم قطاعا من العالم الإسلامي كتركيا ... الخ ، هو المنطقة الوحيدة في العالم خارج أوروبا التي تعد ندا كفتا لها ومنافسا خطيرا ليس فقط تاريخيا وحضاريا ولكن أيضا سياسيا وحربيا ومن حيث القوة . ولقد كانت الصليبيات بالتحديد هي آخر مظاهر ومراحل هذه الندية والتكافؤ ، حيث ردت المنطقة الغزوة الأوربية الكاسحة على أعقابها مدحورة مكسورة . بل إن العالم العربي هو المنطقة الوحيدة قبل وخارج أوروبا التي كانت في وقت ما القوة العظمى الأولى في العالم . وأحرزت لنفسها السيادة العالمية قرونا وأجيالا ، وأخضعت مناطق شاسعة خارجها بما في ذلك أجزاء من أوروبا نفسها . وفي كل الأحوال ، فإن العالم العربي وحده ، جنبا إلى جنب ، مع أوروبا هما فقط المنطقتان الوحيدتان في العالم اللتان تنازعتا أو تناوبتا أو شاركتا في السيادة العالمية عبر التاريخ وفي تأسيس الإمبراطوريات والفتح والتوسع السياسي ، فضلا عن خلق الحضارة الراقية بالمعنى المفهوم .

لهذا فقد كان حتما أن يكون للقاء الجديد أو المجدد في العصر الحديث حسابا خاصا جدا فائق الخطر لأنه كان جزئيا تصفية حسابات قديمة مؤجلة ومتراكمة ومعقدة . ولهذا كان اختراق العالم العربي بالذات هو التحدي الأكبر للاستعمار ، بدونه لا تكتمل له السيادة العالمية حقا ، وبه وحده يتحقق التتويج القمّي لرحفه . وبالمقابل ، فلم يكن صدفة أن تبدأ نهايته في المنطقة وأن يكون مقتله على يدها .

المسحة الصليبية

ثالثا ، وأخيرا ، فليس من سبيل إلى الشك في ، أو التهرب من ، أن جزءا من هذه التصفية وهذه المجاهدة اتخذ بالضرورة مسحة دينية معينة بقدر أو بآخر . فكقلب العالم الإسلامي ورأسه وطليعته . وكما حدث في العالم الإسلامي ككل ولكن من باب أولى

بالطبع ، أخذت موجة الاستعمار الأوربي الحديث في المنطقة من جديد شكل مواجهة بين الإسلام والمسيحية . كانت ، يعني ، ذات ظلال وإشاعات صليبية بالضرورة . وفي هذا المعنى فلعل قولة الجنرال الفرنسي جورو في دمشق « ها قد عدنا بإصلاح الدين » ، والجنرال اللبني البريطاني في القدس « الآن انتهت الحروب الصليبية » ، أن تكون رامية ومؤشرة بما فيه الكفاية . ومن الغريب المثير - المثير للملاحظة كما للأسف ، أن هذه المسحة الدينية عادت مرة أخرى وأخيرة لتكرر وتؤكد نفسها مع آخر وأدنى موجة من موجات الاستعمار الأوربي الحديث في المنطقة وهي الاستعمار الصهيوني القمىء .

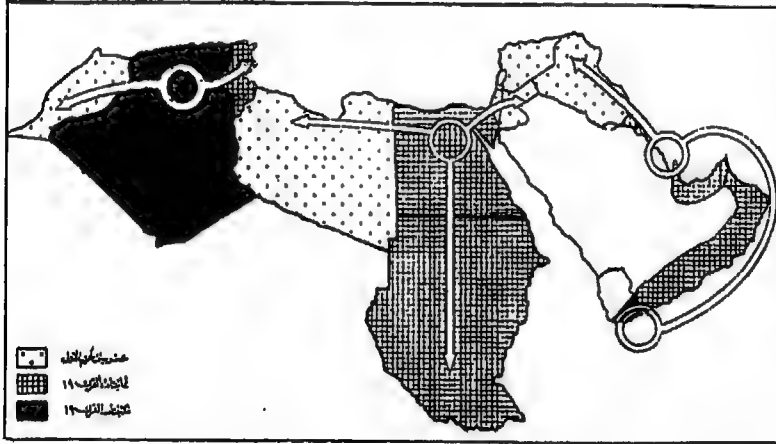
ولعل هذا أيضا أن يفسر فارقا آخر بقدر أو بآخر بين لون ونظرة ونوعية الاستعمار الأوربي الحديث في المداريات من جهة والعالم العربي أو العربي - الإسلامى من الجهة الأخرى . فلأن الجانبيين أساسا من الجنس القوقازى الأبيض بدرجة أو بأخرى ، كان الفارق الأبرز والألحظ بين الغرب الاستعماري والعالم العربي هو الدين لا اللون . أما في العالم المدارى فلم يكن الفارق الدين - لم يكن ثمة دين أصلا في أغلب الحالات - وإنما الفارق كل الفارق وإلى الحد الصارم أحيانا هو اللون أساسا .

من هنا كان عداء أوربا الاستعماري مختلف التوجيه والتوكيد والتعبير . فهو مع العالم العربي والإسلامى يحمل روح الصليبية أو الطائفية في الدرجة الأولى ، بينما يحمل مع سائر أفريقيا وآسيا طابع العنصرية والعرقية وضد الملونين في الحل الأول . ومن المؤشرات الدالة في هذا الصدد أن الاستعمار الأوربي في العالم العربي لم يجرؤ حتى في عز سطوته أن يقيم « الحاجز اللوني » ولا أن يمارس التفرقة العنصرية أو العزل العرقى ، في حين كان هذا هو الأمر اليومي والنظام المقرر السائد في سائر المداريات حيث اتخذ الوضع أحيانا شكل صراع الأجناس بالمعنى الغاشم والاستفزاز الفظ الفج .

الزحف الاستعماري

قبل الاستعمار الحديث ، وكحلقة وصل وإن كانت واهية للغاية بينه وبين الاستعمار الصليبي الوسيط ، دعنا أولا نذكر حالة خاصة وشاذة مثلما هي مجهرية لم تزل تعشش في النسيج السياسى للعالم العربي حتى اليوم . تلك أعنى جيوب الاستعمار الإسباني في سبتة

ومليلة التي اقتطعها في أخريات القرن الخامس عشر ، بل وبالتحديد قبيل خروج العرب من الأندلس ذاتها ! فهذا على شدة ضآلته أقدم استعمار أوروبي في العالم العربي إطلاقاً حيث يبلغ الآن خمسة قرون ويعاصر بذلك أقدم استعمار برتغالي في أفريقيا المدارية . وهنا وجه الخطورة ، فقد تحولت أغلبية السكان في هذين الإسفينين القزميين إلى إسبان مسيحيين ، تدعى إسبانيا لذلك أنها جزء لا يتجزأ من التراب والتراث الإسباني ! أما عن الاستعمار الحديث ، فإن الزحف الاستعماري في العالم العربي لم يأت دفعة واحدة . بل يمكننا بالقياس إلى منطقة شاسعة مثل أفريقيا المدارية ، أن نقول إن زحف الاستعمار في العالم العربي كان بطيئاً متسكماً . فلم تتحقق له السيطرة على المنطقة إلا في مدى ٩٠ عاماً من ١٨٣٠ إلى ١٩٢٠ . وقد تم هذا الزحف في ثلاث موجات رئيسية واضحة التحديد . أيضاً لم تنته كل موجة في تاريخها تماماً بل لها ما بعدها من توسيع وتعميق ، بحيث تؤدي نهايات كل موجة إلى طلائع التالية . وبوجه عام كانت كل موجة لاحقة أوسع انتشاراً ونطاقاً من سابقتها .



شكل (١٦) موجات الاستعمار في الوطن العربي. لاحظ نقط الارتكاز كبؤرات للتوسع والتشعب

موجات الزحف

فاما الموجة الأولى ففي ثلاثينات القرن التاسع عشر ، وفيها وقعت الجزائر في يد الاستعمار الفرنسي في ١٨٣٠ ، وعدن في يد الاستعمار البريطاني في ١٨٣٩ . ومنذ ذلك

الوقت أخذ الاستعمار البريطاني يزحف بانتظام واطراد من عدن على طول الساحل الجنوبي والشرقي للجزيرة العربية حتى سيطر عليها جميعا حتى الكويت شمالا قبل نهاية القرن .

وجاءت الموجة الثانية في الثمانينات حين مدت فرنسا نفوذها من الجزائر إلى تونس في ١٨٨١ ، واحتلت بريطانيا مصر في ١٨٨٢ . وفي العقدین التاليين استطاعت بريطانيا أن تتخذ من مصر قاعدة للتوسع في السودان تحت ستار التبعية التركية ، وعند دورة القرن كان قد استقر به تماما .

الموجة الثالثة والأخيرة في العقد الثاني من القرن الحالى قبل وفي أثناء الحرب الكبرى الأولى . وقد بدأت بانقضاض إيطاليا على ليبيا واقتطاعها من « الدولة العلية » العاجزة في ١٩١١ - ١٩١٢ . وفي نفس الوقت بدأت فرنسا تتوسع من الجزائر غربا في مراكش لتفرد بها من بين مناورات القوى المختلفة ، وتم لها هذا خلال الحرب حتى ١٩١٤ . أما في المشرق العربي فقد كانت هذه الموجة أخطر فترة في تاريخه ، فقد سقط أغلبه - الهلال الخصيب - للاستعمار دفعة واحدة وذلك كجزء من مساومات الصلح . فاستولت فرنسا على سوريا ولبنان ، وبريطانيا على فلسطين والأردن والعراق .

خريطة الاستعمار

من هذه الصورة نرى أن الاستعمار بدأ في كل موجة ساحليا ثم توسع تدريجيا نحو الداخل . فتلک طبيعة الاستعمار البحري والضبط الساحلى . ثم في كل موجة اتخذ الاستعمار من أول مستعمرة نقطة ارتكاز يتوسع منها دائريا أو خطيا : دائريا كما حدث من مصر إلى السودان وفلسطين والأردن ثم فيما بعد إلى ليبيا ، وخطيا كما حدث من الجزائر إلى تونس فمراكش حيث - كما قيل - أفطرت فرنسا بالجزائر وتغدت بتونس وتعتشت بمراكش !

كذلك نرى تناظرا وسمتية نادرة بين الزحف في المشرق العربي والمغرب . ففي كل موجة يسقط عضو أو أكثر في كل من القطاعين معا بحيث يصبح لدينا هذه الثنائيات أو

الأزواج المتناظرة على الترتيب الزمني : الجزائر- عدن والجنوب العربى ، تونس - مصر والسودان ، مراکش وليبيا - الهلال الخصيب .

وعدا هذا فسرى أن العالم العربى الأفريقى كان أسبق وقوعا فى مجموعه فى يد الاستعمار من العالم العربى الأسيوى . والجزء الأكبر منه وقع بالفعل فى القرن الماضى ، بينما لم يسقط نظيره الأسيوى إلا فى القرن الحالى . هذا ولم يفلت من الاستعمار فى العالم العربى كله إلا قطاع ضئيل فى الجانب الأسيوى هو قلب الجزيرة العربية وقلعة اليمن ، وكل منطقة فقيرة فى ذاتها صحراوية أو جبلية ، وداخلية بعيدة عن مجال واهتمامات الاستعمار البحرى .

وأخيرا نرى أن الاستعمار اللاتينى فى المغرب أخذ ترتيبا منازرا ومقابلا للأوطان « الأم » على الساحل الشمالى للبحر . فالاستعمار الإسبانى فى مراکش الخليفية أو الريف يواجه إسبانيا ، والإيطالى فى ليبيا يواجه شبه الجزيرة ، بينما فى الوسط يقابل النطاق الفرنسى فرنسا فى القارة .

أما إذا وضعنا قوى الاستعمار فى العالم العربى فى الميزان ، فإن الجدول الآتى يعطى النسب التى اقتسم بها المنطقة كما كانت حوالى منتصف القرن الحالى قبيل التحرير .

الاستعمار	المساحة بالكم ٢	%	السكان بالمليون	%
البريطانى	٤,٦٥٤,٧٠٠	٤١,٦	٣٨	٤٨
الفرنسى	٢,٩٣٣,٠٠٠	٢٦,٢	٢٧	٣٤
الإيطالى	١,٧٥٩,٥٠٠	١٥,٧	١	١,٢
الإسبانى	٥٠,٠٠٠	٠,٤	١,٧	١,٤
الوحدات المستقلة	١,٧٩٥,٠٠٠	١٥,٥	١١,٥	١٥,٤

وسيميدو أن نحو سبعة أثمان الوطن والشعب العربى (٨٥٪) قد سقطت ضحية للاستعمار ، وبالأخص للاستعمار البريطانى والفرنسى - الاستعمار الكبير - فكانا معا

يسيطران على ثلثي مساحة العالم العربي (٦٧,٨٪) وأكثر من ثلاثة أرباع الأمة العربية (٨٢٪). وكانت بريطانيا بالذات هي القوة الاستعمارية السائدة : نصف السكان وخمسا المساحة . وبذلك تعادل الاستعمار اللاتيني جميعا من حيث المساحة تقريبا ولكن تفوقه بكثير من حيث السكان .

أما الاستعمار الصغير ففيه يتقارب الإسباني والإيطالي سكانا ، ولكن يختلفان جدا في المساحة . فالأول شريط كثيف نسبيا . أما الثاني فبه أعلى نسبة من المساحة إلى السكان . وفيما عدا هذا فيلاحظ أن الاستعمار كان يملك في العالم العربي مساحة تزيد على مساحة أوروبا بأسرها ، وفيما عدا إسبانيا فقد كانت كل قوة استعمارية تملك مساحة تبلغ أضعاف مساحتها هي نفسها عدة مرات !

الاستعمار الصهيوني

هذه صورة عامة للاستعمار الغربي في الوطن العربي كما مارسته القوى الأوروبية . ولكنها بطبيعة الحال لا تكتمل إلا بالحديث عن حالة خاصة وأخيرة من الاستعمار مكنت له وخلقته فقط تلك القوى ، أما الذي مارسته فطائفة عالمية معينة ، ونعني بذلك الاستعمار الصهيوني في فلسطين المحتلة باسم إسرائيل . وليس ها هنا من مجال إلا لتحديد الهيكل الأساسي لطبيعة إسرائيل وموقعها بين أنماط الاستعمار . ففي إيجاز شديد ، ماذا نعني إسرائيل - علميا وموضوعيا - بالنسبة إلى طالب الجغرافيا السياسية ؟

المراحل الاستعمارية

تتعاصر بدايات الحركة الصهيونية مع آخر موجة كبرى من موجات الاستعمار الأوربي الحديث وهي الموجة المدارية وخاصة منها التكالب على أفريقيا ، ولكن تحققها يتعاصر مع نهايات عصر الاستعمار بوجه عام . فلقد تعلقّت الصهيونية بأذيال الموجة المدارية لتركبها ولتستثمر المناخ السياسي الاستعماري العام وصولا إلى تحقيق أهدافها الخاصة في إنشاء « الدولة اليهودية » . والصهيونية من بدايتها حركة سياسية في الحقيقة (الصهيونية السياسية) ، ولكنها تقنعت منذ اللحظة الأولى بالدين (الصهيونية العاطفية) ، لتخلق من « رؤيا العودة إلى أرض الميعاد » إيديولوجية تاريخية ودينية تجمع يهود الشتات حولها ، وكذلك قناعا وشعارا تخفي به حقيقة أهدافها عن العالم الخارجي . ولهذا رفضت عدة اقتراحات لوطن قومي في غير فلسطين .

ولقد كان من المستحيل منذ البداية أن يتحقق الحلم إلا بالمساعدة الكاملة من قوى السيادة العالمية ، ومن هنا التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخيا على طريق واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة : فيكون الوطن اليهودى قاعدة تابعة وحليفا مضمونا أبدا يخدم مصالح الاستعمار ، وذلك ثمنا لخلقه إياه وضمانه لبقائه . وعلى طريق هذه المصلحة الاستعمارية المشتركة تحرك ارتباط الصهيونية بالإمبريالية بحسب تحرك مركز الثقل فى زعامة الإمبريالية ، فكانت بريطانيا هى التى خلقت الوطن القومى منذ الحرب العالمية الأولى ، بينما خلقت الولايات المتحدة الدولة اليهودية منذ الحرب الثانية .

وقد مرتكوين إسرائيل بمرحلتين : التغلغل ثم الغزو . فبعد عدة موجات من التسلل والتسرب المبعثر حتى ما قبل الحرب الأولى ، فتح الانتداب الباب للهجرة إلى الوطن القومى ليبدأ تغلغل حقيقى خلق جسما خطيرا من أقلية يهودية كبيرة وانتزع موطن قدم بسياسة شراء الأراضي المخططة من قبل . وبهذا وذاك تكونت نواة « اليشوف » أى المجتمع اليهودى فى فلسطين ، ونجح فى خلق دولة داخل الدولة . وقد اتسمت هذه المرحلة بالدموية فى شكل حرب عصابات يهودية شجعها الانتداب بالسلاح ، فى وجه مقاومة عربية ثورية قاومها الانتداب بالقوة .

أما مرحلة الغزو فتم فيها الاغتصاب الشامل بعد انسحاب الانتداب - متواطئا - فى ١٩٤٨ ، وعن طريق حرب ضد العرب يسميها اليهود بحرب الاستقلال (عن الاستعمار البريطانى) أو حرب التحرير (من « الاستعمار العربى » ، كذا) . وفى هذه الحرب ، التى حدد مصيرها سياسة التسليح ومناورات السياسة من جانب الدول الاستعمارية ، طرد نحو مليون من العرب الأصليين خارج الأرض المحتلة ، بينما تدفقت الهجرة الكبرى لتجمع فى النهاية نحو المليونين أو الثلاثة من الصهيونيين يمثلون حوالى ١٣٪ من اليهودية العالمية .

وقد اعتبرت إسرائيل نفسها منذ ذلك الوقت « إسرائيل الصغرى » فقط ، على أساس أن هدفها المعلن هو « إسرائيل الكبرى » من النيل إلى الفرات . وفى سبيل تحقيق هذه الخطة ، قامت بحربين عدوانيتين أخريين أو ثلاث ضد الدول العربية فى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، عملت فيها جميعا بالتواطؤ مع دول الاستعمار الغربى ، ولكنها فشلت فى التوسع فى الأولى ، ونجحت فى الثانية غير أنها رغم الثالثة تجد المواجهة قائمة ما تزال ، ذلك دون أن نضيف آخر جرائمها سنة ١٩٨٢ فى لبنان .

الخصائص الاستعمارية

تلك هي الحقائق الأولية البحتة في قيام ووجود إسرائيل ، منها يمكن للجغرافى السياسى أن يحدد في إطار موضوعية العلم المطلقة التشخيصات والنتائج الآتية :

فأولا ، إسرائيل - كدولة - ظاهرة استعمارية صرف . فهي قد قامت على اغتصاب غزاة أجناب لأرض لا علاقة لهم بها دينيا أو تاريخيا أو جنسيا ، وإن زعموا عكس ذلك تماما ودواما . دينيا ، لأن رؤيا العودة الخرافية والوعد الأسطورى المزعوم لا أساس لها أو سند من الدين وإلا لجازت نفس العودة لبقية الأديان ، فضلا عن أنه ليس على أصحاب دين أى التزام بدعاوى أصحاب دين آخر . وتاريخيا ، لأن علاقة اليهود بفلسطين انقطعت تماما منذ نحو ٢٠ قرنا . وجنسيا ، لأن هناك « يهودين » في التاريخ ، قدامى ومحدثين ، ليس بينهما أى صلة أنثروبولوجية مذكورة . ذلك أن يهود فلسطين التوراة بعد الخروج تعرضوا لظاهرتين أساسيتين طوال ٢٠ قرنا من الشتات في المهجر : خروج أعداد ضخمة منهم بالتحول إلى غير اليهودية ، ودخول أفواج لا تقل ضخامة في اليهودية من كل أجناس المهجر . واقترن هذا بتزاوج واختلاط دموى بعيد المدى ، انتهى بالجسم الأساسى من اليهود المحدثين إلى أن يكونوا شيئا مختلفا كلية عن اليهود القدامى ، ولم يعد اليهود اليوم من نسل بنى إسرائيل التوراة بأى نسبة ذات بال^(١) .

وهذا فإن عودة اليهود إلى فلسطين بالاغتصاب هو غزو وعدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى ، أى استعمار لا شبهة فيه بالمعنى العلمى الصارم . وإسرائيل بالتالى تمثل جسما غربيا ودخिला مفروضا على الوجود العربى ، أبدا غير قابل للامتصاص ، ولكنه حتى الآن غير ممكن اللفظ ، وبين هذا وذاك يبقى عنصر اضطراب وتهيج ومضاعفات سياسية . وبتعبير آخر يبقى بثرة حرب كامنة ومفجر صدام استعمارى - تحريرى مسلح .

ثانيا ، إسرائيل استعمار طائفى بحت ، والدولة دولة دينية صرفة . فهي تقوم على تجميع اليهود ، واليهود فقط ، في جيتو سياسى واحد ، ومن ثم فأساسها التعصب الدينى ابتداء . وإذا كان من الواضح أنها بذلك تمثل شذوذا رجعيا في الفلسفة السياسية للقرن العشرين الذى لا يعرف أو يعترف بالدول الدينية ، فإنها في الواقع تعيد إلى الحياة حفريات العصور الوسطى بل القديمة ، ومنطق العصور القبلية المتحجرة . وهى كذلك

(١) جمال حمدان ، اليهود أنثروبولوجيا ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١١٥ وما بعدها .

تفرض من طرف واحد حربا دينية ليس الطرف الآخر مسئولاً عنها بل هو يرفضها ، وإسرائيل تبعث بذلك شبهة صليبيات جديدة في منطقة لا تعرف إلا التسامح الديني تقليديا . إن الحروب الصهيونية Zianades هي الحروب الصليبية الجديدة Neo-Crusades.

ثالثا ، إسرائيل استعمار عنصري مطلق . فرغم أن اليهودية ليست ولا يمكن أن تكون قومية بأى مفهوم سياسى سليم كما يعرف كل عالم سياسى ، ورغم أن اليهود ليسوا عنصرا جنسيا فى أى معنى بل جماع ومتحف حتى لكل أخلاط الأجناس فى العالم كما يدرك أى أنثروبولوجى ، فإن فرضهم لأنفسهم كأمة مزعومة مدعية فى دولة مصطنعة مقطعة يجعل منهم ومن الصهيونية حركة عنصرية أساسا ، وذلك بكل معنى العنصرية من استعلاء وتعصب واضطهاد ودموية .

وتأخذ هذه العنصرية - كما تحب إسرائيل أن تراها ، سواء صبح ذلك أم لم يصح - صورة مليونين أو ثلاثة من « البيض » وسط بحر من « الملونين » العرب . فهذه - مباشرة - عنصرية بيضاء . ولكنها أيضا عنصرية بيضاء نازية بالدقة ، فهى تعد نفسها « الشعب المختار » على غرار « ألمانيا فوق الجميع » أيام الهتلرية . وباعتراف الكثير من المحايدين ، يبدى وجود إسرائيل منذ نشأتها كل ملامح العنصرية النازية Zionazism . وهنا تتجسد سخرية المفارقات الاستعمارية : فقد تلقت إسرائيل اضطهاد العنصرية النازية فى أوروبا بكل مرارة التجربة ، ولكنها إنما تعلمت الدرس لتقله وتعكسه مضاعفا على العرب فى فلسطين ، وهنا تتضاعف المفارقة سخرية ، لأن العرب - وحدهم من بين كل المجتمعات - هم الذين لم يضطهدوا اليهود عبر التاريخ .

رابعا ، إسرائيل قطعة من الاستعمار الأوربي عبر البحار . فمع أن إسرائيل منصفة عدديا بين اليهود الغربيين الأشكناز واليهود الشرقيين السفارديم ، فإن القيادة والسيطرة المطلقة للنصف الأول ، وهى تعتبر نفسها دولة غربية لا شرقية . ولو حققت إسرائيل أهدافها فى تهجير يهود الشتات جميعا ، لأصبحت وجودا غربيا أساسا بحسب الجنس والحضارة وبحسب التطلعات والعلاقات . إنها جزيرة أوربية على ضلوع آسيا ، ومستعمرة غربية فى قلب الوطن العربى ، وذلك جنسيا وحضاريا على السواء . وككل دعاوى الاستعمار الأوربي عبر البحار ، وتبريرا لاغتصابها ، لم تتورع إسرائيل عن أن تدعى رسالة الحضارة والتطور ، فزعمت نفسها واحة التقدم فى صحراء الرجعية العربية وجزيرة الصناعة فى بحر التخلف الشرقى .. الخ .

حيث إنها طردت كل السكان الأصليين خارجها تماما ليتحولوا إلى لاجئين مقتلعين معلقين على حدودها . وإسرائيل بهذا كله أعلى - أم نقول أدنى ؟ - مراحل الاستعمار الاستيطاني .

سادسا ، إسرائيل رغم ذلك تجسم للاستعمار المتعدد الأغراض : فهي تمثل استعماراً مثلث الأبعاد . فعدا الجانب الاستيطاني ، فإنها تمثل أيضاً استعماراً استراتيجياً واستعماراً اقتصادياً . فوجودها غير الشرعي رهن من البداية إلى النهاية بالقوة العسكرية وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة ، فما قامت ولن تبقى - وهذا تدركه جيداً - إلا بالدم والحديد والنار . ولهذا فهي دولة عسكرية في صميم تنظيمها وحياتها ، و « أمن إسرائيل » هو مشكلتها المحورية ، أما حلها فقد تحدد في أن أصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها ، وهو ما يعبر عنه « بعسكرة » إسرائيل .

أما أنها استعمار اقتصادي ، فهذا أساسي في كيانها منذ أن اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات ، فالاستعمار الإسرائيلي عملية رهيبة من نزع الملكية على مقياس شعب ووطن بأسره . وهي من هذه الزاوية استعمار طفيلي ابتزازي ابتلاعى بحت بطبيعة الحال . ومن بين تلك الصفة العسكرية وهذه الجذور الطفيلية ، تخرج الصفة الفاشية الواضحة في كيان إسرائيل كنتيجة منطقية للغاية .

سابعاً ، إسرائيل استعمار توسعي أساساً . وأطاعها الاقليمية معلنة بلا مواربة ، وخريطة إسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة ، ومن « النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل Erets Israel » هو شعار الإمبراطورية الصهيونية الموعودة . وهدف إسرائيل الكبرى أن تستوعب كل يهود العالم في نهاية المطاف ، ومثله لا يمكن أن يتم إلا بتفريغ المنطقة من أصحابها ، إما بالطرده وإما بالابادة . وبطبيعة الحال ، فلا سبيل إلى هذا إلا بالحروب العدوانية الشاملة . ونحن بهذا إزاء أخطبوط سرطاني في آن واحد ، إزاء عدوان آتى واقع وعدوان سيقع في أي آن .

وهنا نجد أن الصهيونية تكرر في الواقع قصة النازية بجذافيها . فكما كانت ألمانيا تطالب « بمجال حيوي » ، تتكلم إسرائيل عن إسرائيل الكبرى . وكما كانت ألمانيا تدعى أنها « شعب بلا مجال » ، لا تخفى إسرائيل منذ وحسب هرتزل أنها ترى في المنطقة العربية « مجالاً بلا شعب » . وكما كانت ألمانيا تحث على زيادة النسل كمبرر لادعاءاتها الإقليمية ، تحث إسرائيل يهود العالم على الهجرة إليها . وتكتيك افتعال ضغط سكاني

متورمه متفجر تبريرا للتوسع الاقليمي ، هو تكتيك الأمر الواقع Realpolitik كما سمي في ألمانيا . fait accompli كما عرف عن إسرائيل . وفي النهاية وفي النتيجة ، فقد تعين في حالة إسرائيل كما كانت حالة ألمانيا ، أن تصبح حدودها هي جيوشها ، وجيوشها هي حدودها . وإذا كان لهذا من معنى - أى معنى - فهو على الفور أن الشرق العربى لا يمكن أن يتسع للعرب ولإسرائيل معا ، فوجود أحدهما نفي لوجود الآخر ، ولكى يبقى أحدهما لابد أن يذهب الآخر . أما من يبقى ومن يذهب فأوضح - علميا - من أن يذكر .

ثامنا . وأخيرا . فإن إسرائيل من البداية إلى النهاية استعمار من الدرجة الأولى والثانية معا . استعمار بالأصالة والوكالة في نفس الوقت . ونقصد بذلك أن إسرائيل قامت وأقيمت بفعل ولحساب نفسها والصهيونية العالمية ، وكذلك قامت وأقيمت بفعل ولحساب الاستعمار العالمى . فبالنسبة إلى الصهيونية العالمية ، فإن الدولة اليهودية ملجأ من الشنات وأخطاره المحتملة أو الموهومة - بوليصة تأمين كما وصفت - ووثيقة لاستثنائها المالية الاحتكارية . ولكن تحقيقها في البداية وبقائها بعد ذلك لم يكن ممكنا بغير المشاركة الكاملة للاستعمار العالمى الذى تطابقت إلى حد التماثل خططه ومصالحه .

فهى بالنسبة إليه قاعدة متكاملة آمنة عسكريا ، ورأس جسر ثابت استراتيجيا ، ووكيل عام اقتصاديا . أو عميل خاص احتكاري . وهى في كل أولئك تمثل فاصلا أرضيا يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها ، واسفنجة غير قابلة للتشيع تمتص كل طاقاتها ، وتزيف مزمنًا في مواردها ، وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير . وإسرائيل بهذا المعنى دولة مرتزقة لاشك ، تعمل مأجورة في خدمة الاستعمار العالمى ، بمثل ما هى صنعه وصنيعته وريبته .

هذا الالتقاء والتداخل العميق بين مصالح الصهيونية والإمبريالية العالميتين هو مفتاح الوجود - والمصير - الإسرائيلي برمته . وهو الذى يفسر كثيرا من مظاهر الغرابة والتفرد فيه . فالاستعمار العالمى هو الذى خلق إسرائيل بالسياسة والحرب ، وهو الذى يمدّها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال ، ثم هو الذى يضمن بقاءها ويحميها علنا . ولذلك فإنها تكاد تكون الحالة الوحيدة في العالم تقريبا التى تجسدت فيها آخر مراحل الاستعمار القديم وأولى طلائع الاستعمار الجديد . فهى كجسم استعماري واقع تمثل استعمارا قديما ، ولكنها بدور الاستعمار العالمى في كيانها وأمنها تمثل أداة وقاعدة للاستعمار الجديد . كذلك فإنها - إسرائيل - تكاد تكون الأرض المشتركة الوحيدة تاريخيا ولقاء ،

مصالح ومصاير ، التي التقى عليها الاستعمار القديم والجديد بغير صراع أو تنافر . فقد كانت بريطانيا (الاستعمار القديم) هي التي خلقتها ، ولكنها سلمتها بعد ذلك طواعية لوصاية أمريكا (الاستعمار الجديد) . فكانت الأولى بمثابة الأب البيولوجي . والثانية بمثابة الأب الاجتماعي .

وإذا كانت إسرائيل ملتزمة كلية في الوقت الحالى بالولايات المتحدة . فإنه ليس من الواضح تماما من الذى يستعمر من : فإسرائيل تكاد تبدو اليوم وكأنها أمريكا فى الشرق الأوسط . أو الولاية الحادية والخمسون من الولايات المتحدة كما قيل . أو على الأقل قاعدة أمريكية - أكبر قاعدة أمريكية - عبر البحار ؛ إلا أنها قاعدة بدرجة دولة وإلا أن كل طاقتها من اليهود . وفى نفس الوقت تمارس الصهيونية العالمية لحساب إسرائيل نفوذا وضغطا غير متناسب على الولايات المتحدة . وأيا ما كان ، فلا شك أن إسرائيل هي أخطر تحديات الاستعمار فى التاريخ العربى . ولعلها أعلى مراحل فى الوطن العربى ؛ بمثل ما أن الصهيونية العالمية هي أعلى مراحل الإمبريالية العالمية .

الفصل الثامن

صراع القوى في العصر الصناعي بريطانيا

ودع القرن التاسع عشر فترة مراهقته ، وقد اجتمع انقلابان خطيران : أولهما انتقال السيادة العالمية نهائيا إلى بريطانيا بعد أن أزاحت فرنسا إلى الابد عن الصدارة ، وثانيهما بدء الانقلاب الصناعي في بريطانيا الأمر الذي أكد زعامتها في العالم بلا منازع حقيقي . ومنذ ذلك ولدة قرن تقريبا ظلت القوة السياسية والمادية في العالم احتكارا لبريطانيا . وكان القرن التاسع عشر بحق قرن السيادة البريطانية - قرن بريطانيا .

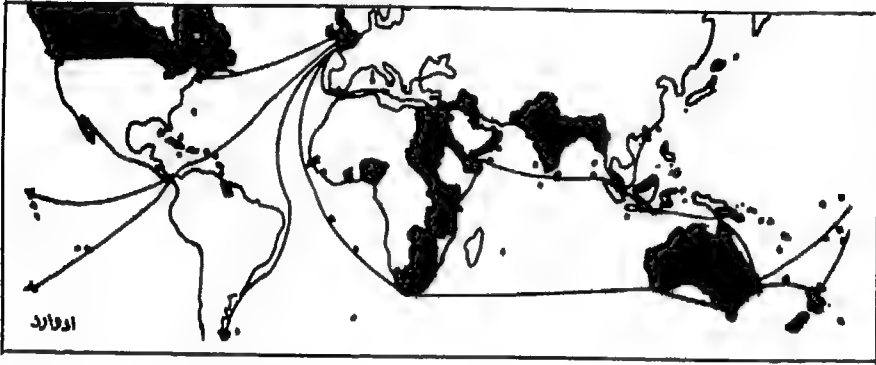
ورغم أن فرنسا ظلت تناوئها وتتصدى لها ، فلم يكن هذا إلا من موضع اليد السفلى ، إلى أن اضطرت بعد قرن كامل أن تعترف بالأمر الواقع لتسوى خلافاتها معها في الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤ ، ولتتحول في النهاية إلى شريك ثان لها وحليف ، أو بالأحرى إلى صديق لدود ، لا سيما منذ بدأ منافس خطير يهدد الاثنين ، ولكن فرنسا بصفة مباشرة ، ونعني به ألمانيا .

أعظم الإمبراطوريات

هنالك انطلقت بريطانيا تتفجر وتتواهب ، بل وتعربد ، حول العالم لتستكمل أضخم وأوسع إمبراطورية بحرية عرفها التاريخ . ففي قمة توسعها وصلت الإمبراطورية إلى أن تغطي ربع مساحة اليابس ، وأن تحكم ثلث سكانه ، أو نحو أكثر من ١٤ مليون ميل مربع ، ١٠٠٠ مليون نسمة على الترتيب . وأبرز حقيقة في هذه الإمبراطورية الماموث ، هي بلا شك تبعثرها في كل أركان العالم في « جزر » سياسية منفصلة متقطعة تفصلها

آلاف الأميال من البحار والمحيطات ، ولا يكاد يحيطها يقل - عمليا - عن محيط الكرة الأرضية .

ومن هنا فقد كانت إمبراطورية عالمية بكل معنى الكلمة : لها أعضاء تمثلها في كل قارة بما في ذلك أوروبا نفسها ، وتكاد تتراعى عبر كل خطوط الطول والعرض في العالم (٣٢٠ درجة طولية × ١٣٠ درجة عرضية !)^(١) ، وتمتد بلا استثناء في كل المناطق المناخية والأنواع النباتية والبيئات الطبيعية والأقاليم والأنماط الجغرافية ، كما انتظمت تقريبا كل الأجناس الرئيسية والديانات وإلى حد ما اللغات^(٢) . باختصار كانت متحفا منثورا لعينات من الكرة الأرضية والعائلة البشرية « لا تغيب عنه الشمس » .



شكل (١٨) الإمبراطورية البريطانية في أوجها . النموذج المثالي للاستعمار البحري : ربع مساحة العالم : ألف مليون نسمة : انتشار مطلق حول الكرة الأرضية : خمسة أحزمة بحرية تربط شتاته .

ومثل هذه الإمبراطورية الدائرية المترامية كانت بطبيعة الحال - ولم يكن لها بد من أن تكون - إمبراطورية قوة بحر في الدرجة الأولى . بل الحقيقة أنها كانت بالضرورة نتج السفينة البخارية وإمبراطورية عصر البخار ، بغيرها ما كان يمكن أن تقوم ، وإذا قامت بغيرها ما كان يمكن أن تستمر . ولهذا كانت خطوط الملاحة هي شرايين الإمبراطورية وخطوط الحياة بالنسبة لها . وكان الهيكل الذي يمسك بهذه المستعمرات المبعثرة يتألف من خمسة خطوط تسمى أحزمة الإمبراطورية Girders of Empire . أهمها بلا شك طريق

Whittlesey, p. 111.

(١)

(٢) الجيوبوليتيكا ، ج ٢ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

انسويس انبحرى الداخلى الذى يشق قلب الإمبراطورية الفعال ، ثم طريق الرأس اندائرى البديل . وإلى الغرب تنبعث الخطوط الثلاثة الأخرى . وأولها خط كندا والولايات المتحدة ولم يكن يقل أهمية عن طريق السويس . وهو اليوم أهم ما تبقى لبريطانيا . والضريق التالى هو طريق بنا - هاواى - أستراليا ونيوزيلند . أما الطريق الأخير فطريق جزر فوكلند بخذاء شرق أمريكا الجنوبية .

وعلى هذه الشبكة الأخطبوطية تركز الإمبراطورية على مجموعة من القواعد العسكرية البحرية التى تمثل نقط أو عقد القوة الاستراتيجية فيها ، التى تعتمد أساسا على انضبط والاستعمار الساحلى marginal control . ومع مقدم عصر الطيران ازدوجت هذه الشبكة فى الواقع بشبكة جوية مركبة فوقها . كما تكملها فى بعض حلقاتها شبكة طرق وسكك حديدية على القارات^(١) .

السلام البريطانى

فى هذا الاطار اكتملت سيادة بريطانيا البحرية إلى درجة الاحتكار المطلق للقوة البحرية فى العالم . وأصبحت عملية مراقبة البحار العليا والاشراف عليها وظيفة بريطانية بحتة . وتحققت بهذا وحدة المحيط العالمى كأكمل وأقوى ما يكون ، ولا نقول أصبح المحيط العالمى بحيرة بريطانية ! ولقرن برمته لم تستطع قوة ما أن تتحداها . غير أن هذا كان فى الواقع دورا « بوليسيا » لاشك فيه^(٢) ، وفى هذا المعنى وحده ينبغى أن نفهم « السلام البريطانى Pax Britannica » الذى فرضته طوال ذلك القرن وظلت تفخر به طويلا - وتضليلا .

وفى ظل هذه الاستراتيجية البحرية المدرعة استطاعت بريطانيا أن تصبح تاجر العالم الأول مثلما جعلها الانقلاب الصناعى مصنعها الأكبر . ففى اقتصاديات آسيا وأفريقيا كان لها الدور الاحتكارى المطلق ، بينما كانت هى وحدها المسيطر الرئيسى على الاستثمارات والتمويل فى أمريكا الجنوبية . وفى النتيجة أصبحت بريطانيا تستمد من هذا الدور الجزء الأكبر من قوتها وثرائها المادى . بدرجة تتضاءل بجانبها كثيرا مواردها وإمكاناتها الذاتية والبحث .

L.M. Alexander, World Political Patterns, Chicago, 1957.

(١)

(٢) انجيوينيك - ج ٢ .

ولم يكن غريبا لذلك أن تضاعف سكانها أربع مرات في ذلك القرن رغم الملايين التي أرسلت إلى ما وراء البحار خاصة أمريكا^(١). وفي حمى هذه القوة العسكرية المطلقة والرخاء الاقتصادي النادر ، لم يكن غريبا - أليس كذلك ؟ - أن يصل الصلف والغرور الإنجليزي إلى منتهاه . وأن يظن الاستعمار البريطاني أن الأرض قد دانت له . وأن يتصور نفسه مركز الكون . بل لقد تساءل بعضهم أيامها بالفعل - كذا - عما إذا كان « الله بريطانيا ؟ Is God British » . لقد وصل غرور القوة وعبادة الذات ، ودعك من واجهة التهكم ، إلى حد الكفران !

بيد أن المهم أن بريطانيا إنما بنت دورها هذا على أساس نظريات ومدارس اقتصادية معينة تبنتها أو خلقتها هي حرية التجارة أولا وتخصيص الانتاج ثانيا - ولو أن المبدئين جانبا في الحقيقة لشيء واحد . على أن الذي لم يعد فيه شك الآن حتى عند عتاة الإمبرياليين البريطانيين هو أن تلك المبادئ أبعد شيء عن الحقيقة ، بل قلب صارخ هي للحقيقة . فحرية التجارة دعوة تتخفى وراء أعنى أنواع الاحتكار القائم على القوة العسكرية ، وهي كما قال بسمارك « سياسة الأقوى » . أما التخصيص فكان وسيلة لحرمان المستعمرات من التطور وللإبقاء على تخلفها إلى الأبد بحجة الجغرافيا الطبيعية .

والنتيجة أن اقتصاد « عصر بريطانيا » كان في جوهره اقتصاد حرب واقتصاد قوة . وبغير الأسطول وديبلوماسية الزوارق المسلحة كان مستحيلا أن تظهر « مدرسة مانستر في التجارة الحرة » ، وكان السلام البريطاني المزعوم سلام قوة ، يقوم على الظلم والقهر ويعتمد على التهديد بالحرب^(٢) . ومن هذه الحقيقة بالذات ستنبعث جرثومة الحرب العالمية الأولى ، وهي النقطة التي تعين أوج القوة البريطانية على الأرجح والتي بعدها بدأ الانحدار التدريجي الذي استكمل في الحرب الثانية فكان بداية نهاية بريطانيا كالقوة العظمى الأولى في العالم .

دورة حياة الإمبراطورية

وما دمنا قد وصلنا إلى هذه النقطة ، فلعل من المفيد كما هو من الضروري أن ننظر نظرة كلية شاملة إلى تاريخ وتطور القوة البريطانية كدورة حياة من النشأة إلى الصعود

(١) فوست ، ص ٤٢٧ .

Democratic ideals, p. 107.

(٢)

فالانحدار . ولهذا الغرض ، فعلل تكنيك تطور مراحل الدولة الجيوبوليتيكي كما وضعه الجغرافي السياسي فان فالكنبرج هو أنسب منظور متاح . فكما يصنف هذا العالم ، تقع الدولة أو تمر في مراحل تطور أربع لكل منها ملامح سلوكية قاطعة وخصائص سياسية محددة : الطفولة أو النشأة ، الشباب أو التوسع ، النضج أو الاستقرار ، وأخيرا الشيخوخة أو الانحدار . فأما مرحلة الطفولة أو النشأة ففيها تنفق الدولة الجديدة كل اهتمامها ونشاطها في ترتيب البيت من الداخل ، أي في لم شمل أقاليمها وتدعيم وحدتها الداخلية وتحديد وتأمين حدودها والدفاع عنها ، مع تحاشي الحروب الخارجية ما أمكن . أما مرحلة الشباب فهي مرحلة التوسع بالضرورة ، تنطلق فيها بعد أن اشتد عودها داخليا إلى توسيع رقعتها ونفوذها في الخارج ، فتنقل بذلك من الدفاع إلى الهجوم وقد تدخل عصر الإمبراطورية وتعرف تطلعات الاستعمار وطموحات الفتوحات . ومع تحقيق هذه الأهداف وتلك الرقعة تتسع مسئوليات الدولة وتزداد مشاكلها . من تعقيدات الضبط والربط والتماسك والمواصلات إلى أقليات مضمومة وثورات تحريرية إلى منافسات إمبراطورية مضادة ... الخ . فهنا تصبح الخاصية الأساسية للدولة هي محاولة المحافظة على الوضع الراهن Status-quo ومقاومة قوى التفكك وعوامل التحلل في الإمبراطورية ، ولا تعود تجد لنفسها مصلحة في الحروب الكثيرة إلا الدفاعية منها لتفرض بها « سلامها » . هذه الملامح تعني أن الدولة قد بلغت مرحلة النضج أو الاستقرار التي كل هدفها السلامة والأمن والأمان . إلا أن مرحلة الشيخوخة أو الانحدار أو ربما حتى الانهيار تحل بالضرورة حين تعجز الدولة عن المحافظة على توسعاتها . فتأخذ المستعمرات تنسلخ عنها بالحرب واحدة بعد أخرى ، إلى أن تنتهي الدولة إلى الانعطاف على نفسها في قوقعتها الوطنية الأولى من حيث بدأت ، فتم بذلك دورة جيوبوليتيكية كاملة في تاريخ حياتها^(١) .

المنحنى البريطاني

الآن ، فإن هذه الدورة لا تكاد تنطبق كما تنطبق على تاريخ حياة الإمبراطورية البريطانية ، بل إنها لتعد النموذج الكلاسيكي لها والبرهان المثالي عليها . فكجزيرة إزاء

S. Van Valkenburg, Elements of political geography, N. Y., 1939, p. 14 et seq. (١)

القارة ، منها وليست فيها ، نجحت بريطانيا في ظل عزلتها وراء المانش في تكوين وحدتها الداخلية مبكرا حوالى القرنين ١٤ : ١٥ ، أى معاصرة تقريبا لوحدة فرنسا وسابقة زهاء أربعة قرون لوحدة ألمانيا أو إيطاليا (دور النشأة) .

وبفضل جزيرتها وبيئتها الملاحية انطلقت عبر البحار لتكون إمبراطوريتها العالمية وخاضت حروبها الاستعمارية وصراعات القوى حتى وصلت إلى نقطة السميت عقب الحروب النابليونية حين انفردت باحتكار القوة العالمية وبدأ « قرن بريطانيا » (دور الشباب والتوسع) . ومنذ حوالى منتصف القرن ١٩ دخلت مرحلة التضييق . حيث نشرت « السلام البريطانى » بديبلوماسية البوارج المسلحة . وكان كل ههما المحافظة على الوضع الراهن وتجميده لأنه يعطيها كل شىء دون أن تخسر أى شىء .

وهنا بالدقة برزت استراتيجيتها السياسية التقليدية والأثيرة ، سياسة توازن القوى . لتحل محل سياسة القوة والمجابهة . فلا تنغمس ما استطاعت في حروب القوى الصاعدة على القارة ، وإنما تضاربها ببعضها البعض لتظل جميعا ضعيفة دائما لا تهدد مكائنها ، ولا تتدخل هى إلا مضطرة حين يهدد أحد هذه المكائنة ، كما فعلت من قبل ضد فرنسا أكثر من مرة وفيما بعد ضد ألمانيا مرتين . وتلك كانت السياسة الانتهازية التى أكسبتها مرارة وتشكك القارة .

وفى تلك الاستراتيجية كان للصراع الأوروبى نمط جغرافى محدد تحتل فيه بريطانيا موقعا محددًا كذلك . فلقد كان هذا الصراع يستقطب أساسا فى ثلاثة مراكز تؤلف « مثلث القوة » الشهير فى أوروبا : بريطانيا - فرنسا - ألمانيا . وفى هذا المثلث كانت بريطانيا هى الرأس والقوة السائدة ، بينما داخل رؤوسه كانت الدول الصغرى مثل بلجيكا وهولندا تمثل منطقة الخمود أو التحييد التى تتقابل حتى تتحايد أو تتصادم عندها الضغوط . من هنا كانت سياسة بريطانيا التقليدية من ضمان حياد بلجيكا ، التى شبهتها شكلا وموضوعا بمسدس مصوب إليها . ومن هنا أيضا كانت بلجيكا وهولندا هى « أرض المعركة فى أوروبا battlefield of Europe » فى كل مجابهات الأقطاب الثلاثة ، وهى المجابهات التى نجحت بريطانيا فى الانتصار فيها على القطبين المنافسين واحدا بعد الآخر .

على أن الحروب العديدة العنيفة التى خاضتها بريطانيا على القارة وفى المستعمرات عبر البحار كانت تستنزف طاقتها بانتظام وتمتص حيويتها بالتدريج ، وبخاصة الحربان

العالميتان اللتان خرجت منها مضعضة رغم النصر . لتفقد في النهاية معظم الإمبراطورية ثم كلها ، وليكتمل تقلص حجمها ووزنها النسبي وكذلك ظلها ونفوذها الدولى . لتترلق وشيكاً إلى « برتغال كبرى » أو « أمريكا صغرى » أو إلى « رجل أوروبا المريض » الجديد . وتلك بكل أعراضها وأمراضها هى مرحلة الشيخوخة والانحدار لا جدال . وهى المرحلة التى تفسر عودتها صاغرة إلى القارة الأم فى وحدة السوق المشتركة والوحدة الأوروبية لتنف فى الصف مع القارين بعد طول ابتعاد واستعلاء^(١) .

الولايات المتحدة

يبدأ تاريخ الولايات المتحدة كدولة منذ حرب الاستقلال فى عام ١٧٨٣ أى فى أواخر القرن الثامن عشر . وقبل الثورة الفرنسية . فقد خرجت من هذه الثورة على الاستعمار البريطانى برقعة محدودة بالولايات الثلاث عشرة ومحددة ببحال أليجنى ثم فى مرحلة تالية بالميسيسى . وبقوة بشرية لا تزيد على الأربعة ملايين نسمة . فكانت تلك هى النواة النووية التى لم تلبث أن انفجرت فى نمو عارم لتصل فى النهاية إلى أن تصبح أعظم قوة فى العالم . وفى هذا النمو والتاريخ تشبه الولايات المتحدة بعض خطوط عريضة من توسع روسيا من ناحية ومن تاريخ بريطانيا من ناحية أخرى .

فكما بدأت روسيا من النواة الأوربية غرب الأورال ثم انطلقت شرقاً على حساب العناصر المغولية حتى الهادى ، انطلقت الولايات المتحدة من نواتها شرق أليجنى والأبلاش والتى ظلت قابعة فيها أكثر من قرنين . انطلقت بسرعة مماثلة ولكن فى اتجاه عكسى كصورة المرآة enantiomorph صوب الغرب حتى الهادى . وعلى حساب السكان الأصليين من الهنود الحمر Amerinds . ولهذا فلو عد أحدهما « استعماراً » لوجب أن يعد الآخر كذلك . وكلاهما إذن حقق أبعاداً قارية هائلة وتوسع توسعاً قارياً بكل وضوح ، إلا أن روسيا بعد هذا لم تتعد قاريتها ، بينما قفزت الولايات المتحدة إلى البحار والمحيطات المجاورة .

أما مع بريطانيا ، فتاريخ الولايات المتحدة القصير يشبه فى مراحل توجيهه الجغرافى تاريخ بريطانيا الأكثر طولاً . فقد مرت الولايات المتحدة - كبريطانيا - أولاً بالمرحلة

(١) جمال حمدان ، بين أوروبا وآسيا ، دراسة فى النظائر الجغرافية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٢١٥ - ٢٦٦ .

الاستعمارية حتى حرب الاستقلال . ثم بالمرحلة القارية في أيام لنكولن . وأخيرا بالمرحلة الجزرية حين توحدت تماما وأدركت وضعها بالنسبة للعالم القديم^(١) .

مراحل التوسع مرحلة القارة

ويمكن أن نتعرف في توسع الولايات المتحدة^(٢) إلى حدودها الحالية على ثلاث مراحل واضحة : مرحلة القارة . مرحلة الهادى . مرحلة الكاريبي . فالمرحلة القارية ١٧٨٣ - ١٨٥٠ ، حوالى النصف الأول من القرن التاسع عشر تقريبا ، بدأت بشراء لويزيانا ١٨٠٣ من فرنسا نابليون ، ثم بالاستيلاء على فلوريدا من إسبانيا في ١٨١٩ ، ثم بضم تكساس (جمهورية النجم الأوحده) في ١٨٤٥ من المكسيك (إسبانيا سابقا) . وبهذا وبذلك وصلت الجمهورية المتمددة من المسبى إلى الروكى ومن البحيرات إلى خليج المكسيك . وبعد ذلك مباشرة سوت حدودها مع كندا البريطانية بعد صراع طويل حول أوريجون ١٨٤٦ ، ثم بنفس السرعة انتزعت كاليفورنيا من المكسيك في ١٨٤٨ ، واستكملت آخر حدودها مع المكسيك بشراء رقعة صغيرة هى جيب جاسدن في ١٨٥٣ .

ومعنى هذا أن الولايات المتحدة ظلت متفوقة تتشربق على نفسها في حدود نواتها الأطلسية الضئيلة زهاء قرنين ، بينما اكتسحت بقية القارة في نصف قرن فقط ، بل بالأحرى في عقد واحد مفعم منذ ضم تكساس في ١٨٤٥ ! كأنما كانت سرعة الانقضاى وظيفة لطول مدة الكون والاختار . ومعناه أيضا أن الولايات المتحدة في حدودها الحالية على القارة لايزيد عمرها اليوم عن قرن لا أكثر .

والمهم أنها بذلك وصلت إلى الهادى لتصبح دولة محيطين شاسعة الامتداد والرقعة - دولة قارة تقريبا . وكان أغلب هذا التوسع أشبه مايكون في فراغ ، وكانت طلائع التعمير الفعلى والهجرة (« اذهب غربا أيها الشاب ، اذهب غربا ! Go west, young man, go west ») غالبا ما تسبق الضم السياسى الرسمى . كذلك سيلاحظ أن أكبر صراع

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٢) جوبليه ، ص ٤٤ - ٥٢ . الجيوبولتيكا ج ١ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٥ ، ٢٢٥ - ٢٢٧ .

في هذا التوسع كان مع المكسيك التي تضاعلت وانكشفت رقعتها كثيرا بالتالى ، ولهذا ستظل علاقتها مع الولايات متوترة حتى العقود الأولى من القرن العشرين .

ولاشك أن تحقيق الوحدة أو الدولة الواحدة على مثل هذا المقياس الضخم هو طفرة كبرى في تاريخ التوسعات السياسية . فقد كان من الممكن أن تنتهى إلى أن تنقسمها أكثر من دولة واحدة كما حدث في أمريكا الجنوبية . بل لقد بدأت الدولة اتحادا كونفدراليا قبل أن تتحول إلى اتحاد فيدرالى . ومن قبل ذلك شك الكثيرون في إمكان قيام دولة واحدة على هذا المقياس المديد بل المريد . ولكن بساطة التركيب الجغرافى نسبيا ، وانفساح الوحدات الطبيعية كثيرا بالمقارنة بأمريكا الجنوبية ، مع اتفاق فترة التكوين السياسى مع عصر القطار ، هى من العوامل التى تفسر هذه الوحدة القارية النادرة .

وفى هذا المعنى ، يصح أن نقرر أن الولايات المتحدة هى من صنع القطار ، وبنت عصر البخار . وليس من الصدفة أن الخطوط الحديدية عبر القارية بدأت تظهر ثم تتضاعف فى الولايات خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولوقد سبق تكوين وتبلور الولايات سياسيا عصر السكة الحديدية كما حدث فى دول أمريكا الجنوبية ، ولو قد تأخر هذا العصر عما حدث بالفعل ، فلربما كانت الولايات المتحدة اليوم عدة دول لادولة واحدة . ولكن الواقع أن مساحة الولايات التى بدت أكثر مما ينبغى فى البداية ، يتضح اليوم أنها جاءت من المقياس الأمثل بالنسبة لنظم النقل والمواصلات الحديثة ^(١) .

مرحلة الهادى

هذا عن مرحلة القارة . أما عن مرحلة الهادى ، فقد اقتيدت الولايات المتحدة تلقائيا إلى أضخم محيط بعد أن أصبحت أضخم دولة تطل عليه . وتحتل المرحلة النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فبعد الحرب الأهلية بدأت الولايات بشراء ألاسكا وجزر ألوشيان من روسيا فى صفقة بخسة عدت فى ذلك الحين حماقة سميت - باسم مهندسها - « حماقة سيوارد Seward Folly » ، وذلك على أساس أنها ليست إلا « صندوقا من الجليد » . وسنرى فيما بعد مفارقة مثيرة حين يتحول هذا الصندوق من الجليد إلى صندوق من الذهب حقيقة ومجازا ، معدنيا واستراتيجيا !

(١) هوبنزى ٠ ص ١١-١٢ .

ثم بدأت الولايات تتوسع على طول الجزر الباسيفيكية على طريق الشرق الأقصى ، وذلك على حساب إسبانيا غالبا . فمن قبل استولت على جزر هاولاند وبيكر في ١٨٥٧ ، ثم على ميدواى في ٥٩ - ١٨٦٧ ، ثم على جوام وويك وبعض جزر من مجموعة فينكس في التسعينات . وفي نهاية القرن ضمت هاواى ملتي طرق الهادى ثم جزر ساموا . إلى أن وصلت في خاتمة القرن والمطاف إلى الفلبين فانترعتها بعد حربها مع إسبانيا وضممتها في عام ١٨٩٩ ، لتتقلها فجأة من العصور الوسطى إلى القرن العشرين ^(١) . وستظل الولايات تستعمر الفلبين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حين منحتها - بمحض إرادتها وكمثال على « فروسية » السياسة الأمريكية كما تلح دائما - استقلالها في ١٩٤٦ .

مرحلة الكاريبي

أما المرحلة الثالثة مرحلة الكاريبي فتبدأ مع القرن العشرين لتمتد في عقود الأولى . ففي نهاية حربها مع إسبانيا ، استولت الولايات على كل من بورتوريكو وكوبا في ١٨٩٨ ، ولكنها منحت كوبا استقلالها مباشرة بعد أن احتفظت لنفسها فيها بقاعدة بحرية في جواتانامو في ١٩٠٣ ، أما بورتوريكو فقد ظلت تابعة لها منذ ذلك كمستعمرة محمية إلى أن أصبحت كومونولث في ١٩٥٢ ^(٢) . ثم حصلت الولايات على منطقة القنال في بنا ١٩٠٣ لتشق فيها بعد ذلك القنال الذى أصبح من أخطر النقاط الاستراتيجية في تركيبها كقوة عالمية . وقد استدعت القناة تأمين ضلوعها الشرقية في جزر الكاريبي ، فكان شراء جزر فرجين « جبل طارق أمريكا » ^(٣) من الدنمرك ، ومن بقايا الاستعمار البحرى الصغير القديم . في ١٩١٧ . هذا عدا ضم بعض جزر صغيرة في الأرخبيل واستجار البعض الآخر من نيكاراغوا .

قوة بر وبحر

وسنرى من هذا التوسع البحرى الشاسع أن الولايات قد خرجت من الدور القارى إلى الدور البحرى المحيطى بصورة حاسمة ، ولم تعد قوة بر بل وقوة بحر أيضا حتى كاد

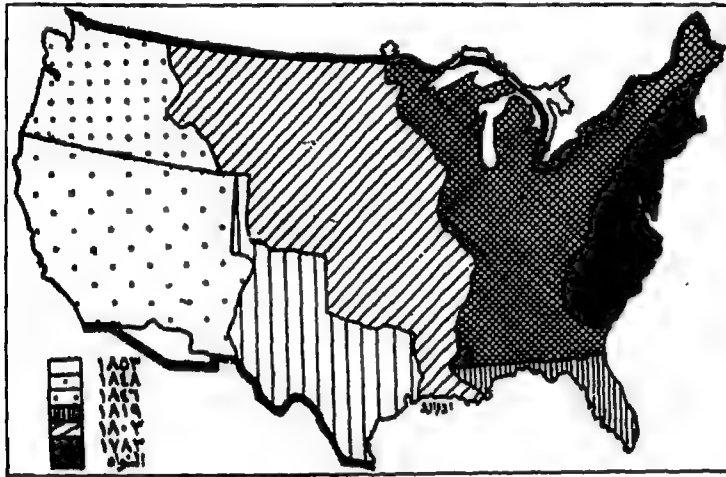
(١) جويليه ، ص ٥١ .

(٢) كول ، ص ٢٥٩ .

(٣) بيكلز ، ص ٢٤٦ .

المهادى - الشرقى على الأقل - أن يكون بحيرة أمريكية ، بينما تقاسمت السيطرة على الأطلسى مع بريطانيا . وستصبح منطقة الدفاع الغربى عن الولايات تتألف من مثلث رؤوسه هاواى - ألاسكا - بنما ، بينما سيصبح الكاريبى برمته خط الدفاع الأمامى عن بنما نفسها .

كذلك ستلاحظ أن هذا التوسع البحرى هو استثمار لاشك فيه ، واستثمار استراتيجى بالتحديد فى المهادى ، واستراتيجى اقتصادى فى الكاريبى ، هدفه أن يضمن نقطا وقواعد بحرية لتكون خطوط الدفاع الأمامية عن الدولة . هذا وتبلغ مساحة ممتلكات الولايات المتحدة خارج كتلتها القارية نحو ربع مساحتها الكلية .



شكل (١٩) نمو الولايات المتحدة على القارة . الموجة المدية ، فى نصف قرن فقط ، حملت الدولة الجديدة من الميسيسيبي إلى المهادى ، بعد أن أنفقت قرنين فى نواتها النووية

ولاشك أن هذا التوسع البحرى - الهائل بأبعاده وإن لم يكن بمساحته - هو نتج عصر السفينة البخارية . ولو أن نشأة الولايات المتحدة السياسية قد سبقت بقرون ، فليس من المحتم أنها كانت بمستطاعة أن تتوسع مثل هذا التوسع - تماما كما رأينا بالنسبة لرقعتها القارية ذاتها . والمغزى الجغرافى والاستراتيجى لهذا التوسع وذاك هو أن أمريكا جزيرة عظمى معزولة بين أعظم محيطين على الكرة الأرضية ، مجموع اتساعها نحو ٨٠٠٠ ميل أى أقل قليلا من ثلث محيط الأرض ... وأى تهديد لها إنما يأتى من البحر سواء شرقا أو غربا ، ولهذا فالدفاع عنها لا يكون إلا بالقوة البحرية .

وفى نفس الوقت فإن مثل هذا الاطار المحيطى السحيق ما كان يمكن لأى قوة أن تسيطر عليه إلا أن تكون قوة كبرى ذات قاعدة أرضية هائلة حتى تستطيع أن تجد من الموارد والفائض الحربى ما يمكنها من ذلك . ولو أن أمريكا كانت جزيرة صغيرة المساحة لما زاد دورها كثيرا عن دور هاواى أو غيرها من جزر الهادى الضائعة فى خصمه الشاسع . وتلك جيوبولتيكى آفة الجزر الصغيرة فى وسط محيطات ضخمة^(١) . وإنه لمنطوقى جدا أن يكون عرض الدولة التى تولد فى رحم بحرى عرضه ٨٠٠٠ ميل . فى حدود لا تقل عن ٣٠٠٠ ميل .

وفى النتيجة فإن الولايات المتحدة تخرج بكيان سياسى أدنى إلى أن يكون وسطا بين طبيعة الاستعمار البحرى البريطانى والتوسع القارى الروسى ، أو قل هو يجمع بين طبيعتيهما معا . فبكتلتها القارية المندمجة المتناسكة وبما تمتاز به من دفاع بالعمق ، تشبه الولايات المتحدة الروسية من حيث إنها تستطيع أن تنسحب بأى عدو غاز إلى نواتها الداخلية غرب الأبلاش أو شرق الروكى حتى تشتري الزمان بالمكان . هذا بينما تجعلها مستعمراتها البحرية الجزرية المترامية قريبة من تركيب الإمبراطورية البريطانية المفتتة المشتتة عبر البحار .

كذلك لا بد أن يسترعى انتباهنا فى توسع الولايات المتحدة سواء فى بيتها القارى أو فى مستعمراتها البحرية ظاهرة فريدة قل أن نجد لها مثيلا فى الدول والقوى الأخرى . تلك أعنى ظاهرة « الشراء والاستئجار » الاقليمى . فجزء كبير جدا من رقعة الولايات المتحدة اكتسب بالشراء أو بالاستئجار - شراء ألاسكا وألوشيان ، لوزيانا ، جاسدن ، جزر فيرجين ، واستئجار جوانتانامو . وجزر نيكاراغوا فى الكاريبى ، وحديثا استئجار قواعد عديدة فى الأطلسى . ولعل هذه الظاهرة الغربية مرتبطة بطبيعة العالم الجديد كجبهة ريادة سياسية ضخمة وكإقليم جيوبولتيكى جديد يعمر ويستقر دوليا لأول مرة .

النمو المادى

إذا كانت هذه هى السرعة المذهلة التى تم بها توسع الولايات المتحدة الكاسح أرضيا واقليميا ، فإن نموها المادى والاقتصادى لم يأت بأقل سرعة أو اندفاعا . فقد

(١) جون موى ، ص ١٢٤ .

بدأت باقتصاد زراعى واسع ، وبمجتمع ريفى بحت مخلخل . وظلت طوال القرن التاسع عشر دولة زراعية أساسا تصدر الخامات وتستورد المصنوعات من العالم القديم ، حفل أوروبا باختصار . وتمثل حضارة ريفية غير مدنية . ولكن فى النصف الثانى من القرن كانت الصناعة والمدنية تثور التركيب الاقتصادى والحضارى^(١) .

حتى إذا ما كان القرن العشرون نجدنا بإزاء أعظم وأغنى دولة صناعية وأضخم قوة حضارية حديثة . وهى فى الوقت الحالى تقود العالم بسهولة فى كل مجالات الانتاج وتحترك الأولوية والصدارة فى أغلب قطاعاته . كما تجاوزت أخيرا علامة المائتى مليون فى السكان . وبذلك تكون قد تضاعفت ، فى ١٧٠ سنة منذ ثمانينات القرن الثامن عشر . أكثر من ٥٠ مرة^(٢) .

والولايات بحكم رقعتها وامتداداتها تمتاز بالتنوع الثرى والغنى فى أقاليمها الجغرافية الطبيعية ومن ثم الاقتصادية الانتاجية ، فتكاد تبلغ حد الكفاية الذاتية فى أغلب جوانب الانتاج إلا أقلها - المداى فى الزراعة ، والبتروى فى المعادن . ومع ذلك فالكاربى يعوضها فى الناحيتين إلى حد أو آخر . وكنتيجة لهذه الكفاية الذاتية كثيرا مانجدها فى عديد من خطوط الانتاج أعظم منتج ، ولكنها أيضا أعظم مستهلك ، ومن ثم فنسبة تجارتها الخارجية محدودة بالقياس إلى إنتاجها . ومن المدهش أن نعلم أن حجم تجارتها الداخلية يعادل حجم مجموع التجارة الخارجية للعالم أجمع ثلاث مرات ونصف المرة !^(٣) ومع ذلك فتللك النسبة من التجارة الخارجية كفيلا وحدها بأن تجعلها مع كثير من الدول أعظم مصدر عالمى أو مستورد !

والضوابط الكامنة خلف هذه الانقلابات الجذرية فى قوة الولايات المتحدة واضحة بما فيه الكفاية . فهى ، أولا ، قد بدأت حضاريا من حيث انتهت أوروبا ، أى أنها أخذت عنها نقاط قوتها وتحلصت من مواطن ضعفها . وفى بيئة بكر ، كان هذا جديرا بأن يغلق الحضارة الحديثة .

وثانيا ، ولدت الولايات الحديثة فى ظل الانقلاب الصناعى ، فهى لم تعرف عصرا إقطاعيا بمعوقاته وأثقاله الاجتماعية والاقتصادية ووقر التقاليد وعدم المرونة الطبقية ، بل

A.P. Brigham. The United States of America, L.U.P., 1927.

(١)

(٢) كول - ص ٢٦٠ .

E.G. Bowen, "The Geog. of Nations". Geog., Jan. 1963, p. 10.

(٣)

تحررت من ثقل الماضي كله واستبدلت بالاقطاع والعبودية الريادة « والفردية العازمة rugged individualism » والليبرالية . باختصار ، « ولدت وفي فيها ملقعة بورجوازية » كما عبر البعض .

ثالثا ، وأخيرا ، ليست الولايات دولة بالمعنى الأوربي . بل هى دولة قارة تفوق أوروبا مساحة وموارد وإن لم يكن سكانا . ومحصلة هذا جميعا أن أمريكا بدأت ابنة أوروبا ، بدأت وهى « أوروبا الصغرى Little Europe » ، فإذا بها تنتهى اليوم إلى أن تتفوق على أمها قائمة وقوة وتطورا ، وأن تتحول فى الواقع إلى « أوروبا الكبرى Greater Europe » .

مجالات النفوذ

وفى ضوء هذا الكيان العملاق كان لابد أن تتحول الولايات إلى قطب غلاب من الاشعاع السياسى والنفوذ الاقتصادى ، يرسم حوله دائرة كهربية عظمى تدور فى فلکها كثير من الدول وتقع فى مجالها المغنطيسى جيوبولتيكى واقتصاديا . وفى إطار التركيب « الجيوديزى » للقارات ، لم يكن مفر من أن يكون العالم الجديد هو ذلك المجال . فند وقت مبكر تجد الولايات نفسها كتلة عملاقة وسط مجموعة من الدول الأقزام - كجلفير فى بلاد الأقزام سياسيا ، أو كسمكة القرش وسط السردين كما قيل . فهى تمثل خير تمثيل نظرف « الانحدار الجيوبولتيكى geopolitical gradient » فى العالم الجديد .

خذ مثلا جارتها الشمالية والجنوبية : إما دولة صغيرة أو متخلفة . لا تزيد أى منها فى حقيقتها عن أن تكون دولة حدية حاجزة أو خطوط دفاع أمامية يمكن أن تكون بمثابة ماصة للصدمات shock-absorber وعمقا استراتيجيا فى الحروب ومجالات نفوذ فى السلم . ولذا فإن الحدود معها حدود غير مخفورة « Our unguarded frontier » - مثل نادر ! - والحواجز الجمركية عبرها أقل ما يمكن .

وليست كندا إلا امتدادا شماليا شريحا بحتا للولايات سواء جغرافيا أو بشريا . وهى إذا كانت تعانى من الصراع بين القصور التاريخى والجاذبية الجغرافية . فيشدها التاريخ إلى بريطانيا وتشدها الجغرافيا إلى الولايات ، فإن المستقبل للجغرافيا . وكندا تتلقى بالتدريج إلى فلک الولايات . وأما المكسيك فبعد علاقات متوترة فى القرن التاسع عشر أصبحت اليوم - اقتصاديا - كوكبا يدور بهدوء واستكانة فى فلک الشمس الأمريكية .

أمريكا اللاتينية

تبقى أمريكا اللاتينية التي فتت ذريا في أمريكا الوسطى ومزقتها الجغرافية المعقدة والتاريخ الإسباني - البرتغالي المزدوج في أمريكا الجنوبية على محور طويل بعكس أمريكا الشمالية التي قسمت عرضيا . هنا - سياسيا - الإمبراطورية الأمريكية بحق وإن يكن دون الاسم ، وهنا - اقتصاديا - المجال الحيوى للولايات ولو رفض التشبيه !

فند أوائل القرن التاسع عشر حين أعلن مبدأ مونرو في ١٨٢٣ ليستبعد دول أوروبا أو العالم القديم من التدخل في شئون العالم الجديد ، كان هذا بمثابة إعلان بأن هذا الأخير هو منطقة نفوذ الولايات المتحدة . وحين قامت دول أمريكا اللاتينية بالثورة وحرب الاستقلال - على غرار النمط والمثل الذي قدمته الولايات نفسها من قبل - وأرادت القوى الأوربية الاستعمارية أن تجتمع في « حلف مقدس » لتعيدها إلى حظيرتها ، أصدرت الولايات المبدأ وأعلنت أنها ستمنع المحاولة بالقوة .

ومنذ ذلك الحين انفصلت اللاتينية سياسيا عن الدائرة الكهربية للعالم القديم لتكون مع الولايات دائرة أخرى جديدة ، أو بالأحرى لتقع في دائرة الولايات . استبدال لوصاية الأم بوصاية الأخت الكبرى يعنى ! ومنذ ذلك الحين تراوح مبدأ مونرو - تطبيقا - بين سياسة « العصا الغليظة » وحسن الجوار . ولطالما تدخلت الولايات عسكريا في كل هذه الوحدات بصورة لا تختلف عما تفعل الدول الاستعمارية التقليدية في مستعمراتها . ولم تكف تغلت وحدة في أمريكا اللاتينية من هذا التدخل سواء دبلوماسيا أو عسكريا عدة مرات على الأقل .

ولقد شددت الولايات قبضتها على اللاتينية منذ وبفضل قناة بنما . وأصبحت الاستثمارات والاحتكارات الأمريكية في دولها هي - دون أرقام - أساس اقتصادياتها المتخلفة ، وابتلعتها منطقة الدولار ، وانتزعتها بذلك من احتكارات الرأسمالية البريطانية التي كانت تلعب الدور الاقتصادى الرئيسى فيها خلال القرن التاسع عشر . ومنذ ذلك الوقت ودور اللاتينية دور مزرعة أو منجم للولايات بمثل ماأن الولايات مصنع لها ، نفس العلاقة - يعنى - بين أوروبا مثلا وبين أفريقيا .

وفى الوقت الحالى لاتزيد اللاتينية - موضوعيا - عن أن تكون تديلا أو ذنبا اقتصاديا للولايات^(١) ، تتألف من مجموعة من « جمهوريات الموز والانقلابات » - كما

(١) هويتزى ، ص ٨٣ .

ينعتونها ، وتؤلف ما وصف جديا بإمبراطورية الدولار . وتهكما باستعمار الكوكاكولا Coca-Colonisation^(١) ، وما تسميه أمريكا اللاتينية بإمبريالية اليانكي Yanqui imperialismo . أما الوضع السياسي فلهل ليس أفضل بكثير . لاسيا فى ظل منظمة اتحاد الدول الأمريكية Pan-American Association .

وفى كل الأحوال فإن الولايات نجب أن تنظر إلى أمريكا اللاتينية على أنها « حديقها الخلفية » الخاصة أو « فناؤها الداخلي » المغلق back-yard . وإن من الكتاب والعلماء الأمريكيين أنفسهم من يعترف صراحة بأن دول أمريكا اللاتينية عامة . والكاريبي خاصة . مستعمرات اقتصادية أمريكية وإن كانت مستقلة سياسيا . بل هناك منهم من يذهب إلى أن تبعية دول الكاريبي بالذات : والقائمة بصفة فعلية وإن لم يكن بصفة اسمية ، إنما هى حتم جغرافى لامفر منه . بحسبانها أقراما تعتمد اعتمادا مطلقا على العملاق المتناخم ، وأن الاستقلال لا يمكن أن يزيد يوما عن خرافة قانونية بجثة^(٢) !

لهذا فلعلنا لانبالغ أو نتطرف إذا شخصنا علاقة التبعية الاقتصادية والارتباط السياسى بين أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة بأنها نوع مبكر وخاص من « الاستعمار الاقتصادى » أو « الاستعمار الجديد » بمعناه الحديث . ومن هنا فالاستعمار الجديد ليس جديدا تماما كما قد نتصوره ، فالنسخة الأمريكية منه قد لانقل اليوم عن القرن سنا . وإذا كانت الولايات لا تعترف ولا تسمح دستوريا بامتلاك « مستعمرات » ، فقد نكون أقرب إلى الحقيقة إذا قلنا إنها فى اللاتينية تمارس الإمبريالية دون الاستعمار .

تلك فى خطوطها العريضة صورة الولايات المتحدة كقوة عالمية حين خرجت من عزلتها لتظهر على مسرح العالم القديم فى العقود الأولى من القرن العشرين ، لتبدأ فى الحقيقة مايمكن أن يعد فى تاريخها مرحلة توسع رابعة ، وإن تكن سياسيا لا إقليميا ، وإمبرياليا وليس كاستعمار بالمعنى الفنى .

وفى هذه العلاقة يبرز للولايات دائما وبصفة خاصة بعدان محوريان يتعامدان فى زاوية قائمة كبرى تمثل هى رأسها . فهناك المحور العرضى ويمتد نحو الشرق عبر الأطلنطى فى أوروبا بعامة وأوروبا الغربية بخاصة . ثم هناك المحور الطولى ويترمى نحو الجنوب عبر

L. Dudley Stamp. Applied Geog., Pelican, 1960, p. 188.

(١)

(٢) هوبلزى ، ص ٤٧٩ - ٥٨٤ .

الكاريبي في أمريكا اللاتينية . والأول محور معتدل بارد ، والثاني أغلبه مدارى حار .
الأول هو محور التاريخ ، والثاني محور الجغرافيا . الأول الجذور ، والثاني الفروع .
الأول هو العرق الأبيض النقي الأب ، والثاني العرق الأبيض المخلط ولكن مع بقاء
القربة العائلية العامة . والملاحظ بالفعل أن الزاوية بضلعها تكاد تشمل معظم كتلة العالم
الأبيض باستثناء النويات المحدودة المتطوِّحة . كذلك فإذا كانت أطراف المثلث الثلاثة قد
تبادلت السيطرة والتبعية أو الوصاية والقوامة عبر قرونها القليلة ولكن المفعمة ، فقد آلت
الوصاية أو الزعامة تقريبا على الطرفين الآخرين إلى الولايات وإن كانت بدرجات
متفاوتة للغاية بالطبع .

والطريف ، بعد ، هو أن المحورين قد يشدان أحيانا أو مؤقتا كل في اتجاه مختلف ،
دلالة على وجود بعض التعارض الكامن بينها . فأتثناء حروب الاستقلال في الأمريكتين
على حد سواء والصراع من أجل استقلال العالم الجديد عن القديم ، كانت الولايات
تغلب المحور الرأسي أى مصالح أمريكا اللاتينية على المحور العرضى أو مصالح أوروبا . أما
الآن فى ظل حلف الأطنطى مثلا وفى الصراع الكئلى من أجل القوة العالمية ، فإن الغلبة
والأولوية هى لامفر للمحور العرضى ، مثلما اتضح فى أزمة جزر فوكلند حيث لم تستطع
أن تظل طويلا على الحياد بين بريطانيا والأرجنتين فأخذت صف الأولى دون أو ضد
الأخيرة .

اليابان (١)

بريطانيا الشرق الأقصى

« بريطانيا الشرق الأقصى » هى ، وفى أكثر من معنى ذلك . فهى مثلها أكبر
أرخبيل جزرى على رصيف قارة لايفصله عنها إلا مضيق ضيق ، وهى مثلها لاتزيد
كثيرا عن المائة ألف ميل مربع (١٤٣ ألفا) . وإذا كانت اليابان تترامى عبر قطاع أكثر
امتدادا من بريطانيا وأكثر قربا من المدار ، فإنها تشتركان جزئيا فى بعض خطوط
العرض . وكل منها بيئة جزرية بحرية مثالية كاملة ، يفتحها تيار دافئ ، وتحيط بها
الأسماك من كل الجهات . ولأن القاعدة الأرضية الزراعية فى اليابان أشد ضآلة منها فى

(١) الجيوبوليتيكا ، ج٢ - ص٩ - ٨٠ ، كريسى ، ص ١٦٦ - ١٧٩ .

بريطانيا ، بينما أن المد السكاني فيها أشد علوا ، فهي تلفظ أبنائها إلى البحر بدرجة ملحوظة .

كذلك فإن كلا منها تلقى تعميره وحضارته أصلا من القارة . ثم عرف فترة من السيطرة على أجزاء من القارة . فقد غزت اليابان كوريا في القرن السادس عشر ، بمثل ماملك الإنجليز غرب فرنسا في العصور الوسطى . ثم دخلت كل منهما فترة عزلة ، ففي مقابل « العزلة الرائعة » التي عرفتها بريطانيا حينما ، فرض الاقطاع الياباني الحاكم على اليابان « فترة العزلة Seclusion Period » الشهيرة التي - حاية لنفسه - حرم فيها على اليابانيين الاتصال بالعالم الخارجى لنحو قرنين تسبق بداية عصرها الحديث .

أكثر من هذا ، كان الذى كسر هذه العزلة وتلك عامل لا يخلو من تشابه : غزو الأرمادا هناك ، واقتحام الكومودور بيرى هنا . بل أكثر من هذا أيضا ، إذا كانت كشوف إسبانيا للعالم الجديد هى التى أسطت بريطانيا موقعها الجغرافى البؤرى الجديد ، فإن ظهور أمريكا على الجانب الآخر من الهادى هو الذى أعطى اليابان موقعها الحاسم الجديد بعد أن كانت مثلها من قبل فى نهاية العالم وعلى هامش المعمورة . وفضلا عن هذا فقد وفر الموقع الجزرى الحماية الطبيعية لكل منهما . فكما لم يستطع أحد أن يغزو بريطانيا منذ الغزو النورماندى ، لم يطأ أحد أرض اليابان منذ محاولة المغول الفاشلة بقيادة كوبلاى خان فى القرن الثالث عشر إلا فى الحرب العالمية الأخيرة .

لا ، ولا ينتهى التناظر عند هذا الحد . فكما كانت بريطانيا أسبق دول أوروبا إلى التصنيع وأولها تمدينا ، فكذلك كانت اليابان أولى دول آسيا إلى الأخذ الكامل بالحضارة الحديثة والصناعة المتطورة وبالتالي أدوات القوة الجديدة . وبدأ هذا بعد أن فتحت بيرى موانئها للغرب فى ١٨٥٣ ، وسرعان ما دخلت عصر الانقلاب الصناعى ، ربما قبل بعض دول من أوروبا نفسها . وفى هذا المعنى صح أن يقال إن اليابان هى أكثر آسيا أوربية بمثل ما أن روسيا أكثر أوروبا أسيوية .

كذلك تشترك اليابان مع بريطانيا فى أن كلا منهما بصورة عامة أكثف أو من أكثف وحدات قارته سكانا ، إلا أن اليابان الآن ضعف بريطانيا سكانا . وليس غريبا بعد ذلك أن كلا منهما يعتمد فى اقتصاده الجديد اعتمادا كليا على الاستيراد والتصدير ، استيراد الخام الزراعى والمعدنى على السواء ، وتصدير الصناعات بكل مراحلها وأنواعها . ومن ثم فكل منهما أبعد مايكون عن الكفاية الذاتية ، ويتوقف مصيره على

التجارة عبر البحار . بل إن هذا لأوضح في اليابان منه في بريطانيا ، لأن الأولى أفقر كثيرا في مواردها الزراعية وكثيرا جدا في مواردها المعدنية خاصة الفحم والحديد . ومن الطبيعي بعد ذلك جميعا أن تخرج اليابان كقوة بحرية مثالية كاملة إلى الاستعمار ، وأن تتطلع في وقت ما إلى السيادة العالمية أو شبه العالمية . وفي هذا تقف اليابان كالقوة الآسيوية الوحيدة التي - دعك من أن تخضع للاستعمار الأوربي - مارست الاستعمار على قدم المساواة معه . بل وستزعمه أكثر من مرة لحين أو لآخر ، وبهذا كانت أول قوة غير أوربية تهزم قوى أوربية في التاريخ الحديث هزيمة حقيقية .

ولكن اليابان تختلف بعد هذا عن نظيرتها في نواح عدة . فالإيبان ، لأمر ما ، لم تعرف الهجرة بالجملة إلى ما وراء البحار . ولذلك سيظل كل استعمارها محصورا في دائرة - على سعتها الهائلة - محلية أساسا لا تخرج عن حوض الهادى الغربى ، بعكس الاستعمار البريطانى الذى لف الكرة الأرضية لفا . وربما كان جزءا من السبب في هذا أن اليابان خرجت إلى الاستعمار بعد أن كانت أوسع أبوابه قد أغلقت ولم يبق إلا فتات المائدة .

التوسع القارى والمحيطى

وأخيرا فإن التوسع الاستعمارى اليابانى ظل منذ بدايته موزعا بين هدفين أساسيين يتجاذبان فيه بينهما من وقت لآخر ولكنه جمع بينهما في النهاية : الأول هو التوسع على القارة ، أى توسع برى ، والثانى هو التوسع في المحيط ، أى توسع بحرى . وهذا على عكس بريطانيا التى كان جوهر استراتيجيتها السياسية العزلة عن القارة وعدم التدخل أو التورط في صراعاتها . وقد كان على اليابان أن تصطدم في توسعها هذا المزدوج مع عدد من القوى برا وبحرا .

فعلى البركان الصدام لا مفر منه مع الصين والروسيا ، ولهذا لم يكن غريبا أن تعرف منطقة الالتحام بينها وبينها في كوريا الشمالية ومنشوريا بحلبة صراع العالم Cockpit of the World ، أو أن توصف بأنها مهد الصراع Cradle of Conflict^(١) ، في حين تعدها اليابان بمثابة بلجيكا وهولندا بالنسبة لبريطانيا ، أى بمثابة سدس مصوب إليها . وسندكر هنا - بين قوسين - أن هذا هو نفس تشبيه بريطانيا للأراضى المنخفضة .

H. Weigert.. V. Stefansson, R. Harrison, New Compass of the World. N.Y., 1949.

وكما عملت هذه على ضمان حيادها وتجميدها ، ستعمل اليابان على تجميد كوريا ومنشوريا أولا ثم ابتلاعها بعد ذلك .

أما في البحر فقد كان الصدام أساسا وبالضرورة مع بريطانيا والولايات المتحدة . فالخوض الجنوبي الشرقى من الهادى منطقة نفوذ بريطانية تضم مستعمراتها في الأوقيانوسية وأستراليا والبحار الجنوبية وجنوب شرق آسيا ، ومفتاحها الاستراتيجى في سنغافوره . أما شرق الهادى فهو نطاق الأمان للولايات المتحدة وقد جعلت منه بفضل مثلثها الاستراتيجى بنا - ألاسكا - هواى بحيرة أمريكية إلى حد بعيد ، كما كانت الفلبين وبعض جزر الأوقيانوسية بمثابة مواقع أمريكية متقدمة تهدد اليابان البحرية كما تهددها هذه . وبالفعل سيكون مسرح الصراع اليابانى في الحرب العالمية الثانية هو هذه الجبهة الشاسعة ابتداء من كوريا حتى الأوقيانوسية ، وستكون المعركة برية في الشمال وبحرية بصورة مطلقة في الجنوب .

أسرع الإمبراطوريات قياما وسقوطا

السؤال الآن : كيف توسعت اليابان ؟ إذا اعتبرنا أن اليابان الأصلية هى الجزر الأربع ، فإن التوسع لم يبدأ إلا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بعد أن بدأ تحول اليابان إلى دولة صناعية حديثة ، ولو أن قليلا من التوسع المحلى المحدود على أطراف هذا الوطن الأب حدث قبل ذلك . ويمكن أن نميز ثلاث مراحل للتوسع : المرحلة القوسية في القرن التاسع عشر ، والمرحلة القارية - الجزرية مع بداية القرن العشرين حتى الحرب الثانية ، والمرحلة شبه الجزرية - المحيطية في أثناء الحرب الثانية . ويمكن بصفة عامة أن نعد المرحلتين الأوليين من استعمار المعتدلات ، والثالثة من الاستعمار المدارى ، وبذلك تتكرر هنا الثنائية الأساسية التى رأيناها في زحف الاستعمار البحرى الأوروبى أو الروسى القيصرى .

مرحلة الجزر المحلية

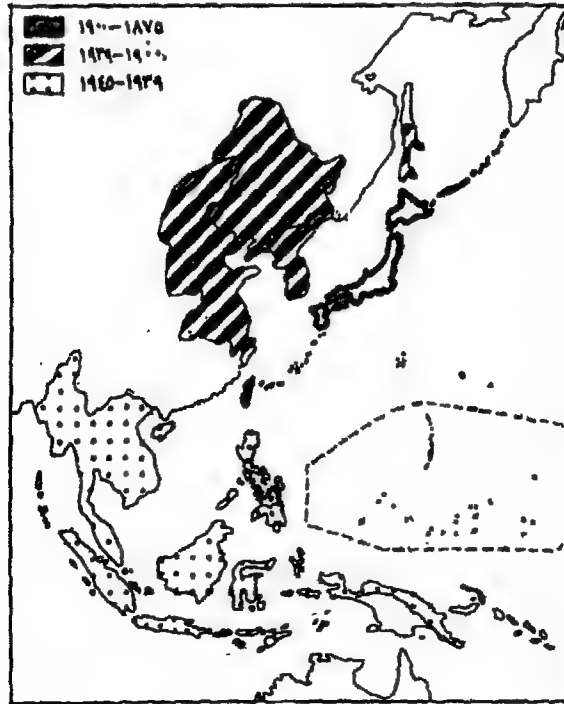
فالمرحلة الأولى ، ١٨٧٥ - ١٩٠٠ ، ارتبطت بقوس الجزر « الفستونية » الممتد ما بين كمتشكا وفورموزا . فقد بدأت اليابان بضم جزر كوريل (تشيشيا) بالاتفاق مع روسيا في ١٨٧٥ . وبعدها مباشرة استكملوا ضم جزر ريوكيو ، وهو الذى كانوا قد بدأوه في مطلع القرن السابع عشر . وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر دخلت اليابان مع الصين في حرب ١٨٩٥ التى انتهت بأن انتزعت لنفسها فورموزا وجزر

بسكادور : وكادت أن تنتزع لياو تونج لولا تدخل القوى الغربية في صف الصين ، كما فرضت عليها استقلال كوريا تمهيدا لضمها لنفسها فيما بعد .

المرحلة القارية والجزرية

أما المرحلة الثانية . ١٩٠٠ - ١٩٣٩ ، فقد كان مسرحها أرض القارة بصفة أساسية والجزر بصفة ثانوية . فقد بدأت بالحرب اليابانية الروسية ١٩٠٥ ، وهي التي نشبت منعا لتوغل روسيا في منشوريا ونحو الهادي حيث كانت قد توغلت في لياو تونج ، ذلك المجال الذي كانت تطمح اليابان فيه من قبل في أثناء حربها مع الصين . بمعنى آخر نشبت الحرب تطويقا لسياسة روسيا من الوصول إلى البحار في هذا الجانب ، وكانت بذلك صراعا مباشرا بين قوة بحر وقوة بر .

وفي هذه الحرب ، التي كانت أول مرة تهزم فيها قوة أوربية أمام قوة غير أوربية في



شكل (٢٠) توسع الإمبراطورية اليابانية

القرون الأربعة الأخيرة ، استولت اليابان على النصف الجنوبي من سخالين (كارافوتو) وبعض موانئ ومصالح في لياوتونج ، وفرضت على روسيا تحييد منشوريا . أيضا تمهيدا لضمها فيما بعد . وفي ١٩١٠ لم تلبث اليابان أن ضمت كوريا إلى إمبراطوريتها .

حتى إذا كانت الحرب الأولى ووقفت اليابان إلى جانب الحلفاء ، انتهزت فرصة سقوط روسيا وقيام الثورة الشيوعية فيها لتعود إلى تطويقها وعزلها عن البحر ، فشاركت بالقسط الأكبر في حملة سيبيريا حتى بيكال واحتلت شمال سخالين ، إلا أنها عادت فأجبرت على الانسحاب هنا وهناك . على أنها في الصلح نالت من ألمانيا كياتشاو ميناءها في لياوتونج ، وأوشكت أن ترث نفوذها في شانتونج لولا ضغط الحلفاء . ولكن كانت جزر المادى الألمانية هي الجائزة الحقيقية التي فازت بها اليابان - كانداب - في هذه الحرب : مجموعات ماريانا ، كارولين ، مارشال ، وهي قترامي شرقا بغرب على مدى ٢٥٠٠ ميل وعلى نصف ذلك شمالا بجنوب ، وتمثل استراتيجيا مواقع بحرية أمامية للقفز والسيطرة المحيطية .

وفي الفترة ما بين الحربين كانت بثرة الأطماع اليابانية مركزة على القارة ابتداء من منشوريا حتى شمال الصين . وقد حاولت التوغل بنفوذها فيها ، حتى إذا كانت « حادثة موكدن » غزت منشوريا وأقامت فيها حكومة منشوكو الصينية التابعة . وكانت منشوريا بذلك أكبر توسع برى لليابان حتى ذلك الوقت ، وقدمت بحالا للاستعمار الاقتصادي ولكن ليس للاستعمار السكنى الاستيطاني . ومن منشوريا بدأ الاحتكاك مع الصين وبدأت حرب ممطوطة متقطعة ستستمر حتى بداية الحرب الثانية .

هذه هي الحرب التي تمثل « الحرب الجالسة Sitzkrieg » خير تمثيل ، والتي كانت همزة الوصل بين المرحلتين التوسعتين الثانية والثالثة . وحتى بداية الحرب الثانية كانت اليابان قد استولت فيها على نحو الثلث الشمالى من الصين جميعا بما في ذلك الجزء الأكبر من ساحلها . ولعلنا نذكر أنه منذ القرن الماضى وسياسة الباب المفتوح ، والدول الغربية تقف في وجه أطماع اليابان الخاصة في الصين وتقف إلى جانب هذه منعا لتغلغل اليابان . ويمكن أن يشبه هذا الوضع بوقوف دول الغرب البحرية إلى جانب تركيا العثمانية في وجه أخطار التوسع الروسى من قبل . واستمرارا لنفس السياسة وقفت القوى الغربية مع الصين ضد الزحف اليابانى في الثلاثينات وساعدت حكومة الصين الحرة في الجنوب لتكون نواة المقاومة حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

المرحلة شبه الجزرية والمحيطية

مع هذه الحرب تبدأ المرحلة الثالثة والأخيرة في توسع اليابان ، وهي المرحلة شبه الجزرية والمحيطية . وفيها خرجت بلاد الشمس المشرقة في محاولة عظمتى لتجند لنفسها مكانا تحت الشمس . وقبل هذه الحرب كانت جيوبوليتيكية اليابان تدور حول طرد الاستعمار الأوربي من آسيا تحت شعار « آسيا للأسيويين » ، ولكن ذلك كان أساسا لكي ترثه هي فيها . فدعت لهذا إلى مبدأ « مونرو لليابان » لا يستبعد النفوذ الأجنبي في شرق آسيا إلا لتنفرد هي بها . وأصبحت تتطلع إلى شرق آسيا كمجال النفوذ والمجال الحيوى الطبيعى . وتبلورت هذه الجيوبوليتيكية في الصيغة المشهورة « نطاق شرق آسيا الأكبر للرخاء المشترك Greater East Asia Co-Prosperity Sphere » .

غير أن أبعاد هذا النطاق كانت غامضة مطاطة . يمكن أن تتمدد حتى تصل حدودها إلى الهند وأستراليا وكل جزر غرب الهادى . وأن تستوعب كل مادا دخلها . والمهم على وجه التحقيق أن اليابان كانت تتطلع إلى إمبراطورية مدارية مترامية تكمل اقتصادياتها شبه المعتدلة ، شأنها في ذلك شأن الاستعمار الأوربي المدارى . وقد أصبح هذا التوسع جزءا من سياسة أوسع هي سياسة تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ كبرى بالاشتراك مع المحور .

وقد دخلت هذه الاستراتيجية مجال التطبيق حين دخلت اليابان الحرب مع المحور ضد الحلفاء . وبحكم موقعها الجزرى كانت في وضع يسمح لها بأن تضرب في كل اتجاه . ولكن السهم المحورى انطلق جنوبا . فبدأت باكتساح شبه جزيرة الهند الصينية . بما فيها بورما والملايو . اكتساحا خاطفا يقدر في بعض وحداتها بالساعات (تايلاندا ٥ ساعات !). وبهذا أصبحت الهند مهددة مباشرة ، بينما تحولت حكومة الصين الجنوبية على ضخامة نطاقها إلى إسفين محصور في بحر السيطرة اليابانية .

كذلك لم تصمد هولندا في جزر الهند الشرقية إلا خمسة أيام بعدها انهار الاستعمار الصغير العتيق ! ثم قفزت اليابان إلى جزر الفلبين فالجزر المحيطية في البحار الجنوبية جميعا حتى مشارف أستراليا . وبذلك أصبح غرب الهادى برمته بحيرة يابانية في أقل من شهور . ومن الواضح أن الصراع بين اليابان والحلفاء في هذه الحرب كان صراع قوى بحر مطلقة . أى صراع أشباه بحرية أساسا .

وفى أوجهه في ١٩٤٢ . امتد التوسع اليابانى نحو ٥٠٠٠ ميل طولا وعرضا ، ابتداء

من جزر ألوشيان إلى جزر سولون ومن جزر ويلك إلى بورما ، وغطى نحو ٣,٢٥٠,٠٠٠ من الأميال المربعة تضم حوالى ٣٠٠ مليون نسمة . ولم يحدث قط أن توسعت قوة أخرى فى مثل هذه الرقعة ، فى مثل هذه السرعة ، فى مثل هذه السهولة ، كما يقول كريسى . فلقد كان الزمن مؤقتا فى صف اليابان ، وأضاف إليها التوسع عنصر الدفاع بالعمق على القارة وفى المحيط . أما اقتصاديا فقد منحها الإمبراطورية ثروة ضخمة من الموارد الاستراتيجية الحيوية ، وفى وقت ما كانت اليابان تقريبا أدنى إلى الكفاية الذاتية من الولايات المتحدة .

أسرع سقوط

ولكن بنفس السرعة التى قامت بها الإمبراطورية ، سقطت وانهارت . ولم تكن المقاومة من جانب الأهالى الوطنيين الذين ، باستثناء تايلاند التى أفقدها الغزو اليابانى استقلالها لأول مرة فى التاريخ ، كانوا جميعا يخضعون للاستعمار الأوروبى أو الأمريكى . بل إن الاستعمار اليابانى « منح » كل هذه الوحدات استقلالها ، ولعب بهذا إن عفوا أو عمدا دورا خطيرا فى حركة التحرير فيما بعد .

وإنما جاءت المقاومة من القوى الاستعمارية القديمة ، وفى عكس اتجاه التوسع ، أى من الجنوب والجنوب الشرقى محيطيا والجنوب الغربى قاريا . وفى هذه المرة لم يعد الوقت فى صف اليابان ، ولم تستطع أن تبيع المكان لتشتري الزمان . فبدأ التراجع باطراد شمالا إلى اليابان الأصلية حتى سقطت بدورها بعد أن عجلت القنبلة الذرية بالنهاية ، وبذلك انهارت الإمبراطورية فى بضعة سنين .

وإذا كانت الإمبراطورية اليابانية هى أسرع الإمبراطوريات قياما وسقوطا ، فإنها تمثل النقيض للإمبراطورية البريطانية التى ربما كانت أبطأها نشأة وانهارا . أو كما عبر البعض ، كان الاستعمار اليابانى مرضا حادا حيث كان الاستعمار البريطانى مرضا مزمنًا . واليوم وقد فقدت اليابان جميع مستعمراتها وفتوحاتها ولم يعد لها إلا جزرها الأربع الأم ، فإنها تعود إلى النقطة التى بدأت منها منذ نحو قرن تقريبا فى ١٨٧٠ !

لقد عادت سفينة « الداي نيون » على أعقابها بعد رحلة دموية عاصفة طولها قرن وعرضها قارة إلى مينائها الذى بدأت منه . وأسوأ منه ، عادت لتجد نفسها محتلة وتابعة لغريمها فى الهادى الولايات المتحدة ، وقد ضاع أملها إلى الأبد فى السيادة العالمية ، بل حتى فى الصدارة الآسيوية ذاتها مع ظهور الصين .

ولقد بدأنا فقلنا إن اليابان هي بريطانيا الشرق الأقصى جغرافيا ، ولكن يمكننا الآن أن نختتم بأنها لعبت في آسيا دور ألمانيا في أوروبا استراتيجية . فهي مثلها دخلت التصنيع وخرجت إلى العالم في السبعينات الماضية . وهي مثلها انخرقت في اتجاهات عسكرية فاشستية أو شبه فاشستية ولم تخل من أوهام العنصرية وتفوق الجنس . وكل منهما وضع لقارته « نظاما جديدا » أدواته اليونكرز هنا والساموراي هناك . وليس صدفة تحالفهما معا بعد ذلك . ولكنها أساسا توسعت مثلها توسعا كاسحا رهيبا ، وبقدر ما كان تألقها كان خبوها ، هذه كلك .

الفصل التاسع

امتداد صراع القوى ألمانيا

الأساس الطبيعي والتاريخي

لم تحقق ألمانيا وحدتها القومية إلا في مرحلة متأخرة للغاية هي السبعينات الماضية ، ولهذا كانت آخر القوى العظمى التي ظهرت على المسرح الأوربي والعالمي . ولقد تأخرت تلك الوحدة لأسباب تاريخية معقدة غذتها من خلف أسباب جغرافية لاتقل تعقيدا . فبحكم موقعها المتوسط في وسط أوروبا تلقت تأثيرات عديدة وأحيانا متعارضة ، أو على الأقل شكلت أجزاءها المختلفة بطوابع وتوجيهات مختلفة . وأكد اللاندسكييب الطبيعي ، الذي تقطعه الجبال والهضاب والغابات والمستنقعات إلى وحدات وأحواض وجيوب منفصلة لاتخلو من عزلة ، أكد تلك الطوابع المحلية المختلفة .

ولعل أبسط مظاهر هذه الفروق أن الشمال السهل ارتبط بالبروتستانتية ، بينما ظل الجنوب الهضبي كاثوليكيًا ، مما عمق الصراعات الدينية .. والسهل الشمالى نفسه كجزء من « الممر القارى الأوربي العظيم Durchgangsland » أصبح دهليزا تكتسحه الموجات البشرية من هجرات وغزوات جيئة وذهابا ، ذات اليمين وذات الشمال . ومرة أخرى لعل أبسط مظاهر هذه الحركة البندولية ذلك المد والجزر التاريخي بين السلاف في الشرق والتوتون في الغرب ، والذي وصل بالسلاف حتى منطقة برلين وبالتوتون حتى ضفاف الفولجا . وقد كانت النتيجة تداخلا شنيعا في التوزيعات الإثنولوجية ، ظهر في شكل أقليات عديدة في التخوم والأطراف تنتشر كالجزر في كل شرق أوروبا ، ووضع أساس الصراع التاريخي الرهيب بين عالم السلاف وعالم الجرمان ، وهو الصراع الذى سيلعب دورا خطيرا في استراتيجية ألمانيا بعد الوحدة الحديثة^(١) .

(١) فيرجيف ، ص ٢٠٠ - ٢٢٤ .

وكتيجة لهذا جميعا فقد ظلت ألمانيا بلا قلب وبلا حدود : بلا قلب ، لأنها لم تعرف عاصمة بؤرية غالبة . بل هاجرت فيها العواصم عبر التاريخ على طول الحدود عامة من الغرب إلى الشرق . وبلا حدود . لأن الانسياح والبيع البشرى جعل تخومها محتلطة السكان غير واضحة المعالم . ومثل هذا إنما هو نمط مضاد للوحدة . والواقع أن ألمانيا في هذا الصدد كانت في وضع أسوأ من إيطاليا التي وصفت بأنها لم تكن إلا تعبيرا جغرافيا . فإذا كانت إيطاليا بلا قلب سياسى واضح ، فقد كان لها على الأقل حدود جغرافية حاسمة . أما ألمانيا فلم تكن تعبيرا سياسيا ولا جغرافيا .

في هذا الاطار ورثت ألمانيا الإمبراطورية الرومانية المقدسة البصورية منذ أنشأها شارلمان حتى حطمتها نابليون . وقد قلنا بصورية لأنها لم تكن أكثر من تجمع متميع شكلى مفكك من مئات من الوحدات السياسية المنفصلة التي تتراوح بين وحدات ميكروسكوبية ووحدات اقليمية ضخمة : دول مدن قزمية ، مقاطعات اقطاعية ، أحلاف تجارية . أسقفيات كنسية ، ممالك أسرية .. الخ . وقد ثبتت الصراعات والوراثات الأسرية بوجه خاص هذا النمط الفسيفسالى الحفرى . وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان عدد الوحدات السياسية الألمانية يزيد على الثلاثة . وإذا كان هذا النسيج المهلهل قد اختزل في أوائل القرن التاسع عشر إلى نحو العشر (٣٩ وحدة) ، فقد ظل أبعد شيء عن الوحدة .

غير أنه حدث أن استطاعت بروسيا ، من نواة أولية في براندنبرج وبعد تاريخ خطر من العدد والانكماش . أن تتوسع منذ القرن السابع عشر حتى أصبحت أقوى وأضخم وحدة في ألمانيا ، وهذا رغم أنها تعد أصلا من أراضي التخوم الشرقية الفقيرة جغرافيا Marks والتي لم تدخل المحيط الألماني وملك الحضارة إلا متأخرة تاريخيا . فبدأت تجمع ألمانيا في اتحاد جمركى - الزولفرين الشهير Zollverein - يزيل الحوائط « الصينية » والحواجز الاقتصادية غير المعقولة التي تفتتها . وكان الزولفرين بهذا خطوة حقيقية نحو الوحدة السياسية . التي ستأتى ضد رغبة وفي وجه مقاومة ومناورات كل الدول الأوربية الكبرى القائمة (١)

(١) جوردون إيست ، ص ٢٦١ وما بعدها ، ٤٢٧ .

الوحدة الألمانية

فن البداية ، كانت طفرة بروسيا بسمارك نحو الزعامة تحديا للنمسا ذات التاريخ العريق ، فكان صدام الأقدار بينهما الذى انتهى بهزيمة النمسا . ومن ثم انفتح الطريق إلى الوحدة الألمانية ، التى بدأت باتحاد فيدرالى للشمال اتسع بعدها ليشمل الجنوب ولكن بغير النمسا . كذلك ظلت كتل ووحدات ألمانية كثيرة خارج دولة الوحدة ، لأنها تبلورت من قبل على تنظيم سياسى منفصل بحكم ظروفها الجغرافية أو التاريخية مثل أجزاء من سويسرا والأراضي المنخفضة . وسيكون لهذه « الأقليات » وغيرها خارج الرايخ دورها الخطير فى تحديد دور ألمانيا الاستراتيجية فيما بعد .

وقد اتفق نمو الوحدة الألمانية مع عدة تطورات تكنولوجية ساعدت على ميلادها من ناحية وعلى تدعيمها بعده من ناحية أخرى . أولها دخول السكك الحديدية التى جمعت ما قد فرقت الجغرافيا والتاريخ . والحقيقة أنه كان على وحدة ألمانيا أن تنتظر قدوم السكك الحديدية ، وهى لذلك وإلى حد بعيد نتج لها . وبفضلها ولدت ألمانيا من مقياس ضخم نسبيا ، فضلا عن أنها هى التى أعطتها قلبا جغرافيا وعقدية اصطناعية مكتسبة . أما العامل الثانى فهو الانقلاب الصناعى الذى وصلها وقد بلغ حدا كبيرا من التطور ، ولذلك ولدت ألمانيا من البداية وهى « دولة تكنولوجية » بكل معنى الكلمة - دولة الكولتور Kultur . وسيصبح هذا ملمحا أساسيا فى كيانها ومن أخطر مواطن القوة فى تركيبها (١) .

والمحصلة العامة أن ألمانيا ولدت عملاقا يتمتع بقاعدة أرضية ضخمة ، لانقل كثيرا عن فرنسا وتكاد تعادل ضعف بريطانيا ، بينما تزيد عن أكثرهما سكانا . قاعدة تجمع بين الانتاج الزراعى الكثيف والانتاج الصناعى الثقيل الذى يعتمد على ثروة معدنية متنوعة ضخمة على أى مقياس ، وتكاد تكون أقرب بالقوة وإذا لزم الأمر إلى الكفاية الذاتية Autarky من فرنسا وأقرب بالتأكيد من بريطانيا . قاعدة تحتل موقعا يتوسط قلب القارة ويتأخم عددا كبيرا من دولها ، وفى نفس الوقت يملك جبهة ساحلية كافية على البحر . ومعنى ذلك أنها بموقعها وطبيعتها دولة أمفيبية تجمع بين قوة البر وقوة البحر ، وبمواردها ومقوماتها يمكن أن تتطلع إلى الصدارة فى القارة .

(١) فتزجرالد ، ص ٩٥ - ١٠٩ .

الصراع القارى

لم يكن مفر لهذا من أن تصطدم الدولة الجديدة بالقوى الكبرى القائمة . فند اللحظة الأولى كان عليها أن تواجه فرنسا المتاخمة ، إلا أن هذه كانت بريطانيا قد حطمت قوتها من قبل فى صراعها من أجل السيادة العالمية ، وما ظهرت ألمانيا كقوة إلا انتهازا لهذه الفرصة التى لولاها لما سمحت فرنسا لها بذلك بالتأكيد . ولهذا لم يكن من الصعب على ألمانيا أن تجهز نهائيا على فرنسا فى الحرب السبعينية لتزيجها من صراع القمة .

وكما كان على فرنسا فى أثناء صراعها مع بريطانيا أن تواجه أيضا قوة برية على القارة فى الشرق هى النمسا ، فكذلك كان على ألمانيا أن تواجه أيضا قوة برية أضخم بكثير هى روسيا . ورغم أن روسيا كانت مركز الثقل السياسى فى شرق أوروبا حينئذ ، وأضخم دول القارة مساحة وسكانا ، وتمثل زعيمة السلاف ، فقد كانت متخلفة حضاريا وماديا ، وتشكل بذلك تحديا أقل من التحدى الفرنسى . ولهذا لم يلبث مركز الثقل فى شرق القارة أن انتقل من روسيا إلى ألمانيا ، من سان بطرسبرج إلى برلين . بل إن من المثير أن ألمانيا بديناميتها وحضارتها واندفاعتها الشابّة استطاعت أن تتغلغل بنفوذها فى روسيا القيصرية دولة وشعبا . ولعل فى الشكل الألمانى لاسم العاصمة الروسية وحده - سان بطرسبورج - رمزا بليغا لهذا النفوذ^(١) .

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن افتتاح الزحف الألمانى من أجل القوة العالمية بالصدام مع أكبر دولتين على القارة بالذات ، وهما فرنسا وروسيا اللتان تحصران ألمانيا من شمال ويمين ، إنما يرجع إلى حق مؤكد أن ، مجال حركة ألمانيا كان مرتبطا دائما وأساسا بصلب القارة أكثر منه بما وراء البحار . ومما له مغزاه فى هذا الصدد أنه أصبح من سياسة ألمانيا التقليدية أن تشجع هاتين الدولتين على المغامرات الاستعمارية خارج القارة لتبعد أنظارهما ولتبعدهما عن القارة نفسها بقدر الامكان لتخلوها هذه ، مجالها الطبيعى الوحيد . فعلى سبيل المثال ، كانت هى سياسة بسمارك الواعية العامدة التى وجهت فرنسا إلى تونس بعد حربها السبعينية ، وكانت هى ألمانيا التى حثت روسيا وشجعته على حربها اليابانية فى بداية هذا القرن .

هذا على القارة . غير أنه كان على ألمانيا من الناحية الأخرى أن تواجه بريطانيا مباشرة ليبدأ صراع جبابرة يكرر نفس القصة التي رأيناها مرارا من قبل في غرب أوروبا منذ البرتغال حتى بريطانيا : قوة أكثر بحرية (بريطانيا) تحطم قوة أكثر قارية (فرنسا) : فترتها قوة أكثر وأكثر قارية (ألمانيا) . ليبدأ الصراع بين الأولى والأخيرة ... وهكذا سنجد أن الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين هو عصر الصراع بين بريطانيا وألمانيا .

وكما كان كل صراع من الصراعات السابقة ينقلنا باستمرار إلى أبعاد ومستويات أضخم وأخطر . فسنجدنا الآن على أبواب صراع عالمي يلخصه ببلاغة تسميتنا للحرب الكبرى الأولى والثانية بالحرب العالمية . فقد كان هذا أول صراع للقوى العالمية في ظل العصر الصناعي بكل فنونه التكنولوجية والعسكرية : وأول صراع بين قوى رأسمالية مكتملة وسافرة .

وقد خرجت ألمانيا من وحدتها لتجد نفسها حبيسة بحر الشمال الذي تغلقه بريطانيا تماما بموقعها وبقوتها البحرية ، وسجينة وسط أوروبا بما يطوقها من دول من كل ناحية . إنها - في معنى - كالروسيا : رهين المحسبين . فأخذت لذلك تنمى - تحت عسكرية البونكرز - قوة برية ضخمة ، جنبا إلى جنب مع أسطول بحرى خطر . كانت الغواصة فيه بالذات رمزا لمحاولة الافلات من انغلاقها البحرى ، ونكاد نقول نتيجة جغرافية لموقعها ويبتها . ولو أن ألمانيا ولدت وقد ضمت المناطق الجرمانية الساحلية في الأراضى المنخفضة في دلتا الراين سواء في هولندا أو بلجيكا ، لجاء خطرها البحرى ودورها الاستراتيجى مختلفا جدا بالتأكيد .

ولهذا فقد كانت بريطانيا - مقتبسة نابليون - تعد هذه الأراضى المنخفضة - شكلا وموضوعا - بمثابة مسدس موجه إليها . بل لقد ذهبت أحيانا إلى حد اعتبار الراين « حدودها » الاستراتيجية^(١) ! وكان رد فعلها المباشر هو التحالف الدائم مع هولندا وبلجيكا وضمان حيادهما دوليا ووحدة أراضيهما الإقليمية في وجه هذا الخطر . والواقع أن موقع هاتين الدولتين - الصغيرتين - داخل مثلث القوى الكبرى بريطانيا وفرنسا وألمانيا هو الذى حيدهما ووضعها في نقطة الخمود السياسى والعسكرى فى أوروبا .

Reader Bullard, Britain & the Middle East, p. 169.

(١)

ومع ذلك فقد استطاعت ألمانيا أن تخرج إلى المحيط بأسطول حربي وتجارى انتشر حول العالم بحثا عن أسواق التجارة وعن ميادين الاستعمار . غير أنها ما لبثت أن وجدت .
الأسواق - كل الأسواق - احتكارات بريطانية باسم حرية التجارة والأفضليات الإمبراطورية . ومن ثم رفعت سلاح التعريف الجمركية ومبدأ الحماية لتبدأ الحرب الاقتصادية .

وبالمثل وجدت ميدان الاستعمار وقد أغلق أو كاد ولم يبق على مائدته إلا الفتات .
وبالكاد ، وبصراع استعماري حاد ، استطاعت أن تنتزع بعض المستعمرات في أفريقيا وبعض جزر الهادى : فنالت في « التكالب » مستعمرات أربعاً ، وفي الهادى حصلت على أرخبيلها الجزرى بالحرب والشراء ، وتمكنت من أن تجد لنفسها موطن قدم على ساحل منشوريا في كياتشاو . وتلك في مجموعها إمبراطورية استعمارية من درجة متواضعة للغاية .

من هنا بحثت ألمانيا عن التعويض في التوسع البرى على القارة ، وذلك بالتوغل الاقتصادي والنفوذ السياسى في دول شرق أوروبا المتخلفة المفككة والتي تتناثر في تضاعيفها غالباً أقليات ألمانية هامة ، ولكن هدفها الأساسى كان إمبراطورية النمسا - المجر وأكثر منها الإمبراطورية العثمانية العجوز . ورسمت بذلك محورا يندفع من قلب القارة ليصل إلى الشرق الأوسط . ذلك كان مشروع الاتجاه نحو الشرق الشهير Drang nach Osten ، الذى اتخذ بخاصة من مشاريع السكك الحديدية عموداً فقرياً يركز إليه . ولعل مشروع خط برلين - بغداد (أو همبورج - الكويت) هو أهم تلك المشاريع .

وفي رأى البعض أن الهدف الأخير للاتجاه نحو الشرق هو أن تصل ألمانيا بين نفوذها في الشرق الأوسط وبين وجودها في الشرق الأقصى حتى كياتشاو . ولكن كان معنى المشروع أن تعود مرة أخرى فتصطدم ببريطانيا - ومعها فرنسا - التي كان لها النفوذ الأكبر في العثمانية . أخطر من ذلك ، كان معناه أن تصل ألمانيا إلى الخليج العربى لتضرب بريطانيا في العراق على طريق الهند مثلاً حاولت فرنسا من قبل في مصر . ولقد تعاظم النفوذ الألمانى الاقتصادى والسياسى بالفعل في الدولة العثمانية وانتزعت من الامتيازات والمصالح ماعمق أبعاد الصراع بين القوتين الأوربيتين بل وحتم الصدام بينهما .

الحرب الأولى

وإذا نحن نظرنا إلى الصراع الاستعماري بينها عبر البحار جنباً إلى جنب مع الصراع الاقتصادي في الشرق . فيمكن - مع ماكيندر - أن نلخص الموقف جميعاً في أن « البريطانيين والألمان أخذوا مقاعد في قطارات سريعة على نفس الخط . ولكن في اتجاهين مضادين . ولعله لم يكن مفر من التصادم منذ حوالى ١٩٠٨ . وقد يمكن أن نحدد الفارق بين المسئولية البريطانية والألمانية كالآتي : السائق البريطاني بدأ أولاً . وسار بلا اكتراث . مهملاً الاشارات : بينما أن السائق الألماني قوى عن عمد قطاره وحصنه حتى يتحمل الصدمة . ثم وضعه على الخط الخطأ . وفي آخر لحظة فتح صمامات بخاره»^(١) . لقد أصل بسمارك سياسة الدم والحديد داخل حدود ألمانيا من أجل الوحدة . ولكن القيصر بعده نقلها إلى خارج الحدود من أجل التوسع .

وفي هذا الصدام الرهيب لعبت حقيقة جغرافية معينة دوراً استراتيجياً حاسماً وفاصلاً . إن ألمانيا . التي يقع جزء منها في شرق أوروبا وجزء في غربها . والتي تضع قدماً على البر وقدماً على البحر . هي أساساً منطقة بينية تنحصر بين قوى البر الكبرى في شرق القارة وقوى البحر الكبرى في غربها . إنها اليوم « المساح » الأكبر بين فيل الشرق وحيثان الغرب ! ومن هذه الحقيقة نبعت كل المواقف والتجمعات والتشكيلات السياسية والاستراتيجية في الحرب العظمى الأولى .

فإذا ما قبل الحرب الأولى كانت فرنسا قد تحالفت مع روسيا . وفي الحرب نفسها لم تجد بريطانيا صعوبة في حشد كل دول غرب أوروبا البحرية ابتداء من إيطاليا حتى هولندا ضد ألمانيا ، ثم في استكمال الكماشة من الشرق بجذب روسيا إلى المعركة . وتفسير ذلك أن دول غرب أوروبا البحرية قد شعرت بسرعة بوحدة مصالحها الكامنة . حتى - على سبيل المثال - لقد أدركت بريطانيا بالندم والأسف خطأها حين تركت فرنسا بلا مساعدة ضد ألمانيا في الحرب السبعينية . وبالمثل أدركت روسيا والغرب وحدة مصالحها المباشرة أو المؤقتة ضد القوة البينية : فما قامت الحرب مباشرة إلا لثورة السلاف على قهر الجرمان في إمبراطورية النمسا - المجر .

أما في الجانب الآخر ، فقد كانت استراتيجية ألمانيا هي - كما لو بالغريزة - تجميع قوى المنطقة البينية في شرق أوروبا ووسطها : النمسا - المجر ، بعض دول البلقان ، ثم الدولة العثمانية . وكلمة « دول الوسط Central Powers » التي أطلقت عليها هي تعبير جغرافي واستراتيجي دقيق بالفعل في هذا الصدد . ومن ثم يبدو النمط الجغرافي للصراع واضحا كل الوضوح وبسيطا إلى حد مثير : لقد اجتمعت قوى البر الضخمة في الشرق مع قوى البحر السائدة في الغرب لتتصر ، بين شقي رحي ، المنطقة البينية المحصورة بينهما .

بهذا حاربت ألمانيا في جبهتين ، وحققت في البداية انتصارات داوية فيها ، إلى أن انهارت القوة الشرقية الروسية وخرجت من المعركة وقد خسرت في برست ليتوفسك كل مكاسبها الإقليمية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وهي دويلات البلطيق وفنلندا وشرق بولندا . فأصبح الصراع حينئذ بين القوى البينية والقوى البحرية ، حيث سادت لفترة طويلة حرب الخنادق أي الحرب الجالسة . ولكن دخول الولايات المتحدة بثقلها في صف القوى البحرية قلب كل توازن وجعل النتيجة حتمية أو هو عجل بها . والواقع أن دخول الولايات المتحدة البحرية هو وحده الذي حدد مصير الصراع .

ومع الهزيمة فقدت ألمانيا كل مستعمراتها عبر البحار ، وقلمت رقعتها على القارة بلا هوادة . فانخفض سكانها في فرساي من نحو ٦٨ إلى ٦٠ مليونا ، ومساحتها من ٢٠٨ آلاف ميل مربع إلى ١٨١ ألفا . أما إمبراطورية النمسا - المجر فصفت إلى كوكبة كالموزايكو من دول مستقلة ملأت وجه شرق القارة كصف أوسط من القوى الصغرى يفصل بين روسيا وألمانيا . هذا بينما تضاءلت تركيا إلى قوقعة الأناضول ، وورث الحلفاء الإمبراطورية العثمانية في الشرق الأوسط والعالم العربي كاستعمار بالانتداب . وبهذا ختم نهائيا على مصير دولة الرجل المريض التي عاشت أطول مما ينبغي ومما كان يمكن لها وحدها لولا مضاربات القوى العظمى .

ولكن برغم كل قيود فرساي (أم بسببها ؟) ، قفزت ألمانيا مرة أخرى في غضون ربع قرن من الهدنة المسلحة في محاولة أعنى وأشد هولا من أجل السيادة العالمية لأقل . وكان هذا الهدف أشد تحديدا وقطعا منه في المحاولة الأولى بحكم طغيان الإيديولوجية العنصرية الآرية على النازية الحاكمة . ولاشك أن النازية كنظام فاشستي كانت - جزئيا - نتجا للتقليم وذلك الحرمان من المستعمرات الذي نال ألمانيا . فبعكس الحال

في الحرب الأولى ، دخلت ألمانيا الحرب الثانية بلا مستعمرات البتة . وبينما كان في وسع الدول الغربية أن تتباهى « بديمقراطيتها » في الداخل ، وهى التى بنتها على أساس ديكتاتوريتها في المستعمرات ، لم يكن أمام ألمانيا سوى الديكتاتورية العسكرية السافرة .

مهما يكن ، فلقد مرت مطالب ألمانيا في عدة مراحل . فأولا طالبت بوحدة كل الألمان - الألمانية Deutschtum - في دولة الرايخ ، وذلك بضم العناصر والأقليات الألمانية خارج ألمانيا ، وهم مايسمون بالألمان خارج الوو Auslandsdeutsche ، وعددهم كان يناهز العشرة ملايين . وقد نجح هتلر بالفعل في أن يضم أغلب هذه الأقليات قبيل الحرب ، فوصل بعدد سكان ألمانيا إلى ٨٨ مليوناً وبمساحتها إلى ٢٥٩ ألف ميل مربع .

وكانت المرحلة الثانية هى المطالبة « بمجال حيوى Lebensraum » للألمان^(١) ، على زعم أنهم « شعب بلا مجال Volk ohne Raum » . وكان هذا المجال فكرة مطاطة لاتحددها في الواقع ، وبلغت النازية ، إلا « إرادة القوة Will zur Macht » ، فتسع أحيانا من وسط أوروبا حيث طالبوا « بمبدأ مونرو ألماني » إلى وسط أوروبا وشرقها حتى أوكرانيا والقوقاز والبلقان ! ومن أجل هذا ظهر مشروع جديد « للاتجاه نحو الشرق » ، ولكن هدفه هذه المرة كييف لا بغداد .

الحرب الثانية

ولقد قامت الحرب في النهاية منعا لألمانيا من اطراد التوسع والانطلاق نحو السيادة العالمية ، وتحول الصراع الاستعماري إلى لون من الصِّراع السياسى ... وكانت تجمعات القوى فيها تختلف في بعض جزئياتها عنها في الحرب الكبرى الأولى ، ولكنها لا تخرج أساسا عن جوهر الصراع فيها . والتغيير الهامئكلا من إيطاليا واليابان ، بأنظمتها الفاشستية العسكرية ، وقفت مع ألمانيا رغم أنها قوى بحر . وكان هدف المحور السيطرة على العالم على أساس تقسيمه إلى مناطق نفوذ عظمى - سياسة Grossraumwirtschaft . ولكن الحقيقة أن المعركة الأوربية كانت معركة ألمانيا ، لأن اليابان كانت تعمل في مجال جغرافى منفصل تماما . أما إيطاليا فلم تكن أكثر من ذنب لألمانيا ، ودخلت الحرب

S.V. Valkenburg. Rise & Decline of German Lebensraum, in New Compass of the World. (١)
op. cit., p. 209-14.

متأخرة في انتهازية واضحة . وخرجت منها بالانهيار الداخلي كما حدث للروسيا القيصرية في الحرب الأولى . ورغم كل ادعاءاتها الجوفاء ومظاهرات القوة . لم تكن إيطاليا الفاشستية قوة عظمى إطلاقاً . ولم يكن حلم « حبيسة البحر المتوسط » بإعادة الإمبراطورية الرومانية و « بحرنا » إلا محاولة لوضع عقارب الساعة إلى الوراء وضد الجغرافيا تتجاهل أن إيطاليا في العالم الروماني المحلى المحدود شئاً يختلف تماماً عن إيطاليا في عالم القرن العشرين بأبعاده الكوكبية (١) . وقد جاءت الحرب لتثبت خواءها وتفاهتها بصورة ساخرة .

هذا عن جانب المحور . أما على الجانب الآخر فقد اجتمعت كل الدول البحرية في غرب أوروبا ابتداء من النرويج حتى فرنسا ، إلى أن انضمت إليهم الولايات المتحدة كالعادة ، ومتأخرة كالعادة أيضاً . ثم إلى أن انضمت إلى الجميع قوة الاتحاد السوفيتي في الشرق . وهكذا عدنا إلى النمط التقليدي لاستراتيجية الحرب الأولى ، وهي اجتماع قوى البحر والبر في أوروبا في مواجهة القوة البينية الأمفية . أو الحوت والفيل في مواجهة التمساح .

وإذا كان ثمة فارق ، فهو أن هناك بعضاً من تداخل بين تلك القوى يعقد الصورة نوعاً . فقد اجتمعت إيطاليا البحرية مع ألمانيا البينية ، بينما في الشرق أصبحت اليابان البحرية تتصارع مع الولايات المتحدة البحرية . وفيما عدا هذا إذن يمكن أن نقول إن الحرب الثانية استمرار أو تكرار للحرب الأولى من الناحية الجيوستراتيجية بوجه عام .



شكل (٢١) زحف المحور في أوجه في الحرب الثانية . كانت خطة « النظام الجديد » أن تتصل الجبهة الأوربية بالآسيوية في النهاية ١ .

وإذا كانت الحرب الأولى تتميز بالحرب الجالسة . فإن هذه الحرب ^(١) امتازت بالحرب الخاطفة الكاسحة Blitzkrieg واستراتيجية الرعب . فكانت الدول الصغرى تسقط في أيام ، والكبرى في شهور ، والكل في أقل من سنتين ! ففي هذا المدى كانت كل أوروبا ابتداء من النرويج حتى اليونان ، ومن فرنسا حتى قلب الاتحاد السوفيتي الأوربي ، قد سقطت لألمانيا إما بالغزو أو بالضم أو بالانقلاب . وفي هذا التوسع الكاسح أوشكت حدود ألمانيا من الناحية العملية أن تكون هي جيوشها .

وسيلاحظ أن حركة الغزو ترسم دائرة عكس عقارب الساعة . فبدأت بالمسا ثم تقدمت إلى تشيكوسلوفاكيا إلى بولندا إلى النرويج إلى هولندا وبلجيكا إلى فرنسا إلى البلقان . وواضح كذلك أن هذا التوسع الصاعق يتخطى بكثير إمبراطورية نابليون امتدادا وسرعة ولم تعرف أوروبا له من قبل مثيلا . ولعل هذا هو الفارق العسكري والاستراتيجي بين آخر حرب في عصر ما قبل الصناعة وآخر حرب في عصر الصناعة . كذلك فإن الحرب العالمية الثانية أقرب في بعض النواحي إلى الحروب النابليونية منها إلى الحرب العالمية الأولى .

كيف إذن انهارت « قلعة أوروبا » الألمانية هذه وقد سيطرت على كل موارد القارة ؟ لا ، بل السؤال أولا : كيف استطاعت ألمانيا ومحورها أن يقفوا في صف ، وبقيّة العالم بأسره تقريبا في الصف الآخر ؟ لاشك أن ذلك في ذاته مقياس لقوة ألمانيا الذاتية الكامنة في الموارد والطاقة البشرية والاستراتيجية التي لاسبيل إلى التقليل منها . ولكن من المحقق أن سيطرتها على كل موارد القارة بعد ذلك هي وحدها التي مكنتها من أن تواجه العالم .

على أن النهاية جاءت لعدة أسباب . فرغم سيطرتها الجوية الحاسمة ، فقد عجزت ألمانيا كقوة أمفيبية عن أن تعبر البحر إلى جزيرة بريطانيا ، مثلما عجز نابليون من قبل رغم سيطرته على القارة برمتها تقريبا . ومن خلف بريطانيا كانت موارد وقوى الكومنولث والإمبراطورية . ولكن أهم من ذلك ، ييقن ودون جدال ، دور الاتحاد السوفيتي البري والولايات المتحدة البحرية . فلقد كانت معركة الاتحاد - كحملة نابليون - هي بداية النهاية : استنفدت طاقة ألمانيا وامتصت قواها بأبعادها القارية الضخمة ، إلى أن تحول الجزر الدفاعي إلى مد هجومي اكتسح قلب ألمانيا . ويكفي لكي ندرك دور الاتحاد في

(١) الجيوبوليتيكا ، ج ١ ، ص ١٢١ - ١٩٩ .

مصير الصراع ارفد تسعة من كل عشرة ألمانين قتلوا في الحرب الثانية جميعا قتلوا على أرضه .

وقد غطى التوغل الألماني في الاتحاد في أقصاه نحو ٧٠٠ ألف ميل مربع ، وصلت إلى خط يمتد من لسنجراد إلى موسكو إلى ستالينجراد (فولجوجراد حاليا) إلى القوقاز . أى من البلطيق حتى البحر الأسود ، أو على جبهة لا تقل عن ٢٠٠٠ ميل طولاً ، ولعلها كانت أوسع جبهة حرية في التاريخ . ولكن هذا بالذات يحدد استراتيجية الاتحاد . فعدا « الشتاء والوحل » - أصدقاؤه التقليديون - كانت استراتيجية الاتحاد هي الدفاع بالعمق وشراء الزمان بالمكان . فكان ينسحب بعدوه في « أرض محروقة » ريثما ينقل صناعاته وموارده عبر الأورال في قلب آسيا ، وحتى يستنفد قوى العدو ويطلق خطوط مواصلاته وتموينه .

أما الولايات المتحدة فقد نشرت قواتها المحاربة في كل أركان الكرة الأرضية وصبت مواردها وقواها في آخر معاقل القوى البحرية في أوروبا بريطانيا وأنقذتها من السقوط ، فكانت رأس الحربة أو الجسر الذي بدأ منه أو قريبا منه غزو القلعة . فأطبقت قوى الغرب البحرية على القارة من فرنسا غربا وشمال أفريقيا جنوبا ، إلى أن التقى فكا الكاشاة السوفييتي والغربي في برلين .

وبهذا أثبتت الحرب أن موقع ألمانيا في وسط القارة سلاح ذو حدين . فهي بحكم هذا الموقع تشارك مع عديد من الدول في الحدود ، وبالتالي تستطيع من موضع القوة أن تضرب في كل اتجاه ، وهكذا بالتقريب كان . ولكنها لنفس السبب يمكن - في موضع الضعف - أن تضرب من كل اتجاه ، وهكذا أيضا بالفعل كان .

النهاية : ألمانيتان

هكذا فشلت المحاولة الثانية العظمى والأخيرة لألمانيا من أجل انتزاع السيادة العالمية من بريطانيا . بل خرجت منها وهي محتلة مقلمة الحدود مبتورة الأطراف ، برقعة أقل مما خرجت بها من فرساي ، وأسوأ منها مقسمة ممزقة بين ألمانيا شرقية وغربية . لكنها - تلك المحاولة - كانت في نفس الوقت نهاية السيادة العالمية البريطانية ، فقد امتصت الحربان العالميتان حيوية بريطانيا ومواردها حتى النخاع . لقد حطم كل من بريطانيا وألمانيا الآخر ، فاهتبلت القوى الجديدة الصناعة الفرصة لتقوم على أشلائهما . وإذا بالصراع

من أجل السيطرة العالمية ينتقل إلى القوى الضخمة هذه - القوى الماموث - الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

وبهذا أيضا أو أصلا مضى إلى الابد عصر القوى الكبيرة التي تدور أحجامها حول الخمسين والسبعين بل حتى التسعين مليونا من السكان ، وانتهت تماما كل فرصها في التطلع إلى الصدارة أو السيادة العالمية . وقصارى تطلعاتها اليوم لا يمكن أن تتعدى دول المرتبة الثانية أو الثالثة . ولأن هي كانت لاتزال تستطيع أن تشعل حربا عالمية : فإنها لم تعد بقادرة على أن تطفئها . ذلك يصدق على ألمانيا كما يصدق على كل من بريطانيا واليابان سواء بسواء .

وهنا لن يتعذر علينا أن نرى أن انتقال مراكز الثقل إلى القوى الجديدة ليس إلا استمرارا أميناً لمنطق وحركة وميكانيزم الصراع الذي عرفته قوى غرب أوروبا طوال العصور الحديثة . فهذا الصراع الذي بدأ بالبرتغال وإسبانيا في القرن الخامس عشر ، ثم انتقل بالتدرج شمالا وفي انفراج مطرد حتى انتهى إلى بريطانيا وألمانيا في القرن العشرين ، قد تم الآن مساره فزحف شمالا وازداد انفراجا حتى استقر في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

وإذا أخذنا في الاعتبار أن الولايات المتحدة كانت بسلاحها الذرى أقوى حربيا من الاتحاد السوفيتي في السنوات التي تلت الحرب مباشرة وحتى منتصف القرن ، فيمكن أن نرى أن القوة البحرية كانت الأسبق زمنيا إلى وراثة الصدارة العالمية ، ولو أن المنافس البرى لحق بها بسرعة غير عادية . وبهذا يكون نفس الترتيب التقليدى في حركة مراكز الصراع عبر التاريخ الحديث قد تكرر في المرحلة المعاصرة .

والمهم في هذه الانتقالة الأخيرة أن مركز الصراع غادر غرب أوروبا نهائيا ولم يعد صراعا بين قوى بحر صرفة ، بل بعد أن أصبح صراعا بين قوى بحرية وقوة أمفيبية لفترة ما في القرن العشرين ، انتهى إلى أن يكون صراعا بين قوى برية وبحرية مطلقة . وبهذا التدرج الوئيد استكملت خطوط الصراعات التاريخية نسيجها لتصل في النهاية إلى قمة التناقض الجغرافى والاستراتيجى - والإيدبولوجى كذلك .

فلأول مرة في التاريخ الحديث لا يخرج صراع القوة عن نطاق غرب أوروبا فحسب ، وإتما - وقد يكون هذا أشد خطرا وأعمق مغزى - يخرج عن دائرة الصراع بين قوى رأسمالية على الجانبين ليتحول إلى صراع بين قوى رأسمالية في جانب وقوى

اشتراكية أو شيوعية في جانب آخر. لقد أصبح صراع الأضداد كاملا في كل معنى ومنحى. وهو ما ينقلنا إلى دراسة هذه القوى الماموث المتنافرة والمتناحرة.

القوى الماموث الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي أوجه التشابه

ويسمى البعض تهكما بالقوى الدينوصورية ! ورغم تلك التناقضات الجذرية في الموقع والاستراتيجية والإيديولوجية ، فإن بين الولايات والاتحاد مشابهاة عديدة . فكلاهما دولة حديثة النشأة وقوة عظمى أشد حداثة . فقد نما كل منهما بصورة غير ملحوظة بل تكاد تكون في غفلة من العالم . ثم ظهر فجأة في مواضع الصدارة . وعرف العالم بوجودهما وعظمتها في وقت واحد تقريبا .

وإذا كان مفكر مثل دى توكفيل^(١) قد استطاع فيما يشبه نبوءة عراف ثاقبة أن يتكهن في القرن الماضي بارتقاءهما معا إلى الصدارة العالمية ، فإن هذا الارتقاء جدير بأن يستثير الدهشة مع ذلك . فلقد كانت الولايات مخلوقا سياسيا - بل بشريا - صغير السن للغاية ، وظل حتى نهايات القرن التاسع عشر قوة زراعية ، أما الاتحاد فمخلوق أغرب .

الروسيا وثورة البيثة

ففي أغلب تاريخها الحديث كانت روسيا تعيش عصورها الوسطى إلى حد بعيد ، وكانت في عزلة راکدة كاملة عن كل تخمرات أوربا التاريخية من نهضة إلى إصلاح . بل كان أثر حملة نابليون عليها حضاريا بمثابة احتكاك الصليبيات مع العرب على أوربا . وحتى عشية الثورة الشيوعية ، كانت روسيا لم تزال تعيش في رق وإقطاع وبيروقراطية كلها على مستوى بدائي أسوأ أكثر منه أوربا ، حتى شبت بعملاق متهدل متهالك ينزوى في استحياء على الطرف القصي من المائدة الأوربية ، وإنما بحكم ضخامتها وحدها كانت أوسع من أن يهزمها الأوروبيون ولكنها أعجز وأكثر تخلفا من أن يأخذوها بمجدية .

Alexis de Tocqueville, Democracy in America, 1835.

(١)

فكيف حدثت هذه التحولات المريدة ؟ فأما الولايات فقد ورثت حضارة وتكنولوجيا أوروبا الأم بخير ما فيها دون شر ما فيها . ثم إنها وجدت في قارتها البكر الهائلة بيئات طبيعية ومناخية تذكر ، عموما ، ببيئات أوروبا إن لم تكررهما أحيانا ، وهى على أية حال من أصلح البيئات للنشاط البشرى الكامل . أما الاتحاد فإذا كان قد ورث بيئة حضارية واجتماعية في أقصى درجات التخلف ، فإن بيئته الطبيعية ببرودتها المتجمدة القارسة البالغة القسوة لا يمكن إلا أن تكون طاردة وواثدة للنشاط البشرى ، أو على الأقل فلم يكن من المتصور قط - بقوانين الحتم الجغرافى ، أوحى برغمها - أن تقدم في يوم قاعدة لإحدى أضخم قوتين عالميتين في التاريخ .

والحقيقة أن الذى يستثير الدهشة في طفرة الاتحاد ليس فقط تأثير النظام الاجتماعى بالثورة الشيوعية ، وإنما كذلك ثورة البيئة - البيئة الطبيعية بالتحديد - التى أحدثتها تلك الثورة الإيديولوجية . فالجغرافى لا يملك إلا أن يرى أن الثورة الشيوعية تحولت أساسا وفي التحليل والترجمة الأخيرين إلى ثورة بيئات خلقت بيئة جديدة - وبالذات مناخا جديدا - ألغت كل معوقات البيئة الطبيعية الغفل . ونحن نشير هنا إلى الكهرباء بالدقة ، فليس مما لا مغزى له أن كل الثورة الانتاجية والصناعية والحضارية والاقتصادية الهائلة التى خلقها الاتحاد وخلقته إنما يكمن مفتاحها في كهربية الاتحاد . وهل من الصدفة البحتة أن تكون هذه قيمة الكهرباء في بيئة مناخية متجمدة بالذات ؟ لقد غيرت بالفعل المناخ الذى تجرى فيه الحياة اليومية للمواطن ، وهى بما أضافته من طاقة اصطناعية بديلا عن طاقة الشمس كانت بمثابة تغيير بالقوة في خطوط عرض الاقليم ذاته كما قد نقول . وما نظن في هذا كثيرا من المبالغة ، ولا نعى به بالتأكيد أن نقلال من وزن الإيديولوجيا لحساب التكنولوجيا ، ولكن حسبنا أنه هو لينين نفسه الذى قال منذ البداية إن « الشيوعية هى كهربية الاتحاد » .

والواقع أن تأخر وصول الاتحاد إلى الصدارة العالمية حتى آخر مرحلة من التاريخ الحديث ، في حين أن روسيا دولة قديمة نسييا من الناحية البشرية ، إنما يعنى أنها كان لابد أن تنتظر وصول التكنولوجيا ووسائل قهر المناخ البارد إلى ذروتها القصوى . والأمر كله يؤكد ما رأيناه من قبل من تحرك مركز ثقل الحضارة والقوة عبر التاريخ من البلاد الدافئة إلى الباردة باطراد متصل بدرجة أو بأخرى .

تلك بعض من جوانب التشابه في بداية وصعود كل من الاتحاد والولايات كقوى

عظمى . وعندا هذا ، وبعد هذا ، فهما وحدهما اللذان يشتركان في ثلاث خصائص هي الأساس الشرطى لمقومات القوة في العصر الحديث : المساحة الضخمة المتصلة ، حجم السكان الكبير ، الموارد الطبيعية الهائلة (١) .

المساحة والموارد

فأما المساحة الضخمة ، فكلاهما أشباه قارات جبارة على أى تقدير . الاتحاد خرج من الثورة وهو أكبر دولة داخلية عرفها التاريخ على الأرجح ، وانتهى وهو يحتل سدس مساحة اليابس ويربو على ضعف مساحة أى دولة أخرى أو على أى دولتين أخريين في العالم . والولايات وإن كانت أقل كثيرا من نصف الاتحاد مساحة ، فإنها تظل الخامسة بين العالم في هذا الصدد .

أما سكانا ، فكلاهما يتجاوز الآن علامة المائتي مليون أو بالأحرى علامة ربع البليون - الاتحاد يتعداها بوضوح (٢٦٥) والولايات تقع اليوم عليها بالتقريب (٢٣٠) . ثم إن لكل منهما نواة عمرانية وحضارية واضحة تعد مركز الثقل والقوة الحقيقية فيه ، هي الربع الشمالى الشرقى في الولايات ، والقطاع الجنوبى مما غرب الأورال في الاتحاد . ولقد تكون نواة الاتحاد أكبر قليلا من نواه الولايات ، كما أنها أكثر تجانسا في كثافتها وأقل تركيزا .

ولكل منهما بعد هذا درقة ضخمة كالشرنقة السميكة من الأراضى خفيفة الاستثمار والتعمير تغلف النواة وتمنحها عمقا استراتيجيا ودرعا دفاعيا في الشمال وعلى أحد الجانبين . ولعل الخلفية القطبية ودون القطبية التى تدعم نواة الولايات والتى تشمل كندا أعمق وأوسع قليلا منها في حالة الاتحاد . والواقع أنه قد يكون من الأصح أن نقارن الاتحاد مساحة وتركيبا وربما سكانا لا بالولايات المتحدة وحدها وإنما بها وبكندا معا (٢) .

والقوتان بعد هذا تشابهان في أن ترمى رقعتيهما عبر خطوط العرض والطول منح كلا منهما غنى وتنوعا في الأقاليم الطبيعية والنباتية ، وثراء وتعددا في الانتاج الزراعى

Bowen, op. cit., p. 9.

(١)

Fawcett, Geog. & Empire, pp. 429-30.

(٢)

والمعدنى ، اقترب بهما من الكفاية الذاتية والاستقلال الاقتصادى إلى حد بعيد ، وبالتالي جعل تجارتهما الخارجية تمثل نسبة ضئيلة من مجموع إنتاجهما الضخم .

السكان

كذلك فإن السكان فى كل منها عصبية أم كاملة : الولايات بوتقة اختلطت فيها كل أجناس العالم ولكن أساسا كل قوميات أوروبا بعد أن تخلت جميعا عن أصولها طوعية وطمعا ، والاتحاد مجتمع متعدد العناصر متعدد القوميات ولكنه يؤلف بينها فى تماسك نادر وبنجاح ملحوظ بفضل سياسته الثورية فى تنمية القوميات والحضارات المحلية والمحافظة عليها بدلا من كبتها أو تنميطها ، وذلك فى إطار الاستقلال الذاتى والحكم المحلى . على أن هناك عنصرا معينا يسيطر عدديا وحضاريا فى الحالين : الإنجليز فى الولايات ، والروس فى الاتحاد . وكل منهما لهذا وذاك دولة اتحادية لا وحدوية ، وإن كان حق الخروج من الاتحاد ممنوعا فى الولايات المتحدة ، وغير واضح تماما فى الاتحاد السوفيتى^(١) .

العزلة

وعدا هذا فإن القوتين تتشابهان فى أنها كانتا فى عزلة طويلة اختيارية أو جبرية ، ثم خرجتا فجأة إلى العالم الخارجى . فالولايات فى ظل مبدأ مونرو نأت بنفسها عن عمد وبمحض إرادتها عن التورط فى مشاكل العالم القديم ، ولم تشارك فيها إلا راغمة حين بدت أخطاره تهددها فى الحرب الأولى . وبعدها عادت على أعقابها لتنعطف على نفسها فى عزلتها الأثيرة ، إلى أن فرضت عليها الحرب الثانية أن تخرج منها . ومهما يكن ، فإنها فى الحالين لم تدخل الحرب إلا متأخرة سنة أو سنتين نتيجة لترددتها وتأرجحها بين العزلة والخروج .

أما الاتحاد فلطالما ضربت أوروبا حوله « نطاقا صحيا cordon sanitaire » أيام القيصرية ، فعاشت الدولة فى شبه عزلة . حتى إذا كانت الثورة ، وجدت نفسها مطوقة بل مغزية بجيوش أوروبا واليابان فى « حرب التدخل » : جيوش رانجل فى القرم ، جيش كولشاك فى سيبيريا ، جيش بولندا فى أوكرانيا ، جيش رومانيا ، جيش بريطانيا

East, New Europe, p. 180-1; Cole. p. 235 ff.

فى أركانجل . وجيش اليابان فى شرق سىبريا . بل لقد وصلت الأخيرة إلى بحيرة بيكال !^(١) كل أولئك لوأد الثورة فى مهدها ، وكل أولئك دون جدوى . إلا أن الاتحاد بعد ذلك فرضت عليه العزلة المطلقة ، وتجنبه العالم الخارجى كما يتجنب المجذوم ! وكان « الستار الحديدى » حقيقة واقعة لا منذ الحرب حين صك الاسم ولكن منذ ثورة أكتوبر .

التاريخ الاستعمارى

وأخيرا . فإن كلا منهما بلا تاريخ استعمارى قوى أو محدد شكليا على الأقل ، أو هو بحكم التوسع الأرضى المتصل قد لا يعد استعمارا إلا فى معنى خاص ومن نوع خاص . وعلى أية حال . فكل منهما ادعى المثالية السياسية فى البداية وتبنى مثالا عليا ضد - استعمارية ولم يسع إلى الاستعمار السياسى السافر . بل ولا يعترف أو يسمح لنفسه به نظريا . وربما كان ذلك لأنها خرجتا إلى العالم الخارجى وقد أغلق باب الاستعمار عبر البحار تقريبا .

ومع ذلك فإن كلا منهما يتهم الآخر بممارسة الاستعمار بطريقة أو بأخرى . فالاتحاد السوفيتى بعد الثورة ورث إمبراطورية القيصرية كما هى ولم يتخل عن الأقاليم التى عدت استعمارا كوسط آسيا . بل أكثر من هذا ضم فيها بعد مزيدا من الأراضى . أما الولايات فقد ضمت عديدة من الجزر فى الهادى والكاريبى بالغزو حينما والشراء حينما آخر . وإذا كان الاتحاد يتهم الولايات فى هذا بالاستعمار الاستراتيجى كما يدمغها بالاستعمار الاقتصادى فى العالم الخارجى كبديل عن الاستعمار السياسى المباشر . فإن الولايات ترد له الاتهام « بالاستعمار المذهبى » أو الأيديولوجى الذى يختن من السطح ليعمل تحتها هدمًا وتخريبًا .

وقد خرجت الولايات والاتحاد من الحرب الأخيرة وهما أقوى قوتين على ظهر الأرض ، لا ثالثة لهما . فحتى الإمبراطورية البريطانية فى مجموعها لم تكن لتقارن فى قوتها بأى منهما . فضلا عن تباعد وانتشار أعضائها أولا ثم تفككها واستقلال أغلبها بعد ذلك ثانيا . فكان هذا التكافؤ أو التقارب فى القوة مما أذكى الصراع وحدة التناقض بينهما : كفرنسى رهان .

(١) إيست . ص ١٦٤ .

التناقض الإيديولوجي والاستراتيجي

وفي مقابل هذه المشابهات ، بقيت الفروق والاختلافات الإيديولوجية والاستراتيجية محورا عميقا للصراع والتناقض . فقد أتى الاتحاد بفلسفة شيوعية شمولية ، ضد رأسمالية ، ضد طبقية ، ضد قومية ، وضد عنصرية ، مبشرا بها كدين جديد بدلا من الأديان المعروفة . يريد أن ينشره في العالم أو يفرضه عليه « بالثورة العالمية » التي أصبح تصديرها هو « عبء الرجل الأحمر red man's burden » . ومحور هذه الفلسفة أولا وأخيرا هو ديكتاتورية البروليتاريا . وإذا كان البعض يرجع بجذور هذه الديكتاتورية الجديدة إلى التقليد الاستبدادي الداخلي الذي رأيناه للروسيا القديمة . فإن البعض الآخر لا يرى في الإيديولوجية الشيوعية كلها إلا شعارا أو ستارا جديدا « لقوة استبدادية عدوانية توسعية » لا تقل قدما وتغلغلا في الكيان الروسي الأصيل نفسه ^(١) .

وعلى النقيض من هذا وقفت الولايات المتحدة كأعلى وأعنى رمز للرأسمالية الجارحة ، هرمية الطبقات ، تتعصب للقومية الذاتية مثلما تمارس التفرقة العنصرية ضد الأجناس الأخرى فيها . وفي مقابل الإيديولوجية التي تقدم بها الاتحاد السوفيتي إلى العالم كنقطة قوته ودعوة حياته ، شرعت الولايات المتحدة التكنولوجيا كنقطة تفوق نظامها ، وقدمت فلسفة مضادة ترى تطور التاريخ والمجتمع في مراحل التكنولوجيا لا في مراحل الصراع الطبقي ، وتكاد تعتقد على أية حال أن هذا العصر هو في النهاية عصر الصراع بين الإيديولوجية والتكنولوجيا ، بين الثورة الاجتماعية والثورة التكنولوجية . أقطاب متنافرة ، وتناقض حياة أو موت ، ومن ثم أقدار متصادمة ... وهكذا بالفعل كان . اعتبرت الولايات ومعها أسلافها وحلفاؤها دول الغرب الصراع ضد الشيوعية حربا صليبية وكفاحا مقدسا ، وخرجت لمحاصرته ومبارزته .

قوى بر وبحر

وأخذ هذا التناقض صورة جغرافية محددة حين أصبح الصراع الاستراتيجي هو بين قوى بر مطلقة وقوى بحر مطلقة ، يكفى لنرمز للفروق بينها أن نذكر أن روسيا أو الاتحاد كانت تاريخيا أرض معركة لحروب الكر والفر ، والانسحاب والانقضاض ، بينما أن الولايات المتحدة لم تطأها أقدام الغزاة ولا حتى طائراتهم منذ بداية القرن التاسع عشر

Z. Brzezinski, Ideology and power in Soviet policy, N.Y., 1973.

(١٨١٢) . وتبلور هذا التضاد الاستراتيجي بعد الحرب حين احتفظ كل منها بمواقفه ومكاسبه الاقليمية .

فالاتحاد من ناحيته ضم منافذ البلطيق وحول دويلاته إلى سوفيات لا تتجزأ منه ، بالإضافة إلى قطاع ضخيم من شرق بولندا وشرجة من رومانيا . وخارج هذه الحدود الجديدة أصبحت دول شرق أوروبا حتى ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا والمجر ، مضافا إليها كل البلقان عدا اليونان ، أصبحت جميعا دولا شيوعية ملتزمة بالاتحاد أشد الالتحام ، مصيريا وبقائيا ، اقتصاديا وحريريا . أصبحت كتوابع أو أقمار تدور في فلك شمس الاتحاد . ويلخص هذه الكتله سياسيا حلف وارسو ، واقتصاديا منظمة الكوميكون .

ولقد كان معنى هذا أن قوة البر العظمى المرتكزة على أوسع قاعدة في أوراسيا قد تضخمت حتى ابتلعت لأول مرة المنطقة البينية أو الأمفية التقليدية التي تقع في شرق أوروبا حتى وسطها ، ووصلت بذلك إلى البحار المفتوحة في البلطيق وبحر الشمال والبحر الأسود ومشارف البحر المتوسط ، ولم تعد بذلك حبيسة قاريتها . لقد اتحد الفيل والتمساح في حظيرة واحدة .

وبالإضافة إلى هذا فلم تلبث كتلة الصين الضخمة . وقد استيقظت من بياتها الشتوى التاريخي وتجدد شبابها بالثورة ، أن انضمت إلى المعسكر الشيوعي ، لتؤكد فيه أكثر وأكثر صفة القارية والامتداد المتصل بلا انقطاع ابتداء من بحر الشمال حتى المحيط الهادى الجنوى ، ومن القطبيات حتى المداريات . وكنتيجة لهذه التوسعات المطردة ارتفعت نسبة الكتلة الشيوعية باطراد : فقبل الحرب كانت تضم نحو ١٠٪ من سكان العالم ، وفي ١٩٥٥ بلغت ٢٦٪ من مساحة العالم ، ٣٦٪ من سكانه ، وتسيطر على ٣٠٪ من انتاجه الصناعى . أى كانت بوجه عام تزيد عن الألف مليون نسمة^(١) .

ماذا عن الجانب المقابل ؟ هنالك التأمّت كل أوروبا الغربية تحت زعامة - ولا نقول وصاية أو حامية - الولايات في كتلة مضادة تمتد من أشباه جزر البحر المتوسط حتى أشباه جزر سكندنافيا ، بعمق في الداخل يصل إلى ألمانيا الغربية ويستوعبها . ومعنى ذلك أن

(١) Keith Buchanan, "West Wind, East Wind", Geog., Nov. 1962 p. 334; J.P. Cole, p. 245.

قوى البحر في أوروبا جميعا ، ومن وراثتها موارد مستعمراتها عبر البحار ، ومن خلف الجميع قوة البحر الكبرى أمريكا ، قد تجمعت في حلف مقدس ضد الاتحاد وكتلته .

الاستقطاب الثنائي

وعلى الفور تبدو المحصلة الاستراتيجية العامة للموقف وقد استقطب العالمان المتنافران « استقطابا ثنائيا bi-polarisation » في كتلتين رهيبتين تتقاسمان العالم كمعسكرين مسلحين كالترسانة ، وتفان وجها لوجه بغير حاجز أرضي أو فاصل اقليمي بينهما : الكتلة الشرقية الشيوعية ، والكتلة الغربية الرأسمالية . والنقطة الحيوية أنه باختزال المنطقة البينية الفاصلة ، قد تأكد لأول مرة النمط الجيوستراتيجي الجديد للعالم : لقد أصبح العالم سياسيا « نصفي كرة » ، بعد أن ظل قرونا وهو يمثل نظاما واحدا مغلقا يتطلع الكرة الأرضية بأسرها . غير أننا لن ننسى في هذا الانقلاب أن « نصف الكرة » الماركسي مازهر ولا فرض نفسه إلى جوار النصف الرأسمالي إلا بفضل استفادته إلى أقصى حد من الصراعات الداخلية والتناقضات الغائرة بين قوى هذا الغرب . وفي النتيجة زال إلى الأبد احتكار القوة في يد الغرب الأوربي ، وانتقل العالم لأول مرة في التاريخ الحديث إلى مرحلة ثنائية القوة . وذلك هو المغزى العميق ، والمفعم بالنتائج ، لآخر تطورات الصراع العالمي .

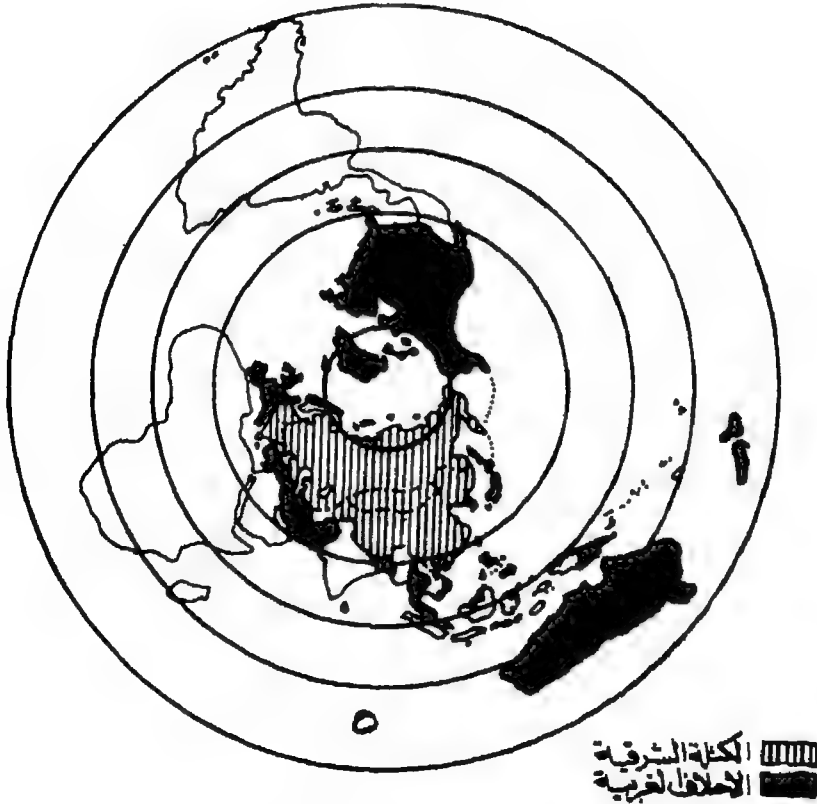
وسيلاحظ في هذا النمط الثنائي البتار ظاهرة لها مغزاها . فعلى طول جبهة الالتحام بين المعسكرين تنتثر الدول والوحدات المعزقة التي أخضعها الاستقطاب الثنائي لقسمته السليمانية - في الشرق على محاور عرضي وفي الغرب على محور طولي . فتمة في الشرق كوريا الشمالية والجنوبية ، والصين الشعبية والوطنية ، ثم حتى قرب فيتنام الشمالية والجنوبية . وفي الغرب يبدأ الانشطار من مستوى الدولة حتى يصل إلى مستوى المدينة ، على الترتيب أوروبا الشرقية والغربية ، ألمانيا الشرقية والغربية ، وبرلين الشرقية والغربية !

الاحتواء

وعند هذا الحد سيلاحظ أن الكتلة الغربية بفضل مستعمراتها المترامية حول العالم ، كانت عشية الحرب أكبر مساحة وسكانا من الكتلة الشرقية ، وأخطر من ذلك أنها كانت تطوقها من الغرب والجنوب والشرق ، بل ومن الشمال كذلك حيث تقرب أمريكا الشمالية اقترابا شديدا من شمال أوراسيا عبر المحيط المتجمد . وبمعنى آخر فقد

كانت الكتلة الشرقية تمثل جزيرة - ضخمة حقا ولكن جزيرة في النهاية - في وسط بحر الكتلة الغربية . ومن هذه الحقيقة الجغرافية نبعت كل استراتيجية الغرب بعد الحرب .

الاحتواء containment أو الإحاطة encirclement هي جوهر تلك الاستراتيجية . ومعارها سلسلة متصلة الحلقات من الأحلاف العسكرية السياسية ، الدفاعية الهجومية . تتحلق حول الاتحاد وتنقطها نحو ١٠٠ من القواعد الحربية والبحرية والجوية . أما مهندسها فهو الولايات المتحدة التي تحتزن نصف مجموع قواتها المسلحة تقريبا في تلك القواعد . فهناك من الشمال الغربي حلف الأطلنطي Nato - وما هو باسم على مسمى تماما - رأس السلسلة والركيزة الأساسية التي تترامى من النرويج حتى تركيا بلا انقطاع حول أوروبا .



شكل (٢٢) الاستقطاب الثنائي ، واستراتيجية الإحاطة والاحتواء .

ثم بلى حلف بغداد سابقا والحلف المركزي Cento بعد ذلك في الشرق الأوسط . هذا عدا حلقة أخرى - مفقودة - هي منظمة حلف دفاع الشرق الأوسط Medo حاول الغرب عبثا أن يفرضها على العالم العربى . ثم يأتى فى النهاية حلف جنوب شرق آسيا Seato . وبعده تتكفل قوة الولايات المتحدة نفسها بالضلوع الشرقية للمعسكر الشرقى ، لا سيما بفضل وجودها فى اليابان المحتلة وكوريا الجنوبية وصين فورموزا .

لقد ضرب الغرب فى مقابل « الستار الحديدي » الشيوعى نطاقا ناريا أو حلقة حديدية رأسمالية ! وبين هذا وذاك استعرت « الحرب الباردة » واشتعل السلم المسلح ! (والتعبيران التاريخيان صكهما تشرتشل فى خطابه الشهير بفلتون بأمریکا Fulton speech غداة الحرب والنصر مباشرة . وبهذا اعتبر الخطاب بمثابة إعلان للحرب المقدسة أو الجهاد ضد الاتحاد ، وعد تشرتشل مهندس الحرب الباردة مثلما كان مهندس الحرب الساخنة من قبل) . ولن يخفى أن الكتلة الشرقية فى هذا كانت عشية الحرب أقرب إلى موقف الدفاع ، بينما أن الكتلة الغربية كانت أقرب إلى الروح الهجومية .

أرض المعركة

على أنه قد كان من الواضح فى ظل الاستراتيجية التقليدية أى السابقة للذرة أن الغريمين الجبارين إذا أرادا أن يشتبكا فى معركة ، فإن أرضها لا يمكن إلا أن تكون فى غرب أوروبا . لماذا ؟ - لأن هناك ثلاثة ميادين واتجاهات فيها يواجه كل منهما الآخر مباشرة : الاتجاه القطبى فى الشمال ، ودائرة الهادى على أحد الجانبين ، ونطاق غرب أوروبا على الجانب الآخر (١) .

فأما الطريق القطبى فصحيح أنه لم يعد بحرا جليديا مغلقا تماما بفضل التطورات البحرية الحديثة وخاصة جهود الروس فيها ، وأهم من ذلك أن الطيران قلب قيمته الاستراتيجية كلية فجعله أقصر طريق بين الاتحاد والولايات بل جعله فى رأى البعض « البحر المتوسط » القطبى الجديد . ولكنه مع ذلك يظل غير صالح إلا للغارات الجوية المدهامة وعمليات التدمير الفجائية stunt flights وليس لحركة الجيوش .

أما جبهة الهادى إزاء سيبيريا وألاسكا ، حيث يكاد يتناس العملاقان ، فطريق برى

(١) فوست ، ص ٤٣٠ .

طويل جدا ومتطوح عن القاعدة البشرية والعمرائية الكبرى في كل من الاتحاد والولايات على حد سواء . ولهذا لا يبقى إلا جهة غرب أوروبا التي أصبحت بذلك أرض تقوم بكل معنى الكلمة بين الاتحاد والولايات وخط الدفاع الأول عن الأخيرة ، حتى لقد عدها البعض حينذاك أهم منطقة استراتيجية في العالم . من هنا تأتى أهمية حلف الأطلسي الحيوية والحرجة معا .

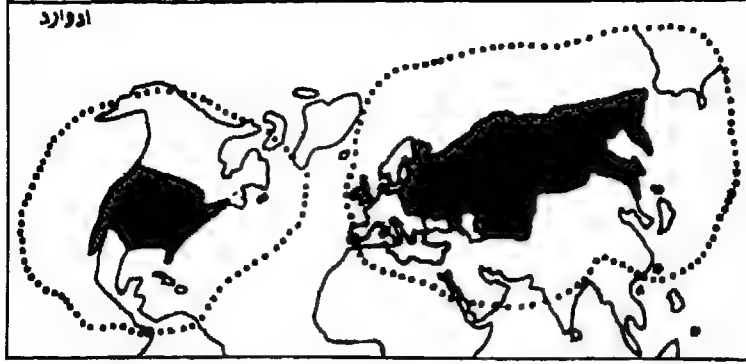
فروق جيوسراتيجية

وهناك بعد هذا بعض فروق جغرافية بين المعسكرين والقطبين تؤثر في استراتيجية كل منهما . فبين المعسكرين نجد أن المعسكر الشرق كتلة أرضية واحدة متصلة بلا انقطاع ، بينما يتألف المعسكر الغربي من جزيرتين كبيرتين هما غرب أوروبا وأمريكا الشمالية ، يفصل بينهما كالأخدود المحيط الأطلسي . ومع ذلك فلا ينبغي أن ننسى أن المعسكر الشرق رغم اتصاله الأرضي شكلا ، فهو أيضا ينقسم (أو كان) إلى جزيرتين بشريتين عظيمتين هما شرق أوروبا والاتحاد في الغرب ، وكتلة الصين وزوائدها كوريا وفيتنام في الشرق ، ويفصل بينهما « خط الاستواء الصحراوي » الهائل في العالم القديم ممثلا في صحارى ومرتفعات وسط آسيا وسنيريا .

ثم يأتي فارق جغرافي آخر بين القطبين . فبحكم الموقع ، يستقر الاتحاد في نصف الكرة « اليابس » ، بحيث يتصل مع ، أو يقترب من ، رقعة كبيرة من مسطح الأرض وعدد وفير من الدول ونسبة هامة من البشرية . وهو لهذا يستطيع أن يضرب وأن يتمدد بسهولة وفاعلية في مدى نطاق ضخم بمجهود أقل . أما الولايات المتحدة فعزولة في نصف الكرة « المائي » عن كتلة اليابس وجمهرة الدول وأغلبية سكان العالم ، وعليها لكي تصل إليها أن تنفق مجهودا وتتكلف باهظا للانتقال إلى مسرح الصراع . ويتضح هذا إذا نحن رسمنا خطوط أبعاد متساوية isostades حول حدود كل منهما وموازيه لها . فثلا خط أبعاد ١٥٠٠ ميل يضع الاتحاد في احتكاك أو اتصال بمساحة ضخمة من الأرض والناس ، ولكنه لا يكاد يضيف إلى الولايات شيئا من ذلك ^(١) .

تلك إذن ، في خطوطها ومحاورها العريضة وهيكلها الأساسي ، هي استراتيجية الصراع الجديد كما تشكل عشية الحرب الأخيرة ، وكيف تطورت بالتدرج الوئيد عن

(١) جون كوز - ص ٢٧١ - ٢٧٢ .



شكل (٢٣) خط أبعاد ١٥٠٠ ميل حول الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة

وضعيات وأنماط الصراعات التاريخية السابقة . ولكن فترة ما بعد الحرب ستحمل في أحشائها بلور تغيرات انقلاية بالغة الخطورة . ولهذا يجدر بنا قبل أن ننتقل إليها أن نتوقف قليلا لننظر إلى الخلف ، إلى الخلفية التاريخية بكامل طولها كشرط سينائي أو كتيار متصل ، لنرى أى درس فلسفي تعلم ، وإذا ما كان في الامكان أن نركز هذا الدرس في معادلة استراتيجية اختزالية مكثفة .

الفصل العاشر

النظرية العامة فى

الاستراتيجية العالمية

بمعنى آخر . إنها نظرية عامة فى الاستراتيجية العالمية تلك التى آن لنا أن ننشدها بعد أن تتبعنا ، فى موضوعية تقريرية بقدر الامكان ، مراحل التاريخ وأدوار الصراع . وسوف تكون مثل هذه النظرية بطبيعتها ، وبالضرورة ، محاولة شخصية تقديرية أكثر منها موضوعية تقريرية . يجوز أن تكون موضع خلاف أو محل تعديل ، ولكن هذا لن يقلل من خطرها . لأنها - بالاسقاط المستقبلى - يمكن دائما أن تخضع للتحقيق والاختبار . فإذا ما نجحت فيمكن أن تكون بوصلة للمستقبل ومؤشرا للتنبؤ الاستراتيجى . وهى بهذا جدية بأن تكتسب قيمة كبرى فى التطبيق العملى عند الاستراتيجيين والساسة ، إلى جانب قيمتها الأكاديمية للجغرافى والمؤرخ وطالب العلوم السياسية .

ونبدأ على الفور فنقول إن الذى قدم مثل هذه النظرية العلوية الطموح هو الجغرافى السياسى الكبير هالفورد ماكيندر ، الذى طالما اعتمدنا فى بحثنا هذا على كثير من الحقائق والتفاصيل التاريخية التى أوردها فى عرض نظريته . وما نعرف محاولة لوضع مثلها قبله إلا اقتصرت على جزئيات ضيقة غير مكتملة ، ولا بعده إلا وكانت تعديلا له أو تعليقا عليه . فقبله تكلم الجغرافى الألمانى الكبير راتزل فى ١٩٠٠ كثيرا عن قوة البرازاء قوة البحر ، وسبق ماكيندر إلى التنبؤ بأن النصر النهائى سيذهب إلى قوة البر بفضل تفوق مواردها ^(١) .

وقبله كذلك تكلم الأميرال ميهان عن قوة البحر ودورها فى التاريخ فى كتابه Influence of Sea Power on History . وهو - وقد كان يكتب فى عصر سيادة بريطانيا

Bowen. "Geog. of Nations", p. 4.

المطلقة على البحار- يرى أن الغلبة في الصراع من أجل السيادة العالمية مقدرة للقوة البحرية بفضل مرونتها وحريتها في الحركة وإمكان اعتمادها على موارد ما وراء البحار. وعلى هذا الأساس دعا بلده الولايات المتحدة إلى بناء قوة بحرية ضخمة تتكافأ مع قاعدتها الأرضية العظيمة من ناحية ، ومحيطها الهائلين من ناحية أخرى ، وطالب بحفر قناة بنا لتتحول بها من دولة ساحلين إلى دولة ساحل واحد ، وحدد مجال نفوذ الولايات البحرى بغرب الأطلسى وشرق الهادى ، واعتبر أن الدفاع عن الولايات المتحدة لا يبدأ عند سواحلها بل عند حدود هذا المجال البحرى ، ورأى أن بريطانيا هي الحليف البحرى الطبيعى للولايات ، وتنبأ بعد هذا بأهمية جزر الهادى هاواى والفلبين كقواعد أمامية متقدمة للدفاع ، كما تنبأ بخطورة جزر الكاريبي بالنسبة لبرزخ بنا ، وأوصى بضرورة السيطرة على هذه وتلك ، أى دعا إلى الاستعمار البحرى بصراحة^(١) .

ومن الواضح أن جميع آراء وتوصيات ميهان قد نفذت بالفعل حوالى دورة القرن فى إدارة تيودور روزفلت . وواضح كذلك أن دعوته متفائلة بالنسبة للقوى البحرية ، إذ يبشرها بالانتصار . على أن الأوضح أنها لا تقدم نظرية استراتيجية كاملة بمعنى الكلمة وإن فسرت جانباً من الحقيقة . بالاختصار ، لقد قدم آراءه فى إطار ومجال أمريكى أولاً ، وفى ظل عصر السيادة البحرية القائمة ثانياً .

أما بعد ماكيندر فليس ثمة إلا تعديلات وتحفظات على النظرية ، تملأ ثغراتها أو توضح معالمها دون أن تهز أركانها على الأرجح . ولعل أهم هذه التعليقات ما جاء من أقلام الجغرافيين البريطانيين أيضاً ، فوست وفيرجريف وإيست ، ثم العالم السياسى الأمريكى سبيكان . فكان فوست أكثر حذراً فى تفسير الحقائق الطبيعية والبشرية ، الأمر الذى دعم النظرية أكثر مما قوضها . أما فيرجريف فقد كتب كتاباً كاملاً عن « الجغرافيا والقوة العالمية » تبدو فيه بلا جدال إفادته الكبيرة من ماكيندر ، مثلما يبدو فى نهايته تحديد أدق وأوضح لخطوط النظرية أثراها بالتأكيد . بل سنى أن كتابه هذا سيقرن فى الترجمات الأجنبية فى الخارج بكتابات ماكيندر . أما سبيكان فقد أدخل تعديلات جوهرية على صلب النظرية قد تصل إلى حد الانتقاص عليها . وسنعرض نحن أولاً لنظرية ماكيندر ثم نردفها بتعديلاتها وتفريعاتها المختلفة هذه .

(١) الجيوبوليتيكا ، ج ١ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

ماكيندر واهارتلاند

نشر ماكيندر أساسيات نظريته في ١٩٠٥ في مقال قصير وسعه إلى كتاب في ١٩١٩ ، ثم عاد في مقال أخير في أثناء الحرب الثانية ليعدل بعضا من آرائه لتتفق مع تطورات السياسة العالمية^(١) . وقد بدأ بالنظر إلى العالم ككل ، فوجده يتوسع بالتدريج عبر التاريخ نحو وحدة كوكبية . فمع تطور الحضارة ، ولاسيما منها وسائل النقل والمواصلات ، اتسع نفس الحركة البشرية ومدى الترابطات الانسانية ، إلى أن كان القرن التاسع عشر فوحدت القاطرة القارات والباخرة المحيطات ، وفي القرن العشرين أحكمت الطائرة نسج الجميع في وحدة كوكبية شاملة حتى لم يعد هناك « إقليم كامل متكامل أقل أو أكثر من سطح الأرض جميعا » .

وعلى هذا نظر ماكيندر إلى العالم القديم كقارة واحدة ضخمة ذات ثلاثة فصوص ملتحمة ، يتوسطها اسما وفعلا البحر المتوسط ، وتضم ثلثي مساحة اليابس ، ودعاها « الجزيرة العالمية World Island » . وتضم الجزيرة العالمية وحدها سبعة أثمان سكان العالم ، بل ١٥ على ١٦ إذا أضفنا الجزر التي تحف بسواحلها . أما القارات الأخرى . الأمريكتان وأستراليا ، فلا تزيد مساحة عن ثلث اليابس ، وسكانا عن ١ على ١٦ من البشرية . فهي إذن لا تزيد عن أن تكون أقمارا صغيرة مبثوثة حول الجزيرة العالمية وتدور في فلكها . والكل يقع في محيط واحد وإن تعددت أسماؤه هو « المحيط العالمي World Ocean » .

الأقاليم الثلاثة

ثم نظر ماكيندر إلى هذه الجزيرة العالمية فوجد لها قلبا يمثل محور ارتكازها ونواة العالم القديم ، دعاها أولا منطقة الارتكاز Pivot Area ثم عدله إلى قلب الأرض Heartland . وقلب الأرض فكرة طبيعية مركبة ، هي محصلة عناصر ثلاثة : سهولة التضاريس ، الصرف الداخلي ، وسيادة الحشائش . وعلى هذا الأساس الثلاثي يمتد الهارتلاند من حوض الفولجا غربا حتى سيبيريا شرقا وقلب إيران جنوبا . وهو بهذا يضم مساحة ضخمة

(١) Geographical Pivot of History; Democratic Ideals & Reality; "The Round World & the Winning of Peace", Foreign Affairs, 1943, p. 595-605.

متصلة بلا انقطاع من أوراسيا تبلغ ٢١ مليون ميل ، وتبتلع كل الاستبس الأسوى ،
فيبدو كما لو كان قارة داخل قارة الجزيرة العالمية .

المارتلاند

ولأن المارتلاند سهلى فى مجموعه ، عشى فى غطائه ، فهو منطقة الرعاة بالضرورة
وإقليم حركة الخيالة والفرسان بامتياز . ولأن المارتلاند منطقة صرف داخلى تضعيع أنهارها
فى قلب القارة فى بحار داخلية أو تنتهى مشلولة إلى المحيط المتجمد فى الشمال ، فهى
منطقة لايمكن للأساطيل البحرية الساحلية أن تصعد فيها ، وبالتالي لايمكن أن تلجها .
إنها المنطقة الوحيدة على سطح الأرض التى تترامى مساحتها بما فيه الكفاية لكى تبتعد
ابتعادا سحيقا عن البحار والسواحل ، وبالتالي تمتاز بحصانة طبيعية تامة ضد الغزو
البحرى .

ومن ثم فهى يمكن أن ترسل تباعا بموجات الفرسان والرعاة على الأقاليم المجاورة ،
ولكن يستحيل على تلك الأقاليم أن تتبعها داخل المارتلاند لترد عليها . وبالفعل فإن
التاريخ يسجل عشرات الموجات والغزوات التاريخية ، ابتداء من الهون والآفار حتى
المغول والأتراك والتتار ، خرجت من المارتلاند تضرب فى كل اتجاه دون رادع حقيقى
يتعقبها فى عقر دارها . ومعنى هذا أن المارتلاند يمكن أن يهاجم لكنه لا يهاجم : إنه
قلعة دفاعية طبيعية - أعظم قلعة دفاعية - على الأرض ، وأضخم معقل لقوة البر ،
وأمثل نموذج للدفاع بالعمق .

ولقد ظلت قوة المارتلاند محدودة مابقيت كل قاعدة اقتصادها الرعى وكل قوتها
البشرية الرعاة . ولكن الأمر اختلف تماما حين تحول إلى اقتصاديات الزراعة والصناعة
الحديثة ، واستقرت جذور السكان فى الأرض وتضخمت قوتهم البشرية عدديا . وقد
حدثت هذه الثورة الحقيقية حين وحد من مسكوفى ، وورثت روسيا إمبراطورية
المغول ، وحلت حركة القطار محل حركة الخيل . ولعل أثر القطار كان أخطر فى
المارتلاند منه فى أى منطقة أخرى فى العالم ، فقد أصبح أداة توحيدة سياسيا
واستراتيجية .

وما الضغوط التى مارسها الروسيا والاتحاد السوفيتى فى تاريخها الحديث على
دويلات البلطيق وبولندا وشرق أوروبا وتركيا والشرق الأوسط وإيران والهند والصين إلا
الترجمة الحديثة للضغوط التى سبق أن مارسها رعاة الاستبس على جميع حواف

المارتلاند . والآن - ولأول مرة في التاريخ - تحتل قلعة المارتلاند حامية كافية في دد وكفاء في العدة .

الهلال الخارجى والداخلى

وعلى الطرف النقيض من المارتلاند تعرف ماكيندر على نطاق ساحلى محيطى بحت ضخم يغلف الجزيرة العالمية على شكل هلال متصل بدرجة أو بأخرى . ذلك هو « الهلال الخارجى أو الجزرى Outer or Insular Crescent » الذى يضم بريطانيا وكندا والولايات المتحدة وجنوب أفريقيا وأستراليا واليابان . وهذا النطاق هو مهد القوى البحرية ويتمتع ، منذ الكشوف الجغرافية ، بحركة وحرية الملاحة على أوسع نطاق فى المحيط العالمى . هو الذى وضع بالفعل هيكل الاستعمار البحرى كنظام كامل فى العصر الحديث .

وأخيرا ، وبين المارتلاند البرى البحت والهلال الخارجى الجزرى البحت ، يضع ماكيندر نطاقا ثالثا يسميه « الهلال الداخلى Inner Crescent » يضم ألمانيا ، النمسا ، تركيا ، الهند ، والصين . والنطاق بطبيعته برى جزئيا ، محيطى جزئيا . ومن الواضح أن هذا يقابل ما وصفناه من قبل بالمنطقة الأمفية أو البينية . ولكن لعل خير تسمية له هى ما قدم فيرجريف ، إذ دعاه « بمنطقة الارتطام أو الالتحام Crush Zone ^(١) » . وهى تسمية موفقة للغاية لأنها تعبر عن طبيعته كضحية للتصادم وكأرض للمعركة بين المارتلاند والسواحل .

درس التاريخ

وقد تعمق ماكيندر التجربة التاريخية للسواحل الهامشية فى صراعها مع القوى القارية ، فوجد أنه رغم سيادة القوى البحرية المطلقة ممثلة فى بريطانيا على البحار ، ورغم ما يبدو فى القرن التاسع عشر وفى الحربين العالميتين من أن كفة القوى البحرية هى الراجحة ونجمها هو الصاعد ، إلا أن هذه نظرة جزئية وللتاريخ فى مجموعه درس آخر . فهو نذير دائم للقوى الساحلية ، البحرية ، وتحذير لها من أن تطمئن تماما إلى تفوقها وسيادتها .

حقاً إن الوحدات الساحلية البحرية تمتاز بنمو مبكر precocious بفضل ما تتمتع به من حماية طبيعية ، ولها بحكم حركتها الطليقة واتصالاتها وانفتاحها على العالم فضل المبادرة إلى التحضر والثروة سواء بالتجارة أو بالاستعمار ، وبالتالي فلها ميزة السبق إلى القوة . ولكنها في النهاية تعاني من صغر القاعدة الأرضية ، إن لم تكن ضالتها أحياناً . وفي المدى الطويل ، لا تلبث الوحدات القارية الضخمة أن تلحق بركب التطور والحضارة ، فننتقل من قاعدة أرضية فسيحة غنية متنوعة نحو السواحل والبحار ، وعندها تسقط لها الوحدات البحرية كالثمرة الناضجة كما لو بحكم القدر .

وما أكثر الأمثلة في درس التاريخ : ما إن وحدت إيطاليا تحت روما حتى أصبحت صقلية تابعة لشبه الجزيرة . ما أن نصبغت اليونان سياسياً ومادياً حتى فقدت كريت لها استقلالها وقوتها ، وكانت من قبل مركز الحضارة والسيادة . ما إن ظهرت قوة مقدونيا الأكثر قارية حتى سقطت لها اليونان الأكثر بحرية . وما أن ظهرت قوة روما حتى سقطت لها اليونان (١) .



شكل (٢٤) نظرية ماكيندر في المارتلاندا . لاحظ التركيب الحلقي حول منطقة الارتكاز

هكذا قد تبدأ الغلبة والسيطرة للجزر على أشباه الجزر ، ولأشباه الجزر على الوحدات القارية ، ولكنها تعود في النهاية لتستقر في أيدي الوحدات القارية الضخمة .

من هنا يرفع ماكيندر صيحة التحذير للقوى البحرية ، ويقرّع نواقيس الخطر بالنسبة للمستقبل ، ويرفض أن يخلده تفوقها الحالى أو القريب ، ولا يجد مبررا لأن يفترض أن المستقبل يمكن أن يختلف عن الماضى .

وفى هذا السياق يعود ماكيندر إلى الحاضر ، فيجد أن « رجحان كفة القوة فى صف دولة المارتلانديد جدير بأن يؤدى بها إلى توسعها على حساب الأراضى الهامشية فى أوراسيا وبالتالى يمكنها من أن تجند مواردها القارية الضخمة لبناء الأساطيل البحرية ، ومن ثم تكون الإمبراطورية العالمية على مرأى النظر . ومن الممكن أن يحدث هذا لو أن ألمانيا تحالفت مع روسيا » (الاتحاد السوفيتى) ، أى إذا اتحد المارتلانديد بصورة أو بأخرى مع الهلال الداخلى ، سواء كانت السيطرة فى هذا الاتحاد للروسيا أو لألمانيا ، وسواء تم هذا الاتحاد بالغزو أو بالاتفاق .

المعادلة والتطبيق

وعند هذا الحد يتضح بجملاء أن شرق أوروبا هو مفتاح المارتلانديد . وبالتالى يصل ماكيندر إلى معادلته الثلاثية الشهيرة التى تلخص كل نظريته التى جاءت أحداث الحربين العالميتين مصداقا لكل فروضها :

- من يحكم شرق أوروبا يسيطر على المارتلانديد .
- من يحكم المارتلانديد يسيطر على الجزيرة العالمية .
- من يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على العالم .

وفى هذا الضوء يرى ماكيندر أن الحرب العالمية الأولى ، وأكثر منها الثانية ، هى حرب مباشرة بين القاريين والساحليين ، بين قوى البر والبحر بلا أدنى جدال . وفى كلتا الحربين حاولت ألمانيا أن تخضع روسيا أو الاتحاد السوفيتى لتسيطر على المارتلانديد . وإذا كان قد حدث العكس بالفعل ، وانتهت الحرب الأخيرة بسيطرة الاتحاد السوفيتى على كل شرق أوروبا بما فيه شرق ألمانيا ، فإن هذا لا يغير من النتيجة فى شىء ، وإنما يستبدل بألمانيا الاتحاد السوفيتى كالقوة التى تسيطر على المارتلانديد ومفتاحه شرق أوروبا ، ومن ثم التى يمكن أن تسيطر بعدها على الجزيرة العالمية ، فالعالم فى التحليل الأخير .

وهو بعد يرى أن الاتحاد السوفيتى قد خرج من الحرب وهو أعظم قوة برية على وجه

الأرض ، وأكثر من ذلك ، وهو في أقوى وضع دفاعي استراتيجيا ، بينما يجد أن الجزر البريطانية في المحيط المتوسط (الأطلسي) أصبحت في عالم المردة الجديد أشبه شيء بمالطه في البحر المتوسط ، وليس هناك ما يمنع لذلك من أن تقع في يد قوة قارية بالغزو ، أو على الأقل أن تزداد التحاما بالقارة في سياستها ومصيرها . وهذا الوضع برمته يعيد إلى الأذهان بقوة درس التاريخ ما بين القوى البحرية الصغيرة (ولكن السابقة) والقوى البرية اللاحقة (ولكن الضخمة) .

وعلى هذا فستقبل العالم يتوقف في هذا المنطق على حفظ التوازن في القوى بين الأقاليم الساحلية وبين القوى الداخلية المتوسعة . وفي سبيل هذا التوازن نصح ماكيندر بخلق نطاق من الدول الصغيرة المتأسكة في شرق أوروبا - الصف الأوسط Middle Tier كما دعاه - حتى يفصل بين الهارتلاند والقوى الساحلية ويعزله عنها . وقد تحقق هذا بالفعل منذ فرساي ، إلا أن هذا الصف الأوسط نفسه أصبح جزءا من الكتلة الشرقية ، أي ارتبط الهلال الداخلي بالهاتلاند أوثق الارتباط . ولهذا فإن التوازن المطلوب لا بد أن يأتي الآن من جانب الولايات المتحدة ، أكبر وآخر معادل القوة البحرية .

ومع ذلك فينبغي ، عابرين ، أن نلاحظ أن الولايات المتحدة بدورها يمكن نظريا أن تتحول بمنطق ماكيندر إلى شيء أشبه ببريطانيا في المحيط الأطلسي . فلو أن هارتلاند الاتحاد السوفيتي الذي يحكم شرق أوروبا توصل يوما ما إلى السيطرة على الجزيرة العالمية ، فإن العالم الجديد سيصبح محاصرا من الشرق ومن الغرب كجزيرة أقل وزنا وقوة بين ذراعي الجزيرة العالمية . وحينئذ يكون هذا قلبا كاملا للوضع الذي كان سائدا قبل الحرب الأخيرة حين بدا الهاتلاند كجزيرة محاصرة داخل بحر القوى البحرية ومستعمراتها . وحينئذ تكون الإمبراطورية العالمية على مرمى حجر أو على مرأى النظر .

وأخيرا ، فإن ماكيندر يرى أن الصراع بين القوى البرية والبحرية ، الذي يعبر عن حركة القطار ضد حركة السفينة ، لم يتأثر بمقدم الطائرة ، بل إنها لتؤكد به مثل ماتدعم نظريته . ففي رأيه أن الملاحة الجوية والقوة الجوية هي في الدرجة الأولى سلاح لقوة البر ، إنها بمثابة سلاح فرسان أمفيبي جديد ، في صف قوة البر أكثر مما هو في صف قوة البحر ، لأن الموقع المركزي المتوسط كهذا الذي يمتلكه الهاتلاند ميزة كبرى في الحرب الجوية . كذلك تنبأ بأن استخدام القوى البحرية لطريق كالبحر للمتوسط في الملاحة لن يكون إلا بموافقة أو تحت رحمة قوى البر ، لأن هذه تستطيع من قواعد البرية أن

تغلق هذا الطريق بالحرب الجوية . وبالمثل حدد وظيفة بريطانيا منذ القوة الجوية في أنها مجرد « مطار في خندق » ، أو حاملة طائرات كما قد نقول ، أو على الجملة « ماله كبرى » .

الخلاصة

ذلك في أساسياته هو هيكل نظرية ماكيندر في الاستراتيجية العالمية . ويمكن الآن أن نحدد فضله هو وقيمتها هي في ثلاث . فأولا ، استطاع أن ينظر إلى العالم ككل في ضوء وحدة الأرض ، وعلى أساس أن العالم قد صار عالما واحدا ، ومن ثم نظاما سياسيا واحدا - « نظاما مغلقا » يعنى . وبهذا كان « أول من أمدنا بفكرة كوكبية عن العالم » ، وهو في هذا قد « جند الجغرافيا في خدمة السياسة والاستراتيجية » كما عبر السفير وينانت^(١) . ولقد كان هدف ماكيندر الأساسي كما قال هو أن يضع « معادلة جغرافية تستطيع أن تتركب فيها أى توازن سياسى » . وبفضل نظريته الكوكبية الشاملة استطاع أن يرى جوهر هذه المعادلة في الصراع بين قوى البر والبحر .

ثانيا ، إلى جانب النظرة الكوكبية لم يغفل النظرة الإقليمية ، ومن هنا استطاع أن يخرج بثلاثيته الأساسية : المارتلاند ، الهلال الداخلى ، الهلال الخارجى الجزرى . وهذه لاشك هي الأقاليم السياسية الطبيعية الكبرى ، والأكثر خلودا في العالم ، وقد نجح في أن يتعرف على ملامح وتوجيهات كل منها . ومن الواضح أن الأقاليم الثلاثة هي في الحقيقة بناء حلقى concentric ، فثمة في القلب حول القطب الشمالى يقوم المارتلاند ، ثم حوله كحلقة وسطى الهلال الداخلى ، وفي النهاية حلقة أوسع وأكبر يحيطها هي الهلال الخارجى . ثم لن نحفى أن الأساس الدفين الذى يحدد هذه الأقاليم إنما هو في النهاية الموقع - الموقع الجغرافى - الموقع النسبى - الموقع ، أعنى ، قربا أو بعدا من قلب اليابس أو ساحل البحر .

ثالثا ، وأخيرا ، لم يكتف ماكيندر بالتشخيص ولكن توصل إلى التنبؤ وإن أعلن أنه ليس هدفه . فقد استطاع من البعد التاريخى أن يضع يده على احتمالات ومصائر الصراع بين قوى البر والبحر . فلم تخدعه شهادة تجربة مرحلية ، ورأى نذر الخطر على الأفق بالنسبة للقوى البحرية ، وذلك رغم أنه - بل لأنه - شخصا كان « استعماري

عتيدا» ، يهيم جدا كيان الإمبراطورية البريطانية . وقد جاءت نبوءته ، بعكس ميهان ، تحذيرية متشائمة بدرجة أو بأخرى بالنسبة لمستقبل القوى البحرية . وبينما نظر ميهان إلى الماضي ليركز على الحاضر ، نظر ماكيندر إلى الماضي والحاضر ليركز على المستقبل .

والشيء الذى ينبغى أن نلاحظه أنه إذا كان ماكيندر قد صنف أقاليم الصراع الاستراتيجى على أساس « الموقع » ، فقد نظر فى الحقيقة إلى مصايرها على أساس « الموضع » أى مدى قوة القاعدة الأرضية (بمواردها الطبيعية وقوتها البشرية ودرجتها الحضارية والتكنولوجية ... الخ) . فوجد أن المستقبل بعامة ليس للمواقع الممتازة ولكن للمواضع الأغنى .

نقد النظرية

السؤال الآن : كيف قوبلت نظرية ماكيندر ؟ من المفارقات التاريخية أن هذه النظرية الخطيرة أهملت فى وطنها ، بينما نالت شهرة داوية وعناية فائقة خارجه فى ألمانيا ، وألمانيا النازية بالذات ... فلقد تلقفتها مدرسة « الجيوبوليتيك » الألمانية ممثلة فى معهد الجيوبوليتيك فى ميونخ برئاسة الجنرال كارل هاوسهوفر ، وترجمتها هى وكتاب فيرجريف ووجدت فيها وثيقة استراتيجية خطيرة ، وأصبحت النظرية أساسا فى فلسفتها . وكثيرا ما اعتمد هاوسهوفر فى كتاباته على كتابات ماكيندر ، واعترف بدينه له رغم أنه « عدو بغض » ، بل لقد عدّ مقاله عن « المحور الجغرافى للتاريخ » « أعظم النظريات الجغرافية العالمية جميعا » ، وأكد أنه « لم يرق شئنا أعظم من هذه الصفحات القليلة كرائعة جيوبوليتيكية »^(١) . وقد تلقف هاوسهوفر خشية ماكيندر من أن تحالف ألمانيا والروسيا ليقبها إلى دعوة إلى مثل هذا التحالف . والمقول أن هذا بالفعل كان المحرك خلف تحالف هتلر وستالين فى بداية الحرب . فقد ألهم هاوسهوفر رودلف هس بالكثير من أفكاره ، وألهم هذا هتلر بدوره بالكثير منها فى « كفاحى » . على أن الانحياز الآن هو إلى أن تأثير هاوسهوفر على الحكم النازى قد بولغ فيه كثيرا . وبالتالي يكون قد بولغ فى تأثير ماكيندر على السياسة الألمانية^(٢) . وأيا ما كان فقد كانت

Zeitschrift für Geopolitik. 1925.

(١)

G.R. Crone, "A German View of Geopolitics", Geog. Journal, 1948, p. 108.

(٢)

النتيجة لهذا كله أن اتهم ماكيندر بأنه ساعد على وضع أساس العسكرية النازية ، وهو ما نفاه هو بشدة وغضب - وعلى حق - لأنه إنما وضع أسس نظريته قبل قيام النازي بثلاثين عاما .

على أن الحرب الثانية أدت إلى « إعادة اكتشاف » ماكيندر في الغرب وإعادة تقييمه . فاشتد الاهتمام به وبآرائه لا في مدارس الجغرافيا وحدها ، ولكن في الأكاديميات العسكرية والمعاهد السياسية كذلك . بل لقد أصبح ماكيندر بفضلها - سواء لحسن الحظ أو لسوءه ، كما عبر أحد الجغرافيين - أشهر الجغرافيين جميعا خارج الدوائر الجغرافية والمهنة ، كما عد كتابه واحدا من أخطر الكتب التي ظهرت في القرن ، فيه من البصيرة والنبوة أكثر مما فيه من السرد والوصف . غير أن البعض يحس أن آراء ماكيندر ربما قد قبلت بروح نقدية أقل مما ينبغي .

أسس التحديد

ويمكننا هنا أن نحصر النقد الذى وجه إلى نظرية ماكيندر فى الشكل والموضوع . فمن حيث الشكل ، أخذ عليه أنه عدل كثيرا فى حدود الهارتلاند بصورة مربكة ، ولكنه احتج بأن تلك هى طبيعته المركبة التى تقوم على أساس ثلاثى من السطح والنبات والصرف مما لايسمح بالتحديد الضارم . كما أن تعديله للنظرية فى أثناء الحرب العالمية الثانية يعده البعض طفيفا ، ولكن لا يكاد يتعرف فيه البعض على النظرية الأصلية (١)

وأخطر من هذا تحديده للهلالين الداخلى والخارجى . فلقد ترك ماكيندر منطقة بلا تحديد بين الهلالين تشمل الأراضى المنخفضة وفرنسا وأيبيريا وإيطاليا ، ولم يضمن الهلال الخارجى فى أوروبا إلا بريطانيا باعتبارها جزرية محيطية بحتة . ولكن هذه الدول الساحلية قوى بحرية بلا شك رغم أنها أقل بحرية من بريطانيا . بل إن ماكيندر عالج كثيرا من هذه الوحدات فيما بعد فى كتابه على أنها قوى بحر . ولهذا ينبغى أن نأخذ مفهوم قوة البحر أو البر كمسألة نسبية بالتأكيد . من هنا عدل فيرجيف نطاق القوى البحرية ليشمل تلك الدول ، كما ضم إليها مستعمراتها البحرية على سواحل أفريقيا وآسيا .



الهاردتلاند
منطقة الارتطام
قوى البحر

شكل (٢٥) استراتيجية القوة وأقاليم الصراع السياسي في العالم القديم حسب فيرجريف

وبالمثل فإن ماكيندر لا يرسم الهلال الداخلى كاملا ، بل يترك ثغرات هي لاشك في صميمه كوحداث الدانوب والبلقان ، كما أنه يغفل الشرق الأوسط . ومرة أخرى يعدل فيرجريف هذا فيمد « منطقة ارتطامه » من البلطيق حتى الشرق الأوسط فالأقصى بلا انقطاع .

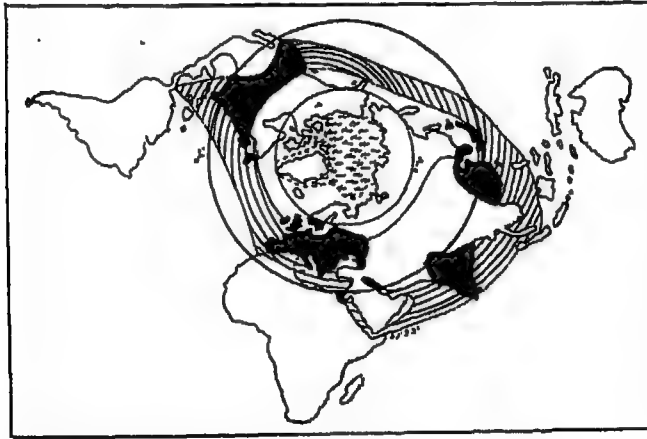
القوة البشرية

أما عن الموضوع ، فقد تساءل البعض عن مدى القوة الحقيقية - موارد وسكانا وإنتاجا - لكل من الهارتلاند والسواحل . وتكفل فوست وإيست خاصة بالإجابة ^(١) . فتوزيع السكان في العالم القديم يرسم نمطا واضحا جدا في أساسياته . فهناك قاطع

(١) C.B. Fawcett, "Marginal & Interior Lands of the Old World", Geog., 1947 p. 1-12; Hans Weigert, Heartland Revisited, in: New Compass of the World, 1949, p. 80-90; W.G. East, "How Strong Is the Heartland?", Foreign Affairs, 1950, p. 78-93.

محورى كثيف يمتد من غرب أوروبا شاملا وسطها وجنوبها ، ليستمر بدرجة أو بأخرى في الشرق الأوسط ، حتى يستعيد كثافته في آسيا الموسمية . هذا هو العمود الفقري في ديموغرافية العالم كله ساحلى أو شبه ساحلى ، ويشمل الجزء الأكبر إطلاقا من البشرية . وعلى هذا النطاق يتعامد قاطع آخر من اللامعمور أو شبه اللامعمور ، يبدأ من سيبيريا وينتهى بالصحراء الكبرى ، متداخلا مع نطاق المعمور في منطقة الشرق الأوسط .

ومن ثم فالهارتلاند يقع أغلبه في اللامعمور ، وأقله متوسط الكثافة . وإذا كان الهارتلاند يستمد وزنه الديموغرافى في قطاعه الأوروبى غرب الأورال ، فإنه في آسيا شرق الأورال إما قليل الوزن كما في التركستان أو فاقده كما في سيبيريا . هذا بينما أن السواحل تضم نحو أثنى مليون نسمة على الأقل . وبصورة عامة تتبع الموارد والانتاج نفس النسبة . فالمحصلة النهائية إذن أن الهارتلاند قد يكون قلب اليابس طبيعيا ، ولكنه قلب ضعيف - ولا نقول قلبا ميتا - بشريا ، أما السواحل فقد تكون هامشية ، ولكنها متخمة بالحياة والحيوية .



شكل (٢٦) نطاق أو حزام العمران والحركة حول نصف الكرة الشمالي . هذا هو العمود الفقري في هيكل البشرية

ومن هنا بالدقة يلتقط العالم السياسى الأمريكى نيكولاس سبيكمان الخيط . فهو يناقش معادلة القوة عند ماكيندر ، ولا يرى أن كفة الهارتلاند ترجح في القوة البشرية أو الموارد المادية ، وينتهى إلى أن « من يحكم المناطق الساحلية يسيطر على الجزيرة العالمية » . ومعنى هذا أن سبيكمان يتعارض بصورة مباشرة مع انتهاءات ماكيندر ، ويضع المستقبل في صف القوى البحرية وضد البرية .

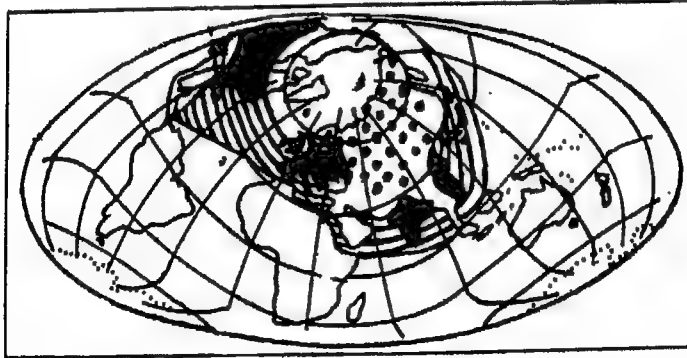
الدور الأمريكى

ثمّة بعد هذا نقد هام وجه إلى النظرية : لقد أغفل ماكيندر - أو بالدقة قليل - وزن الولايات المتحدة ودورها كثقل ضخم في كفة القوى البحرية . وحين كتب ماكيندر لأول مرة ، فلا شك أن قوة الولايات لم تكن قد اكتملت ودورها الطاغى في سياسة القوة العالمية لم يكن قد بدأ إلا بالكاد . أما بعد هذا فقد أمدت الولايات المتحدة العالم الجديد بهارتلاند منافس لهارتلاند العالم القديم ، وحددت مصير الحرين العظميين ، إلى أن انتقل قطب القوة العالمية إليها نهائيا وبصورة حاسمة ، بينما تحولت القوى التقليدية في غرب أوروبا إلى شبه تابع لها .

الحرب الجوية

وأخيرا ، فإن كثرة من النقاد ابتداء من لورد إمري إلى الميجور سفيرسكى ترى أن الحرب الجوية تقوض دعائم نظرية ماكيندر . وقد رد ماكيندر على هذا - إن صوابا وإن خطأ كما يلاحظ جلبرت - بأن الحرب الجوية تدعم قوة الهارتلاند وصحة نظريته . والاثام يقوم على أساس أن الطيران قد كشف الهارتلاند للغزو وسلبه مناعته الطبيعية وعمقه الاستراتيجى ، أو أنه على الأقل قد حيد الموقف بين قوى البر والبحر .

ولقد كان إمري في تعقيبه على ماكيندر سنة ١٩٠٤ سباقا في بصيرة ثاقبة إلى أن يرى أثر الحرب الجوية على النظرية . فأعلن أنه مع مقدم حركة الطيران إلى جانب حركة



شكل (٢٧) الهارتلاند «بالنقط» قلب العالم القديم ولكنه سكانياً قلب ضعيف . وكثلة السكان في العالم «بالأسود» ونطاق الحركة والمواصلات حول الأرض «بالخطوط» تقع على سواحل القارات .

القطار والبحر ، فإن كثيرا من تلك التوزيعات الجغرافية التي رسمها ماكيندر سيفقد أهميته ، وستكون القوى الناجحة هي تلك التي تملك أعظم أساس صناعي وأصخم قاعدة تكنولوجية . وانتهى إلى أنه لن يهم أن تكون في وسط قارة أو على جزيرة ، وإنما أولئك الذين يملكون القوة الصناعية وقوة الاختراع والعلم سيمكنهم أن يهزموا كل من عداهم .

أما سפרسكى - من جيل الحرب الثانية - فهو أكبر دعاه القوة الجوية بحسبانها السلاح الفيصل في الحرب الحديثة^(١) . ويلخص بوبن الموقف في أن القوة الجوية بمراحلها المختلفة « جعلت من نمط ماكيندر العالمى هراء ، ولكن قط هراء من إدراكه أن القوة في المستقبل تمكن مع الإمبراطوريات القارية بفضل تفوق مواردها »^(٢) . ومعنى هذا النقد جميعا في الحقيقة أن الطيران قد أفقد عامل « الموقع » الجغرافي قيمته الحيوية ، ونقل الأهمية كل الأهمية إلى عامل « الموضع » الجغرافي .

وعلى هذا يمكن أن نلخص الموقف النهائي من النظرية في أنه تضارب واختلاف : البعض يعدلها بما ينقصها أو يقلبها على رأسها قلبا كما فعل سبيكمان . والبعض يقبلها معدلة أو غير معدلة كما فعل الميجور جورج فيلدنج إليوت الذي أعلن في أثناء الحرب الثانية : « أنه لا مجال للهروب من منطق ماكيندر »^(٣) . كما أن هناك من لازال يعتقد أنها قد تكون سليمة حتى اليوم ، هذا بينما يتوسط البعض فيرى أنها إن صحت في الماضي فهي لا تنصح في عصر الحرب الجوية وبخاصة الحرب الصاروخية الذرية .

تعديلات جزئية

والذي نراه هنا هو أن النظرية إذا عدلت في بعض جزئياتها فيمكن أن تقدم بكل تأكيد مفتاحا عاما *passerpartout* ومعادلة جغرافية سليمة تلخص كل التاريخ السياسى والاستراتيجى وتستوعب كل تفاصيله وتتفق معها حتى - وهذا هو المهم - نهاية الحرب الأخيرة ، أما بعدها فقد حدثت انقلابات هائلة من أخطر ما عرف التاريخ الحديث لابد من تحليلها قبل أن نرى انعكاساتها على النظرية . وعلى هذا الأساس ، وكخلاصة

(١) الجيوبوليتيكا ، ج ١ ، ص ١٥ .

(٢) بوبن ، ص ٥ .

(٣) الجيوبوليتيكا ، ج ١ ، ص ٣٤ .

نهائية لدراستنا التاريخية السابقة ، نطرح الآن صورة معدلة للنظرية يمكن أن نركب في معادلتها كل تفاصيل تلك الدراسة وجزئياتها وتقابل في نفس الوقت النقد الذى وجه إلى النظرية .

ونقترح لذلك أن تظل: الثلاثية الاستراتيجية تتألف من الهارتلاند والسواحل ومنطقة الارتباط ، لكن مع تعديل حدودها . إلا أن التعديل الأساسى الذى نقترحه هو أن نحصر هذه الثلاثية في دائرة العالم القديم وحده أكثر منها العالم ككل . أولا لأنه في هذا الإطار يمكن للنظرية أن تفسر معظم تاريخ الاستراتيجية السياسية في العالم وأن تتفق مع أغلب تفاصيله وجزئياته . وثانيا لأن القارات الجديدة بما في ذلك الولايات المتحدة لم تظهر على مسرح السياسة العالمية إلا حديثا ، وأكثر منها لم تظهر كقوة حاسمة فيصل إلا حديثا جدا .

الهارتلاند

في هذا الضوء نجد أن الهارتلاند - بمحدود ماكيندر - وحدة استراتيجية حقيقية في التاريخ ، وحدة توسعية بطبيعتها السهلة التى تسهل الحركة وتدعو إلى الإمبراطورية . وقد وحد الهارتلاند - بعد صراعات داخلية من نوع صراع الأشباه - أكثر من مرة في التاريخ ومن أكثر من نواة : مرة من ألتاي ، ومرة من طوران ، ومرة أخيرة وحاسمة من روسيا^(١) . وكلها - يلاحظ - مراكز هامشية على أطراف الهارتلاند . ولهذا مغزاه الكبير ، وهو أن قلب الهارتلاند نفسه هو أضعف مافيه بشريا وحضاريا .

ومن المهم جدا أن نلاحظ أن سهولة توحيد الهارتلاند في قوة قارية الأبعاد جعلته غالبا وحدة سياسية واحدة لا تعرف التجزئة ، وهو الآن برمته يقع في دولة واحدة أو يؤلف دولة واحدة . وفي هذا فإنه يتناقض تماما مع السواحل الهامشية التى تتمزق في عدد ضخم من الدول المنفصلة ، فهناك قوة بر واحدة بالمفرد ولكن قوى البحر تأتى بصيغة منتهى الجموع ! من هذه النقطة يستمد الهارتلاند قوة سياسية واستراتيجية هائلة .

غير أنها في نفس الوقت تجعل منه دولة خلاسية متعددة القوميات والأجناس مما يمكن أن يمثل خطرا داخليا ، ويعرضه - إن خطأ أو صوابا - للاتهام من جانب الغرب

(١) فيرجيف ، ص ٣٢٨ .

بالاستعمار الداخلى . بل لقد كانت النازية تنظر إلى الاتحاد السوفيتى كإمبراطورية أقليات ، وكان من أهدافها أن تمزقها إلى وحداتها القومية الطبيعية فى شكل مجموعة دول مستقلة تماما !

ولقد كانت ضغوط الهارتلاند المركزية الطاردة تسعى قديما إلى الوصول إلى الزراع ، وحديثا إلى الوصول إلى البحر . وبعد أن كان الصراع بين الهارتلاند وبين المناطق الهامشية يمثل صراعا بين الاستبس والغابة ، أصبح صراعا بين قوة البر وقوة البحر . وفى هذا الصراع لاشك أن الهارتلاند قلعة دفاعية مثالية وغير منفذ لجيوش الزراع قديما وغير مفتوح لأساطيل البحارة حديثا . ولكن مناعته الدفاعية هذه لاتعنى بالضرورة وباللحم أنه القوة الهجومية المثالية .

فرغم ضخامة قوته وعظمة موارده التى لا جدال فيها ، فإن به نسبة كبيرة من الأراضي غير الصالحة للتعمير والانتاج إلا من رصيد معدنى ورصيد عمق استراتيجى . ولاشك أن من نقاط القوة فى الهارتلاند اليوم أن السلاف فى أوروبا تنمو بمعدل تزايد سكانى أعلى وأسرع بكثير من بقية أجناس أوروبا من التيوتون أو اللاتين ، مما عده الغرب خطرا شديدا على المستقبل ودعاه بالخطر السلافى^(١) . ومع ذلك فإن عدد سكان الهارتلاند - قديما أيام الرعى وحديثا بعد تحوله الحضارى - يظل دائما لايقارن بمجموع سكان المناطق الساحلية الهامشية .

الهوامش البحرية

أما السواحل الهامشية - موطن قوة البحر بامتياز - فنحن نرى أن من الضرورى أن تشمل سكندينايفيا والدنمرك وهولندا وبلجيكا وفرنسا ، عدا الجزر البريطانية ، وأشباه جزر البحر المتوسط الثلاث ابتداء من أيبيريا حتى اليونان . وكل من هذه لعب دورا بحريا قياديا فى وقت أو آخر ، وكل تاريخ القوة البحرية يدور فى محيطها . وينبغى كذلك - مع فيرجريف - أن نضيف إلى مفهوم القوى البحرية فى غرب أوروبا الساحلية ما كان مستعمراتها عبر البحار فى أفريقيا وآسيا ، فقد أصبحت سواحل هذه وتلك امتدادات لقوى البحر .

F. W. Notestein et al., The Future Population of Europe & the Soviet Union. Geneva, 1944, (١) p. 18 ff.

ونقاط القوة في هذه الوحدة الاستراتيجية واضحة . فهي إذ تقع في الهوامش المطيرة والخصيبة من القارة ، كانت شديدة الكثافة سكانا وطاقاتها الانتاجية والبشرية عالية ، وهي في هذا ترجح المارتلاندي على أساس وحدة المساحة بكل تأكيد . ثم هناك الموقع ، الموقع البحري الحر الذي يوفر الحركة الطليقة خلال المحيط العالمى . وقد رأينا كيف كان هذا الموقع البحري مرادفا في النهاية للاستعمار البحري .

فلقد انتهى هذا الموقع بالقوى البحرية إلى الاستعمار ، وانتهى بها الاستعمار إلى السيطرة على موارد قارات بأسرها صبت فيها موارد ومكاسب خيالية لم يعرفها سكان المارتلاندي . ويمكن أن نلخص الاستعمار البحري جميعا في أنه كان محاولة من القوى البحرية الموجبة في غرب أوربا للسيطرة على السواحل البحرية السالبة في أفريقيا وآسيا ، وهو بهذا في النهاية صورة على نطاق شاسع من صراع الأشباه . وبهذا تضاعف الفارق في الثروة والموارد بين القوى البحرية والبرية . وبفضل هذا الموقع وهذه الموارد قد يمكن أن نفترض أن القوى البحرية الساحلية في موضع هجومى قوى إلى حد بعيد .

ومع ذلك فلقوى الساحلية مواطن ضعف واضحة . فأولا تمثل هذه القوى قلة التفتت والتجزئة والتعدد السياسى . فهنا عشر وبضع عشر من الدول المستقلة . لماذا ؟ - لنفس الأسباب الجغرافية الطبيعية التي جعلتها دولا بحرية مثالية . فنطاق القوى البحرية هذا لم يصبح بحريا ملاحيا من الدرجة الأولى إلا لأن البحر قد قطعه بالخلجان العميقة والبحار الداخلية إلى وحدات طبيعية منفصلة - تذكر تعبير شبه جزيرة من أشباه الجزر .

ولكن نفس هذه الحقيقة انتهت به إلى قوميات ووحدات سياسية منفصلة كثيرة العدد صغيرة المساحة . وهذا يفسر أولا تلك الصراعات التاريخية الرهيبة بين هذه الوحدات بعضها البعض ، فكل التاريخ الدموى الحديث في العالم تركز فيها ، وكان الصراع الداخلى بينها صراع أشباه ، القصد منه تصفية القوى البحرية إلى قوة سائدة بينها . وقد أخذ هذا الصراع مسارا محددًا هو الذى يؤلف هجرة الحضارة والقوة من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى في داخل النطاق . وقد كان هذا من عوامل ضعف القوة البحرية الكامنة ككل وباستمرار .

هذا التفكك السياسى وهذه الضلالة الساحلية في القوى البحرية تتناقض تماما مع الوحدة السياسية الطاغية للمارتلاندي وضخامته البالغة . وهذه الصراعات الداخلية بين أعضاء القوى البحرية لم يعرفها المارتلاندي فيما بين أجزائه . وحينما كان مستوى المارتلاندي

الحضارى وقوته العسكرية متواضعة ونفس الحركة البشرية محدودا ، لم يكن هذا التناقض يشكل تهديدا خطيرا للقوى البحرية ، فكان يكنى فى القرن الثامن عشر مثلاً أن تنصدى للهارتلاند دولة بحرية واحدة كفرنسا أو بريطانيا ، وفى القرن التاسع عشر كان يكنى دولتان بحريتان كفرنسا وبريطانيا معا .

ولكن حين وصل الهارتلاند إلى قمة القوة ، كما هو الحال الآن ، أصبح مجموع القوى البحرية يمثل شقة مساحة ضئيلة بالنسبة لمساحة الهارتلاند ، تفتقد ميزة الدفاع بالعمق ، وتعانى من التعدد السياسى . وهى إذا كانت بفضل موقعها البحرى فى موقف هجومى حر ، فإنها فى موقف دفاعى ضعيف . يضاعف من هذا أن غرب أوروبا كدول بحرية لا تملك جيوشا برية كبيرة ، بينما الاتحاد السوفييتى كقوة بر يملك أضخم جيش برى فى العالم .

هنا نحث على الدول البحرية أن تتحد جميعا فى وجه الهارتلاند ، بل أن تلجأ إلى سند أقوى على الجانب الآخر من المحيط هو الولايات المتحدة ، التى هى أصلاً امتداد بشرى لغرب أوروبا مثلاً هى تكملة جغرافية للقوة البحرية . ومن هنا نجد أن حلفا كالأطلنطى ليس فى الحقيقة إلا جماع القوى البحرية فى غرب أوروبا بالإضافة إلى الولايات المتحدة . وما الحديث الملهب اليوم عن « وحدة أوروبا » اقتصاديا ، أو سياسيا ، أو اقتصاديا وسياسيا ، إلا رد فعل مباشر لهذا التناقض المزمع بين وحدة قوة البر فى جانب وتفتت القوة البحرية فى جانب آخر .

وعدا هذا ، فإن الاستعمار إذا كان من أسباب قوة وتفوق الدول البحرية حيناً فهو نقطة ضعف كامنة فيه فى النهاية . فكاسب المستعمرات المغتصبة موقوته بالضرورة ، ورهن ببقاء هذا الاستعمار . وإذا ما توقف تدفقها أو ضاعت فإن القوى البحرية ستجد الأرض وقد سحبت من تحت أقدامها وانكشفت قاعدتها الجغرافية والمادية الاقتصادية . ويكون عليها أن تنكفىء على مواردها الذاتية المباشرة التى لا تقارن بموارد الهارتلاند . وهذا ما حدث الآن بالفعل بعد ذوبان الاستعمار . فلم تعد غرب أوروبا فى مجموعها بند للاتحاد السوفييتى ، ولولا قوة الولايات المتحدة من ورائها لما صمدت فى الصراع الجديد .

المنطقة البينية

هذا فيما يختص بالهاترلاند والسواحل البحرية ، الفيل والحوت ، وتبقى أخيراً منطقة الارتطام أو التماسح ... هذه هى ما دعونا فيما مضى بالمنطقة البينية ، وهى جغرافيا

بينية بموقعها بين قوى البر شرقا والبحر غربا ، وتمثل بطبيعتها وبيئتها منطقة انتقال بينهما تجمع بين الصفة البحرية والبرية بدرجات متفاوتة . وهي استراتيجيا منطقة ارتطام وجبهة تصادم بين تلك القوى القطبية ومن ثم أرض المعركة الحتمية بينهما ، فلا يستطيع أى منها أن يصل إلى الآخر ويضره إلا بالمرور على هذا الجسر الأمفيبي .

ونحن نحدد هذه الوحدة الاستراتيجية بنطاق يشمل ألمانيا وشرق أوروبا والبلقان فيما عدا اليونان ، ثم الشرق الأوسط بما فيه تركيا وإيران والمشرق العربي ، كما نجد له امتدادات في الشرق الأقصى بين السواحل والداخل . فهي إذن أشبه بقوس أو هلال يحيط بالهارتلاند وتحيط به القوى البحرية ، أى أنها تتوسطها . ولعل مما له مغزاه أن تكون إحدى الحلقات الهامة في هذا النطاق « الأوسط » هي الشرق « الأوسط » . بل لعل هناك أكثر من صدفة في أن ماكيندر يطلق على شرق أوروبا والبلقان وما في تحومه من منطقة الارتطام في أوروبا اسم « الشرق الأوسط الأوربي »^(١) ، تأكيداً لفكرة الارتطام المتأصلة في الموقع المتوسط .

وفي هذا الموقع المتوسط تكمن شدة خطورة المنطقة - منطقة الارتطام - ودور الجسر بالنسبة لكل من قوى البر والبحر واهتمامها بها أو بالسيطرة عليها . وفي الواقع أن كل تاريخ الصراع بين البر والبحر هو محاولة التحكم في هذه المنطقة بالذات ، فهي تمسك زمام الموقف بين القوى القطبية ويمكن أن ترجع كفة على الأخرى ، وبالتالي فإن مصيرها في النهاية هو الذي يحدد مصير الصراع بين الهارتلاند والسواحل .

ولاشك أن هناك قطاعات معينة من هذا النطاق تمتاز بموقعها وبطبيعتها بقيمة استراتيجية حرجة ، ولعل أهمها هو شرق أوروبا في الشمال والشرق الأوسط في الجنوب . وليس صدفة بالتأكيد أن معظم من حاولوا البحث عن أخطر المواقع الاستراتيجية في العالم - أيا كانت صحة آرائهم - وضعوها في هذا النطاق أولا ، وفي هذه القطاعات منه بالذات ثانيا .

مثلا كان ناليران يرى أن أخطر نقطة استراتيجية في العالم هي مصب الدانوب^(٢) (؟) ، وكان بسمارك يضعها في بوهيميا ، من سيطر عليها سيطر على وسط أوروبا ثم على

Democratic Ideals, p. 122.

(١)

East, Historical Geog. of Europe, p. 368.

(٢)

أوروبا^(١) ، بينما حددها نابليون بمصر ، وبعده ومثله قال أندريه زيجفريد : « قل لى من يسيطر على قناة السويس ، أقل لك من يسيطر على العالم »^(٢) . لا ، وليس صدفة كذلك أن المعارك الفاصلة المصرية فى الحربين العالميتين الأخيرتين حدثت فى شرق أوروبا وفى الشرق الأوسط ابتداء من « الجبهة الشرقية » إلى « الحملة التركية » ، ومن ستالينجراد إلى العلمين .

والمنطقة بعد هذا وفى مجموعها أقل مساحة وسكانا وقوة ، وأكثر تمزقا وتفتتا سياسيا ، من أى من القوى القطبية . وهى من ثم فى موقف هجومى أو دفاعى ضعيف ، محصورة بين فكى كماشة أو بين شقى رحى . وقد يبدو من هذا لأول وهلة أن التبعية والعجز قدرها الجغرافى والتاريخى ، وأنها ضحية موقعها المتوسط ، وأن دورها الاستراتيجى لا يمكن أن يزيد عن دور الدول الحاجزة للتصادمية التقليدى .

لكن الحقيقة أن نفس هذه الخصائص وذلك الموقع يمكن أن تكون عامل قوة لهذه المنطقة إذا ما جمعت قواها فى تكتلات أو قطاعات اقليمية كبيرة ، فحينئذ يمكن لها أن تلعب دورا مختلفا تماما . ويمكن من هذه الزاوية أن نقسم دور هذه المنطقة عبر التاريخ إلى ثلاثة : إما خط خمود سياسى ، وإما منطقة رهو سياسى ، وإما خط استواء سياسى .

خط خمود ، حين تسقط لإحدى القوتين البرية أو البحرية . وفى الأغلب الأعم كان شرق أوروبا بحكم الموقع وطبيعته السهلية من نصيب القوى البرية ، بينما كان الشرق الأوسط من نصيب القوى البحرية . فنذ فجر التاريخ وشرق أوروبا تكتسحه موجات الرعاة المتواترة أبدا ، ومنذ ظهرت روسيا وكل تاريخ دويلات البلطيق وبولندا وبروسيا وإلى حد ما الدانوب والبلقان لا ينفصل عنها إما بالخضوع الفعلى أو التهديد الشكلى . وكل مأساة بولندا فى التاريخ من تقسيم متكرر ، بل وزوال أحيانا ، لا يخرج تفسيرها عن هذا . وشرق أوروبا اليوم ملتحم التحاما عميقا مع المارتلاندى .

أما الشرق العربى فقد كان مستعمرة واحدة كبرى للاستعمار البحرى منذ القرن التاسع عشر . وكان هذا يشدد قبضته عليه بشراسة وضراوة ، خاصة بحكم حيوية وخطورة موقعه كالمطريق الحقيقى الوحيد إلى مستعمراته الساحلية فى الشرق الأقصى .

(١) الجيوبوليتيكا ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

Siegfried, Mediterranean.

(٢)

أما حين تعجز القوتان القطبيتان عن ابتلاع المنطقة تماما ، فقد تكتفیان باقتسامها وتنازعاها : القطاعات الأكثر برية للقوة البرية ، والقطاعات الأكثر بحرية للقوى البحرية . هنا تصبح منطقة الارتطام والتصادم منطقة رهو سياسى ، منطقة شد وجذب ومد وجزر بين الطرفين . هكذا كان الشرق الأوسط القديم بين فارس وورثتها ، وبين أثينا وروما ، حين تقاسم الطرفان المنطقة فى توازن حرج متوتر .

كذلك فى هذه الحالة كثيرا ما يفرض التفتيت السياسى على المنطقة - سياسة البلقنة - حتى تكون سلسلة من الدويلات الحাজرة . وهذا ما فعله الحلفاء بعد الحرب الكبرى بشرق أوروبا والبلقان والشرق الأوسط . وعادة ما تلجأ دول النطاق إلى لعبة خطيرة هى استراتيجية مضاربة الطرفين ببعضها وذلك بأمل أن تضمن بقاءها ، كما فعلت إيران طوال تاريخها الحديث . كذلك انتهت الحرب الأخيرة بتقسيم ألمانيا إلى شطرين يخضع كل منها لأحد الطرفين .

وقد يتفق الطرفان المتصارعان على تحديد جبرى يفرض على دول المنطقة حيث يتوازن نفوذهما ويتعادل ، وبذلك تصبح نوعا من الأرض الحرام أو أرضا بلا مالك no man's land . وخير ما يتمثل هذا فى أفغانستان وتايلاند ، فهما تدينان باستقلالهما القلق الباهت لا إلى قوتها الذاتية ولكن إلى تعادل قوى الشد والجذب حولها .

وأحيانا أخرى قد يودى الصراع - بمنطق عكسى - إلى الحفاظ على كيان بعض دول المنطقة ، والمثل الكلاسيكى النادر هو تركيا . فى وجه الخطر البرى - الروسيا - الذى هدد أكثر من مرة كيان الإمبراطورية العثمانية فى صميمها ، تقدمت القوى البحرية - فرنسا وبريطانيا - بسرعة إلى دعمها ومساندتها حتى عاشت بالفعل أطول مما ينبغى .

ويبقى فى النهاية دور خط الاستواء السياسى ، وبه نقصد أن ترتفع قوة المنطقة إلى مستوى خطورة موقعها لتؤكد وجودها وتفرض نفسها على التوازن العالمى بين قوى البر والبحر وترغمها معا على التزام حدودهما ، وتمنع الالتحام بينهما بل وقد تخضع إحداهما أو كليهما لسيطرتها هى . ومن المهم أن هذا دور أقل حدوثا فى التاريخ حتى ليوشك أن يكون شذوذا عابرا .

ولكن الأهم أن ذلك الدور لم يتحقق إلا بعد نوع ما من الوحدة بين أجزاء من المنطقة سواء منبثقة من الداخل أو مفروضة من الخارج . وهناك حالات ثلاث ارتفعت

ففي منطقة الارتطام إلى هذا الدور ، وهي تتراتب تاريخيا كما تتراتب جغرافيا من الجنوب إلى الشمال .

ففي الشرق العربي قامت الدولة العربية الإسلامية في العصور الوسطى لتضع مركز القوة العالمية في قلب منطقة الارتطام على حساب كل من القوى البرية والبحرية ، كما استطاعت أن تفسد عليهما خططهما في التحالف ضدها . ولكن كما أنها بفضل الوحدة قامت ، فبفعل التفكك والانفصال زالت وسقطت لقوى برية المصدر .

ثم يأتي بعد هذا تاريخيا وإلى الشمال جغرافيا ، المثل التركي حيث احتلت الإمبراطورية العثمانية رقعة ارتطامية بحتة ابتداء من العالم العربي حتى البلقان ، ومع ذلك استطاعت أن تكون إلى حين قطبا من أقطاب القوة في عالم العصور الوسطى وطلائع العصور الحديثة . وأخيرا يتحرك القطب شمالا مع ظهور ألمانيا الموحدة التي رنت إلى السيطرة العالمية - لا أقل - وكادت تحققها في حربين عالميتين . ولكن ، وكما حدث في حالة الدولة العربية الإسلامية ، سقطت ألمانيا الارتطامية حين اجتمع عليها المارتلاندي والسواحل البحرية معا .

وفي الوقت الحالي يقع أغلب القطاع الشمالي من منطقة الارتطام بأوروبا في يد المارتلاندي ، وجزء محدود في يد السواحل البحرية ، بينما في الشرق الأوسط والأقصى زال الاستعمار البحري وأصبحت المنطقة مستقلة لأول مرة منذ وقت طويل . وهاهنا نجد مثلا حيا على استمرارية الخطوط العريضة في استراتيجية المنطقة . فهي لم تعد خط خمود سياسي ولا هي منطقة رهو ، ولكنها ليست بعد خط استواء سياسي غلاب . غير أنها وهي تدرك موقعها الحاسم تحاول أولا أن تحفظ كيائها بين القوى الماموث البرية والبحرية ، فكان عدم الانحياز ، وتحاول ثانيا أن تحول دون اصطدام تلك القوى في حرب جديدة . ولكن هذا كله أدخل في استراتيجية العالم المعاصر ، وهو ما ينبغي أن نتقدم الآن إلى دراسته .

البَابُ الثَّالِثُ

عَالَمُنَا الْمَعَاوَر

حين يكتب مؤرخو المستقبل تاريخ هذا القرن ، فأغلب الظن أنهم لن يملكوا إلا أن يعتبروا نهاية الحرب العالمية الثانية - قل بالتقريب منتصف هذا القرن - خط تقسيم جوهريا وجهة افتراق عميقة في التاريخ الحديث جميعا ، لا تقل خطرا ولا مغزى عن فترة الكشوف الجغرافية أو الانقلاب الصناعي . ففي تلك الفترة المضغوطة زمنيا ، المفعمة تاريخيا ، اجتمع - كأنما على ميعاد - انقلابان حافلان مذهلان : ثورة التحرير ، والانقلاب النووي . الأول ثور المناخ السياسى فى العالم برمته ، والثانى قلب قوانين الاستراتيجية الكوكبية رأسا على عقب . ونحن فى معنى حقيقى جدا نعيش اليوم فى عالم جديد - كدت أقول فى كوكب جديد ! - خرج من رحم عالم الصناعة والاستعمار ، ولكنه بنفس الدرجة خرج عليه .

وفى الجيولوجيا والبيولوجيا ، كما فى التاريخ ، أن مسار التطور يظل عادة رتبيا تقليديا كالخط المستقيم أو كالمنحنى الانسيابى ، ثم إذا به يتفجر فجأة فى ثوران بركانى قصير ولكنه عنيف يغير تضاريس الوجود ومعالم الزمان ويضع ملامح العصر وتوازنااته ويحددها لأمد بعيد ، ومعها يعود إيقاع الحياة رتبيا تقليديا مستقرا ، حتى تبدأ الدورة الانفجارية من جديد ، وهكذا . تلك هى النظرية النكباتية catastrophism فى العلم الطبيعى^(١) ، والنظرية الثورية فى العلم الاجتماعى . وما نحن بحاجة فيما نحسب إلى سيسموجراف تاريخى أو بارومتر سياسى لندرك أننا نركب اليوم قة موجة عاتية من موجات التاريخ الانفجارية ، زلزلت تضاريس السياسة العالمية ، وخلقت طبوغرافية جديدة للاستراتيجية الكوكبية . ومن هنا نبدأ ...

F. Zeuner. Dating the Past, Lond. 1950; Wooldridge & East, Spirit & Purpose of Geog., (١) Lond., 1950.

الفصل الحادي عشر

ثورة التحرير

إنها لمفارقة من الجغرافيا مثيرة أن يستطيع مليونان ومائتا ألف ميل مربع هي كل مساحة غرب أوروبا أن تنشر نفوذها وظلها وأن تفرض استعمارها على أكثر من سبعة وخمسين مليون ميل مربع هي مساحة العالم المعمور وغير المعمور ، وذلك في أقل من خمسمائة عام^(١) ! ولا تقل غرابة عن ذلك جزئيات الصورة : فغداة الحرب الأخيرة كانت بريطانيا تملك قدر مساحتها ١٤٢ مرة ، وفرنسا ٢٢ مرة ، أما هولندا فنحو ٥٧ مرة ، وبلجيكا ٥٠ مرة ، وإيطاليا ١٩ مرة .

ويمكن على أساس الموقع من منحى التطور الاستعماري أن نصنف القوى الاستعمارية في ذلك التاريخ إلى أربع طبقات أو فئات^(٢) . فثمة أولا « القوى العتيقة » ، بدأت الاستعمار في أوائل عصر الكشوف ، ولكنها بقدر ما تعاظمت في البداية تضاءلت في النهاية وأزاعتها القوى الأحداث ، فأصبحت إمبراطوريتها حفرة fossil empire ونوعا من الاستعمار المتخلف residual المفتت . ومن المتفق عليه أنها كانت قد أصبحت أعجز في حقيقتها من أن تملك إمبراطوريات ، وأن كياناتها الإمبريالية ليست إلا سخریات سياسية ، بل لقد عد بعضها رجل أوروبا المريض الجديد . هنا تأتي البرتغال وإسبانيا وإلى حد ما هولندا .

يلي ذلك « القوى العتيقة » ، وهي أحدث من العتيقة دخولا إلى الاستعمار ، ولكنها أقدم وأخطر دول أوروبا توحيدا وتصنيعا وقوة . ولذا كانت أكبر قوى استعمارية ظهرت في التاريخ الحديث وتمثل الاستعمار الكلاسيكي أو الراديكالي بكل ما أصبح

(١) هويتزى ، ص ٨٦ .

(٢) جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربي ، ص ٣٢ .

يعنى من استغلال ورجعية واحتكارات . والواقع أن تاريخ الاستعمار القريب يتحلل أساسا ونهايا إلى تاريخ الصراع بين هذه القوى بعضها البعض ، وبينها وبين من سبقها ومن لحقها من القوى . وتشمل هذه المجموعة دولتين فقط هما بريطانيا وفرنسا .

ثم هناك « القوى الوليدة » التى لم تصبح دولا موحدة إلا بالأمس القريب فقط ، والتى تأخر فيها بدء الانقلاب الصناعى نسيا ، وبالتالي تأخر خروجها إلى ميدان الاستعمار فلم تجد إلا الفتات . وحتى هذا لم تنعم به طويلا فى أغلب الحالات ، فقد تجمعت ضدها القوى العتيدة لتجردها منه فى أثناء الحربين العالميتين . تحت هذه العائلة تندرج ألمانيا وإيطاليا ، وإلى حد ما بلجيكا ، وفى معنى خاص اليابان .

وأخيرا تأتى « القوى الجديدة » ، وهى تلك التى ظهرت متأخرة على مسرح الصراع السياسى الاستعمارى دون أن تكون دولا جديدة فى ذاتها كالقوى الوليدة أو أن يكون لها نفوذ سابق كالقوى العتيدة . ولهذا فهى لم تمارس الاستعمار بشكله التقليدى بل تنكر صلتها بالاستعمار وتستنكره . ومع ذلك فهى متهمة من غيرها بأشكال خاصة من الاستعمار إما الاقتصادى وإما الأيديولوجى . وتتألف هذه المجموعة من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى .

هذا فى خطوط عريضة تصنيف طبقات الاستعمار غداة الحرب الثانية . أما عشتها فكان الاستعمار المباشر يغطى حوالى ٣٥٪ من مساحة العالم ، وكانت أوروبا ترى فيه بلسا ودواء كاملا panacea لكل أمراض الحرب وجراحها . كانت تحسب تلك العلامة القياسية قة الاستعمار ، بل وكانت تخطط للبقاء فى مستعمراتها قرونا عديدة^(١) | وما كان يدور بخلدائها أنها النهاية .

أجل ، فإنها لمفارقة من التاريخ أشد إثارة مما سبق ، إن ما بناه الاستعمار فى خمسة قرون هدمه التحرير فى عقدين اثنين . فبين ١٩٤٥ ، ١٩٦٥ هوت رقعة الاستعمار من ٣٥٪ من مساحة العالم إلى ٤٪ ، أى أن معدل سرعة المد التحريرى يعادل عشرات أضعاف معدل الزحف الاستعمارى ، حتى قيل إن الاستعمار إذا كان قد أتم مشرقه فى ساعات فقد عبر خط الزوال وشهد شفقته وغسقه ثم غروبه فى دقائق معدودات . وبينما أتى الاستعمار فى موجتين كبيرين لكل منهما بدوره ذبذباته الثانوية ، جاء التحرير فى

Karl Pelzer, op. cit., p. 314-5.

(١)

موجة واحدة طاغية كاسحة . وإذا كان البعض قد تحدث في هذا الصدد - تقليلا في الحقيقة - عن « رياح التغيير » ، فأولى بنا أن نقول إعصارا أو هاريكين !

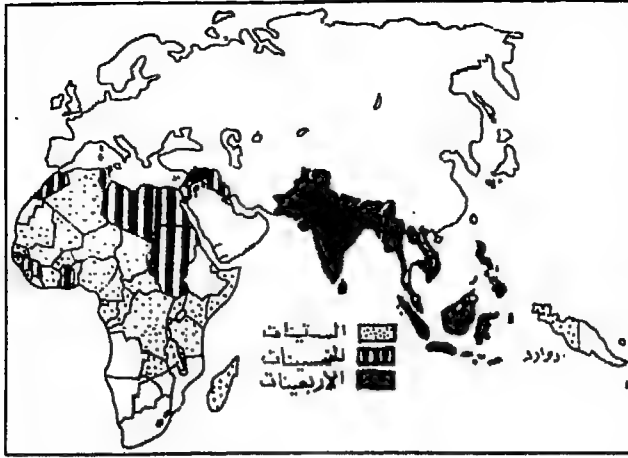
إنها بلا ريب ثورة التحرير . وإنه عصر ذوبان الاستعمار de-colonisation ما في ذلك شك . ونهاية الإمبراطورية وأوربة العالم dis-Europeanisation . وإذا كان القرن التاسع عشر قرن الاستعمار . فإن القرن العشرين بحق قرن التحرير . ولئن كان الأول وباء القرن الماضي . فإن التحرير اليوم ظاهرة « معدية » كما قيل ، ولكنها عدوى صحية حين تبدأ لا تتوقف وإنما تتداعى في سلسلة من الأفعال وردود الأفعال حتى تشكل موجة مديدة غالبة . إن الاستعمار الذي ولد ولادة غير طبيعية وغير شرعية يموت الآن ميتة طبيعية ، بل لعلنا نكون أقرب إلى الصواب إذا قلنا بالسكينة القلبية . ومعها - هذه الميتة - ينتقل الاستعمار من الجغرافيا السياسية إلى الجغرافيا التاريخية ، ويصبح من حفريات التاريخ السياسي . لقد تمت دورة كاملة من قيام وسقوط أوروبا^(١) .

غير أنه يقابل هذا التيار العام العالمى اتجاه محلى عكسى يمثل انتكاسة إلى الوراء . ففي الوقت الذى كان الاستعمار الكبير والصغير ينحسر ويتصدع عالميا ، كان استعمار جديد - ودنىء - قد بدأ في فلسطين هو الاستعمار الصهيونى حيث كرر قرصنة القرن التاسع عشر ، وجمع بين أسوأ وأسود ما في دموية النازية وعنصرية جنوب أفريقيا . غير أنه إذا كان هذا الاتجاه التعس يدل على شيء فإنما يدل على أن الاستعمار الصهيونى القمىء يأتى ضد كل تيار التاريخ - حتى التاريخ الرجعى ، حتى تاريخ الاستعمار نفسه - وأنه من ثم محكوم عليه قبلا وبختمية التاريخ بأنه قد ولد ليموت .

جغرافية التحرير

ولتتبع الآن جغرافية التحرير في خطوطها العريضة قبل أن نعرض لدوافعها وضوابطها . ومن الصعب أحيانا أن نحدد تاريخ ومسار التحرير الحقيقى ، تمييزا له عن الاستقلال الشكلى . ولكن أول تحرير حقيقى بدأ في أثناء الحرب في لبنان (١٩٤١) وسوريا (١٩٤٣) . وذلك كنتيجة لتصادم بريطانيا وفرنسا معا في اللقائات . فقد حاولت فرنسا الحرة أن تعود ، في وجه الثورة الوطنية ، إلى السيطرة في الشام ، ولكن بريطانيا تذرعت بظروف الحرب لتطرد فرنسا من المنطقة - منطقتها التقليدية - وترثها

(١) جون كول ، ص ٢٩٧ - ٢٩٩ .



شكل (٢٨) زحف موجة التحرير : في عقود ثلاثة ، هدم التحرير ما بناه الاستعمار في خمسة قرون . لاحظ الموجات الثلاثة : الأسبوية في الأربعينات ، العربية في الخمسينات ، والأفريقية في الستينات .

فيها ، فأرغمتها على التسليم للنضال الوطني بالاستقلال . ولكن الشام بداية منعزلة وإرهاصة محدودة ، أشبه بنذير النفير . أما العاصفة الحقيقية فلم تجمع قواها إلا بعد الحرب ، ومن بعدها يمكن أن نميز بين ثلاث موجات زمنية - إقليمية واضحة بما فيه الكفاية .

الموجة الأسبوية

الأولى هي الموجة الأسبوية في الأربعينات المتأخرة ، ومركزها الشرق الأقصى . ففي ١٩٤٦ « منحت » الولايات المتحدة الفلبين استقلالها - طوعية كما تلح هي دائما وتؤكد . وفي ١٩٤٧ استقلت مع التقسيم كل من الهند والباكستان وبورما ، وذلك بعد نضال وطني طويل بدأ سلميا بالمقاومة السلبية المشهورة (الساتيا جراها Satia Graha) وانتهى عنيفا في أثناء الحرب . وفي ١٩٤٨ جاء دور سيلون في الاستقلال .

ثم كانت ١٩٤٩ سنة جنوب شرق آسيا حيث خرجت فرنسا مهزومة بعد حرب عصابات تحريرية مريرة ترمز لها وتلخصها ببلاغة بل تحملها دين بين فو ، فالت كل من فيتنام ولاوس وكمبوديا (كمبوتشيا) استقلالها . وبالمثل خرجت هولندا من إندونيسيا بعد هزيمة قاسية في حرب عصابات وأدغال مماثلة في نفس التاريخ ، ولو أن تحرير إيربان الغربية تأخر إلى أوائل الستينات (١٩٦٢) . وبهذا لم تبق إلا الملايو بغير استقلال

فى هذه الموجة ، حتى انتزعتة بعد حرب عصابات مطولة فى أواخر الستينات . وكانت آخر القائمة هى جزر ملديف السديمية على أطراف الهند .

ولا ينبغي أن نتكلم عن التحرير فى آسيا دون أن نذكر دورا ما غير مباشر وغير مقصود لليابان . فقد اكتسح الغزو اليابانى جنوب شرق آسيا فى أثناء الحرب الأخيرة اكتساحا خاطفا ، حطم نهائيا قداسة القوة الاستعمارية الغربية ، وكان له تأثير صاعق على أسطورة سيادة الرجل الأبيض الذى رآه كل الآسيويين مهزوما مدحورا على أيدي آسيويين مثلهم^(١) . وأيا كانت أهداف الدعاية اليابانية من شعار « آسيا للآسيويين » ، وأيا كانت قيمة الاستقلال الوطنى الذى منحته لشعوب تلك المستعمرات إبان الغزو ، فقد أفسد هذا مرة واحدة وإلى الأبد التربة والنفسية القديمة الصالحة للاستعمار .

كذلك لجأ اليابانيون حين اضطروا إلى التسليم إلى إعطاء الأسلحة للوطنيين ، كما أن الحلفاء الاستعماريين من جانبهم سلحوا الوطنيين بقصد مقاومة اليابانيين . ولهذا حين عاد الاستعمار بعد الحرب وجد الوطنيين مسلحين ضده قويا وعسكريا . ومن هنا بدأ التحرير . وبعده ، فى المعركة نفسها ، جاء عاملان آخران ليحاربا فى صف الوطنيين ضد الاستعمار العائد .

فأما الأول فهو البيئة الطبيعية ، فإن بيئة آسيا الموسمية كانت حليفا طبيعيا لأبنائها : أدغال وأحراش وغابات كثيفة ، ثم أنهار ومستنقعات وجبال تمثل - لاسميا فى الفصل المطير - مجالا مثاليا لحرب العصابات ، يدوخ الجيوش النظامية ميكانيكية وجوية على السواء . وعلى سبيل المثال فلقد كانت الهند الصينية فى الحقيقة مصيدة طبيعية ضخمة لقوات الاستعمار ومقبرة سياسية لكل قواه ، ابتداء من بريطانيا فى الملايو وانتهاء بأمريكا فى فيتنام مروراً بفرنسا واليابان فى كل مكان . أما العامل الثانى فهو أن الاستعمار هنا كان استعمارا استغلاليا لا استيطانيا ولا استراتيجيا ، ولهذا كان على ضراوته أضعف جذورا وأسهل استئصالا .

وإلى جانب هذا وذاك جميعا بقى عامل خارجى على جانب كبير من الأهمية ، ونعنى به الموقع الجغرافى والسياسى . فمن ناحية كانت آسيا الموسمية أبعد قطاعات الاستعمار عن أوروبا ، ومن ثم أصعبها متاعا وارتباطا . ومن ناحية أخرى فقد كانت تقع على خط

Ritchie Calder, Dawn over Asia, News Chronicle Publication, 1952, p. 18. 20.

(١)

الاستواء السياسى بين الكتلتين الشرقية والغربية وتكاد تستقر على ضلوع المعسكر الشيوعى وتحارب وظهرها يستند إلى أعماق الصين . بمعنى آخر كانت أبعد شيء عن فلك الغرب الجغرافى وأدخل شيء فى فلك الشرق ، ومن هنا تدفقت عليها المساعدات بالأسلحة والتأييد ضد الاستعمار .

الموجة العربية قافلة الحرية

أما الموجة الثانية من موجات التحرير فهي موجة العالم العربى فى الخمسينات ، ولو أن طلائعها ظهرت فى لبنان وسوريا فى الأربعينات وأواخرها تأخرت فى الكويت والجزائر إلى الستينات الباكورة وفى الجنوب اليمنى إلى الستينات المتأخرة . ففي ١٩٥١ نالت ليبيا استقلالها بفضل المناورات الاستعمارية من أجل الوصاية على إرث الاستعمار الإيطالى . فقد حاولت كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا أن تتولى الوصاية على ولاياتها برقة وفزان وطرابلس على الترتيب . ولكن اعتراض الاتحاد السوفيتى على عودة إيطاليا ومحاولته أن يحل محلها كان وحده كافيا لأن يدفع بالاستعمار إلى أن يقرر الاستقلال ، لا حبا فى ليبيا ولكن كرها فى الاتحاد السوفيتى وهلعا من أن « يتسلل » إلى الشرق الأوسط^(١) .

وفى ١٩٥٣ تحررت مصر نهائيا بعد حرب عصابات ومقاومات مسلحة فى منطقة القنال ، سبقتها سلسلة من التوترات والتحديات الشعبية من قبل ، إلى أن توجت فى النهاية بحرب حقيقية كاملة وحاسمة فى ١٩٥٦ . وهذه الحرب ستكون نقطة تحول عظمى فى التحرير لا فى العالم العربى ولكن فى أفريقيا وخارجها كذلك . والواقع منذ البداية أن مصر بحكم موقعها ووزنها كانت سباقة إلى النضال التحريرى وكانت دائما مركز الوعى ومنبع الوعى فى الكفاح ضد الاستعمار ، فكانت نموذجا للمغرب العربى ومثالا للشرق ، وحجر الزاوية والقوة الركن موقعا ودورا . باختصار ، كانت مصر واحة العرب سياسيا . فنذ « ثورة » يوليو الأم ، رضع العالم العربى بنسل دافق من الثورات التحريرية ، تبدو كالأقمار حول الشمس أو كالنويات حول النواة ، وكان لكل منها بدورها صداها العميق الفاعل ، ابتداء من الجزائر وانتهاء باليمن .

P. Birot & J. Dresch, La Méditerranée et le Moyen-Orient, Paris, 1951.

ومرة أخرى كانت ١٩٥٦ عاما حاسما بالنسبة للعالم العربى الأفريقى ، إذ استقلت فيه ثلاث وحدات هى تونس والمغرب والسودان ، وبعدها بقليل استكمل العراق استقلاله الحقيقى . فى السودان استطاعت مصر « الثورة » المستقلة أن توفر له الفرصة لتصفية الحكم الثنائى ليتمكن من طرد الاستعمار البريطانى . وفى المغرب وتونس حدثت مصادمات عنيفة مع الاستعمار الفرنسى حتى اضطر إلى الخروج ، ولو أنه بقيت بعد ذلك فى تونس بعض جيوب استعمارية متخلفة فى بنزرت ظهرت فيما بعد فى ١٩٦٣ ، وفى المغرب فى الأسافين الإسبانية إفنى التى استعبدت بعد قليل ثم سبتة ومليلة وهى ما تزال حتى الآن .

وبعد ١٩٥٦ ، كانت ١٩٦٠ سنة حاسمة أخرى فى تاريخ التحرير العربى الأفريقى ، حيث تم استقلال موريتانيا فى أقصى غرب أفريقيا العربية والصومال فى أقصى جنوب شرقها . وكلتاها - يلاحظ - لم تكن معروفة تقليديا كجزء من العالم العربى وإنما تعد من تخومه (حيث الصومالية على الأقل لغة غير عربية) ، وكلتاها لم تدخل الجامعة العربية إلا متأخرة بعد ذلك كثيرا . فأما موريتانيا فقد نالت استقلالها فى ١٩٦٠ فى موجة تحرير المستعمرات الفرنسية السابقة فى وحدات أفريقيا الغربية الفرنسية .

أما فى الصومال ، على النقيض تماما ، وعلى نحو يذكركثيرا بقصة ليبيا من قبل ، فقد جاءت القصة معقدة مفعمة للغاية . فلقد حاولت بريطانيا ، التى كانت قد احتلت الصومالين البريطانى والإيطالى أثناء الحرب الثانية ، أن تضع يدها عليه سياسيا بعد الحرب ، وذلك تحت قناع فكرة « الصومال الكبير » التى هى أمل الصوماليين الأكبر . ولكن معارضة القوى الكبرى والصغرى ، المعادية والخليفة ، الغربية والقريبة ، على السواء ، التى تراوحت بين اقتراح فرنسى بعودة الحكم الإيطالى إلى الصومال الإيطالى وبين اقتراح أمريكى بتدويل الوصاية عليه جميعا ، انتهت بالأمم المتحدة فى ١٩٥٠ إلى إقرار وصاية إيطالية لمدة ١٠ سنوات تحتتم بالاستقلال الكامل فى ١٩٦٠ . وهكذا بالفعل ، وبدور مصرى مشهود ، كان ، وتم تحرير الصومال . غير أن هذا ترك ولا يزال أجزاء سلبية من الصومال هى مثلث الصومال الإثيوبى فى الحوض وأوجادن ونطاق الصومال الكينى فى أقصى الجنوب .

مهما يكن ، فهذا كله يكون العالم العربى الأفريقى قد تحرر فى معظمه حتى سنة ١٩٦٠ ، فيما عدا الجزائر التى أتى دورها فى ١٩٦٢ بعد حرب تحريرية سبعة كاملة - حرب السنوات السبع العربية - كلفت الجزائر مليون ونصف مليون من الشهداء ، ولعبت فيها المساعدة الحربية والسياسية المصرية دورا خطيرا . ومما له مغزاه أن ثورة

التحرير الجزائرية لم تشتعل إلا بعد عام من الثورة المصرية . فضلا عن هذا فإن فرنسا لم تشارك في حرب السويس إلا « لتخضع الجزائر عن طريق القاهرة » .

هذا ، وقبل الجزائر وفي ١٩٦١ كانت الكويت قد تحررت على الخليج ، منتزعة استقلالها من بين برائن الاستعمار البترولي في صميمه . أما بعد الجزائر - وعلى نحو يكررها على تصغير شديد - فقد سجل الجنوب العربي آخر موجات المد القومي ، حيث أرغم الاستعمار البريطاني على الخروج في أواخر ١٩٦٧ من « عدن والمحميات » أو « اتحاد الجنوب العربي » كما سماها الاستعمار على التعاقب ، وحيث قامت جمهورية جديدة باسم جنوب اليمن بعد حرب تحريرية حقيقية بدأت منذ ١٩٦٤ ، تحت إحياء الثورة اليمنية الملاصقة وفي ظل المساعدة المصرية - تماما كما بدأت الثورة الجزائرية .

وسلاحظ عند هذا الحد أنه بالعالم العربي قد بدأت أول عملية تحرير في أفريقيا على طول ضلعي ساحل البحر الأحمر والمتوسط . أما في آسيا العربية فن السهل أن نرى سهم الحركة يبدأ من الشمال عموما سواء في الشام أو العراق ثم يرسم قوسا عريضا عكس عقارب الساعة ليصل إلى الجنوب اليمنى . وكان من الواضح أنه سيمضى في نفس الاتجاه على طول بقية سواحل الجنوب العربي ثم إلى الخليج العربي في النهاية ، أى على نفس المحور الذى تمدد عليه الاستعمار في البداية . وبالفعل ، فلقد أرغمت بريطانيا تحت ضغط المد العربي على الانسحاب من الخليج العربي نهائيا قبل ١٩٧١ .

أخيرا ، وفي السبعينات الباكورة أيضا ، تم تصفية بعض الجيوب المتخلفة هنا وهناك على الجانب الآخر من البحر الأحمر . فعلى هامش أو جنب موريتانيا جاء دور منطقة الصحراء الإسبانية بشقيها وادي الذهب (ريودي أورو) والساقية الحمراء في أوائل العقد . فهذا الجيب الإسباني المزروع بين موريتانيا والمغرب تم اقتحامه سلميا « بمسيرة خضراء » من جانب المغرب ودون مقاومة من جانب إسبانيا عمليا . وبذلك تم تحريره ثم اقتسامه بين الجارتين العربيتين : الساقية في الشمال للمغرب والوادي في الجنوب لموريتانيا . بالمثل على الجانب الصومالى وفي نفس التاريخ تقريبا ، لحق الصومال الفرنسى بقافلة التحرير وأصبح دولة مستقلة باسم جيبوتى .

تلك إذن هى موجة التحرير العربية بجزئياتها وتفصيلها من البداية إلى النهاية . غير أن لنا قبل أن ننظر إليها نظرة كلية جامعة أن نذكر على هامشها أو بين تضاعيفها بعض حالات متفرقة من التحرير هنا وهناك ، لا تتركب أو تدخل طبعاً فيها ولكن قد لا تباعد أو تنفصل تماما عنها . فعلى ضلوع العالم العربي الشمالية وعلى حواشى الموجة العربية ، ثمة

كان تحرير قبرص في ١٩٦٠ ثم مالطه في السبعينات وذلك من استعمار بريطاني استراتيجي مقيم منذ أواخر القرن ١٩ في الأولى وأوائله في الثانية ، أو قل بالتحديد منذ الاحتلال البريطاني لمصر والحملة الفرنسية عليها على الترتيب . وقد تحقق استقلال قبرص بالذات بعد حرب عصابات مضنية قاسية ، ومن المحقق أن المثل العربي عامة والمصري خاصة لعب دورا ما في هذه الملحمة .

خلاصة المسيرة

لا يبقى لنا الآن ، إذا انتقلنا في الختام من التفصيل إلى التعميم ، إلا أن نلاحظ من ناحية المسار الجغرافي للمسيرة أن أفريقيا العربية وآسيا العربية كانتا تتبادلان خلالها التسابق وتناوبان الأولوية في سباق التحرير بصورة معبرة ، فمرة تسبق هذه وتلك تتخلف ، ثم العكس ، وهكذا . لكن الغريب أن بقايا الاستعمار في أفريقيا العربية الآن إنما هي ، باستثناء الجيبين الإسبانيين في المغرب ، مما يمكن أن نسميه للأسف « بالاستعمار الأفريقي » ، حيث تحتل إثيوبيا كلا من إرتريا في الشمال والصومال الإثيوبي في الجنوب ، وذلك في وجه حرب عصابات تحريرية لم تنقطع في الأولى وفي وجه حروب عسكرية عديدة ومجابهات مسلحة متقطعة في الثاني ، هذا بالإضافة إلى الصومال الكيني الذي تحتله كينيا . ومعنى هذا أن بعض أفريقيا اليوم هو ، للغرابة والصدمة ، الذي يحتل بعض العالم العربي ، لا العكس ولا الأوربيين ...

أما في آسيا العربية ، التي كانت معقل القطاع الوحيد الذي نجا من الاستعمار أولا وموطن بدء عملية التحرير ثانيا ، فإن اللافت هنا أنها قد أصبحت المعقل الأخير لأخطر أنواع الاستعمار المتخلفة في العالم أجمع وهو الاستعمار الصهيوني الإسرائيلي في فلسطين المحتلة . وبهذا وذاك يكون العالم العربي بالدقة هو ، للدهشة والأسف ، من أكثر وحدات العالم تخلفا في التحرير وامتلاء ببقايا الاستعمار المتخلفة (سبتة ومليلة في المغرب ، إرتريا والصومالان الإثيوبي والكيني في القرن الأفريقي ، فلسطين العربية) .

ومن ناحية المدى الزمني لكل من المد الاستعماري والمد التحرير ، فالظاهرة اللافتة بوضوح هي شدة تضاعف الثاني بالقياس إلى الأول ، فما بناه الاستعمار في ٩٠ سنة - باستثناء فلسطين المحتلة - هدمه التحرير أو هدم معظمه في أقل من ٢٥ سنة . أما من حيث الترتيب التاريخي وتوقيت التحرير ، فسنلاحظ نوعا عريضا وعاما - دون أن يكون مطردا مع ذلك بأي معنى - من العلاقة العكسية بين أولوية الاستعمار وأولوية

التحرير . فبصورة تقريبية كانت آخر الوحدات العربية التي سقطت للاستعمار (كسوريا ولبنان وليبيا من ضحايا الموجة الثالثة) هى من أبكرها استقلالاً ، بينما كانت آخرها استقلالاً هى أولى ضحايا الاستعمار (الجزائر والجنوب اليمنى من ضحايا الموجة الأولى) . وباستثناء الشذوذ البحث فى فلسطين المحتلة مرة أخرى ، فكل بقايا الاستعمار حتى السبعينات هى أيضاً من ضحايا الموجة الأولى . ويترتب على هذا كله أن أولى الضحايا كانت سيئة الحظ مرتين ، وكان عمر الاستعمار فيها أطول مرتين .

من ضوابط التحرير

وإذا نحن توقفنا لتتمعن ضوابط التحرير فى العالم العربى ، فلن نخطئ أثر الموقع الجغرافى ونوع الاستعمار بالاضافة إلى البيئة الطبيعية . فمن بين كل مناطق الاستعمار فى العالم القديم ، يقع العالم العربى أقرب ما يقع إلى أوربا ، بل هو أدخل فى فلكها الجغرافى . وبالتالي فقد كان من السهل على الاستعمار أن يشدد قبضته هنا دون أن يقابل مواجهة مباشرة من توازن قوى مع معسكر مضاد أو كتلة أخرى .

كذلك فقد كانت جذور الاستعمار هنا متغلغلة عميقة لأن نوعه السائد كان إما من الاستعمار الاستراتيجى كما فى مصر بوجه خاص وإما من الاستعمار الاستيطانى كما فى الجزائر بوجه خاص . كما جاء البترول فى سواحل المشرق العربى ليدعم الجانب الاستراتيجى ويضيف الجانب الاستغلالى فى طبيعة الاستعمار . ولهذا استمات الاستعمار بشراسة وقابل المقاومة الوطنية بمزيد من القوة الضارية . فى مصر يرمز الكفاح المسلح وحربا القنال إلى مدى صعوبة استئصال الاستعمار الاستراتيجى . ولو أن الهند قد استقلت فى وقت مبكر ، فلربما كان الراجح أن تنتزع مصر استقلالها منذ ذلك التاريخ .

أما فى الجزائر حيث وصل الاستعمار الاستيطانى إلى أبشع درجاته وأشدّها ضراوة حتى اعتبرها جزءاً لا يتجزأ من وطنه ، فقد أثبتت التجربة أن مشكلة التحرير مع الاستعمار الاستيطانى مشكلة مزدوجة ، فهو لا يكافح القوة المتروبوليتانية فقط بل والمستوطنين أيضاً . فكلماً أشرف على انتزاع تنازلات من الجانب الأول ، تحول الثانى إلى عصابة إرهابية داخلية « تأخذ القانون فى يدها » وتفرض نوعاً خاصاً من حكم الملاك Landocracy هو حكم ملاك الاستعمار Plantocracy . وتعلن العصيان والتمرد على الحكومة « الأم » مهددة « بحرب استقلال » (!) للانسلاخ عنها والانفراد بالمستعمرة .

ثم حاول إرهاب المتوطنين أن يفرض ، دون جدوى ، التقسيم إلى دولتين

مستقلتين ، أوربية على الساحل المعمور ووطنية في الداخل الصحراوي ، إلى أن قذف به التحرير في البحر تماما . وفي جبهة المعركة أخذت الطبيعة ، كقلعة جبلية غاية وعرة ، صف الوطنيين ، تهيئ لهم حرب العصابات في الوقت الذي تضاد جيوش المستعمر الميكانيكية والجوية ، حتى أصبحت القبائل وأوراس رمزا وطنيا وموطنا للتحدي والنضال القومي .

ورغم أن الاستعمار في الجنوب اليمنى لم يكن سكنيا استيطانيا ، فقد استمات في تشبته بالبقاء ، وذلك بسبب طبيعته الاستراتيجية - وبفضلها أيضا . فنذ ضياع السويس أصبحت عدن أضخم قاعدة بريطانية بحرية شرق السويس ، وذلك أساسا في منطقة مخلخلة السكان نسبيا . ولكن الأرض هنا - كما هي القاعدة دائما - حاربت مع أبنائها ، وتكررت تجربة الجزائر على مقياس مصغر . فلعبت جبال ردفان - كأوراس - دور المشعل والمعلل في حرب العصابات ، بينا لعبت عدن بأحيائها الشعبية المكتظة دور مدن الساحل الجزائري بقصباتها الوطنية الشهيرة . وكما ناور الاستثمار في الجزائر بخدعة التقسيم ، ناور في الجنوب العربي - دون جدوى أيضا - بمحاولة فصل الجزر الساحلية عن الأرض الأم ليتخذ منها قواعد أو حاملات طائرات لا تفرق تدخل في فلك استراتيجيته الجديدة العامة ، استراتيجية الجزر المحيطية في المحيط الهندي .

الموجة الأفريقية

تبقى الآن الموجة الثالثة والأخيرة للتحرير وهي الأفريقية - بمعنى أفريقيا المدارية - في الستينات^(١) . ولقد سبقتها في الواقع بعض حالات معزولة في أخريات الخمسينات تضم غانا في سنة ١٩٥٧ وغينيا في سنة ١٩٥٨ حيث كانتا أولى الدول الأفريقية المدارية استقلالا . وكذلك كان هناك من قبل دولتان أفريقيتان مستقلتان منذ القدم هما إثيوبيا وليبيريا - إثيوبيا لظروفها الطبيعية كقلعة جبلية منيعة لم تسقط للاستعمار إلا في الفترة الإيطالية ، وليبيريا لظروف إنشائها لتحرير الرقيق الأمريكي العائد . فكلاهما « استقلال سلبى » إن صح التعبير .

وإنما تنتقل إلى قلب أوقمة الموجة التحريرية الأفريقية في سنة ١٩٦٠ ، فهي علامة كبرى في تاريخ القارة وسنة القدر والقدر بالنسبة لها . فإلى ما قبل هذا التاريخ كان

(١) حمدان . أفريقيا الجديدة .

بالقارة كلها عشر دول مستقلة فقط لا تزيد مساحتها عن ٣,٤٧٠,٠٠٠ ميل مربع أو ٣٠٪ من مساحة القارة ، ولا يزيد سكانها عن ١٠٢,٣٤٠,٠٠٠ نسمة أو ٤١,٧٪ من سكان القارة . فإذا بسنة ١٩٦٠ - سنة أفريقيا كما وصفت - تضيف إلى قائمة التحرير ١٧ دولة جديدة بمجموع مساحة قدره ٤,٥٧٠,٠٠٠ ميل مربع أو ٤١٪ من القارة ، وبمجموع سكان قدره ٨١,٩٤٥,٠٠٠ نسمة أو ٢٣,٥٪ من القارة .

ومعنى هذا المعدل المذهل استقلال أكثر من دولة كل شهر من ذلك العام . وتشمل هذه المجموعة كل وحدات أفريقيا الاستوائية الفرنسية وأفريقيا الغربية الفرنسية السابقتين ، مضافا إليهما نيجيريا والكونجو (كينشاسا ، زائير فيما بعد) وملاياش . وبهذه الموجة تم تحرير غرب أفريقيا كله تقريبا ، كما عبر التحرير خط الاستواء لأول مرة .

ومنذ سنة ١٩٦٠ حتى الوقت الحالى لم يتوقف زحف الحرية . ففي السنوات الخمس الأولى استكملت الثغرات المتخلفة في غرب إفريقيا استقلالها وذلك في سيراليون ثم في جامبيا ، ولكن مركز ثقل التحرير انتقل أساسا إلى شرق القارة ، فهنا نالت ٨ وحدات استقلالها ابتداء من أوغندا وكينيا حتى نياسالاند (ملاوى) وروديسيا الشمالية (زامبيا) بلا انقطاع ، مورا بتنجانيقا وزنبار (تانزانيا) ورواندا وبوروندى . وبذلك تم تحرير كل حوض النيل من ناحية ، ووصلت طلائع الحرية إلى حوالى خط عرض ١٨ درجة جنوبا من ناحية أخرى حيث أرسلت سهبا في صميم كتلة الاستعمار المتخلفة في أفريقيا الجنوبية .

وعدا هذا فند سنة ١٩٦٥ حتى نهاية سنة ١٩٦٧ تم استقلال تشوانالند (بوتسوانا) وباسوتولند (ليسوتو) ، كما استقلت جزيرة موريشس في العام التالى . وبهذا وصلت طلائع التحرير إلى خط عرض ٢٨° أو ٣٠° جنوبا ، أى أن التحرير قفز ٣٠ درجة عرضية في ٧ سنين في النصف الجنوبي من القارة وحده .

وعلى هذا كانت المحصلة العامة حتى ١٩٦٨ هى أن عدد الوحدات المستقلة في القارة الأفريقية قد وصل إلى ٣٩ وحدة ، مجموع مساحتها نحو ١٠,٣ ملايين ميل مربع أو نحو ٨٨,١٪ من مساحة القارة ، ومحتواها السكاني لا يقل عن ٢٣٤ مليون نسمة أو حوالى ٩٣,٥٪ من أبناء القارة . وبهذا لم يتبق أمام أفريقيا سوى بضع خطوات أو قفزات قصيرة لتستكمل تحريرها . وهذا ما تم فعلا خلال السبعينات ، ولذا يأتي هذا العقد كملحق لعقد أفريقيا الستينات أو كالفصل الأخير في دراما التحرير .

في هذا العقد اقتلع مد التحرير بعض الوحدات الضخمة خاصة في مثلث الجنوب ، كما اكتسح عديدا من الوحدات الضئيلة خاصة في مستطيل الشمال ، بالاضافة إلى معظم جزر القارة سواء في المحيط الأطلسي أو الهندي . فاما الأولى فتشمل ثلاثية أنجولا وموزمبيق البرتغاليتين بينهما روديسيا (الجنوبية) البريطانية سابقا والمستقلة لاحقا (وزيمبابوي بعد التحرير) . ففي الأولين قامت حرب عصابات حقيقية بين الوطنيين والحكم البرتغالي ، بينما قامت في الأخيرة بين الوطنيين والأقلية البيضاء الحاكمة . وفي الجميع استمرت الحروب بضع سنين ولعبت دورا خطيرا في السياسة الدولية بمساوماتها وصفقاتها ، إلى أن فرض التحرير نفسه في النهاية بقوة السلاح . أما عن الوحدات الضئيلة ، فلقد عرضنا من قبل للصومال الفرنسي في أقصى القرن الأفريقي وللصحراء الإسبانية في المغرب الأقصى . وفيما عدا هذا فقد تركزت البؤرة على دائرتين صغيرتين تقعان على أقصى طرفي غرب أفريقيا أو خليج غينيا ، تتألف كلتاهما من جيب ساحلي أو أكثر على اليابس وجزيرة أو أكثر تواجهه في المحيط ، وكلتاهما أيضا تتعلق بإسبانيا أو البرتغال .

ففي الدائرة الغربية عند نهايات الانبعاث الأفريقي الكبير تم تخليص غينيا البرتغالية (غينيا بيساو) على اليابس وجزر الرأس الأخضر (كيب فيرد) إزاءها بعد حرب عصابات محلية طويلة . وفي الدائرة الشرقية عند كوع أو زاوية أفريقيا في خليج غينيا أو بياfra تم تصفية الوجود الإسباني من جيب ريو موني المحصور بين الكرون والجابون ومن مجموعة جزر فرناندو بو وأنويون لتقوم عليها دولة غينيا الاستوائية . وبالمثل طرد الاستعمار البرتغالي من جيب كابندا المهندس بين الكونجو برازافيل والكونجو كينشاسا (زائير) وأنجولا ثم من مجموعة جزر برنسيب وساو تومي في الخليج .

هذا على جانب الأطلسي ، أما على جانب الهندي فقد تركزت الدائرة حول جزيرة مدغشقر . فكان الدور على جزر القمر (كومورو) ورينيون الفرنسية ، ثم جزر سيشل وموريشس البريطانية .

بهذا كله وبانتهاء السبعينات كانت أفريقيا جميعا قد تحررت تقريبا فيما عدا جمهورية جنوب أفريقيا (بما في ذلك ناميبيا أو جنوب غرب أفريقيا) ثم الجيوب القزمية المتخلفة بالاضافة إلى حالات « الاستعمار الأفريقي » الشاذة . وهذا أيضا تكون أكبر حركة تحريرية في العصر الحديث قد تحققت في أفريقيا ، وذلك من حيث المساحة وإن لم يكن من حيث السكان . فكيف تبدو هذه الحركة في مجموعها ككل ؟

الخلاصة

إذا نظرنا إلى أفريقيا ككل فسنرى أن التحرير بوجه عام بدأ أولا بساحلى البحر المتوسط والأحمر . ثم إلى زينيا غرب أفريقيا بعامة ، يتبعه مباشرة تقريبا نطاق الصحراء الكبرى وحوض الكونغو . بعد ذلك عبرت قافلة الحرية خط الاستواء ، وزحفت من شرق أفريقيا إلى وسطها على طول العمود الفقرى لخط المرتفعات والهضاب الشرقية ، تماما على عكس مسار الاستعمار الأبيض هنا فى القرن الماضى . فسهم التحرير فى القارة بعامة يرسم إذن اتجاهها محددًا واضحًا من الشمال إلى الجنوب .

وفى التحرير الأفريقى لا يمكن أن نغفل أثر نوع الاستعمار ودور الطبيعة . ففيما عدا جزرا جغرافية معينة من الاستعمار السكنى الاستيطانى ، كان الاستعمار الاستغلالى هو الذى يسود القارة المدارية . فى ظل هذا الأخير لم يجد التحرير عقبات مستحيلة . فالجاليات الأوربية رشاش أو رذاذ بالغ الضآلة عددا وقوة بفضل المناخ الطارد ، ولا تملك المقاومة الجديدة ، ويسهل على المد التحريرى اقتلاعها . ولقد قيل على سبيل المثال فى غرب أفريقيا « إن بعوضة الملاريا هى المنقذ الحقيقى » .

أما فى جزر الاستعمار السكنى الاستيطانى حيث يتضخم عدد وقوة الدخيل ، فكان لا بد من التحام دموى . ومن حسن الحظ أن الطبيعة الجبلية العالية التى كانت فى البدء مغنطيس الاستعمار السكنى الاستيطانى ، كانت بعينها فى النهاية عامل طرده ، وأن الطبوغرافيا التى كانت عونًا له أصبحت عونًا عليه ، وذلك بحسبانها ميدانًا مواتيًا لحرب العصابات الوطنية . تلك تجربة متواترة عرفتها إثيوبيا ضد الإيطاليين ، وخاضتها الكيكويو فى كينيا ، وكررتها بعدها مرتفعات أنجولا . بل قبل هذا جميعا عرفتها قبائل الزولو والتابيلي (نديبلى) فى مرتفعات جنوب أفريقيا حيث استمر الكفاح قرنا بأكمله على فترات متقطعة فى « حرب الكافير » حتى سميت بمجادة حرب المائة عام الأفريقية^(١) .

وإذا نحن الآن نظرنا نظرة مقارنة إلى حركة التحرير فى كل من آسيا الموسمية والعالم العربى وأفريقيا المدارية ، فقد يمكن أن نقول إن الصراع فى الأولى كان أقرب إلى الشكل العسكرى وانتظم حروبا حقيقية عنيفة ومبررة ، منظمة أو بالعصابات . أما فى

العالم العربي فإن الحروب المسلحة تتقاسم الصراع مع الكفاح الشعبي بنسب متقاربة ، غير أن حركة النضال به كانت أطول مدى وزمنا منها في آسيا . وأما التحرير في أفريقيا المدارية فهو وإن لم يخل من العنصر الحزبي فقد كان أقرب إلى الكفاح السياسى الشعبى بعامه . وتحقق بسرعة وسهولة نسبية لا تقارن بأى من المنطقتين الآخرين ، ولا شك أن هذا يرجع جزئيا إلى أنها قد أفادت من ثمار نضالها العنيف أو الطويل .

موجة محيطية رابعة ؟

تلك إذن هى موجات التحرير الثلاث فى العالم القديم . ولكن قبل أن نتقدم بعدها ينبغى أن نتذكر أن حركة التحرير لم تقتصر على العالم القديم ولا انحصرت فى اليابس وحده ، وإن كان هذا وذاك هما المسرح الرئيسى لها بطبيعة الحال . ذلك أن الاستعمار كان كلما طورد وطرده من القارات تفهقر بانتظام ولكن بعناد إلى المحيطات بجزرها الساحلية والعميقة ليتمترس فيها كخط الدفاع الأخير أو ليتخندق بها كالملاجأ الأخير . ولكن بلا جدوى ، إذ سرعان ما كان المد التحريرى يلاحقه إلى تلك الجزر حيث يقتلعه منها بدورها ، فيزداد هو بدوره إمعانا فى التراجع إلى الأعماق وإلى أقصى أطراف المعمور والمعمورة ، وهكذا . أو كما صور بعض المراقبين ، كان الاستعمار المنحسر أشبه بالغريق الذى يتشبث بآخر قشة ، وكانت الجزر المحيطية هى القشة الأخيرة تلك . ولكن أيضا إلى حين ، حين يدفن نهائيا فى البحر . أو كما علق مراقب آخر ، إذا كان الاستعمار الحديث قد ولد فى الأعم الأغلب بحريا وعمد وراء البحار ، فإنه لمنطوق جدا - أليس كذلك ؟ - أن يدفن الآن فى البحار .

من هنا ، على أية حال ، تبدو ظاهرة استقلال الجزر البحرية والمحيطية كخلفية مستمرة لحركة التحرير الرئيسية بمراحلها الثلاث عموما ، تبدأ خفيفة ولكنها غير خافية ثم تمضى وثيدة ولكنها متصاعدة متسارعة ، حيث بزغت فى الأربعينات ولكنها لم تشتد إلا منذ الستينات خصوصا وفى السبعينات أساسا . ولهذا فلعلنا أن نعلها بمثابة موجة أو شبه موجة رابعة أو تكميلية فى حركة التحرير التاريخية ، لا تتركز فى فترة زمنية بالضرورة ولا تنحصر فى منطقة اقليمية بعينها ، ولكن تغطى الكرة الأرضية عموما بنصفها الشمالى والجنوبى والغربى والشرقى ، وإن تبلورت أكثر فى النصف الجنوبى والشرقى بالطبع .

ولنفصل . فى ١٩٤٤ انفصلت أيسلند عن الدنمرك كدولة مستقلة . وفى ١٩٦٠ استقلت قبرص ، بينما كانت جميعا وتوباغو أول ما نالت استقلالها فى جزر الأنثيل

الصغرى بالكاريبى فى ١٩٦٢ . وعلى ساحل أمريكا الجنوبية المقابل تم استقلال جيانا البريطانية (جويانا) منذ ١٩٦٦ . ثم لم تلبث الحركة أن انطلقت فى السبعينات متفازة مابين الجزر الساحلية والجيوب الساحلية وما بين الجزر المحيطية والأعماق .

فن مالطه فى المتوسط ، إلى الجزر الإفريقية فى الأطلسى كالرأس الأخضر ، ولكن خاصة فى الهندى كالقمر ورينيون وسيشل وموريشس ودييجو جارسيا ، ثم إلى بقية الجزر الفستونية أو القوسية بالأنثيل الصغرى والكبرى فى الكاريبى مثل بهاما وترينداد وبربادوس وأنتيغوا وويندوارد وجواديلوب والمارتينيك ، فضلا عن سورينام (جيانا الهولندية) وبليز (هندوراس البريطانية) على الساحل المواجه ، ثم أخيرا إلى الجزر الأرخيبيلية السديمية التى تفوق الحصر فى ميلانيزيا وبولينيزيا وميكرونيزيا فى الهادى مثل فيجى وتونجا وفانوتو وبابوا وجزر سولومون وكيريبانى وتوخالو... الخ .

فطوال السبعينات كان كثير من هذه الجزر هنا وهناك يحصل على استقلاله ليؤلف دولا بذاتها وإن كانت بالغة الضالة mini-states إلى حد أن أحدا لا يكاد يحس بها سوى سجلات وأروقة الأمم المتحدة ولا يسمع عنها سوى الجغرافيين والساسة . وسرى بعد قليل دور هذه الجزر وأشباه الجزر فى تضخيم عدد الوحدات السياسية بالعالم مع سيادة الأحجام الضئيلة والقزمية عليها .

مغزى الزحف

تتابع وتعاصر

السؤال الآن : هذا الزحف التحريرى بنمطه التاريخى الواضح ، ماذا يقول للجغرافى ؟ حقيقتين بارزتين : أولاها أن هناك فارقا زمنيا طفيفا ولكنه دال بما فيه الكفاية بين قطاعات العالم القديم فى توقيت التحرير . فمسار الحركة يرسم قوسا عكس عقارب الساعة يدور مع سواحل المحيط الهندى أو موازيا له ، بادئا فى آسيا الموسمية ومارا بالعالم العربى ثم منتبيا بأفريقيا المدارية . ومعنى هذا بوجه عام أن التحرير العربى بدأ زمنيا حيث انتهى التحرير الآسيوى ، بينما حيث انتهى هو بدأ التحرير الأفريقى .

الحقيقة الثانية : هى أن هذه الفروق الزمنية لا تنفى أن زحف التحرير جميعا موجة واحدة متعاصرة ملتحمة أساسا وإن تعددت شعبا وتتابعت خطوات . ولا ينبغى أن يخذعنا التفاوت الزمنى الدقيق عن ذلك . فالحركة كلها مركزة فى نحو عشرين عاما لا

تزيد ، وهى - إذا وسعنا البؤرة قليلا - مجرد لحظة في مقياس التاريخ السياسى وحياة الأمم . فأى معنى إذن لهاتين الظاهرتين ، وهل لهما مغزى نضالى خاص ؟

كثيرا ما تفسر المتابعة الأولى على أن التحرير العربى رد فعل تابع وظيفيا تال تاريخيا للمد الأسوى . ولكن هذا الترتيب إنما هو ترتيب تواريخ الاستقلال الرسمى . والتحرير العربى يمكن أن نقول إنه بدأ منذ بدأ الاستعمار . فكل الثورات والانتفاضات في الجزائر والمغرب الكبير وفى مصر والشام والعراق والتي ترصع كل عقود القرن الماضى والحاضر دليل واضح . هل نريد دليلا أوضح ؟

من المحقق تاريخيا أن ثورة سنة ١٩١٩ في مصر كان لها صدى هائل في الهند خاصة وآسيا عامة ، وكانت وحيا لحركات تحريرية متلاحقة هناك . ومن ناحية أخرى فإنه إذا أخذنا الناحية الشكلية ، فإن مصر تعد دولة مستقلة ذات سيادة منذ سنة ١٩٢٢ ، وإلا فمند سنة ١٩٣٦ . والعراق منذ سنة ١٩٣٤ . هذا عدا أن سوريا ولبنان قد تحررتا فعلا قبل أى وحدة في آسيا الموسمية . ومعنى هذا أن التحرير وإن تأخر ظاهريا في مجموعه في العالم العربى عنه في آسيا الموسمية ، فهو أسبق واقعيا .

وهذا هو الترتيب المنطقى للأشياء ، لأن العالم العربى ليس أقرب إلى أوروبا في الموقع الجغرافى فقط ولكن في الموقع الحضارى كذلك . وكما أن القوة الحضارية النسبية للعالم العربى هى التى أخرت دخول الاستعمار الغربى إليه طويلا عنه في آسيا الموسمية ، فإنها هى نفسها التى تفسر سبق التحرير الفعلى العربى عن الأسوى . أما لماذا تأخر النجاح القانونى للتحرير العربى رغم هذا السبق الحضارى والنضالى ، فيرجع أساسا إلى الموقع الاستراتيجى للعالم العربى كشریان المواصلات الاستعمارية مما جعل الاستعمار أكثر ما يكون تشبثا به وضراوة فيه . لاسيما أن قرب هذا الموقع الشديد من أوروبا قد شدد من قبضتها عليه وكبتها له . فوقفه التحريرى إذن أدق وأصعب . قارن مثلا نضال الهند الصينية بنضال الجزائر إزاء فرنسا ، ونضال الهند بنضال مصر إزاء بريطانيا .

أما بالنسبة إلى أفريقيا المدارية فلا شك أن الحقيقة المقررة ، والمعترف بها من الجميع ، هى أن المثل العربى كان مباشرا وحاسما في تفجير وتحريك الثورة التحريرية على تخومه الجنوبية ، بل تعدى التأثير إلى النطاق العملى بالمساعدة الإيجابية حتى كان العالم العربى في مجموعه بحق « واحة أفريقيا » سياسيا . ومن المحقق على وجه التحديد أن حرب السويس الفاصلة في سنة ١٩٥٦ كانت علامة تاريخية وإشارة بدء لأفريقيا المدارية بالانطلاق نحو التحرير .

والحقيقة أننا يمكن أن نؤرخ لبدء حركة التحرير الفعالة جنوب الصحراء بهذه المعركة - أرماجدون أفريقيا الجديدة . وليس من الصدفة أن أول نجاح تحققه في غانا وغينيا كان في سنة ١٩٥٨ ، أى بعد عامين من تلك المعركة . والواقع أن أثر معركة السويس في تحرير أفريقيا يشبه - إلى حد ما ومع الفارق - أثر اليابان غير المقصود في تحرير آسيا . ففيها شهدت أفريقيا مع العالم هزيمة الرجل الأبيض والجيش الأوربية ، ومعها تحطمت أسطورة التفوق التقليدية ، وبها اقتنعت أفريقيا بأنها قادرة على أن تتحدى الاستعمار وتطارده .

وعلى هذا فالخلاصة أنه سواء بالنسبة للجناح الأسوي أو الأفريقي من العالم المدارى ، يقف العالم العربى موقفا رياديا كنواة للتحرير ، وكان دائما كأقرب أجزاء العالم الثالث إلى أوروبا موقعا وقامة يمتاز بدينامية جيوبوليتيكية فياضة بالإشعاع السياسى فيما حولها . ولعل هذا هو التفسير الصحيح لتتابع مراحل التحرير الحقيقى داخل قطاعات العالم القديم زمنيا .

ويبقى الآن التعاصر الأسى والقاعدى بينها رغم ذلك . وهذا التعاصر هو الذى يفسر تفاوت عمر الاستعمار بشدة بين تلك القطاعات . إذ أن هناك بدايات مختلفة جدا تاريخيا ، ولكن تاريخ النهاية واحد عموما . فى آسيا الموسمية وصل الاستعمار إلى أرذل العمر بالتأكد ، حيث عمر الاستعمار الهولندى وحده فى إندونيسيا ٣٥٠ سنة ، وحيث خضرم الاستعمار فى الهند قرنين ، وفى الهند الصينية نحو قرن . على النقيض من هذا أفريقيا المدارية حيث - باستثناء السواحل - لا يزيد عمر الاستعمار عن ٧٠ سنة فى المتوسط . أما فى العالم العربى فالحد الأقصى يزيد قليلا عن المتوسط الأفريقى ، ولا يزيد كثيرا عن الحد الأدنى الأسوي ، أما الحد الأدنى فيقل كثيرا جدا عن أى منها .

روح العصر والميكانيزم

ثم يعود السؤال : لماذا تعاصرت ظاهرة التحرير فى العالم عموما ؟ والرد يمكن - فى كلمة واحدة - فى روح العصر Zeitgeist . لقد أصبح التحرير هو إيديولوجية الشعوب التى طال كبتها وروح العصر السارية السائدة . وإنه هو المناخ السياسى الذى جعل الثورة على الاستعمار ظاهرة كوكبية فى العالم كله لا علاقة لتوقيتها بعمر الاستعمار هنا أو هناك - دون أن يقلل هذا البتة من دور الكفاح الوطنى نفسه ، وإنما هو كان فرصة مواتية استفاد منها هذا الكفاح إفادة ذكية شجاعة .

ولكن لاشك أن وراء روح العصر هذه عوامل مادية وسياسية صلبة علينا أن نبحث عنها . وفى هذا يمكن أن نتعرف على عاملين رئيسيين . فهناك أولا ميكانيكية نمو المستعمرات . فالاستعمار سلاح ذو حدين . فحتى يستغل مستعمرته لمصلحته ، فإنه يضطر راغما إلى إدخال الوسائل الحضارية والتكنولوجية التى تساعده على ذلك . أى أنه يعجل بعملية الاحتكاك الحضارى والتحضير التى تنعكس على الوطنيين نمواً فى القوة البشرية وفى الكفاءة الفنية ، فيشتد ساعدتهم وقدرتهم المادية على النضال السياسى .

وليس أقل أهمية من الناحية المادية النواحي النفسية . فالاحتكاك الحضارى مع بداية الاستعمار يصيب الوطنيين بانبهار حضارى وانبهار نفسى يسهل الانتصار للاستعمار . ولكن مع تشرهم وتمرسهم بالحضارة الجديدة - والإلف يورث الاحتقار - يدركون أسرارها بل ويدركون فضلهم التاريخى فيها ، مما يرفع روحهم المعنوية إزاء المستعمر ويحل مركب النقص الحضارى . وبمعنى آخر فإن كلا من ميكانيزم وسيكولوجية الاحتكاك الحضارى لا يلبث أن يقوى ساعد التحرير ماديا ومعنويا حتى ينجح فى طرد الاستعمار .

والخلاصة أن الاحتكاك الحضارى الذى يصاحب الاستعمار لا يلبث أن يضيق الهوة الحضارية - التى هى أساس التفوق العسكرى للاستعمار - بين القوة الدخيلة والداخلية . وهكذا يؤدى منطق الاستعمار من صميم نفسه وبطريقة دياكتيكية إلى نقيضه تماما . تلك متناقضة ساخرة فى فلسفة الاستعمار ، وهى وحدها تجعل نهايته محتومة بطبيعته ، فهو يهزم أغراضه ويستهلك نفسه بنفسه ويحمل فى كيانه جرثومة فثائه . هذا أول .

أما العامل الثانى فى تصفية الاستعمار وإذابته فهو انتهاء احتكار القوة العالمية فى يد قوى أوربا الاستعمارية . فرغم أن الاستعمار كان يمثل نظاما واحداً فى النهاية ، فقد كان يطفح بالصراعات الداخلية والتوترات الكامنة التى لم تزل تصدعه وتمزقه . وبين هذا وذاك استطاعت بعض المستعمرات أن تنتزع استقلالها . وعلى التتابع التاريخى يمكن أن نقول إن كلا من فرنسا وبريطانيا كانت تطارد كلا من إيطاليا وألمانيا وراء البحار ، وكانت بريطانيا تطارد الجميع ، إلى أن جاءت الولايات المتحدة محاولة أن ترث الكل فى صورة جديدة . وتمثل هذه المناورات والمطاردات ، كعامل فعال أو مساعد فى تحرير المستعمرات ، ابتداء من سوريا ولبنان ، إلى ليبيا والجزائر وفيتنام .. الخ .

ولكن لا يقل خطرا عن ذلك أن تضعف الاستعمار بالصراع الداخلى والحروب

المتواترة قد ساعد على إعطاء الفرصة لظهور قوى جديدة ضخمة معادية للاستعمار من حيث المبدأ . والإشارة هنا إلى الدول الاشتراكية الماركسية عامة والاتحاد السوفيتي خاصة . ومن هنا لم تعد المستعمرات تعيش في سوق سياسية احتكارية تماما تحت رحمة الاستعمار المطلقة ، وإنما في سوق حرة نوعا مما أعطاها على الأقل حرية الحركة والمناورة والمضاربة بينها ، حتى تمكنت من انتزاع حريتها .

نتائج التحرير

متغيرات التحرير

الخروج الأبيض

ولايتم تحليلنا لثورة التحرير إلا بإشارة إلى ظاهرتين عامتين صاحبتهما ولكل منهما مغزاها وخطرها . هاتان هما الخروج الأبيض والتفتيت السياسى . ولربما جاز لنا أن نضيف إليهما ، ولكن على مستوى ثانوى أو أدنى ، ظاهرة أو معركة تغيير أسماء الأماكن السياسية . فالخروج الأبيض ظاهرة عالمية واكبت التحرير وأخذت صورة عنيفة في بعض الحالات ، إذ أخذت الجاليات والمستعمرات الأوروبية تغادر المستعمرات بعد إقامة طالت وأزمنت بدرجة أو بأخرى . وفي الغالب كانت بوادر الخروج تسبق تمام التحرير ، وفي الأعم الأغلب كانت موجة الخروج تتحول إلى عملية هروب عاجل . تصفى به الجالية أو المستعمرة نفسها بنفسها في غضون شهور من استكمال التحرير . فمثلا انتظم تيار الخروج من الجزائر وحدها نصف مليون في شهر واحد .

ولقد كانت المشكلة الخطيرة حقا هي مصير الاستعمار الاستيطاني السكنى الكثيف ، لأن الخروج يأخذ هنا أبعادا مختلفة جدا كما في الجزائر وإلى حد ما كينيا . وعادة ما كان الموقف الوطنى معتدلا واقعيا بلا تطرف . فكثيرا ما أعلن التحرير أنه لا ينبغي طرد الجاليات والمستعمرات الأجنبية إذا ما قبلت مواطنة عادية مخصصة بلا امتيازات ، أو إن شئت فلها أن تبقى كأجانب عاديين . ورغم هذا الموقف السمع ، فقد كان المرجح أن تصفى المستعمرات والجاليات نفسها بنفسها بعد فرض المساواة ومنع الاستغلال ، وهكذا بالفعل كان .

وهذا لاشك أبلى دليل على أن الوجود الاقتصادى للاستعمار كان رهنا بوجوده

السياسي ، وبغية كان لانجاح له ولاعل . وفي هذه الحالة كثيرا ما كانت العملية تأخذ طابعا انتقاميا تخريبيا بقصد شل جهاز الدولة الجديدة وتعجزها تشويها للاستقلال والتحرير . وفي الوقت الحالى أصبحت الجاليات الأوربية في الدول الآسيوية والأفريقية الجديدة لا وزن لها عدديا أو اقتصاديا بعد أن كانت عنصرا أساسيا في مركب الاستعمار .

ومعنى هذا كله إن مصير الجزر الأوربية في المحيط الاستعماري القديم هو كمصير أى جسم غريب يدخل الكائن العضوى : لا يستطيع أن يمتصه ويتمثله فيلغظه في النهاية . وهكذا يسجل التاريخ النهاية العجيبة لمغامرة من أكبر المغامرات الملتبته المحمومة ولرحلة من أطول الرحلات العاتية بين القارات ، مما يوحي بأن الاستعمار بكل أنماطه هو مجرد جملة اعتراضية في تاريخ البشرية وظاهرة في الجغرافيا السياسية عابرة مهما طالت ، وهي عابرة لأنها غير طبيعية في النهاية .

هل يترك الخروج الأبيض « فراغا » حضاريا أو اقتصاديا خطيرا في المستعمرات المتحررة ؟ أترك كذلك فراغا سياسيا يهدد التوازن الدولي ؟ قضيتان متشابهتان أثارهما الاستعمار دائما وحاول أن يلقى بهما في طريق تيار التحرير لعله يتقاعس . بل لقد تنبأ البعض بأن الاقتصاد الزراعى ، خاصة المشروعات الكبرى ، والاقتصاد التعدينى والتصنيع النامى ، قد تضرب لسنوات بعد الخروج . وصحيح أن بعض الدول الجديدة لم ترحب كثيرا بهذه الهجرة الفجائية التى قد ترج الاقتصاد القومى بما تسحبه معها من رأس المال والخبرة الفنية . على أن هذه المشكلة مؤقتة جدا بطبيعتها ، بل لم تكند تتحقق في أغلب الحالات - على الأقل بالاستعانة بخبراء أجانب غير استعماريين . أما أن يخشى البعض على المستوى الحضارى والاقتصادى للدول الجديدة أن ينتكس بعد الخروج فأمر تكذبه الثورة الاقتصادية والطفرة الحضارية التى واكبت التحرير في كل مكان لاسيما في القواعد الطليعية كمصر والعالم العربى والهند .. ألخ .

التفتيت السياسى

هذا عن ظاهرة الخروج الأبيض . أما الظاهرة الثانية التى صاحبت التحرير فهى ظاهرة عكسية ومؤسفة . فقد لجأ الاستعمار عامدا متعمدا قبل خروجه إلى تفتيت مناطقه السابقة تفتيتا ميكروسكوبيا ، وفي أفريقيا بالذات تفتيتا ذريا ، حتى يضمن وراءه نسيجا سياسيا متهاككا أقرب إلى الأمثلة والأعجوبة منه إلى الكيان الجيوبوليتيكي

الصحي السليم . وكم من مسخ سياسى برز فى هذه التقسيمات الجديدة ، وكم من قنبلة موقوتة تكمن فى حدوده العشوائية الشاذة .

والشئ الغريب والمخجل معا أن الاستعمار الذى كان مهندس هذه السياسة المكيافيلية هو نفسه الذى كان يتحایل إبان وجوده بكل الطرق ليفرض اتحادات مصطنعة وتجمعات إقليمية مفتعلة ضد إرادة الوطنيين . ويكفى أن نذكر أو نتذكر اتحاد وسط أفريقيا الدموى الفاشل ومشروع الهلال الخصيب الآثم ومشاريع اتحادات شرق أفريقيا وغرب أفريقيا .. إلخ . ويرى البعض فى هذه البلقنة المخططة - وهم فى ذلك على حق - أول مظهر من مظاهر « الاستعمار الجديد » . ويلاحظ أنه لم ينبج من هذه البلقنة السافرة لآسيا ولا العرب ولا أفريقيا ، لا الوحدات الضخمة ولا الوحدات الصغيرة .

الهند الصينية الفرنسية - مثلا - خلفت وراءها ثلاث دول جديدة ، وكل جنوب شرق آسيا أصبح الآن « بلقان الشرق الأقصى »^(١) ، بينما أن الهند التى ظلت تحت الاستعمار وحدة واحدة تركت أربع دول ثم صارت خمسا أو أكثر . والعالم العربى ، هذا الذى كان كلا واحدا حتى فى ظل الاستعمار التركى ، أصبح متحفا سياسيا مرصعا بعدد من الدول التى يزيد عددها على العشرين ولكن لايزيد بعضها عن دول جيب أو أسافين ، كما يبدو أنها تريد المزيد من التكاثر والازدياد بالانفصال والانشطار (تذكر فقط حركة البوليساريو ومحاولة جمهورية الصحراء الغربية فى المغرب الأقصى على سبيل المثال) .

على أن أفريقيا هى بلا شك المثل بل الأمثلة الساخرة فى باب البلقنة . فيها الآن نحو ٥٠ وحدة سياسية ، أى نحو ضعف عدد وحدات أوروبا أكثر قارات العالم تجزئة فيها مضى ، أو أقل قليلا من نصف دول العالم أجمع حتى قريب ونحو ثلثها حاليا . أو بصيغة أخرى لاتقل دلالة إن لم تزد سخرية ، قل إن قارة أفريقيا تعادل فى عدد دولها عدد ولايات دول قارة تقل مساحة هى الولايات المتحدة الأمريكية . ولا جدال أن هذا التفتت يرق أصلا إلى صنع الاستعمار المغادر . ولعل المثل الصارخ هو الاستعمار الفرنسى

C.A. Fisher, "Southeast Asia: The Balkans of the Orient?", Geog., Nov. 1962, p. 374. (١)

في أفريقيا الاستوائية والغربية حيث أعطت وحدتان اثنتان فقط نسلا سياسيا بلغ ١٦ وحدة .

فإذا أضفنا إلى هذا كله فيض أو دفق دول الجزر وأشباه الجزر المحيطية والساحلية الجديدة بالعشرات mini-states ، والتي لا حيلة للجغرافيا أو للسياسة فيها . لبدت خريطة العالم السياسية الحالية أشبه بثوب أو نسيج يتألف من عديد الرقع المختلة في مساحتها المتناثرة في ألوانها . والواقع أن خريطة العالم السياسية ، خريطة الدول المستقلة أعنى والتي هي أعضاء في الأمم المتحدة اليوم ، قد تغيرت في العقود الأخيرة بقوة التحرير تغيرا جذريا .

فبعد أن كانت تدور تقليديا في حدود + ٥٠ دولة حوالى مابعد الحرب الثانية مباشرة ، تضاعفت إلى نحو + ١٠٠ دولة في السبعينات الباكورة أو أواسط السبعينات ، وهي اليوم تتجاوز ١٥٠ دولة (نحو ١٥٥ دولة ، قابلة للزيادة ما تزال وإن كانت بإضافات محدودة الآن بالضرورة) . وفي مقابل أقلية معدودة من الأحجام أو الأحجار الضخمة العملاقة ، فبديهى أن الأغلبية الساحقة تتألف لامفر من ذرات مسحوقة أو حصى وفتات . وهكذا ازداد الهيكل السياسى للعالم اختلالا واضطرابا عنه في أى وقت مضى .

ذلك أن السواد الأعظم من هذه الدويلات المستحدثة وحدات هزيلة معتلة ومفتعلة قد لا تزيد عن المليون أو المليونين سكانا . فبحسب تقديرات منتصف ١٩٨٠ ، حين بلغ عدد دول العالم ١٥٥ دولة ، كانت ٢٧ دولة منها من فئة - مليون نسمة ، ١٣ دولة من فئة مليون إلى مليونين ، ٧ دول من فئة ٢ - ٣ ملايين ، ١٣ دولة من فئة ٣ - ٤ ملايين ، ٧ دول من فئة ٤ - ٥ ملايين - أى أن ٦٧ دولة بالعالم تقع دون علامة الخمسة الملايين ، بنسبة ٤٣٪ تقريبا من المجموع .

وإذا كان لهذه الكثرة العددية - وبغاث الطير أكثرها فراخا - قيمة شكلية ما في المحافل والمنظمات الدولية ، فهي تترك أصحابها بلا وزن حقيقى في مجال القوة السياسية . وإذا لم يكن لدول الجزر المحيطية النائية حيلة ولا جريرة في انفرادها أو ضآلتها ، فإن من أسف أن أغلب الدول الجديدة قبلت الحدود - الأقفاص الحديدية بالأحرى - التي فرضها الاستعمار ، وتمسكت بها كما لو كانت إرثا مقدسا ، الأمر الذى أعطى الأعداء

الفرصة لاتهام الوطنية فيها بأنها ليست أكثر من مجرد رد فعل للاستعمار لا انباشقا طبيعيا حميا^(١) .

معركة الأسماء

على هامش متغيرات التحرير تأتي ، أخيرا ، معركة الأسماء . أسماء الأماكن ، أو بالدقة معركة تغيير الأسماء . وقد لا تكون هذه القضية أكثر من شكلية رمزية . غير أنها تواترت بإلحاح كملمح حتى غدت قضية وطنية حقا . بحيث لا يجوز للباحث المراقب أن يتجاهلها ، مثلما هي أمر يومي لا مفر منه على أية حال حتى لقارئ الصحيفة العادية .

فن ناحية ، كان الاستعمار في سعية العنيد لفرض بصمته ووصايته على ممتلكاته قد حرّف أو شوه كثيرا من أسماء مواقعها الجغرافية ، أو استبدل بالأسماء الوطنية الأصلية أسماء دخيلة من عنده ، بل وأحيانا ابتدع هذه الأسماء لأول مرة في المناطق الخالية غير المأهولة أو المتخلفة حضاريا . ولئن كانت هذه الظاهرة محدودة ضئيلة في مناطق الحضارات التاريخية العريقة كالعالم العربي بالذات ، فإنها لم تنج منها تماما في حالات الاستعمار الاستيطاني بالتحديد . ولعل الجزائر هي المثل الأكبر ، حيث فرض المستعمر أسماء فرنسية على مئات من المواقع والأماكن ابتداء من أكبر المدن الرئيسية حتى أصغر القرى والنجوع النائية . وإلى حد ما لم يخل المغرب (مراكش) وليبيا (خاصة طرابلس) من هذه العدوى أو هذا العدوان . غير أن ظاهرة أسماء الأماكن الاستعمارية أو الأجنبية ألصق عادة بالمناطق الأقل عراقا في التاريخ والمقاومة الحضارية . فنجدها تستشري في آسيا الموسمية أو في المناطق البكر والمجاهل الجديدة مثل أمريكا الوسطى واللاتينية . غير أنها إنما تصل إلى ذروتها ومنتهاى كثافتها في أفريقيا السوداء ، قاع العالم حضاريا وبشريا كما كانت تعد تقليديا وإلى وقت قريب .

هذا من ناحية الاستعمار . ومن جانبه ، فلقد كان خليقا بالتحرير أن يعد هذه البصمة بمثابة وصمة حقيقية في جبين الوطنية البازغة ، ولذا كان طبيعيا أن ينقض عليها ليمحوها ويطمس معالمها وينقش فوقها أسماء الوطنية الأصلية . ومن هنا توشك معركة تغيير أسماء الأماكن هذه أن تواكب ظاهرة أو مظاهرة الأعلام والأناشيد الوطنية في الدول الجديدة المتحررة ، وكادت مثلها أن تكون جزءا لا يتجزأ من معركة التحرير

R. Calder, p. 3.

(١)

ذاتها . لقد جاءت معركة التحرير عملية ميلاد سياسى وتعميد أو إعادة تعميد للدول معا ، قديمها وجديدها على السواء .

وكما أن التغيير لم يقتصر على تصحيح الأسماء المحرفة أو المصحفة دون الأسماء الدخيلة المفروضة ، فإنه كذلك يتجاوز أسماء الدول إلى أسماء العواصم السياسية نفسها بل والمدن والمواضع العادية بعدها أحيانا . وعلى الجملة فإن العملية كلها تندرج تحت شعار واحد وفى إطار واحد وإن اختلفت المسميات : هنا التعريب أو التهنيذ ، وهنا الأسبوة أو الأفرقة ، وذلك بعد الأوربة والأمركة ، ولا نقول « الفبركة » ، فى الجميع .

فإذا بدأنا من الأقل إلى الأكثر ، فإن العالم العربى يكاد يقع خارج حدود الظاهرة ، إلا المغرب عامة والجزائر خاصة حيث جاء التعريب أحيانا جزءا من التحرير وشمل التعريب ضمنا أسماء الأماكن . هكذا ، كمجرد أمثلة وعينات من الجزائر ، عادت بونه عنابه ، فيليفيل سكيكده ، أورليانفيل الأصنام ، جريفيل البيض ، نيمور الغزوات ، بينا صححت بوجى إلى بجاية والجوليا إلى القليعة ... ألخ . وفى المغرب عادت موجدور الصويرة ، مزغان الجديدة ، لوى جنتى كشكاط ، بتي جان سيدى قاسم ، بينا تم تصحيح لاراش إلى العرايش والأغوات إلى الأغواط ، فضلا عن ترجمة كازابلانكا إلى الدار البيضاء . وبالمثل فى تونس صارت فيريفيل منزل بورقية ، بينا تمحرت بيزرت من التصحيف فارتدت بنزرت ، وإنفيدافيل فعادت النفيضة ، ولا سخيلا التى عادت الصخيرة... إلخ^(١) .

أما فى العالم الجديد ، إذا انتقلنا من النقيض إلى النقيض ، ففقط لأن معظم أسماء الأماكن جديدة من وضع الاستعمار أو التعمير الأوربى أصلا وأساسا ، فقليلة هى الأسماء التى تغيرت بعد التحرير مؤخرا فى منطقة مثل الكاريبى أو شمال أمريكا الجنوبية . ولعل أبرز هذه القلة هى جويانا التى حلت محل نجيانا البريطانية ، وسورينام بدل جيانا الهولندية ، ثم بليز بدل هوندوراس البريطانية .

على أن معركة تغيير الأسماء إنما بدأت وبرزت فى آسيا الموسمية أو جنوب شرق آسيا بالتحديد حيث تمت العملية فى الأربعينات فى معظمها . ولقد كان ميدانها الأكبر إندونيسيا ، التى حلت هى نفسها كتسمية (وإن لم تكن أكثر أصالة ووطنية كما يتفق)

(١) جبال حمدان ، المدينة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٥٤ ، ١٠٦ وما بعدها .

عمل تسمية الهند الشرقية الهولندية سابقا . فكما ورثت جاكارتا بتافيا (وهى اسم أو سمي هولندى أصلا) ، عادت بورنيو كاليمنتان ، ونيوجيني إيريان ، بينما صححت سلبس إلى سولاويزى . وعلى الأجانب ، فكما عادت فورموزا من قبل (وهى تسمية برتغالية أصلا منذ أيام ماجلان بمعنى الجميلة) فصارت تايوان ، تغيرت سايجون عاصمة فيتنام من بعد إلى هوشى منه ، مثلما تغيرت سيلون إلى سرى لانكا وتعطلت كمبوديا إلى كمبوتشيا ... الخ .

ولكنها أفريقيا يقينا ، القارة المظلمة أو المظلومة ، التى عرفت أكبر قدر من الابتزاز أو التشوية فى التسميات مثلما عرفت فى الوجود والحياة . وبالتالى كانت قطب الرحى فى معركة التعديل والتصحيح . فمن ساحل الذهب إلى غانا ، ومن داهومى إلى بنين ، ومن الكونجو إلى زائير ، ومن نياسالند إلى ملاوى ، ومن روديسيا الشمالية إلى زامبيا والجنوبية إلى زيمبابوى ، ومن بتشوانالند إلى بوتسوانا ، ومن باسوتولند إلى ليسوتو ، ومن جنوب غرب أفريقيا إلى ناميبيا ، ثم أخيرا من مدغشقر إلى ملاجاش .

هذا على مستوى أسماء الدول نفسها . ولكن هناك أيضا العواصم السياسية : فمن ليوبولدفيل إلى كينشاسا فى زائير ، ومن فورلامى إلى نجامينا فى تشاد ، ومن باثورست إلى بانجول فى جامبيا ، ومن لورنسو ماركيز إلى مابوتو فى موزمبيق ، وأخيرا جدا من سولسبرى إلى هريرى (هراى) فى زيمبابوى . حتى المدن العادية والأقاليم الادارية بل والعالم الطبيعية البحتة أعيد تعميدها مثلما حدث فى زائير خاصة ، حيث صارت مدينة الشرق الكبيرة ستانلى فيل كيسيبنجانى ، وإقليم كاتنجا النحاسى الشهير شابا ، وبحيرات الأخدود وهضبة البحيرات بحيرة سيسى كو موبوتو وغير ذلك ... الخ . أو خذ ملاجاش ، حيث عادت قاعدة ديبجو سواريز البحرية الشهيرة أنتسيران ... الخ .

بقايا الاستعمار

يبقى لنا أخيرا ، حتى نستكمل مسح التحرير ، أن نحصر مخلفات الاستعمار وبقاياها وأن نقيم وزنها ونرصد مصيرها . وهنا نجد من المفيد أن نسجل لقطتين متتابعتين فى شريط انحسار الاستعمار لتكون كل منها بمثابة وقفة موحية فى توقيت ذى مغزى ، فواحدة تمثل ما قبل النهاية والأخرى تصور النهاية أو الصورة النهائية . ولعل سنة ١٩٧٠ تقريبا أى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات أن تكون خير توقيت للقطعة الأولى ، مقابل ١٩٨٠ للوقفة الأخيرة أى الصورة الراهنة اليوم بالتقريب .

فإذا ما بدأنا بصورة ١٩٧٠ ، رأينا فلول الاستعمار قد اتخذت تتزوى على استحياء - أم بلا خجل ؟ - فى أقصى أطراف الأرض وأركانها المتطوَّحة ، إما على هوامش القارات كجيبوب وأسافين قزمية متناثرة أو كأرخبيلات وجزر سديمية فى البحار القارية . وفى الأقل ككتل متخلفة relic فى سبيلها إلى التمزق والزوال ، والكل لا يزيد عن ٤٪ من مساحة العالم . ومعنى هذا أيضا أن السواحل التى كانت أول مواطنى أقدام الاستعمار البحرى هى اليوم آخر معاقله ، وهى من ثم أطول ماعانى من الاستعمار وخضع له زمنيا .

ويرسم النمط الجغرافى العام لفلول الاستعمار فى ذلك اليوم صورة قلب وجناحين : جناح أيمن فى الشرق الأقصى . وأيسر فى الكاريبى ، أما القلب فى أفريقيا والعالم العربى . فن الشرق نجد هونج كونج البريطانية ومكاو البرتغالية وكل منها جزرى أو شبه جزرى يبدو كالبنور على أطراف القارة ، وهى تحت رحمة القوة القارية - الصين - تماما ، وبقاؤها للآن ليس إلا جزءا من سياسة اقتصادية خاصة لتلك القوة ، ولو شاءت لاستردتها فى ساعات (« بالتليفون » كما يقال أحيانا) . ثم هناك أرخبيل الأوقيانوسية بما فى ذلك نيوجينى أو إيريان الشرقية إلى الشرق والشمال الشرق من أستراليا حيث لازال الاستعمار البريطانى والفرنسى يتقاسم هذه الجزر الشتية القزمية .

وفى أقصى الغرب فى الكاريبى تتناظر صوره مماثلة . فلا زالت كثير من جزر الأنتيل الصغرى موزعة بين الاستعمارين البريطانى والفرنسى . بينما على ساحل القارة المقابل اثنان من الجيانات الثلاث . الفرنسية والهولندية . وبين الطرفين يتوقع الاستعمار فى عدة جزر محيطية غائرة سحابة العمق فى المحيطات كبعض جزر المحيط الهندى مثل سيشل وأرخبيل تشييجوس وكيكوس ثم جزر كومورو وموريشس وروينيون ، وبعض جزر المحيط الأطلسى (اسنشن ، سانت هيلانه) ، وإن كان قد تقرر أخيرا استقلال موريشس . ولكن يلاحظ فى نفس الوقت أن الاستعمار بدأ يتحصن فى هذه الجزر النائية ويسحب إليها قواعده من أواسط القارات وأطرافها كما حدث فى بعض جزر ملديف وكومورو .

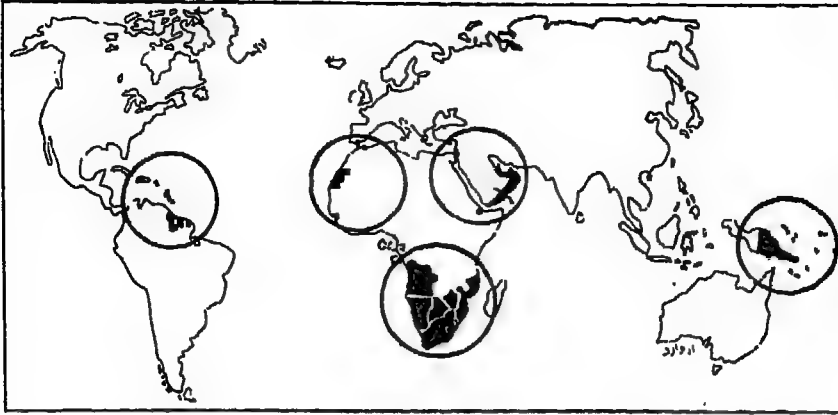
ولكن دائرة العالم العربى وأفريقيا هى بلا شك أكبر معاقل الاستعمار المتخلفة . فهناك مجموعتان من الأشكال الاستعمارية : أسافين وجيوب محلية ، وكتل جذعية

ضخمة . فن الأولى الاستعمار الصهيوني الآثم في فلسطين المحتلة ، وجيوب سبتة ومليلة وإفني وريودي أورو حيث يعيش الاستعمار الإسباني ، ثم هناك في أفريقيا المدارية غينيا البرتغالية وريوموني وساتومي الإسبانية وكابندا وكلها في دائرة غرب أفريقيا . وأخيرا الصومال الفرنسي على الساحل الشرقى . أما الكتل الرئيسية المتخلقة فهي أولا الجنوب العربى ابتداء من البحرين حتى ظفار حيث ظل يتشبث الاستعمار البريطانى فى استماته يائسة يفسرها البترول بكل سهولة ، إلى أن أرغمه تقلصه وتدهوره الاقتصادى على إعلان عزمه على الانسحاب منه قبل ١٩٧١ .

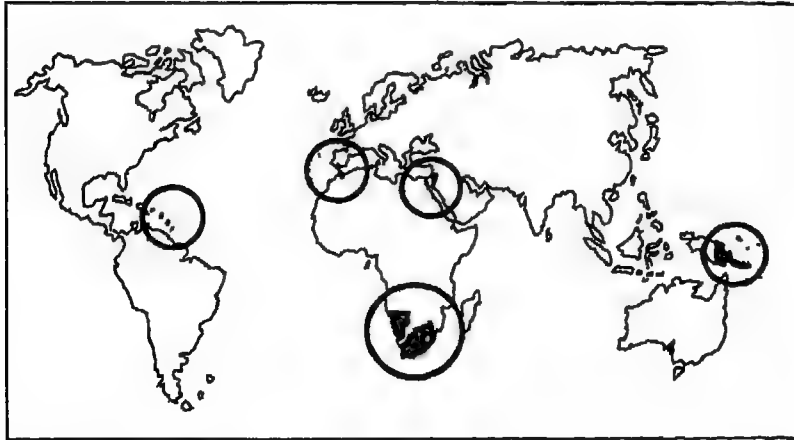
ثمة ثانيا كتلة أفريقيا الجنوبية التى تجمع بين أنجولا وموزمبيق البرتغالية وبين روديسيا وسوازيلاند ، بالإضافة إلى جنوب أفريقيا البيضاء ومعها جنوب غرب أفريقيا التى اغتصبها (ناميبيا) . والكتلة فى مجموعها ترسم رقم ٧ ، حيث يرسل التحرير فى قلبها سهمه مفتتا وممزقا . وواضح أن هذه ليست أكبر معقل متخلف متبقي للاستعمار ، وإنما هى أيضا أضخم كتلة متصلة تبقى له فى أى جزء من العالم .

ولم يكن شك فى أن مصير الجزر وأشباه الجزر والأسافين الساحلية مقدور . فهى - بحكم الجغرافيا على الأقل - إلى زوال وأيامها معدودة ، ولن تستطيع أى مقاومة إزاء المد التحريرى ، فإن بحر الاستقلال يطوقها تماما ولا يمكن أن تنجو من قوة تعريته . وإنما المشكلة فى الكتل الجذعية بخاصة ، فهناك يتراس الاستعمار ويتأسك ويبدى « وحدة » جديدة فى وجه التحرير . ومع ذلك فصيرها أيضا محتوم ، وإن طال الأمد نوعا . وعلى التحرير أن يضغط بمزيد من القوة والعنف ، وقد لا ينقضى عقد وبعض عقد حتى يقتلعها ويكتسحها تماما . ولعل السبعينات أو الثمانينات على أكثر تقدير تشهد عملية دفن آخر فلول للاستعمار فى الأرض أو فى البحر . وسنرى إلى أى حد يتحقق هذا فى اللقطة الأخيرة ١٩٨٠ ، بعد أن نختتم لقطة ١٩٧٠ .

فإذا نحن أردنا أن نضع قوى الاستعمار حوالى ١٩٧٠ فى حساب الخسائر والأرباح ، فسنجد نتائج بل نقائص مثيرة بل غير منطقية ، لعل أغربها أن « أكبر » قوة استعمارية فى عالم ذلك اليوم هى البرتغال القزمية الحفرية ! أجل البرتغال ، فإن مستعمراتها يومئذ فى أفريقيا أكبر مساحة وسكانا من مستعمرات أى قوة أخرى فى العالم . ويلها فى الوزن الاستعمار البريطانى ، بينما قد يزيد الاستعمار الإسباني بدوره - وهو إمبراطورية جيوب وأسافين بحث - عن الاستعمار الفرنسى . فالإمبراطورية الفرنسية هى بلا شك التى من بين الاستعمار الكبير قد بادت تماما فى عصر التحرير ، وبقيائها فى ١٩٧٠ رمزية تذكارية



شكل (٢٩ أ) بقايا الاستعمار ، ١٩٦٨ : نحو ٣,٥ ٪ من العالم ، ممزقة في جزر متباعدة في أركان الأرض وهوامش القارات في جناحين وقلب . المعقل الرئيسي للاستعمار يتركز في أفريقيا الجنوبية ...



شكل (٢٩ ب) بقايا الاستعمار الأخيرة ١٩٨٢ : لا زال المعقل الرئيسي يتركز على ركني افريقيا في أقصى الشمال الشرقي والجنوب .

صرفة لاتزيد على الصومال في أفريقيا وجيانا في أمريكا الجنوبية وبعض جزر قليلة من الأوقيانوسية . ويشبهها في هذا هولندا . بينما فقدت بلجيكا مستعمرتها الوحيدة .

وتقودنا هذه التطورات الانقلاية في مصائر الاستعمار إلى ظاهرة طريفة في ترتيب عملية تصفية القوى الاستعمارية . فبوجه عام يمكن أن نقول إن أقدم الإمبراطوريات (القوى العتيقة) هي آخرها زوالا اليوم ، وآخر من دخل ميدان الاستعمار (القوى الوليدة) هو أول من خرج منه . أي أن العلاقة - للغرابة - عكسية . فلقد كانت ألمانيا آخر من خرج إلى الاستعمار في السبعينات بعد وحدتها ، وكانت كذلك أول من خرج منه في الحرب الكبرى الأولى . وفي السبعينات أيضا دخلت إيطاليا دائرة الاستعمار : ومع الحرب الكبرى الثانية كان خروجها . وعلى الطرف النقيض كانت البرتغال وإسبانيا أول من افتتح العمل الاستعماري ، وهما حتى ذلك اليوم أقل من خسر نسبيا . وبين الطرفين كانت تأتي فرنسا وهولندا وبريطانيا بدرجات متفاوتة أو مطردة .

١٩٨٠

إذا انتقلنا الآن إلى ١٩٨٠ ، فما أبعد المدى بين الصورتين . إن الاستعمار المحتضر قد لفظ أنفاسه أو كاد ، أو قل هو في التزع الأخير . معظم الجيوب والأسافين الساحلية السابقة ، إذا بدأنا بالأدنى ، بالاضافة أيضا إلى معظم الجزر الساحلية والبحرية والمحيطية ، قد تخررت . وعلى سبيل المثال ، فلم يعد يتبقى من الإمبراطورية البريطانية القديمة ، التي بلغت في أوجها نحو ١٣٠٠ مليون نسمة ، سوى حفنة من الجزر وأشباه الجزر المبعثرة بمجموع سكانها ٦ ملايين نسمة ، ٥ ملايين منهم في هونج كونج وحدها !

وبعامة فإن البقايا الاستعمارية المتخلفة لاتعدو بالكاد شرق نيوجيني أو إيريان الشرقية في أستراليا شرقا ، مع بعض آخر معاقل القواعد البحرية المحددة والمكثفة في أعماق جزر الهندى مثل أرخبيل تشيچوس في القلب وكيكوس على الجنب . ثم هناك في أقصى الغرب عدد كبير نسبيا من الحالات في الأطلسى شمالا وجنوبا ولكن في الكاريبي خصوصا . فثمة ماتزال جزر برمودا ، ثم في الكاريبي توركوس ، كايكوس ، جراندي كايمان ، فرجين ، ليوارد ، بيتكيرن ، ثم في جنوب الأطلسى سانت هيلينا ، أستشن ، وترستان دا كونها ، فضلا عن جزر فوكلند (إيسلاس مالبيناس Islas Malvinas) في أقصى الجنوب حيث قام أخيرا صراع مسلح بين بريطانيا المستعمرة السابقة والأرجنتين المطالبة الحالية . وأخيرا ، وفيما بين الهندى والأطلسى ، ثمة في

الوسط جبل طارق بإسبانيا وسبتة ومليلة في المغرب . ولعل هذه الدائرة الأخيرة هي من أطرف متناقضات الاستعمار في نزع الأخير . ولذا تستحق نظرة جانبية خاصة .

فن للمفارقات الساخرة لاشك أنه في الوقت الذي يتشبث الاستعمار الإسباني بآخر جيوبه في أفريقيا وفي كل الدنيا وهو سبتة ومليلة ، يتشبث الاستعمار البريطاني بآخر جيوبه ربما في كل الدنيا أيضا أو على أية حال في أوروبا نفسها وإسبانيا بالذات وهو جبل طارق ؟ هذا آخر استعمار أوربي في أفريقيا ، وهذا آخر استعمار أوربي في أوروبا . والطريف أن الجييين القزميين المدنيين يتواجهان عبر المضيق على أقصى نهايتي أو طرفي القارتين . وكلاهما : بعد ، أو بالأحرى من قبل ، من أقدم حالات الاستعمار في قارته : هذا سابق للاسترداد الإسباني نفسه في القرن ١٥ ، وهذا سابق لأوترخت في القرن ١٨ . الفارق الأساسي فقط أن هذا استعمار استيطاني وهذا استراتيجي .

لكن أخطر من الجيوب المتخلفة ، الكتل الاستعمارية المتبقية ، أخطر بكثير وخارج كل حدود ، بل لعلها أخطر ما في تاريخ الاستعمار جميعا سواء في أوجه أو حضيضه . فرغم أن مابقي منها الآن حالتان فقط ، فإن فيهما تكمن وتتركز كل ضراوة وشراسة ودموية الاستعمار الوحشي الكاسر المكسور . والحالتان هما بالطبع إسرائيل وجنوب أفريقيا . والاثنتان نظائر جيوبوليتيكية واستعمارية إلى أقصى حد : فجغرافيا ، هذه على أقصى ضلوع أفريقيا الشمالية وهذه على أقصى طرفها الجنوبي . وسياسيا ، كلتاهما استعمار استيطاني عنصري دموي إبادة إحلالي كثيف ، يبدأ باغتصاب الوطن ويؤمن بالتفوق العنصري ويمارس العزل الجنسي وينتهي بالتصفية الجسدية والاحلال الإثني . وليس صدفة ولا اعتباطا بعد هذا أن يتحالف الاستعماران تحالفا غير مقدس ضد كل من العرب وأفريقيا على السواء .

ولئن كانت اليد العليا تبدو لها الآن على ضحاياهما ، وكان من الصعب أن يتنبأ أحد حاليا بمصيرهما على المدى القريب ، فإن من المسلم به علميا أن المصير محتوم ومختوم ومحكوم عليه تاريخيا وفي المدى البعيد . أما الوضع القانوني مهما كان فزائل أو زائف ، والاعتراف - أي اعتراف - ليس نهاية المطاف . والوضع القانوني على أية حال ليس إلا تقنيا لا تقييدا للقوة وللأمر الواقع ، لا يمنع من إمكانية تغييره متى استطاعت القوة وفرض الأمر الواقع الجديد نفسه .

التحرير ، العالم ، والاستعمار

ماذا تعنى ثورة التحرير بالنسبة للعالم ؟ الشيء الكثير بالتأكيد ، ولكنه باختصار إعادة توزيع الأثقال والقوى السياسية فوق هذا الكوكب . فبالنسبة للدول المتحررة تعنى ظهور قوة جديدة على مسرح السياسة العالمية هى العالم الثالث ومجموعة عدم الانحياز . ولكن لهذه حديثها فيما بعد . وإنما يعنينا هنا خسائر الجانب الاستعماري . وهذه تنقسم إلى قسمين : تغيير الوزن والقوة النسبية لغرب أوروبا ، ثم تغيير الأوزان والقوى النسبية بين الدول داخل غرب أوروبا .

فعن الأولى ، لاشك أن عصر أوروبا الغربية قد انتهى تماما ، وقد خرجت زعامة العالم منها إلى الأبد ، وتضامل وزنها النسبي في العالم ككل ، وبدأت تأخذ حجمها الطبيعي بلا مبالغة أو تورم مصطنع في العالم . ولعلها - برمتها - لا ترقى إلى مستوى الصف الأول من القوى العالمية ، وبالتأكيد لا تطاول أيا من القوتين الماموث ، ولا تزيد بوضعها الراهن ، وقد جردت من مستعمراتها ، عن أن تكون منطقة حاجزية تصادمية بينهما ، بل هى الآن بالفعل ذيل للولايات المتحدة أو بمثابة برتغال كبرى جديدة بالنسبة إلى بريطانيا عظمى جديدة هى الولايات المتحدة ، بينما أصبحت بريطانيا القديمة نفسها رجل أوروبا المريض الجديد !^(١)

كذلك فإن تقلصها إلى قوقعتها الأصلية سلخ عنها موارد ومكاسب عبر البحار وألقى بها على موارد المحلية الضيقة وحدها . من هنا أزماتها المادية والاقتصادية الخائفة التى تتردى فيها تباعا كل دولة من دولها بلا استثناء منذ ما بعد التحرير ، وبقدر ما كانت نسبة المكاسب الاستعمارية فى الدخل القومى بقدر ما كانت النكسة . ولاشك أن مكاسب الاستعمار التراكمية لازالت تخفى أو تخفف من حدة الأزمة ، كما أن التجارة العالمية لا تزال شبه استعمارية فى هيكلها ، هذا عدا علاقات كومنولث واتحاد فرنسى .. الخ . ولكن إن آجلا أو عاجلا ستواجه هذه الدول المزيد من الصعوبات ، وقد يتجمد مستوى المعيشة فيها أو ينحدر ، أو تصدر الفائض من سكانها إلى المهاجر الأوربية . والمشاهد أن بعض هذه الدول لم تفق بعد من آثار خمرة الاستعمار ولم تدرك تماما مواقعها المتواضعة الجديدة ، ومن ثم تبدو فى ميدان السياسة العالمية أدنى إلى أقزام تتصرف

Hans. G. Morgenthau, Politics Among Nations, The Struggle for Power & Peace, 1954. (١)

كعالمقة ، مما أصبح بلا موارد إما موضع سخرية أو ضيق حتى أصدقائها من القوى الماموث !

هذا التضاؤل النسبي في الوزن السياسى والموارد الاقتصادية هو وحده وأساسا الذى يفسر الحملات المحمومة لوحدة أوروبا حتى تستعيد بعض المكانة في عالم متغير. والواقع أنه دفاع عن النفس بقدر ما هو رد على حركة التحرير وتكتل ضدها بالذات ، أكثر مما هو رد على القوتين الماموث . وإذا كان الأوروبيون المتحمسون للوحدة يرونها ضرورة بقائية ، فلا ينبغي من جانبنا أن ننسى أن وراءها مسحة لونية عنصرية ، فما هي في النهاية إلا وحدة الجنس الأبيض . ومشروع الوحدة كما يتصوره دعائه مراحل ثلاث : جمركية ، فاققتصادية ، ثم سياسية . ولكن التطبيق يتعثر حاليا بين كتل وتجمعات متضاربة داخل النطاق .

بيد أن المهم في المدى البعيد أن أوروبا اليوم أبعد عن الوحدة مما كانت منذ قرون ، وبالتحديد منذ ما قبل عصر الكشوف والاستعمار البحرى^(١) . ذلك أن الاهتمامات الاستعمارية عبر البحار لم تترك أوروبا في حركة طاردة لا جاذبة مركزية فحسب ، بل في صراعات عميقة وسعارات شرسة باعدت بينها أكثر من أى وقت مضى . وليس من الصدفة بالتأكيد أنها لم تبدأ تتقارب فيما بينها إلا بعد أن فقدت تلك الأسلاب أسباب الصراع . وعلى كل ، فإذا كانت وحدة منطقة كالولايات المتحدة مثلا قد نجحت لأنها عمدا تناست كل التاريخ وأهملت كل الجغرافيا ، فإن وحدة أوروبا تتعثر لأنها - كما قيل - تتذكر التاريخ أكثر مما ينبغي وتتذكر الجغرافيا أقل مما ينبغي .

أما عن تغيير الأوزان والقوى النسبية للدول داخل أوروبا الغربية ، فلا شك أنها لا تتضح اليوم تماما بفعل القصور الذاتى والاندفاع التاريخى ، ولكنها جديدة بأن تطفو على السطح إن آجلا أو عاجلا ، ولو أن بعض إرهاباتها قد بدأت بالفعل . فع عودة كل دولة إلى قاعدتها الأرضية الوطنية وتصفية واستهلاك الآثار التراكمية لمكاسب الاستعمار القديمة بالتدريج ، قد تقترب نوعا أوزانها ومواردها وقواها النسبية من نمط ما قبل الانقلاب الصناعى ، بمعنى أن يصبح لحجم الموضع المحلى وراثه دور أكبر في تحديد القوة العامة .

وإذا صح هذا فالمانيا هي وريثة الصدارة الحتمية في أوروبا الغربية بدلا من بريطانيا ، كما أنه ليس من المستبعد أن تقترب فرنسا من بريطانيا جدا . ولعل الدور الذى تمارسه فرنسا ، ديجول خاصة ، في تخفيض شوكة بريطانيا في القارة هو نذير أو دليل على هذا التطور التدريجى المحتمل . وسيكون على بريطانيا في النهاية أن تقف صاغرة في الصف الأوروبى كلما تقلص الكومونولث . فدول الكومونولث غير البيضاء ستغادره على الأرجح بالتدريج ، بينما أن دوله البيضاء نفسها خاصة المتطوحة الموقع كأستراليا ونيوزيلند وكندا ليس من المستحيل أن تنفصل يوما ما^(١) . فهى لم تنفصل في الماضى - مثلما فعلت الولايات المتحدة قديما - إلا لضعفها وضآلتها وشدة اعتمادها الاقتصادى والدفاعى على بريطانيا . ولكنها قد تجد من نفسها القوة على الخروج يوما في المستقبل البعيد ، وإلا فإنها على الأقل ستكون أقل التصاقا بها وارتباطا .

الفصل الثاني عشر

الانقلاب النووي

العصر النووي

هو ثاني انقلابين تعاصرا منذ نهاية الحرب الثانية ، وربما كان أولهما في خطورته ورهبته . وقد أعلنت عن ميلاده مأساة هيروشيما ونجازاكي ، وكانت هذه البداية كافية لتضع نهاية لتلك الحرب . غير أن قنبلة هيروشيما على بشاعتها لم تكن إلا طفولة العصر النووي ، قنبلة « بدائية قزمية » كما توصف الآن ، « قنبلة صنعت للأطفال » ، وربما صنعها الأطفال الآن « كما تهكم أحدهم أخيرا في سخرية لا تخلو من جد ومبالغة لا ينقصها شيء من حق (إشارة إلى توصل بعض تلاميذ المدارس في أمريكا إلى تركيب هيكلها مؤخرا) .

ذلك أن السلاح النووي قد تطور منذ ذلك الوقت تطورا رهيبا ، فانتقل من القنبلة الذرية إلى الهيدروجينية إلى قنبلة النيوترون التي تقتل البشر دون العمران ، وربما انتقلنا بعد ذلك إلى الكوبالتية . وفي الوقت نفسه تحولت وسيلة نقل هذا السلاح من الطائرة القاذفة إلى الصواريخ الموجهة والصواريخ عابرة القارات ثم أخيرا إلى الغواصات النووية ، أي تحولت قاعدة انطلاقه من الجو إلى الأرض إلى البحر على الترتيب . أضف إلى هذا ما يقال عنه من صواريخ مدارية قادمة على الطريق ، فضلا عن الأقمار الصناعية التي تعددت طرزها وتعاقت أجيالها وأصبحت « تعمر » الغلاف الغازي والفضاء بكثافة متزايدة وبصفة مستمرة .

أما من حيث الانتشار ، فلقد كانت الولايات المتحدة هي الأسبق إلى تدشين العصر النووي وذلك في نهاية الحرب الثانية (أواسط ١٩٤٥) ، بينما تخلف الاتحاد السوفيتي قليلا حتى لحق بها - بعد فترة دقيقة وحرجة - في أول الخمسينات (أواخر ١٩٤٩) . وبعد ذلك دخلت بريطانيا المجال ثم فرنسا ، الأولى بمساعدة أمريكية جزئية ربما ، إلا أنها على السواء ظلتا من مرتبة متواضعة نسبيا .

ثم أخيرا فى الستينات اقتحمت الصين « النادى الذرى » لتكون خامسة الدول النووية وأولى الدول غير الأوروبية . وكان قد قدر أنها ستظل طويلا فى المرحلة البدائية التى كانت عليها الولايات المتحدة منذ عشرين عاما ، إلا أنها طفرت بسرعة خارقة حتى سبقت فرنسا وهيدروجينيا . ثم أخيرا جدا ولكن ليس آخرا جاءت الهند ، والمقول أيضا إسرائيل ، وربما معها جنوب إفريقيا . والمقدر أن هناك أكثر من عشر دول أخرى ستلحق بالنادى فى غضون السنوات القليلة القادمة ، منها إسبانيا والبرازيل وباكستان وكندا والأرجنتين ... الخ .

ومعنى هذا أن السلاح النووى - ما لم يتفق على منعه جديا - قد ينتشر فى يوم ما انتشار الحضارة الصناعية والتكنولوجيا الحديثة ذاتها . أما حاليا ، فإن هذا النادى يعد استراتيجية أرستقراطية العالم الجديدة بلا نزاع ، هو وحده عالم القوة المعاصر حقا وصدقا . وليس صدفة ولا هو من قبيل محض الأخلاقيات السياسية المتزهة أن يحرم النادى دخوله على غير الأعضاء ، حيث فرض مؤخرا اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية non-proliferation . وهذا المنع ، الذى يكاد يقن دوليا « نظام الكاست » فى عالم القوة ، يعد فى نظر « المنبوذين نوويا » مرادفا للاحتكار النووى ، أى محاولة لاحتكار القوة ، أى لاحتكار المستقبل .

ولهذا رفضته كثير من الدول الصغرى والكبرى وعلى رأسها الصين ، التى دعت العالم وخاصة العالم الثالث وعدم الانحياز إلى الكفاح من أجل نزع السلاح النووى برمته فى العالم أجمع بدءا بالعملاقين ذاتهما ثم تحريمه إلى الأبد مع تصفية كل القواعد العسكرية فى العالم أيضا . أما سياسة المناطق المحيطة أو المتزوعة السلاح نوويا ، كالم توسط والهندي واللاتينية ، فهى ببساطة المرادف النووى لنظرية الفراغ العتيقة فى رأى البعض . وأما محادثات الحد من الأسلحة الاستراتيجية بين العملاقين فهى باعتراف أمريكا محاولة لصياغة قانون جديد فقط لسباق التسلح النووى بينهما ، وبالتالي « سجل لسباق الأسلحة الاستراتيجية مائة فى المائة » كما تنهه الصين بحق ، بينما أن الاتفاقية نفسها « لا تمس ذرة واحدة فى ترساناتها النووية » كما تكشف الصين أيضا .^(١)

(١) خيرى عزيز ، « التحرك الدبلوماسى والانفتاح الصينى الأخير » ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٨ ، ص ١٣٠ .

الاحتكار النووي

هذه الصورة ، مهما يكن الأمر ، لا تنفي من الوجهة العملية أن هناك حتى الآن احتكارا ثنائيا فعليا وحقيقيا للقوة النووية تتقاسمه الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي اللتان تستأثران وحدهما بنحو ٩٠٪ من التجارب والتفجيرات النووية . وهذا الاحتكار ، أكثر من أى شىء آخر ، يجعل مصير العالم رهنا بهاتين القوتين المتصارعتين اللتين وصل الأمر إلى حد تشبيه كل منهما بإله بشرى : قادر على أن يبقى للعالم على حياته أو أن يحرمه كله إياها في لحظات : إنها قوة آلهة قمة الأولمب الجديدة ، قل مثل زيوس وفولكان أو غيرهما في أساطير الاغريق .

وبلغة السياسة الدولية الجديدة ، إنها وحدهما القوتان الأعظم super-powers . وتلك وحدها هي حالة أو صفة القوة الأعظم super-powerdom . حيث سائر النووين من القوى الكبيرة أو القوى فقط great powers . ومعنى هذا أن أبسط وأوضح نتيجة للعصر النووى أنه زاد من عنف تركيز القوة واحتكارها في حدود الاستقطاب الثنائي الراهن ، وزاد بذلك من اختلال ميزان القوة في العالم ككل ، وضاعف من رهبة التصادم بين القطبين العملاقين .

فلقد تستطيع القوى النووية الصغرى أن تبدأ حربا نووية أو عالمية ، ولكنها تعجز عن أن تنهيا ، هذا إن نجاسرت على أن تبدأها أصلا ، وهى لن تفعل ، من فرط رهبة القوتين الأعظم لن تفعل ، كما تؤكد حرب السويس ١٩٥٦ وانسحاب العدوان الثلاثى في وجه الانذار الصاروخى السوفيتى والضغط الأمريكى . أما القوتان الأعظم فهما وحدهما اللتان تملكان أن تبدأ حربا نووية وأن تنهياها - ولكن فقط بعد أن تنهى نفسها والآخريين والعالم أجمع .

من هنا فإذا كانت علاقة القوة بين القوتين الأعظم وبين النووين من القوى الكبيرة هي هكذا علاقة « صد ورد checkmate » (كش ملك) ، باترة محسومة ولا مفر فيها من الانصياع والصدوع بالأمر والتراجع أو الانسحاب ، فإنها بينها هما نفسيهما علاقة شد وجذب stalemate (مضاربة) معقدة متناطحة متكافئة ، لا مفر فيها من المناورة والمداورة ، والمقايضة والمساومة ، والمد والجزر ، مع أقصى درجات ضبط النفس والتعقل رغم ضراوتها وهولها .

الخطر النووي

ومن الواضح بعد هذا على التو أن العصر النووي يمثل طفرة في تاريخ الاستراتيجية بل البشرية لم تخطر على قلب بشر ، تضع كل مراحل الاستراتيجية الماضية وكل أنواع الأسلحة « التقليدية » في متحف التاريخ ، ويمكن ببساطة أن تضع البشرية نفسها والنوع الانساني برمته في ذمة التاريخ كذلك ! فعلى سبيل المثال ، قدر أن عشر قنابل ذرية من أكبر ما كان معروفا في ١٩٥٤ تعادل في قوتها التدميرية كل ما ألقى جميع المتحاربين في الحرب العالمية الثانية من قنابل وألغام ومتفجرات .^(١) وفي منتصف الستينات فقط أعلن الاتحاد السوفيتي أن رأسا ذرية واحدا مما يستطيع أن يقذف يعادل نفس القوة برمتها ، بل قوة كل ما استخدم من متفجرات في جميع حروب البشرية ! أما بعد ذلك بستين فقط فقد كان المقول أن الولايات المتحدة تملك من الرصيد النووي ما يكفي لتدمير العالم بأسره ثلاث مرات أو أربعا (١) ؛ بينما كان الاتحاد السوفيتي - أكثر تقشفا أو تفاؤلا ! - يكتفي باحتياطي يكفي لتدميره مرة واحدة فقط^(٢) .

أما الآن فإن غواصة نووية واحدة تحمل من القوة التدميرية ما يعادل القوة التدميرية لجميع الأسلحة التي أطلقت خلال الحرب العالمية الثانية بأسرها . وآخر ما يقال في هذا المجال أن بالعالم مخزوننا من الأسلحة النووية يكفي لتدمير الأرض جميعا عشرات المرات .

وبالتحديد فإن المقدّر حاليا (١٩٨٢) أن مجموع الترسانة النووية للقوتين الأعظم معا يعادل ٨ مليارات طن من مادة ت . ن . ت الشديدة الانفجار ، بينما أن ما تملكه الدول النووية الآن في العالم تعادل قوته قوة مليون قنبلة من نوع هيروشيما .

ومن العبث بعد هذا أن نمضي في حصر الاحصاءات والتقديرات اللاحقة أو الماثلة . غير أن النقطة المؤكدة هي أن العصر النووي ، لأول مرة في تاريخ الصراع البشري ، يضع العالم وجها لوجه مع الانتحار أو انقراض النوع . اختيار رهيب ، واختبار أشد رهبة . ومن الصعب ، حتى على الاستراتيجيين ، تصور شكل الحرب الدرية الشاملة ، وإن كان من المؤكد أنها إن وقعت الواقعة ستكون قصيرة الأمد إلى أبعد حد ، أشبه بومضة فجائية أو بصعقة كهربائية يعقبها احتراق بشع ثم رماد الموت .

(١) مورجنتاو ، المرجع المذكور .

M.H. Heikal, Sphinx and Commissar, Land., 1978, p. 12 q.

(٢)

إنها بكل بساطة وعلى أحسن الفروض « القيامة النووية nuclear doomsday » كما وصفها البعض .

الانتخاب النووى

وفيما عذا هذا ، فنحن نتقدم خطوة أخرى في سبيل تحديد نتائج الصدام النووى إذا عرفنا على من ستنصب تلك النتائج أساسا . وليس من الممكن بطبيعة الحال التكهّن بمدى حدود الصدام جغرافيا وسياسيا وما إذا كان قد يتلع العالم كله أو جله في أتونه ، ولكن المحقق أنه إذا اقتصر على المعسكرين المتصارعين فإن الانتحار المتبادل الذى أشرنا إليه سيكون على وجه التحديد انتحارا للجنس الأبيض بالذات والانسان الأوربي أساسا : السلاف فى الشرق ، التوتون واللاتين فى الوسط ، والأنجلو- ساكسون فى الغرب . فأوروبا بعامة ، وأوروبا الغربية بخاصة ، وألمانيا بشطريها بالأخص ، هى المرشح الرئيسى للحرب النووية فى كل التقديرات السياسية والعسكرية .

وبحسب آخر تقديرات الثمانينات التى توصل إليها علماء الذرة والطبيعة ، فإن أى حرب نووية محدودة تنشب داخل أوروبا ستبلغ قائمة ضحاياها كالاتى : نحو ١٠٠ مليون نسمة قتلى على الفور ، ٦٨ مليونا يموتون بعدهم بتأثير الاشعاع النووى ، بمجموع قدره نحو ١٦٨ مليونا ، يضاف إليهم ١٥٠ مليون مصاب إصابات خطيرة ، وبهذا يبلغ إجمالى مجموع ضحايا الحرب بشكل أو آخر نحو ٣١٨ مليون نسمة أو نحو نصف سكان القارة (مقابل ١٣٩ مليونا أو ثلثى السكان فى حالة الولايات المتحدة) . أضف إلى هذا أن الغلاف الجوى الأوربي سوف يتشبع بالغازات والدخان إلى حد يحيل النهار ليلا بحيث يقضى على الزراعة وكل الكائنات الحية . ولهذا فإن من أفلت من الموت لن يفلت بعده من المجاعة أو الجوع والوباء أو المرض .

هذه صورة ، أما الصورة الثانية فتتسع لتشمل نصف الكرة الشمالى . فالمقدر أن اندلاع حرب نووية بين العملاقين سيعنى على الفور انطلاق أو تبادل قذف نحو ١٥ ألف قنبلة نووية (١٤٧٤٦ بالتحديد) ، سوف تنصب أساسا على نحو ١٤٥ مدينة أوربية فئة + ٢٠٠ ألف نسمة . والمقدر بعد هذا أن عدد ضحايا هذه الحرب فى الأربع والعشرين ساعة الأولى سوف يبلغ نحو ٧٥٠ مليون نسمة من القتلى ونحو ٣٥٠ مليونا من الاصابات الخطيرة ، أى بمجموع نحو ١١٠٠ مليون نسمة أى نحو ربع البشرية ... والمعنى المباشر لهذه التقديرات وأمثالها هو ببساطة أنه إذا اتخذت الحرب النووية

أبعادا عالمية ، فلن تترك على ظهر الأرض من بقايا البشرية إلا « قليلا من الأفريقيين وكثيرا من الصينيين » كما عبر مرة خروتشوف . وحتى إن لم ينقرض الجنس الأوربي وأفلقت من الواقعة بذور له أو « خميرة » ، فلن يكون بعدها إلا أقلية مسحوقة عدديا وماديا في عالم ما بعد الحرب النووية ، بينما ستضيع سيطرته العالمية سياسيا إلى الأبد ، ويرث الأرض من بعده من كانوا « عباده المستضعفين » من « ملونين » ومستعمرات سابقة ... الخ . حتى القوتان الأعظم نفسها لو دخلتا حربا نووية محدودة أو شاملة فإن المقدر أنها ستخرجان منها وقد انزلتتا على أفضل الأحوال إلى دول محطمة مخربة من الدرجة الثانية أو الثالثة ، فاقتديت بذلك ليس فقط صدارتها في العالم لدول ثانوية أصغر بل وربما كذلك مستقبلها ذاته .

بهذا وبذلك تبدأ للعالم جغرافيا جنسية وسياسة جديدة تماما ومختلفة جذريا عما ألف الأوربي : عالم قد تتبع فيه المعتدلات المداريات وتخضع فيه العروض العليا للعروض السفلى ، وقد يصبح فيه سادة الأمس توابع الغد وعبيد الأمس سادة الغد ، ويكون الجنس الأبيض هو الجنس المغلوب على أمره في العائلة البشرية ! ومعنى هذا كله أن التصادم النووي لا يأخذ مظهرها استراتيجيا فحسب ، ولكنه يكتسب قبله مغزى جنسيا أنثروبولوجيا مباشرا ويبدو لأطرافه انتحار الرجل الأبيض أكثر منه ، وقبل أن يكون ، انتحار الجنس البشرى ، بحيث يجعلها تعيد النظر في الجانب الاستراتيجي كله .

تلك إذن هي احتمالات المستقبل : صورة رهبة للبشرية عامة وحلم مفزع كالكابوس الجاثم للأوربي خاصة . ومن هنا جاء رد الفعل العنيف . فلقد جعلت الاستراتيجية النووية الحرب مستحيلة ، وجعلت من « التعايش السلمى » ضرورة بقائية ، وهذا وذاك على الأقل بحكم « ميزان الرعب النووي » . ومن هنا أصبحت الترسانة النووية العالمية طاقة مشلولة أو رادعا ذاتيا كالبوميرانج الذى يرتد إلى صدر صاحبه .

وهذا الموقف ، كما يقول مورجتاو ، يحمل في طوياه إما الشر المستطير الذى لم يسبق له مثيل ، وإما الخير الذى لا يكاد يصدق . وفي الأثناء ، فإن الخلافات الأيديولوجية والصراعية الأسية تظل قابضة في أحاديث غائرة تننى السلام العالمى مثلما نفيت الحرب العالمية من قبل . وفي ظل هذا المناخ السياسى ، الذى يشبه الرهو الثقيل الممض ، لم يكن غريبا أن أخذت تتجرثم عدة خطوط جديدة في السياسة العالمية أو

تتجهر. غير أن تحليل هذه الخطوط يستدعى منا أولاً أن نحدد مراحل التوازن النووى المتعاقبة فى تطورها واحدة بعد الأخرى ، نقطتنا التالية .

مراحل التوازن النووى

منذ بدأ العصر النووى فى نهاية الحرب الثانية إلى اليوم فى أوائل الثمانينات ، نستطيع أن نتعرف على أربع مراحل أو توازنات نووية تمثل فى مجموعها اتجاهها تدريجياً من الاحتكار المطلق للقوة النووية لأحد الطرفين إلى تكافؤ مطلق بينهما ، رغم الذبذبات الثانوية المؤقتة والسبق المرحلى العابر لهذا الطرف أو ذاك . ولهذا كان لكل مرحلة مغزاها واستراتيجيتها - ورعها أيضاً . فالمرحلة الأولى تبدأ من منتصف الأربعينات حتى نهايتها ، فهى فى معنى نصف مرحلة تقريباً ، بينما تغطى كل مرحلة من المراحل الثلاث التالية عقداً بأكمله تقريباً . فالمرحلة الثانية هى الخمسينات ، والثالثة الستينات ، والرابعة السبعينات . ولما كانت كل مرحلة تمثل فى جوهرها توازناً نووياً معيناً ، فإنها بالتالى تحكم وترسم الأحداث السياسية داخلها بحيث يمكننا منهجياً أن نركب هذه الأحداث وندرسها فى إطارها وظلها مرحلة بعد مرحلة تباعاً وعلى التتابع كشريط جيوسراتيجى - جيوبوليتيكى مركب ولكنه موحد .

الأربعينات : الاحتكار والاحتواء

فالمرحلة الأولى هى التى أعقبت الحرب الثانية حتى نهاية الأربعينات (١٩٤٩ - ٤٥ -) ، حين كانت الولايات المتحدة تنفرد وحدها بالسلاح الذرى ولا يملك الاتحاد السوفيتى إلا جهازاً ضخماً من الأسلحة التقليدية . تفوق نووى - يعنى - مع تخلف فى الأسلحة التقليدية فى الغرب ، وتخلف نووى مع تفوق فى الأسلحة التقليدية فى الشرق . ولا جدال أنها كانت مرحلة حرجة للغاية بالنسبة للكتلة الشيوعية ، فى وقت كانت الحرب الباردة والصراع المذهبى على أشدهما . وهى بالتالى المرحلة التى كان إغراء الهجوم على أشده كذلك بالنسبة للغرب ، حيث لم يكن ثمة رادع نووى مضاد .

ولقد كان فى ظل هذا التوازن الكتلى المختل بالدقة أن وضعت سياسة الاحتواء أو التطويق الأمريكية على يد مهندسها الأول جورج كينان تحت إدارة ترومان .^(١) فهذه

George Kennan, "The source of Soviet conduct", Foreign affairs, July 1947, p. 12-27. (١)

الاستراتيجية تقوم أساسا على مبدأ تدمير الاتحاد السوفيتى بالقاذفات النووية تدميرا تاما إذا هو بدأ بالهجوم المباشر على الولايات نفسها أو أوروبا الغربية ، وإن كانت الاستراتيجية نفسها تفترض أن الاتحاد لن يجرؤ على هذه المبادأة لعجزه أو ضعفه النووى المحقق . أما عن الهدف من هذه الاستراتيجية فهو تجميد توسع الكتلة الشرقية وعدم توغلها خارج الستار الحديدي كحد أدنى ، وربما محاصرتها « وتحريرها » فى النهاية كحد أقصى .

فأما تجميد التوسع فيرجع إلى أن أوروبا الغربية بعامة كانت بعد دمار الحرب وانهار الحياة المادية فيها حقلا خصبا للتيارات والتسللات والأحزاب الشيوعية التى برز دورها بشدة فى فترة ما بعد الحرب وانتخاباتها العديدة ، كما حدث فى فرنسا وإيطاليا خاصة وإلى حد ما فى اليونان التى كاد الانقلاب الشيوعى ينتزعها من الغرب كسائر البلقان لولا التدخل الأمريكى بفضل الموقع البحرى المفتوح . وأما هدف « تحرير » شرق أوروبا فلأن روح الصراع الإيديولوجى والعقائدى كان فى أوجه ، خاصة فى وهج الحرب الثانية وذكريات القتال ، حتى بلغ أحيانا حد الهوس أو الهيستيريا ، هيستيريا « الحرب الصليبية المقدسة على الشيوعية » .

ونحن نستطيع أن نكون فكرة عن المناخ السياسى والاستراتيجى فى تلك المرحلة من دعوة مفكر مثل برتراند رسل ، وهو رجل سلام وداعية تقدمية أصلا ومن حيث المبدأ ، إلى شن الحرب الصليبية على الشيوعية بلا إبطاء على أساس أنها هى « إما الآن أو مطلقا ! now or never » .^(١) وتلك كانت فى الحقيقة استراتيجية الحرب الوقائية المبكرة وضربة الاجهاض المسبقة أو الضربة الأولى والأخيرة معا . وهناك حتى الآن من يأسى فى الغرب على أن هذه فرصة ذهبية ضاعت إلى الأبد ولن تعود أو تتكرر .

أما من حيث الممار فلقد قامت استراتيجية الاحتواء أساسا على إقامة وفرض الأحلاف الإقليمية ، الدفاعية اسما الهجومية فعلا ، فى كل مكان حول الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية . والواقع أن المرحلة شهدت أكبر حملة أمريكية محمولة فى هذا السبيل ، حتى سميت الظاهرة « هيستيريا أو جنون الأحلاف pactomania » . وطوق سلسلة هذه الأحلاف نصف الدائرى حول الكتلة الشرقية غنى عن الذكر فضلا عن التكرار ، وكل ما يمكن إضافته هنا هو أنه وليس أى شىء آخر هو الستار الحديدي

الحقيقى فى نظر البعض ، بمعنى أن فكرة الستار الحديدى وإن ابتدعها الغرب وألصقها مغالطة بالاتحاد من جهته فإن هى - فى الواقع وكأمر واقع - إلا من صنعه هو وفرضه .

الحرب الكورية

كانت الحرب الكورية ٥١ - ١٩٥٣ هى قة استراتيجية الاحتواء - ونهايتها أيضا . فقد بدأت الحرب محلية محدودة نتيجة لتوغل الشيوعيين من شمال كوريا إلى جنوبها الموالى للغرب . ورغم أن الحرب الكورية تمت تحت علم الأمم المتحدة ، فقد كانت حربا أمريكية فى الدرجة الأولى ، كما يمكن أن نضيف بين قوسين أنها كانت حرب ماله أثر فى الدرجة الثانية (بطل معركة اليابان والهادى أثناء الحرب الثانية) . كذلك فرغم أن الهدف الأساسى من الحرب كان تحرير الجنوب ، فقد كان توحيد الجنوب والشمال هدفا رئيسيا آخر ، أى ضمنا « تحرير » الشمال أيضا .

وقد كانت حسابات الولايات أنه لا الاتحاد ولا الصين سيتدخل جديا بسبب التفوق النووى الأمريكى المطلق والرادع . غير أن الحرب تحولت على الجانب الشيوعى إلى شركة مساهمة سوفيتية صينية : الأسلحة الحديثة والطيران من السوفيت ، والقوات البرية من الصين بمحافلها البشرية المعهودة (نصف مليون متطوع) .

وفى وجه الهزيمة العسكرية المحققة ، كان الخيار أمام الولايات هو إما ضرب الصين و/ أو الاتحاد بحرب شاملة وإما استعمال القنبلة الذرية . لكن غزو الصين قد يدخل حليفها الأكبر الاتحاد فى المعركة بكامل ثقله ، أو قد يستنزف بفضل حجمها واحتياطها البشرى المخيف كل طاقة الولايات . وفى الحالين فإن هذا قد يترك جهة أوروبا الغربية مكشوفة ومعرضة لهجوم سوفيتى شامل دون مقاومة مكافئة . وفى كل الأحوال فإن خطر التحول إلى حرب عالمية وارد .

أما استخدام القنبلة الذرية ، رغم إغراءته الشديدة لأول وهلة خاصة فى ضوء تجربة اليابان ، فقد اتضح أنه يمكن أن يتحول إلى فخ أو مصيدة لاستنزاف رصيد الولايات منها ، المحدود حتى ذلك الوقت المبكر ، وبذلك تتحول الحرب إلى خدعة سوفيتية لكسر الاحتكار أو التفوق النووى الأمريكى . وفى جميع الأحوال فإن هذا يعنى بالنسبة للولايات « الحرب الخطأ ، فى المكان الخطأ ، فى الوقت الخطأ ، ضد العدو

الخطأ» كما لخصها حينذاك في عبارة جامعة مانعة الجنرال الأمريكي برادلي (١). من هنا جميعا عادت الأهداف الأمريكية لتقلص إلى مجرد العودة بالموقف إلى ما كان عليه قبل الحرب *status qua ante bellum* ، لتنشطر كوريا على حد سيف خط العرض الشهير ٣٨ درجة ، ولتنتهي الحرب من حيث بدأت . وبدلاً من أن تأتى الحرب الكورية معركة يابان ثانية ، جاءت بالعكس معركة يابان مقلوبة - بلا نصر وبلا هيروشيما .

وهكذا في النتيجة أثبتت الملحمة الكورية بطريقة عملية ولكنها مأساوية خطأ سياسة الاحتواء وفشلها ، وبالتالي عقم الاحتكار النووي أو التهديد النووي . ذلك أن قصارها المحافظة على الوضع الراهن بلا تغيير ولا تحرير ، وهى من ثم استراتيجية سلبية إلى حد بعيد . أما إذا أريد لها أن تكون إيجابية بإصرار ، فانها تتحول إلى مأزق حقيقى من الحروب المحدودة التى لا نهاية لها (٢) ، بحيث ترند فى النهاية إلى صدر صاحبها . ومن هنا بدأ البحث عن بديل ، لا سيما مع تغير التوازن النووى جذريا ، وهو أيضا ما ينقلنا إلى المرحلة الثانية من العصر النووى .

الخمسينات : استراتيجية الردع الشامل

هذه المرحلة تغطى الخمسينات بالتقريب منذ توصل السوفيت إلى القنبلة ١٩٤٩ حتى أزمة كوبا ١٩٦١ . ففيها أساسا توصل الاتحاد السوفيتى إلى السلاح النووى ووسائل نقله من قاذفات وصواريخ . ورغم تقدم السوفيت السريع فى هذا المجال ، فقد كانت أمريكا بسبقها وتفوقها تطفر طفرا . ولذا ظلت الفجوة النووية قائمة ، وإن زال الاحتكار النووى . والمهم على أية حال أن قد أصبح هناك توازن ذرى رهيب بين القطبين وأن الردع صار متبادلا عن طريق الصواريخ الموجهة .

غير أن هذا لم يكن يعنى شل احتمالات الحرب أو تجميدها . فلقد كان المفهوم أن الهجوم المفاجئ هو الاستراتيجية الوحيدة التى تبقت لأى من الطرفين . فلو عجل أحدهما بمباغطة الآخر - غيلة فى الظهر يعنى - فقد دمره إلى الأبد فى ساعات أو ربما دقائق ،

Harry S. Truman, Memoirs, N.Y., 1956, vol. 2, p. 321 ff.

(١)

(٢) اسماعيل صبرى مقلد ، « الاستراتيجية الأمريكية فى العصر النووى » ، السياسة الدولية ، يناير ١٩٦٦ ، ص

٥٦ - ٦٢ .

وتحدد بذلك مصير العالم نهائيا . وباعتبار آخر فقد كان شعار هذه المرحلة هي أن أنغدى بك قبل أن تتعشى بي .^(١) إنها ببساطة استراتيجية الغدر وأسلوب بيرل هاربر ولكن نوويا . والهجوم ، لا الدفاع ، هو بالتالى مفتاح المرحلة .

من هنا ندرك التوتر والترقب الرهيب الذى كان يرين على المعسكرين . فالموقف الاستراتيجى العام أقرب الآن إلى التعادل النسبى ، ومن ثم كانت تلك قمة الرعب النووى . ولذلك كان الطرفان يعيشان فى حالة طوارئ دائمة تقريبا . فإلى جانب كل وسائل وطائرات التجسس وشبكة التصنت والمخابرات ... الخ ، كانت الطائرات الأمريكية مثلا تتلقى فى الجو ٢٤ ساعة فى اليوم بلا انقطاع قط .

فى ظل هذا التوازن الحرج بالتحديد ظهرت على الجانب الأمريكى استراتيجية « الردع الشامل massive retaliation » كبديل عن استراتيجية الاحتواء الفاشلة من جهة وكرد على القدرة النووية الجديدة للسوفيت من الجهة الأخرى . وقد كان دلز هو صاحب ومهندس هذه الاستراتيجية الجديدة ، التى تعنى أن أى استفزاز من الجانب الآخر يقابل فوراً بحرب نووية شاملة . وعنده أن معرفة العدو مسبقا بأنه سيدمر تدميرا كاملا عند أدنى عدوان كفيلة بأن تردعه عن أى عدوان أصلا . وكانت القمة المنطقية لهذه الاستراتيجية هي سياسة « حافة الحرب brink-of-war » التى مارستها أمريكا دلز طوال الخمسينات تقريبا بكثير من التهور وقليل من الخوف ولكن بقدر لا بأس به من الفشل ، وذلك ابتداء من فيتنام إلى الشرق الأوسط بما فيه السويس ربما .

بين الشرق الأقصى والأوسط

ذلك أن حرب التحرير فى فيتنام ، التى لم تنقطع منذ نهاية الحرب الثانية ضد فرنسا وعلى أيدي الشيوعيين من الفيتمينه ، تحولت من مستنقع مزمن إلى كارثة حقيقية لفرنسا منذ انتهت الحرب الكورية سنة ١٩٥٣ . إذ نقلت الصين بعدها كل ثقلها البشرى الضاغط من حدودها الشمالية إلى الجنوبية ، مما انعكس مباشرة فى هزيمة دين بين فو الساحقة سنة ١٩٥٤ . ورغم أن الحرب الفرنسية فى الهند الصينية كانت من قبل حربا أمريكية إلى حد بعيد ، بمعنى أن المساعدات الأمريكية كانت هى الأساس فيها ، فقد أدى إخراج فرنسا من الصراع إلى أن ورثت أمريكا الحرب بكاملها - والفشل معها .

(١) مورجنتاو .

فرغم حرص أمريكا على ألا تتورط في حرب كالحرب الكورية مرة أخرى ، فقد تكررت تجربة كوريا المريرة من حيث فشل الطيران إزاء البيئة الغاية والأدغال الكثيفة ، واستحالة استخدام الجيوش البرية الضخمة إزاء المحيط الصيني الكثيف ، ثم أخيرا استحالة استخدام السلاح النووي خشية التصعيد الشامل . وهكذا تحطمت استراتيجية الردع الشامل على صخرة فيتنام ، بينما تورطت أمريكا إلى ما لا نهاية في مستنقعها .

وتختلف تجربة السويس بطبيعة الحال في وضعها ، ونوعيتها ، وملابساتها ، ولكنها لا تخرج في النهاية عن إطار العصر النووي وتوازن المرحلة الجديد . فلقد كان في هذا الاطار بالدقة أن تطورت وجرت أحداث حرب السويس ١٩٥٦ . ففيها لأول مرة اتخذت القوتان الأعظم ، على تضادهما النووي ، موقفا واحدا تقريبا من الناحية العملية ضد القوتين النوويتين الكبيرتين رغم أنهما حليفان لإحدهما ، فكان انسحابهما أمرا مقضيا ، وفشل العدوان الثلاثي في ظل وبفضل التعادل النووي الأعظم .

وثمة رأى ، لا يخلو من وجاهة ، يذهب إلى أن الولايات تعمدت أن تدع حليفاتها تتورطان إلى النهاية في الأزمة حتى ينتهي الأمر بهما إلى الفشل فترثها هي في المنطقة تلقائيا ونهايا . كذلك فسواء كان هذا الفشل قد تحقق بفضل الإنذار الروسي أو الضغط الأمريكي ، والأخير الأرجح^(١) ، فلقد كان معنى هذا ، ونتيجته أيضا ، أن قد تم إلى الأبد اختزال القوى العظمى في العالم إلى اثنتين لا ثالث لهما ، كما قد تم نهائيا وراثته الاستعمار القديم ، وهذا وذاك أساسا في ظل وبفضل العصر النووي .

التجربة والخطأ

هكذا أثبتت تجربة الخمسينات أن استراتيجية الردع الشامل ، بعيدا عن أن تكون مصححا لاستراتيجية الاحتواء بحروبها المحدودة ، هي أقل مرونة وأكثر جمودا وبالتالي أشد فشلا وخطأ . فهي إنما تترك الخيار بين اثنتين : إما حرب نووية شاملة وإما لا حرب على الإطلاق ، ومن ثم فلا مجال فيها للحرب المحدودة . ولما كان من المستحيل واقعا الالتجاء إلى الحرب النووية الشاملة عند أصغر نزاع محلي ، فقد كان الشلل أو العجز هو النتيجة الحتمية الوحيدة على الجانب الأمريكي ، فضلا عن الذعر المتواتر بين الحلفاء أنفسهم .

Heikal, op. cit., p. 72.

والواقع أن استراتيجية الردع الشامل سلاح نفسى وحرب أعصاب أكثر منها أى شىء آخر ، تعتمد أساسا على ابتلاع العدو للطعم . ولأن أحدا فى المعسكر الشرق لم يكن على استعداد لأن يقبل بأن الولايات على استعداد حقا لإقامة القيامة النووية من أجل أدنى أو أتفه نزاع هامشى ، فإن هذه الاستراتيجية فقدت مصداقيتها وفعاليتها وعدت نوعا من التهويش الاستراتيجى bluff أو الابتزاز النووى blackmail . ولعل من هنا جاء شعار الصين المشهور فى تلك المرحلة عن أمريكا « كنمر من ورق » حتى ولو كان ذا أنياب نووية .

والحقيقة أن الردع الشامل كان على أقل تقدير يمثل الاستراتيجية الخطأ فى الوقت الخطأ ، بمعنى أنه إنما يمت إلى الماضى وينتمى إلى منطق وعصر الاحتكار النووى ، أى كان أصلح لمرحلة الأربعينات من الاحتواء ولكنه كان أسوأ منه لمرحلة الخمسينات . ومن هنا شهدت الخمسينات على امتدادها جدلا مستمرا فى الفكر الاستراتيجى حول الحرب المحدودة والعودة إليها بصورة معدلة تتلاءم مع العصر النووى وذلك كبديل عن الردع الشامل وكمخرج من مأزقه وشلله التام .

وقد شارك فى هذا الجدل كثيرون أمثال هنرى كيسينجر ، بول نيتزه ، روبرت أوسجود ، رالف لاف ، برنارد برودى ، ادوارد تيللر ، ولیم كاوفمان ، روجر هيلزمان ، هانز بولدوين ... الخ .^(١) وبعضهم مثل كيسينجر عدل عن آرائه أو عدلها مرة أو أكثر من مرة .^(٢) والمهم فى هذا الجدل على أية حال أن الحرب النووية التكتيكية كانت هى الشكل الجديد المقترح والمفضل ، بمعنى استخدام الأسلحة النووية التكتيكية الصغيرة أو الميدانية كتعويض تكنولوجى عن تفوق الكتلة الشرقية التقليدية فى الأسلحة والقوات التقليدية . غير أن البعض أصر على استبعاد السلاح النووى كلية من الحرب المحدودة ، وعلى أن الحرب المحدودة لا تكون حربا محدودة إلا إذا كانت حربا تقليدية .

على أن مشكلة الحرب المحدودة ، التى لم تقبلها أمريكا قط بأكثر من نصف قلب ورفضها السوفيت تماما من حيث المبدأ باعتبارها مجرد تبرير للحروب الاستعمارية ومقاومة حروب التحرير الوطنية ، كانت دائما هى خطر التصعيد الكامن أبدا . فليس هناك ضمان على أى من الجانبين ، سواء فى حالة النصر أو الهزيمة ، سواء كانت الحرب

(١) إسماعيل صبرى مقلد . ص ٦٠ - ٦٩ .

Henry Kissinger, Nuclear weapons and foreign policy, N.Y., 1957.

(٢)

المحدودة نووية أو تقليدية ، أن تظل الحرب محدودة وألا تتصاعد إلى حرب شاملة تقليدية أولاً ثم نووية بعد ذلك . فالمشكلة هي صعوبة وربما استحالة تجميد وحصر الحرب المحدودة متى بدأت . ومن هنا كانت النظرية السوفيتية ، التي شارك فيها كثير من الاستراتيجيين في الغرب ، من أنه ليس ثمة شيء كحرب محدودة ، فكل حرب محدودة إنما هي مقدمة لحرب شاملة ، والحرب الشاملة في ظل التوازن النووي الجديد إنما تعني الانتحار المتبادل - أو نزع السلاح الشامل .

الستينات : استراتيجية الرد المرن

شهد هذا العقد تطورات وطفرات نووية جسيمة على كلا الجانبين أبرزها الغواصات النووية والصواريخ المضادة للصواريخ ، كما أصبح السباق بينها سجالاتاً تناوباً فيه التفوق أكثر من مرة وإن كانت اليد العليا غالباً أو في النهاية للولايات ، مما منحها دينامية نشطة إن لم نقل عدوانية عاتية جعلت العقد في مجمله عقدها بالتأكيد لا عقد الاتحاد في مجال السياسة العالمية .

على أن التوازن النووي بين القطبين ازداد في مجمله رهافة وخطورة وازداد الرهان رهبة وجسامة ، حتى اشتدت مخاطر الصدام في أكثر من أزمة دولية أهمها أزمة كوبا في بداية الستينات وحرب يونيو قرب منتصفها ثم حرب فيتنام في أواخرها . غير أن هذا من الناحية الأخرى حتم تغييرات جذرية وأدخل تطورات جديدة في الاستراتيجيات السياسية والعسكرية ، تلخص على الجانب الأمريكي في استراتيجية الرد المرن بدل الردع الشامل ، وذلك في ظل فلسفة التعايش السلمي بدل الحرب الباردة على الجانب السوفيتي .

وقد كانت الولايات هي السباقة إلى إستراتيجية الرد المرن . ففي وجه الشلل أو الجمود النووي السابق nuclear stalemate وعقم استراتيجية الردع الشامل ، مع تعاظم حدة التوازن النووي بين الجانبين ، أخذ الفكر الأمريكي يرتاد استراتيجيات بديلة تسمح بمرونة وحرية الحركة في أزمات الصراع دون الوقوع في مأزق الحرب النووية المستحيلة . وفي مطلع الستينات كانت هذه الاستراتيجية قد تبلورت بصفة خاصة على يد الجنرال ماكسويل تيلور تحت اسم الرد المرن flexible response^(١) ، وعلى يد هيرمان

Maxwell Taylor, The uncertain trumpet, N.Y., 1959, p. 30 ff.

(١)

كان تحت اسم الردع المتعدد multideterrence. ^(١) وفي الوقت نفسه تبنتها الادارة الأمريكية (كيندى - ماكنارا) واعتمدتها رسميا تحت اسم القوة المضادة الموجهة . controlled counter-force

مؤدى هذه الاستراتيجية أن الخيار المطروح أمام الولايات ليس كسابق الظن بين الانتحار المتبادل ونزع السلاح من جانب واحد ، أى بين الانتحار المتبادل والانتحار الذاتى تقريبا ، وإنما هناك بين النقيضين خيارات وبدائل عديدة ، تجمع بين مرونة الحرب المحدودة وحسم الحرب النووية فى توازن دقيق محسوب ، وتناسب فيها القوة الضاربة - على عكس الردع الشامل الغاشم الأصم - مع حجم الصراع أو الأزمة ، وذلك أيضا مع التصعيد escalation أو التهييط de-escalation بحسب تطورات الموقف .

وعلى هذا فإن محور استراتيجية الرد المرن ينبغى أن يكون الجمع بين الحد الأقصى من القدرة النووية الكامنة الآمنة وبين الحد الأقصى من الأسلحة التقليدية القادرة سريعة الحركة والانتقال . وإنما ينبغى أن يكون السلاح النووى الحل الأخير لا الحل الأول ولا الأوحد . وبذلك يمكن التصدى بكل حرية ومرونة لأى صراع محلى أو دولى بطراً وذلك بالقوة التقليدية ومحاولة حسمه بها وحدها دون التصعيد من حرب تقليدية محدودة إلى حرب نووية عالمية . فإذا ما استحال الحسم بالأسلحة التقليدية أو تجميد الحرب المحدودة ، فلا مفر عندئذ من التصعيد النووى .

وبطبيعة الحال فإن هذه الاستراتيجية تستدعى استعدادات عسكرية خاصة تقليديا ونوويا . فتقليديا ، ينبغى أن تتوفر القوات الكافية القادرة على الانتقال الفورى إلى ميادين القتال والانتشار السريع فيها ، بكل ما يعنى هذا من قوة الطيران والبحرية ومشاة الأسطول ... الخ . أما نوويا فإن الأساس الشرطى والشرط الجوهرى هو امتلاك زمام المبادرة ، أى ضمان القدرة على « الضربة الأولى pre-emptive war » ، وإلا ف ضمان القدرة على الرد بعدها « بالضربة الثانية » . وكان هذا بداية المناظرة التاريخية الشهيرة فى أدب الاستراتيجية بين الضربة الأولى والثانية .

ذلك أن الصواريخ عابرة القارات قد خفضت الوقت اللازم لنقل الرؤوس النووية إلى دقائق معدودات ، بحيث أصبحت الضربة الأولى رغم كل وسائل الانذار المبكر

Hermann Kahn, On thermonuclear war, Princeton, 1960, p. 22-37.

(١)

تمثل مفاجأة أو مباغتة تعطى للبادئ ميزة تدميرية هائلة قد تحسم المعركة وتنتهى الصراع إلى الأبد . ولهذا أصبحت الضربة الأولى بمثابة الحرب الوقائية preventive war ، وسميت كذلك أحيانا بالفعل . وهى على هذا الأساس تعد نوعا من الدفاع فى شكل الهجوم ، دفاعا مسبقا فى شكل هجوم مسبق .

فإذا ما ضاعت فرصة الضربة الأولى على الولايات ، فلا بد لها عندئذ أن تكون قادرة على امتصاصها ثم الرد عليها بالضربة الثانية . ولتحقيق هذا لابد لها من تأمين مخزونها النووى بعيدا عن أى خطر على السطح ، وذلك بحفظه فى صوامع غائرة تحت الأرض تكون أيضا مشتتة التوزيع ، أو فى الغواصات النووية الدائبة الحركة تحت الأعماق ، أو فى الطائرات المحلقة أبدا فوق السحاب . ففي الضربة الثانية إذن يمكن ليس فقط تفادى الهزيمة النهائية ولكن أيضا ردع العدو عن الضربة الأولى نفسها أصلا لعلمه بأنه لن يفلت من العقاب المدمر مهما كان وفى كل الأحوال . إنها هجوم متأخر وإن أتت كدفاع لاحق .

وهذا أيضا - لابد أن نلاحظ - تلاشى الفاصل الزمنى بين الهجوم والدفاع وشجب الفارق الاستراتيجى بينهما كثيرا حتى تداخلوا وصارا جانبيين لشيء واحد تقريبا ، لا قيمة لأحدهما دون الآخر ، واجتماعهما معا ضرورة بقائية شرطية فى العصر النووى ، ولم يعد أهم من الدفاع سوى الهجوم ولا أهم من الهجوم سوى الدفاع .

فإذا ما انتقلنا الآن من النظرية إلى التطبيق ، فإن أول تطور هام كان دخول الغواصة إلى مسرح الصراع فى الستينات الباكورة . وقد كانت الولايات هى السباقة فى هذا المجال ، حيث دشنت الغواصة نوتيلس الشهيرة Nautilus العصر الجديد . وأصبحت الغواصات النووية التى تجوب أعماق البحار والمحيطات بلا انقطاع بمثابة « يابس » أو قارات ميكروسكوبية عائمة أو غاطسة لها مثل قوة التدمير والردع النووية التى للقاعدة الأرضية على اليابس الحقيقى تماما ، بمعنى أنها تستطيع أن تباغت العدو بالضربة الأولى الاجهاضية من حيث لا يحتسب ولا يستطيع أن يرد ، أو أن تعاجله بالضربة الثانية الانتقامية إذا ما سبق هو بالأولى ، بحيث لا يفلت من العقاب وربما الفناء قاتلا كان أو مقتولا ، مهاجما أو مدافعا ، بادئا أو مسبوقا .

وهذا التوازن الجديد استردت أمريكا زمام التفوق الاستراتيجى المحقق ، واشتدت من جديد ميولها ونشاطاتها الصراعية . ومع ذلك فقد فرض التعايش السلمى نفسه

فرضا . وقد تبدى هذا في أوجه وأوضح صوره في أزمة كوبا في أوائل الستينات حيث انسحب الجانب السوفيتي من المجابهة النووية ونذر الحرب العالمية محتفظا بالحد الأدنى من ماء الوجه والحد الأقصى من السلامة .

كوبا : مطرقة التعايش

فئذ تحولت كوبا الثورة إلى اليسار ، أصبحت في نظر الولايات المتحدة بمثابة خلية شيوعية في قلب جسم العالم الجديد وفي صميم نسيجه . فهي بموقعها وسط الكاريبي - البحر المتوسط الأمريكي - تكاد تلامس جنوب الولايات على مرمى حجر ، وتكاد ترى أمريكا الوسطى على مرأى النظر . وهي من ثم في نظر الولايات بؤرة خطرة لنشر « الوياء » الوافد من العالم القديم ولتصدير الثورة إلى العالم الجديد ... الخ . إنها « حصان طرواده » الشيوعي في عقر دار الرأسمالية . ولذا بات هم الولايات الأكبر هو محاصرة وعزل هذه البؤرة ، إن استحال استئصالها أو اجتثاثها ، حتى لا تتحول أمريكا اللاتينية على المدى البعيد ، أو الوسطى على الأقل ، إلى كوبا كبرى .

ولكن حين تحول هذا المركز أو أوشك إلى قلعة للصواريخ السوفيتية يمكن أن تضرب رأسا ومباشرة في قلب الولايات نفسها ، لم يكن بد من المواجهة المباشرة مع السوفيت . والحقيقة أن هذه المواجهة لم تكن في حساب الجيوستراتيجية الواقعية سوى نسخة نووية من مبدأ مونرو ، أى أول تطبيق للمبدأ القارى القديم في العصر النووى .^(١) وعلى هذا الأساس ينبغي أن ننظر إليها جيوبوليتيكيا .

على أن كوبا ، من الناحية الاستراتيجية ، جاءت وهي « السويس معكوسة أو بالقلوب » كما شخص هيكल ببراعة وحصافة .^(٢) أما تاريخيا فبينما كانت الأخيرة نموذجا رائعا لسياسة الصد والرد checkmate بين كبار النووين وصغارهم ، كانت الأولى نموذجا مروعاً لسياسة الشد والجذب stalemate بين كبار النووين أنفسهم . وفي كل الأحوال ، ففي أزمة كوبا وضعت بذرة التعايش السلمى ، وبها بدأ عقده عقد الستينات تقريبا . غير أن الاتحاد السوفيتي لم ينس الدرس ولا أساء فهم معادلة التعايش الجديدة . فقد أخذ التحدى النووى جديا ، حتى انتزع قصب السبق أو التفوق النووى نوعا أو

Cf. "The East-West struggle", Economist, Dec. 26, 1981, p. 59.

(١)

Sphinx etc., p. 154.

(٢)

نوعيا ، آتيا أو مرحليا . فمن ناحية سرعان ما توصل الروس إلى الغواصة النووية ، وبذلك بات هناك لكلا الجانبين مجازا يابس خارج اليابس وقارات تحت القارات أو المحيطات ، وصارت لهما على السواء القدرة على كلتا الضربتين الأولى والثانية ، بحيث إذا ما باغت أحد الجانبين الجانب الآخر بهجوم نووى كاسح على أرضه فهو قد محاه حقا من الوجود ، ولكنه لن يفلت من العقاب فورا بهجوم ماحق مماثل من أسطول غواصاته النووية المنبث المتربص فى أغوار المحيطات .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فلقد توصل الاتحاد إلى سلاح جديد نسخ به الصواريخ النووية الأمريكية المتفردة ونسخ معه تفوقه الاستراتيجي . وذلك السلاح هو الصواريخ المضادة للصواريخ anti-ballistic missiles, anti-missile missiles ، وبها يمكن تدمير الصواريخ العدو سواء فى صوامعها على الأرض قبل أن تنطلق ، أو فى رحلتها فى الجو إذا كانت قد انطلقت . وهكذا ، كما قيل ، لا يفل الصواريخ إلا الصواريخ . وقد نشر الاتحاد السوفيتى بالفعل خلال المرحلة شبكة كثيفة فعالة من الدفاع الصاروخي حول مدنه الكبرى خاصة موسكو ولندنجراد ، عممت بعد ذلك وعمقت حتى شملت الاتحاد كله بالتدريج .

وبهذه التطورات جميعا كان الاتحاد هو الذى تفوق استراتيجيا فى هذه المرة أو المرحلة ، وبذلك عوض - تاريخيا - عن فترة تخلفه الذرى عقب الحرب الثانية مباشرة . ولعل هذا كان من حسن حظ العالم ، إذ لم يكن للاتحاد مثل الميول العدوانية أو التهور الاندفاعى الاستفزازى الذى كان للولايات فى تلك المرحلة . وليس من المستبعد فى رأى البعض أنه لو كان هذا التفوق الجديد من قدر الولايات فربما اندفعت فى طريق التحرش والصدام .

إعادة اكتشاف الحرب المحدودة

ذلك أن الولايات المتحدة ، فى وجه هذا السباق النووى المفعم المتقلب ، جنبا إلى جنب مع الشلل النووى الشامل المقيم ، أدركت استحالة الحرب النووية ، وبالتالي خطأ سياسة الردع النووى الشامل كما رأينا . فالقضية لم تعد بالضبط قضية الضربة الأولى أو الثانية على التحديد ، وإنما القضية الآن أنه لا ضربة أولى ولا ثانية أصلا على الإطلاق ، إذ ليس هناك سوى معادلة وحيدة ومستحيلة وهى القيامة النووية ذاتها . ومن هنا كانت الولايات أسبق من الاتحاد إلى اكتشاف حل المعادلة الصعبة هذه وإلى

« اختراق الحاجز النووي » ، يدفعها إلى ذلك طبيعة الاستعمار الجديد العدوانية ، ويشجعها عليه استهتارها بأخطار التصعيد في الصراع ، وفي الوقت نفسه تمكن لها امتيازاتها العسكرية الجاهزة من قبل والتي تتمثل في قواعدھا المنتشرة حول العالم .

فئذ أوائل الستينات حين تبنت الرد المرن والحرب المحدودة باعتبارھا استراتيجية الاستعمار الجديد بالضرورة والامتياز في العصر النووي ، أخذت الولايات تبنى وتنمى كل أسلحتها الطبيعية التي تعتمد أساسا على أقصى تكنولوجيات الكفاءة ولوجستيات السرعة ، والتي تتمثل في القوات الأمفيبية (مشاة الأسطول) وقوات المظليين (فرسان الجو) إلى جانب القواعد الثابتة (حاملات الطائرات التي لا تغرق) والقواعد العائمة (حاملات الطائرات والغواصات) .

و حين أعلن زعماء الاتحاد السوفيتي - خروتشوف أيضا - من بضع سنين خلت أنه لم يعد للطائرات والأساطيل البحرية ، في عصر الصواريخ النووية ، من مكان إلا المتاحف الحربية ، فإننا نستطيع الآن أن نرى أنه كان يتكلم من منطلق الردع الشامل ، دون أن يتنبأ بإمكانية الرد المرن . لقد ظن ، كما ظننا جميعا لبعض الوقت ، أن الاستراتيجية النووية قد نسخت إلى الأبد الاستراتيجية التقليدية ، فإذا بتوازن الرعب النووي يضع الأولى في التجميد العميق كما قيل ، وإذا بالثانية تعود ولو مؤقتا لتحتل الصدارة في العمل العسكري الجارى .

وبالفعل ، فلقد سجلت السنوات الأخيرة من الستينات زيادة هائلة في قوات الولايات المتحدة من تلك الطرز التقليدية المتخصصة ، في الوقت الذي كان الاتحاد السوفيتي لا يزال يعتمد أساسا - إلى جانب الترسانة النووية بالطبع - على أسلحة الحرب البرية التقليدية التي تلائم استراتيجيته الكلاسيكية الدفاعية الخاضعة كما نعرف لجغرافيته القارية الأوراسية المتصلة والحبيسة . وبهذا كانت تنقصه أساسا الأسلحة التقليدية غير النووية الصالحة لاستراتيجية حروب ما وراء البحار . وهذا وإن اتفق كثيرا مع ما يتصوره طبيعته غير - الاستعمارية ، فإنه لم يعد يتفق على أية حال مع صراعاته ضد - الاستعمارية . وتلك بالدقة كانت الفجوة التي استغلتها الولايات المتحدة لتضرب بحرية في العالم الثالث وقتئذ ولتحقق مد الاستعمار الجديد الذي بلغ أوجه في معركة الشرق الأوسط بالتحديد^(١) .

من الشرق الأوسط إلى الأقصى

فلقد كان في ظل هذه المعادلة الجديدة بالدقة أن تمت حرب يونيو بنكستها المعروفة التي بدا فيها الاتحاد السوفيتي عاجزا بوضوح عن مساندة أصدقائه العرب في مصر وسوريا إزاء العدوان الأمريكي السافر واللفضوح رغم القناع الإسرائيلي المباشر. ولم يقتصر هذا العجز على ميدان المعركة نفسه وحده ، ولكنه استمر بعده على المستوى السياسي إلى حد وأمد بعيدين . وهنا كانت المفارقة الصادمة : فرغم تفوق السوفيت نوويا في تلك المرحلة ، تفوقت أمريكا تقليديا ، ورغم التعايش السلمي فإنها انتزعت نصرا ساحقا في حرب محلية محدودة ، بينما افتقد أصدقاء الاتحاد السوفيتي فاعليته ولن يلبث هو أن يفقدهم بفضل هذا التعايش ذاته .

على النقيض من هذا تماما - للغرابة والدهشة - جاءت المواجهة في فيتنام . ففي نفس الاطار النووي والمناخ السياسي ، عجزت الولايات عن أن تسجل أى نصر بعد حرب عقدية وحشية ضارية ، بل وسجلت أول هزيمة لها منذ قرون ، معترفة لآخر مرة باستحالة تحقيقها هي أو غيرها من القوى الخارجية لنصر عسكري على اليابس الآسيوي . ولقد كان التنافس الحاد بين الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية في مساعدة فيتنام الشيوعية ، الملاصقة لها أيضا ، من عوامل الترجيع الحاسمة ، لكن للمقاومة الوطنية المصرة والفدائية كانت الفيصل .

وعلى أية حال ، فهكذا انتهت « أقدر حرب » في القرن العشرين في الشرق الأقصى بهزيمة العدوان ، فيما انتهت « أضعف حرب » في القرن العشرين في الشرق الأوسط بالهزيمة الوطنية . وبهذا كانت حرب فيتنام هي حرب يونيو بالمعكوس ، بمثل ما كانت حرب السويس من قبل هي معركة كوبا بالمعكوس .

الغريب ، مع ذلك ، أن المواجهة في كلتا الحربين المحليتين المحدودتين تمت في إطار التعايش السلمي الحرج . والأغرب أن العقد كله ، عقد الستينات ، عد كما بدأ عقد الولايات من حيث الدينامية والسيطرة والهيمنة العالمية رغم هزيمة فيتنام في نهايته . غير أن هذه الضربة المهيمنة القاسية لأكبر قوة في التاريخ على يد دولة صغيرة متخلفة كانت نقطة تحول جذرية في كيان الولايات المتحدة . فقد كانت تلك « عقدة فيتنام » التي أدت مباشرة إلى « الانفراج » الشهير « بالوفاق » . وبهذا انتقلنا من عقد التعايش السلمي في الستينات إلى عقد الوفاق في السبعينات .

ولكن بينما كانت الستينات عقد أمريكا بالترفضيل ، ستكون السبعينات عقد روسيا بامتياز . إذ يمكن القول إن العقد بدأ في نصفه الأول أقرب إلى التعادل السياسى والاستراتيجى بين القوتين الأعظم : ولكنه تحول في نصفه الثانى إلى تفوق روسى معلى ومعترف به من قبل أمريكا نفسها .

السبعينات : الوفاق النووى

ذلك أن الطرفين خرجا من الستينات ودخلا السبعينات بحساب مسوّى تقريبا على الجانب السياسى . ففى الصراعات المحلية أو الاقليمية سجلت أمريكا نقطة حاسمة فى حرب يونيو ، فسجلت روسيا نقطة التعادل فى فيتنام : دقة بدقة ، أو ضربة بضربة ، هذه مقابل تلك . ولقد كان من صميم منطق هذه الحسبة أن خرجت صفقة الوفاق - و صفقة هى بالتأكيد .

فن تجربة الأولى المريرة فى فيتنام ، ومن تجربة الثانية الكسيرة فى الشرق الأوسط ، مع استحالة الحسم النووى إلا انتحارا ، اتفق الغربان اللدودان على إحلال « الوفاق الثنائى » محل « الاستقطاب الثنائى » كصيغة جديدة لا تنفى الصراع ولكن تحكمه وذلك بمعادلة تجمع بين متناقضتى التعايش والتنافس ولا تمنع الحروب المحلية ولكن تحكمها وتخضعها لضوابط الوفاق وحدوده .

ومن المفهوم بداهة أن كلا الطرفين كان يضمّر أو يقدر أن يستغل الصفقة لحسابه الخاص وأن يكسب منها أكثر مما يخسر أو على أية حال أكثر من الطرف الآخر . وهكذا كان بالفعل ، غير أن الذى استغل الوفاق أكثر على الجانب الاستراتيجى كان هو الاتحاد السوفيتى بينما كسبت الولايات المتحدة أكثر على الجانب السياسى .

ذلك أن الاتحاد ، على الجانب الاستراتيجى ، كان قد تعلم درس نكسته فى الشرق الأوسط وصحح خطاه سريعا . فلقد اكتشف من التجربة المريرة فى ١٩٦٧ المصل المضاد لاستراتيجية الرد المرن : فلا يفل الحرب المحدودة إلا الحب المحدودة . ومن هنا اتجه بوضوح تام ومرونة وسرعة نادرتين إلى الاستعداد للحروب الصغيرة عبر البحار ، بإعداد قوة بحرية للتدخل السريع فى العمليات الخارجية ، تشكل قواعد عاممة عبر البحار كبديل عن القواعد الثابتة التى تميز الاستعمار .

وقد بدأت أولى إرهابات الخروج البحرى فى الحقيقة منذ نهاية الحرب الثانية حين

أخذ الاتحاد السوفيتي ينمى لنفسه قوة بحرية قياسية لم يعرفها من قبل ، حتى وصل اليوم إلى المرتبة الأولى في الأسطول التجارى ، والثانية في الأسطول الحربى ، وفى هذا الأخير وصل بأسطول الغواصات بالذات - ولهذا مغزاه الجغرافى الكبير- إلى ضعف قوة الولايات المتحدة أو مايربو على كل قوة حلف الأطلسى مجتمعة . وهكذا من قوة خفر سواحل صغيرة وأسطول غواصات متوسطة الحجم فى الستينات ، نما الاتحاد إلى ثانى أكبر وأقوى أسطول بحرى فى العالم ، بحيث أصبح يحتل الدور الذى كان الأسطول البريطانى يحتله فى الماضى والذى انتزعه الأسطول الأمريكى بعد ذلك .

وقد ظهرت أولى علامات التحول الاستراتيجى الدال الجديد فى أواخر الستينات وذلك ببناء حاملات الطائرات لأول مرة ، ثم فى تشكيل مشاة البحرية لأول مرة كذلك ، ثم فى تنمية فرسان الجو على أوسع نطاق ، مع كل ما يعنى هذا من تكنولوجيا ولوجستية . ورغم أن معظم قوة الاتحاد النووية لا تزال تتركز فى صواريخها الأرضية القواعد ، فإن غواصات الأعماق الجديدة من طراز تيفون تعد طلائع قوة صواريخ بحرية القواعد . على أن أعظم نمو فى الأسطول السوفيتى تم فى الوحدات السطحية ، ويعد تحديا مباشرا للأسطول الأمريكى . فالطرادات الحربية الجديدة من طراز كبروف مصممة خصيصا كقناتلات لحاملات الطائرات . هذا بالطبع فضلا عن القوة الأمفببية ممثلة فى حاملات الطائرات وحاملات الهليكوبتر وسفن الانزال والتموين فى عرض البحر ... الخ .

وعلى الجملة فقد أصبح الأسطول السوفيتى قادرا على العمل بعيدا جدا عن الوطن . وأساطيله الرئيسية تنتشر الآن فى كل من الأطلسى والهادى ، كما امتدت إلى البحر المتوسط حيث أصبحت له نواة متنامية فى حوضه الشرقى تتعامد على ، وتقطع فى صميم ، نطاق أحلاف الغرب ، وتوازن الأسطول الأمريكى السادس وتلقى احتكاره وتنفى عنه صفة « البحرية الأمريكية » . كذلك بدأ السوفيت ينمون لأنفسهم شبكة من القواعد البحرية فى الهندى والبحار الجنوبية ابتداء من عدن فى اليمن الجنوبية إلى دانانج وكام رانه فى فيتنام ... الخ . وذلك كله بلا ريب أبعد ما يكون عن صورة روسيا القديمة القارية حييسة أصقاع الشمال الباردة المتجمدة .

وأخيرا ، فإن الشئ الجدير بالملاحظة فى هذا الانقلاب أن هذه الاستراتيجية الجديدة تتجه بالاتحاد - كما تنبأ مكيندر من قبل - إلى أن يكون قوة برمائية أكثر من أى

وقت مضى . كذلك فإن هذا الاتجاه يتفق تماما مع ما وجدناه من أن العودة إلى الحرب المحلية المحدودة في ظل الشلل النووي ، يعود بالاستراتيجية العالمية بصورة ما إلى نمط ومنطق ماكيندر القديم والمتنحي أساسا .

معركة أكتوبر

المهم على أية حال أن هذه الاستراتيجية البحرية الجديدة ، جنباً إلى جنب مع سياسة الوفاق الوليدة ، وضعت موضع الاختبار والتنفيذ وبرزت بكامل هيئتها وثقلها في حرب أكتوبر ١٩٧٣ في الشرق الأوسط . فمن ناحية كان الوفاق ، كضابط أخير يحكم الصراعات المحلية والاقليمية ، ينص حرفياً على « الاسترخاء الاستراتيجي » في الشرق الأوسط . وكان هذا يعنى ضمناً وعملياً استمرار حالة « اللا حرب واللا سلم » السائدة في المنطقة منذ نكسة يونيو ، أى استمرار تفوق وتثبيت العدوان والاعتصاب من جهة واستمرار ضياع الحق على صاحبه المعتدى عليه من الجهة الأخرى .

من هنا كان على الجانب العربى ، في وجه هذا القرار الظالم المنحاز إلى المعتدى والذي يرقى إلى حد التواطؤ السافر ، أن يتنزع حقه من بين أسنان الوفاق ومن بين برائن « الأصدقاء » السوفيت أنفسهم كما من بين برائن الأعداء الأمريكيين سواء بسواء . ومن هنا كانت حرب أكتوبر تحدياً مباشراً ، أول تحد ، للوفاق وللقوتين الأعظم بصورة أو بأخرى .

من الناحية الأخرى ، أما وقد فرض التحدى كأمر واقع واندلعت الحرب وفشل الطرفان الأعظم في منعها أو إيقافها ، فإنهما سرعان ما عادا كأمر طبيعي إلى مواقعهما الانحيازية الأصلية كل في صف أصدقائه وإن بدرجات متفاوتة . وهنا ولأول مرة يستطيع الاتحاد السوفيتى أن يقيم جسراً جويًا وبحرياً لمساعدة أصدقائه العرب في وجه الجسر الأكبر الذى أقامته الولايات لمساعدة وحماية حليفها الصهيونى . ورغم فداحة الفارق في ثقل وكثافة وحجم الجسرين المتعاضدين ، فقد كانا أشبه بمبارزة حادة بالسيف عبر البحر المتوسط لم يسبق لها مثيل في جولات الصراع العسكرى السابقة في المنطقة . وكان هذا يرجع أساساً إلى تطور القوة البحرية السوفيتية الطارئ وتبنى منطق الرد المرن ومغامرة الحرب المحدودة^(١) .

(١) جمال حمدان ، ٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية ، ١٩٧٤ ، ص ٢٩ وما بعدها .

ورغم أن الولايات المتحدة ، حين وصلتها رسالة استغاثة إسرائيل S.O.S الشهيرة بعد أن واجهت خطر الهزيمة الكاملة لأول مرة ، افتعلت تأزيم الموقف الدولي بإعلان حالة الاستعداد والتأهب النووي في قواعدها حول العالم ، فإن الوفاق وضع حدا للأزمة بسرعة غريبة . ورغم أن الاتحاد عرض على الولايات فرض تسوية شاملة على الصراع الحلى في المنطقة بقوتيهما المشتركة وإلا فبقوته المنفردة داخل الوفاق ، فقد كان هذا وحده كفيلا برفض الولايات على الفور وانفرادها بفرض التسوية الدبلوماسية وحدها وحسابها وبشروطها .

وهكذا ، في ظل الوفاق ، تم إخراج السوفيت من التسوية مثلما تم إخراجهم من قبل من المنطقة . وهكذا أيضا ، في ظل الوفاق أو من وراء ظهره ، تم تميع ، ولا نقول تضييع ، الموقف في المنطقة ، فجاءت نتائج المعركة السياسية دون مقياسها العسكري إلى أقصى حد ، فاترة فطيرة بقدر لهيب الميدان وهول المعركة ، بحيث اتسمت الحرب على الجملة بعدم الحسم في دورها وأثرها التاريخي إن لم يكن بالسلب المطلق .

السبعينات المتأخرة : المد السوفيتي

قد تكون هذه ، أكثر من أى مرحلة سابقة ، هي مرحلة التفوق السوفيتي سياسيا وعسكريا خارج كل جدال بل وباعتراف الغريم الأمريكي علنا وبالحاح . فلئن كان السوفيت قد خرجوا من المرحلة السابقة وقد فقدوا مواقعهم في أهم مراكز العالم العربي والشرق الأوسط ولم يبق لهم موطن قدم إلا في أقلها عددا وقيمة ، بينما وضع الأمريكان أقدامهم في حذائهم الواسع القديم وأصبح معظم المنطقة في جيهم ، فإن السوفيت عوضوا بنجاحات محققة ونشاطات مؤثرة في المنطقة وما حوّلها ، إضافة أيضا إلى أفريقيا والشرق الأوسط بل وكذلك الكاريبي وأمريكا الوسطى .

فن جهة بدأ الاتحاد بعملية تطويق للشرق الأوسط بنطاقات وأحزمة في أفريقيا تمتد من البحر المتوسط (ليبيا) إلى القرن الأفريقي (إثيوبيا) وجنوب الجزيرة العربية (اليمن الجنوبية) ، مع السنة وامتدادات هنا وهناك في أفريقيا الجنوبية (أنجولا وموزمبيق) ... الخ . ومن جهة أخرى وأخطر ، وفي الوقت الذي سقطت فيه إيران بكل ما تعنى من السلة الأمريكية تاركة « فراغا » خطرا في منطقة الخليج البترولية ، سقطت أفغانستان في قبضة الاتحاد حيث تمدد فيها تمددا مباشرا يؤكد ويكرر قاعدة توسعه القارى التقليدى الملاصق contiguous . غير أنه هذه المرة يقترب بشدة من المياه الدافئة والهندي

والخليج الذى أصبح مهددا مباشرة لأول مرة أيضا . وهكذا فى مجمل الحساب إذا كان السوفيت قد فقدوا غرب الشرق الأوسط للأمريكيين ، فقد فقد هؤلاء شرقه لهم . والحساب إذن مصفى مسوى على الأقل ، هذه مقابل تلك .

هذا على الجانب السياسى ، أما على الجانب العسكرى فلأول مرة فى العصر النووى تعلن أمريكا بفزع شديد يكاد يكون هستيريا تفوق السوفيت لا فى التسليح التقليدى فقط ولكن أيضا فى التسليح النووى . فلا يكاد يمضى يوم على امتداد السنوات الأخيرة وحتى اليوم إلا وتحذر القيادة الأمريكية أو المختصون من هذا الاختلال النووى الاستراتيجى الجسيم الذى يهدد الأمن القومى فى الصميم والأمن العالمى من بعده . وكان آخر ما أعلنه الرئيس الأمريكى بنفسه فى هذا الصدد (ريجان) هو أن السوفيت متفوقون على الولايات فى الصواريخ النووية ، بينما كان آخر ما أعلنه الكرملين أنه واثق من النصر فى أية حرب نووية تشب مع أمريكا . وفيما عدا هذا فلا يمضى عام إلا وتزداد ميزانية الانفاق العسكرى الأمريكى زيادة رهيبية لإصلاح هذا الخلل وإعادة توازنه إلى التوازن أو لقلبه لإعادة من جديد لصالح أمريكا .

وتفسر أمريكا هذا الانقلاب الخطر فى الميزان النووى بأن الاتحاد نجح فى استغلال الوفاق واتفاقيات الحد من التسليح النووى فى توسيع الفجوة النووية لصالحه . ولهذا عادت أمريكا تنظر إلى الوفاق على أنه « سياسة فاشلة » و « صفقة خاسرة » و « لعبة قلرة » تمت على حسابها ولصالح الاتحاد السوفيتى الذى بات « يمثل أكبر خطر عليها طوال تاريخها » . هذا بينما يصر الأخير على أنه لا بديل عن التعايش السلمى والوفاق ، وألا مكان للحرب الباردة وسباق التسليح فى المستقبل ، حيث أنه لا غالب ولا منتصر فى الحرب النووية .

وفى الأثناء ، مازال المساومات الحادة المعقدة والمفاوضات المتصلة المتقطعة بين القطبين مستمرة بشأن نشر ، أو إعادة نشر ، أو تجريد نشر ، شبكات الصواريخ على كلا الجانبين ، أو للخفض المتبادل للترسانات النووية وغير النووية كما وكيفاً لكلا الطرفين فى أوروبا الغربية والشرقية ، لكن دون جدوى فيما يبدو أو كمناورات دعائية أو خداعية على الأرجح . وما يزال السباق النووى مستمرا ، ولكن بصورة محمومة أكثر من أى وقت مضى .

السباق النووى

فأما عن الترسانة النووية نفسها ، فإن الصورة معقدة تكنولوجيا واستراتيجيا أكثر من أى وقت مضى . فإلى جانب تصاعد وتطور وتحديث الترسانة القائمة والمتعاظمة باستمرار ، طرأ قادمون أو ضيوف جدد لا يقلون خطرا وأبعادا . فعدا القاذفات النووية الجبارة ، ظهرت الصواريخ متعددة الرؤوس النووية (ميرف) ، كما تعاقبت أجيال الصواريخ النووية متعددة الأبعاد ، ابتداء من الصواريخ التكتيكية الميدانية ، إلى الصواريخ متوسطة المدى التى تغطى داخل القارة الواحدة ، إلى الصواريخ عابرة القارات التى تعبر من قارة إلى قارة عبر المحيط الواحد ... الخ . وكما أن الغواصات النووية لا تكف عن التجول والحركة السرية السريعة بين مكامنها تحت البحار والمحيطات كإجراء أمن مستمر ضد خطر الضربة الأولى ، فكذلك أصبحت لقواعد الصواريخ الأرضية شبكات صوامع عديدة عميقة تحت الأرض تنتقل بينها سرا وباستمرار كنوع من الخداع والتمويه وإرباكا للعدو وكذلك إحباطا جزئيا على الأقل لمباغتته .

كذلك فإلى جانب القنبلة الذرية والهيدروجينية ، استجذبت قنبلة النيوترون التى تبيد البشر ولكن لا تدمر المباني ، وبذلك تصلح تكتيكيا لميدان المعركة بعامة واستراتيجيا لمحركة أوربا بخاصة باعتبار أن هذه الأخيرة هى المجال الأساسى الحتمى أو الافتتاحى على الأقل لأى حرب نووية بين العملاقين . وإذا كانت هذه القنبلة تأتى فى كشف الحساب فى خاتمة أمريكا ، فإن المقول إن السوفيت يملكونها أو على الأقل يملكون سرها هم الآخرون .

ثم هناك أخيرا وليس آخرا الأقمار الصناعية ، جواسيس الفضاء الجدد ، وربما أيضا قواعد الفضاء الدوارة أبدا . فمع أشعة الليزر ، تطور عن الأقمار الصناعية نقيضها الأقمار المضادة للأقمار الصناعية التى تقتلها فى الجو anti-satellite satellites (على غرار الصواريخ المضادة للصواريخ) . وهكذا انتقلت المعركة خطوة أخرى إلى أعلى : من الغلاف الجوى إلى الفضاء الخارجى ، من الغلاف الغازى الأتموسفير إلى الاستراتوسفير ، أو من atmostrategy إلى stratostrategy . لقد اكتملت بحق عناصر حرب الفضاء .

الميزانية النووية

أما إذا انتقلنا أخيرا من الكيف والنوع إلى الكم والحجم ، فإن لدينا من المعلومات

المتاحة المنشورة حديثا مايؤلف ميزانية نووية مقارنة للقوتين الأعظم كما تبدو سنة ١٩٨٢ ، ^(١) مع ملاحظة أنها تقديرية تقريبية أولا وغير قاطعة أو وثيقة لاعتبارات أمنية مفهومة ثانيا . والأحجى أن نعتبرها اجتهادية على الأفضل ، خداعية على الأرجح ، ولكن لعلها تظل مؤشرات ميسورة ودالة .

فالمقدر ابتداء أن الاتحاد يتفوق على الولايات في عدد كل من الصواريخ عابرة القارات (١٤٠٠ مقابل ١٠٥٠) وعدد رؤوسها النووية المحمولة (٥٥٥٠ مقابل ٢١٥٠) أى بنسبة الضعف تقريبا . لكن الولايات ، بالمقابل ، تتفوق على الاتحاد في عدد القاذفات النووية الاستراتيجية بنسبة الضعف ، وفي حمولتها من القنابل النووية بنسبة عشرة الأمثال . غير أنه يبقى أن نتذكر أن قدرة الصواريخ عابرة القارات على اختراق دفاعات العدو أكبر من قدرة القاذفات الاستراتيجية . هذا أول .

ثم إن هناك ، ثانيا ، فارقا جذريا في الموقع أو التوزيع الجغرافي بين كل من الصواريخ والقاذفات الأمريكية والسوفيتية . فنحورب القوة النووية الأمريكية فقط هو الذى يوجد في القواعد الصاروخية الأرضية ، أما الباقي أى ثلاثة الأرباع فوزع بين الغواصات النووية في الأعماق والقاذفات الاستراتيجية المحلقة في الجو . أما الاتحاد فإن الطابع الغالب عليه هو ، كالمعتاد ، الطابع الأرضي ، إذ أن ٧٠٪ من قوته النووية موجود في قواعد أرضية ، والباقي فقط هو الموزع بين البحر والجو . وهذا الفارق يعطى الميزة والمرونة المحققة للجانب الأمريكي بطبيعة الحال .

لكن أخشى ما تخشاه الولايات بعد ذلك هو الضربة الأولى ، إذ لو انتزع السوفيت المبادأة بها فإنها ستدمر نحو ٩٥٪ من قواعد الصواريخ الأرضية الأمريكية ، وإن شكك البعض في أن تصل دقة تصويب وإصابة الصواريخ النووية السوفيتية إلى هذا الحد فعلا . ولكن حتى لو صح ذلك التقدير ، فسبقى للأمريكيين ثلاثة أرباع قوتهم النووية للرد بالضربة الثانية .

أما إذا أراد السوفيت توجيه الضربة الأولى إلى جميع عناصر ومكونات القوة النووية الأمريكية ، فإن عليهم أن يستخدموا غواصاتهم النووية في ضرب القاذفات الاستراتيجية الأمريكية في نفس الوقت . غير أن هذه القاذفات الأخيرة قادرة على

العمالقين هي ما يسمى اصطلاحاً « نافذة الخطر window of vulnerability » نجمت عن التفوق الاستراتيجي في السوفييت نتيجة لتوجيهه للولايات المتحدة في التصويب بالصواريخ و نجمت العبرة . ومعنى هذه النافذة باختصار النووي إمكانية التوقفات الحالية قد جعلت جميع مواقع الصواريخ النووية الأمريكية والأجنبية في خطر وأحدة إمكان ذلك جالب لعمال جزع جميع مواقع صغير فقط من القرميلانهم النووية . إلا إذا كان ذلك الأمر يكون من يقاتلهم وأوضاعهم التي لا تجعلهم يستطيع أن تطلق جفولهم الصواريخ النووية الأرضية وإنما يمكنها من قلة داخلهم من رخصهم التي لا المدن الأمريكية التي تقام فتأخره حايها الوضع لديهم الضعيفة الخطير من أنه لا يخلووا إلى هؤلاء يعرض ١٥٠ مليوناً الموقف الحالية كإحدى التي تفتح الصواريخ من فلتاح أن يتوقفوا من العالم إذا ما ألبونا إلى غير بقيت . وبدون أن ينفذه النافذة المفتوحة التي تعطى ميزة السيطرة الأولى والثانية العالم أرادوا أو للسوفيت ، فتحهم أيضاً بفتح كاملة في المواجهة التقليدية التي وبالطريق في طرابع الولايات والثانية معاً عموماً . السوفيت ، فتحهم أيضاً بفتح كاملة في المواجهة التقليدية ، وبالتالي في صراع الإيرادات

غير أنه ينبغي علينا أن نضيف أن هذه النافذة المفتوحة ، نافذة الخطر ، سوف تغلق نهائياً وبغضف حوالي ١٩٨٩ إلى أن على أن نهاية الثمانينات ، وذلك حين تبدأ الولايات المتحدة سوف تطلق في نشر طرز جديدة فائقة الصليب والأطعمة المظلمة من الصواريخ العابرة للقارات المولدة المصنعة في القواعد الأرضية أو العواصم المحيطية ذلك أن خطط التسليح الأمريكية لعقد الثمانينات ستعيد الحقوق الاستراتيجية للولايات في مهامته بحيث سيقلب الميزان تماماً بين الأمريكية لتحديد العشية وضحاها إذا أصبح جميع مواقع الصواريخ في الولايات في غاية الخطر بحيث سيقلب الميزان تماماً بين استثناء معرضه لضرره أمريكية أولى مدمرة تماماً لأوضاعه إلى ضربة انتقامية ثانية ماحقة بالأرضية بلا من غواصاتها المحيطية لضرره أمريكية أولى مدمرة تماماً بالأضافة إلى ضربة انتقامية ثانية ماحقة من غواصاتها المحيطية

هذا ، والمقدر أن حجم الترسانة النووية لدى كلا الطرفين سوف يتضاعف في نهاية الثمانينات (ما لم يتفق على تحديده) . ولكن مشكلة الولايات ستكون الخس من قواعده أرضية جديدة أمتة في أراضي خلفاءها الذين بدأوا يرفضون ذلك بشدة . أما مشكلة الاتحاد فسوف تكون الاتجاه إلى التركيز على العواصم النووية والتوسع فيها أساساً ، وهو ميدان يستدعي اتفاقات هائلة فضلاً عن أن للولايات السبق والتفوق فيه من البداية .

وها هنا فوراً يثور السؤال الحرج بصدد رد فعل الاتحاد : أي مدى إدراكه لإمكان فقدته عن قريب لتفوقه الاستراتيجي الرهن إلى المبادرة باستغلال هذا التفوق ؟ أبادر ، يعني ، إلى أن يتغذي بالولايات قبل أن تتعني به ، أم ماذا ؟ ماذا ينتظر ؟ ... يعني ، إلى أن يتغذي بالولايات قبل أن تتعني به ، أم ماذا ؟ ماذا ينتظر ؟ ...

الخ. ^(١) إن الاغراء واضح جدا ، والاحتمال وارد أيضا ، والوضع كله يذكر ، ولكن بالمقلوب ، بتلك المرحلة الحرجة في أواخر الأربعينات حين كانت الولايات المتحدة تنفرد دون الاتحاد السوفيتي بالقنبلة الذرية بكل ما يعنى ذلك من اغراءات الهجوم الوقائى ، وذلك طبعا مع الفارق بل الفوارق الهائلة بين فجر العصر النووى وقمته ، فضلا عن تعاظم الرهان وتصاعده خارج كل مقارنة . ويزداد التشابه والخطر ، رغم انقلاب التوازنات الأساسية ، إذا تذكرنا أعراض العودة الأمريكية في الثمانينات (ريجان) إلى سياسة التشدد والتحرش وحافة الحرب الباردة في الخمسينات (دلز) .

التنبؤ طبعا مستحيل ، ولكن في الأثناء فإن هذا الوضع بكل جوانبه واحتمالاته هو الذى يحدد موقف الغريمين في محادثات الحد من الأسلحة النووية ، من «سولت» إلى «ستارت» . فالاقترح الأمريكى التقليدى هو خفض المتبادل لعدد الصواريخ العابرة الأرضية القواعد بمقدار الثلث لكلا الطرفين ، وبذلك يجرى الاتحاد من بعض تفوقه الأكثر خطورة ومباشرة . ولكن الاتحاد يرفض بالطبع ، على أساس أن هذا التفوق فى الصواريخ الأرضية الفائقة التصويب هو الرد الوحيد على التفوق الأمريكى فى القاذفات والغواصات ، والاقترح الأمريكى يقلب ببساطة كفة التوازن لصالح الولايات . ولهذا كان الاقتراح السوفيتى المضاد هو تقليديا التجميد الفورى للترسانة النووية لكلا الطرفين والابقاء عليها كما هي « as is » دون إضافة أو نشر المزيد من الصواريخ أو القاذفات ... الخ .

من هذا كله يبدو جليا كم تعقدت طبيعة العملية ، مثلما تعددت آفاق وأدوات المعركة إلى أقصى حد ، حتى بات التنبؤ بصورتها وشكلها أمرا بالغ الصعوبة ، وحتى بات حتما أن يترك التخطيط العسكرى هامشا معلوما أو غير معلوم لحتمية الارتجال والاجتهاد أثناء القتال نفسه وتبعا لضروراته ومفاجآته . ولهذا فإن الآراء والأحكام والخطط ، والخطط البدائل ، والخطط المضادة ، والخطط المستقبلية ، أصبحت اليوم أكثر تعددا وتضاربا وكذلك اضطرابا وعدم تحديد منها فى المراحل السابقة .

ولكننا نستطيع بصفة عامة أن نقول إن التركيز كله ، بعد أن انتقل فى السابق من انتزاع واحتكار الضربة الأولى إلى ضمان وتأمين الضربة الثانية ، أصبح الآن على ضمان الضربتين معا . محور الاستراتيجية النووية اليوم وفى أعلى مراحلها هو ببساطة الجمع بين

‘East-West struggle’, Economist, op. cit., p. 44-5.

الضريتين واستقطابهما في آن واحد ، كل طرف من وجهة نظره وفي جانبه بالطبع ، إن لم نقل والضرورة الثالثة من بعدهما أيضا . ذلك اليوم قمة الأمن النووي .

مغزى التطور النووي

ولكن ، حسنا ، هل هناك حقا أمن نووي أصلا ؟ للإجابة ، لنعد قراءة مراحل التوازن السابقة قراءة مقارنة تركيبية عريضة وصولا إلى الانتهاكات العامة والأحكام الكلية . وثمة على الأقل أربع تعميمات أو نتائج تتداعى منطقيا وتدعو إلى التفكير مليا ، ويمكن أن نحصرها ونعالجها تحت هذه العناوين : التوازن النووي ، التصاعد النووي ، الردع النووي ، السلام النووي .

التوازن النووي

فأولا ، مراحل التوازن النووي هي في آن واحد مراحل قوة عسكرية استراتيجية ومراحل سياسة دولية . فرغم أنها تمثل أساسا توازنات القوة بين القطبين الأعظم والصراع بين الكتلتين السائدتين ، إلا أنها تغطي تلقائيا كل الصراعات المحلية والمشكلات الإقليمية . فما من حدث سياسى أو عسكرى ، سلمى أو حربى ، يقع اليوم فى أى منطقة من العالم بين أصغر الدول ، إلا ويقع داخل إطار الاستقطاب الثنائى إلى حد أو آخر ، يتأثر بدرجة ما بتوجيهه وضغوطه ، وينخفض كثيرا أو قليلا لأحكامه وحدوده وضوابطه ، ويكاد فى النهاية يتقلب بقلبه ويتحدد به مصيرا ونتائج .

ونحن نستطيع ، كما فعلنا فى دراستنا السابقة فى الواقع ، أن « نركب » كل صراعات ونزاعات وأحداث العالم فى منحى التوازن النووى بمراحله المختلفة ، وأن نجد مفتاحها الأخير فى معادلته السائدة . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وحدة السياسة الدولية شبه التامة فى العصر النووى . لقد أصبحت السياسة والاستراتيجية فيه لا انفصال لها البتة ، وأصبح العالم كله وحدة صراعية واحدة أكثر مما كان فى أى وقت مضى ، تماما مثلما أصبح وحدة حضارية حياتية واحدة أو ما يسميه البعض بظاهرة « globalisation of the world »^(١) .

التصاعد النووى

ثانيا ، التصاعد والتصعيد المستمر هو النغمة الأساسية فى الخط البيانى لمراحل التوازن النووى . فمن مرحلة إلى أخرى ، ومع تطور الأسلحة النووية الفائق - يزداد حجم الصراع والتحدى والخطر . وسباق الأسلحة والتسلح مباراة رهية متسارعة تنمو ككرة الثلج ، إلا أنها كرة نووية جهنمية يتقاذفها الطرفان فيما بينهما فى لعبة خطيرة هى من ثم كلعبة الموت . فكما فى كل التاريخ العسكرى ، وليس العصر النووى باستثناء ، لكل سلاح نقيضه ومصله المضاد . فما من سلاح نووى يتوصل إليه أحد الطرفين اليوم إلا ويلحق به الطرف الآخر إن عاجلا أو آجلا .

وهكذا هى من ثم ، فيما يبدو ، الدورة الاستراتيجية فى العصر النووى : سبق مؤقت هنا ينسخ التوازن ، لا يلبث أن يعقبه سبق هناك ينسخ بدوره ويبعد التوازن ولكن على مستوى أعلى وأشد خطرا ، أى كالحلقة المفرغة أو اللولب الزنبركى الصاعد أبدا spiral ، ثم تبدأ الدورة من جديد ... الخ . فكما رأينا ، بدأت المراحل الأربع باحتكار نووى مطلق لأحد الجانبين وانتهت بشبه تعادل أو تقارب بينهما أقل اختلالا ولكنه أشد هولاً ، وفيما بين البداية والنهاية تناوب الجانبان التفوق أو التخلف والسبق أو التأخر بدرجة أو بأخرى .

وفى هذا التصاعد المتسارع المتعاطم أبداً ، ثمة عامل أولى بسيط ولكنه مسيطر ، يضاعف العملية بمعدل الريح المركب فى الاتجاهين بل فى جميع الاتجاهات . هذا الضابط هو التعارض الأساسى الكامن فى كلا المعسكرين بين القوة البشرية التقليدية وبين القدرة التكنولوجية المتطورة ، أو بصيغة أخرى بين الكم والكيف : الكم للشرق ، والكيف للغرب . فإذا نحن رسمنا قطاعا عرضيا عبر أوراسيا برمتها من أقصى الغرب فى بريطانيا إلى أقصى الشرق فى الصين ، فسنجد بصفة عامة وكقاعدة عريضة أن حجم وكثافة الجيوش البرية والأسلحة التقليدية تزداد نسبيا و/ أو حقيقيا كلما اتجهنا من الغرب إلى الشرق . وعلى سبيل المثال ، فإن المقدّر خاليا أن إنتاج الاتحاد السوفيتى من الأسلحة التقليدية يعادل مجموع إنتاجها فى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية معا .

ويرجع هذا ، من بين ما يرجع إليه ، إلى عامل السكان والكثافة . ويكنى فى هذا أن تقارن على التوالى بين أوروبا الغربية والشرقية ، ثم بين أوروبا الشرقية والروسيا الأوروبية ، ثم بين هذه الأخيرة والصين . وعلى العكس من هذا يزداد التركيز ويشد على

قوة السلاح وتفوقه التكنولوجي ، بالضرورة وللتعويض الحتمي ، كلما اتجهنا من الشرق إلى الغرب . ويرتبط هذا بدوره جزئيا بتفوق الغرب العلمي والتكنولوجي وسبقه المعروف منذ الانقلاب الصناعي على الأقل .

وجاء هذا كله ومحصلة ينعكس بوضوح تام في استراتيجية كل من حلف الأطلسي وحلف وارسو . فدول أوروبا الغربية أقل بكثير من دول شرق أوروبا خاصة الاتحاد السوفيتي في أعداد وأحجام جيوشها البرية ، وكذلك في تسليحها التقليدي بالتالي بما في ذلك المدرعات والدبابات والمدفعية ... الخ . ولئن بدا من الجدول المرفق أدناه أن حلف الأطلسي يتفوق عدديا على حلف وارسو في حجم القوات المسلحة ، فذلك لأنها تضم عنده قطاعا أكبر من القوات غير المحاربة ، كما أن حلف وارسو يتفوق في الدبابات بنسبة ١,٥ : ١ تقريبا .

أضف إلى ذلك أن تفوق حلف وارسو التقليدي يصل إلى قمته على جبهة الألمانيتين بالتحديد حيث سيتحدد مصير العالم في أية حرب شاملة قادمة . فهنا تتركز قوات حلف وارسو أكثر ، بحيث يصل تفوقه على حلف الأطلسي في أعداد القوات المسلحة إلى نسبة ١,٤ : ١ ، وفي أعداد الدبابات إلى نسبة ٢,٥ : ١ تقريبا . ورغم أن حلف وارسو لا يملك بالطبع التفوق العددي الذي يوفر النسبة المقررة لضمان النصر في أي معركة هجومية وهي نسبة ٣ : ١ ، فإنه يمكنه بالتخطيط الذكي أن يحقق هذه النسبة بالتركيز عند نقطة الهجوم نفسها .

كذلك فلأن الاتحاد السوفيتي في داخل أوروبا جغرافيا ، فإن التعزيزات يمكن أن تتدفق على قوات حلف وارسو مباشرة ، في حين يتعين على التعزيزات الأمريكية أن تعبر ٣٠٠٠ ميل عبر الأطلسي . ومحصلة هذا كله أن الاتحاد وحلفه قد يمكن أن يحقق الاختراق الكامل ويكسب الحرب في بضعة أيام أو أسابيع ، وذلك كما يقدر ويعترف وينذر ويحذر قادة حلف الأطلسي وجزائريته أنفسهم بانتظام وإلحاح .

ورغم أن هذه النتيجة تتوقف كثيرا على السلاح الجوي ، فإن الموقف هنا معقد نوعا . فالشرق يتفوق في عدد الطائرات الدفاعية والاعتراضية ، ولكن الغرب متفوق في عدد الطائرات الهجومية . ومن الناحية الأخرى ، فإذا كان الشرق يتفوق في عدد طائرات الجبهة ، فإن حلف وارسو ما زال يتداول أنواعا متخلفة عتيقة من الطائرات ، في حين تتفوق طائرات الغرب الحديثة في النوعية تفوقا جسيما^(١) .

"East-West struggle", op. cit., p. 45-6.

(١)

وهكذا على الجملة يبدو أن حلف الأطلنطي قد لا يصمد طويلا في حرب تقليدية مع حلف وارسو. ورغم أن البعض في الغرب نفسه يتحفظ أو يشكك في صحة هذه المقولة باعتبارها مبالغة غربية مقصودة دعائيا ، فإن المفهوم الشائع هو أن التفوق التكنولوجي المطلق هو شرط الصمود والبقاء بالنسبة إلى حلف الأطلنطي ، والبديل الوحيد وأداة التعويض والتعادل الحتمية عن ضآلة جيوشه وقواته التقليدية النسبية . ولما كانت الأسلحة النووية هي قمة التفوق التكنولوجي خارج كل حدود ، فقد أصبحت استراتيجية الغرب نووية بالدرجة الأولى وأصبح التفوق النووي هو هدفه بأي ثمن . إلا أن هذا يدفع المعسكر الشرق بالضرورة إلى التفوق النووي المضاد خشية الضياع التام ، فيضاعف من ثم من تسليحه النووي بل والتقليدي على السواء . فلا يجد الجانب الغربي بدوره مفرا من المزايدة من جديد ، وهكذا تستمر المزايدة جيئة وذهابا إلى ما لا نهاية والتصاعد مطردا حتى السماء . إن الحجم - في المجال النووي كما في مجال الحياة - يولّد الحجم ، والخطر النووي يضاعف الخطر النووي . إنه قانون السلم الصاعد الدوار .

escalator

تقديرات القوات التقليدية

عدد القوات المسلحة بالألف	الناتو	وارسو	الصين
سنة ١٩٧١	٥٥٨٥	٤٢٠٢	٢٨٨٠
سنة ١٩٨١	٤٩٩٤	٤٧٨٨	٤٧٥٠
عدد الطائرات الهجومية	٢٣٠٠	١٨٠٠	؟
عدد الطائرات الدفاعية والاعتراضية	٨٠٠	٢١٠٠	؟
عدد طائرات الجبهة	٦٠٠٠	٧٠٠٠	؟

تقديرات القدرات النووية

السلح	الناتو	وارسو	الصين
عدد الرؤوس النووية	٧٢٢٤	٦٦٦٤	١١٩ - ١٣٩
القاذفات المقاتلة متوسطة المدى	١٠٥٠	٢٣٤٥	؟
عدد القاذفات بعيدة المدى	٣٧٦	١٥٠	٩٠

الردع النووي

ثالثا ، الردع النووي هو أساس التوازن النووي ، والتوازن النووي هو وحده الردع الحقيقي عن العدوان . أما متى وكيف يمكن لهذا التوازن المروع أن يخل ببحث يعطى أحد الطرفين ميزة الانقضااض بلا خوف من ردع ، فذلك في حالة واحدة ، ليست هي زيادة فاعلية أو رصيد السلاح النووي ، فإن هذا قد وصل من قبل إلى درجة ما فوق التشبع من حيث قوة التدمير . وإنما حين يصل أحد الطرفين إلى سلاح دفاعي محقق ضد خطر الهجوم النووي ، هي تلك الحالة . فتفوق أحد الطرفين على الآخر في الدفاعات النووية يهز التوازن الدقيق ويخلق إغراءات الهجوم أو إمكانيات الصدام .

أى أن التفوق اليوم ليس لمن يملك الهجوم وحده ، وإنما هو لمن يملك الهجوم والدفاع معا ؛ والاغراء بالهجوم لن يتحدد بمن يضمن هجوما أقوى بل بمن يضمن دفاعا أكمل . وتلك بالدقة كانت سيكولوجية وميكانيزم كثير من مراحل التطور السابقة بكل أخطارها ومحاذيرها الفادحة .

غير أنه في وسط ذلك السباق التكنولوجي العرم المفعم وصل التصاعد إلى حد السقف والتوازن إلى حد التشبع . فبعد أن امتلك كلا الطرفين قدرة الضربة الأولى والثانية أصبح الموقف كله في المرحلة الأخيرة والوقت الراهن أشبه بمبارزات الغدارات في الماضي حين كانت الطلقتان تتزامنان بالصدفة فتردى الطرفين معا ، إلا أنه لا صدفة هنا اليوم وإنما هو حساب مكتوب وقدر محتوم .

وفي كلمة واحدة : إن التوازن النووي الراهن هو حكم إعدام مع إيقاف التنفيذ ، أما إذا نفذ فهو انتحار متبادل للجانبين . وإذا صح في الماضي أن « الويل للمغلوب » ، فالصحيح الآن في العصر النووي أنه ويل للغالب كالمغلوب ، بل الأصح أنه لا غالب ومغلوب ولا قاتل وقتيل وإنما قتيل ومقتول . وبعبارة أخرى ، إنه ليس ثمة شيء كنصر في الحرب النووية الشاملة .

وفي هذا المعنى ، ومن موقع المسئولية كوزير للدفاع الأمريكي يوما ما ، صرح روبرت ماكنارا بلا لبس أو مواربة قائلا « لست أعتقد أننا سنحز النصر بما تعنيه هذه الكلمة حقا ، إذ ستحدث الحرب في تقديري دمارا مروعا للولايات المتحدة ولطريقة حياتها التي قد تتغير في اتجاه غير مرغوب فيه بتاتا . وذلك ما لا يمكنني أن أسميه بالنصر . أما إذا لم نلتزم بما تعنيه كلمة نصر ، فاستطيع إذن أن أقول إننا سنتنصر ، إذ أن الدمار

الذى سيصيبهم والتغير الذى سيطرأ على حياتهم سيكون أبشع نسييا من خسائرننا . ولعل هذا ما قد تسمونه بالنصر» .

وقد أكد الجنرال ماكسويل تيلور المعنى نفسه قائلا إن الحديث عن النصر فى حرب نووية حديث غير مفهوم أصلا ، ذلك أن الخسائر الفادحة التى ستصيب كلا الطرفين على حد سواء ستضع نهاية لوجودهما كقوتين عالميتين وتبوى بهما إلى مصاف الدول ذات الأهمية الثانوية أو ذات النفوذ الاقليمى المحدود^(١) .

السلام النووى

رابعا ، التوازن النووى هو أساس السلام العالمى . فالرعب النووى هو وحده أساس السلام العالمى الراهن ، والسلام العالمى بدوره هو حالة شلل نووى فى جوهره . فلقد أدى الوعى بخطر السلاح النووى الماحق إلى حتمية الحرص على عدم استخدامه على الإطلاق ، وبالتالي إلى شل فاعليته عمليا وإلغاء وجوده وظيفيا . والواقع المشاهد عبر مراحل العصر النووى المتعاقبة أن هناك تناسبا عكسيا بين تطور الأسلحة النووية وبين امكانية استخدامها ، بمعنى أنه كلما زادت قوة وخطورة هذه الأسلحة التدميرية كلما زادت استحالة استعمالها أو قلت امكانية استعمالها .

والآن بعد أن أصبح التوازن والتكافؤ النووى بين العملاقين أكثر حدة ودقة من حد السيف والفارق بينهما أوهى من خيط العنكبوت ، فإن الجمود النووى nuclear stalemate قد وصل إلى حد الشلل المطلق لا أقل . وبذلك أصبح السلاح النووى سلاحا سياسيا أساسا أكثر منه سلاحا عسكريا ، أصبحت قوته تكمن - معنى - فى مجرد امتلاكه لا فى استخدامه .

غير أن مثل هذا السلام الذى ينبع من الرعب النووى ويقوم على لعبة التعايش السلمى والتنافس السلمى والمباراة السلمية ... الخ إنما هو « السلام المراوغ » بعينه . فواقع الأمر أن السلام النووى يتألف كالبركان النائم من فترات متقطعة ومتعاقبة من الخطر الخامد المكبوت ثم من الخطر المندثر المائل . والعالم بهذا يعيش على ، أو يتعايش مع ، بركان نووى نائم .

(١) مقتبسة فى : إسماعيل صبرى مقلد ، ص ٧٤ .

وها هنا ينشعب الرأى إلى نظريتين متعارضتين تماما . فالنظرية الأولى تذهب إلى أن الحرب النووية مستحيلة ، أصبحت مستحيلة ، على أساس أنه لا دفاع حقيقى مطلق أو رادع تماما ضد الصواريخ النووية مهما تطورت مضاداتها على الجانبين ، وأن الخطر النووى سيظل هو الخطر النووى ، وأن الردع النووى سيبقى أقرب دائما إلى التوازن النسبى منه إلى الانقلاب الجذرى لمصلحة أحد الطرفين . فالردع الشامل إذن مستحيل ، والممكن الوحيد هو الرد المرن . وعلى هذا فلا متنفس للصراع سوى الحروب المحدودة والتقليدية . والواقع ، حتى الآن على الأقل ، يقف فى جانب هذه النظرية .

أما النظرية المضادة فلا تستبعد الحرب النووية الشاملة ، إن لم تكن كحل انتحارى أخير للصراع عندما يلوح شبح الهزيمة أمام أحد الخصمين أو يستبد به اليأس القاتل أو حتى الخوف من أن يفقد ماء الوجه ، فبطريق الخطأ فى الحسابات أو فى التصرف أو التنفيذ ... الخ ، وهو ما يعرف بالحرب بطريق الصدفة أو الخطأ accidental war . وعلى هذا فإن السلام النووى إن هو فى حقيقته إلا هدنة نووية ، هدنة مسلحة نووية ، مهما طال . وتجربة التاريخ حتى الآن هى أن « كل سلاح وجد ليستعمل » ، وليس السلاح النووى باستثناء بالضرورة . وإذا كان أحد لا يريد أن يقيم القيامة النووية ، فإن البعض ما زال يؤمن بمبدأ « على وعلى أعدائى » ... الخ . ولا مجال بالطبع للحكم هنا على هذه النظرية المتشائمة أو النظرة السوداوية المهلكة ، وكل ما يمكن أن يقال إن أحدا لا يتمنى إلا أن تكون خاطئة اليوم وغدا وإلى الأبد .

القوة فى العصر النووى

الآن فلنختلف الآراء والتكهنات فى الحرب النووية وأشكالها واحتمالاتها ... الخ ، فإن ثمة شيئا واحدا مؤكدا . فلا خلاف على أن العصر النووى قد قلب كل قوانين الاستراتيجية التقليدية وهزها حتى الصميم ، ولكن السؤال هو إلى أى حد ؟ هل هو ألغائها تماما ونهايا أم نحأها جانبا ودفع بها من المقدمة إلى الخلفية ؟ لنعرض لضوابط ومقومات الاستراتيجية التقليدية من موقع وموضع لنرى انعكاسات الصراع النووى عليها ، وأى مغزى جديد يمكن أن تأخذ . ولنبدأ ذلك بالموقع .

الموقع الجغرافى

من المحقق أن الموقع الجغرافى هو أشد ما اهتز وارتج بالاستراتيجية النووية . وطالما

كانت قاذفات القنابل هي وسيلة توصيل القنبلة الذرية : فرمما صح أن الموقع لم يفقد كل قيمته ، فقد كان للمواقع المتقدمة والقريبة من العدو أو المحاصرة له ميزة واضحة . ولعل هذا يفسر قيمة القواعد العسكرية التي بثها الغرب حول الاتحاد السوفيتي على طول نطاق جبهة الارتطام ابتداء من اليابان حتى النرويج . كما أن هذا يفسر القيمة الاستراتيجية الضخمة التي كانت تعطيها الولايات المتحدة لآلاسكا خاصة وكندا عامة باعتبارها - كجبهة قطبية - أقرب وأقصر طريق جوى إلى الاتحاد السوفيتي عبر المحيط المتجمد الشمالى الذى أصبح بحدارة البحر المتوسط القطبي . بل لقد ذهب أحد القادة الأمريكيين - الجنرال بيلي ميتشل - إلى حد القول بأن آلاسكا هي أهم منطقة استراتيجية في عالم اليوم^(١) . كما أن ذلك جميعا يفسر شبكات الرادار الكثيفة المتتالية كقرون



شكل (٣٠) الطريق القطبي لا الأطلسي هو طريق الحرب الصاروخية ، فهو أقصر طريق بين العملاقين ، حتى أصبح البحر المتوسط القطبي بحق . لاحظ خطورة موقع كندا كخط دفاع أمامي للولايات .

(١) الجيوبوليتيكا ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

استشعار ذرية ، وخطوط محطات الصواريخ المتتابعة خطا بعد خط على امتداد تلك الجبهات من الجانبين . والمغزى العام هو أن مركز الثقل الاستراتيجي انتقل إلى حد أو آخر من المحيط الأطلسي إلى المحيط المتجمد الشمالى .

ولكن الموقف لاشك قد تغير بدرجة أو بأخرى منذ الصواريخ الذرية وتطورها المتصل . فبالندريج اتسع مدى الصواريخ التي اخترقت سرعتها حاجز الصوت حتى بات من المفهوم اليوم أن ليس على سطح الكرة الأرضية مكان لا يتصله الصواريخ عابرة القارات من أى من الاتحاد السوفيتى أو الولايات المتحدة . وبعد أن عدت بعض هوامش العالم النائية مثل أفريقيا الجنوبية أو أفريقيا جنوب الصحراء وأستراليا من المعازل الأخيرة ذات المناعة ضد الصواريخ^(١) ، زالت هذه الميزة وأصبح القرب والبعد الجغرافى سيان . وفى نفس الوقت فقدت القواعد العسكرية الغربية المطوقة للاتحاد السوفيتى أغلب قيمتها إن لم يكن كلها ، ونسخ الاتحاد بصواريخه الحلقة النارية المضروبة حوله ، وانكششت أهميتها لتصبح مجرد قواعد لقمع وكبت الحركات الوطنية فى بلادها .

والمعنى واضح للغاية : فإذا كان عصر الطيران التقليدى قد اختزل المسافة وضمّر العالم وجعله نظاما مغلقا واحدا إلى درجة أن أصبحت الكرة الأرضية كلها أصغر « مساحة زمنية » من ولايات أمريكا الثلاث عشرة^(٢) ، فإن الصواريخ قد ألغت المسافة تماما وتضاغطت الكرة الأرضية من الوجهة العملية إلى مجرد « نقطة » تقاس كل أبعادها بالدقائق ليس إلا .

أبعد من هذا ، وبعد أن أصبحت الغواصات الذرية قواعد صاروخية برمائية أو تحت مائية رحالة أو بمثابة يابس متحرك أنى شاء أو « قارات » ميكروسكوبية طافية تجوب المحيط العالمى ، نكاد نقول إن الفارق بين الماء واليابس - من الوجهة الاستراتيجية بطبيعة الحال - قد عثم وتحابد حتى درجة التلاشى تقريبا . كذلك فكما توطنت الغواصات النووية إلى الأبد فى الغلاف المائى ، توطنت الأقمار الصناعية إلى ما لانهاية فى الغلاف الجوى . فكلاهما إذن أصبح سلاحا يقع خارج حدود المكان والزمان الأرضى سياسيا وعسكريا ، أى خارج حدود الرقعة الإقليمية للدولة . ومعنى ذلك

(١) Liddell Hart, "Africa or Middle East?", World Review, July 1946; Church, op. cit., p. 143-5.

(٢) مورجنتاو .

جميعا أنه لم يكد يصبح هناك موقع متوسط وموقع متطرف ، ونوشك مجازيا أن نضيف : ولم يعد هناك يابس وماء .

استراتيجية لامكانية

ومحصلة هذا وذلك أننا اليوم بإزاء استراتيجية ثورية جديدة تنقل الصراع من البر والبحر إلى الجو ، من الاستراتيجية الأرضية geostrategy إلى الاستراتيجية الغازية atmstrategy ، بل إلى الاستراتيجية الفضائية space strategy . وبالتالي تنقله من المرحلة الكوكبية global . إلى المرحلة الكواكبية Planetary لقد وصلنا إلى استراتيجية « لامكانية » معلقة في فراغ ، وحروب بلا « تراب » تمر عليه وتفور ، تماما مثلما وصلت الزراعة العلمية الحديثة ، أو أوشكت ، إلى زراعة هوائية بلا تربة .

وبدهى أن هذا كله يتخطى المواقع الجغرافية التقليدية ويتجاهل خطوط التضاريس والاندسكيب ويسقط عامل المسافة من الحساب . باختصار ، إن الاستراتيجية الذرية تبتعد كثيرا عن الجغرافيا وتقترب من الفلك ، وبذلك تتحرك في متصل فضا - زمنى time-space continuum بعد أن كان الوسط التقليدى هو المنقطع البرمائى . إنها كالتنسبية في الفيزياء تنقل الأهمية الاستراتيجية من المكان إلى الزمان أو على أقل تقدير تجعل من الزمان البعد الرابع للمكان الاستراتيجى .

ماذا يبقى إذن من فكرة الموقع الجغرافى ؟ القليل قطعاً وفي حدود معلومة . فالدول غير الذرية - وقد تضاعل وزنها كثيرا في عالم القوة - هى وخدها التى سيكون عليها أن تفكر في صيغة الاستراتيجية التقليدية القديمة . كما أن الحروب المحلية والصغيرة التى قد تمارسها الدول الاستعمارية ستظل تدور في فلكها .

ولعل هذا وحده هو الذى يفسر تمسك الغرب بسياسة الأحلاف الدفاعية وسلسلة القواعد العسكرية التطويقية ، كما يفسر ، حتى قريب ، استمارة استعمار كالبريطانى ببقايا قواعده البحرية « شرق السويس » رغم أنها أصبحت بالية تماما في عصر الذرة . ولكن هذا وذاك من الاعتبارات سيكون عنصرا متنجيا مرحليا باطراد حتى قد يصل يوما ما إلى نقطة الانقراض .

غير أنه يبقى للموقع الاستراتيجى بعد هذا قيمته على المستوى السلمى خارج الحروب ، أى في المواصلات العادية اليومية والتجارة العالمية ، ولهذا فنحن حين

نتحدث عن نسخ العصر النووي للموقع الجغرافي فينبغي أن يكون مفهوما أننا نقصر هذا بوضوح على جانب الحرب والمعركة العسكرية - وهو الشذوذ ، بينما تظل فكرة الموقع سليمة لا تهتز في مجال السلم والتجارة والمواصلات العادية - وهو القاعدة .

الموضع

إذا كان هذا نصيب الموقع ، فإذا فعلت الثورة النووية بالموضع بما يعنى من حجم ومساحة وقوة بشرية ؟ لقد رأينا عبر التاريخ الحديث أن الأهمية انتقلت مع الصناعة من الموقع البارز الممتاز إلى الموضع الغنى الضخم ، ولكن السلاح النووي يحىء اليوم بدوره لينسخ الكثير من قيمة الموضع وليجعل « العلم » هو وريثه الجديد . كيف ؟

بديهي أن محو مساحة محدودة كبريطانيا بالحروب النووية أسير من مسح كتلة ضخمة كالصين مثلا^(١) . ولا يعنى هذا أن الدول المترامية الرقعة ستظل تتمتع بالدفاع بالعمق ، فقد ضاعت ميزة العمق الاستراتيجى ربما إلى الأبد ، ولكنه يعنى الحاجة إلى رصيد أكبر من القوة الذرية لتدميرها .

القوة البشرية

ومثل هذا يقال عن القوة البشرية . فالحرب النووية حرب إبادة رهيبة تحصد الملايين بنفس السهولة التى تحصد بها الحرب التقليدية الآلاف . وفى وقت مبكر مثل أواخر الستينات ، كان المقدر رسميا أن حربا نووية شاملة بين العملاقين النوويين قد يمكن أن تلتهم نحو من مائة مليون (كذا) من كلا الجانبين فى الضربات الأولى وحدها . وفى النتيجة ، فإنه لم يعد للجيش البرية أو الميكانيكية الضخمة قيمة فعالة أو كبير خطر فى الاستراتيجية الجديدة ، إذ يمكن أن تسحق فى مكانها قبل أن تتحرك ، وإن تحركت قبل أن تسحق فهى ليست بمستطاعة أن تدخل ميدانا تلوث بالاشعاع الذرى القاتل ، ولو أنه لا بد فى النهاية بعد أن يتبدد الاشعاع من أن تتقدم القوات الأرضية لتضع يدها على الأرض الخراب كما فعلت أمريكا فى اليابان بعد قنبلة هيروشيما .

وترتبيا على ذلك ، فإن البعض يتكهن بأن الدول الماموثة سكانيا كالصين هى وحدها التى قد يمكن أن تأمل فى أن يتبقى لها بعد الحرب النووية بقية معقولة من

(١) للرجع السابق

السكان .. ومع ذلك فلا ننسى أن بالعالم رصيذا من السلاح النووى يكفى كما يقال لمحو العالم جميعا عدة مرات ! أى أن مساحة الدولة وحجم السكان مهما كانت فلن تجدى فى النهاية .

ومعنى ذلك أن آلة الحرب الجديدة وعدتها لم تعد الجيوش المحيشة بحمافلها الجرامة الضخمة وترساناتها الثقيلة الهائلة ، وإنما هى جهاز صغير مكثف أشبه بالأزرار السحرية القتالة ، يحرك العالم دون أن يتحرك من موضعه وينقل الجيوش دون أن ينتقل مكانيا . وإنما لمفارقة من التكنولوجيا مذهلة أن تصبح العمليات الحربية موضعيه إلى أدنى حد حين أصبحت الاستراتيجية كوكبية إلى أقصى حد .. وإنما لمفارقة أكبر أن قد وصلت تكنولوجيا الحرب إلى مرحلة يمكن ألا تتلاقى فيها الجيوش وجها لوجه ومع ذلك تبيد المدنيين بالجملة بعد أن كان من الممكن للجيوش قديما أن تتلاقى وتتقاتل دون أن يتأثر بها المدنيون تقريبا !

الموارد الطبيعية

أما من حيث الموارد والطاقات ، فلقد أصابها العصر النووى هى الأخرى . فإن دولة صغيرة تملك القوة الذرية تعد اليوم أقوى من دولة ضخمة غنية لا تملكها . ومع ذلك ينبغى أن نستدرك فنقول إن الموارد الغنية شرط لازم لدخول العصر الذرى وتحقيق القدرة النووية ، ومن الملاحظ أن أغنى دولتين فى العالم هما أقدر دولتين ذريا ، كما أن أعضاء النادى الذرى حاليا هم من أغنى دول العالم بوجه عام . وهذا ما ينقلنا إلى الدرس الهام الذى تعلمه هذه التطورات الثورية .

فناط القوة الحديثة اليوم لم يعد يكمن فى الامتداد المساحى أو القوة العددية أو الموارد الاقتصادية الخام ، ولكن فى تحويل هذه العوامل جميعا إلى قوة العلم الحديث وأعنى بها تكنولوجيا الذرة والنواة . إن أركان الاستراتيجية الحديثة ومقوماتها لم تعد بعد الجغرافيا وحدها أو الاقتصاد من بعدها ، وإنما هى التكنولوجيا فى أعلى مراحلها . وبعبارة أخرى ، لقد انتقلنا من الاستراتيجية الجغرافية المألوفة أو الجيوستراتيجية إلى ما يمكن أن نسميه بالاستراتيجية التكنولوجية أو التكنوستراتيجية technostrategy .

فالعلم - والعلم القمى المطلق - هو الشكل الجديد للقوة . ومن يملك العلم النووى - أكثر من الأرض والسكان والموارد - يملك القوة الاستراتيجية ، وإن كانت الأرض والسكان والموارد هى ييقين من مقومات أو خامات ذلك العلم النووى الفيصل . فإذا

ماملكت دولتان قوة العلم النووية المتكافئة ، فقد يمكن حينئذ للفروق الطبيعية في المساحة والسكان والموارد أن ترجح الميزان في هذه الكفة أو تلك .



شكل (٣١) مجموعة دول عدم الانحياز ، ١٩٦٥ ، ٤٦ دولة اشتركت في مؤتمر القاهرة ١٩٦٤ ، عدا ١١ دولة مراقبة . كل المشتركين العالمين دول نامية أفرو آسيوية عدا يوغوسلافيا وكوبا

ماكيندر والعصر النووي

وعند هذا الحد من المناقشة ، لابد أن يثور أو قد ثار في الذهن سؤال : أين ماكيندر ونظرية المارتلانند من كل هذا الانقلاب النووي الرهيب ؟ أمن الممكن أن نركب الاستراتيجية الجديدة في معادلته الثلاثية الخالدة قوة البر وقوة البحر ومنطقة الارتظام ؟ هل يجوز بعد اليوم أن نتنبأ مع ميهان وسييكان بأن النصر في الصراع سيكون للقوى البحرية والسواحل ، أو مع راتزل وماكيندر بأنه سيكون للقوى البرية والقارية ؟ لا ، بل هل هناك اليوم قوى بر وبحر على الاطلاق تتباين تباین الأبيض والأسود ؟ من الصعب حقا أن نتفادى الانتهاء إلى أن الاستراتيجية النووية قد نسخت جوهر النظرية وقوضت أركانها . فقد « استقلت » الحرب أخيرا وفي النهاية عن سطح الأرض إلى حد بعيد ، « وارتقت » المعركة من مستوى الأرض لتحلق في الفضاء ، ولم يعد

الصراع بين الحوت والفيل بينهما تماسح ، وإنما - لنقابل التشبيه بتشبيه مماثل - أصبح هو صراعا بين « النسر والصقر » ، بين جوارح مجنحة ليس بينها وسيط أو ضحية إلا أن يكون « حمامة » سلام .

فما دام لم يعد هناك يابس أو ماء نوويا ، فإنه لم يعد هناك قوة بر ولا بحر أو ارتظام . ثمة فقط قوة نووية أو تقليدية . لا ولم يعد الهارتلاند بالضرورة « أقوى قلعة دفاعية طبيعية » على الأرض ، فهو إذا كان لا يزال غير مفتوح من خلف أو قدام فقد أصبح مفتوحا من فوق . ومثله صارت الولايات المتحدة : لا عزلة ولا ابتعاد يعد أن استدار الخطر فترك طريقه عبر البحر ليأتى من السماء^(١) . كذلك فلم يعد هناك محل للتكهّن : لمن ستكون الغلبة والفوز في الصراع ، قوى البرأم قوى البحر ؟ أولا لأن هذه التفرقة لم تعد سؤالا واردا بعد أن أصبح الجميع قوى فضاء ، ثانيا لأنه لن تكون هناك غلبة وتفوق بل اندحار متبادل إن لم يكن انتحارا للطرفين . وهكذا وهكذا .

وربما كان من الممكن لنظرية ماكيندر أن تتعايش - جزئيا فحسب - مع استراتيجية الطيران وقوة الجو ، ولكن مقدم الاستراتيجية الصاروخية وقوة الفضاء space power لم يترك لها شيئا . إن الصواريخ بكل أشكالها وأنواعها ومهما اختلفت قواعد إطلاقها ، حرب جوية أساسا ، وهى بهذا امتداد بشكل آخر ، امتداد قى إلى أبعد حد ، للطائرات . فإذا كانت الطائرة قد سلبت النظرية الجزء الأكبر من محتواها ومغزاها ، فإن الصواريخ تنسخها كلية بلا جدال .

عود على بدء

وهى بذلك تتحول من الجغرافيا السياسية الحية لتستقر - مكرمة - فى متحف الجغرافيا التاريخية . ونقول مكرمة ، لأن هذا التحول لا يقلل من قيمتها الأكاديمية ، فحسبها أنها تفسر بدقة مثيرة أغلب كليات وجزئيات التاريخ ، ابتداء من القرن العشرين قبل الميلاد حتى القرن العشرين بعد الميلاد . وفوق هذا فإن العالم إذا اتفق على نزع السلاح النووى ومنع الحرب النووية ، فإنه يعود ببساطة وآليا إلى استراتيجية ماكيندر ما فى ذلك شك ، ويعود للموقع الجغرافى وزنه الأثير ودوره المأثور . بل وبغير اتفاق أو منع ، وفعلا لا بالقوة ، وحالا لا مستقبلا ! ذلك أن العصر

(١) بوين ، ص ٥ .

النوى كما رأينا قد حمل معه جرثومة شلله ، فلقد حيد ميزان الرعب النوى بطريقة دياكتيكية ولكنها منطقية جدا كل فاعليته ، ووضع الترسانة النووية العالمية برمتها « في الفتالين » أو « في التجميد العميق » كما قيل ، حتى تحولت إلى مجرد « بركان خامد » نائم أو خامل . من ثم عادت الاستراتيجية الكلاسيكية ، بعناصرها التقليدية القديمة من مواقع جغرافية وقواعد عسكرية وممرات مائية .. الخ ، عادت تحتل الصدارة الفعلية من جديد وكأمر واقع .

كذلك فإذا كان الردع النوى الشامل قد نحى جانبا ليحل الرد المرن والحرب المحدودة محله في الواقع العملي ، فليس لهذا من معنى سوى أننا قد عدنا فعلا وفي صميم العصر النوى إلى منطق ماكيندر وعصر قوة البر والبحر . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الاستراتيجية المتنحية القديمة لم تزل تتعايش وتتعاصر مع الاستراتيجية الجديدة السائدة . ونحن على أقل تقدير نعيش حاليا ورغم كل شيء في ظل استراتيجية محتلطة تجمع بين رواجع الماضي وطلائع المستقبل بدرجة أو بأخرى ، بين قطاع تقليدى وقطاع نووى ، أى ما بين ماكيندر وما بعد ماكيندر .

وكمجرد نقطة في الموضوع أو حالة في القضية ، خذ ما رأيناه من تطور الاتحاد السوفيتى استراتيجيا في العقود الأخيرة . فأن تتجه هذه القوة القارية الداخلية الحبيسة تقليديا إلى الأساطيل البحرية ومشاة الأسطول وفرسان الجو والاستراتيجية الأمفيبية والخروج إلى البحار وما وراء البحار ... الخ ، لا يحقق نبوءة ماكيندر عن تحوله إلى قوة برمائية أكثر من أى وقت مضى فحسب ، ولكنه أيضا يتفق تماما مع ما وجدناه من أن العودة إلى الحرب المحلية المحدودة في ظل الشلل النوى تعود بالاستراتيجية العالمية بصورة ما إلى نمط ومنطق ماكيندر القديم المتنحى أساسا .

وأخيرا ، وتأسيسا على ما سبق ، فإن الاقتراح الذى نود أن نطرحه إضافة وختاما للمناقشة هو أن هناك من الأدلة ما يشير ، في هذه المرحلة الراهنة التى تتعايش وتتعاصر فيها الاستراتيجية التقليدية جنبا الى جنب مع الاستراتيجية النووية ، إلى أن أبعاد نظرية ماكيندر لم تنسخ بعد كلية ، ولكنها بدأت تأخذ شكلا ومغزى جديدا . إن جغرافيا مثل بوين بحث أخيرا عن نمط سياسى واضح للعالم ككل يحل محل نمط ماكيندر بعد أن تحررت المستعمرات ، ولكنه يعلن أنه عبثا لم يجد أى نمط ، فليس ثمة إلا حزمة من الدول المستقلة تغطى وجه القارات ولا تعطى نمطا إلا مجرد نمط وجودها هى كرقع

الشطرنج ، ومن العبث أن ندخل عليها نظرية شاملة في توزيع القوة السياسية حاليا كتلك التي قدمها ماكيندر منذ نحو نصف قرن .

ولكن أحقا ليس هناك نمط عالمي للجغرافيا السياسية المعاصرة ؟ في تقديرنا أنه ثمة نمط ، ونمط مستمد من تصور ماكيندر ، إلا أنه يتحول حينئذ من مفهوم جغرافي إلى مفهوم حضارى ، من فكرة عسكرية إلى فكرة مذهبية . كذلك فإذا كان بوين ينتهى إلى أن عصر الجو والفضاء قد « جعل من نمط ماكيندر العالمى هراء ، ولكن قط هراء من إدراكه أن القوة في المستقبل تكمن مع الإمبراطوريات القارية بفضل تفوق مواردها »^(١) ، فإننا نحسب أن كل الحقائق تجعل الصحيح هو العكس تماما : تفوق الإمبراطوريات القارية لم يعد قائما بالضرورة أما النمط العالمى فهو الذى مازال قائما ! أما كيف ، فهذا أدخل في باب الاستراتيجية السياسية منه في دائرة السياسة الاستراتيجية ، وهو ما نتقدم الآن إلى دراسته في تتبعنا لرحلة العالم الحافلة من الحرب الباردة إلى الوافق .

(١) المرجع السابق ، ص ١٣ ، ٥ .

الفصل الثالث عشر

من الحرب الباردة إلى الوفاق

من بين ثورة التحرير والانقلاب النووي ، وكرد فعل ومواجهة لها ، أى بالترتيب كرد على الاستعمار والاستقطاب الثنائي ، انبثقت في الخمسينات أول أحدث ظاهرة سياسية معاصرة وهي الحياض الإيجابي وعدم الانحياز . ومن بين الاستقطاب الثنائي وعدم الانحياز بدورهما ، أى بالترتيب كرد على هيمنة القوتين الأعظم وضياح المستعمرات السابقة وتصفية الإمبراطورية ، جاءت حركة الوحدة الأوربية ثم الانشقاق الصيني في الستينات كتعبير عن تفتت الكتل نوعا والتحرر النسبي من سيطرة القوتين الأعظم . وأخيرا ، فن بين عدم الانحياز وتفتت الكتل ، وردا على تحديهما معا في آن واحد ، جاء الانفراج أو الوفاق بين القوتين الأعظم في السبعينات .

عدم الانحياز ، الوحدة الأوربية ، الوفاق - إلى هذا إذن جاء تطور الاستراتيجية السياسية المعاصرة في خطوطها العريضة ومحاورها الأساسية كثنائية تكاد تناظر ثنائية العالم الأول والثاني والثالث نفسها وربما ترمز إليها . وهي مثلها تمثل قوى متضادة وأقطابا متنافرة ومحاور متعامدة بدرجات متفاوتات . وتلك إذن سلسلة متداعية عضويا ووظيفيا من الأفعال وردود الأفعال المضادة ، تؤكد أن لكل فعل في السياسة - كما في الطبيعة - رد فعل مماثل له في القوة ومضاد في الاتجاه .

وبالفعل ، فعلى هذه المحاور الثلاثة الحاكمة تدور معظم الأحداث السياسية الجارية في العقود الثلاثة الأخيرة حتى لتكاد تكون كالأضلاع التي تغلق مثلث السياسة العالمية اليوم وتحوى داخله كل صراعاتها وتفاعلاتها وجزئياتها . فكيف بالتحديد ؟

الخمسينات عقد الحرب الباردة ، الستينات عقد التعايش السلمي ، والسبعينات عقد الوفاق - تلك إلى حد بعيد أو بالتقريب هي الخطوط العريضة والأرضية العميقة

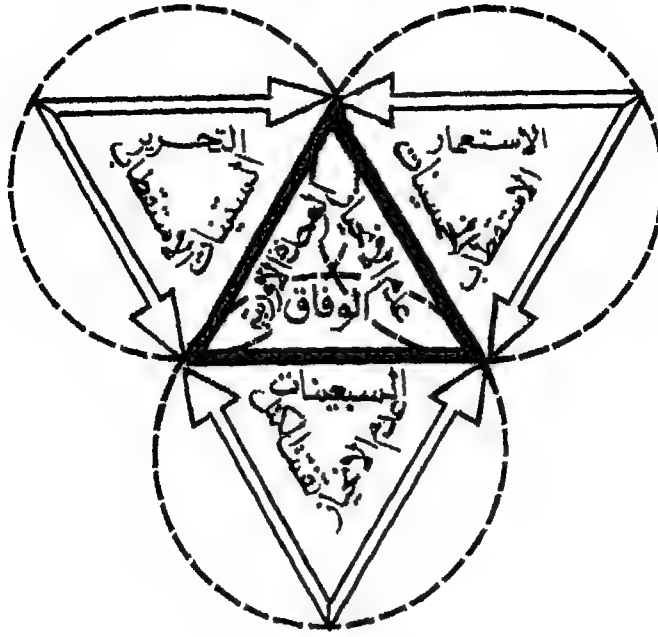
لفترة ما بعد الحرب الثانية وحتى اليوم ، وإلى هذا بالفعل أتى تطور مورفولوجية السياسة العالمية في العصر النووي في مجمله وتفصيله . وقد لا تكون خطوط التقسيم بين المراحل أو العقود الثلاثة حادة وصارمة ، ولكنها بصفة عامة أو نسبية مقنعة بما فيه الكفاية .

وبديهي بعد هذا ، دعنا نكرر أو لا داعي لأن نكرر ، أن هذه الثلاثية العقدية التطورية تتواكب مع ، وتكاد تتركب في ، ثلاثية المحاور السياسية الأساسية التي دارت حولها الاستراتيجية العالمية خلال المرحلة وهي ثلاثية عدم الانحياز فتفتت الكتل فالوفاق . بل إن هذا الترابط ليأتى كعلاقة سبب ونتيجة مباشرة . فالخمسينات عقد الحرب الباردة مثلها هي ، ولأنها هي ، عقد بداية الاستقطاب الثنائي الحاد والصراع بين رواجع الاستعمار وطوابع التحرير . والستينات هي عقد التعايش السلمى حيث ظهر عدم الانحياز من جهة وتفتت الكتل من جهة أخرى . وأخيرا فإن السبعينات ليست عقد الوفاق إلا لأنها الرد المباشر على تحديات التعايش السلمى بنفس عناصرها تلك من تفتت كتل وعدم انحياز .

وبهذا الشكل فلن كانت هذه المتتالية المركبة بشقيها أو جانبيها تمثل سلسلة من الحلقات المتباينة ، فإنها تظل أساسا حلقات مترابطة ، لأنها جميعا تجمع بين مجموعة من الثوابت والمتغيرات في آن واحد . بمعنى أن كل حلقة منها تشترك في عناصر وخصائص معينة مع سابقتها وإن أضافت إليها أخرى جديدة ، بحيث تؤدي كل منها إلى تاليها بصفة تلقائية و/أو انتقالية .

ولهذا السبب نفسه نستطيع أن نلخص فترة ما بعد الحرب الثانية إلى الآن في مرحلتين متتابعتين : الأولى من الحرب الباردة إلى التعايش السلمى ، والثانية من التعايش السلمى إلى الوفاق . وفيها يمكن فعلا أن نركب كل الأحداث السياسية الجارية والتطورات السارية والمشاكل المزمنة بكل جزئياتها وتفصيلها . وعلى هذا الأساس بالفعل سندير مناقشتنا في هذا الفصل . والجدول الآتى يلخص بصورة اختزالية أهم ملامح وخصائص مراحل الفترة عقدا عقدا من حيث كلا جانبيها الاستراتيجى والسياسى مع الجانب العسكرى المباشر أيضا .

المرحلة	الاستراتيجية النووية		الاستراتيجية المسكينة	الاستراتيجية السياسية	
	ميزانية البند	الميزان الصافي		الخط الأساسي	النقط الحرجة
الأربعينات	احتكار أمريكي مطلق	للقنبلة الذرية والضرية الأولى والأخيرة	الاحتواء	الحرب الباردة	حافة الحرب
المخمسينات	تفوق أمريكي يحقق	في القنبلة والصواريخ والقنصات والضرية الأولى	الردع الشامل	الحرب الباردة	حرب كوريا ، السويس
الستينات	تعادل نسبي	في الرؤوس والصواريخ والقنصات والضريتين	الرد المرن	التعايش السلمي	كوبا ، يوتيو
السبعينات	تفوق سوفيتي نسبي	في الكل عدا القنافات والقنصات	الوفاق	الوفاق	فيتنام ، أكتوبر



شكل (٣٢)

الخمسينات : عقد الحرب الباردة

من أتون الحرب الثانية مباشرة ، ولا نقول من رحمها ، خرجت الحرب الباردة لتشكل مناخ الخمسينات وتسيطر على جو المرحلة . ولذا فإنها تحمل بصمتها بكل غلظة وثقل وسفور . إذ أن أخص خصائص هذه المرحلة ليس مجرد ظهور أو ابتداء الاستقطاب الثنائي وإنما استحكامه واحتدامه إلى حد الاستقطاب المطلق المحكم . ذلك أن الفرقاء قد خرجوا من الحرب وكل منهم يمثل حجرا واحدا شديداً التماسك والتجانس ومن ثم الضخامة من جهة ، والتنافر والتضاد الإيديولوجي من الجهة الأخرى في مرحلة تعد بحق عصر الإيديولوجيا وعقد العقائديات والعصر الذهبي للمذهبية .

أو في كلمتين على الترتيب ، كان الموقف يتلخص في ضخامة الكتل كما ، والروح الصليبية كيفاً . وفي النتيجة ، لم يكن بأى من المعسكرين سوى الحد الأدنى من التحديات أو الخلافات الداخلية أى عملياً لا تحديات ثانوية لأى من العملاقين داخل البيت ، بينما على العكس كان التحدى الأكبر أو الأوحده هو المعسكر المضاد ولا سواء .

لذا كانت المرحلة عصبية بقدر ما كانت عصيية ، متهورة بقدر ما كانت هيسيرية ،

ومن ثم مفهمة باحتمالات التصادم بلا مصالحة ، وأقرب إلى الصرع منها إلى الصراع أو تكاد . ولما كانت الاستراتيجية السائدة في المرحلة هي استراتيجية الردع الشامل ، فقد كان الرهان النووي رهيب يعنى الحياة أو الموت لا أقل . ولعل أبرز إشارة ومؤشر إلى هذا الخطر كانت الحرب الكورية التي كادت كما رأينا تشعل نار الحرب العالمية الثالثة .

الولاءات الكتلية

فأولا ، كان الولاء والتعاسك الكتلى شبه تام أو مطلق ، بمعنى أن كلا المعسكرين كانت صفوفه تقف خلف قيادته في اتباعية أو تبعية كاملة بلا تدمير أو تمرد (أو إمكانية أو قدرة عليها على أية حال) ، إن لم نقل إن الصفوف الخلفية كانت أميل إلى الزيادة في العداء والتحريض على الاستقطاب من القيادة . وإن كانت هذه تلقائيا أبعد شيء عن المناقصة على أحسن الفروض . باختصار ، كان كلا المعسكرين يقف كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، أو كالحجر الواحد الهائل monolith يريد أن ينقض على نقيضه ، هذا يمتد شرقا من وسط أوروبا حتى الهادى بلا انقطاع ، وهذا يمتد غربا من وسط أوروبا عبر الأطلسي إلى أمريكا الشمالية حتى الهادى أيضا .

والحقيقة أن كلا المعسكرين كان يقع عمليا تحت الوصاية الكاملة لقيادته ، يعيش في كنفها اقتصاديا وعلى معونته ماديًا وتحت مظلته النووية عسكريًا وأمنيا ، هذا فضلا بالطبع عن الانتماءات القومية والأصول العرقية في الحالين . فكما أن أوروبا الغربية هي أم الولايات المتحدة بيولوجيا وتاريخيا وحضاريا وثقافيا ، فإن روسيا هي الأخت الكبرى لشرق أوروبا السلافي وحاميته التقليدية تاريخيا ... الخ . وهكذا من كل ناحية كانت كلتا الكتلتين تكمن تحت جناح زعامتها في استكانة وتدور في فلكها في هدوء .

أوروبا الغربية

فأما أوروبا الغربية فقد خرجت من الحرب حطاما وأنقاضا وركاما بالمعنى الحرفي ، وجسمها المحرب مستنزف تماما يعاني من فقر الدم الحاد . ولولا المساعدة الهائلة المكثفة التي حققتها بها الولايات المتحدة في شكل مشروع مارشال الشهير لما قامت على قدميها ثانية إلى أمد بعيد . كذلك فإلى جانب هذا الفقر والتآكل الداخلي ، أضف فقد الموارد الخارجية وانقطاعها . فلقد خرجت أوروبا الغربية من الحرب وقد جردت أيضا من إمبراطوريتها أو أوشكت ، خاسرة بذلك كل مواردها ومكاسبها الهائلة .

ذلك أن ثورة التحرير كانت قد بدأت وبلغت مرحلة متقدمة للغاية ، وكادت عملية تصفية الاستعمار القديم أن تكتمل ، مثلما اكتملت الإدالة النهائية من الاستعمار القديم إلى الجديد أو من بريطانيا وفرنسا إلى الولايات المتحدة التي ورثت دورهما ولا نقول إمبراطوريتها ووضعت قدمها في حداثها . وقد انعكست كل هذه الانقلابات والتبعية بصورة حادة ودرامية في ملحمة العدوان الثلاثي على مصر حين أدركت بريطانيا وفرنسا مدى خضوعها الحقيقي لأمريكا . وعلى الجملة ، وفي النتيجة ، ففي هذه المرحلة من الخطر والعجز العسكري البالغ أمام القوة السوفيتية الفائقة ، كانت أوروبا الغربية أشد عداء للشوعية واستعدادا عليها وأطلب بالتالي للحماية الأمريكية من رغبة الولايات المتحدة نفسها ربما .

أوروبا الشرقية

أما عن شرق أوروبا فيمكن أن كانت تدين بتحريرها من نير الاحتلال النازي لجيوش الاتحاد لكي يشدد هذا قبضته عليها إلى حد التسلط التام والكبت المطلق . والواقع أن اتفاقيات انتهاء الحرب من بوتسدام إلى يالتا إنما كانت عملية تقسيم ثنائي لأوروبا إلى منطقتي نفوذ : أوروبا الغربية للولايات ، والشرقية للاتحاد . وكلتاها ، بعد ، منطقة نفوذ مغلقة غير مسموح للطرف الآخر بالتدخل فيها ، كأنما هما بغير الاسم « نصفا مبدأ مونرو » متقابلان ولكن مد هذا إلى أوروبا ، أو كأنما قد مددت الولايات مبدأها الشهير عبر الأطلسي ليضم غرب أوروبا ، بينما استحدثت الاتحاد لنفسه - كأمر واقع - مبدأ مناظرا يطوى شرق أوروبا .

غير أن الاتحاد ، بحكم الموقع الجغرافي الملاصق وفارق الحجم والقوة الرهيب إلى جانب العوامل الإثنية التاريخية وأخيرا الإيديولوجية الجديدة ، جاءت قبضته على منطقة نفوذه أشد من قبضة الولايات على منطقتها خارج كل حدود أو مقارنة بالطبع . فلا وجه هنا لأى شيء كندية أو تحالف لبق كما في المعسكر الغربي ولا مفر من قدر من التبعية الفظة أو الغليظة بصورة أو بأخرى . ولهذا فإن شرق أوروبا بالنسبة للاتحاد حاليا يكاد يكون كأمريكا اللاتينية بالنسبة للولايات تقليديا ، حديقة خاصة أو فناء خصوصيا ، إلا أن يكون هذا أو ذاك أماميا أو خلفيا بحكم الموقع الجغرافي فقط أو المحور العرضي هنا والطولي هناك .

وكما أعطت الولايات نفسها حق العصا الغليظة في اللاتينية ، فرض الاتحاد لنفسه

مثله في شرق أوروبا كما تشير عملية سحق تمرد المجر بالحديد والنار في منتصف المرحلة . أما سابقة يوجوسلافيا فليس لها أن تتكرر وإنما هي فقط الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ، ولا مكان « للثيتوية » بين الرفاق .^(١) والواقع أن البعض وصف الكتلة الشرقية في ضوء هذه التبعية و/أو التسلط بأنها « الكومونولث الاشتراكي » ،^(٢) بينما عبرت الكتلة نفسها عن تلك العلاقة فيما بعد - مبدأ برجنيف مؤخرا - بمبدأ « السيادة المحدودة المتبادلة للدول الاشتراكية » .

على الجانب الآسيوي

تلك جميعا صورة العلاقات الداخلية الكتلية على الجانب الأوربي ، غير أن هناك أيضا الجانب الآسيوي على ضلوع الكتلة الشرقية . فعدا معظم جنوب شرق آسيا في الهند الصينية إلى جانب قطاعات أخرى في شرق آسيا حتى كوريا الشمالية ، كانت الصين الشعبية بكل جرمها وثقلها إضافة هائلة إلى الكتلة . فبعد ثورتها التاريخية كانت الصين بالضرورة في أحضان الاتحاد مثلما كانت أوروبا الغربية تحت أحضان الولايات . ورغم أن الصين ، في وهج الإيديولوجيا والحماس العقائدي المفرط ، كانت أميل إلى المزايدة على الاتحاد السوفيتي ، تدعو إلى صيغة منتهى الشيوعية وتطالب بفرض الثورة العالمية فورا وبسحق الرأسمالية حسب تعاليم الماركسية - اللينينية ، فقد كانت المرحلة هي شهر العسل السياسي بينهما بخاصة ، وسادها وفاق الرفاق بعامة .

من الحرب الباردة إلى التعايش

تلك في عمومياتها وجزئياتها هي خريطة الخمسينات . والصورة بهذا لا تخرج في جوهرها عن أن الحرب الباردة هي مجرد هدنة مسلحة بعد الحرب الثانية أو الساخنة ، هي نوع مبكر من حالة اللا حرب واللا سلم ، الذي يهدد بالتناطح بالرؤوس والضرب في الرؤوس وذلك أيضا بالرؤوس النووية ! - ومن ثم ينطوي على نذر الكارثة التي لا تقل عن القيامة النووية . وفي ظل هذا الخطر الماحق كان لابد للجميع عند نقطة معينة من ضبط النفس والمراجعة والتراجع قليلا أو كثيرا . وقد كانت أزمة الصواريخ السوفيتية

Zbigniew K. Brzezinski, The Soviet bloc, N.Y., 1961, p.81 ff.

(١)

Kazimierz Grzybowski, The socialist commonwealth of nations, New Haven, 1964, p. 21.

(٢)

الذرية في كوبا هي العامل الكشاف واختبار الأحماض الذى أثبت للعالم أنه يتزلق بسرعة مخيفة على طريق الهاوية ، فكان التعايش السلمى .

الستينات : عقد التعايش السلمى

من قلب هذه التوازنات الاستراتيجية الرهيفة ومن صميم معطياتها السياسة الرهيفة التى سادت عقد الحرب الباردة ، انبثقت إذن بذور التغيير واشتقت خميرة التطور . فبطريقة دياكتيكية متناقضة تقريبا ولكنها مفهومة تماما ، أدت عناصر تلك المرحلة ومكوناتها إلى تفاعلات داخلية مؤثرة ، وتخميرات ذاتية بطيئة ، مهدت للمرحلة التالية ، بحيث تم الانتقال فى النهاية من عصر الحرب الباردة فى الخمسينات إلى عصر التعايش السلمى فى الستينات . وكما قلنا ، كانت أزمة كوبا . بكل محاذيرها ونذرها ، هى عامل الاختزال فى العملية ونقطة الانكسار فى المنحنى .

وللتوضيح ، يمكن أن نحلل عوامل التغيير ودوافعه الأساسية فى اثنين : بدء تفتت الكتل نسيا ، وظهور عدم الانحياز تدريجيا . وكلا العاملين جاء بدوره رد فعل للضابطين الحاكمين السابقين وهما الاستقطاب الثنائى الضاغظ وثورة التحرير المتعاضمة . فمن ناحية أدى ثقل الاستقطاب الثنائى الضاغظ على كلتا الكتلتين إلى الرغبة فى التحرر تدريجيا من وطأته والتخفف من أخطار تصادمه . وقد اتخذ هذا فى حالة أوروبا الغربية شكل الاتجاه إلى الوحدة الأوروبية ، ردا على السيطرة الأمريكية الساحقة فى جانب ، وعلى فقدان الإمبراطورية وتصفية الاستعمار والمستعمرات وانتصار حركة التحرير فى العالم الثالث فى جانب آخر . أما فى المعسكر الشرقى فقد اتخذ هذا شكل الانشقاق الصينى الخطير ردا على « الهيمنة » السوفيتية إلى جانب اعتبارات أخرى عديدة ومعقدة . ومن ناحية أخرى ، ورداً على أخطار الاستقطاب الثنائى على السلام العالمى فى جانب ، وعلى تحدى الوحدة الأوروبية فى الجانب الآخر ، بدأ ظهور ثم صعود عدم الانحياز بين دول العالم الثالث كقوة ثالثة .

تفتت الكتل

ولنبداً ، للتفصيل ، بتفتت الكتل أو ما يعبر عنه بظاهرة تفكك التوابع الكتلية desatellisation . فعلى الجانبين كليهما أخذت أحجار كل من الكتلتين تتفكك وتتباعد قليلا أو كثيرا ، إما ثورة على تبعية الكتل وإما مغالاة فى رسالة الكتل ، أى إما

بالمناقصة وإما بالمزايدة . وكان السؤال الحرج والملح منذ البداية هو : إلى أى حد يمكن أن تذهب حركة التفكك هذه ، وهل يمكن حقا أن تصل إلى حد الإذابة أو الذوبان في المدى البعيد أو إلى حد تحول الاستقطاب الثنائي السائد إلى استقطاب متعدد الأطراف ؟

أوروبا الغربية

فأما في أوروبا الغربية ، حيث كانت بداية التلمل فالمرء ، فلم يكن الهدف قط هدم المعبد على الجميع ولا كان الخروج على المعسكر أو حتى على زعامته الأمريكية . وإنما كان الهدف هو إعادة ترتيب البيت من الداخل وتأمينه وتحصينه ضد أخطار العدو والصديق على السواء ، وذلك بإدخال قدر من التوازن المعقول بين القيادة والصفوف أى بين أمريكا وأوروبا .

فمن ناحية كانت أوروبا الغربية قد نهضت من وسط أنقاض الحرب والخراب وقطعت شوطا طيبا في إعادة البناء والاقتصاد والتسلح وامتلاك القدرة النووية ، وبدأت تطلعاتها وطموحاتها تتجاوز مجرد استعادة الحياة إلى استعادة مكانتها في الحياة . وهنا وجدت نفسها محاصرة بين أكثر من قوسين أو واقعة بين أكثر من مقعدين : الماضي والحاضر ، السيادة والصدارة العالمية سابقا وشبهة التبعية أو شبه الحماية الأمريكية حاليا ، الخطر الشيوعي والتحدى الأمريكي ، ضياع الإمبراطوريات وموارد وأجناد الاستعمار وفي الوقت نفسه اتجه حركة التحرير إلى وحدة عدم الانحياز .

فأما عن الخطر الشيوعي في ظل الاستقطاب الثنائي وتحت المظلة النووية الأمريكية ، فإنه لا يعنى سوى أن أوروبا الغربية هي ميدان أى معركة قادمة سواء كانت هذه هي الحرب العالمية الثالثة أو الحرب النووية الأولى ، أى سواء بالسلاح التقليدي أو النووى . وفي كل الأحوال فليس هناك أدنى ضمان بالدفاع الأمريكى الحتمى ، إذ أن من الوارد دائما أن تضطر أمريكا إلى التخلي عن الدفاع عنها أى عن أوروبا الغربية حين تتعرض هي ذاتيا للخطر النووى . ولهذا بدأت أوروبا تعمل على الحصول على القدرة النووية المستقلة الخاصة بها ، مثلما غدت الآن أقل من أمريكا صليبية وعدوانية واندفاعا ضد المعسكر الشرقى .

أما عن « التحدى الأمريكى » - وهذا هو التعبير الشهير الذى صكه وقتئذ أو بعده بقليل جان جاك سيرفان شرايبر ليجسد الهوة السحيقة والخيفة والمترابدة أبدا في التقدم والتطور العلمى والانجاز التكنولوجى والثراء المادى والاقتصادى وضخامة الانتاج

ومستوى الدخل والاستهلاك والمعيشة... الخ - هذا التحدى كان يؤذن ويهدد بأن يضع أوروبا بالنسبة إلى أمريكا في نفس موضع العالم الثالث بالنسبة إلى أوروبا^(١). فبعد إنجازات الولايات التكنولوجية الخارقة أو الخرافية، الفائقة أو المجنحة، في الأوتومية والإلكترونيات والكمبيوتر والليزر... الخ، أصبحت أوروبا مهددة بالتخلف بكل المعنى الحضارى والتكنيكى والتاريخى المعهود.

ولكى تضيف الاهانة إلى الجرح كما يقولون، جاءت ثلاثة الأثافي وهى طفرة عدم الانحياز وبروزه على الساحة العالمية بعد أن أضحى التحرير الوطنى حقيقة واقعة وواقعا شبه تام. ففي الوقت الذى ارتدت أوروبا على أعقابها إلى بيتها الصغير وانكفأت على مواردها الذاتية وحدها بعد فقدان كل سيل ودفق أرباح ومكاسب المستعمرات السابقة وأصبحت مهددة بالضمور التاريخى والجغرافى والمادى والأدبى وبالتالى بالمزيد من الانحدار السياسى والاقتصادى عالميا، أخذت توابعها السابقة تكسب نسيبا مزيذا من الأرض والقامة والقيمة والقوة والحجم فى السياسة العالمية والنشاطات الدولية.

ورغم أن انحدار أوروبا النسبى لم يكن جديدا ولا طارئا تماما أو ابن الحرب الثانية فقط، وإنما بدأت أعراضه ونذره تلوح حتى عشية الحرب العالمية الأولى ذاتها وهى فى أوج السيادة العالمية كما شخص الجغرافى الفرنسى الكبير ديمانجون فى كتابه الشهير الذى يقرأ من عنوانه^(٢)، نقول رغم ذلك فإنها الآن فقط شعرت لأول مرة بفداحة الصدمة وضخامة التحدى، ولأول مرة أيضا وجدت الرد الوحيد فى الاتجاه إلى التكتل والوحدة تأكيداً لوجودها بين العملاقين وتضييقاً للفجوة بينها وبين الولايات ووضعاً للقادمين الجدد فى مكانهم المناسب... الخ.

فإلى جانب «السوق الأوروبية المشتركة» كقاعدة صلبة للوحدة الاقتصادية وكخطوة أولية تمهيدية نحو الوحدة السياسية، طالبت فرنسا ديجول بالذات بوحدة أوروبا «من الأطلسى إلى الأورال» قاطعة بذلك عبر الاستقطاب الثنائى حتى يشحب نوعا ويغلف بالضباب نسيبا، أى حتى تقل حدته وخطورته. ومن هذه المنطلقات بدأت أوروبا الغريبة تتخذ مواقف أكثر استقلالية أحيانا، بل وأحيانا تختلف تكتيكيا مع الولايات. وعلى سبيل المثال فلقد انسحبت فرنسا من الجناح العسكرى لحلف الأطلسى وإن ظلت

J.-J. Servant Schreiber, Le défi américain, Paris, 1969.

(١)

Albert Demangeon, Le déclin de l'Europe, Paris, 1920.

(٢)

به سياسيا ، كما اتخذت سياسة مخالفة غير منحازة كلية في الصراع العربي الإسرائيلي ...الخ . ومن المسلم به أن الموقف الأوربي عموما ٠ بما في ذلك الفرنسي بالتحديد ٠ لم يكن هدفة انتزاع زعامة المعسكر الغربى من الولايات بالتأكيد بقدر ما كان تأكيد اعتبار القومية في الحلف ، وهذا على العكس - كما سنرى توا- من حالة الصين .

الانشقاق الصينى

ففى الكتلة الشرقية لم تعدم جبهة شرق أوربا بعض اتجاهات كظيمة مكبوتة أو فطيرة نحو قدر من الاستقلال الاقتصادى وغير الاقتصادى عن المعسكر الأب . ذلك أن سابقة يوجوسلافيا قبل الخمسينات ، ومن خلفها وإن على النقيض منها ألبانيا ، لم تكن كما قلنا لتتكرر . ولهذا فكما سحقت حركة الجمر بعد منتصف الخمسينات ، وثدت حركة تشيكوسلوفاكيا فى أواخر الستينات . ومع ذلك فقد بدت أعراض القلاقل ودلائل الغلغل فى بولندا وألمانيا الشرقية ، بينما نجحت رومانيا نسييا فى اتخاذ خط حذر شبه مستقل نوعا . غير أن هذا وذاك جميعا لم يعد انتفاضات أو انتفاضات ثانوية أو حتى أقل من تكتيكية تتم داخل الأسوار ولا تخترق الستار الحديدي بحال .

وإنما بعيدا هناك ، على الجبهة الشرقية القصوى للمعسكر فى أقصى شرق آسيا ، تم الانشقاق الذى شق الكتلة بالتنصيف تقريبا وأحاطها من حجر واحد إلى حجرين . وسرعان ما تحول الأخدود الغائر والمتوسع بينهما أبدا إلى نوع سياسى أسطورى من « زحزحة القارات » ، تحول بدوره إلى نوع خرافى مخيف من صراع القارات . ورغم أن للصراع جذورا إيديولوجية غائرة بلا جدال ، فإن الجذور القومية واردة بنفس القوة ، وربما كذلك إرهابات عامل القوى أو عامل الدولة الكبرى فى حد ذاتها .

وعلى هذا يبدو النزاع ثلاثى الأبعاد : إيديولوجى فى الفلسفة العقائدية ، وقومى حول ادعاءات ومطالب اقليمية واسعة المدى ، ثم صراع قوى عظمى بحث ومجرد . وبصيغة أخرى فإن التحدى الصينى للاتحاد السوفيتى جاء تحديا على زعامة العالم الشيوعى ، وعلى صداقة العالم الثالث ، وأخيرا فى الدور الأسوى نفسه حيث تعد الصين الاتحاد السوفيتى دولة أوربية وتكاد تنكر عليه أسيويته .

فعن الأيديولوجيا - كانت الصين قد صعدت دعوتها المتطرفة إلى صيغة منتهى الشيوعية والتفشف من أجل العقيدة (« better red than fed ») ، وباتت بإلحاح لا يخلو من استفزاز تحرض الاتحاد السوفيتى على المواجهة الشاملة والنهائية مع الرأسمالية

وتضغط عليه أدبيا ومعنويا وعقائديا - إلى حد الإحراج بين الرفاق - وذلك تحقيقا للالتزام بالمبادئ الماركسية - اللينينية في حتمية الصراع الطبقي والأهمية البرولتارية والحرب مع الرأسمالية ، وعلى أساس عدم الخوف من الحرب ونظرية أن القنبلة الذرية « نمر من ورق » ... الخ .

لكن الاتحاد ، لأنه وحدة أو أساسا أداة الحرب وميدانها وأتونها وضحيها الرئيسية ، كان أقل اندفاعا وأكثر مسئولية بالضرورة ، بل واتجه على العكس إلى التعايش السلمى ، الأمر الذى عدته الصين مراجعة وتحريفية ونكوصا عن الماركسية - اللينينية ... الخ .

فالتعايش السلمى مع الغرب الرأسمالى طريق انتهازى بحث فى رأى الصين ، لأنه إنما يعنى التعايش السلمى بين الأنظمة الاجتماعية المتباينة والمتناقضة تناقض المستغل والمستغل . وحتى إن أمكن قبوله جوازا فى مجال العلاقات بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة ، فلا محل له بالتأكيد فى مجال العلاقات بين الشعوب المضطهدة ومضطهديها . ولهذا فإن التعايش السلمى لا يمكن ولا يجب أن يكون بديلا عن النضال والكفاح الثورى للشعوب . وفى الحالىن ، تقول الصين ، فإن هذا التعايش يستبعد حتمية الحرب مع الرأسمالية وضرورة الثورة العالمية .

هذا كله ، تمضى الصين ، إن دل على شىء فإنما يدل على أن الاتحاد قد فقد ثورته وحماسه الثورى وأصبح قوة محافظة خاملة . وفى هذا الصدد انتقدت الصين بشدة توجه الاتحاد الغالب فى علاقاته واهتماماته الخارجية نحو الدول الغربية الغنية المتقدمة أساسا على حساب الدول النامية الفقيرة ، التى لاتفعل علاقاته معها هى الأخرى من انتهازية واضحة وبراجاتية صريحة ، وذلك على العكس من الصين نفسها التى تعتبر أنها هى زعيمة الثورة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بحق ، أى زعيمة العالم الثالث باختصار .

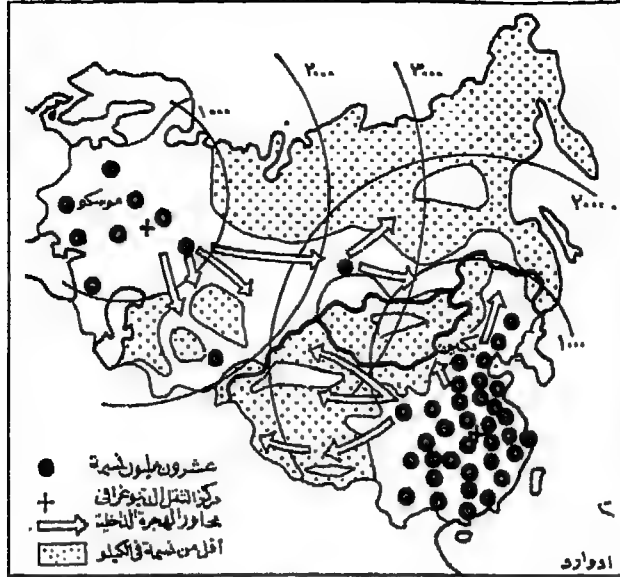
وكان الأسوأ من هذا نظرية الاتحاد السوفيتى الجديدة فى إمكانية الانتقال السلمى إلى الاشتراكية دون صراع طبقي أو ثورة دموية . بالمثل القبول بمبدأ تعدد طرق وأشكال الاشتراكية بحسب الظروف المحلية أو المرحلية الموضوعية . فكل هذا كان فى نظر الصين أكثر من مجرد انحراف نحو الانتهازية والبراجاتية والمحافظة والرجعية على حساب الأيديولوجية ، وإنما هو تحريف وتجديف مباشر ضد جوهر الشيوعية الماركسية -

اللبنينية . وبالمقابل فقد رأت الصين أنها اكتشفت على يد ماو نوعا جديدا من الشيوعية
الأسوية لا الأوروبية التي تتفوق على الماركسية بقدر ما تستلهمها^(١) .

وهكذا بين التطرف والمراجعة (والتراجع) وبين الراديكالية والتحريفية (والتحريفية
الجديدة) ، تحول الشق إلى أخلود ، ثم لم يلبث الأخلود أن تحول إلى مشكلة أراض
سلبية وحدود . فلقد طالبت الصين الاتحاد بإعادة مساحات شاسعة من رقعته على
الأساس التاريخي والقومي ، بمقولة أن روسيا القيصرية اغتصبتها منها أثناء توسعها
الاستعماري في آسيا . وبعدها تعددت الصراعات المسلحة وحروب الحدود على امتدادها
من سينكيانج والبايير حتى الأوسوري والآمور . كذلك تكدست القوات الكثيفة المتأهبة
على جانبي الحدود . وبعد أن كان الانشقاق الصيني لا يبدو محاولة معلنه لتأكيد القومية
(وإن كانت مضمرة ضمنا) داخل المعسكر الذي لا يعترف بالقومية . بقدر مابدا محاولة
غير معلنه لإحراج القيادة فيه وانتزاع الزعامة منها : انشطر المعسكر برمته إلى معسكرين
متضادين تماما . الصراع والتناقض بينهم لا يقل بتاتا عما بين أيهما والمعسكر الغربي ،
حيث رفعت الصين منذئذ شعار الكفاح ضد « الهيمنة » السوفيتية و « الإمبريالية
الاشتراكية » أو الروسية... الخ . لقد انتهى وفاق الرفاق بالطلاق ، الطلاق البائن
بلا رجعة في تقدير البعض ، بينما تحول الاستقطاب الثنائي تلقائيا إلى ثلاثي كأمر واقع
وكتحصيل حاصل .

ومنذ ذلك الوقت لم يكف الصراع عن التصاعد ، وتبادل الطرفان الاتهامات
بالرجعية والهيمنة والخيانة ، فضلا عن مطاردة بعضها البعض بإلحاح وقسوة في المحافل
والمؤتمرات الدولية... الخ . فالصين تهم الاتحاد بأنه يريد طرد أمريكا من أوروبا لينفرد
هو بالهيمنة عليها ، بينما يتهم الاتحاد بدوره الصين بأنها تريد طرده من آسيا لتنفرد هي
بالهيمنة عليها . كذلك فحيثما وجد الاتحاد في دول العالم الثالث ، ابتداء من الشرق
الأوسط وأفريقيا إلى آسيا والأوقيانوسية . وجد الصين على أعقابها تناوئه وتطارده
بإصرار وتصميم في صورة مساعدات ومعونات ودعاية مضادة لتلك الدول... الخ .
وبالمثل داخل المعسكر الشيوعي نفسه حدثت تغيرات عديدة في المواقع والمواقف
والتكتلات الرفاقية . فثلا بعد أن كانت الصين ويوجوسلافيا على طرفي نقيض ،

(١) محمد فتح الله الخطيب . « الحزب الشيوعي الصيني والسياسة الدولية » ، السياسة الدولية ، يناير ١٩٦٦ .
ص ١٢٠ - ١٢٦ .



شكل (٣٣) الحجران الضخمان في الكتلة الشرقية رغم الحدود المشتركة يفصل بينهما خط الاستواء الصحراوي في العالم القديم . الاتحاد أكثر من ضعف الصين مساحة ، وأغنى في الموارد الطبيعية وأبعد تقدماً . ولكن الصين أكثر من ثلاثة أمثاله سكاناً .

وكذلك الحال مع رومانيا إلى حد أقل ، حدث تقارب مطرد على حساب الاتحاد ، وهكذا .

وعند هذا الحد ، يبدو ثمة فارق جغرافي هام بين تكوين أو كيان العسكريين الأيوبيين ، أعني قبل الانفصال السوفيتي - الصيني . فالغرب ، رغم كل عظمة وتراث أوربا الغربية ، يكاد تتألف عملياً أو نسبياً من حجر واحد ضخيم طاغ - الولايات بالطبع - يتجاذب حوله عديد من الأحجار المتوسطة والصغيرة . فلا مجال حقيقى للتنافس على الزعامة فيه . أما الشرق فقوامه الأساسى حجران ضخمان ندان صنوان أو شبه صنوان تلتصق بهما وحولها بضعة من الأحجار الضئيلة ، ومن ثم فإن التطلمات التنافسية ممكنة أو واردة .

وليس من شك أن الحجر الأكبر مساحة وموارد طبيعية وإنتاجاً اقتصادياً وثروة مادية وتقدماً تكنولوجيا وقوة عسكرية هو الآن الاتحاد السوفيتى ، ومن الأرجح فى تقدير الجغرافيا أن يظل كذلك فى المستقبل على الدوام . ولكن الصين هى الأخرى أو من .

الناحية الأخرى تتطور - تطفر في الواقع - بسرعة فائقة . وأهم من ذلك وأخطر أنها ، عدا حضارة أعرق وربما أمتن . ترى في عامل سكانها - وهي التي تعادل الاتحاد سكانا أكثر من أربعة الأمثال وتعادل ربع البشرية جميعا - ترى في ذلك مبررا غلابا لكي تكون فيما يبدو مركز العالم أجمع لا المعسكر الشيوعي فحسب !^(١)

ولاننسى في النهاية البعد النووي والعسكري . فنذ دخلت الصين النادى الذرى ، بدون مساعدة الاتحاد بل برغمه ، أصبحت خطرا استراتيجيا لا يستهان به . فالاتحاد يحتفظ بنحو ربع قواته المسلحة - حوالى مليون جندي - وكذلك بربع قوته الجوية التكتيكية على طول الحدود الصينية . كذلك فإنه يحتفظ بنحو ١٨٠ صاروخا من صواريخه إس إس - ٢٠ في مدى الصين : نصفها في الشرق الأقصى السوفيتى ، ونصفها الآخر في « منطقة القصف التبادلى swing launching area » الواقعة شمال القوقاز والتي يمكن منها القذف إما إلى أوروبا أو إلى الصين . هذا بالإضافة إلى الصواريخ الأقصر مدى والصواريخ عابرة القارات الموجهة إلى الأهداف الصينية . أما عن القوة النووية الصينية فإنها يمكن ، إذا ما بادرت بالضربة الأولى ، أن تدمر موسكو ولننجراد تدميرا تاما بالإضافة إلى كل مدينة سوفيتية شرق الأورال فئة + ١٠٠,٠٠٠ نسمة . غير أن الاتحاد . حتى بعد هذه الضربة ، قادر على تحطيم ما يتبقى من قدرة الصين النووية المحدودة بالإضافة إلى كل مدينة صينية فئة + ٥٠,٠٠٠ نسمة بلا استثناء^(٢) .

هذا عن القدرات والتوازنات النووية . أما عن القوات التقليدية ، فرغم أن الحشود السوفيتية في الشرق الأقصى أقل بكثير جدا بالطبع من القوات الصينية المواجهة ، إلا أنها أفضل تدريباً وإعداداً ، خاصة بتعزيز الطيران ، بحيث يصعب تصور انتصار الصينيين عليها في حرب محدودة . ولعل صدامات نهر الأوسور في نهاية الستينات مؤشر إلى التفوق السوفيتى ، حيث تلقت الصين خسائر فادحة . على أن العقيدة القتالية الصينية لاتكاد تبالى بالخسائر البشرية . ولهذا فإن مجمل الموقف أن السوفيت لا يمكنهم أن يأملوا في احتلال كل الصين أو معظمها في أية حرب شاملة ، إلا أنهم يستطيعون على الأرجح كسب معركة حدود حاسمة تصد الخطر الصينى وتلجمه^(٣) .

Cole, p. 251, 309.

"East-West struggle", op. cit., p. 44,47.

Ibid., p. 47.

(١)

(٢)

(٣)

وعموما ، مهما يكن الأمر ، فليس من شك أنه إذا كان للعاملين الحاليين الولايات والاتحاد من ثالث يلحق بهما في المستقبل فهذا الثالث هو الصين وحدها ، فهي وحدها التي تملك من الموارد والقومات والحجم والضخامة ما يؤهلها لأن تكون قوة دبنوصورية عظمى على مستوى العاملين . ولعلها كانت نبوة عراف حين تكهن فوست ، ذلك الجغرافي العظيم ، في وقت مبكر مثل ١٩٥١ بإمكان حدوث صدع بين الاتحاد والصين واستقطاب العالم الشيوعي بدوره ثنائيا^(١) .

عدم الانحياز

لا يبقى الآن من دوافع وحوافز التعايش السلمي بين العاملين سوى عامل ظهور ثم صعود عدم الانحياز . وليس هذا موضع دراسة هذه الظاهرة السياسية الكبرى التي سنعود إليها بالتفصيل في فصل مستقل ، وإنما نقتصر هنا على علاقتها بالتعايش السلمي كسبب ونتيجة . وفي هذه الحدود فلقد جاء الاتجاه إلى عدم الانحياز بين الدول المتحررة حديثة الاستقلال نتيجة طبيعية وتتوجها منطقيا لنجاح حركة التحرير الوطني وانعقاد المستعمرات السابقة . ولكنه بالدرجة نفسها أتى ردا على اتجاه أساطين الاستعمار السابقين في غرب أوروبا نحو الوحدة الأوربية من أجل استعادة سطورهم ومكانتهم في العالم المتغير الجديد . فكان عدم الانحياز ، في هذه الحدود ، رد على رد كما قد نقول .

غير أنه كذلك انبثق كضرورة بقائية واستراتيجية إزاء الاستقطاب الثنائي وصراع العاملين بكل مايعنى هذا من أخطار للعالم أجمع وللعالم النامي ، الوليد ، الضعيف ، الفقير ، بالأخص . فهذه الاستراتيجية يستطيع عدم الانحياز أن يتخذ موقف الحياد بين القطبين والكتلتين وينأى عن الانغماس أو التورط في صراعاتهما من ناحية ، ومن ناحية أخرى يؤمن نفسه ضد خطر ابتلاع أو اجتياح الكبار له سواء من القوتين الأعظم أو قدامى الكبار في الغرب .

وبالتعريف حرفيا ، وكدعوة سلامية صرف ، يبدو عدم الانحياز منطقيا للغاية منسجا استراتيجيا مع دعوة التعايش « السلمي » دون أدنى تعارض . ومن ثم كان من المفروض أن يتواكبا ويتجاوبا على الصعيد الدولي كخطين متوازيين بل متقابلين في النهاية . ولكن الغريب والمؤسف أن عدم الانحياز وجد أخطر تحد له في التعايش السلمي

Geography and empire, loc. cit., p. 431.

(١)

بالدقة ، مناخا وأطرافا وسياسات . فمن ناحية عدّه كل من الغرب والشرق تجديفا أو مروقاً أو على الأقل نشوزاً أو نشازاً بدرجة أو بأخرى ، تماماً على نحو ما يعد المستقلون أحياناً في مجال السياسات الحزبية والبرلمانية ... الخ . ولعل البعض على الجانبين اعتبره أيضاً بمثابة لقيط الأسرة الدولية ، شريدها ، طريدها ، أو على الأقل الابن العاق الضال . وعلى هذا الأساس انبرى ليقومة ويثقف اعوجاجه ويعيده إلى الصف السوى السليم وجادة الطريق المستقيم .

ومن ناحية أخرى ، وأخطر ، فنذ أن تراجعت الحرب النووية الشاملة واكتشفت الولايات المتحدة قبل الاتحاد السوفيتي تكتيك الرد المرن كمخرج من المأزق النووي ، انفتح الباب على مصراعية للحروب الصغيرة والمحلية . وهنا نشطت الكتلة الغربية إلى ممارسة سياسة القوة معربة هنا وهناك بلا رداً وهي على يقين من استحالة تحولها إلى الحرب الشاملة . وقد جاء هذا التطور على حساب الدول الناشئة وحديثة الاستقلال أساساً ، والتي أصبح عليها أن تدرك أن عليها من الآن فصاعداً أن تعتمد على أنفسها في الدفاع وحماية مكاسب التحرير . ومعنى هذا أن هدنة الرعب النووي لم تساعد قوى التحرير والدول النامية كما قد يظن أو يدعى البعض ، بل أنت على حسابها وتركها وحدها تواجه قوى الاستعمار من جديد في لقاء يعيد إلى الأذهان شيئاً من مناخ القرن التاسع عشر .

حقيقة التعايش

وهذا بالدقة ما ينقلنا إلى حقيقة وطبيعة التعايش السلمي في النظرية والتطبيق . فالتعايش السلمي بين العملاقين إنما نشأ أصلاً كرد على المتغيرات السياسية والاستراتيجية داخل معسكريهما وخارجهما على حد سواء . ففي وجه تلك التطورات الخطيرة والتحديات الجديدة لم يكن مفر أمام العملاقين من التقارب قليلاً ، أو فلنقل التحفظ نوعاً في الصراع والاندفاع نحو الصدام ، إن لم يكن حفظاً للذات وضمان الأمن والبقاء فحفاظاً على سيطرتيهما على كتلتيهما وللإبقاء على مكانتهما المطلقة على قمة العالم . من هنا أخذت دعوة الثورة العالمية الشيوعية تخفت إلى حد ما ، مثلاً تلطفت دعوة الحرب الصليبية المقدسة على الشيوعية . كذلك بدأت محاولات الاتفاق على نزع السلاح ، والسلاح النووي بالذات ، أو إيقاف سباق التسلح وتحويل المنافسة من النواحي العسكرية إلى النواحي السلمية البناءة . وواكب هذا كله تزايد التبادل التجاري بين العملاقين والكتلتين ... الخ .

بعبارة أخرى فلقد وضعت صيغة التعايش السلمى كبديل عن الحرب الباردة على أساس أن يكون التقدم الصناعى والتكنولوجى والتنافس السلمى فى الحضارة ومستوى المعيشة هو التعبير البالغ عن الأيديولوجية والصراع المذهبى ، وذلك فى عصر أصبحت التكنولوجيا ندا وتحديا حقيقيا للأيديولوجية . وبالاختصار ، فإن أساس التعايش أن تحمل الحرب الصناعية محل الحرب النووية . ورغم أن الحصاد العام ظل قليلا وغير مشجع ووضع السلام غير مشرق ، فقد سلمت الحرب الباردة نفسها نهائيا إلى التعايش السلمى بالفعل .

غير أن هذا - دعنا نستدرك - لايعنى سيادة السلام والاستقرار العالمى . فالتعايش السلمى وسيلة لا غاية ، وهو باعتراف أقطابه لم يكن إلغاء للصراع ، وإنما تهذيب له وتقنيل وتلجيم ، أى تحويله إلى صراع محكوم منضبط غير مفلوت أو منفلت . أو إذا استأنفنا تشبيه الملاكمة السابق ، كان التعايش يستبعد « الضرب فى الرأس » ولكنه لا يمنع « الضرب تحت الحزام » . أما إذا اقتبسنا معلقا ساخرا معاصرا ، فلعله لم يكن يعدو استبدال حالة جديدة من اللاحرب واللاسلم بحالة اللاسلم واللاحرب السابقة قبلًا ! وعلى الجملة ، يمكن القول إن صراع القوة فى ظل التعايش السلمى كان أقرب إلى الجمود الخطر منه إلى التوازن الدقيق . إنه « سلام سلاح » ...

المد الاستعمارى

وليس من شك تاريخيا وموضوعيا بعد هذا أن الولايات المتحدة تحولت فى الستينات بالتحديد إلى قوة عدوانية سافرة ، عينت من نفسها رجل بوليس العالم ، وجعلت هدفها أن تفرض سلامها ، السلام الأمريكى ، على العالم حتى أصبحت السياسة الأمريكية عامل التوتر والاضطراب الجذرى فى ذلك العقد . وليس من شك كذلك أن الولايات خلال الستينات كانت على الهجوم بانتظام وإصرار بينما كان الاتحاد على الدفاع وربما فى تراجع . وفى المحصلة كان العقد عقد أمريكا بلا نزاع حيث كانت لها اليد العليا خارج كل مقارنة ، بل وإلى حد أثار الشكوك قليلا أو كثيرا فى صحة مقولة ثنائية القوة بين العملاقين من حيث المبدأ ذاته .

فلقد شهدت الستينات ، خاصة أواخرها ، مدا استعماري متصلا وكاسحا على طول الجبهة الأفريقية والآسيوية وعرضها ابتداء من غانا وغينيا حتى فيتنام وإندونيسيا ، ومن مصر حتى الهند ، ترتب عليه جزر حقيقى فى حركة التحرير الوطنى لأمفر من الاعتراف

به . ومن المسلم به أن انفجار العدوانية الأمريكية وقتئذ بهذا العنف والشراسة إنما يرجع أساسا إلى ما أحست به من تعاظم المد التحريري والثورة العالمية في العالم الثالث وانحسار نفوذها فيه انحسارا هدد بأن يكون كاملا . غير أن النتيجة تظل واحدة : فتحت مظلة التعايش السلمى المقول ، واستغلالا لتوازن الرعب النووى ، انطلقت الولايات المتحدة معربة كالعاصفة ، هنا في أضعف حلقات العالم ، لتصفي سياسة عدم الانحياز بسلاح الاستعمار الجديد .

وكما تراوحت إمبريالية اليانكى في أمريكا اللاتينية بين سياسة العصا الغليظة وحسن الجوار ، تراوحت في العالم الآسيوى الأفريقى بين سياسة ذهب اليانكى وسيفه ، أعنى بين سياسة المساعدات والقروض والمنح وبين مؤامرات المخابرات والانقلابات والغزو من الداخل . وقد نجحت سياسة الاغراء والمعونات بالفعل في اقتطاع بعض دول القارتين المتخلفتين الهشتين من فلك عدم الانحياز ، ولكن هذه الدول لم تكن متمية حقيقة وبإخلاص إلى الخط التحررى الاستقلالى إلا كشعار انتهازى ميسور .

على أن الضربة الحقيقية التى نالت عدم الانحياز إنما جاءت عن طريق العمل التخريبى والسرى تحت الأرض ، حتى باتت الانقلابات الرجعية ، وبالتحديد العسكرية ، أبرز ملامح الفترة ، وكانت أفريقيا خاصة هى موطنها الأساسى حيث شهدت سنة ١٩٦٦ وحدها مثلا ١٢ انقلابا ، معظمها يتركز فى غرب القارة ويقل فى وسطها ثم يزداد قلة فى شرقها . حتى ليصح فى معنى أن يقال إن ١٩٦٦ هى سنة نكسة أفريقيا ، حيث كانت ١٩٦٠ هى « سنة أفريقيا » . الأولى ، بلغة الفلك ، كانت فصل الانقلاب ، حيث كانت الثانية فصل الاعتدال . المهم بذلك أن الولايات المتحدة نجحت فى أن تصدر الثورة المضادة بالجملة ، وأن تجعل من أفريقيا فى هذا الصدد أمريكا اللاتينية الأخرى تقريبا .

أما حيث لم تجد سياسة المعونات أو الانقلابات ، فقد التجأت الولايات إلى أسلحة الضغط الاقتصادى والتجويع أو الحرب النفسية والحملات الدعائية دائما ، وإلى العدوان المسلح الممنع أحيانا . وكان تحديد استعمال هذه الأسلحة يتناسب تناسبا طريدا مع ضراوة الكراهية الأمريكية والمقاومة الوطنية . فقد وقفت عند حد الضغط الاقتصادى فى حالة الهند مثلا ، بينما وصلت إلى حد العدوان العسكرى فى الشرق العربى حيث تحفت النجمة الخماسية (الولايات) وراء النجمة السداسية (إسرائيل) كما قيل .

وهنا نلاحظ أن من يتتبع خطط الولايات المتحدة للسيطرة على العالم الآسيوى الأفريقى آتخذ يكاد لا يملك إلا أن يرى مبدأ مونرو يتوسع ويزحف ليشمل العالم غير الشيوعى جميعا . فلقد بدأت الولايات مبدأ مونرو محليا ثم أخذت توسعه تدريجيا حتى طوق العالم الجديد ، وحين بدأت تتغلغل فى العالم القديم وتطوق الشيوعية لم تكن خطواتها أكثر من توسيع مستتر لنفس المبدأ . فلم يكن حلف الأطلسى أو مشروع منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط أو سلسلة أحلاف آسيا ، ولم يكن مبدأ ترومان ومن بعده مبدأ أيزنهاور وأخيرا خطة جونسون الآسيوية ، لم تكن هذه جميعا - نكاد نقول - إلا حلقات مكشوفة فى سلسلة خفية هى عالمية مبدأ مونرو فى الواقع .

أو على الأقل فإنه يكاد يلوح أن الولايات تعتبر كل العالم خارج المعسكر الشرقى « فراغا » ضحيا بالفعل والقوة ، وأن « عبء الرجل الأمريكى » هو ملء هذا الفراغ . ومهما يكن رأى ، فالأمر المؤكد أن الولايات باتت خلال المرحلة نقمة العالم الثالث ، وأن المواجهة بينها صارت مبارزة مباشرة بين الاستعمار الجديد وعدم الانحياز على وجه التحديد ، وهى مواجهة أبعد ما تكون عن التكافؤ أو العدالة .

و حين وصل المد الاستعمارى إلى ذروته بضرب طليعة عدم الانحياز فى مصر والوطن العربى ، بلغت صدمة العالم المتحرر أقصى مداها ، مما وضع على الفور كل فلسفة عدم الانحياز فى أزمة مصير بل وطرح للمناقشة والتساؤل كل أساسيات ومسلمات التوازن العالمى السائدة . فغزى ما حدث كان أكبر بكثير من مجرد سلسلة من الانتكاسات أصابت حركة التحرير الوطنى . فجوهر الموقف أن الولايات المتحدة كانت قد استغلت التوازن النووى لصالحها إلى أبعد حد ، إذ بينا كيف الاتحاد السوفيتى يده ، لا ندرى تعقلا وانضباطا أو خوفا وعجزا ، أطلقت الولايات المتحدة يدها بلا رادع أو خوف ، لكى تبتز الجنس البشرى نوويا ولكى تحول السلام الذرى إلى السلام الأمريكى .

وواقع الأمر خلال الستينات بعامة أن الإمبريالية الأمريكية كانت تزحف بالتدريج ولكن بالتأكيد على العالم الثالث ، وكان هناك من يرى أنها بحروبها الإقليمية المحدودة هنا وهناك إنما كانت تمارس فى الحقيقة حربا عالمية « بالقطاعى » ، بل كان هناك من يخشى أن تكون الحرب الثالثة قد بدأت دون أن نشعر (؟) ، وأن الصراعات والغزوات الاستعمارية الجارية لم تكن إلا مدخلها ، مثلما كانت الحرب الإسبانية مدخلا إلى الحرب الثانية .

ولئن كان من الواضح حينئذ أن العالم الثالث هو الهدف المباشر لضربات العالم

الأول ، فإنما كان مجرد جسر ومرحلة على الطريق إلى الهدف الأكبر والأخير وهو العالم الثانى . وهنا نجد من يعود إلى التشبيه بمقدمات الحرب الثانية ، حيث كان يخشى أن الإمبريالية الأمريكية إنما كانت تستغل التعايش السلمى مع الاتحاد السوفيتى كهذه تسليحة وكخدعة سياسية مثلما نظرت ألمانيا النازية إلى ميثاق عدم الاعتداء معه هو نفسه من قبل . بل كان هناك من يمتنى ، أبعد من ذلك ، ألا تكون قصة المواجهة ابتداء من كوبا إلى فيتنام إلى الشرق الأوسط تذكرة بمأساة ميونيخ من قريب أو بعيد .

مغزى المد

وأيا ما كان فلقد كان لهذا كله عدة معان ومدلولات مباشرة وبالغة الخطورة ، أولا أن العالم الثالث أصبح يواجه عدوانية الإمبريالية الأمريكية المسلحة وحيدا شبه أعزل ، وذلك رغم مساعدة ومساندة الدول الاشتراكية سياسيا واقتصاديا ، أيا كان مداها وإخلاصها . وبهذا عدنا أو كدنا بدرجة أو بأخرى إلى منطق وواقع القرن التاسع عشر واستراتيجية عصر الاستعمار التقليدى القديم . وفى هذه المواجهة بدأت علامات تحول هام ، وإن لم تكن ملحوظة بما فيه الكفاية ، وهى أن الاستعمار الجديد بدأ يأخذ بعض ملامح الاستعمار القديم رغم أنه ما قام أصلا إلا ليدور حولها ، ونعنى بذلك استخدام القوة والاحتلال والجيوش والحروب السافرة كما فى فيتنام والشرق الأوسط .

وهذا يؤدى بنا إلى نتيجة أخرى مثيرة وخطيرة ، وهى أن أكبر المتفيعين بالاستعمار الجديد ذلك اليوم كانت هى بقايا الاستعمار القديم المتخلفة ، والى كان أغلبها يقع فى حلقة الاستعمار العنصرى ، ابتداء من جنوب أفريقيا إلى المستعمرات البرتغالية إلى إسرائيل . بل لقد كانت إسرائيل بخاصة وبالذات هى أكبر متفيع فى العالم بتلك المواجهة بين الاستعمار الجديد والعالم الثالث . لقد أصبحت تلك البقايا المتخلفة من الاستعمار القديم بمثابة النويات الصلبة أو العقد البارزة فى النسيج الغامر الخفيف للاستعمار الجديد وقتئذ .

معنى آخر وأخير أن مدّ الستينات الاستعماري كان يمكن أن ينطلق إلى مالا نهاية إلى أن يبتلع العالم الثالث كله دون أن يصطدم بما يوقفه عند حد . وبهذا كان العالم الثالث هو أول ضحايا العصر النووى . وهذا يقينا أبعد شئ عن الفكرة المبسطة التى توهمت - هكذا على الإطلاق ودون تحفظ - أنه كسب من عصر الصراع الكلى استقلاله وكيانه . وعلى أية حال ، فلم يكن هناك شك فى أن من سوء حظ العالم الثالث أن العصر

النوى لم يتأخر بضعة عقود عما حدث بالفعل ريثما يكون قد استكمل قواه الذاتية قبل أن يحاصر بين شقي رحى الشلل النوى من ناحية والابتزاز النوى من الناحية الأخرى . فن المؤسف بالتأكيد أن عصر التحرير الوطنى لم يكد يبدأ بعد انتهاء عصر احتكار القوة فى العالم حتى كان العصر النوى - بمصادفة تاريخية بحتة - قد بدأ ، فما لبث أن ألغى بظلاله وأخطاره على حركة التحرير الوطنى فأصابها بالجمود والاضطراب ولا نقول الشلل .

بين التعايش وعدم الانحياز

وعند هذا الحد من السياق يثور سؤال مبدئى وحاسم عن العلاقة بين التعايش السلمى وعدم الانحياز . فالتعايش السلمى نشأ كصيغة حياة *modus vivendi* بين نظامين أيدىولوجيين متناقضين فى معسكرين سياسيين جبارين ، وذلك منعا للتصادم القاتل بينهما . أما عدم الانحياز فنشأ كصيغة عمل *modus operandi* لتنسيق التعامل معها من جانب طرف ثالث صغير يعتبر نفسه محايدا بينها حيادا إيجابيا لا انتائيا .

ومن حيث التوزيع الجغرافى فلقد يمكن أن نميز بينها - تبسيطا - فنقول إن التعايش السلمى يتوطن العروض المعتدلة ويكاد يتقاسمها مناصفة ، أما عدم الانحياز فظاهرة مدارية أساسا ويكاد يغطى المداريات عموما . أما تاريخيا فقد نشأ عدم الانحياز فى ، وبفضل ، مناخ اشتدت فيه الحرب الباردة . وفى هذا المناخ وبفضله أيضا استطاع أن يلعب دورا هاما فى مخاض التعايش السلمى ودفعه وتنميته . هذا هو الأصل فى كل من التعايش السلمى وعدم الانحياز تاريخيا ومبدئيا .

ولكن الذى حدث فى الستينات أننا وصلنا فيما يرى البعض إلى صورة معكوسة كثيرا أو قليلا ، ظاهريا أو مؤقتا . فبدلا من التناقض بين طرفى التعايش السلمى ، بدا التناقض كما لو كان بين التعايش السلمى وعدم الانحياز ، حتى ظن أن التعايش إنما كان يعيش على حساب عدم الانحياز أو أن التضحية بعدم الانحياز كانت الثمن الوحيد لبقاء التعايش السلمى . وبدلا من العكس ، عوقب عدم الانحياز من جانب التعايش السلمى على دفعه له ، وأصبح وسيط السلام هو جبهة الصدام وضحية العدوان . وبدل أن يوجه نطاق الأحلاف العسكرية الغربية المضروب حول المعسكر الشرقى إلى هدفه المفروض ، أصبح باستثناء وحيد فى جنوب شرق آسيا (فيتنام) يوجه إلى ضرب دول عدم الانحياز (الشرق الأوسط خاصة) .

أكثر من هذا ، وبعد أن كان العالم الثالث يأخذ موقف عدم الانحياز بين طرفى

التعايش السلمى ، بدا كما لو كان أحد هذين الطرفين يأخذ - من وجهة النتائج العملية على الأقل - موقف عدم الانحياز بينه وبين الطرف الآخر ، بمثل ما أن الطرف الآخر قد نقل بالفعل حربه الباردة بل الساخنة من نظيره المقابل إلى العالم الثالث وعدم الانحياز . وبهذا وذاك بدا كما لو أن تعايش الكبار إنما يتم على حساب الصغار . بل ذهب البعض إلى حد القول بأنه لولا عدم التكافؤ المطلق فى الحجم والوزن ، ولولا أن العالم الثالث جسم غير متجانس متفكك ومبعثر ، لجاز اعتبار الاستقطاب الثنائى السائد وقتئذ استقطابا بين الإمبريالية أو بالدقة الإمبريالية الأمريكية وبين عدم الانحياز ، بين « العالم الحر » وبين العالم الثالث .

ولقد يؤول هذا على أنه لم يكن للعالم الثالث أمل فى مساندة الكتلة الشرقية له مساندة كاملة فى وجه الأخطار التصادية إلا بإلقاء نفسه فى أحضانها ، وبذلك يتخلى عن عدم انحياز أصلا وأساسا . وهذا المنطق كله وإن اعترف ابتداء بعدوانية الغرب وصداقة الشرق ، يصور الموقف فى الحقيقة على أن الخيار أمام عالم عدم الانحياز كان إما بين عدو قادر وصديق عاجز فى الحالة الأولى ، وإما بين عدو قادر وصديق طامع فى الحالة الثانية .

مهما كان الأمر ، فلقد كان الشيء البديهي أن التعايش السلمى لا يمكن أن يكون من طرف واحد ، كما أنه إذا كان مفهوما بين الاشتراكية والرأسمالية فإنه لا يمكن أن يكون بين الاشتراكية والاستعمار . وأهم من ذلك لاريب أن التعايش السلمى كان لا يمكن ولا يجب أن يتحول إلى تعايش استسلامى . على أن الأمر الواقع لم يلبث كالعتاد أن حسم الجدل النظرى بطريقته الحادة القاطعة ، فنقل الصراع كله بغتة من مستوى إلى مستوى جديد ومن أفق إلى آخر : من التعايش إلى الوفاق .

السبعينات : عقد الوفاق

قد يكون الوفاق نقيض التعايش فى معنى أو شبيهه فى معنى آخر ، تصحيحا لمساره من وجهة نظر أو تحريفا من وجهة مضادة ، ارتدادا عنه فى نواح أو امتدادا له فى أخرى ، تصعيدا فى جوانب أو استمرارا فى غيرها ، إلا أنه - فى كل الأحوال - استمرار للصراع ولكن بطريقة أخرى . فلقد يكون الوفاق - بالتعريف - انتقالا « من المواجهة إلى المفاوضة from confrontation to negotiation » ، وبالتالي نقلة فى النغمة أو الطبقة أو النبرة الأساسية modulation من أصابع البيانو السوداء إلى البيضاء أو من الديوان الكبير

major إلى الديوان الصغير minor كما قد نقول ، أو قد يعد تغييرا في التكتيك أو في الاستراتيجية ، ولا نقول اتجاهها من الحل العسكرى إلى الحل السياسى ، غير أنه يبقى في النهاية عملية تقنين للصراع لا إلغاء ، وتقنين لا إنهاء .

وعلى الجملة ، ففيما كان التعايش السلمى صورة مقننة من الصراع ، جاء الوفاق صورة مقننة من التعايش . وما الوفاق في جوهره إلا « جراحة تجميل » للتعايش كما وضعها أحدهم ، أو « إخراج تليفزيونى » له كما عبر آخر . وكلاهما على أية حال لا يبنى الصراع ولكن يحكمه ويضبطه بطريقته الخاصة على أساس مبدأ « التنافس مع التعايش » . ولئن كان الجانبان قد اتفقا على المفاوضة بدل المواجهة ، فإن كليهما إنما يريد « المفاوضة من مركز القوة » . ولهذا مضى سباق التسليح على أشده ربما أكثر من أى وقت مضى ، ولكن في أقصى حدود السرية والتمويه ولا نقول الخداع المتبادل .

دور فيتنام

ولنفصل . كما ولد التعايش على مطرقة أزمة كوبا في أوائل الستينات ، ولد الوفاق على صخرة كارثة فيتنام في أوائل السبعينات . أى أن كليهما ولد في أتون الحرب الباردة ، في ظل مواجهة عسكرية أو شبه عسكرية رهيبية ، مباشرة أو غير مباشرة ، ناجزة أو مطولة ، بين العملاقين أساسا ولكن خلال طرف تابع لأحدهما من دول العالم الثالث المدارية الصغيرة .

والغريب اللافت بالصدفة أو بالمناسبة هو التناظر المثير في الموقع الجغرافى والاستراتيجى والسياسى بين كوبا وفيتنام . فكلتاهما تكاد تقع تحت مدار السرطان حوالى الطرف الجنوبى الشرقى الأقصى من قارته قرب « بطن » الكتلة أو العملاق المربط ولكن المضاد لا القائد ، وبالتالي تبدو كجسم جزرى غريب دخيل ومعاكس وسط المحيط السياسى والأمنى السائد ، أو كمنذوب ووكيل تابع Surrogate أو كشطية منطوحة أو متطابرة من الكتلة المعادية ضلت طريقها إلى أن غرست كشوكة في جنب العملاق المضاد .

ولكن ما أشد الاختلاف بين المواجهتين الدمويتين بعد ذلك . فبينما كانت كوبا هزيمة استراتيجية سافرة للاتحاد السوفيتى ونصرا تاريخيا محققا للولايات المتحدة ، كانت فيتنام النقيض المطلق : هزيمة تاريخية قاصمة للولايات ونصرا استراتيجيا رنانا للاتحاد . كانت كوبا في الحقيقة أول نسخة نووية من مبدأ مونرو كما أسلفنا ، أى أول تطبيق للمبدأ

القارى القديم فى العصر النووى ، أما فيتنام فكانت بالمقابل آخر تطبيق أو طبعة من القانون الجيوستراتيجى القارى القديم القائل بأنه لا بقاء لقوة أجنبية غازية على اليابس الأسوى .

وكما تمخضت مصادمة كوبا عن التعايش السلمى ، فإن كارثة فيتنام جاءت مخاض الوفاق وقابلته . وأخيرا وليس آخرا فكما جاء التعايش تعبيرا عن انزلاق الاتحاد فى الصراع وتفوق الولايات وتسيدها المطلق طوال عقد التعايش ، فكذلك جاء الوفاق تعبيرا عن تراجع الولايات وانتقال التفوق النسبى فيه على الأمل إلى الاتحاد ، الذى كسب بذلك أول جولة له فى الصراع ، سواء عد ذلك الكسب بالنقط أو بالضربة القاضية ، بحيث جاء العقد لصالحه تماما أو غالبا على المسرح العالمى . إن السبعينات - إن شئت فقل - هى عقد الاتحاد السوفيتى بالتقريب إن لم يكن بالتأكيد .

من الكارثة إلى العقدة

وليس من شك بعد هذا أن فيتنام كانت كارثة حقيقية وهزيمة ساحقة ومخزية لأمريكا débâcle ، رجت كل فكرها الاستراتيجى ووجودها وكيانها رجا ، وهزت مكانتها السياسية العالمية حتى النخاع ، وذلك فضلا عن حياتها الداخلية التى أصيبت بتقلصات حادة إلى حد التشنجات فرضت عليها أن تعيد النظر فى كل كيانها وذاتها ومعطياتها ، ومن ثم مسارها ومسيرتها ومصيرها .

فالدولة النووية العظمى الأولى فى العالم والتاريخ ، التى خرجت عاتية عادية لتدخل دولة صغيرة متخلفة ولكنها مناضلة تحت سيطرتها ، بل و « لتعيدها إلى العصر الحجري » (كذا !) بجبروتها التكنولوجى الفائق ، عادت هى مهزومة عاجزة منسحبة بعد حرب شبه عقدية استنزافية خاسرة مثلما هى ظالمة ، لتخرج بعدها من المنطقة إلى الأبد ولتدخل التاريخ بأول هزيمة لها فى تاريخها وكذلك بأول هزيمة تقليدية لقوة نووية فى التاريخ .

وكجولياث ودادود ، أدركت الولايات لأول مرة ربما أن للقوة حدودا ، حتى القوة النووية ، وأن حدود القوة تفرض عليها التراجع عن دور شرطى العالم وعن مغامرة الصدام النووى بين القطبين . وتعبيرا عن هذا تحولت سياسة أمريكا إلى أن تتولى الدول الصديقة والحليفة حروبها وصراعاتها المحلية بنفسها بدل أن تنوب هى عنهم فيها ، بحيث لا تتورط أو تقدم إلا التأييد المعنوى وبعض المادى لا أكثر . فالحروب الأسبوية يقوم بها الأسبويون ، والحروب المحلية تترك لأصحابها ، وهكذا - « مبدأ نيكسون » . ومجمل

القول فإن سياسة الوفاق جاءت ، كما عبر جيمز ريستون بدقة ، ملازمة للانحسار الأمريكي وإخراجا لبقا للتفوق الأمريكي نتيجة عقدة فيتنام .

دور المتغيرات الدولية

وإذا كان الوفاق بهذا الشكل هو النتيجة المباشرة لمعطيات الاستقطاب النووي من مخاطر ومحاذير ، فإنه يعد بدرجة مقاربة النتج الجانبى للمتغيرات الدولية المواكبة وغير المواتية . فتماما كما وجد كبار أوروبا في الستينات أنهم ، حتى بعد أن خلعوا عن عرش العالم ذاته ، قد أصبحوا محاصرين استراتيجيا بين العالقة من أعلى (القوتين الأعظم) والأقزام من أسفل (الدول النامية المتحررة) ، وجد العملاقان بدورهما في السبعينات أنهما رغم احتكار القمة المطلقة محاصران تكتيكيا بين الكبار من ناحية والصغار من الناحية الأخرى . فن الكبار ، هناك على الجانب الغربى استقلالية الوحدة الأوربية المتزايدة وثورتها البادية على الوصاية الأمريكية ، وهناك على الجانب الشرقى الانشقاق الصينى القاصم . ومن الصغار ، هناك قوة عدم الانحياز والحياد الإيجائى الطالعة التى تعمل على تجميع القوتين الأعظم نوعا والحد نسبيا من سيطرتها المطلقة .

من هنا جاء الوفاق بلا جدال ردا مشتركا من القطبين على تفتت أو تداخل الكتل وعلى عدم الانحياز فى آن واحد . ذلك أنه لم يعد خافيا على العملاقين أن كل خسائر يحققونها فى صراعها إنما تتحول بالتوازن وبصورة ما إلى مكاسب لتلك الأطراف الأخرى ، بينما أن كل مكاسب تحققها هذه الأخيرة إنما تأتى مخصومة منها ومحسوبة عليها . من هنا أيضا ، وليس من هناك ، طرأت مظاهر كثيرة جديدة ومثيرة على العلاقات بين القطبين فى مجال التعامل والتعاون السلمى ، خاصة التجارة الخارجية والتبادل التكنولوجى .

من أبرز الأمثلة صفقات القمح والحبوب الملبارية الضخمة من الولايات المتحدة إلى الاتحاد ، حيث مازالت الزراعة السوفيتية مشكلة عويصة تعاني من التقلب والعجز كل بضعة أعوام نتيجة المناخ وربما نظم الانتاج . وبالمثل فى الاتجاه نفسه صادرات التكنولوجيا الفائقة التقدم ولكن غير الاستراتيجية ، فضلا عن القروض الضخمة . وبالمقابل ، تأتى صادرات الغاز الطبيعى والذهب لتمويل تلك الصفقات ... الخ . وعلى الجانب السياسى كثرت الزيارات للتبادلة والوفود والمؤتمرات المستمرة ، ابتداء من مؤتمر هلسنكى لحقوق الانسان إلى مؤتمرات جنيف للحد من السلاح ... الخ .

ومن الطريف هنا أن العملاقين فيما يبدو يجرمان تقريبا على حلفائهما وأتباعهما ما يحلله لثانيهما في معظم تلك المجالات . فالعلاقات والاتصالات السياسية والاقتصادية المسموح بها من قبل العملاقين تتم بحذر وبقدر . ومع ذلك فقد حقق بعضها مستويات عالية نسبيا ، بما في ذلك القروض والعقود من دول أوروبا الغربية الغنية لبعض دول أوروبا الشرقية التي تحاول أن تنتزع هامشا من الاستقلالية وحرية الحركة خارج التبعية مثل رومانيا خاصة ... الخ .

ثم أخيرا وليس آخرا جاء مشروع أنبوب الغاز الطبيعي السيبيري الهائل من أعماق الاتحاد عبر شرق أوروبا إلى غربها ، حيث يرسم خطا محوريا عرضيا أساسيا متعدد الفروع والنهايات ، يقطع عبر الكتلتين ويتعمد على الستار الحديدي ، ويكاد يتحدى الاستقطاب الثنائي أو يجعل منه سخرية سياسية استراتيجية بمعنى ما إلى حد أو آخر . ويكفي دليلا أو مؤشرا في هذا المعنى أن أمريكا تعارض المشروع بشدة على أساس أنه يضع إمدادات الطاقة الأوروبية تحت رحمة التهديد السوفيتي لعشرات السنين في المستقبل ، بينما أصرت دول أوروبا الغربية على أنه لا يهدد أمنها وإنما يؤمن مصالحها ، ثم مضت في تنفيذ المشروع في وجه المقاومة الأمريكية أو غير عابثة بها .

الوفاق في الميزان

وعند هذا الحد تتكشف لنا طبيعة الوفاق على حقيقته ، كما نفهم رد فعل كل الأطراف الأخرى إزاءه . فالوفاق ، الذي هو - بالمناسبة - ليس وفاقا entente بالمعنى الدبلوماسي الفني الصارم بل مجرد انفراج détente ، الوفاق لا يعني التقارب rapprochement بين القطبين المتضادين بقدر ما يعني التفاهم understanding بينهما على ألا يدعا للصراع أن يؤدي إلى الصدام بينهما . ويعني هذا أساسا وبالتحديد ألا يدعا لصراعات الآخرين ولللاقات بين الصغار أو الكبار أن تحكم وتوجه صراعاتها الذاتية أو العلاقات المباشرة بينهما ، وإنما على العكس أن يحكم صراعاتها وعلاقاتها الخاصة تلك الصراعات والعلاقات وتوجهها . وبذلك تظل القبضة لها على مقدرات العالم دون أن تنفلت في وجه أو فك أي منها .

أما من الناحية السياسية أو الدبلوماسية فإن الوفاق بشكله هذا ينتقل بالصراع عمليا من مبدأ « تناطح القوى » إلى مبدأ « توازن القوى » ، ذلك الذي ساد في القرن ١٩ على يد بريطانيا أساسا كدولة وعلى يد مترنيخ بالذات كسياسي . أو أخيرا ، إذا استكملنا تشبيه

الملاكمة السالف الذكر ، فإن الوفاق يستبعد الآن « الضرب تحت الحزام » مثلما استبعد التعايش من قبل « الضرب في الرأس » . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الصراع قد اقترب بالعملاقين من حالة من الاعياء والجمود والمضاربة . إلا أن الوفاق لا يوقف الصراع ، وإنما فقط يضع حدا للمغالاة في إرهاب المتصارعين لحساب ولصالح المتفرجين .

ولم يكن غريبا لذلك أن يأتي رد فعل الآخرين سواء داخل الكتل أو خارجها مضادا للوفاق رغم اختلاف مواقعهم الأساسية . فالكل تقريبا رأى فيه قطعة من « انتهازية الأقوياء » وصيغة ملفقة لإخضاع علاقات وصراعات الصغار لضبط علاقات وصراعات الكبار ، بينما تحدث بعض الساخرين الساجعين عن « نفاق الوفاق » و « انبعاث الانفراج » . وفي العالم الثالث ، خاصة في الصين ، ذهب كثيرون إلى اعتباره « تواطؤا collusion » سافرا بين القطبين « وبالتالي ثانية » ، « يالتا الحرب الباردة »^(١) تستهدف تقسيم العالم الثالث إلى مناطق نفوذ جديدة مثلما استهدفت يالتا الأولى بعد الحرب الساخنة اقتسام أوروبا .

الموقف الصيني

وعن موقف الصين بالذات ، فإنها ترى أن القوتين الأعظم ، على عكسها هي كقوة ثورية ديناميكية ، أقرب الآن في طبيعتها إلى أن تكونا قوتين محافظتين على حد سواء ، لأن هدفها ليس تغيير الوضع الراهن في العالم وإنما الإبقاء عليه ، وذلك لصالحها أساسا . وهذا هو جوهر الوفاق . كل ما هناك أن إحدى القوتين تريد التوسع ، والأخرى تريد حماية مصالحها المكتسبة . واستمرار هذا التنافس سوف يؤدي بها إلى الحرب يوما ما . ومن هنا فإنها تمارسان « تكتيكا مزدوجا » بصدد التسليح ، إذ بينما تدعوان إلى الحد من التسليح تمارسان التوسع فيه على أوسع نطاق . وحتى دعوتها إلى الحد من التسليح تنصب فقط على الكم دون الكيف ، وهذا إنما يعنى « التوازن نحو الأعلى » باستمرار ،^(٢) مما يضاعف خطر الصدام . ولهذا كله فإن الوفاق محكوم عليه سلفا .

Heikal, Sphinx, p. 169, 181.

(١)

(٢) خيرى عزيز ، « التحرك الدبلوماسي والانفتاح الصينى الأخير » ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٨ ، ص ١٣٠ .

ليس هذا فحسب . فلقد توصلت الصين إلى نظرية جديدة في تقسيم ، أو بالأصح إعادة تقسيم ، العالم إلى عوالمه أو عوالمه الثلاثة المكونة ، إن اتسقت في الاطار العام لفلسفتها الإيديولوجية والصراعية ، فإن الوفاق يأتي موضوعيا ليبرهن على صحة تلك النظرية كما تصر هي وتلح . فبدلا من التقسيم الكلاسيكى أو التقليدى للعالم المعاصر إلى أول هو الغرب الرأسمالى المتقدم ، وثان هو الشرق الاشتراكى التقدمى ، وثالث هو الدول النامية أو المتخلفة المتحررة ، قدمت الصين تصنيفا ثوريا ومختلفا تماما . فالعالم الأول إنما يضم القوتين الأعظم وحدهما ، الولايات والاتحاد ، وذلك بحسبانها قوتين محافظتين من حيث الثورية ومتواطئتين فى الوفاق . أما العالم الثانى فهو الدول الصناعية المتقدمة وعلى رأسها أوروبا الغربية . وأخيرا فإن العالم الثالث هو الدول النامية الفقيرة ولكن التقدمية ، ومنها أو على رأسها الصين نفسها^(١) . وفى الخلاصة تنتهى الصين إلى حث العالمين الثانى والثالث على التضامن لمواجهة العالم الأول وإحباط وفاقه الانتهازى ... الخ .

الموقف الأوروبى

أما فى الغرب فإن الحلفاء الأوربيين ازدادت شكوكهم فى النوايا الأمريكية وتوجسهم من تخليها عن الدفاع عنهم نوويا أو حتى تقليديا . وكما حاولت الصين أن تستثمر الوفاق لتحذير العالم الثالث من الاتحاد السوفيتى وإبعاده عنه ، فإن الاتحاد بدوره حاول أن يستغل مخاوف الأوربيين ليدس إسفيناً بين الحلفاء الغربيين وداخل حلف الأطلسى . ولعل الطريف هنا حقا أن الأوربيين ، الذين كانوا فى المراحل والعقود السابقة أميل إلى المزايدة على أمريكا فى معاداة الشيوعية والسوفيت واستعدادها عليهم ، قد تذبذبت مواقفهم من الوفاق أكثر من مرة وفى أكثر من اتجاه وذلك بحسب تذبذب مساره وبوصلته .

فغداة الوفاق عادوا إلى المزايدة أكثر من أى وقت مضى مطالبين أمريكا بالعودة إلى المواجهة والروح العسكرية الصلبه أو الصليبية ... الخ . ولكن فى السنوات الأخيرة ، أى فى اللانينات بخاصة ، حين اتجهت أمريكا ريجان من جديد إلى روح المواجهة مع السوفيت بعد أن قدرت أنهم قد حولوا الوفاق لصالحهم عالميا ، عاد الأوربيون يطالبونها بضبط النفس والتعقل وتخفيف نغمة التهديد ... الخ .

(١) عادل حسين ، الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية ، بيروت ، ١٩٨١ ، ج ١ ص ٣٠٠ .

بل لقد أخذت الحركات السلامية ، شعبية وحكومية ، تتسع في أوروبا الغربية منذ بداية الثمانينات بالتقريب ، وأصبحت المظاهر والمظاهرات العدائية للولايات أمرا مألوفا عاديا في دولها ، كما اشتد تيار المطالبة بالحد من التسليح عامة والنوى منه خاصة بل وبتجريد أوروبا الغربية (والشرقية بالمثل والموازاة) من الأسلحة النووية ، وإلا فبتجميد أو عدم تحديث أو تعظيم الترسانة النووية الأمريكية المنشورة على أراضيها .. الخ .

أضف إلى هذا اشتداد بل استشراف النزعة الأوروبية إلى اتخاذ مواقف مستقلة إلى حد أو آخر في المشاكل والقضايا الدولية الكبرى مثل الشرق الأوسط وأمن البحر المتوسط . وقد لا تكون هذه المواقف وتلك الخلافات أكثر من تكتيكية إن لم نقل أحيانا انتهازية ، إلا أنها مؤثرة نسبيا مع ذلك . ففي حالة أزمة الشرق الأوسط ، على سبيل المثال ، يمكن القول بمنتهى الاختصار - والصراحة أيضا - إن الفارق هو أن أوروبا تريد أن تمسك العصا من الوسط ، فيما تريد أمريكا أن تمسكها من الطرفين .

كذلك فلقد نشأت في السنوات الأخيرة بضعة محاور أو أشباه محاور استقطاب ثنائية متقاطعة أو متعامدة داخل المعسكر الغربي ككل ، تعبر بوضوح عن قدر من اختلاف المصالح الذاتية الخاصة والسياسات التكتيكية الإقليمية . ويلاحظ أن فرنسا غالبا طرف في هذه المحاور الصغرى ، في حين أن الولايات المتحدة هي الطرف الثابت الآخر . فداخل أوروبا الغربية نفسها ثمة شبه محور الولايات المتحدة - بريطانيا التقليدي الخاص ، في مقابل شبه محور فرنسا - ألمانيا الناشئ أو الواشي . وفي المغرب العربي نستطيع أن نميز مؤخرا شبه محور فرنسا - الجزائر/ليبيا (باعتبار أن الأولى اشتراكية الحكم حاليا وذات ميول تقدمية) ، وذلك في مقابل شبه محور الولايات المتحدة - المغرب/تونس (باعتبار أن الأخيرتين نظم تقليدية محافظة) . وفي عقر أمريكا اللاتينية نجد محور الولايات المتحدة - الدول المحافظة الأساسي ، في مقابل شبه محور فرنسا - الدول «الثورية» . حتى في آسيا نستطيع أن نلمح شبه محور فرنسي - هندي بازغ ، في مقابل شبه المحور الأمريكي - الباكستاني الراجع . وهكذا وهكذا إلى آخره .

وعلى أية حال فقد أصبح من الواضح عموما أن هامشا ما من الاختلاف الحقيقي أو النسبي في المصالح الاستراتيجية والسياسة والاقتصادية بين أوروبا والولايات المتحدة قد بزغ في ظل الوفاق . إلى حد أن ارتفعت هنا وهناك في أوروبا بعض صيحات الحياد ، كما عادت إلى السطح الدعوة القديمة إلى حل حلتي الأطلس ووارسو على السواء ، ودعك

من الدعوة الطوباوية المعاصرة إلى دمجها في حلف واحد مشترك^(١) . بل لقد وصل الأمر مؤخرا إلى حد أن تكهن بعض المراقبين السياسيين بأن عدم الانحياز نفسه قد يغزو أوروبا يوما ما (كذا) .

بالمقابل ، ففي وجه هذه التهديدات أو التلميحات الأوربية الداعية إلى الانسحاب أو النكوص في صراع العملاقين ، أيا كانت قيمتها الحقيقية ، برزت على الجانب الأمريكي نفسه بغضب نغمة العودة إلى العزلة والتهديد بالخروج من أوروبا وتركها لشأنها ، يعنى تاركة « أوروبا للأوروبيين » مثلما تركت من قبل « آسيا للأسويين » . وهذا كله ما يهدد بأن تتحول الفجوة إلى جفوة ، والصُّدَاع إلى صدع .

سيناريو الوفاق حرب أكتوبر ثانية

كان أول اختبار قوة فعال للوفاق الجديد أو الوليد هو حرب أكتوبر ، التي إن لم تعد صراعا مباشرا أو غير مباشر بين العملاقين أو الكتلتين فإنها كانت على الأقل محكومة ومضبوطة بحدود وفاقها الوافد ، شأنها في ذلك شأن كل الصراعات الاقليمية اللاحقة والتي ستنقط العقد كله وإلى اليوم (بما في ذلك حتى أزمة جزر فوكلند النائية والواقعة في عقر دار المعسكر الغربي نفسه) . هذا رغم أن أحد طرفي تلك الحرب كان قد تباعد بدرجة معلومة عن القوة العظمى الصديقة له تقليديا .

وابتداء ، فلقد كان من أول بنود الوفاق إحباط إمكانيات العودة إلى الحرب في الصراع العربي - الإسرائيلي ، وذلك عن طريق إعلانه الشهير عن « الاسترخاء العسكري والاستراتيجي » في الشرق الأوسط . ولأن هذا كان يعنى بكل بساطة ومباشرة وسفور تثبيت الأمر الواقع لصالح الطرف المحلى المنتصر من قبل وهو العدو الإسرائيلي ، فإن هذا التفاهم إن لم يعتبر « ميونخ » سوفيتية للولايات المتحدة من جهة ، و « خيانة » سوفيتية للعرب من الجهة الأخرى ، فقد عده البعض على أقل تقدير « تواطؤا » سوفيتيا - أمريكيا .

وسواء كانت الحرب قد قامت « برغم » الوفاق كما يذهب البعض أو « بفضل »

(١) محمد عزيز شكري ، « التكتلات والأحلاف الدولية في عصر الوفاق » ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٤ ، ص ٨١ .

الوفاق كما يذهب البعض الآخر^(١) ، فإنها كانت أساسا مبارزة بين السلاح الأمريكي في جانب والسوفيتي في الجانب الآخر. ولأن الولايات ، كما أعلنت ، لم تكن على استعداد لأن ترى السلاح الأمريكي يضرب ويهزم بالسلاح السوفيتي ، فقد حدثت التدخلات والمداخلات الوفاقية في الميدان وخارجة ، بحيث أتت المعركة على جسامتها أقرب إلى الجمود المتوازن stalemate ونتيجتها أقرب إلى التعادل أو التحييد بلا نصر استراتيجي حاسم وإنما مجرد نصر تكتيكي متواضع على الأكثر ، في حين أتت نتائجها ومعقباتها السياسية في النهاية أقرب وأقرب إلى التبع وأشد شحوبا وضياعا على الأقل ، إن لم تكن حقا قد انتهت إلى قلب جذري تام وغير مسبوق للموقف العربي الأساسي برمته . لقد دمع الوفاق المعركة بخاتمه الباهت وطابعه المتميع بقوة ، بينما دمع الصراع كله بقوة وعنف أكثر مما ينبغي .

ليس هذا فحسب ، وإنما جاءت نتائج الحرب عكسية و/أو معاكسة أو انقلابية انعكاسية للعاملين مثلما جاءت للطرفين المحليين . فلقد ترتب عليها مباشرة إخراج الاتحاد السوفيتي نهائيا من قلب المنطقة وقلب الصراع واستبعد من الحل السياسي كلية ، بينما وضعت الولايات قدمها في حذائه وورثت دورة كاملا بل مضاعفا . وفي النتيجة عادت منطقة الشرق الأوسط والعالم العربي أقرب في معظمها إلى الارتباط الأمريكي بعد أن كانت منصفة بالتقريب بينه وبين الارتباط السوفيتي .

وفي المحصلة النهائية ، وهاهنا المفارقة المذهلة ، فإن عقدة فيتنام التي قادت إلى الوفاق والجزر الأمريكي السياسي عالميا لم يكن لها من استثناء سوى العالم العربي وحده والشرق الأوسط فقط . فبينما أطلقت عقدة فيتنام ثم صفقة الوفاق يد روسيا عمليا في العالم كله تقريبا إلا العالم العربي وحده بالدقة والتحديد (فلسطين - إسرائيل) ، كفت يد أمريكا تقريبا في العالم كله إلا العالم العربي وحده للتعاسة والسخرية !

على امتداد الساحة الاقليمية

فإذا نحن انتقلنا إلى سائر الصراعات الاقليمية الأخرى التي تورط أو شارك فيها العملاقان خلال العقد وإلى اليوم ، لوجدنا أن الاتحاد هو الذى يحرز زمام المبادرة ويسجل نقطة الفوز دائما أو غالبا . يصدق هذا ابتداء من حرب الهند - باكستان في

Heikal, op. cit. p. 191.

(١)

بداية السبعينات وانتصرت فيها الهند ، إلى ظلال حرب فيتنام في كمبوتشيا ولاؤس في آسيا ، ومن أنجولا إلى موزمبيق في أفريقيا الجنوبية . وفي القرن الأفريقي فإن الاتحاد وإن خسر الصومال للولايات بعد ارتباط طويل ، فإنه انتزع منها بعد ارتباط أطول إثيوبيا التي تفوق الصومال وزنا وأهمية بكثير.

غير أنه هو الشرق الأوسط بالذات الذي سجل فيه الاتحاد أخطر نقطة . فعدا الوجود السوفيتي السابق في بعض دوله العربية كتحالقات أو علاقات صداقة وثيقة أو قواعد بحرية ، خاصة في ليبيا وعدن وسوريا والعراق ، فإنه وصل في عملية أفغانستان إلى حد الغزو الكامل ، وذلك أيضا في الوقت نفسه الذي أخرجت الولايات من إيران المجاورة .

وفي المحصلة ، بالمناسبة ، حدث نوع من تبادل المواقع أو الأدوار بين العملاقين في هذا الجزء الكبير والخطير من العالم . فقبل حرب أكتوبر كان السوفيت في العالم العربي أساسا ، والغرب في أفريقيا خصوصا . ولكن بعد الحرب حدث العكس : خرج السوفيت من العالم العربي كثيرا ، ودخلوا أفريقيا أكثر . ولا يعني هذا بالطبع استقطاب أفريقيا بين شمال غربي (أعني أمريكي) وجنوب شرقي (أي سوفيتي) ، ولكنه قد يوحي بانطباع جزئي طفيف وربما بمؤشرات مستقبلية محدودة في ذلك الاتجاه .

سر الانقلاب

ذلك في خطوطه العريضة هو سجل الصراع وحصاد الوفاق . والسؤال الكبير هو : كيف ولماذا حدث هذا الانقلاب الاستراتيجي الجسم بين العملاقين ، وما مداه ومغزاه ؟ حسنا ، في الوقت نفسه الذي نشأت فيه للولايات المتحدة عقدة فيتنام وتضخمت حتى شلت حركتها كثيرا ، تحرر الاتحاد السوفيتي من عقدة الحرب المحدودة التي شلت حركته من قبل في ظل التعايش السلمي ، وذلك حين تبني استراتيجية الرد المرن والحرب التقليدية بعد أن استكمل استعداداته لها استراتيجيا بالأساطيل البحرية وفرسان الجو... الخ . وتلك في ذاتها مصادفة تاريخية خارقة ، ولكنها بحمد ذاتها أحد أخطر ضوابط الوفاق ومحددات مساره .

فلأول مرة منذ ربع قرن ينحسر المد الأمريكي حول العالم ويتحول إلى جزر حقيقي خشية التورط في فيتنام أخرى ، في حين يعلو المد السوفيتي هنا وهناك خاصة في أفريقيا وآسيا والكاربي... الخ . ولأول مرة اختل توازن القوى العالمية عسكريا وسياسيا لصالح

السوفيت منذ انتهاء الحرب الثانية . ولأول مرة وباعتراف الجميع أصبح الاتحاد على جانب الهجوم على امتداد الساحة الدولية سياسيا وغير سياسى ، والولايات على الدفاع . ولأول مرة منذ ظهور الثنائية القطبية لم تعد صحيحة بالضرورة نظرية « من مع أمريكا يكسب » أو « من معه أمريكا يكسب » ولا النظرية المقابلة « من مع السوفيت يخسر » أو « من معه السوفيت يخسر » . ولأول مرة ، وبالأخص منذ الثمانينات ، تصبح « أزمة القوة الأمريكية » قضية شبه يومية مطروحة فى الصحافة ووسائل الاعلام والمعاهد العلمية والاستراتيجية الأمريكية ، بينما تعترف الادارة نفسها على كل مستوياتها وتردد بلا انقطاع ولا موارد تراجع القوة الأمريكية النووية والتقليدية وتفوق القوة السوفيتية المحقق .

ولأول مرة ، أخيرا وليس آخرا ، يصبح كل هم الاستراتيجية العظمى لأمريكا هو استعادة التوازن الاستراتيجى والتصدى للتفوق والخطر والزحف السوفيتى أو الشيوعى عالميا واقليميا ومحليا ، حتى باتت تخضع كل اهتماماتها وموقفها فى الصراعات الاقليمية لهذا الضابط الحاكم وحده ، بصورة تنذر بالعودة بالعالم إلى سياسة المواجهة والمواجهة والتطويق والتصادم وتكاد تذكر بالستينات أو السبعينات ، بل وذلك إلى الحد الذى عاد معه حلفاؤها الأوروبيون كما رأينا يشدون فى الاتجاه المضاد وينشدون السلام ويضغطون عليها بقوة من أجله - ولكن بلا جدوى فيما يبدو .

وهنا ، عند هذه النقطة ، لا يمكن لأحد التنبؤ علميا بما سيكون عليه شكل أو مسار الثمانينات الاستراتيجية : أياكون امتدادا للسبعينات أى للوفاق ، أم انقلابا عليه وارتدادا إلى الستينات ، أم صيغة أخرى فى ضمير الاستراتيجية لم تزل . لنرجئ القضية ريثما نطل إطلالة فاحصة على رحلة الصغار بعد أن تابعنا رحلة الكبار .

الفصل الرابع عشر

استراتيجية عدم الانحياز

كأول نبت للمناخ السياسى الجديد فى عالم مابعد التحرير والذرة ، كان لعدم الانحياز بالضرورة والامتياز فعل الزناد أو الشرارة بما أطلق بعده من انعكاسات تتابعت من الوحدة الأوربية إلى الوفاق . غير أن عدم الانحياز منذ النشأه إلى اليوم مر فى مرحلتين مختلفتين جذريا من الصعود والارتقاء والارتفاع ثم من الانحدار والانضاع وربما الضياع . ولهذا يرسم خطه البيانى منحنى قوسيا جرسيا bell-shaped ، له سفح صاعد وآخر هابط ، الفرق بينهما سياسيا كالفرق بين الشباب والشيخوخة تماما أو كالفرق بين عصر وعصر تقريبا . فالجانب الصاعد ، بما فى ذلك عصره الذهبى أو « العصر البطولى beroic age » ، يمتد نحو عقد من أواخر الخمسينات إلى أواخر الستينات ، بينما يمتد الجانب الآخر من التل من أواخر الستينات مغطيا السبعينات ثم واصلا حتى اليوم ، وفيه تلقى عدم الانحياز أقصى اختباراته وأشدّها مرارة .

وبقدر ما طغت قوته المعنوية على الصورة النظرية فى المرحلة الأولى ، مما فتح الباب لكثير من الحساس المسرف المفرط والعاطفية غير الموضوعية ، بقدر ما انقلبت الصورة فى المرحلة الثانية حتى طغت عليها جوانب ضعفه من الناحية التطبيقية ، بل وإلى حد فتح الباب للاغراق والاستغراق فى الانهزامية اليائسة والمراجعة البائسة بل والتراجع المضطرب أحيانا . من ثم فنحن هنا ، أكثر من أى شىء آخر ، بحاجة إلى النظرة العلمية السوية التى تميز بين النظرية والتطبيق ، بين التحليل الأكاديمى المتفائل والتجربة الواقعية بعنفوانها .

مرحلة الصعود

فإذا بدأنا من البداية ، فلقد أعطت ثورة التحرير نسلا ضخما من الدول الجديدة

الصغيرة النامية التي تفتتح على خضم السياسة العالمية ودوامته كوحدات مستقلة لأول مرة منذ عقود وأحيانا منذ قرون . بل إن كثيرا منها لم يعرف شكل الدولة الوطنية الحديثة قبل الاستعمار إطلاقا ، وأكثرها لم يكن يعرف العالم الخارجى إلا عن طريق طاقة ضيقة احتكارية محكمة هي دولة المتربول الاستعمارية . ولما كانت الدول الاستعمارية ترسم لهذه المستعمرات - كتوابع صماء - توجيهها الخارجى وتقله فى تيارات بعينها ، فلقد كان هذا التوجيه السياسى يرسم فى النهاية نمطا طاردا مركزيا centrifugal تتباعد به المستعمرات ، وتعطى ظهرها لبعضها البعض فى الوقت الذى تقرب قسرا من المتربول .

ولهذا فإن مرحلة ما بعد التحرير كانت بالضرورة مرحلة صناعة السياسة الخارجية الجديدة ، تحاول فيها أن تتلمس طريقها بحذر وأن تتحرك بأمان فى غاب السياسة العالمية وأدغالها ، معسكراتها وكتلها . ومنذ البداية وجدت الدول المتحررة نفسها تخضع لضغوط عنيفة فجأة أحيانا أو انسيابية ولكنها خطيرة أحيانا أخرى تحاول أن تتجاذبها أو أن تأسرها فى فلكها . ولم تكن هذه الضغوط لتخرج فى جملتها وفى التحليل الأخير عن مناورات الحرب الباردة ومغناطيسية الاستقطاب الثنائى .

ومنذ البداية أيضا وجدت هذه الدول الصاعدة الرد فى « الحياء الإيجابى وعدم الانحياز » ، وأخذت تتجاذب وتستقطب فى طريقه حتى أصبح هذا نمطا جاذبا مركزيا centripetal يجمع بينها بعد أن كانت فى ظل الاستعمار شتىنا شعاعا ونمطا طاردا مركزيا ، وحتى أصبحت جبهة عدم الانحياز تمثل عالما قائما بذاته هو العالم الثالث .

ضغوط الغرب

وبدبى أن تأتى الضغوط الخطيرة حقا على الدول الوليدة النامية من جانب القوى الاستعمارية السابقة : أولا بحكم القصور الدائى للاستعمار والتقليد الإمبريالى ، وثانيا لضمها أو ابتلاعها فى صفها فى الحرب الباردة وحرب الكتل المذهبية . فأما عن العامل الأول ، فإن القوى الاستعمارية القديمة إذا كانت قد أرعمت على الخروج فهى لم تغير بعد من عقليتها الاستغلالية وعقدة السيطرة والتحكم .

والواقع أنها لم تخرج أصلا إلا لتعود ، وإنما عودة المحتال الذكى لا اللص الغبى هذه المرة ، ولم تنحن لموجة التحرير إلا لتركبها ، وبذلك تدور حول روح العصر دون أن تصطدم به . والشعارات التكتيكية التى رفعها الاستعمار فى تلك المرحلة هى وحدها دليل يكشف كل استراتيجيتها : ارحل لتبقى Quit to stay ، الاستقلال داخل الترابط

Independence within interdependence ، حلب البقرة دون ملكيتها .. الخ .

وجماع هذا ومحصلته هو ما أصبح يعرف بجدارة « بالاستعمار الجديد » . ومحور ارتكازه أن يغير الشكل دون الموضوع ، والاطار لا الصورة . فهو أولا استعمار خبيء غير سافر ولا مباشر ، اقتصادى لا سياسى ، يعتمد على تفتيت الدول المتحررة لا تبعيتها ، وامتصاصها لا امتلاكها ، وأدواته الشركات والاحتكارات لا الجيوش والغزوات . وإذا كان الاستعمار القديم « يعطى الإنجيل ويأخذ الأرض » ، فإن هذا الجديد يعطى الاستقلال ويأخذ المحصول . وهو بذلك يستبدل بالاستعمار السياسى الاستعمار الاقتصادى ، ويتبنى النمط اليانكى فى أمريكا اللاتينية بدلا من النمط الإنجليزى فى أفريقيا . إنه باختصار أذكى - بعد أعلى - مراحل الإمبريالية .

أما عن مناورات الدول الاستعمارية لاستدراج الدول المتحررة إلى جانبها فى الحرب الباردة والصراع الكلى ، فقد أخذت شكلا عنيفا مكشوبا . فلم يكن كسب العالم الثالث أوثلث العالم فى هذا الجانب أو ذاك بالأمر الذى يمكن التقليل من خطورته فى تحديد نتيجة الصراع العالمى^(١) . ولهذا استأنت الكتلة الاستعمارية الغربية فى محاولة ضم العالم الثالث ، عالم الدول النامية الفقيرة حديثة الاستقلال ، إلى صفها وإبتلاعه فى فلكها السياسى والمذهبى ، حتى وإن وصل الضغط والاكراه إلى حد العنف والقهر . وفى هذا السبيل استهدف الغرب هدفين : الاستراتيجية والأيدولوجية ، واتخذ أداتين : الأحلاف العسكرية والنموذج الرأسمالى .

الاستراتيجية والأحلاف

فأما الاستراتيجية والأحلاف فقد مرت منذ نهاية الحرب الثانية وفى الخمسينات بفترة محمومة - أكاد أقول مسعورة - حشد المعسكر الغربى فيها كل ضغوطه أولا على العالم العربى ، وثانيا على آسيا الموسمية ، ثم فى النهاية على أفريقيا المدارية ، لكى يربطها بسلسلة من الأحلاف التى يصفها « بالدفاعية » موجهة ضد المعسكر الشرقى وما نعتة « بالخطر الشيوعى » على « العالم الحر » .

وكان منطق الغرب فى هذه الحملة هو أنه مع التحرير قد أصبحت هذه المناطق بلا قوة حرية تواجه ذلك الخطر ، أصبحت يعنى « فراغا » من وجهة نظره ، وادعى

(١) مورجنتاو .

أن ملأه من واجبه . تلك كانت - في الشرق الأوسط مثلا - « نظرية أيزنهاور » نظرية الفراغ ، أما تطبيقها فكان مشروع حلف الشرق الأوسط (الميدو Medo) ثم حلف بغداد أو الحلف المركزى فيما بعد (الستو Cento) فضلا عن الحلف الإسلامى الفضفاض ، وهكذا بقية السلسلة حتى الشرق الأقصى وحلف جنوب شرق آسيا (السيتو Ceato) . ولقد وصلت الضغوط من أجل هذه السياسة إلى أقصاها فى منطقة العالم العربى بالذات بحكم خطورة موقعها الاستراتيجى ومواردها البترولية بينما كانت أقلها نسبيا فى أفريقيا المدارية لتطرفها .

ومن نقطة الضغط الأقصى هذه ، وبالذات من نواتها النووية مصر ، تفجر رد الفعل البكر أصيلا وبتارا . فقد عدت المنطقة أحلاف الغرب « استعمارا جماعيا أو دوليا مقنعا » لجأ إليه كبديل للاستعمار الفردى القديم فى آخر مرحلة من مراحل شيخوخته وعجزه وانهيائه ، وأعلنت رفضها للتبعية الجديدة التى تضعها فى مناطق النفوذ وتربطها بعجلة الاستعمار وبكتلة رجعية عدوانية . ورفضت المنطقة مبدأ الفراغ فإن قوتها الذاتية هى جديرة بأن تملأه . كما نبذت التلويح بالخطر الشيوعى البعيد الموهوم ، فى حين يجرم خطر الاستعمار - بما فى ذلك الإسرائيلى أساسا - على أنفاسها أو تطاردها أشباحه .

وفى وجه هذه المقاومة النضالية الثورية ، سقطت سياسة الأحلاف الغربية فى المنطقة وأصبح العالم العربى يمثل الحلقة المفقودة فى استراتيجية التطويق والاحتواء . لقد رسمت مؤشرات المستقبل وتحددت بوصلة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز .. وإن هى إلا سلسلة من الأفعال وردود الأفعال حتى كان هذا النموذج الحياذى ينتشر فى أرجاء العالم الثالث ويصبح دستور التوجيه السياسى للدول المنحرة حديثة الاستقلال . ومن هنا أتى الحياد الإيجابى وعدم الانحياز الابن الشرعى لثورة التحرير والعدو الطبيعى للاستعمار والإمبريالية .

الايديولوجية والنموذج

ومثل هذا عن الايديولوجية والنظم الاجتماعية يقال . فقد انطلق المعسكر الغربى الرأسمالى ليعرض نموذج المدهي على العالم الثالث المنحر الذى عاش عمره الاستعمارى فى ظل اقتصاد رأسمالى أو إقطاعى . وفى هذا السبيل حاول أن يستغل وجوده السابق ، وعلاقاته الاقتصادية الاحتكارية مع دوله الجديدة ، وكان منطقيا أن تفشل خطته

ودعايته ، لأن هذه الدول وجدت أن نكبتها الاستعمارية الزمته إنما بدأت أصلا كجزء من النظام الرأسمالى ، وأن الرأسمالية الاستعمارية هى وحدها التى نزحت مواردها واستنزفت إنتاجها وثروتها .

ومن ناحية أخرى فلقد وجدت هذه الدول فى تخلفها الرهيب أن عليها أن تقطع شوطا شاقا لتعوض به الماضى ، وأن عشوائية وانتهازية الاقتصاد الحر وأناركية المذهب الليبرالى الفردى لا يمكن إلا أن تكون معوقا خطيرا فى هذا السبيل ، وبغير الاقتصاد الموجه والتخطيط الرشيد سترداد تخلفا على تخلف . وفى نفس الوقت كان أمامها نموذج دول الكتلة الشرقية وخاصة الاتحاد والصين التى ثورت اقتصادها وكيانها بمعدل العاصفة وإلى مدى يكاد يتعدى حدود الخيال إذا قيس بمدة التجربة .

ثم هى كانت تتلفت حولها فتجد ، على سبيل المثال ، معدل نمو الاقتصاد فى الاتحاد السوفييتى ضعف معدل الولايات المتحدة ، وأن معدل نمو الانتاج الصناعى فى الكتلة الشيوعية ثلاثة أضعافه فى الكتلة الرأسمالية . كذلك كانت تنظر إلى الخلف قليلا فترى أن ظروفها تشبه بدرجة أو بأخرى ظروف روسيا ١٩١٧ أو الصين ١٩٤٩ أو كوريا ١٩٥٩ (١) . ومن هنا كانت حتمية الحل الاشتراكى بالنسبة للدول المتحررة النامية . وإذا كان بعض الاقتصاديين مثل هايلبرونر يرى أن أخطر حقيقة فى عصرنا هى اتجاه العالم المتزايد نحو جماعية الاقتصاد collectivization أو تشريكه socialisation ، فإن الدول المتحررة تؤكد هذا الاتجاه بكل قوة (٢) .

بيد أنها إذا كانت قد نبذت الطريق الرأسمالى أساسا ، فهى فى الأعم الأغلب لم تكن على استعداد لأن تحتذى النموذج الشرقى فى صورته الشيوعية ، بل أثرت طريقا اشتراكيا وسطا معتدلا لا ينجح إلى أقصى اليسار . وفى رأى البعض أن هذا الطريق الوسط يتمثل فى الجمع بين قطاع عام قائد وسائد وقطاع خاص ثانوى ، وأن هذه الوصفة الاقتصادية هى بمعنى ما التعبير الاجتماعى عن عدم الانحياز كمبدأ وكفكرة . وأيا كانت صحة هذا التأويل ، فليس من الصدفة بالتأكيد أن السواد الأعظم من دول العالم الثالث تبنت الفلسفة الاشتراكية المتزنة ، ولا تكاد دولة جديدة تتحرر حتى تعلن الأخذ بهذه الأيديولوجية . وهكذا ازدوجت الثورة الوطنية بثورة اجتماعية ، وارتبط

R. Heilbroner, The Future as History, N.Y., 1960, p. 88.

(١)

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٣ .

تحرير الوطن بتحرير المواطن ، وأصبحت الثورة الثنائية قانون البلاد المنحرة تقريبا .
خذ مثلا نمو الحركة وتوسعها على المستوى العددي والجغرافي كما تمثلت في مؤتمراتها
العديدة عبر العقود الأخيرة . ففي مؤتمرات باندونج وبلغراد حوالى منتصف الخمسينات
بلغ عدد الدول المشتركة حوالى ٢٥ دولة . وحوالى مطلع السبعينات كان العدد قد
تضاعف أو أكثر من تضاعف حيث تراوح حول ٥٠ - ٦٠ دولة . ولم تأت مطالع
الثمانينات حتى كان العدد قد قفز إلى علامة ال ٧٥ دولة . أى أن عدد المشتركين قد
تضاعف ثلاثة الأمثال فى نحو ربع قرن من ١٩٥٥ إلى ١٩٨٠ . وفى آخر المؤتمرات ارتفع
عدد المشتركين إلى ٨٦ دولة . وهذا الرقم القياسى الأخير الذى سجلته الحركة يضم على
الأقل نحو ١٠٠٠ - ١٥٠٠ مليون نسمة تمثل ثلث سكان العالم تقريبا وتغطي القارات
الجنوبية الثلاث مع قطاع أوربي كالماس . لقد أصبح العالم الثالث ثلث العالم إلى نصفه
ربما^(١) .

هكذا فى الاستراتيجية السياسية وفى الأيدولوجية الاقتصادية ، تبلورت للدول
المنحرة خطوط جديدة أصيلة ترفض أحلاف الغرب ونظمه مثلما ترفض حذافير نموذج
الشرق ، وترسم لنفسها طريقا جديدة - الطريق الثالثة - لا غربية ولا شرقية ، وإنما
تنبع من طبيعة ظروفها ومرحلة تطورها وتتواءم مع مفهومها ومثلها فى التحرر وعدم
التبعية . وهكذا تحددت معالم الحياض الإيجابية وعدم الانحياز كخط يضمن للدول النامية
استقلالها وسلامتها فى عالم الكتل ويؤمن تنميتها وتطورها خارج عالم التخلف .

ولسنا بحاجة أن نقرر أن مثل هذا الاختيار لم يكن بالأمر اليسير لا داخليا
ولا خارجيا ، لا غربيا ولا شرقيا . فقد حاربه المعسكر الرأسمالى علنا وبكل عنف
وضراوة ، فلسفيا واقتصاديا بل وعسكريا ، بينما لم يتقبله الشرق إلا بنصف قلب على
الأكثر ، ثم فيما بعد حاول كلاهما أن يستدرجه ويستميله إلى صفه أو أن يستغله ويخترقه
لحسابه .

فأما الموقف الأمريكى فغنى عن التذكير : « من ليس معنا فهو ضدنا » ، ومن ثم
فإن عدم الانحياز - إيجاب أو لا إيجاب - « لا أخلاقى » كما وصمه دلز ، الذى خرج
بكل جبروته وعتوه « ليقصص حجمه » . ولم يكن هذا الموقف ليخرج فى حقيقة عن

(١) عزيز شكرى ، ص ٨٩ .

نظرية أن عدم الانحياز إنما هو « حلف الضعفاء » إن لم يكن حقا « حلف الرقيق المحرر » (كذا !) .

أما اقتصاديا فقد استعمل كل أسلحته ، الحصار والخنق والضغط والتجويع ، حتى إذا ما استنفدت هذه أغراضها وصل بالفعل إلى مرحلة العدوان المسلح كما حدث في مصر حيث بدأ التحدى الجديد ورفع النموذج الثورى ، فحاول الاستعمار الغربى أن يجهض الأم ويند الوليد ويجعل من المثل أمثلة تردع بقية الدول الجديدة .

ولهذا فإن هذه المعركة نقطة تحول خطيرة جدا في تاريخ العالم الثالث ، وهى في تقديرنا تحدد ميلاد عدم الانحياز نهائيا وبنجاح ، وبعدها فتح الباب على مصراعيه ليصبح عدم الانحياز والعالم الثالث مرادفين أو شبه مرادفين . وفى المدى التدريجى ، فرض الخط الجديد نفسه فرضا على الغرب الذى لم يملك فى النهاية إلا أن يعترف به ويتعامل معه كحقيقة صلبة وأمر واقع ليس له من دافع .

موقف الشرق

أما من جانب المعسكر الشرقى فهو لا شك قد بدأ علاقته مع العالم الثالث برصيد لا بأس به من الحياء المبدئى أو على الأقل من انعدام الروح العدائية . فرغم كل ما فعلته دعاية الغرب لجعل منه خطرا مخيفا فى أذهان الدول النامية والمتخلفة ، فن الواضح أنه كان يرجح عندها الغرب فى نقطتين : أنه لا تاريخ استعمارى له معها ، وأنه بلا تجربة عنصرية ولا عقدة لونية بينها .

غير أن الاستعمار الغربى يعود فيحاول فى هذا الصدد أن يدس إسفينا بين الشرق والعالم الثالث ، فيرد على النقطة الأولى بأن الاتحاد السوفيتى مارس الاستعمار الأرضى المتصل وإن منعه جغرافيته من ممارسة الاستعمار المدارى عبر البحار . ويرد على النقطة الثانية بأنه يدعى مثل المساواة العنصرية ولا يمارس التفرقة العنصرية لا لشيء سوى أن تجربته اقتصرت على الاحتكاك بالعناصر الصفراء وخلت من الاحتكاك بالجنس الأسود الذى هو المحك الحقيقى للتفرقة^(١) . ولكن العالم الثالث لم يكن ليخدع ، وعرف كيف يختار مواقعه الطبيعية من حيث المبدأ من الأعداء وغير الأعداء .

(١) فترجرالد ، ص ١٨٥ .

فى النظرية

وفى هذه العلاقة ينبغى أن نقرر موضوعيا أن موقف المعسكر الشرقى من طريق العالم الثالث تأرجح مرحليا بين اتجاهين تغلب أحدهما فى النهاية ليصبح هو السياسة الرسمية له . فمن الناحية النظرية كانت الشيوعية تفترض وتتوقع أن الثورة العالمية ستم على أيدى بروليتارية الدول الاستعمارية فى غرب أوربا ، ولم تكن تنتظر للمستعمرات دورا مرموقا أو غير مرموق فيها . وبالمقابل ، فلقد تنبأ لينين باستقلال المستعمرات وتحولها إلى قوة عالمية فى مصائر العالم ، وأضاف أنها ستعتمد فى ذلك على الروس والشرق . أما ما حدث بالفعل فهو أن النبوءة الأخيرة هى - للغربة أو الصدفة - التى تحققت ، بينما حدث العكس فى حالة النظرية الأولى . فلقد أصبح الغرب زقاقا شبه مسدود للاشتراكية ، بينما لم تسجل الاشتراكية أعظم وأخطر توسع كاسح لها فى النصف الثانى من القرن العشرين إلا فى المستعمرات السابقة ، المتحررة الآن .

وتلك لا شك كانت وثبة طافرة مطلوبة وطفرة ترحب بها الكتلة الشيوعية باعتبارها على أقل تقدير ابتعادا عن الطريق الرأسمالى الغربى وحرمانا حقيقيا للمعسكر المضاد من أرض سابقة . ومن هذه الزاوية تقدم الشرق سريعا لمساندة قوى التحرر الجديدة فى وجه التريصات الاستعمارية الغربية ، وكانت قمة التعاون هى استجابته لكسر احتكار السلاح بصفقة الأسلحة المصرية الشهيرة التى لا جدال كانت المحك الفاصل فى اختبار القوة بين التحرر والحياد من جهة وبين الاستعمار والتبعية من جهة أخرى .

إلا أن هذا الانفجار الاشتراكى فى نفس الوقت لم يكن فى نظر الماركسية اللينينية هو كل الطريق ولا نهاية المطاف . بل لعله إلى حد بعيد يقطع الطريق على الشكل الراديكالى للشيوعية ويسلبه إمكانياته ويقطع عليه خط الثورة اليسارية المطلقة . غير أن الكتلة عادت - ليس قبل مساجلات حادة واختبارات قوة مع قيادة الخط الجديد - فاتخذت موقفا واقعيا واعترفت به بغير مزايدات أو مساومات . وعلى أية حال فإن الكتلة الشرقية حتى الآن لا تقبل تسمية نظم دول العالم الثالث الجديدة بالاشتراكية ، بل تسميها أحيانا بالطريق غير الرأسمالى ، أو تعتبرها على الأكثر مرحلة انتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، وتفضل دائما أن تشير إلى أصحابها كثورة التحرير الوطنى .

فى التطبيق

هكذا ، وعلى خلاف الموقف الراديكالى الغربى أو الصليبي الأمريكى ، تبنى الاتحاد

السوفيتي على الجانب المضاد موقفا متميعا على الجملة يتراوح بين الريبة والعداء وبين محاولة الصداقة والاحتواء مع توجيهه وفلسفته ماركسيا^(١). فن جهة « من ليس ضدنا فهو معنا » ، ولكن في الوقت نفسه فإن « من يقف وسط الطريق تدهمه العربات » ، وعدم الانحياز إن لم يكن « خرافة وهراء »^(٢) فإنه « كالسير على حبل مشدود »^(٣) ، ومن ثم « لا ففرى » . وفيما عدا هذا فإن من المعروف أن الصين تنهم الاتحاد باستمرار بأنه يعمل على تقويض عدم الانحياز « والهيمنة » عليه .

ولما كان عدم الانحياز في الأصل والأساس حركة ضد استعمار الغرب القديم أو بعيدا عنه ، فقد قدم الشرق الذي لا تاريخ استعماري له خارج حدوده نظرية سهلة براءة مؤداها أنه هو الأقرب تلقائيا إلى عدم الانحياز وأنه الحليف الطبيعي له . وبالمقابل ، رد الغرب بأن في عدم الانحياز إذن « انحيازاً » طبيعيا ومسبقا إلى الشرق وضد الغرب . بل واتهمه بعد ذلك بأنه « مخلب قط للشوعية أو للشرق »^(٤) . هذا في حين لم يكف عدم الانحياز من جانبه عن تأكيد استقلاله إيديولوجيا عن المعسكرين كليهما والإصرار على أنه يقف على الحياد وسطا بينهما ، لا مع ولا ضد أى من الكتلتين على حدة أو كليهما معا^(٥) . والحقيقة ، كما أثبتنا الواقع ، هى أنه إذا كان لابد من المفاضلة والتمييز بين الكتلتين على أساس الصداقة والعداء ، فلعلنا من أسف أن نقول إن الشرق كان الصديق - العدو والغرب العدو - الصديق ...

وعلى الجملة ، فإذا نحن رمزنا إلى العالم الأول والثاني والثالث بالأرقام ١ ، ٢ ، ٣ على التوالي ، فإن عدم الانحياز يتمثل مثاليا في المعادلة ١ - ٣ - ٢ ، بمعنى أن العالم الثالث يقع أو يقف على بعد متساو من كل من العالمين الأول والثاني . غير أنه في الواقع كان متبها من قبل الغرب في الستينات بأنه يتبع المعادلة $2 + 3 = 1$ ، بمعنى أن العالم الثالث كان منضمًا إلى الثاني ضد الأول . وبالمقابل فإن عدم الانحياز أصبح متبها من قبل الشرق في السبعينات بأنه ارتد إلى المعادلة $1 + 3 = 2$. أى أنه انتقل إلى جوار العالم الأول ضد الثاني .

(١) أحمد صدق الدجاني ، عبد الناصر والثورة العربية ، ١٩٧٣ ، ص ١٧٨ ، ١٩٧ .

(٢) Heikal, p. 81.

(٣) الدجاني ، ص ٢٠٢ .

(٤) Heikal, p. 69.

(٥) الدجاني ، ص ١٩٢ .

ومهما يكن الأمر ، فهكذا نجد في الخلاصة أن رحلة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز لم تكن نزهة سياسية ، بل جاءت على جسر رهيف كالصراط من الصراع ، ويقدر ما لقيت من معوقات داخلية ، بقدر ما تعرضت للشد والجذب والوعد والوعيد خارجيا ، وكما عبرت ثورات داخلية متعددة خاضت معارك خارجية ضارية من اليمين واليسار على السواء ، ولم تشق طريقها إلا بعد أن فرضت نفسها فرضا على العالم ، عالم الكتل . ولكنها في هذا أفادت إلى أقصى حد من مساعدة ومساندة المعسكر الشرق أدبيا وماديا لتقف في وجه أخطار المعسكر الغربى وتهديداته ، دون أن تقدم أى تنازلات أو مساومات للأول مع ذلك .

وبمعنى آخر فقد أفادت استراتيجية عدم الانحياز بالقطع من الحرب الباردة ، ولكنها نجحت في ألا تصبح جزءا من تلك الحرب . بل لقد بدا للبعض في حين ما أن مجموعة عدم الانحياز ، بقدرتها على الحركة الحرة الإيجابية وسط الشلل الذى فرضه التوازن الذرى على الكتلتين ، كانت هى ، بمفارقة عجيبة ولكنها مفهومة ، تكاد توجه سياسة العالم وتحركها أو تتحكم فيها إلى حد بعيد ، وذلك - كما يشبهون - على غرار ما يفعل حزب صغير مثلا كالأحرار في بريطانيا (أو على مستوى محلى أصغر الماورى في نيوزيلند !) حين تتعادل كفتا الحزبين الكبيرين العمال والمحافظين .

النمط الجديد

التطور التاريخي

آن لنا الآن أن نتساءل : ما مغزى ظهور عدم الانحياز في عالمنا المعاصر ، وكيف يعدل من نمط القوى السياسية الكبرى ؟ وما هى خريطة الاستراتيجية العالمية اليوم في نظرة كلية كوكبية ؟ لعل أعمق وأخطر معنى يبرزه عدم الانحياز هو أنه قد أضاف بعدا ثالثا إلى الكتلتين الكبيرتين المعروفتين ، وبذلك حول ويحول أبعاد العالم من ثنائية إلى ثلاثية واضحة المعالم ، وهذه حقيقة كبرى من حقائق العصر تتضح بجلال إذا نحن حللنا أصول كل من هذه الأبعاد الثلاثة على الترتيب .

مرحلة احتكار القوة

فحتى نهاية القرن التاسع عشر كان الاستعمار الأوربي يسيطر ، كما رأينا ، على أغلب أجزاء العالم ويفرض عليه بالقهر نظاما سياسيا واحدا مغلقا من صنعه ، وكان ذلك إلى

أبعد مدى عصر « احتكار القوة » . ورغم الصراعات الدموية بين قوى الاستعمار من أجل هذه السيطرة والاحتكار ، كان الغرب المستعمر يستشعر في النهاية نوعا من الوحدة في مواجهة بقية العالم المستعمر ، وفي ظل هذه الدائرة المغلقة كان الاستعمار طليقا يعربد في العالم دون رادع أو قوة مكافئة تعمل على توازن القوى فيه .

وإلى حد كبير ، كانت الثورة الفرنسية ترمز إلى ، وتحدد بداية ، هذا النظام الاستعماري العالمي . فهي كثورة قومية ، لم تكن تستهدف « الحرية والإخاء والمساواة » إلا للوطن القومي أولا والوطن الأوربي ثانيا ، وذلك رغم أن أوربا الرجعية تكالبت عليها في البداية لتثدها ، بيد أن المهم أنها لم تكن تقصد أن تصدر هذه المبادئ إلى خارج الدائرة الأوربية وإنما العكس هو الصحيح : ثورة بورجوازية تشرع الاستعمار في الخارج وتسعى إليه . وعلى هذا فإن الغرب الأوربي الرأسمالي البورجوازي يستعمر في الخارج باسم الثورة القومية في الداخل ، وهو استعمار سياسي اقتصادي سافر ، وهو استعمار القراصنة بلا موارد ، وهو مهندس الإمبراطوريات الإمبريالية ، والهدف في النهاية أن يصل إلى احتكار القوة في العالم ويجعل منه نظاما سياسيا كوكبيا واحدا .

مرحلة الاحتكار الثنائي

ومع الثورة الشيوعية في روسيا تبدأ المرحلة الثانية لتكسر احتكار القوة العالمي وتنصفه إلى احتكار ثنائي . وقد جاءت هذه ثورة على البورجوازية الرأسمالية أي ثورة على الثورة الفرنسية إن صح التعبير ، فهي ليست ثورة قومية ولكنها أساسا تنشد أن تكون عالمية وتعمل ما وسعها ، بعكس الثورة الفرنسية ، على تصديرها إلى الخارج . وهي بعكس الثورة الفرنسية لا ترى القومية ولكن الطبقة ، فتكر القومية وتستنكر القوميات ولا تعترف بوحدة إلا وحدة الطبقة ، والطبقة العاملة البروليتارية .

وكما تعرضت الثورة الفرنسية مؤقتا لتألب أوربا الاقطاعية ، فقد تعرضت هذه الثورة لعداء الغرب الرأسمالي ولكن إلى أعنى حد وإلى آخر المدى لأنها تنقض وجوده وكيانه من صميمه . وسواء صح الاتهام أو لم يصح ، فإن الغرب يتهم الشرق بأنه باسم الثورة اللاقومية يستعمر : ليس كاستعماره السياسي السافر ولكن - هكذا يقول - استعمارا أيديولوجيا مقنعا ، ليس كاستعماره استعمار القراصنة ولكن « استعمار الرفاق » ، ولا يبنى الإمبراطوريات الإمبريالية ولكن « الإمبراطوريات الطبقة » أو « الإمبراطوريات البروليتارية » .

وأيا ما كان ، فليس يعنينا هنا هذا الاتهام ، ولكن الذى يهمنا هو أن هذه الثورة النقيضة قد خلقت لنفسها مجالا ضخما وكتلة عظمى . وهى قد استطاعت أن تظهر وتثبت - بجانب قوتها الذاتية المتعاطمة - بفضل الاستفادة المنظمة من المتناقضات العميقة بين دول الغرب ، سواء فى ذلك تناقضاتها الداخلية الطبقية فى كل دولة ، أو تناقضاتها الخارجية الاستعمارية فيما بينها أى توازن القوى داخل دائرة الغرب . وأبسط مظهر ودليل فى هذا الصدد أن الاتحاد السوفيتى تحالف مع الغرب ضد ألمانيا النازية حتى هزمت ، وحتى خرج الغرب نفسه مضعضعا وبرزت قوة الاتحاد إلى الصدارة .

وفى النتيجة خرجت الثورة الشيوعية من الحرب وقد أصبحت كتلة عظمى تناظر وتناطح كتلة الغرب الاستعماري . وبهذا انكسر احتكار القوة فى العالم ككل لأول مرة وورثه الاحتكار الثنائى ، وأصبح العالم يتنازعه سياسيا قطبان متنافران ، أصبح العالم كما قد نقول « نصفى كرة » سياسيا بعد أن كان الكوكب كله كرة واحدة مضغوطة مكبوتة .

مرحلة القوة الثلاثية

ثم نصل إلى المرحلة الثالثة والأخيرة مع عدم الانحياز لنشهد الاستقطاب الثنائى يتحول بدوره إلى ثلاثية عريضة ، وليحل محل نصفى الكرة السياسيين مثلث ، لآنقول متساوى الأضلاع ولكنه على أیه حال ذو أضلاع ثلاثة ورؤوس . وكما بدأت كل من القوتين السابقتين بثورة تاريخية ، فكذلك بدأت القوة الثالثة بثورة عارمة هى ثورة التحرير التى تفتتحها وترمز لها وتلخصها « ثورة » ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وكما كان للثورة الروسية نسل كبير من الثورات الأقل قدرا ، فكذلك كان للثورة المصرية سلسلة من ردود الأفعال والثورات فى العالم الثالث وعالم المستعمرات كأنها الموجات الحلقية المتدرجة حول حجر ألقى به فى بركة آسنة .

وتماما كما تعرضت الثورتان الأوليان للمحاصرة والضرب من الخارج ، فقد تعرضت الثورة المصرية للانقضاض المسلح عليها من الغرب الاستعماري الذى كانت هى انتقاضة مباشرة عليه وتحديا لوجوده وكيانه عبر البحار . ولذلك فإن حرب السويس كانت بمثابة حرب التدخل بالنسبة لروسيا السوفيتية ، ومعركة بور سعيد كموقعة فالى بالنسبة لفرنسا الثورة . وكما خرجت الثورتان الأوليان مظفرتين : خرجت الثورة المصرية بدورها مظفرة لترسم سابقة التحرير فى كل المستعمرات ولتضع علامة بدء عدم الانحياز ولتصك شهادة

ميلاد العالم الثالث كقوة جديدة تضاف إلى القوتين القطبيتين القائمتين وتثبت أن أبعاد العالم الجديد ثلاثة لا اثنين .

وتعامة كما استفادت الثورة السوفيتية في البداية ، والكتلة الشيوعية في النهاية ، من التناقضات الداخلية والصراعات المزمعة داخل الكتلة الغربية الرأسمالية ، فكذلك - عدا تفجرها وقواها الذاتية - أفادت الثورة المصرية في البداية ، وثورة التحرير في العالم الثالث في النهاية ، من التناقضات الجذرية بين قوى الغرب والشرق ، سواء في ذلك من مجرد توازن القوى الحرج وانهيار احتكار القوة العالمي القديم ، أو من المناخ المعادى للاستعمار الذى خلقه وجود الكتلة الشرقية ، أو بالمساعدة المباشرة عسكريا بالسلاح وسياسيا بالتأييد أو اقتصاديا بالمعونات والقروض .

غير أنه يبقى في النهاية أن الثورة المصرية وثورة العالم الثالث تختلف عن أى من الثورة السوفيتية وثورة العالم الشيوعى ، والثورة الفرنسية وثورة العالم الرأسمالى . فالأخيرة - ثورة الغرب - ثورة قومية طبقية ، وثورة الشرق ثورة لاقومية لاطبقية ، وثورة العالم الثالث ثورة قومية لاطبقية . ولهذا فإذا كانت ثورة الغرب باسم القومية والطبقية تستعمر ، وكانت ثورة الشرق باسم اللاقومية واللاطبقية تتكتل ، فإن ثورة العالم الثالث بحكم القومية واللاطبقية لاستعمر ولا تتكتل ولكن تتحرر . ومن هنا حرص العالم الثالث وعالم عدم الانحياز على أن يكون قوة - قوة ثالثة - دون أن يتحول إلى كتلة ثالثة لأنه بالتعريف لا ينحاز ، وتكتله في معسكر ينقض جوهر عدم الانحياز .

والناظر في هذه المتابعة التطورية لاشك يروعه تماثل ميكانيكيها المتواترة . فثمة ثورات عالمية كبرى ثلاث هى معا نقط الارتفاع والانقطاع في التاريخ السياسى الحديث كله ، وثمة كتل أو قوى ثلاث خلقتها في النهاية تلك الثورات على التوالى . وكل ثورة وكل قوة منها لا تستقر ولا تتدعم إلا بعد تجربة نضالية مريرة مع القوى الخارجية . ولكن كلا من القوتين الأخيرتين الشرق والعالم الثالث لم تظهر إلا على حساب الأولى الغرب واقتطعت منها بالتدريج جزءا من مجالها ونفوذها ووزنها حتى انكشفت هذه كثيرا وكادت أن تكون اليوم مجرد إسفين في جسم العالم^(١) .

من ثم فإن القوتين الأخيرتين أقرب إلى بعضها موقفا وذلك من حيث إنها تقفان

بالضرورة على حذر من أخطار الكتلة الأولى ، ومن حيث إن مصالحها هي مبادئها بينما أن مبادئ الغرب هي مصالحه . غير أنه بعد هذا تختلف مبادئ كل من الشرق والعالم الثالث ، ومن هذا الاختلاف يستمد الأخير أصالته . وأخيرا فيمكننا أن نرى أن الثورات الثلاث تمثل تاريخيا وأيديولوجيا متتالية هيكلية ديبالكتيكية شديدة الوضوح : فإذا كانت الثورة الفرنسية هي « التقرير » اليميني المتطرف ، فإن الثورة السوفيتية هي « النقيض » اليساري المطلق ، بينما تأتي الثورة المصرية « كالتركيب » المعتدل الأوسط :
thesis, antithesis, synthesis

الصورة الجغرافية

هذا عن الناحية التطورية ، أما من حيث الصورة النهائية الناتجة فلن يكون من الصعب على الناظر إلى نمط مورفولوجية القوة الراهنة في العالم أن يرى فيها امتدادا - وإن يكن معدلا تعديلا جوهريا - لثلاثية ماكيندر الكلاسيكية . أما الذين لا يرون نمطا على الإطلاق في عالم اليوم فإنما هم الذين لا يريدون أن يروا أو يعترفوا بعدم الانحياز وبالعالم الثالث . فهناك - لا يزال - الكتلتان النويتان الغربية والشرقية اللتان ورثتا قوة البحر والبر القديمة ، بينما منطقة الارتطام والالتحام البينية قد ورثتها اليوم قوة عدم الانحياز أو العالم الثالث . ويمكننا أن نقول إن هذا تطور من مفهوم جغرافي بحث للاستراتيجية العالمية إلى مفهوم فني أو حضاري ، وهو تطور منطقي وطبيعي إذا ما تذكرنا أن التكنو استراتيجية قد حلت محل الجيو استراتيجية .

الهيكلة والشكل

ولا شك أن قوة عدم الانحياز تعد بين الكتلتين قوة « بينية » بكل وضوح ، وذلك موقعا ودورا ووظيفة ، مثلما كان سلفها منطقة الارتطام . فأولا ، ليس من محض الصدفة بالتأكيد أن جرثومة الحياض الإيجابية ودعوة عدم الانحياز إنما تنشأ في صميم منطقة الارتطام ومنها تنتشر . بل ليس من الصدفة مطلقا أن أقطاب عدم الانحياز هي ثلاثة من أكثر أجزاء منطقة الارتطام التاريخية حساسية وخطرا : يوغوسلافيا : مصر : الهند ! وكان من الطبيعي جدا أن تنبثق مثل هذه السياسة الأصلية الجديدة من صميم منطق استراتيجيتها الكامنه بحسابها . قد عاشت مهصورة محصورة بين شقي البر والبحر . لقد تحول الموقع الجغرافي إلى موقف سياسي .

ثم إن هذه القوة الثالثة الجديدة « بينية » في فلسفتها ومثلها ومنظورها

الأيدولوجى ، حيث لا تتطرف يمينا أو يسارا ، وتعترف بالقومية وتحارب الاستعمار . كذلك هى إلى حد ما وفى معنى جديد « بينية » بموقعها الجغرافى بين الكتلتين . فرغم أن دول الحياد الإيجابى وعدم الانحياز تمتد على جبهة عريضة مترامية فى القارات الجنوبية منساحة فى نصف الكرة الجنوبي ، وتعدت بذلك كثيرا جدا الحدود الجغرافية لجبهة الارتطام الأمفيبية القديمة ، فإنها فى ظل استراتيجية الفضاء النووية تظل مفتوحة لكل من الكتلتين وفى متناول مداها . وإذا كان توزيعها الجغرافى اليوم قد انساح ولم يعد أمفيبيا ارتطاميا تماما بالمعنى الجيوسراتيجى ، فهى تظل بينية بالمعنى التكنوسراتيجى .

إلى هذا الحد ، لاشك أن قوة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز هى الترجمة الحديثة والتطوير المعدل فى عصر التحرير والفضاء لقوة الارتطام القديمة . فكما كانت منطقتها أصلا منطقة نفوذ الاستعمار ومستعمراته سابقا ، فإنها الآن الشكل الجغرافى الجديد والوريث الجيوبوليتيكي لمنطقة الارتطام القديمة بين قوى البر والبحر . ولكن هذا الاطار الجديد بعينه هو الذى يكسبها دورا جديدا فى العالم ويمنحها وظيفتها ورسالتها الأصلية التى تختلف جوهريا عما ألفت منطقة الارتطام . فكقطب موجب للقوة فى العالم متحرر ونام ، لم يعد هم هذه المنطقة مجرد أن تحافظ على كيانها واستقلالها من أخطار القوى الأخرى كما كان شأن منطقة الارتطام فى الماضى ، ولم يعد من شأنها أن تضاربها ببعضها البعض من موضع الضعف وفى قوقعة العزلة لتضمن بقاءها أو تحصل على مكاسب منها .

الدور والوظيفة

لقد كانت منطقة الارتطام خط خمود سياسى ومنطقة رهو ، ولكن قوة عدم الانحياز اليوم خط استواء سياسى ينشد ويمكن أن يكون غالبا يحل السلام القائم على العدل محل سلام الرعب الذرى . وبهذا فإن مجموعة عدم الانحياز أصبح دورها الإيجابى أن تكون « جيروسكوب » سياسيا يحفظ توازن سفينة العالم وتوازن القوى الكوكبية ويمنع مصير الكرة الأرضية من أن تتقاذفه وتعصف به الكتلتان الدينوصوريتان .

وينبغى أن يكون واضحا أن هذا الدور يختلف عن دور « المرجح » الذى كانت تلعبه بعض القوى الاستعمارية فى توازنات القوى العالمية قديما ، بمعنى أن تنحاز إلى أحد الجانبين المتصارعين^(١) . فهذا بالتحديد ما يقوم عدم الانحياز ضده . وإذا كان ثمة من

(١) مورجنتاو .

الانحياز وحيد متاح ومفتوح أمام عدم الانحياز ، فهو إلى عدم الانحياز وحده ! فإنما الأصل فيه سياسيا أنه تجمع لامعسكر ، وتجمع من أجل السلام لا معسكر من أجل الصراع . إنه ليس كتلة بل قوة ، ليس كتلة ثالثة ولا يستطيع ولا يقدر : وإنما قوة ثالثة ، بالتحديد قوة سلام لا حرب .

بل إنه ليس قوة بقدر ماهو قدوة ، فإنما هو تحالف فقراء العالم وضعفائه ، أى تجمع « الأقارب الفقراء » الذى يمثل عقله لاعضله . إنه ، باختصار وكما عبر أقطابه : « ضمير العالم » ، لسان حاله ، وصمام أمنه : طلق حر من قيود التحيز والتحزب ، غير مغرض وغير ملتزم إلا بالأخلاقيات السياسية ومبادئ التعايش السلمى ، فيه تتعايش المصالح والمبادئ لأول مرة بلا تصادم ولا تعارض ، وبه تتحقق الصيغة الوحيدة للزواج الشرعى السعيد بينهما .

من هنا جميعا فإن وظيفة عدم الانحياز اليوم أن يكون همزة وصل لا حاجز فصل بين الكتلتين ، وأن يمد جسرا عبر الأخدود الغائر بينهما . ودوره إذن هو دور الممر لا دور الخندق ، أو بتشبيه جغرافى دور البرزخ لا دور المضيق . باختصار إن استراتيجية عدم الانحياز الجديد لا تلخص فى منطقة « ارتطام والتحام » وإنما فى « منطقة التثام ووثام » بين الكتلتين تحيل الستار الحديدي إلى ستار حريرى .

مرحلة الانحدار

العوامل الخارجية

دور يونيو

إذا عدت حرب السويس سنة ١٩٥٦ مولد عدم الانحياز ، فإن حرب الأيام الستة ١٩٦٧ كانت الضربة القاصمة الأولى التى تلقاها ، بينما جاء الوفاق فى سنة ١٩٧١ بمثابة الضربة القاضية والأخيرة coup de grâce . بل إن البعض ليذهب إلى حد القول بأن نكسة يونيو لم تكن فقط نكسة لعدم الانحياز ككل ، وإنما كانت مقتله مثلما كانت مقتل ثورة يوليو نفسها . وعلى هذا ينتهزون إلى أن عدم الانحياز كما ولد على يد أو فى حجر ثورة يوليو سنة ١٩٥٦ ، فإنه مات على يدها أو على جثتها فى يونيو ١٩٦٧ . وإذا صح هذا المنطق فرضا أو جدلا ، جزئيا أو كليا ، لكان معناه أن ارتفاع وانحدار عدم الانحياز إنما يتعاصر ويتواكب مع ارتفاع وانحدار مصر (والعرب معها) .

وأيا كانت التحفظات أو الاعتراضات الخاصة أو الجانبية ، التي لا تعيننا هنا في كثير أو قليل ، فإن هذا المنطق يبدو موضوعيا إلى حد بعيد ، لأن مصر كانت من مهندسي عدم الانحياز المؤسسين وفي طليعة عمده وزعمائه . فسواء عدت القاهرة كما ذهب البعض أو الأمم المتحدة كما ذهب البعض الآخر « عاصمة العالم الثالث »^(١) ، فلن ينكر منصف أن مصر خلال الستينات كانت من داخل عدم الانحياز تلعب دورا عالميا شبه قيادي شبه محوري ، أكبر من كل تصور تقليدي ، وأكبر على الأرجح من جرمها المحلي الذاتي ، وأكبر بالتأكيد من كثير من قوى أوربية هامة أبعد تحضرا وتطورا .

وعلى أية حال ، ودون مبالغة شوفينية في دور مصر في حركة عدم الانحياز ، فليس من سبيل إلى الشك في أن نكسة عدم الانحياز بدأت بنكسة يونيو مباشرة وأساسا ، حيث كان لسقوط مصر وقع الصاعقة على العالم الثالث بأسره ، وحيث تظامن الدفع أو الزخم الثوري في العالم وانحسر المد الوطني إلى جزر لا محل لإنكاره عالميا .

والواقع أن عدم الانحياز ، والأصل فيه تاريخيا أنه ابن ونبت الاستقطاب الثنائي والحرب الباردة جزئيا ، الواقع أن قوته كانت دائما تتناسب تناسباً طردياً مع درجة حرارة الحرب الباردة أى مع حدة الصراع بين القطبين والكتلتين ، مثلما سنرى على الفور أنها تتناسب عكسياً مع درجة الوفاق أو زاوية الانفراج^(٢) . فكما رأينا ، ففي غمرة الشلل النووي بين الأقوياء لم يجد عدم الانحياز فرصة الظهور فحسب ، بل وبرز إلى المقدمة ليلعب دورا عالميا أكبر بكثير مما يتناسب مع قوته الذاتية الداخلية ووزنه الطبيعي الحقيقي ، ونعني بذلك دور الحكم أو المرجح بين الكتلتين وبين القطبين ، ومن ثم دور الند لها تقريبا والقوة الثالثة بجانبها نسبيا .

ولعل هذا كان مما أعطى عدم الانحياز نفسه شعورا وهميا نوعا بتضخم الذات والأهمية منذ البداية . ولقد تكشف هذا كله بصورة مأساوية مفاجئة في حرب يونيو ١٩٦٧ القاتلة ، التي لم تكن في جوهرها كما رأينا إلا جزءا لا يتجزأ من مناخ الحرب الباردة ولعبة أو خدعة التعايش السلمي بين الكبار .

Heikal, p. 122.

(١)

Ibid., p. 11, 193-4.

(٢)

الوفاق

على أن الضربة الكبرى لعدم الانحياز إنما جاءت مع الوفاق أو الانفراج بين القطبيين . فكما جاءت الوحدة الأوربية ردا جزئيا على حركة التحرير الوطني في الستينات ، لم يلبث الوفاق أن جاء ردا جزئيا على عدم الانحياز في السبعينيات . إذ لما كانت قوة عدم الانحياز مستمدة إلى حد بعيد من حدة الاستقطاب الثنائي ، فقد جاء الوفاق الثنائي تلقائيا ليسحب الأرض أو البساط من تحت أقدامه إلى حد أو آخر . محاولا بذلك أن يسلبه قوته المكتسبة إن لم يكن مبرر وجوده ذاته . ولا غرابة بعد هذا أن بدا الوفاق للعالم الثالث كما رأينا نوعا من التواطؤ السافر بين القطبيين ، وكاتفاقية يالتا ثانية تستهدف تقسيم العالم الثالث بالتحديد إلى مناطق نفوذ جديدة حيث استهدفت يالتا الأولى اقتسام أوروبا وحدها فقط .

ومن الناحية العملية ، على أية حال ، فلقد جاء الوفاق الثنائي بين القوتين الأعظم في آخريات القرن وعلى المستوى العالمى أشبه شيء بالوفاق الثنائي القديم بين قوى الاستعمار القديم في أوائل القرن على المستوى الاقليمي . فكما أطلق الأخير يد فرنسا في المغرب مقابل إطلاق يد بريطانيا في مصر ، أطلق الوفاق كأمر واقع يد الاتحاد السوفيتي في أفريقيا والعالم الثالث مقابل إطلاق يد الولايات المتحدة في الشرق الأوسط والعالم العربي لاسيما بعد طرد الروس من الجزء الأكبر والأخطر منه ^(١) .

وهكذا من كلا الموقفين على تناقضهما لم يتورع القطبان عن سياسة استقطاب أو اختراق مجموعة عدم الانحياز ومحاولة تفتيتها إلى عناصرها الأولية أو وحداتها الإقليمية أو القومية ثم تخاطف أو اقتطاع أكبر قطعة أو قطاع منها لحسابه أو إلى صفوفه . والواقع أن كلا القطبيين حاول استقطاب عدم الانحياز وجذبه إلى فلكه حتى يعود من جديد منطقة نفوذ ولكن بصورة جديدة وفي منافسة حرة مفتوحة . وفي هذه المعركة الشرسة لا يتورع الجانبان عن الالتجاء إلى أى سلاح ، بما في ذلك سلاح المتناقضات ومتناقضات السلاح .

فعن الأخير مثلا ، فإن الغرب يتهم الشرق عند عدم الانحياز بأنه مجرد « تاجر سلاح » ، مورد أسلحة لا يملك أن يقدم إليه سوى السلاح ، بينما يقدم نفسه إليه على أنه

(١) جمال حمدان ، شخصية مصر ، دراسة في عبقرية المكان ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ج ٢ ، ص ٨٢٨ - ٧٣١ .

وحده الذى يمكن أن يعطيه السلام ، كما وضعها كيسيونجر مرارا بصدد العالم العربى خاصة . غير أن الحقيقة الموضوعية تختلف . فالشرق لا يعطى عدم الانحياز السلاح إلا بشروط سياسية أولا ، ثم بمعدلات تتناسب تناسباً طردياً مع درجة حرارة الحرب الباردة أو زاوية الانفراج بين القطبين ، ثم أخيراً بكميات ونوعيات تكاد تضمن له الهزيمة عادة أو غالباً . والغرب من جانبه يفتح كل ترسانته الفتاكة لأعداء عدم الانحياز بلا حساب ، بل بكل تخطيط محسوب لفرض الهزيمة عليه . ولهذا كله فليس صحيحاً بالضبط أن الشرق لا يملك إلا أن يعطى السلاح بينما يملك الغرب أن يعطى السلام ، وإنما الصحيح أن الشرق لا يملك إلا أن يقدم الهزيمة والغرب إنما يملك أن يقدم الاستسلام .

هذا عن متناقضات السلاح ، أما عن سلاح المتناقضات فلعل قصة القطبين مع العالم الإسلامى كجزء من العالم الثالث وعدم الانحياز بالغة الدلالة وأبلغ من كل مقالة . فكلاهما يحاول بالغواية والاغراء أو بالاحتيايل والاحتواء أن يستدرج العالم الإسلامى إلى صفه فى صراعه غير المقدس مع الآخر . فبينما اعتبر الشرق والسوفيت من جانبهم أن العالم الثالث رصيد احتياطى وصديق طبيعى بحكم عدائه الموروث لمستعمره السابق وهو الغرب ، فإن الغرب والأمريكيين بدورهم اعتبروا العالم الإسلامى رديفاً أو حليفاً جاهزاً ضد الروس والشرق والشيوعية الملحدة ، وذلك باعتباره من الأديان السماوية مثلهم . وعلى هذا الأساس حاولوا مراراً تجنيده ليكون قفازهم أو مقلب القط فى حرب « صليبية إسلامية » ! « لاناقة لهم فيها ولا جمل » .

غير أن الغرب نسى فى هذا أن أكبر عدوان تعرض له العالم الإسلامى مادياً ومعنوياً كان على يديه منذ القرن ١٩ وحتى مأساة فلسطين . ولم تكن موجات الحركات الإسلامية العديدة التى نَقَطَت القرن الأخير وحاربها هو أو وأدها سوى الرد الوحيد على التحدى الاستعمارى والقهر الإمبريالى ، بينما أن المد الإسلامى المعاصر ليس بدوره إلا جزءاً من دينامية عدم الانحياز فى وجه الاستقطاب الثنائى ، وثورة على تبعية الغرب وهيمنة الشرق على حد سواء^(١) .

وعلى أية حال ، فلعل المفارقة المثيرة على مستوى الواقع العملى هى أن سياسة كل

(١) جمال حمدان ، العالم الإسلامى للعصر ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٣١ - ١٣٨ .

من الغرب والشرق لاستقطاب العالم الثالث واستدراج العالم الإسلامي تكاد تحقق عكس أهدافها تقريبا في الحالين . فبينما تحول عدم الانحياز في كثير من دوله إلى انحياز مقنع لأمريكا والغرب مؤخرا ، انقلب العالم الإسلامي على أمريكا وأوروبا في كثير من دوله خاصة إيران وبعض وحدات العالم العربي .

معادلة القوة والمقاومة

تلك إذن هي العوامل الخارجية الرئيسية التي ساهمت في تدهور عدم الانحياز واتخاذه . والسؤال الآن هو كيف يمكن له أن يتصدى لها بفاعلية ونجاح ؟ والرد ببساطة أن القضية إنما هي في النهاية قضية القوة والمقاومة ، الفعل ورد الفعل ، أو الصمود والتصدي . فالدفاع عن عدم الانحياز هو مسئولية دول العالم الثالث أساسا ، بالاشتراك مع حلفائها الطبيعيين حينما وجدوا . وعليها هنا أن تعمل أساسا لكي لا تغفل قضايها التحريرية من قبضتها وسيطرتها هي لتصبح موضع تساويات القوى الكبرى أو كجزء من كشف حساب الحرب الباردة عامة . وتنقسم العمل في هذا النضال واضح بما فيه الكفاية : الحد الأقصى من السلاح الوطني ، في يد الحد الأقصى من القوات الوطنية .

فمن الواضح أن أخطر مناطق العدوانية الإمبريالية في العالم الثالث هي في الحقيقة أخطر مناطق التسليح الغربي كما أثبتت مثلا حروب الشرق الأوسط ، حيث ظهرت إسرائيل كترسانة أمريكية مسلحة حتى الأسنان . وفي هذا الصدد يمكن بغير مبالغة أن نضع معادلة عالمية تتألف من عدة متغيرات إقليمية تختزل أساسيات الصراع المستقبل :

- مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث .
- مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربي .
- مصير العالم العربي يتوقف على مصير فلسطين/إسرائيل .

وتفصيل هذا أو تفسيره أن العالم الثالث يمثل اليوم نقطة الارتكاز fulcrum بين ذراعي القوة والمقاومة في الصراع العالمي بين الغرب والشرق ، فإذا أمكن صد المد الإمبريالي في العالم الثالث وانحسر عنه إلى جزر نهائى ، فإن الميزان سينتأرجح وينقلب نهائيا ضده أو في غير صالحه . ولكن العالم العربي هو الجبهة الأمامية والطليلة الحرجة في العالم الثالث ، ونتائج الصراع فيه تنعكس عليه مباشرة إن سلبا أو إيجابا . وأخيرا فإن محور الصراع وبؤرة الحرب ومعقل الإمبريالية في العالم العربي بدوره إنما هي القاعدة الاستعمارية الصهيونية . وقد كانت نكسة يونيو ١٩٦٧ وما بعدها هي بلا شك قبة

الزحف الاستعماري في العالم الثالث كله ، سعى إليها بالتدريج من أطرافه حتى وصل إلى قلبه . وانكسار هذه القاعدة الاستعمارية يمكن بالمقابل أن يكون نقطة الانكسار في كل مسار الزحف الإمبريالي في العالم الثالث . ونفس انكسار تلك القاعدة هو وحده الذي سيفتح الطريق إلى الوحدة العربية التي - وحدها أيضا - ستثبت قيادة العالم العربي في العالم الثالث .

ولذلك كله فلا شك أن مصير إسرائيل الصهيونية سيحدد في نهاية المطاف مصير الإمبريالية العالمية . فما دامت إسرائيل باقية فإن الإمبريالية ستظل مقيمة لا ترم في العالم الثالث ، ولكن يوم تذهب إسرائيل فسوف تكون تلك بداية النهاية المطلقة للإمبريالية . وما نظن ذلك من المبالغة في شيء ، بل لعله أن يفسر وحدة المصالح والمصير المطلقة بين إسرائيل والولايات المتحدة ، بل لعل شيئا لا يؤكد كما تؤكد تصريحات زعماء الولايات المتحدة نفسها من أن ضمان بقاء إسرائيل يمثل مصلحة بقائية للولايات نفسها ، وهو ما يؤكد كذلك ما قلناه من قبل من أن الصهيونية أعلى مراحل الإمبريالية والاستعمار ، وهو ما يتفق أخيرا مع الحقيقة المسلم بها وهي أن مشكلة فلسطين هي أعقد وأخطر مشكلات عصرنا جميعا .

ومن المنطقي بعد هذا كله أن نقول إنه لما كان مصير الصراع العربي - الإسرائيلي سيتوقف أساسا على قوة مصر خاصة من بين العرب ، بمثل ما أن مصير الإمبريالية العالمية سيتوقف على مصير إسرائيل ، فإن مصير عدم الانحياز والعالم الثالث سيتوقف في التحليل الأخير على مصير مصر بالدقة . وليس في هذا غرابة ولا جديد ، إذ من المسلم به أن مصر كانت منذ البداية القوة الركن في هذا العالم والقطب الرائد في ذلك الخط - دون أن يقلل هذا ، مع ذلك ، من الدور النضالي الذي يمكن ويجب أن تلعبه كل وحداته ومناطقه . ويوم تنجح مصر والعرب في تصفية الاستعمار الإسرائيلي ، فسيكون ذلك شهادة ضمان نهائية للعالم الثالث وعدم الانحياز ، وفي نفس الوقت صك زعامتهم فيها .

ويترتب على هذا أيضا أن القطبين النهائيين في الصراع بين الإمبريالية والعالم الثالث هما على الترتيب الولايات المتحدة ومصر . ولا جديد أيضا ولا غرابة في هذا ، فكل منهما يلخص زعامة مجموعته ، إلى جانب أنه يفسر ما شاهدناه من تركيز العدوانية الأمريكية على مصر بالذات . وهذا العداء الضاري ، إذ يقوم بين أقدم دولة هامة في التاريخ وبين أحدث دولة هامة في التاريخ ، كان من الممكن أن يعد مؤسفا وغير مفهوم مثلما هو غير متكافئ ، لولا أن قد فرضته الأخيرة فرضا غير مفهوم وغير عادل . ولكن

هذا التحدى ومثله يؤكد لنا ويعود بنا إلى ما سبق أن أشرنا إليه عن مسئولية العالم الثالث كله نحو نفسه ، وأن الضمان الحقيقي والأخير لاستقلاله وبقاء عدم الانحياز ، في وجه أى خطر حقيقى أو مزعوم غربا كان أو شرقا ، هو القوة الذاتية القادرة بمستويات العصر ومقاييسه .

ثم سؤال هام يثور هنا : هل يؤدي هذا الصدام والعداء ، كما روج وتخوف الكثيرون منذ حرب الشرق الأوسط خاصة ، إلى قطيعة نهائية وعداء أبدي بين العالم الثالث والغرب أو بين العالم العربى والولايات المتحدة ، وإلى تكريس للحقد والانتقام الأمريكى بخاصة ، بما يعنى ذلك من احتمال فقدانهم مستقبلا كمصادر للمعونة في عصر يحكمه العلم والتكنولوجيا كما لم يحدث من قبل ، ويحكمون هم ناصيته كما لم يحدث أيضا من قبل ؟ التساؤل في ذاته وجيه بعيد النظر ، وجدير بكل اهتمام ، ولكن الاستغراق في مثل هذا المنطق وتغليبيه في مرحلة مصيرية تحدد وتهدد الوجود ذاته يمكن أن يكون مدمرا ، كما أن مثل هذه المخاوف تجهل أو تتجاهل طبيعة العلاقات الدولية الحاكمة .

ولتوضيح هذا نقول إن الاستسلام للعدوان لا يزيد المعتدى إلا طغيانا وانتقاما ، بينما أن المواجهة الصلبة إلى أن تتكسر موجته ترغمه في النهاية على التعقل وإعادة العلاقات على أساس الاحترام المتبادل والأخذ والعطاء ، لا سيما مع وجود منافسين - من الغرب نفسه - على استعداد دائما للمء الفراع . وتطور علاقة الاستعمار البريطانى والفرنسى في العالم مثلا بعد خروجها منه ورغم تاريخها المغم فيه ، دليل قاطع في هذا الصدد .

إن القلق من طغيان الولايات المتحدة ومن سياسة القوة التى تفرضها على العالم قد بدأ يمتد إلى حلفائها في غرب أوروبا أنفسهم ، وبدأت تستشعر باطراد نوعا ما من العزلة الباردة في سياستها العالمية ، ولا يستبعد بعض المفكرين أن يكون رد فعل الولايات إذا تفاقمت موجة الكراهية والرفض ضدها أن تنسحب إلى قدر ما من العزلة ، ليست كعزلتها التاريخية بالتأكيد ، ولكن بما يتسق مع العصر النووى . والواقع أن العالم القديم لم يكن أحوج منه اليوم إلى مبدأ مونرو عكسى يبعد العالم الجديد عن التدخل في شئونه !

والخلاصة باختصار أن احتمالات المستقبل في العلاقات بين الولايات المتحدة والعالم الثالث ، وبينها وبين العالم العربى خاصة ، لا يمكن التنبؤ بها بدقة وقطع في المدى البعيد ، ولكنها في جميع الحالات لا يمكن أن تؤرق الثورة على الإمبريالية اليوم ، ولا

ينبغي لها أن تدفع بها إلى أن تبيع واقع الثورة التحريرية من أجل وهم الثورة التكنولوجية . فمثل هذه المساومة أو الصفقة لن تعنى في الظروف الراهنة سوى الاستسلام وبالتالي فقدان التحرر والتكنولوجيا معا وإلى الأبد ، بينما أن الصمود والمقاومة الآن جديرة بكسبها معا وإلى الأبد .

في السياسة كما في الحياة ، وفي الحاضر كما في الماضي ، الحق هو القوة والقوة هي الحق . فكل حق إنما بدأ قوة ، ثم أضيف إليها الأمر الواقع مضروبا في عامل الزمن فأصبحت حقا مكتسبا ، بينما أصبح الحق مجرد تقنين للقوة . لكن ، بنفس المنطق ، فإن كل قوة قائمة تعد قابلة للنسخ بفعل قوة مضادة لها في الاتجاه ومماثلة في القوة . وما الحق لهذا إلا الاسم الرومانسي للقوة ، بينما أن القوة هي الاسم العلمي للحق ، تماما بمثل ما أن المبادئ هي الاسم الرومانسي للمصالح والمصالح هي الاسم العلمي للمبادئ . وفي ذلك فليتنافس الأحرار ، لا العبيد .

العوامل الداخلية

حسبنا هذا إذن عن العوامل والعلامات الخارجية الموجهة ضد عدم الانحياز وعما ينبغي له من وسائل التصدي والمقاومة . غير أننا نخطئ خطأ جسيما إذا نحن رددنا المخدار عدم الانحياز إلى العوامل والقوى والضغط الخارجية المضادة وحدها . وحتى إن فعلنا فإن هذا ليس مما يشرف عدم الانحياز أو يزيكه ذاتيا . وإنما الصحيح أن هناك ، بالإضافة ، مجموعة من العوامل الداخلية منبثقة من صميم عدم الانحياز نفسه وهو وحده المسئول عنها مسئولية كاملة .

فن جانبه هو ذاته فإن مجموعة عدم الانحياز توسعت توسعا أفقيا خطيرا في العقدين الأخيرين دون أن يصاحب ذلك توسع رأسي يمنحها عمقا كقوة عالمية ، بحيث كادت كثافته وقوته تتناسب باطراد تناسبا عكسيا مع مساحته ودعايته . لقد كان عدم الانحياز منذ البداية كماً أكثر منه كيفاً ، ومساحة أكثر مما هو كثافة ، أى له مسطح أكثر مما له عمق . فلقد كانت رقعته السياسية تغطي دولا عديدة للغاية ، بينما كانت كثافته السياسية واهية هشة نسبيا ، فجاء وزنه الجيوبوليتيكي الكلي من ثم محدودا نوعا .

كذلك فإنه كان دائما أقل التجمعات السياسية الدولية تجانسا وأشدّها تنافرا في عناصر تركيبه وحتى في تركيبته السياسية ذاتها ، مثلما كان أقلها تماسكا وأكثرها تخلخلا . ومع ذلك فإنه ما برح يتوسع وينساح أفقيا ، دون أن يتوسع أو يتعمق رأسي ، إن لم

يزداد حقا ضحولة وسطحية . وفي النتيجة تحول عدم الانحياز نسبيا إلى وعاء هلامي وعباءة فضفاضة للغاية ، ربما تطوى من التناقضات الداخلية قدر ما تحوى من المبادئ الأساسية ، بل وقد تخفى من الانحياز مثل ما تبدى من عدم الانحياز^(١) .

ولعلنا هنا نلاحظ أن العوامل أو الخصائص التي كانت في البداية عوامل قوة وجذب في عدم الانحياز قد تحولت في النهاية إلى عوامل ضعف وتشتت . من ذلك مثلا ما يذكره كاتب محايد من « عمومية الفكرة » وعدم تحديدها بوجه دقيق ... وعدم وجود التزامات محددة ترتبها . فلا عجب ، والحالة هذه ، أن نرى ضمن الكتلة دولا يصعب اعتبارها غير منحازة ، لو أخذنا عدم الانحياز بمعناه الحقيقي ، وهو عدم الارتباط بحال من الأحوال بأحد المعسكرات الدولية الكبرى المتصارعة^(٢) . وهذه « الهلهلة » ، كما يعبر نفس الكاتب موضوعيا ، تفسر لماذا « في الوقت الذي لا يمكن أن نقول فيه إن كتلة عدم الانحياز كتلة عديمة الأثر في العلاقات الدولية ، فإننا لا ينبغي أن نبالغ في قيمتها الفعلية »^(٣) . هذا بينما يلخص باحث متخصص آخر الموقف كله في حسم وحصافة بقوله إن من « بين ٨٧ دولة تشترك في المجموعة (يعني مجموعة عدم الانحياز) ما يقرب من ٦٠ دولة منجازه ، والباقي يتأرجح موشكا على السقوط »^(٤) .

أما على امتداد المسيرة ، فلقد كان من أبرز نقاط ضعف حركة عدم الانحياز المتزايدة تفاقم الخلافات والصراعات بل والمواجهات العسكرية الدامية بين كثير من أعضائها بسبب النزاعات الإقليمية ومشاكل الحدود خاصة في أفريقيا ثم آسيا ، فضلا عن التلون السياسي والانتماءات المنحازة مع تغيير هذه الألوان والمواقع مرارا بحيث تعرض عدم الانحياز بانتظام لظاهرة فك الانتماء de-alignment ثم إعادة الانتماء re-alignment^(٥) ، إلى حد أن أصبحت الدول الأعضاء تتبادل الاتهامات علنا بالتذبذب والتأرجح بل ويطالب بعضها بطرد البعض الآخر من المجموعة بتهمة انحيازه أي خروجه ومروقه ... الخ .

(١) حمدان ، شخصية مصر ، ج ٢ ، ص ٧٣٢ .

(٢) محمد عزيز شكري ، « التكتلات والأحلاف الدولية في عصر الوفاق » ، مجلة السياسة الدولية ، أكتوبر

١٩٧٤ ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٣) سامي منصور ، « عدم الانحياز على حالة الماوية » ، الأهرام ، ١٤ أغسطس ١٩٧٩ .

(٤) D.V. Edwards, International political analysis, N.Y., 1964, p. 230.

(٥)

ولاً غرابة في النهاية أن « وصلت الحركة إلى منعطف خطير للغاية » ، وبات كل ههما كما عبر مراقب محايد « مجرد تحقيق استمرارية الوجود ... بعد أن تعرضت في الفترة الأخيرة لاضمحلال واقعي » و « كادت تتفكك أو اصرها تحت وطأة المنازعات الداخلية وصراعات القوى الكبرى » .^(١) ومرة أخرى يشخص لنا سامي منصور الموقف بطريقة جامعة نفاذة حين يرى عدم الانحياز « على حافة الهاوية » و « أن ساعة الصفر لتقرير مصير حركة عدم الانحياز قد اقتربت »^(٢) .

وواقع الأمر الذي حدث بالفعل هو أن كثرة من دول عدم الانحياز اضطرت واقعا إلى الانحياز تحت ضغط عاملين أساسيين : إما السلاح وإما الغذاء أو المعونات الاقتصادية . فأغلب هذه الدول يعاني من الفقر الشديد ، وبعضها لا يكفي نفسه بنفسه غذائيا . وكلها بالطبع يستورد السلاح الذي يصبح مسألة حياة أو موت حين تكون الدولة في صراع عسكري مع دولة أخرى ، وهو الوضع الغالب للأسف بين كثير من دول العالم الثالث حاليا . ولما كان السلاح سلعة سياسية صرفة ، والمساعدات الاقتصادية هي الأخرى سلاحا سياسيا إلى حد معين يخضع للتوجيهات والضغط السياسية ، فقد أصبح اللين الختمى في الحالين سياسيا لا اقتصاديا ، وبالتالي على حساب عدم الانحياز بالتحديد . ومن هنا تحتم على معظم دول عدم الانحياز أن ترتبط بطريقة أو بأخرى بإحدى القوتين الأعظم القادرتين وحدهما على تقديم هذه الامدادات والمساعدات .

والمؤسف هنا أن التجربة قد أثبتت أن عدم الانحياز عملية مكلفة إن لم تكن خاسرة أحيانا ، إذ تحرم صاحبها من هذه المعونات . وفي الوقت نفسه فإنها أثبتت أن الانحياز هو الآخر عملية مكلفة وخاسرة أكثر ، إذ تكسبه عداء القوة العظمى الأخرى على الأقل . إنه لا قوة مع الفقر ، ولا حياد مع الضعف ، وتلك معضلة عدم الانحياز في جوهرها .

التحولات والتحورات

ولنفصل قليلا . خذ مثلا تلك المجموعة العديدة من دول العالم الثالث (ومن بينها

(١) نازلي معوض أحمد ، « اللانحياز في مؤتمر بلجراد الوزاري » ، مجلة السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٨ ، ص

١٥٤ - ١٥١ .

(٢) للكان السابق .

بعض من كانوا من أوائل رواد عدم الانحياز ومن أبرز أقطابه (التي انتقلت في السنوات الأخيرة خفية أو خلسة أو بغتة وفجأة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار أو العكس ، في حركة « بندقية » أو « مكوكية » لاشك واسعة المدى للغاية تكاد ذبذبتها تغطي ١٨٠ درجة كاملة من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق أو العكس ، وتكاد بلا موارد تذهب من أقصى النقيض إلى أقصى النقيض دون تخرج أو تحفظ .

وعلى سبيل المثال ، هناك تلك الدولة التي تزعمت العالم الثالث طويلا « وناطحت » الولايات المتحدة عقدا وبعض عقد وأقامت الدنيا وأقعدتها ضد عدوها الاقليمي الغاصب وريبب الولايات ، ثم فجأة وما بين عشية وضحاها أصبحت في أو مع المعسكر الغربي بنسبة ١٠٠٪ بعد أن كانت في أو مع المعسكر الشرق بنسبة ٥٠٪ . ثم بغتة وعلى حين غرة (أو غفلة) كذلك قبلت عدوها الاقليمي اللدود « قبلة الموت » ، وبعدها أوشكت تنافسه على مركز الولاية الحادية والخمسين بين الولايات المتحدة الأمريكية . قليل من العجب ، بل لا عجب على الاطلاق ، أن قد هوت تلك الدولة في نظر الكثيرين من قمة العالم الثالث إلى قاعه وسقطت من دائرة عدم الانحياز إلى مستنقع التبعية والنفوذ فضلا عن خطيئة الركوع .

ذلك مجرد مثال واحد ، وللي هذا فقص هذه الدولة أو تلك في آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية ... الخ . والمهم أن هذا المد والجزر السياسي العنيف البعيد المدى ، سواء كان جزءا من استراتيجية المضاربة المفروضة على الصغار في عالم الكبار أو كان ثمنا لها ، تم جميعا أو غالبا من موقع عدم الانحياز وباسم الحياد الإيجابي ، نعم ، عدم الانحياز والحياد الإيجابي . وهنا - موضوعيا - وجه الغرابة وموضع التساؤل^(١) .

على أن الأدعى للدهشة أن من دول العالم الثالث من يعتقد بكل بساطة أن ارتباطه الحميم بإحدى الكتلتين أو بأحد القطبين ، سواء بالأحلاف أو القواعد أو التسهيلات العسكرية أو المساعدات الاقتصادية الغامرة ، أمر لا يمس عدم انحيازه فضلا عن أن يجبه من أساسه . إنه ليس من « نواقض الموضوع » السياسية في ملته واعتقاده حتى كحد أدنى . وعلى سبيل المثال فإن أحد حكام العالم الثالث وأقطاب عدم الانحياز لم يتورع عن أن يعلن أنه « شخصا لا يخشى الانضمام إلى حلف الأطلسي »^(٢) ، بينما عرف آخر

(١) حمدان ، شخصية مصر ، ج ٢ ، ص ٧٣٤ .

(٢) مجلة أكتوبر ، ١٩٨١ / ٤ / ٢٦ ، الأهرام ، ١٩٨١ / ٤ / ٢٨ ، ص ٣٠ .

موقفه بأنه دولة من دول عدم الانحياز لها «علاقة خاصة» مع الولايات المتحدة . وهكذا وهكذا إلى آخره . ولا غرابة بعد هذا أن بدأ العملاء والمبررون يقولون علنا وبلا موارد ولكن بكل رياء إن طبيعة ووظيفة عدم الانحياز قد تغيرت بسبب المتغيرات الدولية بما يسمح الآن بالارتباط بالقوى الكبرى دون أن يتناقض هذا مع المبدأ نفسه .

التذبذب والاهتزاز

بمثل هذا وذاك - لابد لنا أن نعترف - فإن الموقف الأساسي أو الاستراتيجية العظمى لعدم الانحياز نفسه كمبدأ قد اهتزت اهتزازا مؤثرا في الفترة الأخيرة ، وتعرضت لكثير من الذبذبات والضغط ولا نقول الانحرافات والتحريفات . بل في تقدير البعض أن معادلة «عدم الانحياز والحياة الإيجابية» أوشكت أن تنقلب في أيدي بعض أصحابها جزئيا أو آتيا إلى نوع من «الانحياز الإيجابي وعدم الحياة» . فبدلا من الحياة الإيجابية بين المعسكرين وعدم الانحياز إلى أيهما ضد الآخر ، نجدنا أحيانا - ولا أوهام في هذا ولا لحاج - إزاء مفهوم غريب وصيغة شاذة من الحياة السلبية بين العدو والشقيق مثلا والانحياز الإيجابي إلى العدو - الصديق ضد الصديق - العدو كما قد نقول .

ثمة اليوم مثلا من دول عدم الانحياز من يطارد السوفيت ووجودهم في منطقته علنا ، وتماثلا مثلما كان يطارد الاستعمار القديم البريطاني وغيره منها منذ عقد أو عقدين لا أكثر ، بل وبروح انتقامية أو صليبية أشد مرارة وضراوة وأقل تعقلا وانضباطا ، في حين يرتضى في أحضان الأمريكان ارتداء لا مكابرة أو مهاترة فيه وإن هو أنكر إصرارا واستكبارا أو غباء وإسفافا . أما واقع الأمر فلا يعدو بكل بساطة استبدال قوة عظمى بأخرى أو سيطرة هيمنة أو نفوذا بتبعية ... الخ .

ثم هناك نقطة أخرى هامة . فإذا ما نحن افتراضنا استمرار مثل هذه السياسة البندولية أو المكوكية ، ولا نقول الحراوية ، جيئة وذهابا ما بين الشرق والغرب - وليس هناك منطقيا ولا واقعا ما يجب أو يستبعد هذا الفرض حتما - ثم أسقطناه على المستقبل ، أفليس لنا أن نتنبأ بالعكس ، بمعنى أنه ما الذي يمنع مبدئيا وعمليا أن نرتد يوما ما إلى الشرق مرة أخرى ، وهكذا دواليك بعدها إلى الغرب فالشرق ... الخ ؟ وهكذا تظل الدولة تتأرجح ما بين الغرب والشرق ، أو ما بين الانحراف والانحراف المضاد ، أو ما بين الانحياز وعدم الانحياز ، أو أخيرا وبالأحرى تمارس الانحياز باسم عدم الانحياز .

كلا ، ما هكذا عدم الانحياز ، ولا هو بالحياد الإيجابي . وإنما المطلوب هو « تطبيع » العلاقات مع كلا المعسكرين أو القطبين عالميا والانحياز إلى الشقيق ضد العدو إقليميا . بذلك فقط ، وبه وحده ، يستقيم ميزان عدم الانحياز في يد أصحابه ويستقر الحياد الإيجابي على تمام الزاوية القائمة . ذلك مؤشر للمستقبل مثلما هو مصحح للحاضر ، وهو على أية حال سوف يفرض نفسه على المستقبل إن عجز في الحاضر أو عجز الحاضر .

عدم الانحياز في الميزان

من الواضح الآن أن عدم الانحياز قد تعرض منذ بدايته للضغط والهجمات الشرسة ، مثلما تعرض في النهاية للتحلل والتآكل . وفيما بين البداية والنهاية كان هو نفسه قلقا حائرا أو هزيبا خائرا لا يعرف ماذا يريد بالضبط ولا هو قادر على تحقيقه أو حماية نفسه من قوى الانحياز المضادة . حتى قال من قال إنه استراتيجية حائرة مثلما هي محيرة ، عالقة كما هي معلقة . ولعلنا من جانبنا أن نضيف أن العالم الثالث بدوره يبدو وكأنه العالم الحائر بين « العالم الحر » و « العالم المر » ، ولا نقول كما يقول البعض إنه سياسيا « كالجنس الثالث » المقول بيولوجيا .

وعلى أية حال ، ورغم المحاولات التي تبذل حاليا لتنشيط عدم الانحياز وتجديد شبابه ، فإن العالم الثالث ، كما شخص شوين لاى بنفاذية وعمق ، ضائع ما يزال بين القوتين الأعظم اللتين تحاولان اقتسامه كمناطق نفوذ . ثم ، كما تنبأ ببصيرة ناقبة ، « فإنني أرى كثيرا من الانقلابات قادمة ، تحالفات قديمة تنهار وأخرى جديدة تحل محلها ... إنني أرى الفوضى في كل مكان »^(١) .

عن الواقع العملي

إذا كان ذلك كذلك ، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو منطقيا : ما المآخذ والانتقادات أو الأخطاء التي يأخذها النقاد على عدم الانحياز سواء في النظرية أو التطبيق وسواء كانت موضوعية أو غير ذلك ؟ ثم ما مدى نصيبها من الصحة ؟ وماذا ينبغى عليه هو أن يفعل إزاءها ؟ تصنيفيا ، يمكن القول كقاعدة عامة إن الاتهامات المعادية التي ما

M.H. Heikal, "Egyptian foreign policy", Foreign affairs, July 1978, p. 727.

فتنت توجه إلى عدم الانحياز منذ بدايته إلى النهاية لا تشجبه كأمر واقع فحسب ولكن من حيث المبدأ ذاته أصلا .

استراتيجية أم تكتيك ؟

فعلى مستوى الواقع أو على الجانب الاستراتيجى ، فإن أعداء عدم الانحياز وصموه باستخفاف بأنه تكتيك لا استراتيجية ، وإلا فبأنه « استراتيجية من لا استراتيجية له » . وآخرون كانوا أكثر تواضعا ولكن واقعية (أو خبثا ، لا ندرى) فاعتبروه أساسا استراتيجية مضاربة ليس إلا stalemate ، مضاربة الكتلتين والقطين ببعضهما البعض والافادة من تناقضهما . بعبارة أخرى ، إن يكن الانحياز هو استراتيجية مضاربة الأقوياء (للضعفاء) ، فإن عدم الانحياز بالمقابل ليس إلا استراتيجية مضاربة الضعفاء (للأقوياء) . ولكن الرد ، كما ورد على لسان عبد الناصر فى حينه ، أن عدم الانحياز « ليس تجارة فى الصراع بين الكتلتين » « ولا تجارة حرب باردة » ، وتغير الأوضاع الدولية لا يؤثر فيه ولا يسلبه مبرر وجوده (١) .

مرحلى أم دائم ؟

كذلك فعلى المستوى العلمى يتساءل البعض - البعض الآخر يتهم ! - عما إذا كان عدم الانحياز قد استنفد أغراضه ووصل إلى طريق مسدود بانتهاء الحرب الباردة وحلول الوفاق ، وما إذا كان هو بطبيعته مرحلة عابرة أو عبارة مرحلية وأن عليه أن يختار فى النهاية بين إحدى الكتلتين . وبينما أصرفريق على أن عدم الانحياز طريق مفتوح وأنه قادر دائما على التلاؤم مع تغير توازن القوى بين الكتلتين والقطين ، اتخذ فريق آخر نظرة أقل تفاؤلا (٢) .

على أنه أيا كان الرد أو الأمر ، فإن شيئا واحدا على الأقل مؤكد . لولا عدم الانحياز فى الستينات ، أكان العالم اليوم ما هو اليوم أم شيئا مختلفا جدا وإن كنا بالطبع لا نستطيع تصويره تماما ؟ نريد أن نقول ، لولا دور عدم الانحياز كجبروسكوب سياسى منع العالم من أن تتقاذفه أمواج الصراع الكتللى إبان ذروة الحرب الباردة لساء مصير البشرية بالتأكيد . فكّر فقط كم كانت تتضاعف احتمالات وإغراءات الصدام بين المعسكرين فى مرحلة حبلى بالتوتر والعداوات وذلك لولاه كوسيط سلام وكوسط حياد .

(١) الدجاني ، ص ٢١٢ .

(٢) السابق ، ص ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٤ .

ولربما تكون الأجيال القادمة أقدر منا على أن تدرك أن مدرسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز قد أنقذت العالم من قبل من حربه العالمية الثالثة والنوية الأولى . ولو صح هذا لكفاه دورا في التاريخ ووظيفة في السياسة^(١) .

عن المبدأ الفلسفي

هذا في نقد عدم الانحياز كواقع واستراتيجية . أما على مستوى المبدأ أو على الجانب الفلسفي ، فإن عدم الانحياز بدا للبعض من نقاده قطعة من التصوف السياسي الغامض ولا نقول اللغو السياسي الأجوف . ولعل منهم من عده قفة في المثالية السياسية التي يعوزها الكثير من الواقعية والجدية ولا ينقصها الكثير من المبالغة والادعاء الذي يكذبه واقع يتراوح إما بين التبعية والانحياز أو الانتهازية والابتزاز .

فن ناحية أولى ، اتهم عدم الانحياز بأنه قطعة من الانتهازية السياسية أو السياسة الانتهازية . ولكن الرد هو : أيهما حقا الانتهاز : الانحياز أم عدم الانحياز ؟ بل لقد تجاوز الاتهام الانتهاز إلى حد الابتزاز ، فقل إن عدم الانحياز هو ابتزاز الضعفاء ، إن عد الوفاق ابتزاز الأقوياء . كذلك فإن عد الأخير نفاق الكبار كما أشيع ، لوجب أن يعد الأول نفاق الصغار . وآخرون ، على أية حال ، رأوا أن عدم الانحياز إنما هو سلبية الضعيف ، بينما الانحياز إيجابيته . غير أن الرد مرة أخرى هو أن عدم الانحياز ، على العكس ، إنما هو إيجابية الضعيف ، فيما الانحياز هو بحق سلبية^(٢) .

نظرية النسبية

وعلى أحسن الفروض وفي أفضل الأحوال يحتاج النقاد بأن الانحياز أو عدم الانحياز مسألة نسبية بحجة ابتداء ومن حيث المبدأ . وإلا فهل كانت يوجوسلافيا مثلا ، وهي من المؤسسين الأول ، غير منحازة منذ بدأ عدم الانحياز ؟ كيف بالدقة وهي شيوعية وفي معسكر الشرق رغم كل شيء ؟ حتى الهند ، المؤسسة الأخرى ، تساءل البعض عما إذا كانت معاهدة الصداقة الهندية - السوفيتية لم تجعلها « تنحاز من غير إعلان »^(٣) . دع عنك كوبا بعد ذلك بالطبع ، تلك التي وصفتها الصين تحديدا بأنها « حصان طرواده

(١) حمدان ، شخصية مصر ، ج ٢ ، ص ٧٢٨ .

(٢) الدجاني ، ص ١٨٨ .

(٣) محمد عزيز شكري ، ص ٩١ .

سوفيتى « مدسوس فى صفوف عدم الانحياز ^(١) . وغيرها وغيرها . وعلى النقيض من هذا تماما ، ألا يضم عدم الانحياز اليوم دولا تكاد تقع فى فلك الغرب وتعيش فى كنفه أو تحت وصايته أو « على المعاش الأمريكى American pensioner » ... الخ ؟

إن عدم الانحياز بهذا وبمثله إن لم يكن تكتيكا باسم الاستراتيجية أو استراتيجية جوهرها التكتيك . فإنه يكاد يجمع بين طرفى النقيض فى وحدة زائفة تمثل الحد الأدنى من التجانس والأقصى من التنافر . من ثم فالفكر نفسه ضبابى رمادى أو ملون كقوس قزح أو كلون الطيف ، والتجمع بدوره إن هو إلا جسم خلاسى مهجن إن لم نقل مع البعض هلامى خثوى ، وذلك أيضا بقدر ما هو متضخم مترهل . ألا يؤكد هذا كثرة الخلافات والاختلافات الداخلية التى ظهرت فيه مؤخرا وسممت أعضائه ؟ ... إلى آخره . إلى آخره .

نظرية المستحيل

على أن أخطر من نظرية النسبية هذه وأكثر راديكالية ، نظرية تذهب إلى أن عدم الانحياز مستحيل ، مستحيل أصلا . ذلك أن عدم الانحياز المطلق ، كالحياة المطلق ، كالعزلة المطلقة - تقول النظرية - لا وجود له لا بالفعل ولا بالقوة . أما إضافة « الإيجائى » كصفة إلى « الحيات » كاسم فى مقولة الحيات الإيجائى ، فمجرد رخصة بعدم الحيات . أى بالانحياز . وبالتالي فإن عدم الانحياز هو فى باطنه انحياز سلبى أو خبىء ، تقديرى لا تقريرى ، شخصى لا موضوعى ، وما هو من ثم فى النهاية والواقع إلا قناع تنكرى براق ولكنه زائف فى كرنفال السياسة الدولية .

والواقع - تمضى النظرية - يثبت أن كل خطوة من جانب عدم الانحياز نحو الشرق تبعده خطوة عن الغرب وخطوتين عن عدم الانحياز نفسه ، والعكس بالعكس . والنتيجة أنك إما أن تنحاز هنا أو هناك أو تنعزل كلية عن الاثنين . ومعنى هذا أن عدم الانحياز المطلق حقا إنما يرادف الانعزال والعزلة المطلقة حقا ، وهذا هو المستحيل المطلق فى القرن العشرين . وبعبارة أخرى فإن عدم الانحياز مستحيل فى عالم الاستقطاب الثنائى ، بينما أن الممكن الوحيد هو الانحياز تحت اسم وبدعوى وادعاء عدم الانحياز . وهذا - ينتهى أصحاب النظرية بجدة - ما يفعله بعض أعضاء عدم الانحياز بانتظام وبرود أعصاب يحسدون عليه .

(١) نازى معوض ، ص ١٥٣ .

مستقبل عدم الانحياز

هذه الانتقادات والالتهامات بل والتخريجات والتجريحات التي قذف ويقذف بها الاستعماريون عدم الانحياز ، أيا كان نصيبها من الصحة والصدق أو الحقيقة والحق ، أما من درس يمكن أن يخرج هو به منها ويفيد ؟ حسنا ، واضح ابتداء أن نقط ضعف عدم الانحياز إنما هي أساسا نقط ضعف العالم الثالث . ذلك أن هناك تداخلا بعيد المدى بين المفهومين أشبه بتداخل العضو والوظيفة ، لكن دون أن يصل التداخل إلى حد التطابق أو التلبس . ولذا يحسن بنا كتمهيد أن نحدد المضمون العلمى لكلا المفهومين كما يسبق التشریح التشخيص والتشخيص العلاج .

عدم الانحياز والعالم الثالث

فأما عدم الانحياز فتعبير سياسى صك كتعريف لحالة الحياد الإيجابي بين الكتلتين أو القوتين الأعظم . أما العالم الثالث ففكرة مركبة وأشد تعقيدا . فهي فكرة حضارية تنطوى ضمنا على مدلول جنسى إلى جانب بعد جغرافى معين^(١) . فالعالم الثالث ليس تعبيرا جغرافيا فقط أو بالضبط ، ولكنه بالدرجة نفسها تعبیر حضارى ، وإلى درجة أقل تعبیر عنصرى . ومن هنا فلقد يكون عدم الانحياز أوسع نطاقا ورقعة من العالم الثالث فى معنى ، حين يتجاوز هوامش الأخير إلى هوامش العالم الأول أو الثانى مثل أجزاء من أوروبا . ولكن العالم الثالث يمكن أيضا أن يكون أوسع من عدم الانحياز فى معنى آخر ، حيث أن بعض أجزاء منه لا تتبع سياسة عدم الانحياز بصراحة أو بصراحة .

وإذا كان التعبيران قد دخلا قاموس السياسة الدولية المعاصرة حديثا فقط وفى وقت واحد تقريبا ، فلعل عدم الانحياز أن يكون تعبيرا أكثر مباشرة عن مفهوم أو محمول الاستقلال والتحرر بعد التبعية والاستعمار ، بينما أن العالم الثالث أقرب إلى مفهوم ورائة الماضى القديم على المستويات الجغرافية والحضارية والجنسية جميعا .

المعادلة الجديدة

فالواقع أن العالم الثالث اليوم هو محصلة فكرة الشرق القديمة باستثناء اليابان وفكرة الجنوب الجديدة . غير أن من الضرورى هنا أن نوضح أن فكرة الشرق هذه تختلف عن

Anouar Abdel-Malek, Civilisations & social theories, Lond., 1981, p. 130-137.

فكرة الشرق بمعنى الكتلة الشرقية ، اختلافها أيضا عن الشرق بالمعنى الجغرافى البحث^(١) . فإلى جانب الشرق (والغرب) الجغرافى الأبدى فلكيا ، والشرق (والغرب) السياسى الإيديولوجى الحالى كتليا ، هناك فكرة الشرق (والغرب) الحضارى تاريخيا بمعنى المواجهة أو المقابلة بين أوروبا المسيحية فى جانب وأفريقيا شمال الصحراء مع آسيا فى الجانب الآخر. هذا ، ومع المواجهة المتصاعدة مع الغرب خلال القرن الأخير ، فإن فكرة الشرق تلك تطورت أيضا نحو الضيق من الشرق عامة إلى الشرق الإسلامى خاصة إلى الشرق العربى فقط .

على أن فكرة الشرق فى كل الأحوال لم تضم أفريقيا جنوب الصحراء قط ، أولا لأنها كسائر القارات الجنوبية والعالم الجديد كانت فى الماضى القديم وحتى العصور الحديثة خارج دائرة المعمورة المعروف ، وثانيا لأنها بعد ذلك صارت جزءا من مفهوم « الجنوب » بقاراته الجنوبية الثلاث . أما الآن فلأول مرة ينضم الجنوب الجديد إلى الشرق القديم (عدا اليابان) فى وحدة حضارية أو نضالية جامعة هى ما ندعوه اليوم العالم الثالث .

وعلى هذا فإذا كان العالم الأول هو الغرب ، والثانى هو الشرق ، وهذا وذاك بالمعنى السياسى الإيديولوجى الحديث ، فإن العالم الثالث هو مجموع الشرق بمعناه التاريخى القديم والجنوب بمعناه الجغرافى الحديث . وبهذا وبذلك جميعا انتقل أساس تقسيم العالم من المحور الطولى بين شرق وغرب إلى المحور العرضى بين شمال وجنوب ، كما أضيف العالم الجديد إلى القديم فى التقسيم لأول مرة . (وهو تقسيم ينكره ويكرهه الاتحاد السوفيتى بالذات ، على أساس أنه لا علاقة له بفقر الجنوب وتحلفه ، اللذين يسأل عنها الاستعمار والإمبريالية الغربيين وحدهما) . وعلى أية حال ، يمكننا فى المحصلة النهائية أن نلخص خريطة التشكيلات السياسية الأساسية العريضة فى عالم اليوم فى المعادلات الموجزة الآتية :

العالم الثالث = (الشرق التاريخى - اليابان) + [(الجنوب الجغرافى) - (أستراليا + جنوب أفريقيا)]

$$\frac{\text{العالم الأول} + \text{العالم الثانى}}{\text{العالم الثالث}} = \frac{\text{الشمال}}{\text{الجنوب}}$$

(١) إبراهيم صقر ، « مضمون الشرق والغرب » ، المحاضرات العامة ، الجمعية الجغرافية المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ٨١ وما بعدها . Abdel-Malek, Nation & revolution, p. 89-94.

مشكلة القوة

حسنا إذن ، بهذا المعنى ما الذى ينقص العالم الثالث ؟ والرد على الفور هو القوة ، القوة بمعناها الشامل . فالعالم الثالث ليس الثالث فقط من حيث ترتيب الظهور الزمنى على مسرح السياسة الدولية بعد الأول (الغرب) والثانى (الشرق) ، ولكن أيضا من حيث ترتيب المكانة الحضارية الشاملة فى العالم أجمع . فإنما هو حرفيا « العالم الترسو » أى عالم الدرجة الثالثة كما تحمل التسمية الإيطالية أو الفرنسية بلا موارد ولا بمجاملة : *Le Tiers Monde, Il Mondo Terzo* . وبهذه الصفة فإن العالم الثالث هو عالم التخلف ومهد الفقر . إنه « بروليتارية العالم » . وإذا كان الذوق الدولى ، لياقة أو لباقة ولا نقول منافقة ، قد استبدل كلمة الدول النامية *developing* بكلمة الدول المتخلفة *underdeveloped* ، فإن هذا لا يغير من الحقيقة المرة وهى أن العالم الثالث هو بلا تردد قاع العالم .

فن البديهي أن العالم الثالث هو أضعف أركان المثلث الاستراتيجى المعاصر خارج كل حدود وكل مقارنة . يكفى أن نذكر أن توزيع الثروة فى العالم اليوم يعطى لنحو ٢٥٪ من سكان الأرض نحو ٧٥٪ من ثروتها ودخلها ، تاركا الربع الباقى لثلاثة أرباعهم ، ومنهم كل أبناء العالم الثالث . وعلى الجملة ، فإذا كان الشمال هو عالم القوة والغنى والتقدم والصناعة ، فإن الجنوب هو عالم الضعف والفقر والتخلف والزراعة ، أو كما قيل فى كلمة واحدة الشمال « مدينة » العالم والجنوب « ريفه » . لذا فلا مفر لهذا العالم من تثوير نفسه حتى النخاع كى يرقى إلى متطلبات دوره الحاسم فى عصر أصبح للقوة فيه أضلاع ثلاثة : السياسة ، والاقتصاد ، والعلم .

القوة السياسية

فأما من جهة القوة السياسية فإن أولى وسائلها استكمال تصفية الجيوب الاستعمارية المتخلفة فى العالم ، بما فى ذلك فصم علاقات الارتباط بالكمونولث وأمثاله . أما كتلتنا الاستعمارية الاستيطانية العنصرية العدوانية الغاصب على ضلعي أفريقيا فى أقصى الطرف الجنوبى وأقصى الطرف الشمالى الشرقى ، فلن تقوم للعالم الثالث قائمة حقا ولن يكون له وزن سياسى مذكور فى العالم ، إلا وإلى أن يتم اقتلاعها كلية من جذورهما الشيطانية الشريرة وإلقائهما ، لا « فى » البحر كما يرجف خبثا وختلا محامو الشيطان ، ولكن « عبر » البحر : هذا إلى قارة خالية بيضاء مثل أستراليا إن استحال عودته إلى أوروبا

الأم ، وهذا إلى وطنه الأصلي أوروبا الأم من حيث أتى أو إلى وطنه الأب الحامى
الولايات المتحدة والعالم الجديد

هذه واحدة . أما ثانية هذه الوسائل فضرورة ترابط دول عدم الانحياز ترابطا وثيقا
فى نسيج ضام غير منفذ لتسريبات الاستعمار . والوحدة الأفريقية والتضامن الأسوى
الأفريقى وتفاعل القارات الثلاث ، مراحل على هذا الطريق . ولكن الخلافات الثنائية
على الحدود والأقليات - ومعظمها من إرث الاستعمار - يجب أن تصفى بعد أن أصبحت
خطرا حقيقيا على جبهة عدم الانحياز سواء فى آسيا أو فى أفريقيا . وإلا فهل يجوز مثاليا
أن تخضع قوة عدم الانحياز لنفس ظاهرة التفكك والتفسخ التى أصابت الكتلتين
المعسكرين ؟ لا يستقيم . كذلك فإن هناك عددا من دول الجبهة اسما ولكنها فعلا ترتبط
وثيقا بالقوة الاستعمارية القديمة .

وعدا هذا فإن الوحدة الدستورية بين المجموعات الإقليمية المتجانسة - وفى أبعاد
واقعية معقولة - كالعالم العربى أو شرق أفريقيا أو غربها .. الخ ، ضرورة ملحة لتصحيح
الكيان السياسى للمجموعة . فالعالم الثالث اليوم هو بلقان العالم ، ويضم وحده السواد
الأعظم من دوله ، بينما لا تزيد الكتلتان عن عدد محدود من مجموع الوحدات السياسية
فيه . ومن هنا يتنافر نصفا الكرة الشمالى والجنوبى فى درجة التمزق أو التماسك السياسى كما
يتنافران فى سائر مظاهر الحياة والنمو . هذا فى الوقت الذى لم يعد فيه مكان للدول
الضئيلة والصغيرة ، وفى عصر يتجه إلى الدول - الكتل والاتحادات والتكتلات
الإقليمية Grossräume .

أما وحدة الجميع مع الجميع فهى وحدة لا أحد مع لا أحد ، هى حد أدنى من
الوحدة ، أما الحد الأقصى العملى فهو القومية الرشيدة . فثلا وحدة عدم الانحياز أو
القارات الثلاث Tricontinental أو الوحدة الأفريقية هى مجرد وحدة موقف سياسى
وليس بديلا عن الوحدات السياسية الإقليمية الدستورية الحقيقية . بالمثل الوحدة
الإسلامية ، حتى وإن اعتبر البعض الحلف أو التحالف الإسلامى نوعا من
« الكومونولث الإسلامى » على غرار الكومونولث البريطانى مع الفارق^(١) .

بشيء أكثر من التفصيل ، خذ مثلا منطقة كالعالم العربى . من المحقق أنها - ولها كل

(١) الأهرام ، ١١/٢/١٩٧٢ ، ص ٧ .

مقومات الوحدة القومية - لن تقتحم حضارة العصر ، ولن تدخل القرن العشرين حقاً ، ولن تعيش عصر العلم والتكنولوجيا ، إلا كوحدة واحدة أو كدولة موحدة . ولكن بالمقابل قارن ، على سبيل المثال ، أوروبا الغربية التي تسعى اليوم بوعي وتخطيط كاملين إلى الوحدة رغم أنها ممزقة لغوياً وقومياً وإن كانت موحدة جغرافياً ، ولو أن من الصحيح أيضاً أن العالم العربي وإن كان موحداً لغوياً وقومياً فإنه على العكس ممزق بالصحراء جغرافياً .

فما معنى هذا ؟ معناه أن في أوروبا انقطاعاً لغوياً ولكن اتصالاً عمرانياً ، بينما أن في العالم العربي انقطاعاً عمرانياً ولكن اتصالاً لغوياً . فالعامل المضاد أو المعرقل للوحدة في الأخير هو الصحراء ، وفي الأولى اللغة . غير أن الفاصل الطبيعي هنا لا يعادل الفاصل اللغوي هناك بحال ، كما أنه لم يعد شيئاً في عصر الطيران . وهكذا يظل العالم العربي أغنى بمقومات القومية الأساسية من أوروبا الغربية خارج كل مقارنة ، إلا أنه مع ذلك يظل للأسف أبعد منها عن الوحدة السياسية خارج كل حدود أيضاً . لا يستقيم ، أليس كذلك ؟

على أن نقطة الضعف القاتل في النسيج السياسي للعالم الثالث إنما تكمن ، أخيراً وليس آخراً بالتأكيد ، في صميم كيانه الذاتي من الداخل ، ونعني بذلك النظام السياسي أي نظام الحكم . ومن هذه الزاوية ، فلا مفر للأسف من الاعتراف بقدر كبير من الصحة على الأقل في اتهام البعض للعالم الثالث كمجموعة من الدول بأنه مريض جيوبوليتيكياً ، كل دولة من دولة تقريباً مريضة جيوبوليتيكياً بدرجة أو بأخرى ولسبب أو لآخر .

فالعالم الثالث هو أكبر متحف عالمي للحفريات السياسية ومخلفات الطغيان والاستبداد الشرقي القديم والرجعيات البدوية البدائية العتيقة المتحجرة ، فضلاً عن أنه غدا أشنع معقل للديكتاتوريات العسكرية^(١) والفاشية اللاشرعية الاغتصابية الفاسدة نصف المتعلمة أو نصف الجاهلة . وكأنما قد حكم عليه بأن يستبدل بالاحتلال العسكري الأجنبي القديم أيام الاستعمار ، الاحتلال العسكري الداخلي الجديد تحت الاستقلال ، هذا استعمار خارجي وهذا « استعمار داخلي » ! والواقع موضوعياً أن العالم الثالث كما هو

Abdel-Malek, Nation & revolution, p. 41 ff.

اليوم إنما ينتمى سياسيا إلى الماضى السحيق ، يعيش فى القرن ٢٠ الميلادى بالهيكمل السياسى للقرن ٢٠ قبل الميلادى .

المؤسف ، بعد ، أن أغلب هذه الديكتاتوريات العسكرية أو الرجعية يتم أو يقع تحت ادعاء ولافتة الديمقراطية ، بل ويباهى بها أعرق الديمقراطيات الغربية بلا حياء ولا خجل . ولا عجب أن صك البعض لهذا كله تعبير « ديمقراطية العالم الثالث » ، « الديمقراطيةورية » كنيح من السخرية السياسية .^(١) وعلى الجملة ، فلا نقاش فى أن العالم الثالث هو أكبر سجن دولى ومعتقل مفتوح للمواطن النامى . ومن نافلة القول كذلك أنه لا أمل البتة فى تحرير هذا المواطن من التخلف السياسى والحضارى إلا بتحريره من هذه العبودية السياسية .

وكتفصيلة على الهامش ، فلقد أصبح العالم الثالث منذ تصفية الاستعمار مهد الحكم العسكرى الفاشى الباطش والانقلابات العسكرية الدورية . ولا يكاد يمضى شهر تقريبا إلا ويقع انقلاب عسكرى فى دولة ما من دوله ، كأنما قد سرى فى جسمه السياسى الميكروب اللاتينى والبط اللاتينى حيث سجلت دول أمريكا الجنوبية وحدها أكثر من ٢٠٠ انقلاب عسكرى منذ الاستقلال فى أوائل القرن الماضى . أو كما عبر البعض ، لقد أصبح الحكم العسكرى وباء العالم الثالث ولعنة المدرجات وجذام الجنوب ، وأصبح العالم الثالث دستوريا عالم الانقلابات العسكرية بالفضل والامتياز .

ومن المحزن أو المضحك أن كثيرا من أصحاب وصانعى هذه الانقلابات العسكرية الطفيلية أو الطفولية يصبر إصرارا واستكبارا (أو غفلة واستهتارا ؟) على أن ينعتوا بالثورة ، الثورة الشعبية وإلا فلا . كل انقلاب عند أصحابه هو ثورة ، إما وطنية أو اجتماعية أو ثورة تحرير ... الخ ، بينما هو عند الشعب من الغاصبين . وفى النتيجة ، وعلى هامش الهامش ، بل فى الصميم ، فإن معظم العالم الثالث لا يحكمه خيرة أبنائه ، إن لم يحكمه أحيانا شرهم حقا ، الأمر الذى يضاعف من أزمتة العالمية ويزيدها تخلفا على تخلف ووهنا على وهن .

القوة الاقتصادية

هذا عن القوة السياسية ، أما عن القوة الاقتصادية ، وهى الأساس المادى الصلب

(١) حمدان ، شخصية مصر ، ج ١ ، ص ٤١ .

للقوة السياسية ، بينما أن هذه ليست إلا فيضها وفائضها والتعبير الخارجى عنها ، القوة الاقتصادية بالنسبة إلى العالم الثالث ليست فقط ضرورة قوة بل ضرورة بقاء بكل معنى الكلمة الحام ، لاسيا بعد التزيف الرهيب والتزح المقنن للموارد والثروات الذى تعرض له فى ظل الاستعمار قرونا وأجيالا . وحتى عند ذلك ، فالغريب والمؤسف أن قصارى ما يمكن أن يطمح إليه العالم الثالث فى مجال التطور والتقدم الحضارى ، بالقياس إلى مستويات وطفرة الدول المتقدمة المذهلة ، لا يعدو أن يكون تحقيفا للتخلف أو تحديثا للفقر ليس إلا .

وحتى لا يكون شك أو وهم ، فإن العالم الثالث هو ببساطة عالم الفقر والفقراء ، وسيظل كذلك إلى أمد غير قريب كما هو غير معروف . فتوسط دخل المواطن العادى فى معظم دوله يسجل أدنى الأرقام فى السلم العالمى ، واقعا غالبا تحت خط الفقر الدولى ، أى فى حدود ٣٠٠ - ٥٠٠ دولار فى السنة ، مقابل عشرة الأمثال على الأقل للدول الغنية المتقدمة . أى أن دخل الفرد العادى فى الدول الأخيرة يعادل دخل ١٠ أفراد فى الأولى ، أى أكثر من دخل أسرة نامية كبيرة ، بكل ما يعنى هذا من مستوى معيشة ورفاهية واستهلاك وتطلعات وكذلك من إمكانيات وقدرات على المزيد من النمو والتقدم والتطور ... الخ . بل إن العالم الثالث لم يعد حتى الثالث مؤخرا . فلقد تدنى فى السنوات الأخيرة بعد طفرة دول البترول فانزلق برمته إلى مرتبة جديدة دنيا أفرداها له الاقتصاديون حديثا فأصبح « العالم الرابع » .

وواقع الأمر أن متوسط الدخل الحقيقى ومستوى المعيشة الفعلى فى معظم دول العالم الثالث قد انخفض فى الفترة الأخيرة نتيجة التضخم العالمى الجسم ، المرتبط جزئيا بثورة أسعار البترول . ولهذا فإن العالم الثالث ازداد فقرا على فقر مرتين ، واتسعت الهوة الاقتصادية بينه وبين العوالم الأخرى بدل أن تضيق . إن قانون النمو الاقتصادى السائد على أرض عوالمنا الثلاثة أو الأربعة هو قانون السمك فى البحر : الكبير منه يأكل الصغير ، وهو قانون التوراة القديم : « لمن عنده سوف يعطى » ، وهو قانون الربح المركب الألوامترى الجديد allometric : الكبير يزداد كبرا والصغير يزداد صغرا .

من هنا جميعا فإن التحدى الجسم الذى يواجهه العالم الثالث هو بأخف تشبيه كيف لشخص غارق فى الطين أن يرفع نفسه بنفسه من رباط حذائه . وكلمة السر من ثم هى التنمية ، التنمية الذاتية ، والتنمية المكثفة السريعة . فلا بد من حشد وتجنيد كل الموارد

الطبيعية والطاقت البشرية للتحرر من التخلف وللانطلاق في مدارج التقدم والرفاهية .
ورأس الحربة في هذا كله هو التصنيع .

وهنا نلاحظ أن العالم اليوم يكاد ينقسم إلى ثلاثة أنماط عريضة من الاقتصاد القومى : دول منتجة للمصنوعات ، ودول منتجة للخامات ، ودول منتجة للغذاء . وقد تجمع دولة بين أكثر من واحد من هذه الأنماط ، لكن المهم أن الدول المتحررة النامية يقع معظمها في النمط الثانى وذلك بعد أن حرما الاستعمار السابق من الصناعات في الوقت الذى حرما أيضا من الكفاية الغذائية بتوجيهها غير المتزن إلى الخامات . فأغلب الدول النامية تعيش بمقاييس العصر في عصر ما قبل الصناعة pre-industrial ، وأفضلها حظا لا يعدو مرحلة شبه الصناعة semi-industrial . وهى من ثم تكاد عمليا تكون محاصرة اقتصاديا بين دول النمطين الآخرين ، ولا نقول بين قوسين من الجوع والفقر .

فالتجارة العالمية - ولا زالت هيكلاها الاستعماري - تتحيز تحيزاً صارخا ومتزايدا للمصنوعات إزاء الخامات . وتعمل الدول النامية الآن على تصحيح هذا الميزان المختل ولكن دون جدوى فيما يبدو ، إذ تشير تقديرات الأمم المتحدة إلى أن نصيب الدول النامية من صادرات العالم في تناقص مستمر نسبيا ، حيث هبطت النسبة من ٣٠٪ في ١٩٥٠ إلى ٢٥,٣٪ في ١٩٦٠ إلى ١٩,١٪ في ١٩٦٦ .

ومن ناحية أخرى أصبح من الجلى تماما أن الغذاء قد صار سلاحاً سياسياً تعسا للضغط وحرب التجويع . وبين هذا وذاك ، فقد تحم على هذه الدول النامية أن تعيد تركيب إنتاجها بما يكفل استقلالها الاقتصادى ، إذ مما لاشك فيه أن اقتصاديات الدول النامية هى اقتصاديات تابعة économies dominées ، خاضعة أساسا لاقتصاديات الدول المتقدمة ، تماما مثلما كانت أيام الاستعمار ، بل ولأنها أصلا إرث الاستعمار . ومن هنا فإن عليها أن تتجه إلى مزيد من التفاعل والتبادل التجارى فيما بينها للحد من سيطرة الكتلة الاستعمارية على تجارتها الخارجية .

أما حوار الشمال - الجنوب الزئبقى المزمع المخطوط فما عاد يجدى ، وإنما بات كما وصف حوار الصم - البكم : إنه حوار بلا « جدوى اقتصادية » ! والمعنى أن ليس للدول النامية عمليا وواقعا أن تأمل الكثير من معونة الدول المتقدمة ، وأن عليها أن تعتمد على أنفسها في الدرجة الأولى . أما القروض الأجنبية فقد تكون « رافعة » مساعدة

إلى نقطة معينة ، ولكنها أيضا يمكن بعدها أن تستحيل « رافعة خافضة » ، إذ تتراكم فوائدها بميكانيكية الريح المركب إلى الحد الذي يكاد ينسخ فاعليتها ويجعلها عقبة لاعتبة إلى التنمية .

وعلى وجه العموم ، فنحن هنا لانستطيع أن نغادر قضية القوة الاقتصادية في العالم الثالث دون نبرة ختام حادة ولكنها مستحقة . فواقع الأمر المختل المخجل أن التجارة الدولية اليوم قد باتت هي الشكل الجديد للاستعمار - أو تكاد . ذلك أنه بعد تصفية الاستعمار القديم ، بمعنى الاحتلال والاستيطان ، أصبح الفارق الرهيب والانحدار العمودي العائد في أسعار السلع بين الخامات والمصنوعات هو الأداة الجديدة التي اصطنعها وشرعها الغرب والدول الصناعية المتفوقة لاستبقاء التفرقة بينهم وبين العالم « الترسو » كسادة وتوابع وإنما في نظام معيشي وتعايش نوعي جديدين .

وإذا كان البتروليون وحدهم هم الذين نجحوا مؤخرا في اختراق حاجز الأسعار هذا ، فذلك بمحض صدفة سعيدة فقط (أو غير سعيدة تماما ، حيث جاءت قفرتهم على حساب ورقاب سائر الدول النامية ضمنا ، فضخمت من أزمته وتخلّفهم بالتضخم المضاعف) . وفيما عدا هذا على أية حال ، فإن المرء يكاد ، كلما أمعن التفكير في نظام الأسعار العالمي الراهن ، أن ينتهي إلى أن السرقة الاستعمارية اليوم لم تعد الملكية السياسية ، وإنما باتت هي التجارة الدولية بالدقة والتحديد ، أو فلنقل بالتقريب .

قوة العلم

أما قوة العلم ، أخيرا ، فهي اليوم بلا جدال المحور الأسى للقوة المادية والمعنوية . فلئن كانت القوة الاقتصادية هي نواة القوة السياسية ، فإن قوة العلم بدورها هي النواة النووية . وتخلّف العالم الثالث تاريخيا لم يكن في جوهره إلا تخلفا علميا ، والاستعمار نفسه لم يكن إلا تفوقا حضاريا . وإذا كان القرن التاسع عشر هو قرن الذين يملكون والذين لا يملكون ، فإن القرن العشرين - أكثر من أى وقت مضى - هو قرن الذين يعلمون والذين لا يعلمون . والعلم إذن هو حضارة المستقبل ، ومستقبل العالم الثالث رهن بتطوره العلمي . ومن هنا أضحي « نقل التكنولوجيا » ضرورة حيوية لا بديل لها ولا غنى عنها . والتكنولوجيا اليوم ملك لمن يملك ثمنها ، وليس بالضرورة لمن يملك سرها .

وفي هذا الإطار يمكن أن ندرك بعمق قيمة الدعوة التي أطلقها « الميثاق » المصري

حينما ما للحاق بعصر الذرة والفضاء بعد أن فاتنا عصر الفحم والكهرباء . وليس ثمة ما يمنع من أن يصبح العالم الثالث من أقطاب الحضارة والقوة إذا خاض الثورة العلمية ، بل ربما أصبح القرن الحادى والعشرون قرن العالم الثالث كما يأمل البعض . ومع ذلك فلا ينبغي الاسراف فى التفاؤل بغير عمل شاق ورهيب ، لأن العقود الأخيرة شهدت اتساعا محيفا فى الهوة التكنولوجية التى تفصل بين الدول المتقدمة والنامية .

ولقد رأينا فيما مضى كيف أن الحضارة والقوة قد هاجرت بانتظام واطراد من عروض دون مدارية إلى العروض الشمالية ، من الدفء إلى البرد ، ومن مدار السرطان صوب القطب ، وذلك مع قهر حضارة الانسان المتزايد للمناخ البارد . وهناك من يعتقدون ان هذه الحضارة قد وصلت الآن إلى حد القدرة على قهر المناخ الحار ، وأن ليس هناك بالتالى ما يمنع من أن يعود البندول فيتأرجح فى اتجاه عكسى من المناطق الباردة إلى المناطق الحارة ، ومن العروض الشمالية إلى العروض المدارية وصوب خط الاستواء . بل إن هناك من يعتقد أن التطورات السياسية والاقتصادية والثقافية التى لحقت بالمداريات إنما هى من إرهابات هذه الحركة الجديدة ، كما أنه ثبت أن تكييف المناخ الحار أسهل وأرخص من تدفئة المناخ البارد^(١) .

ومعنى كل هذا أن المستقبل للمداريات - للعالم الثالث - لقوى عدم الانحياز (أو كما وضعها فى حالة أفريقيا كاتب ساخر من أبنائها : إن « المستقبل أسود ») . والحقيقة أن العالم الثالث إذا كان اليوم فقيرا ضعيفا متخلفا ، فإنما هو كذلك بالواقع لا بالإمكانات ، بالفعل لا بالقوة . فإمكاناته الطبيعية ضخمة ورصيده المادى شبه بكر ، وبينما اقترب العالم الشمالى من نقطة التشبع فى ميدان الاستغلال والتنمية ، لا يزال أمام العالم الثالث مجال فسيح . ويكفى أن نأخذ من إمكانات التحميل بالسكان مؤشرا على ذلك .

يقدر ماكيندر مثلا أن أفريقيا المدارية وحدها يمكن أن تستوعب فى يوم ما ألف مليون نسمة ، ومثل هذا الرقم يعطيه لأمريكا الجنوبية^(٢) . فإذا أضفنا إلى ذلك آسيا الموسمية بكتلتها البشرية العارمة ، فقد يمكن أن تحمل المداريات أو العالم الثالث يوما ما مقدار ما يحمل هذا الكوكب اليوم من سكان (+ ٤,٦٠٠ مليون) . ومهما يكن من

Stamp, Applied Geog., p. 149.

(١)

"The Round World & the Winning of Peace", p. 605.

(٢)

أمر ، فلا شك أن الثقل النسبي للعالم الثالث ديموغرافيا سيرتفع بشدة في المستقبل ، وسيكون هذا جزءا من ، وعلامة على ، عملية إعادة توزيع الأثقال والأوزان بين القوى العالمية التي بدأت من قبل .

فى الختام

وبعد ؟ والخلاصة ؟ حسنا ، قد يكون عدم الانحياز حدثا سياسيا بالغ الأهمية ، ولكن العالم الثالث مازال جيوبوليتيكيا حدثا صغير السن لم يبلغ سن الرشد إلا بالكاد ، ولا بلغ مرحلة النضج بعد بالتأكيد . غير أنه بحكم بزوغه ونزوحه التاريخي قد « وقع بين مقعدين » هما العالم الأول والثانى ، كل يشد فى اتجاه وكل يدفعه ضد الآخر على أساس المبدأ الأيديولوجى ، ولكنه يرفض على أساس قضية التكنولوجيا . وتلك بالدقة مشكلته الشائكة . فهو منذ البداية موزع بين التقدم والتقدمية ، أى بين التكنولوجيا والأيديولوجيا على الترتيب . فإذا كانت مشكلة الغرب فى نظر البعض أنه متقدم ولكنه غير تقدمى ، بينما يدعى الشرق أنه متقدم وتقدمى معا ، فإن مشكلة العالم الثالث باعتراف (أو ادعاء ؟) بعض قاداته أنه تقدمى ولكنه غير متقدم .

من هنا فإنه يجد نفسه ممزقا بين ثورة الآمال والتطلعات والطموحات العالمية اللامحدودة وبين إمكانياته الفقيرة المحدودة ، بين حمى الاستهلاك المعدي وقفص التخلف الحديدي ، بين الغوايات والاغراءات الرأسمالية والضغط والتحديات الاشتراكية . وبعبارة أخرى فإن تاريخه الحديث على قصره جاء كله صراعا بين الانفتاح ضد الانغلاق ، والسلاح ضد السلام ، والأمن ضد الطعام والتنمية ، والرأسمالية ضد الاشتراكية ، وأمريكا ضد روسيا ، والغرب ضد الشرق ، والأصالة ضد المعاصرة - فكل هذه جوانب شتى لشيء واحد ولا انفصال لها عن بعضها البعض .

أما فى التحليل الأخير فلعله بحاجة إلى قدر أقل من القوة المعنوية وأكثر من القوة المادية ، قدر أقل من الأيديولوجيا وأكثر من التكنولوجيا . لكنه أيضا بحاجة إلى قدر أكبر من الانتاج وأقل من الاستهلاك . وقبل هذا وذاك فإنه بحاجة إلى قدر أكبر من الاعتماد على الذات ، وأقل من الاعتماد على الغير . وفى جميع الأحوال فإنه بحاجة إلى قدر أكبر من الثقة بالنفس ، وأقل من مركب النقص . وبغير هذا فلا مستقبل له تقريبا ، ولكن المستقبل له يقينا به وبمثله . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

الفصل الخامس عشر

ما بعد الوفاق وعدم الانحياز

آفاق مستقبلية

من معطيات العصر التي لا تحتمل التزايد أو الاجترار وإن تحملته دائما ، أن على قة هذا العالم تتربع منذ نهاية الحرب الثانية قوتان شبه متكافئتين ولكنها شبه متنافرتين هما القوتان الأعظم . ورغم أن إحداهما قد تعد متفوقة على الأخرى دائما أو مرحليا ، بحيث قد يصح أن نميز فيها كقاعدة أو أحيانا بين القوة الأولى والثانية ، فإنها أدنى إلى التكافؤ والندية والتقارب عموما . ومن بديهات العصر بعد ذلك ، وهذا هو الأهم ، أن العالم كله محكوم بصورة أو بأخرى بهذه الثنائية والاستقطاب والتوازن ، إلى حد قد يحوز معه تجاوزا أو مجازا أن نتحدث عن « حكم ثنائي condominium » عالمي بطريقة ما ، بكثافة ما ، وبدرجة ما .

ولقد يكون هذا الوضع أو النمط الثنائي التنافسي الاحتكاري جديدا من حيث المبدأ ، أو قد لا يكون . فإلى ما قبل الحرب الثانية كان على قة العالم بالمثل قوتان عظميان هما الإمبراطورية البريطانية والفرنسية ، متقاربتان إلى حد أو آخر في القوة ، متنافستان على احتكارها ، وفيما بينهما تحكمان أو تتمحكان في العالم أو الجزء الأكبر منه بدرجة أو بأخرى . كل ما في الأمر ، وهذا فارق التطور والعصر والمقياس والإيقاع بين الاستعمار القديم والجديد ، أن قد حلت محل هاتين الإمبراطوريتين إمبراطوريتان جديدتان غير إقليميتين non-territorial ، عالميتان أو كوكبيتان أكثر ولكنها مكانيتان أقل . بل أليست هذه الثنائية والصراع الثنائي هي كما رأينا جماع وخلاصة تجربة القوة السياسية طوال العصور الحديثة منذ الكشف الجغرافية على الأقل ؟

أيا ما كان ، فإن علينا الآن في نهاية رحلتنا الطويلة المفعمة حول العالم والعصر أن نتقدم لتقرب اقتربا مباشرا أكثر من هاتين القوتين الأعظم ، نتفحصهما من الداخل

أكثر ونحلل تركيبها في صميمه الميكلي وفي تطوره الذاتي الذي هو وحده يمكنه أن يفسر كل سلوكها السياسي بكل دقائقه وتفصيله وبكل ذبذباته ومتغيراته طوال ربع أو ثلث القرن الأخير. بل إنه هو وحده الذي يمكن كذلك أن يحدد مصيرهما في المستقبل القريب أو البعيد ، وبذلك يعطينا مفتاح التنبؤ المستقبلي : أتم بينهما عملية اختزال من ثنائية تنافسية إلى أحادية احتكارية مطلقة ، أو تحل محلها ثنائية أخرى تماما ، أو على الأقل تلحق بهما قوى عظمى أخرى لتتحول الثنائية إلى ثلاثية أو رباعية أو خماسية أو أكثر... الخ ؟ ولكن لنبدأ بالحاضر أولا وتحليل الصورة الراهنة ، مرجئين التنبؤ إلى النهاية ، كذلك فلتكن الولايات المتحدة هي نقطة البدء .

الدورة والدور الأمريكي

ليس من العسير على طالب الجغرافيا السياسية أن يرى أهم مفتاح للتطورات العالمية الأخيرة يكمن - موضوعيا - في تحركات ونشاطات ودينامية الولايات المتحدة بصفة أساسية ، وهي نشاطات وتحركات ودينامية عدوانية أحيانا بصفة قاطعة . وليس من العسير عليه أيضا أن يرى مفتاح الدينامية أو العدوانية الأمريكية هذه يكمن في مرحلة تطورها الجيوبوليتكى ، أى في موقعها على منحني تطور الدولة عبر التاريخ ككائن عضوى أو شبه عضوى .

وبالنسبة للولايات ، يمكن أن نميز من مراحل التطور الأربع الأساسية ثلاث مراحل حتى الآن هي : مرحلة الطفولة حتى أواخر القرن ١٩ ، ثم مرحلة الشباب حتى حرب فيتنام ، ثم أخيرا مرحلة النضج منذ الوفاق في السبعينات الأخيرة فقط . وواضح أن المرحلة الأولى هي كأم طبيعي أطولها ، إلا أن أهميتها تاريخية نوعا . أما الثانية فهي أخطرها خارج كل حدود ، لأنها التي تفسر كل عناصر الاضطراب والخطر والتوتر في عالمنا المعاصر حتى قريب جدا ، ولهذا فإنها ستشغل الحيز الأكبر من دراستنا التفصيلية التالية . أما المرحلة الثالثة والأخيرة فتطور طارئ حديث للغاية ، ولكنه مفتاح المستقبل جميعا .

دور النشأة والطفولة

الذى يحلل تاريخ الولايات المتحدة سيجد القرن التاسع عشر في أغلبه يمثل طفولتها كدولة ، فقد كانت تبهى كل ملامح وأعراض دور النشأة حيث ظلت منهمكة - بعد

حروب الاستقلال - في صراعاتها الداخلية البحتة وحروبها الأهلية وعمليات الضم الإقليمية أو تعميق الاتحاد محليا ، باختصار كانت مستغرقة تماما في عملية ترتيب البيت من الداخل . من هنا كانت « العزلة » بوصلتها وقبلتها السياسية التي يمكنها وحدها أن تتيح لها الحماية من أخطار الخارج ريثما تتكون لها درقة أو صدفة صلبة تغلف فوقعتها الهلامية الناشئة . وقد كان مبدأ مونرو هو أول صيغة للعزلة في الواقع ، بل من الثابت أنه لم يبدأ إلا برعاية وموافقة بريطانيا ولم يتحقق إلا في ظل أسطولها وسيادتها البحرية العالمية .

غير أن ظروف الولايات المتحدة الخاصة جدا ، من عزلة طبيعية جغرافية وضخامة فجائية غير مألوفة ، ساعدتها حتى منذ دور النشأة على الاتجاه نحو السيطرة الخارجية . وهذه وجدت مجالها شبه البكر في أمريكا اللاتينية ، وذلك بطبيعة عزلة العالم الجديد جغرافيا وبذريعة مبدأ مونرو سياسيا . ومن المفارقات اللافتة الساخرة والتي سترسم سابقة دالة للمستقبل ، أن سيطرة الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية إنما تمت على حساب النفوذ البريطاني بالذات ، وذلك بعد عملية صراع وإزاحة حلت بها الإمبريالية الأمريكية محل البريطانية .

والخلاصة من هذا كله أن الولايات في عزلة مرحلة نشأتها لم تكن تمارس الصوفية أو المثالية السياسية ، وإنما كانت منغمسة منذ وقت مبكر في تجربة جديدة في فن الاستعمار اتخذت من أمريكا اللاتينية حقلا لها ومشتلا ومعملا . وهذا ما استخراج به إلى العالم حين تدخل دور الشباب ليكون « هدية » العالم الجديد إلى العالم القديم ...

دور الشباب

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر كانت الولايات قد عبرت مرحلة الانتقال من دور النشأة إلى دور الشباب واقتحمت دور الشباب والفتوة الذي تكون الدولة قد استكملت فيه بناء كيائها الداخلي وقوتها الذاتية ماديا ، وأمنت حدودها نهائيا ، وبدأت طاقتها تفيض عبر حدودها فتتطلع إلى الخارج في حذر أولا ثم في اندفاع منقضة لا تلوى على شيء في النهاية . إنه دور التوسع ، أى الاستعمار بالضرورة ، الدور الذي تمثل فيه الدولة مشكلة خطيرة للسلام العالمى وتحديا للقوى الأقدم والأحدث على السواء .

من الاستعمار القديم إلى الجديد

ويتمثل هذا في حالة الولايات في توسعاتها الاستعمارية بالمعنى المباشر - معنى

الاستعمار القديم - في الكاريبي والهادي ، ثم في انغماساتها في حروب العالم القديم الإمبريالية التي كانت تتأرجح فيها بين تقليد عزلة دور النشأة وبين إغراءات توسع دور الشباب . فبعد أن شاركت إثر تردد طويل في الحرب العظمى الأولى ، تذبذبت نحو العزلة نوعا فاما بين الحربين ، إلى أن تجاذبتها من جديد الحرب العظمى الثانية التي وضعتها تماما في قلب دوامة السياسة العالمية بل وعلى رأس صراع القوى الكوكبية جميعا .

وإذا كانت الحرب الثانية قد قامت أصلا كصراع استعماري بين دولة فتية في دور الشباب (ألمانيا) تبغى التوسع على حساب دولة أقدم في دور النضج (بريطانيا) لم تعد تنشأ إلا الاستقرار وكل همها المحافظة على الوضع الراهن بما لها فيه من مكاسب استعمارية عظيمة حققتها من قبل في دور شبابها ، فإن الجائزة الكبرى قد سقطت في النهاية في يد الولايات المتحدة . فلقد خرجت بريطانيا ، وأكثر منها فرنسا ، مضعضعتين من الصراع ، مما مكن لثورة التحرير أن تنطلق في المستعمرات ، وللولايات المتحدة أن تشارك في مطاردتها منها حتى تستطيع أن تحمل محلها ، إلى أن انتهت فترة ما بعد الحرب بانتقال بريطانيا وفرنسا كدول من دور النضج إلى دور الشيخوخة والانكماش .

وفي النتيجة ، فإن الإمبريالية الأمريكية الجديدة لم ترث الإمبريالية البريطانية والفرنسية القديمة فحسب كما هو شائع ، وإنما ورثت في الحقيقة كل الرأسماليات للتنحية البريطانية وفرنسية وألمانية وإيطالية ويابانية ... الخ ، أي كل الرأسماليات الديمقراطية والدكتاتورية ، الليبرالية والفاشية ، وقوى دور النضج ودور الشباب على حد سواء . أما بالنسبة إلى دول التحرير الوطني التي قامت في المستعمرات القديمة ، والتي تقف على درجات متفاوتة من دور النشأة والطفولة بكل معالمه ومشاكله التطورية العادية فضلا عن التخلف الحضاري والضعف الجذري الخطير ، فقد ظهرت الولايات المتحدة أمامها في ازدواجية خبيثة لم تلبث أن صارت سافرة . فقد خدعت بعض هذه الدول في دورها السياسي تحت أوهام عزلتها القديمة ومثل مرحلة نشأتها المدعاة ، وكذلك تحت تأثير مطاردتها الظاهرية للاستعمار القديم حتى توهمت الأولى فيها أملا حقيقيا للتحرير والتمير . فإذا الحقيقة تتكشف عن قوة جديدة تأتي من وراء البحار لتصدر تجربتها الخاصة والأصيلة في الاستغلال بدل الاختلال ، والسيطرة والنفوذ بدل الامتلاك والوجود ، أو بالتعبير الدقيق لتمارس الإمبريالية بدل الكولونيالية أي الاستعمار . وهذا هو « الاستعمار الجديد » في مقابل « الاستعمار القديم » ، وتلك كانت بداية خيبة أمل العالم

الثالث فى الولايات ، ولكن الأسوأ منه كانت النهاية ، إذ أصبحت الولايات لعنة العالم الثالث بالتحديد كما رأينا ونرى أحيانا .

عناصر القوة

وعند هذا الحد يمكن تشخيص خطر الولايات فى أنها أول دولة فى التاريخ اجتمعت فيها ولها كل عناصر القوة ومقوماتها ، ولكن أيضا كل أعراضها وأمراضها ، وذلك على أكبر مقياس فى التاريخ كذلك ، فهى فى كل ذلك « أول أكبر » أو « أكبر أول » كما قيل . فهى كقارة أو شبه قارة تعد أول دولة تقف على قمة دور الشباب فى مثل هذا الحجم والضمخامة والثراء . ويكفى فى هذا الصدد تفوقها العلمى والتكنولوجى المنحصر الذى خلق بينها وبين أوروبا الغربية نفسها هوة كالهوة التى بين أوروبا الغربية والعالم الثالث . وإذا كان أهم ما يميز الدولة فى دور الشباب أن نضج قوتها المادية يسبق نضج خبرتها وحنكتها السياسية إلى درجة مقلقة ، فإن هذا يصدق على الولايات كما لا يصدق على دولة أخرى ، بل إلى الحد الذى يضع العضل فوق العقل تماما فى السياسة العالمية .

وهى بعد ذلك أول دولة رأسمالية تتعدى حدود الرأسمالية التقليدية وآفاق الرأسماليات القديمة إلى مرحلة يمكن أن توصف حقا بمرحلة ما فوق الرأسمالية super-capitalism . فهى اليوم أكبر قلعة للاحتكارات والاستثمارات العالمية والشركات متعددة الجنسية . وهى كذلك ولذلك أول دولة تتبنى الديمقراطية وتمارسها شكلا وتعلن نفسها حامية « العالم الحر » والمدافعة عنه ، ولكنها مع ذلك التى أخذت تنمى لنفسها ملامح فاشية بقدر أو آخر ، أكثر من جنينى على أبة حال ، وذلك بتضخم آلة الحرب تضخما رهيبا جعل الحكم فيها أدنى إلى شركة مساهمة بين الاحتكارية والعسكرية أو بين تجار الأسلحة وتجار الحروب . وهى بهذا - موضوعيا - أول دولة تعرف لونا جديدا من الفاشية هى الفاشية المقنعة ، تميزها لها عن الفاشيات السافرة السابقة . ويكفيها شاهدا فى هذا المجال تصريحات بعض الساسة الأمريكين أنفسهم . من أولها ما قاله الرئيس الأسبق أيزنهاور عن التلاحم الوثيق بين رجال الصناعة والعسكرية وتحذيره من « حصول هذا المركب الصناعى - العسكرى على نفوذ لامبرر له » . ومن آخرها ما أعلنه مرشح للرئاسة الأمريكية من أن الولايات « لم تعد قلعة للديمقراطية ، وإنما أصبحت معقلا للديكتاتوريات » ، وأن « ما يحدث فى أمريكا الآن ... يشبه إلى حد كبير ألمانيا هتلرية عام ١٩٣٩ » .

والولايات بعد كل هذا وقبله وفوقه أول وأكبر قوة نووية في التاريخ ، وهذا عنصر لا يقبل المزيد من التعليق ، إلا أن نلاحظ فقط مغزاه في ضوء اجتماع الخصائص السابقة ، وهو أن هاهنا أول حالة لدولة عظمى في دور الشباب ، فوق رأسمالية ، شبه فاشية ، وفي نفس الوقت ذات قدرات - أو أنياب - نووية .

وإنه لمنطقي جدا بعد هذا - فيما يبدو للولايات - أن تتطلع إلى السيطرة العالمية المطلقة وألا تقنع بأقل من دور الوصاية الكاملة على هذا الكوكب . وهناك من يخشى أن تكون الولايات ساعية في معنى حقيقي جدا إلى إنشاء أول إمبراطورية كوكبية في التاريخ الإمبريالي وإن يكن في شكل غير مباشر هو الاستعمار الجديد ، أو قل الإمبريالية العليا أو العظمى ^(١) super-imperialism . لقد كانت أعظم إمبراطوريات الاستعمار القديم منها تعاضمت تغطي جزءا فقط من هذا الكوكب ، ولكن يبدو الآن أن الاستعمار الأمريكي الجديد يود أن يعوض عن الكثافة بالمساحة . وهناك من يرى - مثل نويني - أن الولايات المتحدة هي روما العصر ، بينما يسجل أحد قادة الولايات نفسها « أننا أصبحنا نقوم بالدور الذي كانت تقوم به الإمبراطورية البريطانية القديمة » .

غرور القوة

والولايات تكاد تتصور هذا رساله قدرها إن لم تتوهمه حقا إلهيا مقدسا . غير أنه بغض النظر عما قد تتخيله هي أو تدعيه عن مثالياته وفروسيات قوتها ، وبغض النظر كذلك عما إذا كانت تعتقد أن « الله أمريكي » أو أنها ظل الله على الأرض كما يسخر منها البعض مثلاً سخروا من بريطانيا القرن الماضي ، فإن الواقع الموضوعي هو أن عناصر القوة قد تحولت أحيانا في يد الولايات إلى أعلى مراحل غرور القوة ، إن لم يكن حقا إلى نوع من جنون القوة .

ففي رأي الكثيرين أنها إذ جعلت من نفسها رجل إطفاء العالم ، تحولت بالفعل إلى مفجر حرب العالم ، وأن تصورها لدورها كرجل بوليس عالمي انتهى بها إلى أن تصبح في الواقع دولة بوليسية إرهابية عظمى وقرصانا أو قاطع طريق دولي خطير . كما أنها : وقد جعلت من نفسها وريثة كل الاستعمار ، قد صارت تلقائيا قلعة الرجعية العالمية وزعيمة الثورة المضادة في العالم أجمع . وهذا مادعا البعض في وقت ما إلى أن ينتهي إلى

A. Abdel-Malek, Nation & revolution, p. 121.

أن الولايات أصبحت نقمة وكارثة حقيقية على العالم ومأساة العصر الكبرى . بل هناك من شبهها « بسرطان العالم » من حيث أن السرطان ليس أكثر ولأقل من نمو شاذ غير متوازن يظل يتضخم في جسم عضوى حتى يدمر خلاياه . وإذا كان العالم قد تحدث في مراحل متعاقبة عن الخطر الأصفر والخطر السلافى والخطر الشيوعى ... الخ ، فإن البعض يرى أننا اليوم نعيش في عصر « الخطر الأمريكى » (إقرأ : السلام الأمريكى) .

وأيا كانت النظرة العلمية إلى هذه الآراء ، التى قد تكون عاطفية أكثر مما هى خاطئة ، فلا جدال على الأقل أن هناك كثيرا من الموضوعية في نظرة دييجول فرنسا مثلا الذى أعلن كرجل دولة مسئول أن أخطر ما يواجهه العالم في القرن العشرين هو تضخم قوة أمريكا خارج كل حدود ... ومن الناحية العلمية البحتة يمكن أن نلخص جوهر مشكلة الولايات في العالم في أنها بحكم ظروف خاصة جدا جغرافية وتاريخية وصلت إلى الصدارة العالمية قبل الأوان ، وقبل أن تكون مؤهلة لها بالتاريخ والتجربة والنضج . ولعل هذا هو السبب الذى حدا بمؤرخ مثل توينبي إلى أن يتوقع أمد حياة قصيرة للصدارة الأمريكية في العالم ، فلا يتنبأ لها بأكثر من ٥٠ سنة على الأكثر من البداية إلى النهاية ، وهو مدى قصير للغاية إذا قورن بالصدارة البريطانية أو الفرنسية في الماضى ... الخ .

أما من الناحية العملية ، فإن عناصر القوة الأمريكية لم تعد مفتاحا أساسيا من مفاتيح السياسة العالمية فقط ، بل وأخطر عناصر الصراع والصدام الدولى المحتمل . فهدف السيادة العالمية كان حريا منذ البداية بأن يصطدم مع الاتحاد السوفيتى ومن خلفه الكتلة الشرقية ، كما يستدعى ابتلاع العالم الثالث . ولقد رأينا من قبل كيف كاد العالم غير الشيوعى في الستينات يبدو فراغا في نظر أمريكا ، وكيف كاد ملؤه يبدو عبء الرجل الأمريكى .

ونضيف هنا أن الذى يساعد الولايات على ذلك وجودها العسكرى من قواعد وأساطيل منبثة حول العالم كله تقريبا ، حتى كادت بذلك تصبح جغرافيا وسياسيا « جارا » - غير مرغوب فيه - تشترك حدوده مع حدود كل دولة تقريبا ، مثلا قد صارت « شريكا » - طفيليا - لها في وجودها وذلك بمخبراتها السرية وعملائها وتكنولوجيا التجسس والأقمار الصناعية ... الخ ، حتى قال البعض - يأسا أو سخرية - أينما تكونوا تدركم الولايات المتحدة !

ومن البديهي بعد هذا كله أن تكون الولايات على جانب الهجوم دائما . فبينما لا يملك الاتحاد السوفيتي أن يغامر بالردع النووي الشامل ، وجدت الولايات فرصتها الذهبية وسلاحها الفعال في استراتيجية الرد المرن والحروب المحدودة الصغيرة المحلية أو الإقليمية . وقد ساعد الولايات على ذلك وجودها العسكري الذي ذكرنا توا منتشرا في عشرات القواعد والتسهيلات بالإضافة إلى أساطيلها العديدة في محيطات العالم ، تلك الجزر الأمريكية العائمة أو الثابتة التي وصفت بحق أنها « الأرمادا الأمريكية » أو انكشارية العصر الحديث .

احتكار القوة

وأخيرا ، فلعل خير ختام لمرحلة الشباب العارمة هذه من حياة الولايات هو هذه المفارقة التي أوشكت أن توصل العالم إليها . ففي العصر الذي ظننا فيه أن استراتيجية السياسة العالمية أصبحت ثلاثية الأبعاد والأركان لأول مرة في التاريخ بحيث زال احتكار القوة المطلق الذي عرفته كل المراحل السابقة على القرن الحالى ، فى هذا الوقت أصبح أحد هذه الأركان ، وبالتحديد قطبه الأمريكى ، يتمتع بسيادة عالمية أحادية شبه مطلقة ترجح كثيرا كل ما عرفته بريطانيا مثلا فى أوج عصر احتكار القوة ، فإذا به بالفعل أو بالقوة يحكم من العالم أقله ويتحكم تقريبا فى أغلبه .

ولابد للباحث الموضوعى أن يعترف ، مؤقتا أو ظاهريا على الأقل ، أننا بمنطق غريب بل معكوس نعيش أو نكاد نعيش منذ الحرب الثانية قرن الولايات المتحدة ، وأننا نكاد نشهد الآن عصر « أمركة » العالم - سياسيا كما هو حضاريا - بعد أن عشنا عصر « الأوربة » فى القرن الماضى . وإذا كان ٤٪ من مساحة العالم فى غرب أوروبا قد نجحت حتى القرن الماضى فى السيطرة على ٩٦٪ من مساحة العالم ، فإن ٦٪ من سكان العالم هم سكان الولايات المتحدة يهدفون فى هذا القرن كما يبدو إلى السيطرة على ٩٤٪ من سكان هذا الكوكب .

ولقد كان الخطر الكامن فى هذه الاتجاهات الانزلاقية والنكوصية السائدة إذا هى استمرت أن يصبح عصر السيادة العالمية المطلقة للإمبريالية الأمريكية على مرأى النظر أو مرمى حجر كما أُنذر البعض . غير أن هذا الحسن حظ العالم أو لسوء حظ الولايات لم يحدث ، إذ جاءت السبعينات لتضع نهاية لمرحلة شبابها وتفتتح مرحلة التضج .

دور النضج والاستقرار

من المؤكد أن عقدة فيتنام وصدمة الوفاق تمثل تغيرا كيفيا أكثر منه كميا فقط ، وبالتالي نقلة جذرية في حياة أمريكا السياسية . ففي أتون فيتنام انصهر غرور القوة والغطرسة الأمريكية ، ثم أنضجتها نارها من أوهام الشباب والفتوة العاتية . وبالوفاق ، أفاقت الولايات على الحقيقة القاسية وهي أنها إزاء تحديات عالمية لم تعرفها من قبل ، وأنها كما عبر الرئيس الأمريكي بنفسه وقتها (نيكسون) لم تعد وحدها مع الاتحاد السوفيتي على قمة العالم ، وأن هناك قادمين جددا على الطريق ومنافسين أقوياء على الصدارة العالمية . وبصيغة مراحل التطور الجيوبوليتيكي ، فإن معنى هذا مباشرة وبيقين هو أن الولايات قد انتقلت أخيرا على صخرة فيتنام وعبر بوابة الوفاق من مرحلة الشباب إلى مرحلة النضج .

أزمة القوة

لقد أخذ ثقل أمريكا يتضاءل - نسبيا - في ميزان القوة العالمية وذلك بعد أن وصل إلى الذروة ولم يعد يستطيع أن يتجاوز « سقف » القوة إلى أعلى . ولم يكن هذا لتناقصي في مواردها أو قدراتها - هذه لا تكف عن النمو بشدة - وإنما ببساطة لأن عالم القوى قد اتسع كثيرا عما كان عليه حتى قريب ، وذلك بظهور تعدد المراكز . إن أمريكا ، بعبارة أخرى ، تنمو أكثر من أى وقت مضى ، ولكن العالم بات ينمو بسرعة أكبر .

من هنا فقد أدركت راعمة أن هناك « انكماش » نسبيا في حجمها ، وبالتالي فلا بد من تقليص نسبي لدورها . ومن هنا ، وليس من هناك ، اتجهت إلى المزيد من التعايش السلمى مع الاتحاد السوفيتي (الوفاق) والتقارب مع الصين (زيارة نيكسون) إلى آخر ذلك الانقلاب الكوكبي المثير الذي شهدته السبعينات الباكورة .

إن الولايات المتحدة ، كدولة ، تمر تحت ناظرينا وبصورة غير ملحوظة ولكنها درامية حقا من مرحلة الشباب أى التوسع إلى مرحلة النضج أى الاستقرار ، وهي المرحلة التى تكون الدولة فيها قد بلغت قمة القوة ولا تملك بعدها إلا أن تخسر ، ولذا تجد كل مصلحتها فى المحافظة على مواقعها المكتسبة ومكاسبها المتراكمة وعلى الوضع الراهن ، ساعية بذلك إلى الاحتفاظ « بسلامها » الذى سبق أن فرضته بالقوة ، وذلك دون الالتجاء ما استطاعت إلى المزيد من الحروب والصدامات . أى أن الدولة ، باختصار ، تقبل بالوضع الراهن Statis quo ، لتفرض منه الأمر الواقع

fait accompli ، وتستبدل بالعنف المباشر الخداع العنيف . وتلك هي حقيقة الحقائق في كل الموقف الأمريكي الراهن ، مثلما هي الحقيقة المفتاح في سياستها المقبلة .

فأما أن الولايات اليوم في أزمة فنعم ، أما أن حلها هو العزلة فلا . وهنا بالتحديد تكمن - علميا - مشكلة الولايات الراهنه مباشرة . إنها أزمة الانتقال من مرحلة في الدورة الجيوبوليتيكية إلى مرحلة أخرى في عالم متغير حتى النخاع . والارتداد إلى العزلة في وجه هذا التحدي ليس إلا من قبيل أوهام الماضي ، لأن العزلة كانت وظيفة طبيعية ملائمة لمرحلة بعينها ، ولكن لا مكان لها الآن ، لا في مرحلة تطور الولايات المتحدة نفسها ولا في عالم الصواريخ عابرة القارات وثورة المواصلات والنواة... الخ التي هي بالدقة أكبر صانعيها أيضا .

من احتكار القوة إلى توازن القوى

وإنما الاستراتيجية التي فرضت وستفرض نفسها على الولايات ، والتي خططت لها بالفعل في أوائل السبعينات على يد مهندسها كيسنجر ، هي العودة إلى النموذج البريطاني العتيق ، سياسة توازن القوى بدلا من سياسة مجابهة أو تناطح أو تناحر القوى ، وذلك لتلعب فيها دور « المرجح » الفصيل - كما يسمى تقليديا - بعد أن انتهى دور « المحتكر » المطلق . وهذا التحول يقترب ، إن لم ينتقل ، بنا إلى جوهر استراتيجية الصراع في القرن ١٩ ، وإنما على نطاق جغرافي أوسع كثيرا وعلى مستوى تكنولوجي أعلى جدا ، حتى لكأن معادلة اليوم هي تكبير لمعادلة الأمس .

فن الواضح منذ الوفاق في أوائل السبعينات أن الولايات إنما اتجهت عمدا إلى التعايش السلمى والانفراج مع الاتحاد السوفيتي وإلى التقارب مع الصين لا لينتهى صراع القوى ولكن لكي تدق على المدى الطويل فيما تأمل إسفينها نهائيا بين القوتين الشيوعيتين . كذلك فإنها لا تعترف بالاستقطاب المتعدد أيا كان عدد أطرافه لكي يؤلف « صفا أفقيا » يتساوى فيه الجميع أو تتساوى فيه مع الجميع ، وإنما ليؤلف « طابورا رأسيا » تقف على قته ، تضارب فيه من موقع المرجح ومن عزلتها بين المحيطين بين بقيتهم ، تمنع اجتماعهم ضدها أو استثناء قوة أو خطر أى منهم ، وتخلق فيهم المحاور الاستقطابية المتناقضة والمتحاربة التي قد يحيد أو يحطم بعضها البعض ، دون أن تتدخل هي أو تخسر من مكانتها أو تحرق أصابعها بقدر الامكان ، وإنما تقف من بعيد توجع الصراع وتجمع الأرباح .

وفى ظل هذه الاستراتيجية سيكون علينا أن نتنظر من أمريكا الكثير من مفاجآت المناورات التكتيكية ، وتغير المواقف الخداعية اللامبدئية ، التى لاتعرف حتى الولاء للأيدولوجية ، ولا تعترف إلا بقوة المصلحة ومصلحة القوة . ولعل التقارب مع الصين هو أول هذه المفاجآت . وسوف يكون على الدول الصغرى التى تتحدد مصائرنا بصراع العمالة أن تأخذ فى حسابها محاذير هذه السياسة اللاأخلاقية التى أكسبت النموذج البريطانى القديم من قبل صفة الغدر والغادر .

كذلك فعلى كل من تخافه أو هام عزلة أمريكية قادمة ، مهما لّوحت أو هددت هى بها ، أن يتخلّوا عن هذا الوهم العريض بل المريض . وفى حالة الشرق الأوسط بالذات ، وحيث يعنى الأمر إسرائيل بالتحديد ، فلسوف يظل الخطر الأمريكى قائما ومقما ، وإن يكن فى تركيبة جديدة . والمهم فى كل الأحوال أن صراع الأقطاب يحمل الكثير من المفاجآت والاحتمالات ، ويمكن أن يتبع أكثر من معادلة من معادلات القوة .

الولايات بريطانيا القرن ٢٠

وعند هذا الحد من السياق تقفز إلى الذهن ، لامفر ، دورة حياة الإمبراطورية البريطانية بالذات . فهى فى الحقيقة تمثل « مسودة » مصفرة ، أسبق وعلى مستوى أقل ، من دورة الإمبراطورية الأمريكية . أما الفارق فهو فارق المقياس بين « جزيرة » بريطانيا « وشبه قارة » الولايات ، وفارق العصر بين الثورة الصناعية والثورة التكنولوجية ، أى بين العصر الآلى والعصر النووى ، وهو أخيرا فارق الشكل بين الاستعمار القديم والجديد ، الفارق باختصار بين القرنين التاسع عشر والعشرين . وفيما عدا هذا فإن الولايات تكاد تكرر هذه الدورة فى مجملها وإن لم يكن بجذافيرها بالطبع .

فهى جزيرة عظمى بإزاء كتلة العالم القديم ، منها وليست فيها ، تتمتع بالعزلة والحماية وراء المحيط بكل اتساعه . وهى كبريطانيا لم يطأها غاز ، ولم تدبر على أرضها حرب لقرون . وكبريطانيا كذلك ، لم تكن تخرص على العزلة وتمارسها إلا ضمانة لحايتها فى دور النشأ والتكوين ، فقط ريثما يشند عودها لتنتقل ، لتطلقها بعد ذلك إلى الأبد . وهى إلى الأمس القريب جدا كانت فى أوج القوة وعلى قمة مرحلة الشباب ، غير أنها فى وجه تعدد المراكز الصاعدة وتصاعد المنافسة دلفت أخيرا جدا وبالتدريج الوئيد

إلى مرحلة النضج تنشأ مضطرة الاستقرار والمحافظة على مكاسبها ومصالحها المكتسبة في ظل الوضع الراهن .

وكما كانت الحرب العالمية الثانية بداية نهاية الإمبراطورية البريطانية ، وعبدان (مصدق) والملايو والسويس (ناصر) نهاية النهاية في الخمسينات ، جاءت حرب فيتنام (هوتشى مينه) بداية نهاية السيادة العالمية الأمريكية وإيران (خومينى) نهاية النهاية في أواخر السبعينات . الفارق الوحيد ، وهو أساسى للمستقبل ، أن الحرب الثانية كانت جيوبوليتيكا نهاية مرحلة النضج والاستقرار وبداية مرحلة الشيخوخة والانحدار ، وبالتالي نهاية دورة القوة برمتها ، في حالة بريطانيا ، أما فيتنام فنهاية مرحلة الشباب وبداية مرحلة النضج في حالة الولايات . ولذا فإن أمامها ما تزال أشواط مديدة من دورة القوة تمارسها وتقطعها .

ماذا بعد أمريكا ؟

ولكن يبقى مع ذلك أن إقامة أمريكا - بكل جرمها وجبروتها غير المشبوق أو الملهوق - على قمة السيادة العالمية المطلقة جاءت أقصر فعلا من كل تصور وأن نهايتها أتت أسرع من كل تقدير (راجع رأى توينبى) . فمن كان يظن أن تاريخ حياة أمريكا على ذروة السيادة العالمية يمكن أن يكون قصيرا جدا إلى هذا الحد ، أقصر قطعاً مما عمرت روما وبريطانيا ؟ ثم السؤال الأكثر غرابة وإثارة : ومن وماذا بعد أمريكا ؟ روسيا ؟ حسنا ، إن حدث فلن يكون ذلك إلا مصداقا لميكانيزم قوة البحر تلبها قوة البر في السيادة العالمية ، وتكرارا لتاريخ القوة العالمية خلال العصور الحديثة على الأقل . ثم من بعد روسيا ؟ الصين ؟ ... الخ ... الخ .

ومع ذلك فيكاد يكون من الصعب على المفكر السياسى المعاصر أن يتصور عالم الغد بلا أمريكا على القمة أو أن يتصور لها وريثا عليها فضلا عن غالب لها . وعلى ذكر الغالب ، مهما يكن الأمر ، فإن النبوءة الوحيدة التى قد يمكن الجزم أو التكهن بها ، إذا ما هزمت الولايات هزيمة استسلام شامل جدلا ، أنها قد لاتعود غالبا بنفس حدودها وحجمها وكيانها الجبار الراهن ، وإنما قد تمزق أوريبيا أو تفتت لآتينيا على الأرجح ، على صعوبة التصورين الفرضيين أصلا ، هذا كذا .

ثم ماذا ؟ حسنا ، لقد اتسع المسرح جدا وكبرت البانوراما للغاية عما كانا عليه في القرن الماضى ، وتبادلت القوى أدوار الشخصيات المختلفة ، لكن الدراما واحدة ،

دون أن يعنى هذا بالضرورة أن التاريخ يعيد نفسه . وإنما صراع القوى بين الأقطاب المتعددة سيتم من الآن على أساس أنه لم يبق للولايات المتحدة كما تحتفظ بالسيادة العالمية إلا أن تمارس من جزيرتها الكبرى في العالم الجديد لعبة توازن القوى بين منافسيها في العالم القديم ودور المرجح بينهم ، تماما مثلما فعلت بريطانيا من جزيرتها الصغرى إزاء منافسيها على القارة في الماضي .

دور الاتحاد السوفيتي

ميزان القوة

إن تكن الولايات المتحدة بطبيعتها قوة هجومية أساسا وبالضرورة ، فإن الاتحاد السوفيتي قوة دفاعية بالتفضيل والامتياز . ذلك ، بحكم كل شيء ، فارق استراتيجي محوري وجوهري لاسبيل إلى تجاهله أو التقليل منه . فلا هو فقط بحكم الأيديولوجيا وعبادة القوة ، ولا هو بقوة الثراء وتقدم العلم والتكنولوجيا ، ولكن أيضا بحكم التاريخ والجغرافيا ذاتها . ففضلا عن طبيعة الرأسمالية التنافسية ونزعتها التسلطية ، إضافة إلى إمكانياتها الفائقة وتفوقها التكنولوجي الباهر ، فإن الولايات لم تذق طعم الحرب على أرضها منذ ١٨١٢ . ولذا فإن استراتيجيتها المفضلة كانت هي دائما أن تدافع بالهجوم ، وأن خير الدفاع الهجوم ، وأن الهجوم للأقوى ، وهو نصف النصر ، بينما على الأضعف الدفاع والأضعف على الدفاع .

أما الاتحاد السوفيتي فكاد يكون النقيض تماما . فلايديولوجيته السلامية المعلنة ، ولتخلف مستواه الحضاري والمادى المعلن أيضا وانصرافه إلى رفعه وتحسينه ، ولكن أيضا وأساسا لأنه أكبر من خسر في الحروب العالمية وكان أبشع مسارحها ، فإن استراتيجيته الموروثة والمكتسبة هي بالضرورة الدفاع ، حتى الهجوم هو بالدفاع ، أي يتم عن طريق الدفاع . حتى الأسلحة السائدة عند كلا الطرفين ، للدهشة ولكن لا غرابة ، يصدق عليها نفس المقابلة . فأخطر أسلحة أمريكا المفضلة هي الصواريخ متعددة المدى والرووس والطائرات القاذفة المقاتلة الجبارة ، بينما أن أشهر الأسلحة الروسية عنده وحتى عند أصدقائه هي الصواريخ الدفاعية أمثال سام وغيرها .

هذا عن الخلفية العسكرية أو العقيدة القتالية ، أما إذا نقلنا إلى ميزان القوة ، فليس من السهل أن نحدد بدقة قاطعة من القوة الأولى داخل القطبية الثنائية . من ناحية

لتذبذب كفتى الميزان من مرحلة إلى أخرى ، ومن ناحية ثانية لأنه ليس بالقوة العسكرية البحت وحدها يكون قياس القوة بمعناها الشامل . وعموما فلقد كانت كفة الولايات هى الراجحة غالبا فى القوة العسكرية معظم مراحل الفترة الحديثة من الصراع ، وإن جنحت مؤخرا لصالح الاتحاد كما يقال أو كما يقول الطرفان على حد سواء .

على أن الذى لاشك فيه أن الاتحاد كان دائما ولا يزال متخلفا عن الولايات بالمعنى الحضارى الشامل . ففضلا عن مستوى المعيشة قطعا ، فإنه يقصر دونها كثيرا فى معظم خطوط الانتاج القومى والاقتصادى والزراعى والصناعى ، خاصة منها التكنولوجيا الحديثة فائقة التطور ، إلى حد أنه يعتمد اعتمادا خطرا على القليل الذى تسمح به منها ، بل وحتى كذلك على دول أوروبا الغربية الكبرى المتقدمة .

مثلا فى ١٩٦٨ بلغ حجم الانتاج القومى فى الاتحاد نحو ٣٥٠ بليون دولار ، مقابل ٧٤٣ بليوناً للولايات . ورغم أن هدف الاتحاد المعلن لا يعدو حتى الآن أن يلحق بمستويات الولايات فى القريب ، فإن معدلات نموه أسرع قليلا أو كثيرا من الولايات ، والفجوة الكلية بيننا تضيق باستمرار ، وإن انعكس الوضع فى السنوات الأخيرة على ما يبدو .

دولة فى مرحلة النضج

وإذا نحن أخذنا بما يقوله الاتحاد السوفيتى ، فإنه ملتزم بالسلام ويتبع سياسة سلامية أساسا ، ويعمل على إثبات تفوق نظامه عن طريق المنافسة فى الحياة لا فى الموت ، ويضع لنفسه هدفا محددًا فى المستقبل القريب هو الوصول إلى مستوى معيشة وإنتاج الولايات ثم تحطيمها . ومن الناحية الأخرى فهو لم يعد يتهم من أعدائه بتضدير الثورة إلى الخارج ، وهو يكتفى فيما يبدو بالمحيط الجغرافى الهائل الذى وصل إليه العالم الاشتراكى وبالمثل والنموذج القائم الفاعل فى صمت . وحتى فى أوروبا الغربية يسود الاعتقاد بأن خطر الغزو الشيوعى العسكرى لم يعد مسلطا ، أو كما قال سياسى بريطانى فى أوج الستينات العاصفة « إننا مستسلمون لوهم الخطر الروسى إلى حد العجز عن ملاحظة الاتجاهات الأشد خطرا فى السياسة الأمريكية ... » .

وهناك أسباب عدة لهذا الموقف الجوهري من جانب الاتحاد السوفيتى ، منها مبادئه الأساسية نفسها فالسلام مطلب اشتراكى أساسا ، ومنها بلا شك الانقسام الخطير الذى أصاب الكتلة الشرقية بالتزاع السوفيتى الصينى فأصابها بضعف دولى ملموس ، ومنها

كذلك أنه بعد ٦٥ سنة من الثورة والنضال الداخلى والخارجى المرير قد وصل إلى بناء مادى عمرانى ضخم يسعى للمحافظة عليه من خطر التدمير . وهنا نصل إلى نقطة قد تكون هامة فى تشخيص مرحلة النمو السياسى التى بلغها الاتحاد .

فع التفرقة الواجبة بين طبيعة الدولة الرأسمالية والدولة الاشتراكية وبين أهدافها ، فإن مراحل النمو السياسى والتطور الجيوبوليتيكى العام للدولة ككائن عضوى ليس ثمة ما يدعو إلى التفرقة فيها . ومن هذه الزاوية فإن الاتحاد السوفييتى كدولة يمكن أن يقال إنه تعدى مرحلة الشباب منذ حين ودخل مرحلة النضج . فرغم أن مرحلة الشباب فى الدولة الاشتراكية لا يمكن أصلا أن تستهدف أو تتميز بالتوسع الاستعمارى - وقد أنفقها الاتحاد بالفعل فى البناء الداخلى وضد العدوان الخارجى كما حدث حوالى الحرب الثانية - ورغم أن هذه الملامح لا زالت أهم معالم العمل السوفييتى ، فإن الأرجح أن الاتحاد قد بلغ الآن مرحلة النضج .

ولعل ما أعلنه فى الستينات بمناسبة مرور نصف قرن على الثورة من أنه الآن بدأت مرحلة الانتقال من الدولة الاشتراكية إلى الدولة الشيوعية بالمعنى الدقيق ، أن يشير إلى مرحلة النضج هذه ، وهى المرحلة التى يحرص صاحبها - رأسمالى أو غير ذلك لا يهم - على المحافظة على مكاسبه وإنجازاته ، ولذا يحرص على السلام بنفس الدرجة . بل لعل موقف الاتحاد من الصدع الذى وقع فى الكتلة الشيوعية بينه وبين الصين الشعبية ، والذى يتسم بالحرص على عدم توسيعه مهما كانت الاستفزازات ، أن يؤكد هذا التشخيص التطورى . وعلى أية حال ، فإن دولة الاتحاد السوفييتى أسبق وأقرب بالتأكيد من دولة الولايات المتحدة إلى مرحلة النضج ، سواء ذلك باعتبار تاريخه منذ الثورة أو قبلها .

وهنا يبدو على الفور فارق آخر ، فارق مرحلى يضاف إلى الفارق الأسى ، بين موقف الاتحاد والولايات من التعايش السلمى . ففضلا عن طبيعة النزعة المسلحة والإمبريالية الكامنة فى النظام الرأسمالى ، فإن الولايات المتحدة حتى وقت قريب جدا كانت دولة فى مرحلة الشباب بكل ما يعنى هذا من غرائز توسعية ونوازع عدوانية .. الخ . ومن الواضح من كل ما تفعله وتقوله (وما لا تقوله) الولايات ، أنها تنظر إلى التعايش السلمى كهedنة مسلحة مؤقتة تكسب بها وقتا أولا وأرضا ثانيا ، دون أن تتخلى عن خططها العليا للسيطرة والسيادة الكوكبية ، بما فى ذلك أساسا وأخيرا السيطرة على الكتلة الاشتراكية المضادة .

أخطار المرحلة

ومن الصعب عند هذا الحد ألا تقفز إلى المقارنة صراعات وتوازنات ما قبل الحرب الثانية . فما يفرض نفسه على الباحث الجيوبولتيكى ، ذلك التشابه الكبير بين مواجهات ١٩٣٩ ومواجهات يومنا هذا ، رغم عناصر الاختلاف التى لاشبهة فيها كذلك . فواجهة الحرب الثانية بدأت بصدام دولة فى مرحلة الشباب ، متحرشة مستفزة تريد التوسع وتمجد القوة (ألمانيا) ، ودولة فى مرحلة النضج حريصة أشد الحرص على مزاياها المكتسبة ولم تدخل الحرب إلا مترددة مرغمة فى النهاية وبعد وصمة استسلام ميونيخ الشهيرة (بريطانيا) .

فبغض النظر عن الفروق الجذرية فى النظم الاجتماعية ما بين فاشية ألمانيا ورأسمالية بريطانيا ، وكل استثمار ، وما بين رأسمالية الولايات المتحدة الإمبريالية واشتراكية الاتحاد السوفيتى ضد الاستعمارية ، فان تحرش الولايات واستفزازها وعدوانيتها المسلحة أحيانا من ناحية ، وحرص الاتحاد بأقصى درجات ضبط النفس على عدم التورط فى الصدام من ناحية أخرى ، يكرر أساسيات الموقف القديم . ومن أبرز استفزازات الولايات فى صميم المعسكر الشرقى حرب فيتنام ، وحلم الحرب الخاطفة - على نحو ما فعلت إسرائيل فى الشرق الأوسط - على ألمانيا الشرقية كجزء من حلم « تحرير ما وراء الستار الحديدي » .

أبعد من هذا ، فإن محاولة ألمانيا النازية المساومة مع بريطانيا (أو العكس ربما) على حساب الاتحاد السوفيتى بمشروع هتلر بالانقضااض على الشيوعية ، هذه المحاولة تكرر فى معنى ما محاولة الولايات المتحدة فى أكثر من مناسبة فى الستينات الأخيرة التلويح للاتحاد السوفيتى بالمساومة على اقتسام العالم وتفادى الصدام بين العملاقين ، وذلك على حساب العالم الثالث ، كبش الفداء الأساسى فى حالة مثل هذه الصفقة . وسواء عد الوفاق فيما بعد أو لم يعد تحقيقا لمثل هذه الصفقة الاستعمارية المشبوهة ، فإن هذا لا يغير من عناصر المقارنة ، كما أن فشل العرض النازى لم يمنع من وقوع الصدام .

وإذا كانت النازية بعد ذلك قد عادت فعقدت ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفيتى ، فلم يكن هذا إلا مناورة لكسب الوقت ريثما تنتهى من بريطانيا ، وبذا تتغذى بريطانيا وبعدها تتعشى بالاتحاد . وهذا أو شئ من هذا يكاد على الأرجح أن يكون خط الولايات المتحدة فى وقت ما . فع استحال الصدام مع الاتحاد بكل ما

يحمل من أخطار نووية ، ومع استحالة التواطؤ معه على مصير العالم واقتسامه مناطق نفوذ . تجمدت المواجهة بينهما في إطار تكتيكي مؤقت ، وانعطفت هي لتتغدى أولا بالعالم الثالث ، وبعده يمكن للتوازن العالمي الكتلي أن ينقلب تمهيدا للعشاء الأخير والأكبر .

التحدى الصينى

ثمة تصور آخر مختلف فى الأسلوب وإن اشترك فى الهدف . فنذ بدأ التفكك ثم التصدع بين العملاقين الشيوعيين فى الستينات ، والمعسكر الغربى وعلى رأسه الولايات يحاول بحذق لكن بحذر أن يعمق الهوة بين الحجرين ويجذب إليه الحجر الأكبر بالتدريج ، مستغلا فى ذلك الانتخاب الجنسى المعين للحرب النووية والذي يربط بينهما نهائيا فى المصير الذرى . وهم فى هذا يشيرون إلى أن مركز العداء والصراع السياسى فى أوربا تحرك دائما نحو الشرق تاركا عدو الأمس حليف اليوم : ففرنسا كانت عدوة بريطانيا ثم أصبحت حليفها ، ثم صارت ألمانيا عدوة الائتلتين فأضحت حليفتهما ، وقد أصبح الاتحاد السوفيتى عدو الجميع اليوم ، فما الذى يمنع بهذا المنطق - هكذا يتساءلون - من أن يتحول إلى حليفهم ؟ وبهذا تعود نظرية المحور الشمالى الأبيض ضد المحور الجنوبى الملون فتطفو على السطح فى نهاية المطاف . وبهذا أيضا يتحول الصراع المذهبى بين الكتل البيضاء إلى نوع من الصراع العنصرى بين الأجناس البيضاء وغير البيضاء ، أى يحل صراع أضداد جديد محل القديم .

أيا كان الأمر ، فإن الغريب مع ذلك أن الولايات المتحدة رفضت ، كما جاء على لسان كيسنجر فى مذكراته مؤخرا ، اقتراحا قال إن الاتحاد السوفيتى عرضه عليها يقضى بأن يقوم بضربة إجهاض نووية للصين قبل أن تستكمل تطوير برنامجها ويستفحل خطرها النووى بحيث يهدد كلا منه ومن الولايات على حد سواء . وسواء صحت هذه الراوية أم لم تصح ، فإن المغزى هو بلا شك خطورة وفداحة اللعبة برمتها أصلا . على أن هذا لم يمنعها من الاستمرار فى التصعيد بلا وجل أو كلل .

فنذ وصل الانشقاق الشيوعى إلى نقطة اللاعودة وأصبح العداء الصينى - السوفيتى أكبر من العداء الصينى - الأمريكى فى تقدير الكثيرين وفى تحديد الصينيين أنفسهم ، تسللت الولايات من ثغرة أو كوة الوفاق لتعميق الأخدود وتحويل التناقض إلى مجابهة نهائية ، وذلك عن طريق التقارب مع الصين بحيث تصبح مسافة الخلف بين الصين

والاتحاد السوفيتي أكبر من مسافة البعد بين الصين والولايات المتحدة . ورغم أن من المستبعد تماما أن تتحول العلاقة بين الأخيرتين إلى محور كمحور اليابان - الولايات المتحدة أو إلى امتداد له ، فإن هذا التقارب خطر حقيقي على الاتحاد السوفيتي ويمكن أن يفجر الموقف برمته في النهاية .

ذلك أن أى تقارب أو تحالف بين أى قوتين في الشرق والغرب من بين الأقطاب الكبار يضع الاتحاد السوفيتي فورا في حصار برى كامل أو بحرى شبه كامل . وأى حصار للاتحاد يعده أكبر تهديد وتحد له ، لأنه يفرض عليه أن يحارب في جبهتين في وقت واحد . وقد كانت الاستراتيجية التاريخية للاتحاد السوفيتي (وللقيصرية من قبل) هي أن يتحاشى بكل وسيلة أن تفرض عليه الحرب في أوربا وآسيا في وقت واحد ^(١) .

على أن مثل هذه اللعبة الأمريكية تكتنفها العقبات بقدر ما تحف بها الأخطار . ولعل هذا أن يفسر الجذر الشديد من جانب الولايات في ممارستها ، فضلا عن التناقضات الصارخة في أصولها وقواعدها . فالولايات من ناحية قطعت شوطا بعيدا ، وإن في حدود الأمن الاستراتيجي الغربي العام بالطبع ، في تسليح الصين بالأسلحة الحديثة المتطورة . ولكنها من الناحية الأخرى تخشى أيضا صعود القوة الصينية الماردة و « الخطر الأصفر - الأحمر » الخيف على المدى البعيد ، بحيث قد تنقلب اللعبة عليها في النهاية ويرتد السهم إلى صدرها هي . فشكلة الولايات وحيرة الغرب هي ، كما وضعها البعض ، أن عليهم أن يختاروا بين « النار أو الجحيم » ، بين « الخطر الأحمر - الأبيض » و « الخطر الأحمر - الأصفر » . وصميم المشكلة هو أى الشرين أهون .

فلئن كانت أمريكا ، فرضا أو جدلا ، تستدرج الصين إلى معسكرها أو صفها ضد السوفيت حتى تحالف معها في حرب ماحقة لهم ، مثلما استدرجت أوربا فيما مضى أمريكا والروسيا إلى حرب ضد ألمانيا في الحرب العالمية الثانية ، فماذا بعد ؟ لن انتصر الحلفاء على الروس ، فستكون الحرب العالمية الرابعة مع الصين على الأرجح - أليس كذلك ؟ مسألة وقت فقط ، وعدو الأمس صديق اليوم - والعكس بالعكس ، ومركز العداء كان ينتقل باستمرار نحو الشرق - أليس صحيحا ؟

Fitzgerald, The new Europe, p. 195; Cressey, Asia's lands & peoples, p. 245.

الخطر الداخلي

حسنا إذن ، هل يمكن - كبديل - أن يتحلل الاتحاد السوفيتي أو يتآكل وينهار من الداخل فرضا أو جدلا ؟ تصور آخر وآخر ، إن استعبده الكثيرون في الغرب فإنه مع ذلك يخامر عقول البعض في الأعماق أو في الوعي الباطن أو على الأقل من قبيل أحلام المني . فالكتلة الشرقية - يشير أصحاب هذا الرأي - موحدة فقط بالقوة والقهر وحدهما ، وهي تطفح بالتذمر والغليان والرفض المكبوت ، والانتفاضات أو الانتفاضات على « أخوة » المعسكر تنقط مسيرته منذ بدايته ، بل وتكاد ترسم سلسلة متصلة الحلقات تقريبا على أقصى تخومه الغربية بالذات ، أى في أبعد مدى عن قبضة الاتحاد السوفيتي ، ابتداء من يوجوسلافيا الأربعينات وألبانيا في الظل خلفها إلى بحر السنينات وتشيكوسلوفاكيا السبعينات ثم أخيرا بولندا الممانينات ، دون أن نذكر نزعة رومانيا الاستقلالية الراضية على أجناب الاتحاد نفسه مباشرة... الخ .

والواقع أن هذه المجموعة تقع جيوبوليتيكيا في نطاقين شبه متعامدين واحد رأسي وآخر قاطع ، وكل منهما يضم ثلاث دول متصلة الحدود . فالأول يشمل المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولندا ، وفيه قامت الثورة على المعسكر ولكنها سحقت حتى سقطت ، فهذا هو « العمود الساقط » كما قد نسميه . أما الثاني فيشمل ألبانيا ويوجوسلافيا ورومانيا ، وفيه المنشقون أو المرتدون أو الخوارج الذين أفلتوا من العقاب ولكن ظلوا « كقاطع الطريق » داخل المعسكر .



شكل (٣٤) خطوط الانتفاضة أو الانتفاض في أوروبا الشرقية ، ومثلث القوة في أوروبا الغربية .

وعلى الجملة ، فإذا كان معظم هذه التقلصات والتشنجات قد سحقت أو أجبط من الخارج أو من الداخل ، فإن هذا لا ينفى خطورة مغزاها ، وسقوط حجر واحد منها جدير بأن يؤدي إلى تفكك الجدار كله وانفراط العقد جميعا - « نظرية الدومينو » . ولعل هذا هو أساس محاولات الغرب الدائمة والدائبة ، سرا وعلانية ، لاختراق الكتلة بالدعاية الأيديولوجية والنموذج الغربي والعمل التحتي ... الخ . غير أن الاتحاد السوفيتي ، على الجانب الآخر ، لم يدع مجالا للشك في أن اختراق أو سقوط إمبراطوريته الرفاقية شرق أوروبا إنما يعنى الحرب بل ويعد بمثابة إعلان للحرب النووية .

على أن الاتحاد نفسه - يمضي مع ذلك أصحاب الدعوة - ليس أكثر من شرق أوروبا نجاسا أو تماسكا أو تمسكا بنظامه القهري المفروض . فحتى بغض النظر عن الجدل الأيديولوجي ومبدأ الشيوعية والطبقة والبروليتارية ... الخ ، أي النظام نفسه كنظام ، فما الاتحاد في رأيهم إلا عصبه أم خلاسية متنافرة لا رابط بينها من جنس أو قومية أو لغة أو دين أو تاريخ مشترك : إنه متحف سياسي هائل ، مجمع موحد وقائم فقط بالضم والغزو وبقوة القهر والجيش الأحمر ... الخ . إنه بسهولة تامة « إمبراطورية النمسا - المجر » الجديدة في القرن العشرين ، فقط إلى الشرق أكثر وعلى نطاق هائل أكبر وأكبر ، ولكن مصيره في النهاية مصيرها . فمثل هذا الهيكل المختلط المخلط لا يبقى سياسيا إلا ما بقي قادرا على البقاء بالقوة فقط ، ولكنه ينهار حالما يفقدها .

وأيا كان الأمر والرأي ، فالذي لا شك فيه موضوعيا أن كثيرا من أقليات الاتحاد وأقاليمه على استعداد تام ، إن لم نقل تواق ، لأن تغادره فوراً وتخرج من الاتحاد إذا ماسمح لها بذلك ، كما ينص دستوره على هذا الحق نظريا وإن جبهه تماما من الناحية العملية . يصدق هذا يقينا على دويلات البلطيق السابقة في الغرب ، ولكن أكثر منها على الدويلات والخانات الإسلامية القديمة في آسيا الوسطى ، حيث يخشى الاتحاد بالذات من تأثير الدعوات والحركات أو الثورات الإسلامية على التخوم المباشرة ، كالثورة الإيرانية الإسلامية خاصة في الفترة الأخيرة ، وحيث يجاهد الغرب بكل قواه الدعائية لحشد وتجنيد العالم الإسلامي كما رأينا في حرب « صليبية إسلامية » ضد الشيوعية والاتحاد وتمهيدا للانفصال عن الاتحاد أو الوقوف ضده ... الخ .

ماذا بعد الاتحاد

شيء واحد ، على أية حال ، مؤكد أو يكاد . لو هزم الاتحاد السوفيتي - فرضا - في

حرب عالمية تقليدية أو نووية دون أن يدمر من الوجود ، فأغلب الظن أنه سيفقد بعدها كيانه الإمبراطورى وإمبراطوريته الراهنة . فإن لم يمزق تمزيقا مثل إمبراطورية النمسا - المجر أو الإمبراطورية العثمانية فى السابق ، فإنه على الأقل سيقسم كألمانيا حاليا . فإن كانت الأولى - فدونك لاشك عدة دول مستقلة على البلطيق وربما فى أوكرانيا ، فضلا عن دولة إسلامية أو أكثر فى آسيا الوسطى والتركستان ، هذا عدا تنصيب سيبريا إلى دولتين أو أكثر ربما ، إن لم يكن سلخها منه كلية أو اقتطاع شرائح ضخمة منها للصين وربما اليابان ، بحيث لا يتبقى من الاتحاد سوى نواته النووية الروسية الأوربية الأم .

المهم والمؤكد أن المنتصر لن يسمح له غالبا بأن يعود كما كان بكيانه العملاق الحالى . وليس هذا على هوله وخرافته بالشىء المستبعد تماما فى عالم السياسة والقوة ، فهو احتمال وارد وإن بدرجة أقل كما رأينا على الولايات المتحدة نفسها إن هى هزمت الهزيمة الكاملة . وفى كلتا الحالتين ، فيبدو أن عصر زوال الإمبراطوريات غير الاستعمارية أو شبه الاستعمارية أو الكتلية المتدمجة (الاتحاد والولايات) يتواكب ويتناسب مع أبعاد العصر النووى ، مثلما تواكب وتناسب زوال الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة (بريطانيا وفرنسا) مع أبعاد العصر الصناعى .

خطورة مثل هذا التطور أو التصور ، مع ذلك ، أنه يترك الدول الوطنية الماثوثة بطبيعتها ، أى غير الإمبراطورية ، كالهند ولكن الصين خاصة ، يتركها فادحة الحجم شاحنة وحدها على خريطة العالم السياسية مما يدخل عنصر اختلال جسيم وخطر على التوازن العالمى والدولى بأسره ، فضلا عن أنه يقحم على الصورة عنصرا جديدا تماما ليس كميا فحسب ولكن كينى أو نوعى أيضا ، بل ربما أخطر وأدهى ، وهو عنصر العنصرية . فهذه العالقة المتبقية والوارثة فرضا هى ، كما يتفق ، أسوية من العناصر « الصفراء والملونة » بالتصانيف الأوربية السائدة تقليديا ، فضلا عن أنها مهد للتخلف ووعاء للفقر... الخ .

فإن حدث هذا (جدلا ، نكرر) لكان معناه انتقال السيادة العالمية يوما ما من أوربا (أو امتدادها أمريكا) إلى آسيا ، عودة - يعنى - إلى نمط العصور القديمة الغابرة... الخ . غير أن مثل هذه النتيجة بحد ذاتها جديرة بأن تكون داعيا لدى المنتصرين فى حرب العملاقين التى افترضناها نظريا إلى إعادة النظر فى مبدأ تحطيم أو تمزيق أو تصفية الدول شبه الإمبراطورية شبه الاستعمارية السابقة ، والاكتفاء بتقليمها تقليا مؤثرا فعلا .

على أن كل هذه النبوءات المستقبلية المتطوِّحة جدا وتلك النبوءات المضادة وغيرها ، دعنا لا ننس في النهاية ، إنما هي فروض أكاديمية شرطية صرف وشروطها فاسخة بالفرض ، ويبقى لذلك أن ننتظر لنرى حتى سنة ٢٠٠٠ أو ٢١٠٠... الخ . على أن الذى يمكن أن نجزم به على الفور هو أن مركز ثقل الصراع العالمى ، تمييزا له عن مركز ثقل السيادة العالمية ، بات يتقل وثيدا بل بمجدة نحو الشرق إلى آسيا ، وهو ما ينقلنا بالفعل إلى موضوعنا التالى .

صراع القارات :

بين أوروبا وآسيا

ما زلنا نميل إلى أن نفكر فى آسيا ، كعالم بشرى وكمحيط سياسى ، فى صيغة متخلّفة نوعا ، صيغة من بقايا الماضى الاستعمارى أو ما بعد الاستعمارى القريب . فصورة آسيا فى أذهاننا لا تخرج فى مجموعها عن أن تكون كبرى قارات العالم الثالث (مثلا هي كبرى قارات الدنيا ابتداء) ، فهي إذن قارة التخلف ، وسيادة الزراعة ، وضغوط السكان الساحقة ، ومستويات الدخول والمعيشة الحدية أو دون الحدية... الخ .

المتغيرات الجديدة

ولاشك أن هناك قدرا كبيرا من الصحة فى هذا التصور ، لكن الأصح منه أن آسيا تطفر اليوم بمعدلات فريدة ، اقتصاديا وصناعيا وتكنولوجيا وعسكريا . وإذا كانت قطاعات محدودة منها - كاليابان - هي وحدها التى تقارن بالعالم الغربى ، إن لم تفقه ، فإنها فى مجموعها تعد على أقل تقدير أكثر قارات العالم الثالث تطورا وتقدما ، كما لا شك فى أنها ثالث قارات العالم كله بعد أمريكا الشمالية وأوروبا من حيث الوزن والأهمية ومقاييس القدرة العصرية .

وتنعكس طفرة آسيا المادية والحضارية هذه فى المجالين السياسى والاستراتيجى بصورة درامية . فنذ الحرب العالمية الثانية ، وآسيا طرف أساسى فى لعبة السياسة الدولية ، لا يمكن تجاهله ، ويشغل حيزا ضخما ومتزايدا من اهتمامات وهموم القوى العظمى . وعلى سبيل المثال ، فلقد كانت الولايات المتحدة منذ الحرب موزعة اهتماماتها ومصالحها بين أوروبا وآسيا وبين الأطلسى والمحادى . وكثيرا ما كانت أوروبا الغربية تصاب بالقلق حين تستشعر أن حليفها الكبرى تمنح آسيا قدرا أكبر مما ينبغى من الاهتمام . بل

بدا في وقت ما - أيام تغاقم الموقف في فيتنام - أن مركز ثقل اهتمام الولايات المتحدة يكاد يتذبذب من أوروبا إلى آسيا . بل لقد وصل الأمر اليوم إلى حد أن كثافة وحجم ومعدلات التجارة الأمريكية عبر الهادى أصبحت تزيد على مثيلاتها عبر الأطلسي . مما يعكس مدى خطورة المصالح الأمريكية في آسيا .

وفي كل الأحوال فإن دول أوروبا الغربية لم ترض قط عن انغماس الولايات المتحدة وتورطها أكثر من اللازم في الحروب والصراعات والمشاكل الآسيوية ابتداء من الحرب الكورية حتى الفيتنامية ، ولا قبلت أبدا أن تبدد طاقتها وتنفق جهدها في آسيا . على الأقل حتى لا تترك الجبهة الأوربية الأساسية مكشوفة مفتوحة أمام الخطر السوفيتي . والواقع ، تماما كما كان الروس والسوفيت يجدون دائما تعارضا كامنا بين اهتماماتهم الأوربية والآسيوية المتزامية الأنحاء ، وجدت الولايات منذ خروجها إلى قيادة العالم وربما قبله شيئا من التعارض بين اهتماماتها الأوربية والآسيوية وبين الأطلسي والهادى .

غير أن الأمريكي العادى ، الذى لا تزال تؤرق مخيلته أشباح دعايات الماضى عن « الخطر الأصفر » الزاحف ، أصبح الآن يهتم بأحداث آسيا ربما أكثر منه بأخبار القارة الأم أوروبا . ويكفى أن نرى رئيس الولايات المتحدة « ينحج » بالأمس القريب ساعيا إلى آسيا وقلبا الصين بطرق باجها ويعترف بها بعد تجاهل وإنكار واستنكار واستنفار طويل مرير . وليس معنى هذا كله أن أهمية أوروبا أو أخطارها ومشاكلها قد تضاءلت . ولكن إلى جانبها أضيفت أهمية وأخطار قارة طافرة هي آسيا .

عودة آسيا

والآن ، ومنذ انطلاقة اليابان الصناعية والاقتصادية العارمة « وقفزة الصين الكبرى إلى الأمام » ثم صراعات القوة المتعددة الأطراف داخل القارة وآخرها مجابهة الهند - الباكستان ثم العراق - إيران ، فإن آسيا تلفت أنظار العالم بعنف ، ليس فقط إلى وجودها المؤثر وجرمها العظيم ولكن أيضا إلى دورها المستقبل ، لا كمجرد مجموعة قوى محلية أو اقليمية فعالة ، ولكن كقوى دولية عظمى دخلت بالفعل دائرة القوة العالمية التى كانت حكرا على أوروبا وأمريكا ، تسهم بحق في تشكيل مصير العالم ، وتعد طرفا موجبا في معادلة القوة . وسواء عد القرن الحادى والعشرون قرن آسيا أو عدت آسيا قارة القرن الحادى والعشرين كما يتنبأ البعض ، فإنها من قبل تمثل ركنا جوهريا من أركانه ومركزا من مراكز الثقل الجيوبوليتيكي فيه .

والواقع أن آسيا - نصف البشرية تقليديا - مركز طبيعي من مراكز القوة العالمية (بلغ عدد سكان آسيا سنة ١٩٨٠ نحو ٢٦٠٥ ملايين من مجموع سكان العالم البالغ ٤٤٧١ مليونا ، أى بنسبة ٥٨,٣٪) . فعدا الكثافة السكانية الثرى ، هناك الورااء الحضارى العريق والتاريخ الطويل المفعم . ولندكر أنه لفترة طويلة جدا فى العصور القديمة والوسطى ، كانت آسيا مركز القوة الأعظم فى الدنيا ، تسيطر على العالم القديم تقريبا ، وتتحكم بموجات رعاتها الكاسحة فى مصير أوروبا وتكاد تتفوق عليها دائما . ويكنى أن ماكيندر أخضع كل تاريخ أوروبا السياسى وغير السياسى ، القديم والوسيط ، لتاريخ آسيا ، وليس العكس^(١) . ثم لا ننسى بعد ذلك دور اليابان الحديثة فى القرن العشرين وأثناء الحرب العالمية الثانية كقوة عظمى بكل المقاييس . وعلى هذا فإن « ظهور » آسيا البارز اليوم إنما هو عود على بدء فى الحقيقة ، والأحرى أن نقول « عودة » آسيا . ولكل هذا المغزى فإن آسيا المستقبل تستحق نظرة جادة وجديدة .

آسيا الجديدة :

أوروبا القرن الجديد ؟

التناظر الجيوبوليتيكى

ومهما حاولنا ، فلن نستطيع المبالغة فى تقدير مغزى بروز آسيا على مسرح القوة العالمية . وفى هذا الصدد يكنى أن نسجل الحقائق الآتية . أولا ، آسيا هى التى افتتحت ثورة التحرير وتصفية الاستعمار وتبلور القوميات الناهضة فى العالم الثالث الذى أعطته بذلك المثل والدفعة .

ثانيا ، فجرت أعظم الثورات الشعبية الأيديولوجية (الصين) ، والتطورات السياسية والاقتصادية (الهند) منذ الحرب العالمية الثانية ، ثم أخيرا أخطر الثورات الإسلامية الحديثة رغم كل شىء (إيران) .

ثالثا ، شهدت أهم خطط التنمية والتطور الحضارى والأخذ المتصاعد بالتكنولوجيا العصرية بين الدول النامية ، ودعك من اليابان التى تنافس على صدارة العالم صناعيا واقتصاديا .

On the scope & methods etc., p. 2,22.

(١)

رابعا ، كانت مسرح أكبر عدد من الحروب منذ الحرب العالمية الثانية ، سواء من حروب التحرير الوطنية ضد الغزو الإمبريالى أو صراعات القوميات الآسيوية محليا (الحرب الكورية ، حرب فيتنام والهند الصينية ولاوس وكمبوتشيا ، حرب الحدود بين الصين والهند ثم بين الصين والاتحاد السوفيتى ، حروب الهند - الباكستان الثلاثة ، ثم أخيرا حرب العراق - إيران) .

والواقع أن هذه النقطة الأخيرة تنقلنا إلى ملاحظة بالغة الأهمية . فبعد انتهت الحرب العالمية الثانية لم تكف آسيا عن القتال وكانت دائما فى حرب مستمرة هنا أو هناك ، وذلك فى الوقت الذى وضعت أوروبا السلاح رغم كل توترات الحرب الباردة وسباق التسلح وأخطار الصدام ومحاذيره . هذا فضلا عن الثورات الشعبية والانقلابات العسكرية التى تمور بها آسيا وتفور ، دون أوروبا بالطبع . شديدة الاستقرار بالغة النضج والهدوء . لقد أصبحت آسيا ، وليس أوروبا ، هى مسرح الحرب الجديد وأرض المعركة وحلبة الصراع فى العالم . إنها بكل وضوح ترث دور أوروبا التقليدى فى هذا المجال ، رغم الفارق الأساسى أو النسبى بين عدوانية حروب أوروبا القديمة غالبا وتحريرية حروب آسيا المعاصرة عادة .

والملاحظ بالفعل أن أوروبا ، بعد أن فقدت إمبراطوريتها الاستعمارية وراء البحار ، وبعد عودتها إلى القارة الأم ، تدخل الآن مرحلة من الاستقرار السياسى النادر ، وتتجه تحت ضغوط العالم المتغير وحماية للنفس إلى تصفية إرث الماضى ونتائج الحرب العالمية الثانية ثم إلى التكامل والوحدة الأوروبية ، أى إلى مرحلة مابعد القومية أو ما فوق القومية supra-national (فوقية كما صك البعض)^(١) .

أما آسيا فتدخل الآن بعد يقظتها مرحلة الكيانات القومية الجديدة ، وتجتأحها كل آلام النمو والثورات والانقلابات الداخلية وتقلصات الصراعات الوطنية والاضغوط الخارجية التى عرفتتها أوروبا خلال القرن التاسع عشر وما حوالية . وهنا أيضا تتكرر الدورة بدرجة أو بأخرى ، وتبدو آسيا وكأنها أوروبا القرن الجديد ، وذلك بالطبع فيما عدا فارق العصر وعنصر النسبية وإيقاع الأوضاع العالمية .

أكثر من هذا ، يرى بعض المراقبين أن مركز ثقل الصراع العالمى يتحول بالتدريج إلى

(١) نور الدين حاطوم ، تاريخ عصرنا ، ١٩٧١ ، ص ٥ .

آسيا . والعلامات والمؤشرات كثيرة في هذا الاتجاه فعلاً . فالمحيط الأطلسي ، كبحيرة حلف الاطلنطي الخاصة ، قد أصبح نسبياً « بحر السكون » ، بينما انتقل الخطر إلى المحيط الهادى ، « بحر العواصف » منذ الحروب الأمريكية العديدة في الشرق الأقصى . ولعل من المنطقي بعد هذا ، وقد عد البعض آسيا قارة القرن الحادى والعشرين ، أن يعدوا المحيط الهادى ، محيط آسيا أساساً ، محيط القرن الحادى والعشرين .

والبحر الأبيض المتوسط ، الذى كان خندقاً عسكرياً لأوروبا ، فقد هو الآخر بعضاً من أهميته الاستراتيجية القديمة ، وكثيراً من صراعاته البحرية التقليدية ، ولو أن المواجهة بين الأسطولين الأمريكى والسوفيتى أعادت إليه مؤخرًا الكثير من خطورته . وبالمقابل ، فلقد بدأ المحيط الهندى يكتسب أهمية استراتيجية متزايدة ، وبدأت القوى البحرية العظمى عملية من « التكالب » على القواعد العسكرية فيه ، بينما أخذت دول جنوب آسيا حوله تشعر بخطر تحولهِ إلى بحيرة صراع عالمى وتدعو إلى تحييده . وتكاد الهند بالذات تشعر أنها حبيسة الهندى ، مثلما كانت إيطاليا تشكو من أنها حبيسة البحر المتوسط .

التناظر الجيوستراتيجى

إلى هذا المدى إذن يذهب التناظر التاريخى بين آسيا وأوروبا . غير أن هذا بدوره يؤدى بنا إلى قدر مماثل على الأقل من التناظر الجغرافى العريض بين القارتين . والحقيقة أن التناظر الأول إنما هو انعكاس للثانى إلى حد بعيد ، لأن الواقع أن القارتين أشباه نظائر جغرافية فريدة geographical parallels ، إذ تكاد الواحدة تكون صورة مرآوية مقلوبة أو معكوسة ولكنها مصغرة أو مكبرة من الأخرى enantiomorph ، mirror-image .

فن الواضح مثلاً أن القارتين تنتهيان في الجنوب كل بثلاثة أشباه جزر جبلية متقابلة ، بينما يتناظر البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندى في الشكل العام والهيئة الطبيعية إلى حد بعيد . وعلى الجانبين تأتى اليابان وهى بحق « بريطانيا الشرق الأقصى » في أكثر من معنى ، في حين تتناظر الصين وفرنسا بسهولة . وفي الوسط على جبهة الالتحام بين القارتين تتناظر هضبتا إيران والأناضول المتقابلتان إلى مدى بعيد للغاية ، مثلما يفعل حوض سهول طوران أو التركستان في آسيا الوسطى مع حوض سهل المجر في وسط أوروبا . ومن الممكن للباحث أن يمضى هكذا بعيداً في استقصاء أوجه التناظر

والتشابه بين وحدات القارتين في جغرافيتهما الطبيعية والبشرية ، ولكن حسبنا هنا بالطبع الجانب السياسى وحده (١) .

وها هنا تبدو لنا شبه جزيرة الهند الصينية فى أقصى جنوب شرق آسيا كالنظير المباشر لشبه جزيرة البلقان فى جنوب شرق أوروبا ، بل إنها لتسمى أحيانا « بلقان الشرق الأقصى » . فهنا وهناك بيئة جبلية غائية وعرة ، تختطها الأنهار محتوية أحواضا وأودية متقطعة تتعدد فيها الأقليات والجيوب والأسافين الجنسية والقومية والدينية ، وتتعدد الحدود السياسية ، وبالتالي تثور مشكلات الأقليات والحدود المزممة ، فتتفاقم الحروب وتتعاقب بلا حصر. وكما كانت البلقان « برميل ديناميت أوروبا barrel of dynamite of Europe » فى الحرب العالمية الأولى ، كانت الهند الصينية بؤرة الحرب فى آسيا منذ الحرب الثانية بلا انقطاع (٢) .

أما شبه جزيرة الهند فتناظر توا شبه الجزيرة الإيطالية فى الموقع والشكل ، ولكل منها كدول وزنه وحجمه الكبير ودوره التاريخى العريق فى قارته ، كما أن له مشاكله السياسية الحادة كحجيس بحره أو محيطه كما أشرنا منذ قليل . وعلى الجملة ، فكما تعد إيطاليا بصفة تقليدية الدولة الرابعة الكبرى فى أوروبا حاليا بعد بريطانيا وفرنسا وألمانيا ، فإن الهند هى رابعة الدول الكبرى فى آسيا بعد اليابان والصين والاتحاد السوفيتى . وهكذا وهكذا إلى آخره .

ولانتقل أوجه التناظر بين آسيا وأوروبا إذا نحن انتقلنا شمالا إلى مراكز القوة والثقل الحقيقية . فإذا كانت أقطاب القوة فى غرب أوروبا تتركز كما رأينا فى « مثلث القوة » الشهير بريطانيا - فرنسا - ألمانيا ، فإنها فى شرق آسيا تتركز فى مثلث اليابان - الصين - الاتحاد السوفيتى (القطاع الآسيوى) . بل وكما كانت هولندا وبلجيكا داخل المثلث الأول تمثل أرض المعركة بين رؤوسه أو منطقة الخمود والتحييد بين أضلاعه ، فكذلك كانت كوريا ومنشوريا حتى وقت قريب داخل المثلث الثانى . بل وكما سميت المنطقة الأولى « حلبة صراع أوروبا » ، سميت الثانية « مهد الصراع فى آسيا » .

كذلك فلو قدر لآسيا أو عليها أن تشهد صراعا على القوة فى المستقبل ، فلن يخرج هذا الصراع عن أطراف ذلك المثلث ، التى تدخل ثلاثتها بالفعل فى هيكل الاستقطاب

(١) جمال حمدان ، بين أوروبا وآسيا ، دراسة فى النظائر الجغرافية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

(٢) C.A. Fisher, "South-east Asia: Balkans of the Orient?", Geography, 1964.

الخامسى الذى يتصوره البعض للنظام العالمى المستقبلى كما سنرى . والمهم هنا على أية حال أنه بينما بدأت أقطاب مثلث القوة الأوربى تتقارب وتتجه إلى الوحدة بعد صراعات دامية استمرت قرونا ، فإن أقطاب المثلث الآسيوى تتباعد كل يوم أيديولوجيا وقوميا وتتجه على ما يبدو إلى صراع لاندرى طبيعته ولامداه بعد .

استراتيجية الصراع ومحاور الاستقطاب

ما ندرى ، على أية حال ، هو أن نمط الصراع الراهن يؤكد مرة أخرى أن آسيا المعاصرة هى إلى أبعد حد معقول أوربا القرن العشرين ، وأن آسيا النصف الثانى من القرن العشرين تكاد تكرر أو تترث دور أوربا ودورها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ليس ذلك فقط كأكبر مسرح للحروب المحلية والمحدودة فى العالم سواء أكانت حروبا وطنية أو معادية للإمبريالية ، ولكن أيضا كأكبر مجال للضغوط الخارجية ومواجهات القوى الأجنبية العظمى .

فعن الأولى ، تكاثرت محاور الاستقطاب والصراع الداخلية فى القارة حتى اكتسبت أنماطا محددة واضحة . وعن الثانية ، فكما تعرضت أوربا القارة فى القرن التاسع عشر لضغوط بريطانيا القوة العالمية السائدة ، فكذلك تتعرض آسيا اليوم لضغوط الولايات المتحدة القوة العالمية السائدة الجديدة . وبطبيعة الحال فلامفر من أن تتركز هذه المواجهة الرئيسية مع القوى الآسيوية الكبرى خاصة مثلث القوة التقليدى ، كما لا مفر كذلك من أن تتأثر الصراعات المحلية الداخلية وتشكل بهذه الضغوط الخارجية الغالبة حتى لتكاد أحيانا ألا تعدو امتدادا أو صدى لها إلى حد أو آخر .

استراتيجية الصراع

فإذا ما بدأنا بالضغوط والصراعات الكبرى ، فلعل اليابان هى أضعف رؤوس مثلث القوة الآسيوى حاليا ، وذلك باعتبارها قزما سياسيا وإن كانت عملاقا اقتصاديا . فهى بلا أنياب نووية حتى الآن ، تقع تحت المظلة النووية الأمريكية ، وتمثل عمليا قاعدة ارتكاز الولايات المتحدة على حافة القارة . والواقع أنها فى محور الاستقطاب الأمريكى - اليابانى تكاد الآن تكون مجرد رأس جسر لإسفين يمكن أن تدقه الولايات المتحدة بين ضلوع العالم الشيوعى . بل قد لا نبالغ إذا قلنا إن اليابان حاليا منطقة خمود أو شبه فراغ سياسى تملؤه أمريكا بين رؤوس مثلث القوة العالمى (الولايات - الاتحاد - الصين) أكثر منها رأسا من رؤوس مثلث القوة الآسيوى التقليدى (الاتحاد - الصين - اليابان) .

هكذا إذن يختزل صراع القوى العظمى الفعال على القارة إلى ثلاثية الولايات - الاتحاد - الصين . وبطبيعة الحال فلقد تعرضت استراتيجية هذا الصراع لانقلاب جذرى كامل منذ الانشقاق السوفيتى - الصينى . فتغيرت المواقع وتبدلت الأدوار تماما بصورة درامية حقا . فابتداء ، بينما كانت أمريكا هى التى تحاول حصر الصين واحتواءها بحلف جنوب شرق آسيا (السيئو) ، أصبح الاتحاد بمشروع برجنيف للأمن الآسيوى هو الذى يحاول . وبعد أن كانت الولايات المتحدة هى العدو الأول للصين ، أصبح الاتحاد السوفيتى هو هذا العدو . ومن ثم فقبل الانشقاق كانت معادلة الصراع كالتالى : الاتحاد + الصين ضد أمريكا لإخراجها من القارة . أما بعد الانشقاق فقد أصبحت المعادلة كالتالى : أمريكا + الصين ضد الاتحاد لمنع توسعه فى القارة . فمن الحالة الأولى الحرب الكورية ثم حرب فيتنام ، ومن الحالة الثانية حرب كمبوتشيا ثم حرب أفغانستان .

وإذا كانت الاستراتيجية العظمى للولايات أصلا هى تطوير الاتحاد السوفيتى سواء فى أوروبا أو آسيا ، فإنها قد خسرت باستمرار حروبها على اليابس الآسيوى حتى خرجت منه تقريبا واقتصر وجودها على هوامشه الجزرية أساسا كما فى اليابان وتايوان والفلبين . ولم يكن مبدأ نيكسون من ترك آسيا للآسيويين سوى اعتراف بالقانون الاستراتيجى القديم عن عجز قوى البحر الخارجة عن تحقيق نصر عسكري أرضى أو الاحتفاظ بموطئ قدم على اليابس الآسيوى . وعلى العكس من هذا تقريبا ، تحقق للاتحاد السوفيتى توسع مطرد متصل على اليابس الآسيوى . ولم يكن هذا بدوره إلا مصداقا لنظرية ماكيندر عن خطر توسع المارتلاند كقوة بر فى آسيا أرضيا نحو الخارج والهوامش البحرية . لقد خرجت أمريكا تقريبا من يابس القارة ، وخرج الاتحاد تقريبا من الحصار القارى .

محااور الاستقطاب

تلك هى الخلفية العريضة للخريطة الاستراتيجية لصراع الكبار على المسرح الآسيوى . ولايتبقى لنا الآن سوى أن « نركب » عليها محاور الصراع المحلى بين القوى الأصغر ، تلك التى ظهرت عليها بواذر وأعراض استقطاب محورى حاد وعنيف فى أكثر من حالة . وهى كما يلاحظ محاور تتقاطع غالبا ، وتقطع القارة من أقصاها إلى أقصاها أحيانا ، ولكن من أطرافها الاتحاد والصين دائما .

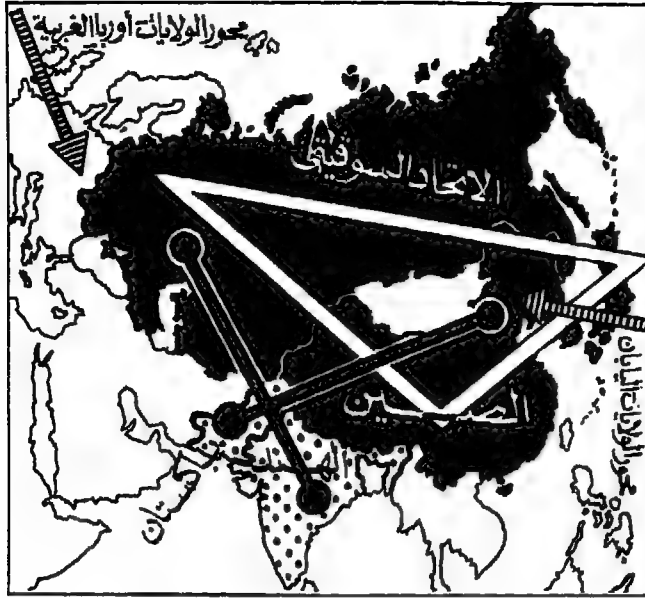
ولاشك أن أبرز وأخطر هذه المحاور الثانوية محور الاتحاد - الهند ضد محور الصين -

الباكستان . فلقد كشفت آخر حروب الهند - الباكستان في مطلع السبعينات ، وبصورة درامية ناجزة ، عن انبثاق محورين متصارعين ، متقاطعين متعامدين كأنهما سيفان متبارزان عبر القارة : محور عمودى قطباه الاتحاد في الشمال والهند في الجنوب ، ومحور عرضى قطباه الصين في الشرق والباكستان في الغرب . وإذا كان هذا الاستقطاب المحورى الخطير ، الذى يكاد يتعامد بدوره على كل منطق الانتماءات والولاءات الأيديولوجية ، قد ختم إلى حد بعيد على مصير الباكستان ، فقد حسم أكثر من جولة فاصلة من الصراع بين العملاقين الاتحاد والولايات وكذلك بين الاتحاد والصين .

أخيرا كذلك فلقد كشفت حرب فيتنام بعد انتهائها عن محورين ثانويين متقاطعين برزا نسبيا في السنوات الأخيرة : محور الاتحاد - فيتنام ضد محور الصين - كمبوديا ، حيث شبه التدخل الفيتنامي في كمبوديا بتدخل هتلر في النمسا قبيل الحرب الثانية (Anschluss) ^(١) . وما زال الصراع سجلا حولها ، هذين المحورين ، على شكل حروب أهلية وعملية محدودة ولكنها ممطوطة ومرهقة .

الطريف ، أخيرا ، أن هذه الصراعات والمحاور المحلية الثانوية لها أثرها الذى ينعكس على أطراف الصراعات الكبرى في القارة ، خاصة الولايات المتحدة . فعظم حلفاء الولايات اليوم في آسيا ابتداء من جنوب كوريا إلى جنوب شرق آسيا يرون أن الولايات قد مالت إلى الصين أكثر مما ينبغي وضد الاتحاد السوفيتي أكثر مما ينبغي ، وهم لذلك يطالبونها بقدر من الانضباط والتوازن بين القطبين الآسيويين الشيوعيين خشية على أنفسهم من استفزاز أخطار أى منها . فثلا تريد دول جنوب شرق آسيا خروج فيتنام من كمبوديا ، ولكنها لا تريد أن يصل عداء الولايات لفيتنام إلى حد إرغامها على الاعتماد الكامل والارتباط المطلق بالاتحاد السوفيتي . وهذا بقدر ما يعبر عن تعقيد اللعبة ، يعبر عن مشكلة الولايات المتحدة في دقة وصعوبة تحقيق التوازن بين الأعداء من ناحية ومع الأصدقاء من الناحية الأخرى ، وذلك مع الحلفاء الآسيويين هنا كما هي الحال مع الحلفاء الأوروبيين في غرب أوروبا .

"East-West Struggle", Economist, loc. cit., p. 43.



شكل (٣٥) صراع القوى ومحاور الاستقطاب في آسيا .

أنماط الصراعات الإقليمية المتغيرة

نستطيع الآن أن ننظر إلى التطورات أو الانقلابات التي طرأت على مواقع وأدوار القوى واستراتيجيات الصراع العالمي نظرة شاملة تنسج في رقعة واحدة خيوط الجغرافيا والتاريخ بالسياسة والاستراتيجية ، وذلك أيضا داخل الاطار الاقليمي والعالمي في آن واحد . والواقع أن مثل هذه النظرة يمكن أن تطرح نظرية جديدة كلية شاملة تقدم مفتاحا عاما للماضي والحاضر والمستقبل وتسمح بأن « نركب » فيها كل الأحداث الجارية والتطورات السارية ابتداء من الثوابت والمتغيرات الكبرى إلى أصغر التفاصيل والجزئيات الدقيقة (١) .

ذبذبات مركز الثقل

وابتداء ، وكما أتيتح لنا أن نرى مرارا ، فلقد كانت هناك دائما ذبذبات تاريخية

(١) حمدان ، شخصية مصر ، ج٢ ، ص ٨١١ - ٨٢٠ .

ملحوظة في مركز ثقل السيادة العالمية أو الصراع العالمي ، أحيانا من الشرق إلى الغرب وأحيانا أخرى من الغرب إلى الشرق ، إما على مقياس العالم القديم وحده أو بإضافة العالم الجديد إليه . وفي القديم ، في العصور القديمة وربما إلى العصور الوسطى ، كانت اليد العليا لآسيا على أوروبا (راجع أطروحة ماكيندر) .

لكن مركز الثقل انتقل بكامل وزنه إلى أوروبا في العصور الحديثة ، وفي داخلها تنقل كذلك بالتدرج من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ومن البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى . وفي قفزة كبرى في الاتجاه الأساسى نفسه تذبذب البندول ذبذبه الأخيرة من أوروبا إلى أمريكا الولايات المتحدة ، وربما معها وأخيرا أو مؤخرا من الأطلسى إلى الهادى بل وحتى المحيط القطبى الشمالى في عصرنا النووى في رأى البعض .

والمعنى الجغرافى - التاريخى واضح تماما : لقد انتقل مركز الثقل في القوة العالمية عبر التاريخ عموما من الشرق إلى الغرب باطراد وإصرار ، قل - مجرد المقابلة وسواء بالصدفة أو بالاتفاق - مع حركة الهجرات البشرية حول الأرض أو مع حركة الشمس الظاهرية أو عكس دوران الأرض حول نفسها !

الآن ، على هذه الفرشة القاعدية الأساسية ودخل هذا الاطار المحكم الحاكم ، ولا نقول على عكسها وخارجه ، ظهر في الفترة الأخيرة اتجاه عكسى راجع وانقلبت ذبذبة البندول من الغرب إلى الشرق ، على الأقل في مركز ثقل الصراع العالمى تمييزا له عن مركز ثقل القوة والسيادة العالمية نفسها . ولهذا يجوز أن نعد هذه الذبذبة ثانوية بالمقياس إلى الذبذبة الأولية الخورية ، لاتتعارض معها بالضرورة وإن عدلتها بقدر ماكملتها . فن أوروبا والأطلسى انتقلت الصراعات العالمية والاقليمية المعاصرة إلى آسيا والهادى على الترتيب ، ومن المتوسط وقناة السويس انتقل الخطر والخطورة إلى الهندى والخليج العربى . ومع هذا الاتجاه الطارئ أو الراجع تغيرت أنماط الصراعات والاستراتيجيات الاقليمية والمحلية قليلا أو كثيرا .

نحو الغرب

تلك هى النظرة أو النظرية العامة وصورة الخريطة في خطوطها الرئيسية العريضة ، تتأكد معالمها وتبرز تضاريسها أكثر حين نزيدها تفصيلا وتحليلا . فإذا بدأنا من البداية ، فلقد كانت مصر والعراق كما نعلم مراكز القوة السياسية العالمية السائدة في العصور القديمة ، وبينهما تذبذب مركز الثقل عدة مرات جيئة وذهاباً . وفي العصور

الوسطى كان العراق العباسى هو بلا ريب مركز الثقل الأساسى نتيجة للتطورات الجديدة والعديدة المحلية والاقليمية والقارية . ولكن لم يلبث المركز بعد الطوفان المغولى أن انتقل من العراق إلى مصر بصفة حاسمة ونهائية .

غير أن كشف طريق الرأس لم يلبث بدوره أن نقل المركز من مصر إلى البرتغال ، وانتهى بذلك عصر البحر المتوسط وبدأ عصر المحيط الأطلسى ، حيث ظل المركز ينتقل على طول ساحل غرب أوروبا من الجنوب إلى الشمال متحركا على التعاقب من البرتغال إلى هولندا إلى فرنسا ثم أخيرا إلى بريطانيا حيث استقر بصفة نهائية طوال الفترة الحديثة . وسيلاحظ أن البندول طوال هذه المراحل المديدة كان يتذبذب بانتظام واستمرار من الشرق إلى الغرب .

ثم جاءت قناة السويس فى قمة المرحلة الأخيرة فأعادت الأهمية إلى البحر المتوسط ومصر وطريق السويس بصفة مؤكدة ، إلا أن المحيط الأطلسى ظل هو البحر المتوسط الجديد على المستوى العالمى كما ظل غرب أوروبا مركز ثقل القوة فى العالم بلا منازع . ولقد كان هذا أيضا هو عصر الاستعمار العالمى والإمبراطوريات العظمى بالضرورة والامتياز وعلى رأسها الإمبراطورية الفرنسية ولكن البريطانية أساسا . وكان محور القوة والسيطرة العالمية هو الأراضى الهامشية الغنية فى العالم القديم وخاصة القاطع التقليدى الكثيف غرب أوروبا - المتوسط - الموسميات .

وقد وصل هذا النمط الاستراتيجى إلى أوجه فى القرن ١٩ وعلى يد بريطانيا - « عصر بريطانيا » . وكان عصر بريطانيا هذا كمركب سياسى - تكنولوجى وبصيغة اختزالية جدا هو عصر الفحم - السكة الحديدية - الباخرة - قناة السويس - مصر - الاستعمار القديم وصراع الإمبراطوريات . وفى هذا المركب أو النمط لم يكن الخليج العربى - شأنه فى ذلك شأن عدن وباب المندب - سوى نقطة مرحلة وموطئ قدم على طريق السويس الشريانى بخط حياة الإمبراطورية وعنق الهند ... الخ . ويمكن اعتبار فترة الحرب العالمية الثانية إلى منتصف القرن قمة هذا النمط الاستراتيجى التقليدى - ونهايته أيضا .

ذلك أن فى هذه الفترة نفسها بدأ يبرز نمط استراتيجى عكسى جديد يستند إلى مركب سياسى - تكنولوجى جديد أكثر تعقيدا من نظيره القديم ، وأخذ كلاهما يزيغ سابقه ويحل محله بالتدرج إلى حد أو آخر بل وأحيانا بصورة انقلابية فجائية وحادة .

فعلى جانب التكنولوجيا انتقل العالم بصورة حاسمة ونهائية من عصر الفحم إلى عصر البترول ، وبالتالي من السكة الحديدية والباخرة إلى السيارة والناقلات . وعلى الجانب السياسى انتقلت السيادة العالمية من بريطانيا جزيرة القارة إلى أمريكا القارة الجزيرة : لقد حل « عصر أمريكا » محل « عصر بريطانيا » . وقد اكتمل الانتقال بصورة مطلقة بعد ثورة التحرير الوطنية فى العالم الثالث وتصفية الإمبراطوريات ، وبذلك أيضا حل الاستعمار الجديد محل الاستعمار القديم . غير أن العصر النووى والاستقطاب الثنائى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى لم يلبث أن بدأ ، فحل صراع الكتلتين محل صراع الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة .

وأثناء ذلك كله ، وقبل وبعد ذلك كله ، فلقد ظهر البترول فى الشرق الأوسط وبخاصة فى حوض الخليج العربى الذى سرعان ما أصبح المستودع الأول لمخزونه فى العالم . وبذلك أصبح الخليج على الفور أهم منطقة استراتيجية لأهم مادة استراتيجية فى العالم المعاصر ، وبالتالي محور وبؤرة كل السياسات والاستراتيجيات والصراعات العالمية للغرب والشرق جميعا بلا تحفظ ولا استثناء .

نحو الشرق

من هنا فبعد أن كانت المعادلة أو المتتالية التكنولوجية - الاستراتيجية - الجيوبوليتيكية فى عصر بريطانيا هى الفحم - السكة الحديدية - البخرة - قناة السويس - مصر - الاستعمار القديم وصراع الإمبراطوريات ، أصبحت تقرأ فى عصر أمريكا : البترول - السيارة - الناقلات - الخليج العربى - الاستعمار الجديد وصراع الكتلتين . لقد عاد البندول على عكس الماضى فتذبذب من الغرب إلى الشرق ، من قناة السويس إلى الخليج العربى . وهكذا بعد أن كان الخليج محطة على طريق السويس إلى الهند ، انزلقت ولا نقول انزوت القناة إلى ممر على طريق البترول إلى الخليج . لقد تبادلت السويس والخليج المواقع والأدوار والأهميات النسبية . وبعد أن كانت السويس كبيرة والخليج صغيرا من الوجهة الاستراتيجية ، انقلبت الموازين واحتلت خارج كل حدود ، سواء ذلك على النسبة أو الاطلاق ، فأصبح الخليج كبيرا جدا والسويس صغيرة نسبيا . وبهذا الشكل عاد من جديد نمط العصر العباسى فى العلاقة بين البرزخ والخليج ، حيث انتقل مركز الثقل الاستراتيجى فى العالم اليوم من القناة إلى الخليج ، وورث الخليج ومضيقه دوز وموقع مصر وقتاتها إلى حد بعيد جغرافيا واستراتيجيا .

لقد أفقد البترول مصر زعامتها الاستراتيجية في المنطقة كموقع كما كاد يفقدها زعامتها السياسية بها كدولة بعض الشيء ، سلبها موقعها الجغرافي الجيوستراتيجي جزئيا بعد أن أوشك أن يهز أيضا موقعها القيادي الجيو بوليتيكي إلى حد أقل . بل إنه لا انفصال بين اهتزاز هاتين الزعامتين وهاتين القيادتين ، ولا بينهما جميعا وبين البترول رأسا ومباشرة . انقلاب جغرافي تاريخي ، سياسي اقتصادي ، واستراتيجي وعمراني ، كامل وشبه مطلق .

الانقلاب الاستراتيجي

كيف ، بالدقة والتفصيل ، حدث هذا الانقلاب ولماذا ؟ ماهي العوامل الكامنة خلفه والضوابط المحركة له ؟ ثمة مجموعتان مترابطتان متداخلتان من الأسباب والمتغيرات ، واحدة جعلت الخليج كبيرا بعد أن كان صغيرا ، وواحدة جعلت السويس صغيرة بعد أن كانت كبيرة . وفي قلب وعلى رأس الأولى تأتي بالطبع ثورة البترول نفسه في الخليج . ثم إلى جانب البترول تأتي انقلابات ومتغيرات السياسة والاستراتيجية العالمية سواء على مستوى الصراع بين الكتلتين والقوتين الأعظم أو على مستوى الصراع الحلي بين القوى الثانوية . وسواء أكانت هذه المتغيرات مترتبة على ثورة بترول الخليج نفسه أو منفصلة عنه ، فإنها تأتي مؤكدة لنتائج ومضاعفاته من انتقال مركز الثقل الاستراتيجي العالمي إليه ، ومشيرة بذلك بدرجات متفاوتة إلى تذبذب البندول من الغرب إلى الشرق بعامة . أما المجموعة الثانية من المتغيرات فتشمل الاستراتيجية النووية والخطر الإسرائيلي ثم خطر الناقلات العملاقة وطريق الرأس .

بترول الخليج

هذا بالتأكيد أكبر وأخطر ثورة في بابها وفي نتائجها في العالم المعاصر . فإذا كانت ثورة البترول عموما هي أكبر ثورة اقتصادية وتكنولوجية في العالم ، فإن ثورته في الخليج هي بدورها أكبر ثورة جغرافية وسياسية على المستوى الاقليمي . ففي غضون ربع قرن تقريبا تحول الشرق الأوسط وحوض الخليج العربي إلى أكبر مستودع للطاقة في العالم ويمكن الجزء الأكبر من احتياطيته ومخزونه للمستقبل حتى سنة ٢٠٠٠ على الأقل . وبصفة تقريبية يبلغ هذا الرصيد نحو ثلثي مجمل العالم غير الشيوعي ، بنا لا يقل الانتاج عن ثلث الانتاج العالمي جميعا ، في حين يمثل الصادر السواد الأعظم من تجارته الدولية . ومن الاجترار وحده بعد هذا أن نقرر أن الخليج قد أصبح قلعة البترول في العالم ، أو قل عاصمة العالم بتروليا .

وفي الوقت نفسه ساعدت التطورات الدولية ، خاصة ثورة التحرير الوطني في العالم الثالث ثم بالأخص حرب أكتوبر في العالم العربي ، على أن يتحول الخليج وبأرقام فلكية خرافية تماما إلى أغنى منطقة في العالم بالعائدات ورؤوس الأموال ، فصار معا وفي آن واحد أعظم بنك بترول ومال في العالم . لقد بدأت «إمبراطورية البترول» في الشرق الأوسط والعالم العربي . وبينما بدأ الخليج وهو تابع للإمبراطوريات الاستعمارية القديمة ، أصبح آخر وأحدث الإمبراطوريات في التاريخ الحديث . وبعد أن ظل طويلا مجرد خطوة على طريق السويس إلى الهند ، أصبح فجأة بمثابة «إمبراطورية الهند الجديدة» إلا أنها أدخلت في ، وأقرب إلى ، الاستعمار الجديد منها إلى الاستعمار القديم مثلما كانت إمبراطورية الهند السابقة .

وبينما كانت الهند في الماضي جوهرة التاج والإمبراطورية البريطانية ، فإن إمبراطورية الهند الجديدة ليست فقط جوهرة بل حرفيا حياة ، ليس فقط لإمبراطورية غربية ولكن للغرب بأسره . ذلك - وبغير إفراط في الأرقام - أن الغرب كله ، كل غرب أوروبا بما فيه بريطانيا بالإضافة إلى اليابان بل والولايات المتحدة الآن ، فضلا عن العالم الثالث ، يعتمد اعتمادا مطلقا أو شبه مطلق وإن بدرجات متفاوتة على بترول الخليج . فمن مضيق هرمز ، وبمعدل ناقله كل ٨ دقائق ، كان يمر يوميا ١٩ مليون برميل ، تمثل أكثر من ثلثي إنتاج الخليج البالغ نحو ٢٨ مليون برميل يوميا ، وتشكل ٩٠٪ من حاجات اليابان وأكثر من نصف حاجات أوروبا الغربية وربع واردات الولايات المتحدة .

من القناة إلى الخليج

قارن هذا الآن بقناة السويس . لقد كانت القناة على الأكثر خط حياة إمبراطورية فقط ، أما الخليج فخط حياة الغرب كله بل والعالم كله . أكثر من هذا ، فعلى أحسن الفروض والأحوال فإن القناة كما سبق طريق حيث الخليج حياة . أو بالمقابل وبعبارة أصح وأصرح وأفدح : الخليج «مقتل» حيث القناة مجرد «مخرج» . باختصار ، الأول لا بدليل له ، أما الثاني فله . لا عجب أن يصبح مضيق هرمز ، عنق الخليج وبوابته ، هو بمثابة قناة السويس الحقيقية الجديدة ، فإنما هو مباشرة المخرج والممر الحقيقي لبترول الخليج نفسه . وبصيغة أخرى فلقد أصبح الخليج ومضيقه ذاته ، أكثر من الخليج والسويس تقريبا ، هما مقر البترول وممره معا ، الحياة والطريق في آن واحد .

والنتيجة ؟ النتيجة الحتمية بداهة وواقعا : شتتا أو أيننا ، أن الخليج أصبح اليوم

عين إعصار السياسة الدولية وقطب الصراع في الاستراتيجية العالمية وخاصة بين القطبين الأعظم والكتلتين الغربية والشرقية . كل التنافس حوله ، والأطباع فيه ، والأضواء عليه ، والحسابات له ، والاهتمام به - والأهمية أيضا . فالخليج بالنسبة للغرب ليس حياة فقط بل ومقتل أيضا بالقوة كما رأينا ، أى مسألة أو منطقة حياة أو موت ، بمعنى أن أى تهديد أو حرمان لإمداداته منه يعنى استسلامه بلا قتال في أى حرب عالمية تقليدية . وبالمثل ، ولكن بالمعنى السالب ، فإن بترول الخليج كوسيلة حرمان هو نصف المعركة ونصف النصر بالنسبة للشرق .

ومعنى هذا أن الخليج هدف أول حتما في أى مواجهة حربية بين القطبين في المستقبل ، الأول لضمان حمايته وتأمينه والثاني لانتزاعه أو تدميره^(١) . وبدون موارد ، وبإعلان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كليهما ، فإن الخليج أكثر من أى منطقة أخرى في العالم هو مفجر الحرب الثالثة المحتمل ، وبوابته هرمز وبابتها . فكل برميل بترول يخرج من الخليج يساوى برميل بارود ، والخليج ككل أصبح بحق «برميل ديناميت العالم» الجديد ، مثلما كان البلقان في الحرب الأولى والسويس والشرق الأوسط في الحرب الثانية . ومن السهل أن نلاحظ كيف تقع مراكز الخطر الثلاثة على محور واحد قاطع ، وكيف تحرك مركز الثقل بينها تباعا وباطراد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، إشارة إلى تأرجع البندول الاستراتيجى العام من الغرب إلى الشرق .

من المتوسط إلى الهندى

ومن البحر المتوسط إلى المحيط الهندى أيضا وأساسا ! إذ لما كان الخليج يتوج رأس المحيط الهندى ، فقد انتقل مسرح الصراع المباشر أو توماتيكيا إلى هذا الأخير الذى ورث بذلك دور البحر المتوسط سابقا بل وربما المحيط الأطلسى مؤخرا . وإذا كان البعض يعد المحيط القطبى الشمالى لا الأطلسى بحر العالم المتوسط الجديد في العصر النووى والاستراتيجية الذرية ، فإن المحيط الهندى هو بلا تردد بحر العالم المتوسط الجديد في عصر البترول والاستراتيجية التقليدية . لقد أصبح المحيط الهندى ، الذى هو نصف محيط نسيا والذى يشبه في شكله وتركيبه العام البحر الأبيض المتوسط إلا أنه مفتوح على الجنوب بلا سواحل أو حدود ، أصبح هو البحر المتوسط الجديد في السياسة الاستراتيجية ، مثلما أصبح مضيق هرمز قناة السويس الجديدة مجازا .

Economist, op. cit., p. 43.

(١)

اعتبر فقط ، في هذا الصدد ، احتشاد وتواجه الأساطيل الحربية الكثيفة لكلا القطبين لأول مرة فيه ، وتكالبها على المحيطات والقواعد البحرية سواء على سواحل أو جزره . لاحظ كذلك كيف انساب أو تصرف دور البحر الأبيض المتوسط الاستراتيجي التقليدي جزئيا إلى الهندي عبر البحر الأحمر وعن طريقه حيث بدأ هذا الأخير يكتسب على الطريق قيمة ودورا جديدين ، كما ابتدأ جنوبه في عدن وباب المندب واليمن الجنوبية وإثيوبيا ينافس نسبيا شماله العريق السويس ومصر كأهداف للتحالفات السياسية ومواطن للقواعد العسكرية ... الخ .

الأنماط الجديدة

نمط الصراع الاستراتيجي العالمي

على أن البحر الأبيض المتوسط لم يفقد من دوره للمحيط الهندي بسبب البترول أو الخليج وحده ، وإنما هناك بالاضافة عامل الاستراتيجية العالمية والسياسة الدولية بعامة . فلشد ما تغيرت أنماط ومحاور الصراع الاستراتيجي العالمي ، مثلا توسعت للغاية أبعاده وأقطاره وأخطاره اليوم بالقياس إلى الأمس . فحتى الحرب العالمية الثانية وصراع الإمبراطوريات الاستعمارية كان الصراع أساسا بين بريطانيا وألمانيا ، وبذلك كان البحر الأبيض المتوسط مركزيا ومحوريا في النمط الاستراتيجي السائد ، مثلا كان دور قناة السويس شريانيا ومصبيريا . أما الآن فإن الصراع بين الكتلتين والعملاقين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي قد نقل المسرح والخطر إلى الشرق أكثر ، إلى الشرق من القناة والمتوسط بل وأوروبا نفسها أكثر وأكثر .

بل لقد نشأ في الحقيقة نمط استراتيجي جديد في نصف الكرة الشرقي يكاد يكون نقيض نمطه القديم في العصر الاستعماري وخاصة عصر بريطانيا . فبينما كانت الأراضي الهامشية في العالم القديم هي مركز القوة في السياسة العالمية ، وكان محور السيطرة العالمية هو قاطع غرب أوروبا - المتوسط - الموسميات ، أصبح المارتلانديسي أو الأوراسي هو محور الارتكاز والقوة pivot area بظهور الاتحاد السوفيتي كأحدى القوتين الأعظم في العالم . وبرز من هذا المركز محور سيطرة وتوسع أو نفوذ وأطاع جديد يمتد على قاطع عكسي متقاطع يشمل الخليج العربي - الشرق الأوسط - المحيط الهندي - القرن الأفريقي - وسط أفريقيا . وبهذا انتقلت القوة الطامعة أو الأخطار الاستعمارية من الغرب وبريطانيا البحرية وذلك في مصر والسويس خاصة ، إلى الشرق والاتحاد السوفيتي البري وذلك في الخليج والشرق الأوسط عامة .

فمن الخليج ، وبالإضافة إلى بترول الحاكم كموضع ، فإنه كموقع وباعتباره أقرب منطقة إلى بطن الاتحاد السوفيتي كان يعد دائما ومنذ القيصريّة الممر الجنوبي إلى المياه الدافئة ، أي كان يعتبر «قناة سويس روسيا»^(١) . مثلما كان المحيط الهندي هو تلقائيا بحرهما المتوسط . وهنا لابد أن نلاحظ أنه ما من مسرح قتال محتمل على وجه الأرض أبعد عن الولايات المتحدة وأقرب إلى الاتحاد السوفيتي من الخليج ، لاسيما بعد تمركز السوفيت في أفغانستان مؤخرا حيث أصبح الخليج في مدى القاذفات المقاتلة من مطاراتها وعلى بعد ساعة طيران واحدة .

لهذا يستطيع الاتحاد في وثبة واحدة عبر صحراء بلوخستان ، على قسوتها ، أن يحتل الخليج دون أن تتمكن الولايات من صدّه أو منعه ، إلا إذا أعدت القواعد والتسهيلات والأسلحة سابقة التشوين في الموقع pre-positioned ، بالإضافة إلى إعداد القوات سريعة الانتشار R.D.F. التي كانت بالفعل وليدة غزو السوفيت لأفغانستان . ولعل بارقة الأمل الشاحبة الوحيدة ، من وجهة نظر الغرب طبعاً ، أن هجوماً سوفيتياً شاملاً على الخليج يستدعي تجنيد بعض احتياطيه أو سحب بعض قواته من الجبهة الأوربية أو جبهة الشرق الأقصى ، والأولى تعرض خطة أو نية الغزو للكشف كما تمنح الغرب الوقت اللازم لنقل قواته من بعيد ، بينما أن الثانية تعرض الاتحاد نفسه للهجوم المضاد الوقائي^(٢) .

هذا عن الخليج نفسه . أما عن الشرق الأوسط فإن الوجود السوفيتي الذي ظهر في كثير من دوله ككتحالفات أو قواعد أو علاقات صداقة وثيقة قد أخذ في النهاية شكل الغزو الكامل في أفغانستان . وهذه العملية الأخيرة لا تعني فقط أن الاتحاد السوفيتي يتوسع كالعادة والقاعدة قارياً إلى الخارج باطراد والتصاق contiguously نحو الهلال الحارجي والأراضي الهامشية من القارة ، ولكن أيضاً كخطوة حتمية إلى المياه الدافئة والبحار الجنوبية وتطويقاً للخليج العربي وبترولها جميعاً وأساساً ، تمهيداً لليوم الذي قد يفرض فيه شروطه أو مساومته على الغرب والولايات المتحدة إما بالوجود به أو المشاركة أو المناصفة فيه ... الخ .

أما في المحيط الهندي نفسه فلأول مرة يصبح للاتحاد السوفيتي - الذي تحول حديثاً

Reader Bullard, Britain & the Middle East, Lond., 1952, p. 170.

(١)

"East-West struggle", Economist, op. cit., p. 47.

(٢)

فقط إلى قوة بحر لأول مرة في تاريخه البرى القارى الطويل - أصبح له وجود دائم وحاسم فيه ، ممثلا في أسطول حرى قوى نووى وسلسلة من القواعد البحرية في بعض المواقع الاستراتيجية على سواحل خاصة في منطقة القرن الأفريقى على رأسها عدن وإلى جانبها بربرة سابقا ومصوع حاليا .

وهذه القواعد نفسها كانت خشبة القفز التى وثب منها الاتحاد إلى القارة الإفريقية ذاتها ، حيث نجح بالإضافة إلى اليمن الجنوبية في التغلغل والتواجد السياسى في أكثر من دولة في القرن الأفريقى ووسط أفريقيا ، ابتداء أولا من الصومال الذى استبدل به بعد أن فقدته إثيوبيا كبديل أكبر وأخطر ، وانتهاء بأنجولا على الجانب الأطلسى من أفريقيا الجنوبية .

نمط الصراعات المحلية

بالإضافة إلى نمط صراع القوتين الأعظم وتمدده نحو الشرق تجاه آسيا ، هناك أيضا تحرك ملحوظ في مراكز الصراع الثانوية والمحلية في نفس الاتجاه . ورغم أن هذا النمط لا ينفصل إلى حد معين عن صراع العملاقين والكتلتين ، فإنه يرتبط بتطورات السياسة الدولية والأحداث الجارية عامة ، لاسيما بتصفية الاستعمار القديم وإمبراطوريات غرب أوروبا في جانب و بروز قوى جديدة صاعدة في آسيا خاصة . فبينما تحولت أوروبا الغربية في العقود الأخيرة إلى منطقة استقرار نسبي ، انتقلت معظم المواجهات العسكرية والصدامات الاستراتيجية الساخنة شرقا إلى آسيا بالذات .

فعلى حين أصبحت أوروبا الغربية ، منذ انتهاء الحرب الثانية ثم الباردة ثم ابتداء الانفراج خاصة ، أميل نسبيا إلى التعايش السلمى والوفاق وخفت قبضة أمريكا عليها نوعا ، أصبحت آسيا هي مسرح أكبر وأخطر الحروب المحلية والثورات الوطنية في العالم تقريبا ابتداء من الحرب الكورية ثم حرب فيتنام وحرب الصين - الهند ثم سلسلة حروب الهند - باكستان إلى انفصال بانجلاديش والثورة الإيرانية ثم الحرب الإيرانية - العراقية وأخيرا غزو أفغانستان... الخ ، كل ذلك بالإضافة طبعا إلى الحروب العربية - الإسرائيلية في غرب القارة ، فضلا عن الصراع السوفيتى - الصينى في شرقها .

وفى هذا كله ، فعلى حين خرجت الولايات المتحدة تقريبا من آسيا ، ازداد النفوذ السوفيتى فيها توسعا وانتشارا . وصفوة القول أن مركز ثقل الصراع الساخن في العالم انتقل

من أوروبا تقليديا إلى آسيا تقريبا ، حيث أصبحت الأولى سياسيا أشبه ببركان نائم فيما تحولت الثانية بحق إلى بركان نائم.

وكان منطقيا فقط بعد هذا أن يتحول الاهتمام والخطر مرة أخرى من البحر المتوسط إلى المحيط الهندي . بل إن البعض ليتنبأ بأن المحيط الهادى - بكل قوى الصين واليابان والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة حوله - سيصبح البحر المتوسط العالمى الجديد فى القرن ٢١ . فإذا صح هذا فسيكون بحر العالم المتوسط ، بعد أن غادر البحر الأبيض منذ مدة ، قد انتقل تباعا من المحيط الأطلسى فى أقصى الغرب إلى الهادى فى أقصى الشرق مروراً بالهندي . وهذا كله يذهب على أية حال ليؤكد تحرك البندول المطرد فى الاستراتيجية العالمية عبر العصر الحديث من الغرب إلى الشرق بعد أن كانت حركته فى العصور السابقة هى على العكس من الشرق إلى الغرب .

مصر والسويس

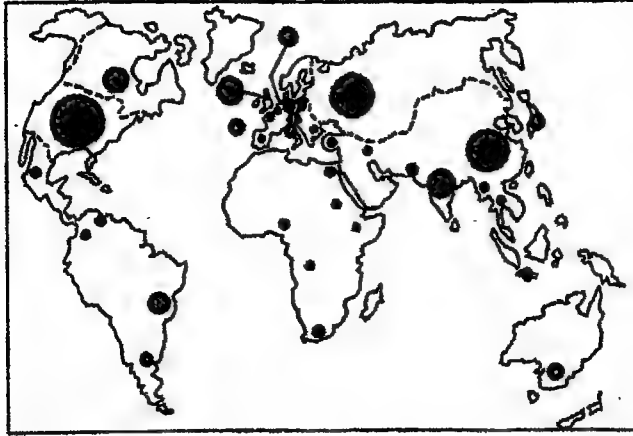
تلك جميعا هى مجموعة المتغيرات العالمية التى أضافت إلى القيمة والأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج العربى وما شرقه على حساب منطقة السويس والقناة . ولكن على الجانب الآخر ، فإن هناك بالإضافة مجموعة أخرى من المتغيرات نالت بصورة مباشرة من قيمته ووزنه الحقيقى والنسبى مما ضاعف وإلى حد الخطر الاختلال الاستراتيجى بين كفتى الميزان . وكما رأينا فإن أهم هذه العوامل ثلاثة هى الاستراتيجية النووية والخطر الإسرائيلى ثم الناقلات العملاقة وطريق الرأس . فكل منها قد هدد أو أخذ بقدر أو آخر من قيمة الموقع الجغرافى ودور القناة الاحتكارى القديم . ولئن كان من الممكن ، وأمكن بالفعل ، مواجهة هذه الأخطار واستعادة قدر من أهمية القناة ، فلا سبيل إلى الشك فى أن وزنها قد خف فعليا ونسبيا فى الاستراتيجية والمواصلات العالمية سواء عما كان عليه فى الماضى تقليديا أو عما آل إلى الخليج العربى مؤخرا .

وفى النتيجة الصافية ومجمل القول انتقل مركز الثقل الجيوبوليتيكي والجاذبية الاستراتيجية والصراع السياسى من البحر المتوسط إلى المحيط الهندي ، ومن قناة السويس إلى الخليج العربى ، ومن مصر والشام إلى شرق الجزيرة العربية والشرق العربى ، ومن شمال البحر الأحمر إلى جنوبه ، بالاختصار من وسط الشرق الأوسط إلى شرقه ، أو إن شئت فقل بالتقريب من الشرق الأدنى إلى الشرق الأوسط . ولعل من أبرز مظاهر وأعراض هذا الاختلال أو الانتقال شرقا تحول بؤرة الحروب المحلية فى المنطقة

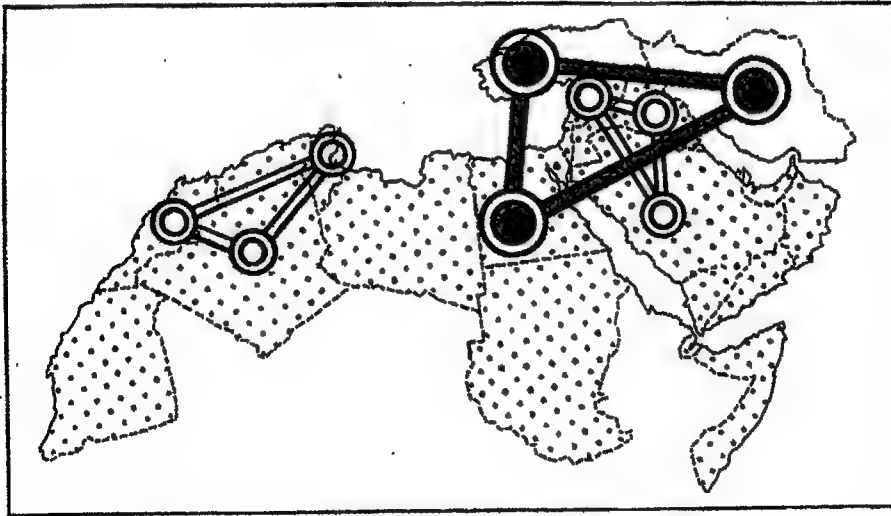
مؤخرا ، لاسيما بعد ذلك الصلح المصرائيلى ، من ركن مصر- إسرائيل - سوريا إلى ركن العراق - إيران - أفغانستان .

خذ مثلا حرب العراق - إيران . هذه الحرب لا مفر دليل جزئى على تحرك مركز الثقل الاستراتيجى والجيوپوليتيكي والاقليمى من السويس إلى الخليج ومن مصر إلى الشرق . أليست تضع الخليج الآن موضع قناة السويس فى القرن الماضى أو الأخير ، وتكاد تكرر إلى حد ما حرب السويس ؟ أوصدفة أنهم كانوا يتحدثون بقلق عن خطر إغلاق مضيق هرمز مثلما كانوا يتحدثون فى الماضى عن خطر إغلاق قناة السويس ؟ بل الطريف أو الغريب أنهم فى الغرب تحدثوا أثناء هذه الحرب عن « الفراغ » الذى سببه خروج بريطانيا ثم تحلى أمريكا عن الخليج مما فجر الحرب المحلية ، تماما مثلما تحدثوا عن « الفراغ » بعد خروج بريطانيا من مصر وقاعدة السويس . الأكثر إثارة أنهم تحدثوا عن قوة بحرية مشتركة من دول الغرب لضمان المرور فى هرمز وتدفق البترول ، تماما « كهيئة المتنفعين » بقناة السويس وشروطها ... الخ .

على الجانب الآخر ، وكمثل ودليل ثان ، فلن كانت مصر اليوم قد منحت مايسمى « تسهيلات » أو قواعد مؤقتة لأمريكا فى قاعدة غرب القاهرة الجوية وقاعدة رأس بناس البحرية لتكون ممرا لقوات الانتشار السريع الأمريكية Rapid deployment force (R.D.F.) إلى الخليج ضمانا لحايته وأمنه ضد مايعد أخطار الاتحاد السوفيتى ، ودونما تعليق على هذه المعطيات أو الفرضيات أو تعرض لها ، فإن هذا إنما يذهب ليؤكد أن مصر قد تحولت إلى مجرد طريق وخطوة هامشية إلى المركز المحورى الجديد وهو الخليج ، شأنها فى ذلك شأن عمان ومصيبره أو الصومال أو حتى إسرائيل ، أو شأن قبرص بالنسبة إلى مصر نفسها فى السابق . المعنى باختصار أن مصر استراتيجيا قد تحولت كقناتها إلى موقع هامشى خادم على هامش الخليج الحيوى الحاكم المتحكم فى كل شىء ، لا يغير من ذلك إعلان مصر استعدادها لإرسال قواتها إلى الخليج للمساهمة فى حمايته .



شكل (٣٦) أوزان القوى السياسية في العالم حوالى ١٩٦٠ . مساحة الدائرة تتناسب مع الوزن ، وأساس تقدير الوزن هو مجموع نسب المساحة والسكان واستهلاك الطاقة من المجموع العالمي ، مع احتساب نصف الوزن لاستهلاك الطاقة وحده . [عن كول] .



شكل (٣٧) مراكز القوة الطبيعية في العالم العربي والشرق الأوسط . لاحظ مثلث القوة المحلي في كل من المشرق والمغرب العربي : العراق - سوريا - السعودية في المشرق ، المغرب - الجزائر - تونس في المغرب ، ثم بين الاثنين مصر كقطب القوة الاقليمي الاسامي في العالم العربي . لاحظ أيضاً كيف أن مصر بدورها تمثل أحد رؤوس مثلث القوة الاقليمي في الشرق الأوسط : مثلث مصر - تركيا - إيران .

آفاق المستقبل

من الاستقطاب الثنائي إلى الخماسي ؟

باعتراف مهندسيه ، كان الوفاق الثنائي اعترافا تاريخيا باهتزاز الاستقطاب الثنائي أو القطبية الثنائية ، أى باهتزاز مكانة القطبين وقوتها النسبية على قمة العالم ، وبالتالي كان إعلانا بيزوغ عالم قوة جديد يشاركها فيه قرب القمة أو حوالها قادمون جدد وقوى صاعدة أو طالعة . ولا يكاد أحد يشك اليوم أن عالمنا السياسى يتغير ويثدا ولكن أكيدا عن نمط ما بعد الحرب الثانية مباشرة ، وأنا نعيش حاليا مرحلة انتقال حرجة ودقيقة ولكنها حاسمة من حقبة استراتيجية إلى حقبة أخرى بكل ما تنطوى عليه الكلمة من توازنات وتوزيعات وأنماط وأدوار... الخ .

ومنذ أبرم الوفاق تحول كثير من الجامعات ومعاهد العلوم السياسية ومراكز الدراسات الاستراتيجية فى العالم إلى مراصد حية للمتغيرات الدولية وخلايا مستقبلية عارمة بالنشاط التحليلي ومعامل مدججة بالحاسبات الإلكترونية للتنبؤ المستقبلي المتهجج المبرمج بؤلاء القادمين الجدد ، وأين وكيف سيتم « تركيبهم » فى معادلة القوة الجديدة ، مع تحليل التوازنات الداخلية والتبادلية بين « الحرس القديم والجديد » ، ثم أثر النظام الجديد كله على العالم ككل... الخ .

وفى هذا « الهوروسكوب السياسى horoscope » أو المنظار المستقبلى الفريد ، بدا للكثرة من الباحثين فى قراءة يد المستقبل ، وعلى رأسهم هيرمان كان ، أن هناك على الطريق ثلاثا كبارا مرشحين للحاق بالقوتين الأعظم المخضرمين ليؤلف خمستهم الصف الأول أو الصدر الأعظم فى خريطة السياسة العالمية حوالى سنة ٢٠٠٠ . أولئك هم أوروبا الغربية . اليابان . الصين .

ولعل من الطريف هنا أن نورد ، على سبيل المقارنة أو لجرد السجل (ولا نقول الذكرى !) بعض التنبؤات الجيوبوليتيكية فى أخريات الحرب العالمية الثانية عن مصائر وأقدار القوى العظمى المتوقعة بعدها . فإلى جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بالطبع ، كان يأتى صف ثان من القوى العظمى يضم الإمبراطورية البريطانية « التى يتوقف مستقبل البريطانيين فيها على تعاونهم الوثيق مع الأمريكيين » ، ثم من الجائز بعدها فرنسا ولكن فقط إن هى استعادت إمبراطوريتها .

وكان للصين بعد هذا فرصة قوية فى مكانة بارزة كالزعيمة المحتملة فى الشرق

الأقصى ، ولو أن من المشكوك فيه أن تصل إلى مرتبة الدول العظمى . وبالمثل البرازيل في أمريكا اللاتينية ، فهي الوحيدة هناك التي تذكر أكثر من غيرها كمرشح لمرتبة الدول الكبرى ، إلا أن ذلك من المشكوك فيه أيضا . أما ألمانيا وإيطاليا واليابان فقد كتب على ثلاثتها أن تفقد مكانتها كدول عظمى . تلك كانت النبوءة المطروحة في مجملها ، ومن الواضح الآن أن اليابان والصين على الأقل قد خيبت بعض حساباتها . بينما يبدو مجرد ذكر البرازيل اليوم مثيرا للدهشة أكثر مما كان وقتئذ أو أى وقت مضى في الحقيقة^(١) .

ومهما يكن ، فإذا نحن عدنا إلى واقعنا الحاضر فإن الفرضية الأساسية السائدة أو الراجحة إذن هي تحول الاستقطاب الثنائي الضيق الراهن إلى استقطاب خماسي أعرض وأرحب ، ليس الآن فورا ولكن حوالى دورة القرن أو حتى بعدها بقليل أو كثير . ومعنى هذا أننا لا ينبغي أن نفهم من حديثنا التالى عن الاستقطاب الخماسي كخاتمة الكتاب أننا نتعامل معه فعلا في واقعنا المعاصر ، فليس ثمة حتى الآن سوى قوتين أعظم لا شريك لهما . ولسوف تظلال كذلك ربما لنحو نصف قرن آخر يضاف إلى النصف الماضى ، بحيث يمكن القول إنها احتكرا وسوف يحتكران السيادة العالمية المشتركة زهاء القرن منذ منتصف القرن العشرين إلى حوالى منتصف القرن الحادى والعشرين .

الخريطة الجديدة

فإذا صحت هذه الصيغة المطروحة لجاز لنا أن نتوقع خريطة جديدة تماما للقوى العظمى ترسم على أساس التشكيلة البازغة نمطا اقليميا معقدا يختلف جذريا عن النمط الثنائي البسيط السائد حاليا و / أو المتنجى مستقبلا . ولعل أهم ملامح هذا التغير ثلاثة .

فأولا ، كان الاستقطاب الثنائي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى يتلخص في انقسام رأسى بين غرب وشرق ، بين معسكر رأسمالى وآخر اشتراكى ، وأخيرا بين العالم الجديد والعالم القديم . أما من الآن فإن نطاق الاستقطاب الجديد يتسع ليلف حول النصف الشمالى من الكرة الأرضية شاملا قلب أمريكا الشمالية وكل أوروبا تقريبا والجزء الأكبر من شمال ووسط وشرق آسيا . ويلاحظ أن النطاق الأول كان يمثل كتلتين منفصلتين أرضيا ، أما الثانى فالجزء الأكبر منه أرض متصلة بلا انقطاع من الأطلسى حتى الهادى .

(١) فابيلد وبريسى ، الجيوبوليتيكا ، ج٢ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

ثانيا ، نطاق الاستقطاب الخامس يظل ، كالأستقطاب الثنائي ، مقصورا على النصف الشمالى من الكرة الأرضية ، مؤكدا بذلك الفارق الكامن بين القارات الشمالية والقارات الجنوبية والتناقض الجذرى بين الشمال القوى الغنى والجنوب الضعيف الفقير . ومع ذلك فإن هناك داخل النصف الشمالى تحركا حاسما فى مراكز القوة نحو الجنوب وتوسعا تجاه خط الاستواء وبالذات فى آسيا الموسمية حيث يصل الآن مع حدود الصين الجنوبية إلى مدار السرطان . فإذا ما تذكرنا أن الهند ، خاصة مع تعاظم قوتها بعد حربها المنتصرة على الباكستان ، تؤذن أو تشبه أن تكون قوة جديدة كبيرة أو نحو ذلك ، فإن زحف القوة نحو الجنوب يتأكد أكثر ويقترّب من خط الاستواء نفسه أكثر وأكثر .

ثالثا ، على أن أبرز تطور على الخريطة ليس هو الزحف نحو الجنوب بقدر ما هو الزحف نحو الشرق ، وبالتحديد نحو آسيا . فلعل أخطر حقيقة انبثقت عن تعدد المراكز هى طفرة آسيا إلى حلبة الصراع ، ودخولها دائرة القوة العالمية . فى مقابل مركز قوة واحد فى أمريكا الشمالية وآخر فى أوروبا الغربية وثالث أوراسى موزع بين أوروبا وآسيا (الاتحاد السوفيتى) ، هناك مركزان اثنان فى آسيا وحدها (الصين واليابان) . أى أن آسيا ، حاسيا ، نصف مجموع القوى العظمى المنتظرة بالعالم .

قواعد اللعبة الجديدة

وكما أسلفنا فلا مفر من أن يكون أساس التعايش والتفاعل والتعامل بين الخمسة الكبار هؤلاء هو لعبة توازن القوى ، أى عود بصورة ما ، مختلفة ومجددة بالطبع ، إلى نمط القرن التاسع عشر ، أو النمط البريطانى الأثير . ولن يكون معنى هذا أن يقف الجميع على قدم المساواة تماما أو أن يتعادلوا بالضبط فى ميزان القوة ، وإنما سيكون هناك دائما الأول بين أنداد أو أكفاء *primus inter pares* يلعب دور المرجح . وإلى أمد بعيد ، وربما إلى الأبد ، ستكون الولايات المتحدة صاحبة هذا الدور الحاسم والخرج . كذلك فلبعض الوقت سيظل القطبان الأعظم الحاليان هما المدار المحورى للعبة الجديدة .

وفى رأى البعض ، مثل ريكر ، أن عصر التوازن سيتحول ويتقل إلى عصر من المناورة . وعلى أية حال فقد يرى البعض الآخر أن التوازن بمحد ذاته مرادف للمناورة ، وأن عصر التوازن هو بالضرورة وبالطبع عصر المناورة . فكل طرف فى اللعبة هو إلى حد أو آخر ضد الطرف الآخر ، وكل طرف يريد أن يستغل الطرف الآخر سياسيا

وسيكولوجيا لمصلحته ، والكل بهذا يضارب الكل بالكل ، غير أن أكثر من طرف ستجتمع مصالحه مرحليا أكثر ضد طرف آخر ، ولهذا ستتألف بينهم محاور متعددة مؤقتة أو متعاقبة أكثر أو أقل وضوحا وصلابة وبقاء يغير فيها الجميع مواقعه بلا حرج ولا حذر ، بسرعة أو ببطء ، وذلك على أساس مساومات حادة دائمة ودائبة . أى أن المبدأ الحاكم لن يكون المبادئ الأيديولوجية بقدر ماسيكون المكاسب الواقعية والمصالح العملية والمواقف البرجماتية . واللعبة كلها أشبه بلعبة الكراسى الموسيقية ولا نقول كما يقول البعض « لعبة الثلاث ورقات » .

ويرى ريكير أنه في وسط مثل هذه اللعبة سوف ترتفع القيمة الحدية للقادحين الجدد أو أصحاب المواقف المحايدة أو الهامشية ، إذ سيرتفع الثمن المطلوب لانحيازهم إلى هذا الجانب أو ذاك . وفي الوقت نفسه فإن كل تحرك لأحد الجانبين الأعظم سيؤثر آليا على مواقف ومواقع الآخرين بحدة وبدرجة مؤثرة على مستقبلهم . وهذا في رأى الكاتب نفسه سيفضعف من خطر الحرب الشاملة ، كما أن القطبين الأعظم الحاليين سيكونان الخاسرين في جميع الأحوال بعد أن يستنفد كل منهما كل إمكانيات تدعيم تحالفاته ومحاوره^(١) .

غير أن البعض مثل بيرتون يذهب ، على العكس من ذلك تماما ، إلى أن التوازن سيفرض الاتجاه السلمى على أطراف اللعبة ويسقط المحاور كما أسقط الأحلاف بحيث يغزوها عدم الانحياز ، نعم عدم الانحياز ، في النهاية^(٢) . ولعل هذه أمنية أكثر منها نبوءة ، وربما عدها البعض أدخل في باب الميتافيزيقا منها في علم المستقبلية .

ومهما يكن الأمر ، فإذا عدنا إلى ميكانيزم اللعبة الجديدة ، فلنلاحظ أولا أنها ، أيديولوجيا ، مباراة أو مناورة بين ثلاثة أطراف رأسمالية وطرفين شيوعيين ، الصراع بين الأخيرين منهم لا يقل ضراوة وعداء حتى الآن على الأقل عما بينهما وبين الأطراف الثلاثة الأولى . وهذا مما يزيد اللعبة كلها تعقيدا والوجوه والأقنعة تعددا . فبين الجميع تناقضات عديدة مختلفة النوع والدرجة ، أى أنهم جميعا ضد بعضهم البعض ولكن بدرجات متفاوتة . غير أنهم جميعا في الوقت نفسه ضد الاتحاد السوفيتى أساسا وفي الدرجة الأولى ، بينما يريد هذا بدوره إفساد اللعبة عليهم جميعا . وعلى هذه الأسس المعقدة

Edwin Rieker, Theory of political coalitions, New Haven, 1962, p. 230-1.

(١)

A. Burton, International relations, 1967, p. 186.

(٢)

المربكة تمت وستتم تنازلات ومساومات متبادلة بين الأطراف جميعا .

أما من حيث التوزيع الجغرافى ، فلأن أربعة من الأقطاب الجديدة تقع فى أوراسيا أو العالم القديم ، فإن الولايات المتحدة تأتى من العالم الجديد كالرافعة lever ومركز الثقل القصوى . ولأن ثلاثة من تلك الأقطاب تقع كليا أو جزئيا فى آسيا ، فإن الولايات مرة أخرى تأتى كالبعد الرابع جنب مثلث الصراع . ولهذا فإن آسيا ، بعد أن فشلت الولايات فى إخضاعها أو احتوائها بالقوة وخرجت من بابسها القارى mainland . هى أكثر من أى قارة أو منطقة أخرى المرشحة لتكون ميدان اللعبة الجديدة ، وإليها بالفعل تتجه كل مؤشرات الصراع ، وفيها نجد أولى إرهاباته ، بحيث قد تحل آسيا محل أوروبا كميدان المعركة غير المباشر بين الأقطاب الخمسة المفترضين مثلما حلت محلها كميدان المعركة بين القطبين الأعظم الراهنين .

أطراف اللعبة

أمريكا وأوروبا

لأن الولايات المتحدة وأوروبا الغربية هما أقرب الجميع إلى بعضها البعض بحساباتها نواه الغرب الحقيقية والحلفاء التقليديين ، فلعل من المستحسن أن نبدأ بهما . ولا شك ابتداء أن أهدافهما واحدة أو موحدة إلى حد بعيد ، ومواقفهما من الآخرين متقاربة للغاية بالتالى ، لكن دون أن تكون متماثلة أو متطابقة بالطبع . فهناك فجوة ما أو هامش من اختلاف وأحيانا من خلاف فى الأهداف والمواقف يملئها اختلاف المصالح والعلاقات الخاصة . فاهتمامات أوروبا فى المرحلة الحالية هى المصالح الاقتصادية أكثر منها السياسية ، بينما أن اهتمامات أمريكا سياسية واستراتيجية أكثر . الأولى أهدافها وحساباتها اقليمية أكثر ، والثانية عالمية أكثر . والسبب بالطبع أن الأخيرة قوة أعظم ، أما الأولى فليست كذلك بعد .

وبعامة يمكن القول إن هدف أمريكا فى اللعبة ، إذا سمح لنا بهذا التشبيه الموسيقى ، أن تكون هى « قائد الأوركسترا » وأوروبا « ضابط الإيقاع » ، أو إذا كانت هى « عازف الكمان الأول » أن تكون أوروبا « عازف الكمان الثانى » . ولذا فإن المطلوب هو نوع من « تطبيع » العلاقات بينهما من حين إلى آخر . وعلى الجملة فلعلنا أن نلخص أو بالأحرى نشخص العلاقة بين أوروبا الغربية والولايات المتحدة فى المستقبل إذا قلنا إنها قد تتجه تدريجيا وعلى المدى البعيد إلى أن تستقر على شىء أشبه بالعلاقة بين إسبانيا أو البرتغال وبين أمريكا اللاتينية ، وإنما على مقياس أكبر ومستوى أعلى .

فكلاهما يريد مضاربة القوى الثلاث المضادة ببعضها البعض ، ليحتفظا هما بتوازن القوى لصالحهما وليحتفظا بالصدارة العالمية . وبطبيعة الحال سيظل الاتحاد السوفيتي هو الخطر الرئيسي ، وكل المناورة والتكتيك والمضاربة موجهة إليه ومركزة عليه أساسا ، وكل المحاولة هي لتحجيمه وعزله عن الآخرين وحصاره صراعيا ، دون أن يصل الأمر مع ذلك إلى حد الصدام معه تحت أية ظروف ، فذلك هي الفرضية أو الشرطية الأولى في الوفاق كله أصلا . وبهذا ولهذا أيضا تهدف أمريكا وأوروبا إلى دفع الاتحاد إلى الاعتدال أيديولوجيا أو الابتعاد عن التطرف في طريق الشيوعية والمزيد من الاتجاهات البراجماتية العملية بدل الأيديولوجية البحتة .

غير أن أوروبا بعد هذا تريد أن تستغل تعدد المراكز الجديدة في الاستقلال نوعا عن السيطرة الأمريكية اقتصاديا وسياسيا واستراتيجيا . ومن جانبها فإن أمريكا لاتمانع في أن تقوى أوروبا وتتسلح لتكون حليفا أقوى إلى جانبها ، ولكن دون أن تستقل بإرادتها عنها تماما أو تهدد زعامتها . ثم تريد أوروبا ، ثانيا ، تحجيم كل من العملاقين الأعظم بحيث تتضاءل نوعا الهوة الساحقة والسحيقة بينها وبينها في القوة . ثم ثالثا تريد أوروبا منع الصدام بينهما وأن تعمل كعامل اتصال وتقارب بينهما ، وهو دور ترحب به أمريكا على ألا يكون هذا على حساب العلاقة الخاصة بينهما .

الاتحاد السوفيتي

إذا كانت عقدة روسيا الجغرافية - التاريخية الكبرى والتقليدية هي الشعور بالحصار المحكم الخانق بين محيطات متجمدة في الشمال وجيران غير أصدقاء من سائر الجهات ، وكان حجم الرقعة الهائل وأبعاد الامتداد القارية هي الحاية المعوضة التي حلت تلك العقدة ، فإن العصر النووي قد جاء أخيرا وعلى النقيض ليعقدها من جديد بل ويضاعفها أضعافا . فبعد أن كانت روسيا فيما مضى تملك الدفاع بالعمق وتستطيع أن تشتري الزمان بالمكان وتستدرج العدو الغازي إلى العمق وإلى مقتل محقق ، فإن عصر الصواريخ النووية قد حيد عامل الحجم والضخامة وسلب المكان عمقه دون أن يوفر بالمقابل عامل الأمن والأمان على امتداد الحدود المترامية .

ليس هذا فحسب . بل إن الاتحاد ليجد نفسه اليوم محاصرا نوويا من كل الجهات تقريبا : الصين شرقا وأوروبا الغربية والولايات المتحدة غربا ، بما في ذلك الأساطيل النووية على جانبيه في الأطلسي والمحادي والهندي ، هذا بالإضافة إلى تحالف أو تقارب هؤلاء جميعا ضده . وهكذا يات على الاتحاد أن يحقق التفوق والردع النووي ليس فقط

ضد الولايات وحدها ولكن أيضا ضد سائر الأطراف ، كما صار عليه ابتداء أن يكسر حلقة الحصار تلك بأى ثمن أو وسيلة . من هنا تتحدد أهداف الاتحاد في لعبة توازن القوى الجديدة في تفجير اللعبة عليهم جميعا في الأساس وقلب المائدة على رؤوسهم بلا استثناء .

نقطة البداية الحتمية هي تحجيم العملاق الأعظم المضاد أمريكا بعزله ما أمكن عن سائر حلفائه أو بإبعاده عن التقارب مع سائر أعدائه . وفي هذا السبيل فليس أمام الاتحاد أولا سوى العمل على توحيد أوروبا وإبعادها بقدر المستطاع عن أمريكا ، مستغلا في ذلك خشية أوروبا من أن تتحول إلى ميدان المعركة المباشر ورغبتها لذلك في السلام ، بالإضافة إلى رغبتها في التحرر من النفوذ الأمريكي المفرط والاستقلال كقوة عظمى .

ثم لا يقل عن ذلك أهمية أن الاتحاد يريد ، ثانيا ، توحيد أمريكا (ومعها أوروبا الغربية بصفة تكميلية) في صراعها المرير مع الصين . والنقطة أو العقدة الأساسية في ذلك عند الاتحاد هي كما رأينا ألا يواجه أى تحالف متزامن على جانبيه غربا وشرقا في أوروبا وآسيا أى بين أمريكا (وأوروبا) والصين - هذا كما سبق رعبه الدائم وربما مقتله الكامن . ولذلك فإن كل خطوة تقارب بين أمريكا وأوروبا تجاه الصين يقابلها الاتحاد الآن بخطوة أو خطوتين تجاهها . وهذا يفسر المرونة الملحوظة في علاقات الاتحاد مؤخرا مع أمريكا وأوروبا .

وأخيرا ولنفس السبب فإن الاتحاد يريد ، ثالثا ، عرقلة أى تقارب بين الصين واليابان . ورغم أنه ليس من المحتمل كثيرا اجتماع هذين الأخيرين في حلف غير مقدس أو في تكتل موحد نظرا للتناقضات العميقة التاريخية والمبدئية بينهما ، إلا أن خطر اتحادهما في عمل أو موقف مشترك ضد الاتحاد على جبهة الشرقية يبقى مع ذلك قائما ويشير دائما مخاوف « الخطر الأصفر » . ويحاول الاتحاد بطبيعة الحال أن يوسع مسافة الخلف بين العملاقين الآسيويين مستغلا في ذلك التناقض الأسى بينهما . وفي هذا فليس أمامه سوى أن يسعى إلى التقارب مع اليابان بالطبع ، ملوحا لها بالاستثمارات والمشروعات المغرية التي لا حدها في سيبيريا الشرقية خاصة . وإذا كانت مشكلة جزر الكوريل الأربع التي احتلها الاتحاد بعد الحرب الثانية وتطالب اليابان باستعادتها مازال معلقة وممانعة لتطبيع العلاقات بينهما ، فلعل الاتحاد يحتفظ بها للمستقبل البعيد كورقة رابحة في لعبة التوازن ، لاسيما أن أحد أسباب إصراره على عدم التنازل عنها خشيته فيما يبدو من أن يضع بذلك سابقة لمطالب اقليمية مماثلة من قبل الصين ورومانيا ... الخ .

على أن احتمالات الخطر والصدام التي قد يتعرض لها الاتحاد على الجبهة الآسيوية ليست بسيطة بل مركبة من مرحلتين على الأقل ، وخلفها بالاضافة والطبع تقف الولايات المتحدة دائما . فمن ناحية فإن الهدف الأمريكي من محور أمريكي - صيني إنما هو - كما يرى البعض - ضرب الاتحاد السوفيتي أولا ، ثم بعد ذلك ضرب الصين نفسها لتصفية المعسكر الشيوعي على مرحلتين . أى أن اللعبة الأمريكية هي أن تتحد الولايات والصين لتتغديا معا بالسوفيت ، ثم لتتعثى هي بعد ذلك بالصين . غير أن البعض الآخر يتجه إلى قلب المتتالية . فهناك في أمريكا خاصة من يتصور ، ربما من قبيل أفكار التمنى أو الأفكار الثابتة ، التصادم أولا بين الصين واليابان على أساس أنها أقطاب متنافرة أيديولوجيا ، متعادية تقليديا ، ومتنافسة على زعامة القارة تاريخيا .

ومثل هذا الصدام إن لم يكن مرحلة على الطريق إلى التصفية العظمى ، فهو بديل مؤقت عن الصدام بين القطبين الأعظم ، ولمصلحتها على السواء أيضا : الولايات تتخلص من خطر اليابان « الصديق اللدود » الذي لا يعد أمريكا إلا « عدوا ما من صداقته بد » ، والاتحاد يتخلص من خطر التحدى الصينى . وبهذا وذاك يصفى الآسيويون بعضهم بعضا ، بحيث تتحول سياسة أمريكا الجديدة « آسيا للآسيويين » لترادف في الحقيقة « الآسيويين ضد الآسيويين » .

على أنه حتى إن صح هذا الفرض أو التصور ، فلسوف يأتى الدور بعده لكى يصفى الأوروبيون الأوروبيين . وفى كل الأحوال ، فإن معنى هذا أن على الاتحاد أن يتوقع على مدى المستقبل القريب أو البعيد سباق قوة أشبه على الأرجح بسباق الحواجز Steeple chase ، إلا أن ترتيب هذه الحواجز هو الذى لا يمكن التنبؤ به .

الصين

لاشك أن أكبر مفاجآت لعبة التوازن ، مثلما هي أول افتتاح لها بعد الوفاق ، كان دخول الصين فيها بعد خروجها من عزلتها ، أو بالأحرى إدخال الصين فيها بعد إخراجها من عزلها . فلقد كانت زيارة الصين حين « طرق نيكسون بابها يستأذن فى الدخول » هي الحجر الذى ألقي فى بركة السياسة الدولية الرتيبة فرجها وملأها بالموجات والدوامات العنيفة ، كما كانت إشارة البدء بتدافع حقيقى ولانقول بتكالب على الصين بين كل من أمريكا وأوروبا واليابان ، كل لدوافعه وأسبابه وحساباته الخاصة . وبالمقابل ، لم تكن الصين من جانبها أقل رغبة إن لم نقل تلهفا ، رغم الحذر والتمنع ، فى الخروج إلى العالم

والانفتاح عليه ، إن لم يكن ردا لاعتبارها بعد ربع قرن من عدم الاعتراف بها ومعاداتها ، فلكى تلعب دورها الطبيعي والطليعى فى هذا العالم والخروج من العزلة . ونستطيع أن نحدد أهداف أمريكا فى تقاربها مع الصين فى أربعة أساسية ، اثنين منها أهداف سياسية استراتيجية واثنين اقتصادية تجارية . فهناك أولا ضمان فصل الصين عن السوفيت إلى الأبد حتى تبقى نقطة اللاعودة نهائية وحتى يستحكم الصراع بينهما أكثر وأكثر . ويتم هذا بإشعار الصين أنها لاتقف وحدها وأن أمريكا تسند ظهرها فى وجه العملاق الأعظم الذى يفوقها قوة بلاشك ويهددها تهديدا حقيقيا ومباشرا ، خاصة نوويا . وبطبيعة الحال فإن الخطر السوفيتى كان أول دوافع الصين إلى الاستجابة إلى التقارب الأمريكى والغربى . ونحن نعلم من قبل كيف تغيرت أولوية الأعداء والعداوات فى حساب الصين حيث أصبح السوفيت على رأس القائمة بينما تأتى أمريكا بعد ذلك فقط . ولقد عبرت الصين نفسها عن ذلك مرارا بقولها إن العدوان المنتظر من الشمال أخطر من العدوان المتوقع من الجنوب^(١) .

أما كيف يمكن لأمريكا أن تقف استراتيجيا بجانب الصين ضد السوفيت ، فذلك أساسا عن طريق مساعدتها تكنولوجيا بالتصنيع والتحديث والتسليح الذى فتح بابه أيضا فى دول أوروبا الغربية الكبرى كفرنسا وبريطانيا خاصة . وبالتصنيع الحديث بالذات يمكن للغرب مضاربة كل من الصين والاتحاد السوفيتى ببعضهما البعض مضاربة فعالة ومؤثرة فى مجال الصناعة ذاته كما فى مجال السياسة عموما .

وقد ساعدت العروض والقروض الغربية هذه الصين على حسم جملها الداخلى القديم حول الاعتماد على الذات والوسائل والطاقة البشرية أو على الغير والوسائل والتكنولوجيا الحديثة ، وذلك لصالح الاتجاه الأخير بالطبع أى الانفتاح . ولئن كانت الصين حريصة على ألا يصل هذا الاعتماد إلى حد أن تقع تحت رحمة الغرب ، فإن هذا من جانب لم يكن أقل حرصا على ألا يسمح للصين أن تتجاوز قوتها حدود الأمان والتوازن ، سواء اقتصاديا وسياسيا أو استراتيجيا وعسكريا .

وفى هذا المجال الأخير فإن الجانب النووى بالذات يعد الهدف الثانى من السياسة الأمريكية والغربية ومن أشد أهدافها حساسية وخطورة . ليس فقط كرادع وكدرع

(١) محي الدين خطاب ، « الصين والحدود اليابانى الأمريكى » ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٤ ، ص ١١٣ .

صيني ضد القوة النووية السوفيتية الهائلة ، ولكن أيضا كمانع لانفجار الصين ذاتها نوويا على العالم أو على أمريكا في المستقبل وذلك إذا ما ظلت في عزلتها أو ظلت هي تعمل على عزلها . ليس فقط كتجميع مضاد للخطر النووى السوفيتى يعنى ، ولكن أيضا كتلجيم مباشر للقدرة النووية الصينية ذاتها .

ذلك أن أمريكا كانت تستشعر بشدة خطر نمو القدرة النووية الصينية ، بما في ذلك إمكانيات نقلها بالصواريخ إلى القارة الأمريكية ، إلى حد أنها أقامت شبكة دفاعات مضادة للصواريخ الصينية خصيصا . وقد أعلن نيكسون بصراحة أن إخراج الصين من عزلتها هو إخراج للارد من قممه سلميا قبل أن يخرج هو منه نوويا على شكل حرب نووية عالمية في غضون ١٥ - ٢٠ سنة^(١) . ومن هنا جميعا فإن الموقف الغربى من الصين في مجال التوازن النووى بالذات يخضع لأدق الحسابات والاعتبارات القريبة والبعيدة المدى .

غير أن المهدفين السياسيين والاستراتيجيين السابقين ، على أهميتها الفائقة ، لا يزيدان إن لم يقل أهمية في نظر البعض عن المهدفين الخاصين بالمجال الاقتصادى المادى . فالمقول والمرجح بشدة أن الحافز المباشر والأساسى فى آن واحد لطرق الولايات المتحدة باب الصين إنما كان العامل الاقتصادى والتجارة الخارجية . فبالنسبة للولايات كراسمالية عظمى ، كانت السوق الصينية الهائلة التى حرمت منها طويلا أكثر من مغرية ، كانت مسألة حياة أو موت تقريبا لتوسيع الاقتصاد الأمريكى المتأزم وإنقاذ الدولار ، وكذلك لانتزاعها من اليابان المنفردة بها تقريبا ووضع حد للمنافسة اليابانية الاقتصادية المخيفة للاقتصاد الأمريكى والغربى .

ومن المسلم به أن الرأسمالية الأمريكية كانت من أقوى قوى الضغط على الإدارة والسياسة الأمريكية من أجل الانفتاح على الصين . ولم تكن هذه بدورها أقل رغبة في الانفتاح على التكنولوجيا الحديثة من جهة وموازنة النفوذ اليابانى الفائق على سوقها واقتصادها من الجهة الأخرى^(٢) . وهذا ما ينقلنا إلى الهدف الأمريكى الرابع والأخير وهو تحجيم اليابان .

فإن تحولت اليابان ، تحت مظلة الوصاية السياسية والحماية الاستراتيجية الأمريكية ،

(١). السابق . ص ١٠٤ .

(٢). السابق . ص ١٠٤-١٠٦ .

إلى عملاق اقتصادى وإلى القوة الثالثة بعد العملاقين فى هذا المجال ، فإنها أصبحت تهدد بمنافسة ضارية ومنافستها تهدد بالتفوق الساحق على أمريكا ذاتها ، بينما وصلت المنافسة التجارية فى عقر دار أمريكا نفسها إلى حد الغزو الحقيقى حيث بلغت نسبة ما يذهب إلى أمريكا من مجموع الصادرات اليابانية نحو ٣٠٪ حاليا . وعلى الجملة أصبحت العلاقات الأمريكية اليابانية أقرب إلى الحرب الاقتصادية غير المعلنة . ومن هنا كانت السوق الصينية هى المخرج والمنفذ الوحيد أمام أمريكا كعنصر توازن وبديل وأداة لتحجيم اليابان والخطر اليابانى ، وهو ما ينقلنا أخيرا إلى موقف اليابان فى اللعبة الخماسية الجديدة برمتها .

اليابان

كانت اليابان بالتحديد أشد من تأثر ، بل وروع ، من التقارب الأمريكى - الصينى . وكانت زيارة الصين والاعتراف بها ، لاسيما أنها تمت من وراء ظهرها ، صدمة هائلة بالنسبة لليابان تجمع بين الجرح والاهانة ، واعتبرتها هى بالفعل نوعا من « الخيانة الأمريكية » . أنهت شهر العسل العقدى الطويل بين الحليفتين اللوديتين ، بينما عدها البعض فى مغزاها الكلى بمثابة القنبلة الذرية الأمريكية الثالثة على اليابان ، وإن اكتفى البعض بأن شبهها بميثاق عدم الاعتداء الألمانى - السوفيتى بين هتلر وستالين قبيل الحرب العالمية الثانية . وفى كل الأحوال فقد اتفق الجميع على أن تلك الزيارة زلزلت وغيّرت إلى الأبد كل البناء السياسى والعسكرى الذى وضعه دلتز للعلاقات الأمريكية - اليابانية بعد الحرب الثانية ، أى تلك العلاقة الخاصة بينهما .

والواقع أن السياسة اليابانية فى آسيا وخارجها أصبحت منذ ذلك الحداث ولأول مرة تتحرك حركة مستقلة إلى حد أو آخر عن الحركة الأمريكية ، ولم تعد تمثل معها جبهة موحدة الإيقاع والخطى والخطة مثلا كانت فى السابق . وكان أول مظهر من مظاهر هذا الاستقلال أو الانفصال السياسى أن اليابان ردت على المصالحة والتقارب الأمريكى - الصينى بمصالحة وتقارب سياسى مضاد يابانى - صينى . فإلى جانب العلاقات الوثيقة اقتصاديا ، سارعت اليابان إلى الاعتراف سياسيا ودبلوماسيا بصين واحدة لاصينين ، ساجبة بذلك اعترافها بالصين الوطنية فى تايوان ، وهو الشرط الأساسى الأدنى لأى علاقة مع الصين (الشعبية الأم) .

وبطبيعة الحال فإن القرار الأمريكى لم يكن يستهدف بحال استبدال الصين باليابان

سياسيا أو استراتيجيا أو اقتصاديا ، أو حتى أن تعادل العلاقة بالصين العلاقة باليابان ، فضلا عن أن تتم على حسابها . إذ لاشك أن اليابان وليس الصين تظل وسوف تظل إلى أمد بعيد قاعدة الارتكاز الصلبة والركيزة الأساسية وقاعدة الأساس الأولى وعنصر التوازن الثابت في كل الوجود الأمريكي في آسيا والهادى . لاسيما أن العلاقات مع الصين مازال في البداية ، محدودة ، مترددة ، وتنتمى إلى المستقبل أكثر مما تمت إلى الحاضر فعلا ، في حين أن العلاقات مع اليابان واقع فعلى ، مائل وهائل إلى أقصى حد^(١) . ولكن لهذا السبب نفسه فإن مشكلة الولايات ستبقى دائما التوفيق بين العلاقتين وفرض التناقض أو الاشتباك بين التقاربين ، أو هي كما وضعها البعض كيف تنجح في ممارسة « تعدد الزوجات » مع الغريمتين اليابان والصين .

ولعل اليابان عادت ، مع ذلك ، فرجت بالوضع والتوازن الجديد كوسيلة للاستقلال نوعا عن أمريكا والتحلل أو التخفف من رحمة التبعية الأمريكية الثقيلة الوطأة ، فتحل بذلك شيئا من متناقضة العملاق الاقتصادي والقرم السياسى التى تعانى منها وتوصم بها . وبالفعل فلقد استغلت اليابان الوضع الجديد ، حيث سحبت أمريكا قواتها من جزر أوكيناوا وأعادتها إلى اليابان بعد أن ظلت قاعدتها العسكرية والبحرية والنووية الرئيسية في شرق آسيا .

كذلك فلعل الصين من جانبها رجحت باتجاه اليابان إلى التخفف من الارتباط السياسى العسكرى المفرط مع أمريكا ، لأنه في النهاية إنما محور موجه إليها وتهديد لها ، وإن لم تكن على استعداد في الوقت نفسه للقبول بفك ذلك الارتباط تماما ، حيث إن فيه على الأقل تقييدا ضمنيا لعودة العسكرية اليابانية التى تمثل خطرا تاريخيا وأبديا على الصين . ولهذا حاولت الصين استغلال رغبة اليابان العارمة في سوقها للعمل بدكاء على استدراجها بعيدا عن الولايات بقدر الامكان وعلى وجه العموم .

أما أمريكا فلا بأس لديها من تقارب يابانى - صينى يجذب الصين أكثر وأكثر بعيدا عن الاتحاد السوفيتى ويزيد الهوة بينها ، لكن أهم مايعنيها هو ألا يتم هذا التقارب على حسابها هي أو على حساب علاقاتها باليابان ، بحيث تصل إلى حد أن تستغنى الأخيرة عن حمايتها إذا ما أحست بزوال الخطر الصينى^(٢) . هذا أولا ، وثانيا ألا يصل التقارب

Edwin Reischauer, Japan, past & present, N.Y., 1965, p. 117 ff.

(١)

Zbigniew Brzezinski, "Japan's global engagement", Foreign affairs, Jan. 1972, p. 270-6.

(٢)

اليابانى - الصينى إلى حد التكتل أو المحور أو الجبهة الموحدة ضدها هى نفسها ، وإلا لكان هذا هو « الخطر الأصفر » بعينه . وفى الحالىن فواضح تماما أن المضاربة بين الصين واليابان هى محور اللعبة الأمريكية جميعا .

على أن اليابان ، كعملاق اقتصادى وقزم سياسى يفصل عمدا بين السياسة والاقتصاد ، أى باختصار « كحيوان اقتصادى » أساسا فى المرحلة الراهنة ، إنما يعنىها فى الصين سوقها الماردة فى الدرجة الأولى ، ومن هنا يبرز الخطر الأمريكى القادم والمنافسة الأمريكية فى تلك السوق . فثلا قبل الحرب العالمية الثانية كان ٤٠٪ من صادرات اليابان يذهب إلى السوق الصينية . وفى ١٩٧٠ كانت اليابان أيضا هى الدولة الأولى فى العالم فى تجارة الصين الخارجية . على أن المرجح أن خطر التنافس اليابانى الأمريكى على السوق الصينية مرجأ إلى المستقبل البعيد نسبيا ، حيث تكتفى الولايات المتحدة حاليا أو مرحليا بدور « عازف الكمان الثانى » تاركة لليابان دور العازف الأول كما وضعها البعض .

أما مع الاتحاد السوفيتى فلعل علاقة اليابان لاتقل تعقيدا وتضاربا - ومضاربة أيضا . فالتناقض الأيديولوجى معه لا يقل عنه مع الصين ، بينما يفوق الخطر السوفيتى الخطر الصينى أضعافا بحكم فارق القوة الهائلة ، مثلا تفوق الامكانيات السوفيتية الاقتصادية والمادية الامكانيات الصينية بمراحل بحكم فارق التقدم الشاسع . والخيار اليابانى ، إن كان ثمة خيار ، بين العملاقين الشيوعيين صعب شائك . على أن اليابان لعبت لعبة المضاربة بذكاء . فمن ناحية كان تقاربها مع الصين ضغطا ضمينا على الاتحاد السوفيتى يواجه نفوذه ويحيده إلى حدى ، ولعله على المدى الطويل أن يدفعه إلى إعادة جزر الكوريل الأربع السليبية . ومن الناحية الأخرى ففى وجه التقارب الأمريكى - الصينى افتعلت اليابان تقاربا مع الاتحاد السوفيتى كثقل مضاد وكضغط على الصين من أجل التقارب معها . ونقول افتعلت ، لأن اليابان بعد أن تحقق لها هدف التقارب مع الصين عادت فتباعدت عن الاتحاد السوفيتى إلى مواقعها الأصلية تقريبا كما أثبت باحث موضوعى مجيد^(١) .

على أن مشكلة اليابان الباقية سوف تظل دائما هى الجانب الاستراتيجى المتمثل فى وجود العملاقين الشيوعيين فى وجهها إلى جانب الوجود الأمريكى فى ظهرها . فبين

(١) محي الدين خطاب ، ص ١١٨ - ١٢٠ .

مظلة الحماية النووية الأمريكية من جهة والخطر النووى السوفيتى والصينى المزدوج من الجهة الأخرى ، ليس أمام اليابان التى تكاد تكون حالياً شبه مجردة من السلاح نسيباً . سوى أن تتجه إلى التسلح الكامل المطلق والتسلح النووى بالتحديد ، أو أن تتجه إلى الحياد المطلق .

ورغم أن الولايات المتحدة هى أصلاً التى تحثها الآن حثاً بل وتضغط عليها بشدة لترفع من نسبة إنفاقها على التسلح والاستعداد العسكرى ، ورغم أن اليابان تعارض الاندفاع نحو التسلح حيث حققت كل طفرتها الاقتصادية المذهلة بفضل استبعاد تكاليفه الباهظة غير المنتجة ، فإنها قد تجد نفسها فى المستقبل القريب أو البعيد مرغمة على التسلح الكامل دفاعاً عن نفسها إزاء الخطر المزدوج على القارة والاحتلال أو التهديد الأمريكى بالانسحاب العسكرى من قواعدها يوماً ما . وعندئذ ستجد نفسها مرة أخرى « واقعة بين مقعدين » .

ومن المؤكد أن اليابان ، القوة الوحيدة غير النووية بين كل الأقطاب ، قادرة تكنولوجياً على دخول النادى الذرى متى شاءت أو اتيح لها ذلك سياسياً ، كما أن من المحقق أنها بكل ثقلها الاقتصادى الغلاب ستأخذ مكانتها السياسية الكاملة إن آجلاً أو عاجلاً . ومع ذلك فسيكون هناك فارق زمنى كبير نسبياً بين اليابان وبقية أطراف السباق فى مجال القوة السياسية والعسكرية . ولهذا فلا ندية ، وبالتالي فلا منافسة ، حالاً أو مستقبلاً مع أى من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . ومن هنا ورغم التناقض الأيديولوجى الحاد وتلك الخلافات الإقليمية مع الاتحاد السوفيتى ، فإن احتمالات الصدام ضئيلة للغاية . كذلك فرغم التنافس الرأسمالى مع الولايات المتحدة ، خاصة على السوق الآسيوية حيث تهدد اليابان بوراثة الدور الأمريكى ، فإن صدام القوة غير وارد تماماً حتى كمجرد احتمال أو فرضية .

أما الخطر الحقيقى فهو مع الصين . فهما العدوتان التقليديتان فى القارة والمتنافسان الآسيويان الحقيقيان على الزعامة فيها . ولهذا فإن التناقض بينها الآن مثلث الأبعاد ، أيديولوجى وقومى وصراع قوى . ولا تخشى الصين اليوم كما تخشى انبعاث العسكرية اليابانية ، بمثل ما أن اليابان لا تخشى كما تخشى بروز الصين النووية وخروجها من العزلة إلى الصدارة العالمية .

وإذا كان البعض مثل هيرمان كان يتنبأ بأن القرن الحادى والعشرين سيكون قرن

اليابان ، فالغالب أن هذا قد يصح فقط اقتصاديا وإنتاجيا . أما ميزان القوة الاستراتيجية السياسية والعسكرية فالأرجح أنه معقود للصين في نهاية المطاف ، لأن عوامل الطبيعة والجغرافيا والموارد والسكان في صفها خارج كل مقارنة . نعم هي قد تلحق بالصين في المدى القصير بفضل سبقها التكنولوجي والصناعي الخارق ، وربما تسبقها كذلك في المدى المتوسط ، ولكنها ستتخلف غالبا في المدى البعيد . على أنه في تلك المراحل الأولى بالتحديد يكمن خطر الصدام . الذي قد تغذيه مضاربات توازن القوى من الخارج .

حرب نووية أم سلام عالمي ؟

حسنا ، لقد انتهت رحلتنا المفهمة المتعبة بعد أن طالت عبر الزمان والمكان وطافت حول العالم أجمع ، مطوفة من أعماق الماضي السحيقة إلى أطراف المستقبل الشاحبة . ولقد آن لنا بحق أن نتساءل في نهاية المطاف : ثم ماذا بعد ؟ مااحتمالات المستقبل ، وإلى أين يتجه العالم ، هذا الذي لايتعلم قط درس التاريخ فيما يبدو ؟ وأية نبوءة أو بصيرة يمكن أن تهديها إياه الجغرافيا ، أو أية توصية ولا نقول وصية يمكن أن يقدمها له الجغرافي ؟ أهى الحرب العالمية الثالثة أو النووية الأولى والأخيرة ، أم هو السلام العالمي أخيرا ؟ أهى نهاية العالم أم نهاية العداء ؟

متغيرات التكتل والأيديولوجية

لعل أبرز وأخطر ماثشى به المتغيرات السياسية المعاصرة ظاهرتان رئيسيتان هما أصلا وثيقتا الارتباط عضويا ولاانفصال لهما عمليا ، وفيهما على السواء يبدو واضحا دور الرعب النووى وعنصر الدولة - القوة البحث الكامن وتأكيد عودة عامل القومية والقيم البراجماتية والضرورات الواقعية ... الخ . هاتان في إيجاز هما تخلخل التكتل وتلطف الأيديولوجية .

فأما تخلخل التكتل ، ولعله تعبير وسط يجمع بين التفكك والتحلل أو التفتت والتآكل ، فظاهرة عالمية معدية وسارية لا تقتصر على الكتلتين المتناقضتين الغربية والشرقية فقط بل تتعداهما أيضا إلى تجمع عدم الانحياز في العالم الثالث نفسه ، وإن اختلفت درجات التخلخل هنا وهناك كثيرا أو قليلا بطبيعة الحال . بل ليس تحول العالم المتوقع من استقطاب ثنائى إلى استقطاب خماسى في المستقبل إلا تعبيرا مباشرا مثلما هو بليغ

عن ظاهرة تخلخل الكتل تلك ، فإنما ستولد تلك الخاسية من رحم الكتلتين الحاليتين وعلى حسابهما .

وعلى المستوى التفصيلي ، فإن الانشطار الشيوعي « النوى » أغنى ما يكون عن الذكر ولا يحتمل التأكيد أو التعليق ، كما أن من المستبعد كثيرا أن يعود إليه الالتئام كما يسعى أو يأمل البعض . غير أن العزق التدريجي داخل الكتلة الغربية لا يقل مغزى وإن قل أبعادا وأعماقا بالتأكيد . فالغرب سائر فيما يرى الكثيرون إلى تثنية نسبية أو انشطار خفيف على جانبي الأطلسي ، دون تناقض جذري بالطبع فضلا بالتأكيد عن أى صراع غير سلمى . أما العالم الثالث ، المفكك الأوصال أصلا ، فإن تيار عدم الانحياز واضح ضياحه وتشتته بما فيه الكفاية .

وفى الوقت نفسه فإن الفرقاء بدأوا بدرجات متفاوتة ولأسباب مختلفة يتقاربون بعض الشيء نسبيا ، بمعنى أن الأصدقاء السابقين أخذوا يتحفظون نوعا فى الصداقة المشوبة ، فما أخذ الأعداء السابقون يتحفظون أكثر فى العداوة المحمومة . من الحالة الأولى أوربا وأمريكا ، ومن الحالة الثانية على الترتيب أوربا والروسيا ثم أمريكا والروسيا ثم الصين والغرب وربما بعد ذلك الصين نفسها والروسيا . وبينما خفت أو خفت صيحات الحرب بين الجميع تقريبا ، اشتدت العلاقات والمعاملات السلمية ومبادلة التكنولوجيا بين أغلبهم . فى حين تسالت دعوات السلام بين البعض منهم ... الخ .

هذا عن تخلخل الكتل . أما تلطف الأيديولوجية ، وهذا أيضا تعبير يجمع بين التخفف من التطرف والميل نحو الاعتدال وبين التراجع والانحسار ، أو بين الشحوب والجميع وبين المرونة والتلاؤم ، فإن أحدا لا يشك اليوم فى أن الروح الصليبية المتعصبة والتصلب العقائدى الهيستيرى ، تلك التى وصلت يوما إلى الذروة ، قد تراجعت وتراخت وخفت أو حتى اختفت على كلا الجانبين على السواء ، كل أيضا بأحزابه وشيعه وفرقه وطوائفه . فحتى فى أعنى معازل الرجعية وأعلى قلاع الرأسمالية فى أمريكا ماتت ودفنت تقريبا دعوة الحرب الصليبية المقدسة على الشيوعية ، فى حين لم يعد أحد يدعو كثيرا فيما يبدو إلى الثورة العالمية الشيوعية حتى فى صين ماو أو ما بعد ماو .

تغيرات هيكلية ؟

أكثر من هذا فإن هناك من يرى - إن خطأ أو صوابا - فى بعض التطورات الاقتصادية والاجتماعية التى ترحف على كلا الجانبين ، كالأخذ بلون من التخطيط

والتدخل في الغرب الرأسمالى وإعادة الاعتبار لعوامل الريح والحافز للمادى في الشرق الشيوعى ، مؤشرات أولية نحو تغييرات هيكلية في النظم والأيدولوجيات المتناقضة ذاتها . وبصيغة أخرى ، فإن الرأسمالية الذكية تطعم نفسها بوعى أو عن غير وعى بعناصر أو جرعات اشتراكية ما ، والشيوعية الواقعية هى الأخرى تخفف نوعا عن عمد أو غير عمد من درجة تركيز محلولها الأيدولوجى أو من درجة حموضة المذهبية . وبصيغة أخيرة ، فإن الشرق بات يكتب أيدولوجيا من اليسار إلى اليمين ، والغرب من اليمين إلى اليسار ، وعند نقطة الوسط أو قرب نقطة ما في الوسط سيلتقيان .

ليس هذا فحسب . بل إن البعض ليتفائل حقا إلى حد تصور أنه تحت ضغط الرعب النووي وتحت تهديد انزلاق العنصر الأوربى في مجال القوة العالية ، سيرغم كل من القطبين المتنافرين على أن يخفف بالتدريج من تطرفه نحو اليمين أو اليسار حتى ، وإلى أن ، تلتقى الرأسمالية المطلقة والشيوعية الكاملة على أرض اشتراكية مشتركة . ومن هذا الالتقاء ينتهى البعض إلى تصور محور أوربى أبيض يستقطب العملاقين وينهى انقسام العالم إلى غرب وشرق ليبرز مكانه انقسامه إلى شمال وجنوب . ويعزز هذا التصور - الحالم - ما يحدث الآن داخل معسكرى الشرق والغرب ، وهو مانتقل إليه مباشرة .

فعلى الجانب الشرقى ، لا يملك الباحث الموضوعى إلا أن يلاحظ ، بدهشة نوعا ، أن الخلافات الأيدولوجية والمعارك الفكرية الرهيبة التى لا حصر لها داخل المعسكر وبين الرفاق ، وما يترتب عليها من صراعات دموية وغير دامية فرقتهم ومزقته فرقا وشيعا ، هى جميعا أو غالبا مرحلية عابرة في نهاية المطاف وأيا كانت الأسباب أو المبررات . بمعنى أن ماتفعله روسيا اليوم مثلا وترفضه الصين بشدة ويجزم بل وتقاومه بحملة حرب ، تفعله الصين نفسها غدا بلا حرج ولا تحفظ . كالاتجاه ، مثلا ، إلى التصالح مع أمريكا والتعايش مع الغرب والانفتاح على أوروبا وأمريكا ... الخ . كالتحول ، مثلا آخر ، إلى التكنولوجيا الحديثة كبديل عن القوة البشرية ... الخ . وما كان ، من ثم ، هرطقة وزندقة عقائدية بات اليوم مقبولا أو مسموحا به ، وخوراج الأمس عادوا رفقاء اليوم وربما رفاق الغد من جديد . إنها دورة ، دورة تطورية أيدولوجية سياسية كاملة أو تكاد ، يخضع لها ويقع على منحناها في مواقع متعاقبة كل الرفاق .

فيوجوسلاويا والتيتوية ، بكل ما تعنى من تسيير ذاتى وحافز الريح والملكية الصغيرة والاحتكاك الوثيق بالغرب ... الخ ، لم تعد انحرافا وخروجاً في نظر روسيا ولا إلحادا ومروفا في نظر الصين نفسها . وكذلك حال التجربة أو الابتعاد الرومانى إلى حد آخر .

وبعد أن كان الاتحاد السوفيتي - بعد الصين وحدها - هو العدو الأول ليوجوسلافيا
أيدولوجيا ، أصبحت الصين - بعد ألبانيا وحدها - هي عدوها الأول ، والآن لم يعد لها
من عدو سوى ألبانيا وحدها !

غير أن ألبانيا ، التي كانت العدو الأول «لأنحراف» الروس العقائدي نحو التعايش
السلمي ، فضلا بالطبع عن «أنحراف» يوجوسلافيا ورومانيا ، والتي كانت الصديق
الأوحد للصين داخل المعسكر في صراعها ضد الروس ، لم تلبث أن أصبحت العدو
الأول للصين بعد أن تحولت بدورها إلى التصالح مع أمريكا والتعايش والتعامل مع
الغرب كالروس من قبل . وكما كانت ، أو إذا كانت ، الصين هي التي تولت توجيه
الانتهاام إلى السوفيت بالأنحراف والتواطؤ مع الغرب الرأسمالي ، فإن ألبانيا هي التي تولت
فيما بعد توجيه الانتهاام نفسه إلى الصين ذاتها وبدورها .^(١) وهكذا في التصفية الأخيرة
أصبحت ألبانيا وحدها وبالتحديد مركز الرفض العقائدي الراديكالي اليوم داخل المعسكر
جميعا ، مركز التطرف والنقاوة الأيدولوجية المطلقة يعني ، أي بالتعريف والاستنتاج
معقل الشيوعية النقية الحقة ، آخر معاقلها بالطبع !

مفارقة مذهلة ومتناقضة فذة بقدر ما تبدو ساخرة . لكنها ، في الواقع ، إنما تضع
أيدينا على القانون الكامن خلف كل هذه التناقضات ، والميكانيزم الحاكم لهذه
التطورات أو التحورات . إذ يبدو أنها قاعدة أصولية عامة أن التطرف والتصلب
العقائدي الذي يصل إلى حد الجمود الفكري يتناسب تناسباً طردياً مع درجة التخلف
والفقر المادي والرجعية الأصلية ، وعكسياً مع درجة التطور والتقدم نحو الرخاء المادي
والفتح الحضاري العام .

فألبانيا ، الجبلية المنعزلة الفقيرة الرعوية القبلية التي كانت تعيش في العصور الوسطى
إلى ما قبل ثورتها ، ألبانيا هي بلاشك أشد دول أوروبا تخلفاً وفقراً ورجعية بصفة تقليدية ،
وهي بالتعويض وحده يقينا قمة التطرف الأيدولوجي داخل المعسكر وقمة الرفض
للسوفيت على رأسه . وعلى العكس تماماً ، الاتحاد بالطبع أصبح قمة تطور وتقدم
المعسكر الشيوعي كله مادياً وحضارياً وثراء وإنتاجاً ومستوى معيشة ، وبقدر هذا التطور

(١) أحمد فارس عبد النعم ، «أبعاد الخلاف الصيني الألباني» ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٨ ، ص

١٧٤ - ١٧٦ . خيري عزيز ، ص ١٣٢ - ١٣٩ .

خف تصلبه الفكرى وكان أسبق الرفاق إلى « التبرجز والارتداد أو الانحراف والمهرطقة » كما اتهم من قبل بعضهم ... الخ .

اليوروشيوعية

انتقل الآن إلى المعسكر الغربى ، مركزين عدستنا مؤقتا على ذلك القطاع أو العنصر المنتحى من الاشتراكية وحده وسط محيط الرأسمالية السائد . ولنلاحظ أولا أن هذا العنصر يقل وزنه ودوره بشدة وبسرعة كلما اتجهنا غربا حتى يصل إلى أدناه ولا نقول إلى نقطة التلاشى أو الصفرة فى الولايات المتحدة ، بينما يحقق ذورته فى أقصى الشرق فى فرنسا وإيطاليا حيث توجد تقليديا أقوى أحزاب شيوعية فى أوروبا الغربية منذ الحرب الثانية ، فضلا بالطبع عن الأحزاب الاشتراكية الأكثر قوة والتي تولت الحكم والسلطة مرارا بالمشاركة أو منفردة .

الآن ، عن هذه الجزر الاشتراكية المنعزلة الواقعة خارج المعسكر الاشتراكي الأب ، انبثقت وتولدت مؤخرا طبعة أو ترجمة أوربية غربية جديدة للشيوعية الأم هى الشيوعية الأوربية أو اليوروشيوعية كما تعرف أحيانا Euro-communism . والخط المحورى المعلن فى هذه الفلسفة الجديدة هو التراجع عن حتمية الثورة الدموية الوطنية أو العالمية وعن صراع الطبقات الاجتماعية ، والقبول بالحل السلمى للصراع الاجتماعى ، وتعدد المراكز فى العالم الشيوعى polycentrism ، ثم أخيرا الاتجاه إلى التعايش السلمى مع سائر الأنظمة الاجتماعية فى الشرق كانت أو فى الغرب . وسواء قبلت أم لم تقبل الشيوعية المركزية الأم بهذه الابتعاده ، التى تكاد فيما يلوح تفرغ العقيدة الأصلية من معظم مضمونها الراديكالى ، فإنها على ما يبدو قد جاءت لتبقى .

وهى بهذا ، أو بغيره ، تمثل مزيجا أو مزاجية أو حتى زواج مصلحة marriage de covenance^(١) بين راديكالية الشرق الاشتراكي وديموقراطية الغرب الرأسمالى ، وحلا وسطا بين الشيوعية الماركسية المتطرفة فى طرف واشتراكية الإصلاح والغاية والعمال والتأمين والمعاشات والخدمات وأشباهاها فى أمثال بريطانيا وسكندنافيا فى الطرف الآخر . ثم هى تمثل بالدرجة نفسها محاولة من جانب أوروبا الغربية للاستقلال أيدىولوجيا عن الشرق وبابويته أو أبوته الكرملينية أو عن مركزته ووصايته المسكوفية . ومن هذه

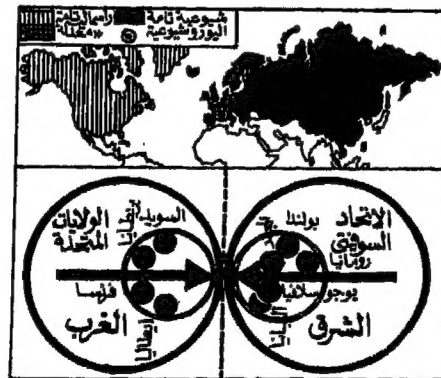
Anouar Abdel-Malek, Nation & revolution, p. 177.

(١)

الزاوية ، فإنها بلاشك تعد محاولة لإخضاع الشيوعية للقومية بدل الأهمية ، إذ من الصعب أن نعرف ما إذا كانت اليوروشيووعية أوربية أكثر أم شيوعية أكثر ، بمعنى هل فيها من الشيوعية أكثر أم أقل مما فيها من الأوربية ، ولا نقول هل هي شيوعية بالاسم فقط أوربية بالفعل أساسا ؟

أيا ما كان ، فلعل هذه البذرة أو البادرة الجنينية أن تشكل طلائع مرحلة انتقال بين التقيضين وترسى رأس جسر للعبور بين العالمين ، رأسه الآخر ترسخه التجارب الاشتراكية أو الشيوعية غير التقليدية على الجانب الآخر من النهر في يوجوسلافيا ورومانيا وأمثالها . وفي هذا السياق ، فلعل تجربة بولندا بنقابتها « تضامن » ، وإن أجهضت ، أن تعد محاولة تراجع ونكوص عن الشيوعية بصورتها الكاملة القائمة إلى اشتراكية مخففة « ممقرطة » .

وعلى أية حال فإن مجموع هذه الحالات والمحاولات يؤلف معا نطاقا انتقاليا بوضوح بين الأوربيتين ونظاميهما . ويفتح عملية تقارب نسبي من الغرب وديمقراطيته . والملاحظ ، بعد ، أن هذه التطورات إنما بدأت على التخوم الهامشية لكلا المعسكرين ، أى في نطاق الوسط المتجاور والمتلاصق بينهما . فلو استمر هذا التطور والتقارب بنجاح من الجانبين نحو حل وسط أو نمط أوسط ، ثم توسع بالتدريج وتعمق في كلا الاتجاهين شرقا وغربا إلى أن يصل إلى النواتين النوويتين في أقصى الطرفين ، فلربما كان هذا هو « الحل التاريخي الوسط historic compromise » المقول أو المقبول بين النظامين .



شكل (٣٨) خريطة الايديولوجيا المعاصرة في نصف العالم الشمالي . لاحظ منطقة الانتقال في شرق وغرب أوروبا . هل تصبح أوروبا هي جسر التقارب في المستقبل بين الغرب والشرق ؟

وعلى أية حال فإن الملاحظ حاليا أن التوزيع الجغرافي للأيديولوجيات في نصف الكرة الشمالى يبدى قدرا من التدرج النسبى ما بين قطبيه النقيضين في أقصى الشرق وأقصى الغرب ، أى بين الشيوعية الكاملة في الأول والرأسمالية الكاملة في الثانى . نبعد الشيوعية الكاملة في أقصى الشرق في الاتحاد السوفيتى (ومن قبله موقعا في الصين) ، تأتى الشيوعية غير التقليدية في أجزاء من شرق أوروبا (رومانيا ويوجوسلافيا) ، فالبروشيوية البازغة في دول من غرب أوروبا وسط محيط تحتل فيه الرأسمالية وتتطعم بألوان من اشتراكية الإصلاح والعمال والخدمات الاجتماعية خاصة في سكندينايفيا وبريطانيا ، وبعدها فقط نصل إلى الرأسمالية الكاملة غير المنقوصة في الولايات المتحدة نفسها . تلك هى خريطة الأيديولوجيا الجغرافية أو جغرافية الأيديولوجيات (ideogeography) الإيديوغرافيا أو geo-ideology الجيودبولوجيا كما قد نسميها) .

الحل الوسط التاريخى ؟

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الشرق والاتحاد هو قطب وقمة الأيديولوجيا ، بينما أن الغرب وأمريكا هو قطب وقمة التكنولوجيا ، وأوروبا الغربية هى الوسط الذى يأخذ بينهما من كلا العنصرين الأيديولوجيا والتكنولوجيا بطرف وينسبة أو بأخرى ، لتأكدت لنا الخطة برمتها كجزء من عملية تقارب تاريخى تدريجى وثيد للغاية بين طرفى النقيض ، قد تنتهى على المدى البعيد إلى مايتصوره ويتنبأ به أو يتمناه البعض من أرض مشتركة يندغم فيها الجميع في نظام أيديولوجى واحد تقريبا هو وسط بين الشيوعية الفاقعة والرأسمالية الكالحة ، لعله أن يكون الاشتراكية المعتدلة أو المعدلة أو العادلة أو العادية (؟) ... ولو تحقق هذا أو شئ منه عاجلا أو آجلا ، فإن أوروبا ، وأوروبا الغربية خاصة ، المرشحة حاليا لأن تكون ميدان المعركة وأرض الصدام في أى حرب عالمية قادمة ، قد تصبح على العكس أرض التقارب وميدان الانصهار والتصاهر بين الفرقاء والأضداد . ومثل هذا لن يكون بالأمر الغريب تماما ، حيث كانت أوروبا الحديثة هى مهد كل التجديدات والمذاهب السياسية والاجتماعية الجديدة وموطن كل التخمرات والتفجرات والتجارب المذهبية سواء السلمية أو العنيفة ، سواء المعتدلة أو المتطرفة .

وإذا كانت نبوة لينين عن أوروبا الغربية كالموطن المرجح للثورة الشيوعية الدامية قد أثبتت عدم صحتها ، فلعل هذه بالمقابل أو كبديل أن تصبح موطننا للثورة الاشتراكية الهادئة المعتدلة المتدرجة . فإن صح هذا أو حدث - من يدرى ؟ - فلعله بدوره أن يكون دور أوروبا الذى احتفظ لها به التاريخ للقرن القادم أو للقرن الحادى والعشرين ، وهى

التي باتت تبحث لنفسها عن دور جديد بعد أن فقدت دورها القديم أو التقليدي الذي بلغ ذروته في القرن الماضي أو حتى منتصف القرن الحالي .

وعدا هذا على أية حال ، أفلا تلتخص قصة الصراع بين العملاقين والمعسكرين في التحليل الأخير في أنها بدأت صراعا أيديولوجيا أي بين الاشتراكية والرأسمالية ، فتحوّلت في ظل وتحت ضغط العصر النووي إلى صراع بين الأيديولوجيا والتكنولوجيا أي على الترتيب بين المذاهب السياسية والأسلحة النووية ، فانتته أخيرا بتغلب الأخيرة على الأولى بحشية الانتحار النووي المتبادل ؟ وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن التكنولوجيا (التكنولوجيا النووية) قد أثبتت أنها أقوى عمليا من الأيديولوجيا (الأيديولوجيا المذهبية) ، فأرغمتها أو هي سترغمها على التقارب والاتجاه نحو الحل الوسط التاريخي .

ثم أخيرا وليس آخرا ، فلعل الدعوات السلامية التي انتشرت مؤخرا بين الفرقاء ، والآراء المطروحة أحيانا عن الحل المتبادل والمتزامن للحلئ الأطلنطى ووارسو ، بالإضافة إلى ما يتنبأ به البعض من غزو مبدأ عدم الانحياز لأوربا الغربية ثم من سيادته عالميا « كذا » ، لعل هذه التطورات وأمثالها أن تكون مؤشرات في الاتجاه نفسه (٢) .

وبعد ، فلقد يكون هذا التصور كله رجاء بالغيب أو من قبيل أحلام التعويض وأفكار العنى والأمانى الطيبة الطوباوية التي تنفصل أكثر مما ينبغى عن الواقع المشبط ، وقد يسخر منها المستقبل بلارحمة . وما من شك أن التنبؤ السياسى بالمستقبل ليس فقط أمرا بالغ الصعوبة والعسر ، ولكنه قبل ذلك أمر خطر محفوف بالزائق العلمية والشكوك . كذلك فليس فى العلم بطبيعة الحال مكان للتفاؤل أو التشاؤم ، ولكن إن كان ولا بد فليس من مصلحة أحد أن يرجح إحدى الكفتين على الأخرى . ولعل هذا هو الموقف الموضوعى ، حتى علميا ، وهو لذلك الذى يمكن أن يكون بوصلة المستقبل .

فصحيح أن الدرس الذى يعلمه لنا تاريخ الصراعات البشرية والسياسية هو أن أعداء الأمس هم أصدقاء الغد ، وأن أصدقاء اليوم قد يصبحون أعداء الغد ، وأن التشكيلات السياسية فى العالم نمط متغير أبدا بالتدرج أو بالطرفة ، غير أن من الصحيح أيضا أن الدرس الأكبر والذى لا ينبغى قط أن ننساه هو أنه ليس هناك ما يمنع فى نهاية المطاف من أن يكون كل أعداء الأمس أصدقاء الغد جميعا ، وأن يصبح التشكيل السياسى الوحيد فى العالم كله هو استراتيجية السلام لا الصراع وحلف البشرية لا حلف الفضول . دعنا - على أية حال - نأمل ، ولنتنظر لنرى ...

مطابع الشروق

بئرووت : ص. ب. ٨٠٦٤ - هاتف: ٧٦٨٨٩ - ٧٦٩١٠١ - بئروت - تلکون: SHOROK 20175 LE
القاهره : ١٦ شارع جوهري - هاتف: ٧٧١٨١٤ - ٧٧٤٧٨ - بئروت - تلکون: SHOROK UN 83061